المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب

نقد الحضارة الغربية

(الرومان بين القرنين الخامس والأول ق.م)

الجزء التاسع

مجموعة باحثين

العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

نقد الحضارة الغربيّة (٩)

(الرومان بين القرنين الخامس والأوّل ق.م)

الإخراج الفنّي

سيد علي مير حسين

الناشر

العتبة العباسيّة المقدّسة / المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجيّة

الطبعة: الأولى ٢٠٢٢م/ ١٤٤٣هـ

(إنّ جميع الأبحاث الواردة في هذا الكتاب محكّمة من قبل لجنة علميّة)

نقد الحضارة الغربيّة (٩)

(الرومان بين القرنين الخامس والأوّل ق.م)

مجموعة باحثين

هويّة الكتاب

نقد الحضارة الغربية (٩)

(الرومان بين القرنين الخامس والأوّل ق.م)

إشراف

السيِّد هاشم الميلاني

رئيس التحرير

الشيخ حسن الهادي

مدير التحرير العلمي

د. محمد مرتضى

الهيئة العلميّة

* أ.د. طالب عمران (سوريا)
* أ.د. إسماعيل مهنانا (الجزائر)
* أ.د. يوسف طباجة (لبنان)
* أ.د. عادل الوشاني (تونس)
* أ.م.د. الشيخ حميد بارسانيا (إيران)
* أ.د. رشيد العلوي (المغرب)

المشاركون في هذا الجزء

* محمد الزين
* رفاه محمد تحسين الدباغ
* معمّر نواف الهوارنة
* عبد الله السليمان
* محمد مرتضى
* عمار محمد النهار
* محمد يوسف السليمان
* أحمد محسن الخضر
* ناديا محمد زهير الغزولي

فهرس المحتويات

- مقدِّمة ٩

- مدخل ١١

- الكتابة والتدوين عند الرومان حتى القرن الأول قبل الميلاد

محمد الزين ٢٣

- الديانة الرومانيّة

رفاه محمد تحسين البوشي الدباغ..... ٦٧

- التربية والتعليم عند الرومان

معمّر نواف الهوارنة ٩٣

- المؤسّسة العسكرية الرومانية؛ من التأسيس حتى نهاية العصر الجمهوري

عبد الله السليمان..... ١١٩

- روما؛ شخصياتها وحروبها

محمد مرتضى ١٧٣

- الدستور الروماني

عمّار محمد النهار ٣٣١

- القانون عند الرومان

محمد يوسف السليمان ٣٨٣

فهرس المحتويات

- السياسة والأخلاق عند الرومان خلال العصر الجمهوري

عبد الله السليمان ٤٢٣

- العبيد وثوراتهم في العصر الروماني؛ سبارتاكوس أنموذجًا

محمد مرتضى ٤٧١

- الفلسفة السياسيّة في العصور الرومانيّة المبكرة

خنجر حميّة..... ٤٩١

- الحضارة الإتروسكيّة

أحمد محسن الخضر ٥٦٣

- القبائل الجرمانيّة وهجرة الأمم

ناديا محمد زهير الغزولي ٦٠٧

- دور شعب (الكلت) في تاريخ أوروبا حتى القرن الأول ق.م

الدكتور حسام غازي..... ٦٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

نقد الحضارة الغربية. الجزء السابع : تاريخ الاغريق بين القرنين الخامس والاول ق.م / تأليف مجموعة باحثين.-الطبعة الأولى.-النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، 1443 هـ. = 2022.
مجلد : ايضاحيات ؛ 24 سم.-(المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.
ردمك : 9789922625560
1. الاغريق--تاريخ--القرن 5-1 قبل الميلاد. أ. العنوان.

LCC : DF221.2 .N37 2022
DDC : 938
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة اثناء النشر

لقد بات واضحاً للقرّاء الأعزّاء، أهداف هذا المشروع والمعيار في تقسيمه إلى مراحل؛ إذ بدأنا من المرحلة الأولى التي غطّت الإغريق قبل القرن التاسع قبل الميلاد (صدرت في جزأين؛ ١ و٢)، ثم أتبعناها بالمرحلة الثانية التي عملنا فيها على الإغريق بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد (الأجزاء ٣، ٤، ٥)، وها نحن اليوم نقدّم المرحلة الثالثة، والتي تغطّي معظم ما عُرف لاحقًا بأوروبا بين القرنين الخامس والأوّل قبل الميلاد (في أجزاء أربعة: ٦، ٧، ٨، ٩).

ولقد خصّصنا الجزء السادس لمباحث تكميليّة ترتبط بالإغريق، ثم أتممنا هذا الجزء ببعض المباحث الفلسفيّة المتفرّقة؛ كالفلسفة الماقبل سقراطيّة، وسقراط، والفلسفات الرواقيّة والأبيقوريّة، إضافة إلى ما عُرف بالمدارس السقراطيّة الصغرى؛ وجعلنا الجزء السابع جزءاً خاصًّا بأفلاطون، فيما اختصّ الجزء الثامن بأرسطو، لنختم المرحلة بالجزء التاسع الذي سلّطنا فيه الضوء على صعود روما في عصريها، الملكي والجمهوري؛ وأضفنا إليها بعض الأبحاث المرتبطة بالشعوب التي احتكّت معها روما؛ كالقبائل الجرمانيّة، وشعب «الكلت».

والحقيقة، أنّنا فكّرنا مليًّا في تحديد الفترة الزمنيّة التي ينبغي أن تغطّيها هذه المرحلة الثالثة؛ ولئن كنّا غير متردّدين في جعل بدايتها القرن الخامس قبل الميلاد، انطلاقًا من حيث انتهينا في المرحلة الثانية، إلّا أنّ تحديد نهايتها كان موضع نقاش؛ لكن الرأي استقرّ على جعل النهاية هي القرن الأوّل قبل الميلاد، وتحديداً عام ٢٧ق.م، كون هذا التاريخ مثّل انطلاق مرحلةٍ جديدةٍ في طبيعة الحكم الروماني الذي سيهيمن على الغرب لفتراتٍ طويلةٍ، ونعني به تحوّل روما إلى إمبراطورية.

يبقى أن نشير إلى قضيّة فنيّة، وهي ترتبط بضم أبحاث فلسفيّة إلى الجزء السادس، والذي يتعلّق بإكمال بعض المباحث المرتبطة بتاريخ الإغريق. والواقع أنّ السبب في ذلك يتعلّق برغبتنا في جعل الأبحاث المتعلّقة بكلٍّ من أفلاطون وأرسطو في جزأين مستقلّين، فآثرنا جعل الأبحاث الفلسفيّة المتبقّية في الجزء السادس بدل الجزء التاسع، باعتبار أنّ هذه الأبحاث وموضوعاتها أكثر التصاقًا بالفكر الإغريقي منه بالفكر الروماني.

وأخيراً، لا ننسى أن نقدّم جزيل الشّكر لكلّ الباحثين الذين ساهموا في إنجاز هذه المرحلة، إذ لولاهم لما أبصرت هذه السلسلة النور، والتي تلقى صدًى واسعاً وطيّباً في الأوساط العلميّة. والشكر الأول والأخير لله سبحانه وتعالى الذي يرعى هذا المشروع بعينه التي لا تنام. والحمد لله رب العالمين.

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة

مدخل

تمثّل المرحلة الثالثة من هذا المشروع، مرحلة التغيّرات الكبرى في المشهد العام للعالم الغربي، حيث التحولات في مركز القرار السياسي والعسكري أولاً، ثم في الانهمامات الفكريّة تالياً.

وما يميّز هذه المرحلة أنّها شهدت صعود الإمبراطوريّة المقدونيّة بعد الغزوات الواسعة التي شنّها الإسكندر الأكبر، والتي ما لبثت أن تفكّكت بعد موته، وتقاسم قادة جيشه للتركة الكبيرة التي خلّفها وراءه؛ ثم بعد ذلك في صعود روما وتوسّعها.

وعلى أيّ حال، فإنّ أبحاث هذه المرحلة ستُظهر كم كان «ليفي ستراوس» مصيباً في فكرته التي عرضها في كتابه «العرق والتاريخ»، في كون ممارسات الإقصاء التي مارسها الغرب، ترتقي إلى زمن بعيد في الثقافة الغربيّة، عندما كانت العصور القديمة تخلط كلّ ما لا يشترك مع الثقافة اليونانيّة (ومن بعد الثقافة اليونانيّة الرومانيّة) تحت اسم البربري، لتستعمل «الحضارة الغربية»، فيما بعد، تعبير متوحّش في المعنى ذاته.

***

حُكمت مقدونية من قبل السلالة الأرغية، التي يرقى أقدم تاريخ موثّق لحكمها لنحو عام ٥٤٠ق.م، واستمرت بشكل فعليّ حتى وفاة الإسكندر الثالث، وقد بلغت ذروة قوّتها في عهدي فيليب الثاني والإسكندر الثالث، حيث استطاع الأوّل فرض السيادة المقدونيّة على بلاد اليونان، ومهّد من خلال حملة استطلاعيّة لغزو الشرق، ولكنّه توفي قبل تحقيق ذلك، وخلفه الإسكندر الثالث، الذي قام بدوره بتعزيز السيادة المقدونيّة على بلاد اليونان قبل أن يتوجّه لغزو الشرق ويُهيمن عليه.

لكن ثمة أسئلة مهمّة تعتري الباحث في حياة الإسكندر وغزواته العسكريّة، ترتبط بالعوامل التي ساعدت على فرض تلك السيادة. وهل كانت تلك السيادة تشمل جميع الجوانب؟ أم إنّها كانت سياسيّة وعسكريّة واقتصاديّة؟ ولماذا لم يستطع المقدونيون عبر

تاريخهم إنتاج ثقافةٍ تمكّنهم من فرض سيادةٍ ثقافيّةٍ على مناطق سيطرتهم؟ إذ بقيت الثقافة الإغريقيّة هي المهيمنة على مقدونية حتى في أوج قوّتها.

وماذا عن الدين؟ فهل كان له دورٌ بارزٌ في مجريات الأحداث، لا سيما وأنّ المكتشفات الأثريّة تُشير إلى تغلغل الديانات السريّة اليونانيّة في مقدونية؟! أضف إلى ذلك، أنّ سلوك الإسكندر كان مثيراً للاستغراب، فقد كان يتقرّب لآلهة البلدان التي يحتلّها، كما حصل في مصر، بل وفي بابل أيضاً، ما يفرض السؤال التالي: هل كان تقرّبه من آلهة هؤلاء سعيًا من الإسكندر لكسب مودّة شعوب تلك المناطق؟ أم كان يعتبر أنّ تلك التماثيل هي آلهة بالفعل وتمثّل امتدادًا -بصورة أو بأخرى- لآلهة الإغريق والمقدونيين؟ أم إنّه كان يسعى لترسيخ فكرة أنّه من سلالة الآلهة لإضفاء طابع الألوهيّة على نفسه تشبّهاً بهرقل مثاله الأعلى؟

وماذا عمّا أشارت إليه بعض المصادر من أنّ الإسكندر كان يوبّخ قادة جيشه عندما كانوا ينظرون إلى بابل نظرة استعلاء واحتقار، وأنّه حمل عليهم وعلى أرسطو في وصف هؤلاء بالبرابرة، فيما أنّهم يملكون حضارةً تفوق حضارة الإغريق وتسبقهم في التقدّم بقرون عديدة؟! ما يثير السؤال التالي: هل كانت توبيخات الإسكندر تلك حقيقيّة في التاريخ؟ وعلى فرض صحّتها هل كانت تنطلق من قناعة راسخة عنده، أم هي مجرّد تصريحاتٍ إعلاميّةٍ يُراد منها عدم استفزاز تلك الشعوب من خلال احتقارها واحتقار تاريخها؟ وعلى فرض صحّتها وقناعة الإسكندر بها، فهل وقع الإسكندر تحت تأثير الهيمنة الفكريّة والمعنويّة لتلك الحضارات، فبات المُحتلّ أسيراً؟

ومهما يكن من أمر، فإنّ البحث المعمّق يُظهر أنّ المقدونيين وإن استطاعوا فرض سيادتهم على بلاد اليونان، ولكن تلك السيادة كانت سيادةً عسكريّةً وسياسيّةً واقتصاديّةً، في مقابل بقاء الهيمنة الثقافيّة الإغريقيّة على مقدونية.

***

لقد غلب على العصر الهللينستي الفوضى والاضطرابات السياسيّة والاجتماعيّة، وسيادة الأفكار المنحرفة الهدّامة التي ملأت النفوس بالقلق والتوتّر، حيث أخذ الناس يبحثون عن الطمأنينة والهدوء. لكن المفارقة كانت في التوجّه بهذه المهمّة نحو مذاهب من أمثال الأبيقوريّة من خلال مذهبها الأخلاقي، والتي رأت أنّ السعادة الإيجابيّة فوق قدرة البشر،

وقالت بطمأنينة نفسيّة سلبيّة تتمثّل في الخلوّ من الآلام والمتاعب والتحرّر من المخاوف وحالات القلق والهم، والتمتّع بكافة اللذات الممكنة. ومن ثمَّ جعل الأبيقوريون من اللذة الحسيّة الخير الأسمى وغايةً للحياة ومعياراً للقيم. لقد رفض هؤلاء الدين والعلم بادّعاء أنّهما يجلبان الهمّ والغمّ والخوف والقلق والتوتّر، وذلك على خلاف الرؤى، وعلى خلاف الفطرة السليمة، التي تسود قديمًا وحديثًا وترى في الدين مصدر عزاء وخلاص، وفي العلم سببًا للتقدّم والرفاهيّة. لقد وقع الأبيقوريون في مقتل عندما حصروا اهتمامهم بما هو باطنيّ واستخفّوا بالظروف الخارجيّة، ما جعلهم ينسحبون من كافة الأنشطة الحياتيّة انسحابًا يقضي على طموح الإنسان ويسلبه الحيويّة التي لا تستقيم بغيرها حياة. كما عبَّرت الأخلاق الأبيقوريّة عن نزعة نفعيّة واضحة، فلم تنشد الأبيقوريّة الفضيلة لذاتها، وإنَّما للنفع والفائدة التي تعود من ورائها، فأباحت الظّلم وعصيان القوانين متى حقّق هذا الأمر منفعةً، وتم قصر الأخلاقيّة على الفائدة الدنيويّة وعدم ربطها بثواب أخروي، فلا حياة أخرويّة ولا معاد فيها.

***

فلسفياً، تعدّ مرحلة الجدل السفسطائيّ السقراطيّ نقطة تحوّل، حيث كان التفكير الفلسفيّ متمركزاً حول نطاق الطبيعة، خصوصًا حول أصل العالم وطبيعته ومآله. ورغم أنّ الإنسان كان دائمًا هو الأصل في كلّ مراحل الحراك والنشاط النبوي، فقد كان الإنسان مهمّشًا مع الفلاسفة الطبيعيين؛ لكن التحوّل الذي حصل بدأ مع الحركة السفسطائيّة، التي حوّلت الإنسان إلى مصدر القول أو الخطاب، ومعياريّة الحقيقة إن وُجدت، فجاء مشروع سقراط الفلسفي مهتمًّا هو الآخر بالإنسان. لكن يختلفان في مسألة الحقيقة، فالسفسطائيّة أعطت مركزيّةً للعبارة أي للدال، ما يعني أنّ الحقيقة مهمّشةٌ وتابعةٌ، في حين سقراط أعطى المركزيّة للحقيقة بوصفها كيانًا كليًّا موجودًا في الخارج، وكذلك داخل فطرة الإنسان.

ورغم اختلافهما، فهما معًا قد حوّلا المركزيّة إلى الإنسان، لكن المشكلة دائمًا في الفلسفات المتمركزة حول الإنسان تتمثّل في مصدر هذه المركزيّة، ما من شأنه أن يقع فكر التمركز حول الإنسان في مفارقة المركز وتفكيكه في الآن نفسه، فعندما نتمركز حول الذات سنتساءل عن منح الإنسان المركز؟ وهنا قد نجد إجابتين، هما: إمّا الإله، أو الطبيعة. وهكذا سنتحوّل إلى مركزيّة الإله أو الطبيعة، ما سيجعل هيومانيّة سقراط والسفسطائيّة محلّ نقد.

إنّ أهمّ ما يمكن مقاربته في فلسفة سقراط، هو ما يُمكن وسمه بـ«منهج السؤال عند سقراط» في ضوء ما وصل إلينا عن الفلسفة السقراطيّة من منقولات تلامذته ومريديه المؤيّدين، لا سيّما أفلاطون وأنتستينس، وعن خصومه ونقّاده سيّما شاعر الكوميديا الساخرة أرستوفانس.

إنّ مقاربة سقراط، تستهدف مقابلة أسلوب تفلسفه ومقارنته مع من يوصفون بأنّهم خصومه المفترقين عنه من الفلاسفة السفسطائيين، لإظهار حدود هذا الافتراق وأسبابه ومحصوله، وذلك في سبيل مقاربة ورسم صورة مختلفة عن تلك الشائعة عن سقراط ومنهجه، مقاربة تكون أقرب إلى الواقعيّة والموضوعية منها إلى المديح والتكرار، فنتساءل حقيقة عمّا استقرّ في الأذهان عن صورة لسقراط خطّها ذراع أفلاطون وأسطرها حُسن بيانه وشيوع فلسفته.

من هنا، نجد مشروعيّة السؤال حول الحدّ الذي يسمح لنا بوصف سقراط بأنّه كان فيلسوفاً للاختلاف عن دارج أفكار زمانه وثقافة مدينته؟ ولماذا؟ وهل كان حقًّا رجل الحقيقة والمُنافح عنها في زمن تسفيهها وتحويلها سبيلاً للعيش والترزّق؟ وهل لدى سقراط، ما يستحقّ أن يوصف بـ«منهج في السؤال»، وما درج عليه الباحثون من توصيف منهجه وأنّه يعتمد على التهكّم والتوليد؟ أم كان السّؤال إجراءً ووسيلةً لغاية اقتضتها ضرورات وشقاقات السياسة بين المواطنين والفلاسفة والخطباء في أثينا؟ وأخيراً: هل حقّق سقراط، بأسلوب تفلسفه، مقصود منهجه في بلوغ ثبات المفاهيم وبراء الحقيقة؟ أم إنّه أخفق في بلوغ الهدف الذي جعله مرامَ فلسفته؟

***

وفي السياق نفسه، ما زالَ أفلاطون يثيرُ الجَدل الفكريّ، ويستدعي التّأمل والمراجعة النقديّة فيما أعطاه من أفكارٍ وطروحات فلسفيّة وسياسيّة، حولَ كثيرٍ من القضايا والمفاهيم التي تمسُّ أصل الوجود البشري على هذه البسيطة.

لقد سعت أبحاث هذه المرحلة الى إعطاء صورةٍ إجماليّةٍ، بنظرةٍ نقديّةٍ، حول ما قدّمه لنا أفلاطون في مجال نظريّة المعرفة، والإلهيات، والسياسة، وفلسفة بناء الدولة. وقد كان للفلسفة السياسية في فكر أفلاطون حصّةٌ لا بأس بها؛ لأنّها كانت الهاجس الرئيس لأفلاطون، رغم كلّ حضوره الفلسفيّ في مجالات أخرى، تأثّراً بما وقع على أستاذه، سقراط، من ظلم، اعتبر أنّ سببه الأساس هو النظام السياسي القائم. بل إنّنا لا نبتعد عمّن قال إنّ السياسة كانت السبب

الرئيس، أو أحد أسباب دخول أفلاطون لعالم الفلسفة. على أنّ تناول الفلسفة السياسيّة عند أفلاطون لا يستقيم دون مقاربة مفهوم العدالة والأخلاق، وأنواع الحكومات وأنظمة الحكم، وأُسس قيام الدولة، وكذلك مقاربة قضايا المجتمع والشعب كهيكل قوي وضخم، يتقوّم بالفرد-المواطن، وضرورة تربيته على الأخلاق والعدالة ليكون صورةً مصغّرةً عن الدولة المثاليّة المنشودة، وهذا يحتم البحث في الطبقات الاجتماعيّة، وتأثيرها على السّياسة.

من الواضح أنّ فلسفة التفكير السياسي عند أفلاطون تستند على مرجعيّته الأخلاقيّة المثاليّة (نظرية المثل والاستذكار) والتي شكّلت خلفيّة ذهنيّة وعمليّة محرّكة عنده، بقيت حاضرةً في تفكيره وسلوكه ونتاجاته وأعماله حتى آخر لحظة في حياته الاجتماعيّة والسياسيّة، فأيّ نقدٍ أو مراجعة فكريّة لأفلاطون، ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار المعطى المعرفيّ السابق الذي كان جوهرَ فكره ومحور رؤيته الفلسفيّة والوجوديّة، رغم كلّ الهنات والعثرات التي اعترت نظريّته في المثل، أهمّها أنّها كانت غير قابلةٍ للإثبات، أو على الأقل، لم يقدّم لنا أفلاطون الأدلّة عليها.

لا يمكن الإنكار أنّ محاولات أفلاطون كانت جادّةً في بناء منظومةٍ سياسيّةٍ متكاملة، وتقديم صورةٍ معياريّةٍ لدولة سياسيّة مثاليّة، تنتهي بالمجتمع المثالي والمدينة الفاضلة القائمة على العدالة والأخلاق -التي اعتبرها أهم المداخل وتمثُل رؤيته السياسيّة- إلّا أنّه يمكن ملاحظة التناقض والمغالاة في بعض آرائه وطروحاته السياسيّة والأخلاقيّة، لا سيما ما يتعلّق منها ببناء الفرد وتربيته على معايير تربويّة وأخلاقيّة وعمليّة، وهي تتناقض مع فطرة الفرد وجوهر وجوده؛ فمن جهةٍ، رفضَ أفلاطون المادّة وطالبَ بقمع الشهوات والقوى الغرائزيّة والغضبيّة، واعتبرها مصدراً لكلّ شر، ومانعاً لوصول هذا الفرد إلى المعرفة الكاملة، متجاهلاً أنّ الإنسان لا يكون فاعلاً ومنتجاً إلا بتوازن المادة والروح فيه، ومن جهة أخرى نجده يصطفّ مع الداعين إلى إباحة الاتّصال الجنسيّ والمثليّة الجنسيّة أو طقوس الزواج المنصوص عليها أساساً في أخلاقيّة الدولة الأفلاطونيّة والقائمة على زواج الشيوع أو زواج المشاركة، والتي يبدو أنّه عدل عنها في أواخر حياته.!!.

مهما يكن من أمر، فإنّ القارئ لأفلاطون يلحظ جيّداً القواعد الصارمة والممنهجة التي يتّبعها لتحقيق الغاية التي يرجوها منها، والتي تعدّ مخالفة للقواعد التي يرسمها في الوقت نفسه، وهو ما قد يصيب القارئ بخيبة أمل.

إنّ هذا النّمط من التناقض يغلّف أغلب فلسفة أفلاطون، ولا سيما ما يتعلّق بالتربية والتعليم، بوساطة المراحل التي يقترحها لكلّ فئة من فئات المجتمع على حده، وبوسائل للتعليم التي يمكننا أن نقف عليها في محاوراته، والأهداف المثاليّة التي يرجوها منهما. وهو ما أثَر سلباً على الصعيد الفردي، والاجتماعي، وأدّى إلى شرخ واضح في نظامه التربوي بين النظريّة والتطبيق، وجعل منه شخصاً انتقائياً وديكتاتورياً تقوم أفكاره على مبادئ تحسين النسل، وعلى إعلاء الفعل العقليّ على الفعل العملي، وعلى أهميّة اتّباع القوانين والتمسّك بالمجتمعات أكثر من الاهتمام بإعداد الفرد من أجل الوصول إلى مثال الإنسان، ومن ثم من أجل تنظيم المدينة والإنسانيّة.

في مباحث الإلهيات، اهتم أفلاطون بمبحث الألوهيّة اهتمامًا فائقًا، وأفرد له مساحات كبيرة في محاوراته، وحرص على وصف الإله بصفات نزهته عمّا كان سائدًا في الدّيانة الشعبيّة اليونانيّة من تجسيد وتشبيه، حيث أصبح صورةً خالصةً من المادة أو من عالم الظن، وكان هذا نتيجة تأثّر أفلاطون بما وصلت إليه الأمم المتحضّرة المحيطة ببلاد اليونان حينذاك فيما يخص مبحث الألوهيّة، واستفادته من الصفات الإلهيّة التي وصف بها حكماء الشّرق القديم آلهتهم، فقال بالإله الموجود الكامل الخيّر المعتني بالكون، فهو جميل، وحكيم، وعالم، وجامع لكلّ المحامد. لكنَّ أفلاطون مع ذلك لم يستطع التخلّص مما ورثه من أساطير كانت سائدةً في الدّيانة الشعبيّة اليونانيّة، فقال بالإله الصانع لا الخالق، وذهب إلى القول بتعدّد الآلهة وليس الإله الواحد، وأنَّ الإله لا يصدر عنه الشّر ولا يستطيع أن يمنعه بشكل تام فهو فوق مقدرته، وقال بعجز الإله التام أمام فكرتي القدر والضرورة.

ولم يبتعد أفلاطون عن الاهتمام باللغة، فإنّنا نجد بسهولة إرهاصات مباحث لغويّة، تحوّلت في العصر الحديث، إلى مذاهب شتّى في اللسانيات وفلسفة اللغة. من هنا، فإنّ هذه الأبحاث لم تغفل عن مقاربة مسألة اللغة عند أفلاطون، وتبيان رأيه في نشأتها وقدرتها على تأدية وظائفها بوصفها وسيلةً للتواصل والمعرفة. ورغم أنّ إحدى السمات الأساسيّة للإنسان هي أنَّه كائن لغويّ، إلاّ أنّ أفلاطون يستبعد الإجماع والاتّفاق على عمليّة وضع الأسماء، ويُرجعها إلى نظريّة المحاكاة التي ترى أنّ الأحرف والأسماء تحاكي الطبيعة الجوهريّة للأشياء، لذلك يردّ كلّ الكلمات الفَرعيّة (الثانوية) إلى الأصْل-الأسماء الأوّلية التي تُشكّل الثابت أو الجذر (الأصْل اللُّغوي) الذي تعتمد عليه عمليّة الاشتقاق، وهنا يُلاحظ التّماهي بين نظريّة أفلاطون اللغوية ونظريّته في الوجود والمعرفة، من حيث التمييز

بين الثابت والمتغيّر وردّ الوجود إلى مبادئ أوّليّة ثابتة. ولا يغفل أفلاطون عن العلاقة التي تربط بين الاسم والشيء على اعتبار أنّ الشيء يمتلك أسبقيّة أنطولوجيّة على الاسم، كما أنّ الاسم يُشكّل انعكاساً لغوياً للشيء، إلاّ أنّ معرفة الاسماء لا تعني عن معرفة الأشياء؛ لذا يتوجّب على المرء التوجّه إلى الأشياء ذاتها من أجل معرفتها، وهذا يطرح من جانب آخر علاقة اللغة بالحقيقة، حيث تُعَدُّ اللغة انعكاساً للحقيقة، وهناك مسافة بين الكلمة-الاسم والشيء لا يمكن عبورها.

من المؤكَّد أنَّ اليونانيين كانوا أوَّل مَنْ أثار الاهتمام بالظَّاهرة الجماليَّة، وهم أيضاً أوَّل مَنْ بدأ بوضع أسسٍ حقيقيَّة لمعرفة ماهيَّة الجمال، وسواءٌ أكان الجميل هو النَّافع أو المنسجم أو المثير للعواطف واللَّذات الجماليَّة، فإنَّ كلَّ تلك النَّظريات تلتقي في نقطةٍ واحدةٍ وهي أنَّ الجمال يرتبط بالإنسان بوصفه ذاتاً جماليَّةً يتذوَّق الفنَّ ويتأثَّر به.

من هنا، كان لا بدّ من مقاربة الجمال عند أفلاطون، مقاربةً نقديّةً، وربطاً به كان لا بدَّ من مقاربة موضوعي الفنِّ والحبِّ أيضاً. أولاً؛ لأنَّ الفنَّ هو المعبرِّ الأفضل عن الجمال، وثانياً؛ لأنَّه حامل قيمة الجمال ومبلورها، وثالثاً؛ لأنَّنا بالفنِّ، وفق أفلاطون، نستطيع أن نحاكي الجمال الأسمى أو الجمال بالذَّات في عالم المُثُل الذي ابتكره أفلاطون؛ إذ كلَّما اقترب الجمال الواقعيُّ من الحقيقة كلَّما اقترب من الجمال المثاليِّ الذي يرشدنا نحو الفضيلة والخير والأخلاق الفاضلة.

أمَّا الحبُّ، فهو معراج الفنَّان في انتقاله من العالم الماديِّ إلى عالم المُثُل، فبالحبِّ وحده يستطيع الفنَّان أن يحقِّق النَّقلة الحقيقيَّة بين الجمال في الواقع والجمال الرُّوحيِّ المثاليِّ، ليس الفنَّان فقط، بل كلُّ من يعاين الجميل، ويستطيع أن يسمو به نحو الجمال الكليِّ المطلق؛ لأنَّ الحبَّ حاجةٌ دائمةٌ للاكتمال، فهو عاطفةٌ تبحث بشوقٍ أبديٍّ عمَّا يحقِّق الكمال المنسجم المتعالي عن الواقع.

***

إنّ النّظر في الفلسفة الأرسطيّة التي استندت إلى التفوّق الثقافي والعرقي، يدفعنا إلى مراجعة خلفيّة العلاقة اليونانيّة مع بلاد فارس، والتي تميّزت بخوفها الشّديد من أن يُستعبد اليونانيون في ظلّهم رغم أنّ فارس كانت إمبراطوريّةً عظيمةً في العالم القديم، فقد انتصر الإغريق القدماء في معارك عديدة ضدّها، وهي أكبر دولة في ذلك الوقت، وقاموا ببناء

مجموعة من الأساطير الوطنيّة على أساس تلك الانتصارات، كانت في حدّ ذاتها ضروريّة وممكنة، لمحو إمكانيّة الهزيمة وتوطيد قيم السيطرة والتفوّق اليوناني، وقد ساندتها الفلسفة الأرسطيّة باختلاقها وعيًا آخر، يمجّد الاستعباد والرقّ والعنصريّة، ويوصف بالعقلانيّة، وإن اتّسمت هذه «العقلانيّة» بأنّها تصف كلّ الأجانب على أنّهم برابرة.

في الواقع، إنّ الحديث عن أرسطو والعبوديّة الطبيعيّة يُظهر الرؤية الأيديولوجيّة لأرسطو ضمن دراسة الرق، من كونه دراسة حالة ليست عاديّة، يقتضي إعادة النظر في وصف أرسطو للعبودية الطبيعيّة بدقّة على أنّه أيديولوجيّ في طبيعته، فعلينا أن نظهر اعتقاده بأنّ غير اليونانيين كانوا طبيعيين. وتبيين ما إذا كان العصر الأرسطي فيه عبوديّة، وأنّ أرسطو في حدّ ذاته عاش في مجتمع عُبوديّ، وهل كانت العبوديّة طوعيّة على حدّ تعبير ايتيان لابويتي (Etienne de la Boétie)أمرًا مقبولاً؟

وما يؤخذ على أرسطو في قضيّة العبوديّة والاستعلاء الإغريقيّ، يُؤخذ عليه أيضًا في قضايا تُصنّف اليوم ضمن حقوق الإنسان: كموقفه من المرأة، وأسرى الحروب، وما إلى ذلك.

وليس بعيداً عن ذلك، حاولنا إلقاء الضّوء على فلسفة أخلاق الفرد عند أرسطو، لا سيما فيما يتعلّق بمفهومها والأسس التي بُنيت عليها، وعلاقتها بمفهوم السعادة ونظريّة الفضيلة عنده من جهة، والوقوف على المعادلة الأرسطيّة "الفضيلة وسط بين رذيلتين" في سبيل استعراض الإشكاليات والصعوبات التي واجهتها من جهة أخرى، وصولاً إلى الإشكاليات التي تعرّضت لها فلسفة أرسطو الأخلاقيّة ككل، ليغدو التّساؤل بعد ذلك عن إمكانيّة وجود إنسان فاضل عند أرسطو.

ولم تكن الإلهيات الأرسطيّة أفضل حالاً، فقد ظهر الإله الأرسطي في نظريّة المحرّك الأوّل الذي لا يتحرّك، إلهاً خاليًا من الصفات الكماليّة.

وفي نظريّة المعرفة، فقد كانت نظريّة المثل والنقد الأرسطي لها، من الإشكاليات التي شغلت تاريخ الفلسفة اليونانيّة منذ بدايتها؛ لأنّها موضوع خلاف جوهريٍّ ما بين الأستاذ والتلميذ الذي حاول بنقده الثورة على أفكار أفلاطون، وتأسيس فلسفة مغايرة لفلسفته في المنهج والأسلوب، وهذا ما تؤكّده الغالبيّة العظمى من مؤلّفات تاريخ الفلسفة، دون التطرّق إلاّ فيما ندر إلى الأسباب الحقيقيّة الكامنة خلف هذا النّقد الشرس للمثل.

لقد حاولنا هنا إخضاع نقد أرسطو لنظريّة المثل للنقد والتحليل، وإبراز مدى التزامه

بالموضوعيّة وقواعد الصحّة والبطلان أثناء نقده، هذا النّقد الذي أوقعه في التناقض والكثير من المشكلات الفلسفيّة أثناء رحلة بناء فلسفته، وأهمّها إشكاليّة العلاقة بين الكلّي والجزئي التي بدأ فيها فيلسوف اسطاغير برهانياً كرجل منطق وانتهى مثالياً في تأكيده أولويّة الموجود الميتافيزيقي المطلق، كما يكشف منهجه في البحث، إذ انتقل بتراتب هرميّ من المحسوس (لا وجود إلاّ للجزئي) إلى المعقول (لا علم إلاّ بالكلي) ليصل في نهاية المطاف إلى المفارق (المحرك الأول اللامتحرك) الذي عدّه موضوع العلم وغايته الحقيقيّة؛ فيعود هنا أفلاطونياً.

وعلى أيّ حال، فإنّنا لا نجافي الحقيقة إن قلنا إنّ أرسطو كان أوّل من زرع بذور المنهج الماديّ بطريقة أو بأخرى، في الفكر الفلسفي. وهكذا وقع الفكر الفلسفي، لقرون لاحقة، بين سندان مثاليّة مفرطة عند افلاطون، ومطرقة أرسطو المادية.

وفي الفلسفة الطبيعيّة، تتقوّم فلسفة الطبيعة عند أرسطو وتأمّلاته في فيزيائها، وما تستتبعه هذه التأمّلات، التي يبدأها أرسطو من مقدّمات استقرائيّة، من قولٍ بخصوص كوزمولوجيا الكون الذي يشكّل للطبيعة علّتها أو ما وراءها، من سلسلة من الحوامل المقصود الفصل بخصوصها، والتي أخصّها وأعسرها على القطع الواثق، هي مقولتا الزمان والمكان.

يتقصى البحث في فلسفة الطبيعة، ضمن حدوده المتاحة، عن الآثار الما قبل أرسطيّة في تفكير وإرث أرسطو المختصّ بمشكلة ثنائيّة المكان والزمان، سيّما تلك الآثار والتراث الذي حفظه لنا تاريخ الفلسفة اليونانيّة عن شيوخ المدرسة الأيلية.

وقد استخلصنا معنى المكان والزمان الكوزمولوجيين في طبيعيات أرسطو انطلاقاً مما يمُكن دعوته المكان والزمان الواقعيين أو اللامطلقين، مع محاولة تفسير معنى الثنائيّة الزمكانيّة عند أرسطو.

وقد خلصنا إلى اختزال ما يمُكن دعوته بالتناقضات المنهجيّة وتضادات النتائج التي تظهر في فيزياء السماع الطبيعي عند أرسطو بخصوص إشكاليّة المكان والزمان، وثنائيّتيهما.

***

ما تقدّم، يمثل مضمون الأجزاء الثلاثة من هذه المرحلة (٦،٧،٨)، أمّا الجزء الرابع (٩)، فقد تمّ تخصيصه للمرحلة الرومانيّة.

ومن الطبيعي، في معالجة المرحلة الرومانيّة في عهديها الملكي والجمهوري، أن نقارب مفهوم القانون الروماني من حيث ماهيّته، لا سيما وأنّه يُعدّ، إلى اليوم، مفخرة الغرب، وما

زال يُدرس حتى يومنا هذا، في الجامعات. وقد تركّز النقد لهذا القانون على تبيان مواضع القسوة والضّعف واللاعدل في فروع القانون الروماني العام، كذلك بيان مواضع القسوة والضعف واللاعدل في فروع القانون الروماني الخاص.

***

ومن جهة ثانية، تعدّ دراسة الحياة الدينيّة لأيّ شعب من الشعوب من الدّراسات المهمّة، والتي يمكن من خلالها التعرّف على مستوى تفكيرهم، ومدى تطوّرهم الحضاري والروحي، فالدين مركز اهتمام الإنسان ومحور تفكيره وتنظيم مجتمعه.

لقد احتلّ الدين مكانةً مهمّةً عند الشعوب القديمة كافّة، وعند الرومان احتلّ المكانة الأسمى لارتباطه بحياتهم اليومية، فكانت الآلهة هي المسؤولة عن كلّ شيء، فهي الراعية والحامية والمانحة والمدمّرة والمسبّبة للأعاصير والمرسلة للرياح القويّة، وكان على الشعب طاعتها طاعةً تامةً، وإقامة الشعائر الدينيّة لها، وبناء المعابد واللجوء إليها عند الشدائد، فالروماني القديم عبد قوى الطبيعة، كما قدّس العظماء، والأبطال والأباطرة، والأجداد، وقدّم لهم النذور والقرابين، وبهذا لم يخرج الرومان عمّا كان سائداً في بلاد الإغريق، من تصوير للالهة، وتزاوجهم، وغضبهم ورضاهم، وزرع الشقاق والحروب بين بني البشر، تبعًا لاختلاف الآلهة بين بعضهم البعض.

***

لقد اتّسمت الحياة الرومانيّة بالقسوة، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ في مجتمع تمرّس على الحروب، وهيمنت على عقليّته النفعيّة. فلا غرابة في أن يتّجه الفكر الروماني إلى العقل العملي، محاولاً قدر الإمكان الابتعاد عن المباحث الأنطولوجيّة وما يرتبط بمباحث الوجود والمعرفة، والعلوم العقليّة المجرّدة؛ إذ لم يكن العقل الروماني يألف التجريد، مضافًا إلى ذلك، محاولات الرومان بناء ثقافة خاصة بهم تبتعد عن هيمنة الفكر والفلسفة الإغريقيين، وهي السمة الرئيس للمرحلة الهللّينستيّة، وهم يعلمون أنّهم لن يستطيعوا مضاهاة الإغريق في هذه الفنون.

***

على أنّ عقدة النقص هذه من الإغريق، لم تقتصر على العقل الفلسفي، فقد امتدّت الى الأدب أيضًا، وربما حاول الرومان التركيز على الآداب والفنون في محاولة تعويضيّة، إلّا أنّ

النّظر إلى الإغريق، ومحاولات مضاهاتهم لم يسلم منها الأدب أيضًا، ولعلّ أوضح تعبير عن هذا الأمر، هو كتاب الانياده التي دوّنها فرجيل، إذ إنّ سرديات أسباب كتابتها لم تخرج عن منطق: فليكن لنا ملحمة كما لهم ملحمة، في إشارة إلى الالياذة التي كتبها هوميروس.

***

أما الحياة السياسيّة الرومانية، فهي على حدّ سواء بين الحكّام، والساسة، والقادة العسكريين، بل وزوجاتهم أيضًا، فهي حياة مليئة بالخداع، والتآمر، والاغتيالات، والخيانة. ولعلّ النموذج الصارخ في هذا الأمر هو عقلهم المفكّر، والمنظّر الأعظم في الفكر السياسي الروماني، وأعني به شيشرون، تلك الشخصيّة المليئة بالتناقضات، لناحية الشرخ الهائل بين النظريّة والتطبيق، بين الحرص على التنظير الأخلاقي، والممارسة السياسيّة المليئة بالخداع والمؤامرات.

***

تتطلّب وحدة المجتمع معرفة العلاقات التي تربط بين أفراده وأثر تلك العلاقات في تكوينه. فالمجتمع الإنسانيّ يشتمل على شعوب وقبائل وأمم وشرائع منوَّعة، وثقافات وحضارات، لها عاداتُها وتقاليدُها وأعرافها المتمايزة حتى داخل الحضارة الواحدة. إضافة إلى أنّ حياة البشر تتضمّن الكثير من الحقائق المؤثّرة في شريط الأحداث التاريخيّة، وإذا استطاعت حضارة ما أن تجذب المجموعات البشريّة الأخرى، فإنّ هذه الحضارة تكون غنيّة، ولها القدرة على التفاعل مع الآخر، وهذا ما حدث للإمبراطوريّة الرومانيّة نهاية العصور التاريخيّة القديمة، إذ جذبت حضارتها قوى خارجيّة تفاعلت على أرضها، فما حدث هو تأثير وتأثّر متبادل بين القبائل الجرمانيّة وباقي مكونات الإمبراطوريّة الرومانيّة ليصبحوا متشاركين في بناء حضارةٍ جديدةٍ.

فالخطر الجرمانيّ، الذي صوّره الرومان، كمظهر مستمر لقرون عدّة، تحدّث عنه المؤرّخ الرومانيّ تاكيتوس عام ٩٨م، وبقي موضوع الجرمان مسألة المسائل حتى زوال الإمبراطوريّة الرومانيّة في الغرب على يد الجرمان، ما يؤكّد حجم التأثير المتبادل بين الطرفين، ما حتّم البحث حول تحرّكات القبائل الجرمانيّة خلال الأعوام (٧٥٠-١ق.م)، وكيف أصبحوا العنصر البشريّ الأساسيّ في صنع الحضارة الأوروبيّة في العصور الوسطى. على أنّه لا يمكن الركون إلى الروايات الغربيّة حول بعض القبائل التي صوّرها الرومان بصورة المتوحشين

الذين يشكّلون خطرًا على «الحضارة»؛ إذ إنّ «وحشنة» الآخر هو صفة ظلّت ملازمةً للأدبيات الغربيّة في توصيف الشعوب التي تسعى لاستعمارها، ومصطلح الانتداب الذي أستعمل في النصف الأوّل من القرن الماضي ليس ببعيد، إذ سعى هذا المصطلح (الانتداب) للإيحاء بأنّ هذه الشعوب لا تصلح حتى لحكم نفسها!

وعلى أيّ حال، فإنّ القبائل الجرمانيّة عبارة عن مجموعة عرق- لغويّة وصلت إلى المنطقة الشماليّة والوسطى من أوروبا خلال عدة قرون (٧٥٠-١ق.م)، إذ وجدت في الهجرة الحلّ الوحيد لمشاكلها.

وقد سعت هذه القبائل للتعبير عن تميّزها الحضاريّ باستمرار عبر تمسّكها بتراثها المحليّ الاجتماعيّ القائم على القبيلة، والاقتصاديّ القائم على الزراعة وتربية الماشية، وكان مجتمع القبائل الجرمانيّة بسيطًا متجانسًا حمل صفة واحدة أنّه محارب، وشكّلت الأرض بالنسبة إليه مركز تماسك إقليميّ، بينما شكّلت الأسرة مركز تماسك إنسانيّ.

***

هذه صورةٌ إجماليّةٌ للموضوعات التي عالجناها بشكلٍ نقديٍّ في هذه المرحلة، وهي مرحلةٌ استمرّ العمل عليها لمدّة تزيد عن العام بقليل.

ونحن إذ لا ندّعي الكمال في هذا العمل، إلّا أنّنا نزعم، وبقوّة، أنّ الباحثين المشاركين في هذا النتاج الفكري، قد بذلوا جهودًا كبيرةً في محاولة التقصّي والبحث، والتحليل والنقد، في بيئةٍ حاشدةٍ ومليئةٍ بالكتب والأبحاث المصفّقة والمهلّلة للغرب، وإنتاجاته الفكريّة، وفي أجواء يحتاج النقد فيها لجرأة وشجاعة لا تقل عن الشجاعة التي يحتاجها الجندي في المعارك العسكريّة.

مدير التحرير

د. محمد مرتضى

الكتابة والتدوين عند الرومان حتى القرن الأول قبل الميلاد

محمد الزين[١]

مقدّمة

يتناول هذا البحث الأدب الرومانيَّ (اللاَّتينيَّ) الذي ترعرع في أحضان الأدب الإغريقيِّ منذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. ولكن، قبل ذلك، عرف الرومان في تاريخهم نوعاً من الأشعار الشعبيَّة المتمثِّلة بأهازيج الأفراح، وأغاني الأعياد، ومواسم الحصاد، ومراثي الموتى، وأشعار القدح والسخرية.. إلخ، بالإضافة إلى السجلاَّت الكهنوتيَّة والقوانين (وعلى رأسها قوانين الألواح الاثنا عشر)، ولكن هذه البدايات كانت بسيطة وعفويَّة تعبرَّ عن الحاجات العمليَّة لشعب بدأ يشقُّ طريقة تدريجيَّاً في معارج الحضارة والفنون.

لقد ارتبط ظهور الأدب الرومانيِّ، بالمعنى الحقيقيِّ للكلمة، بصعود روما السياسيِّ والعسكريِّ بعد توحيدها شبه الجزيرة الإيطاليَّة بزعامتها، وبعد هيمنتها على المدن الإغريقيَّة القائمة في جنوبها حيث واجهت التفوُّق الثقافيَّ والحضاريَّ لمن هزمتهم في الحرب والقتال (٢٧٢ ق.م). وقد نجم عن تلك الأحداث تغيُّرات عميقة طالت المجتمع الرومانيَّ في شتَّى المجالات ومن أهمِّها الآداب والفنون.

ولا بدَّ من القول أنَّ الرومان تعرَّفوا تدريجيَّاً على الأدب الإغريقيِّ وأجناسه وأشكاله ومضامينه المختلفة، فبدأوا بنقله إلى لغتهم وتقليده وتحويره بما يلائم طبيعتهم وطريقة تفكيرهم وأسلوبهم في الحياة. وظهر في تلك المرحلة روَّاد الشعر الملحميِّ الرومانيِّ: ليفيوس أندرونيكوس في ملحمة الأوديسيه، وغنايوسنايفيوس في ملحمة الحرب البونيَّة، وكوينتوسإنيوس في الحوليَّات التاريخيَّة. وكذلك روَّاد الشعر الكوميدي بلاوتوسوتيرنتيوس،

---

[١]- أستاذ اللُّغة اللاَّتينيَّة والتاريخ الكلاسيكيِّ بجامعة دمشق.

وروَّاد التراجيديا باكوفيوسوأكيوس. هؤلاء الشعراء في غالبيَّتهم كانوا من أصل وضيع وكتبوا باللُّغة اللاَّتينيَّة. ومن المفارقات أنَّ أوائل المؤرِّخين الرومان وفي مقدَّمتهم فابيوسبيكتور كانوا من الأسر الرومانيَّة العريقة، وكتبوا حوليَّاتهم باللُّغة الإغريقيَّة – لغة الثقافة والعلوم في حوض المتوسِّط – وذلك بدءاً من تأسيس روما حتى أيامهم.

ولكن في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد ومنذ فترة الأخوين غراكوس جرى التحول من الكتابة الإغريقية إلى اللغة اللاتينية، التي كانت الكتابات القانونيَّة قد دوِّنت فيها منذ منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، وكان ذلك شأن الخطب السياسيَّة في مجلس الشيوخ والجمعيَّات العامَّة الشعبيَّة وخطب التأبين الشائعة بين الأسر الأرستقراطيَّة، غير أنَّ فنَّ الخطابة بالمعنى الحقيقيِّ للكلمة لم يظهر إلاَّ في القرن الثاني قبل الميلاد مقترناً بالبلاغة (الإغريقيَّة)، وبالاعتماد على الموهبة والتقاليد الموروثة. كما ظهرت أولى قصائد الشعر الغنائيِّ لشاعر الفلسفة الأبيقوريَّة غايوس لوكيليوس، الذي أوصل فنَّ الساتورا أو (فنَّ الهجاء) المتجذِّر في الأرض الرومانيَّة إلى القمَّة والذي سيصبح الجنس الأدبيَّ الوحيد الذي كان رومانيَّاً خالصاً.

وفي مطلع ذلك القرن ظهر كاتو الأكبر رائد الكتابة النثريَّة باللُّغة اللاَّتينيَّة، سواء في خطبه التي نافت على (١٥٠) خطبة أو كتابه عن الزراعة، أم في تاريخه الشهير المسمَّى الأصول– Origins"الذي يبحث في أصول روما والمدن الإيطاليَّة، ويستعرض الأحداث التاريخيَّة حتى عصره، وكان بذلك مؤسِّس الاتِّجاه القومي في كتابة التاريخ الرومانيّ. ومن الأحداث الفكريَّة المهمَّة في تلك الفترة (١٦٨ ق.م) وصول ألف رهينة من الإغريق المثقَّفين إلى روما وعلى رأسهم المؤرِّخ الكبير بوليبيوس الذي أصبح من أبرز أعضاء حلقة أسكيبيو بتوجُّهاتها الإغريقيَّة. كما قام كتاب الحوليَّات الحديثة بتدوين تواريخهم باللُّغة اللاَّتينيَّة.

إلى ذلك، ازدهر فنُّ الخطابة، وبرز عدد كبير من الخطباء اللاَّمعين، ولكن لم يصلنا من خطبهم إلاَّ مقتطفات وشذرات قليلة؛ إذ إنَّ شيشرون غطَّى عليهم جميعاً بعبقريَّته الأدبيَّة الفذَّة، ودشَّن بداية العصر الذهبيِّ الكلاسيكيِّ الرومانيِّ. أمَّا العصر الذي سبقه فيوصف بالعصر ما قبل الكلاسيكيِّ الذي يتمثَّل بالأدب الرومانيِّ القديم، وهو موضوع هذا البحث.

أوّلاً: إشكاليَّة التسمية: أدب لاتينيٌّ أو أدب رومانيّ

في تسمية الأدب من لاتيني إلى روماني، تبرز جملة إشكاليات على الشكل التالي:

- **الإشكاليَّة الأولى:** هي عدم تطابق تسمية الشعب الرومانيِّ أو الرومان Romani مع لغتهم التي تدعى اللَّغة اللاَّتينيَّة وليس اللُّغة الرومانيَّة، كما يتبادر إلى الذهن. وهذه الإشكاليَّة لا نجدها لدى الشعوب الأخرى مثل الإغريق واللُّغة الإغريقيَّة والعرب واللُّغة العربيَّة.... إلخ.

- **الإشكاليَّة الثانية:** هي أنَّ الأدب الذي ازدهر في ظلِّ الأمبراطوريَّة الرومانيَّة كان مزدوج اللُّغة، أي أنَّه كتب بإحدى اللُّغتين اللاَّتينيَّة أو الإغريقيَّة، ومع ذلك لايمكن أن نسمِّيه أدباً لاتينيَّاً أو أدباً إغريقيَّاً تبعاً للُّغة التي كتب بها، وإنَّما هو أدب رومانيٌّ.

- **الإشكاليَّة الثالثة:** تتمثَّل بأنَّ آداب العصور الوسطى الأوروبيَّة وعصر النهضة كتبت باللُّغة اللاَّتينيَّة، فهي إذاً آداب لاتينيَّة بلا أدنى شك، ولا علاقة لها بالرُّومان مع أنَّها كانت بالأصل لغتهم القوميَّة. فقد استمرَّت اللُّغة اللاَّتينيَّة حيَّة بعد زوال الأمبراطوريَّة الرومانيَّة في كثير من المجالات، إذ بقيت لغة الكنيسة المسيحيَّة والسياسة والإدارة ومختلف أنواع العلوم.

هكذا انقسمت الآراء حول التسمية، فبينما نجد الأدبيَّات الإنكليزيَّة والفرنسيَّة تميل في غالبيَّتها إلى تسمية الأدب اللاَّتينيِّ، نرى الأبحاث والدراسات الألمانيَّة – وهي رائدة في هذا المجال – تجمع على استخدام تسمية الأدب الرومانيِّ، وهي التسمية التي تدلُّ في الحقيقة على هويَّة هذا الأدب الذي نشأ وترعرع في كنف الحضارة الرومانية، سواء كان في روما أو إيطاليا أو فيربوع الإمبراطورية الرومانية، بينما تبقى اللُّغة مجرَّد وسيلة وأداة للتعبير عن الحياة الفكريَّة والروحيَّة التي يتميَّز بها أيُّ شعب من الشعوب.

قد يعترض قائل إنَّ الأدب الرومانيَّ لم يكن كلُّه رومانيَّ الجنسيَّة، أي من إبداع الرُّومان الأقحاح، فكثير من الشعراء والأدباء والمؤرِّخين جاؤوا من أقاليم الأمبراطوريَّة الرومانيَّة المختلفة ومن أصول إثنيَّة غير رومانيَّة. ولكن هؤلاء الأدباء عندما تعلَّموا اللُّغة اللاَّتينيَّة وكتبوا بها لم يكن ذلك بمعزل عن نمط الحياة والفكر الرومانيِّ أو التشبُّه به أو تقليده،

وكلُّ هذا يكمن في صلب ظاهرة أو عمليَّة «الرَّوْمَنة» التي انتشرت في ربوع الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، والتي كانت اللُّغة اللاَّتينيَّة والنتاج الأدبيِّ لغير الرومان أحد مظاهرها ومكوِّناتها. ولذلك، فإنَّ تسمية الأدب الرومانيِّ هي التي تعبرِّ عن أهمِّ سمات ذلك الأدب وبيئته الثقافيَّة والحضاريَّة التي نشأ وازدهر فيها، وهي التي سيتم اعتمادها في هذا البحث[١].

ثانياً: اللُّغة اللاَّتينيَّة

اللُّغة اللاَّتينيَّة Lingua Latina هي في الأصل لغة الشعب اللاَّتيني الذي استوطن في سهل لاتيوم Latium وأسَّس بحسب الروايات التقليديَّة في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد مدينة روما التي أعطت الشعب الرومانيِّ اسمهRomani. وهي تنتمي إلى الفرع الإيطاليِّ من أسرة اللُّغات الهندو-أوروبيَّة، وتعدُّ شقيقة اللُّغات الإغريقيَّة والجرمانيَّة والإيرانيَّة وغيرها.

ثمَّة نظريَّات عديدة حول قرابة اللاَّتينيَّة مع إحدى اللُّغات الإيطاليَّة القديمة (مثل الفالسكيَّة والأوسكيَّة والأومبريَّة..). ولكن مع تنامي قوَّة روما ونفوذها، وبعد سيطرتها على شبه الجزيرة الإيطاليَّة، بدأت لغات القبائل والشعوب الإيطاليَّة ولهجاتها تندمج وتذوب مع مرور الزمن باللُّغة اللاَّتينيَّة، وخصوصاً بعدما نال الإيطاليون القدماء حقوق المواطَنة الرومانيَّة في القرن الأول قبل الميلاد. كما تمكَّنت اللاَّتينيَّة من إزاحة اللُّغات الإتروسكيَّة والكلتيَّة والإيطاليَّة القديمة والتي اقتبس الرُّومان منها كثيراً من المفردات[٢].

لقد سارت اللُّغة اللاَّتينيَّة في ركاب الجيوش الرومانيَّة، ومع جموع المستوطنين والتجَّار والجنود الرومان وعبر شبكة الطرق التي شقُّوها في كلِّ مكان من ربوع أمبراطوريَّتهم، وبذلك وصلت إلى أقصى أطرافها وأصبحت لغة التفاهم والتواصل بين شعوب الأمبراطوريَّة الرومانيَّة بمختلف أجناسهم ولغاتهم، ولا سيَّما في أقسامها الغربيَّة.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ اللُّغة الإغريقيَّة المتجذِّرة في جنوبيِّ إيطاليا، وجزيرة صقلية هي الوحيدة التي صمدت أمام مدِّ اللُّغة اللاَّتينيَّة في الغرب، بل كان لها تـأثير كبير على لغة

[١]- صدر للدكتور أحمد عتمان كتاب بعنوان: الأدب اللاَّتينيُّ ودوره الحضاريُّ عام ١٩٨٩ في سلسلة «عالم المعرفة» الكويتيَّة رقم (١٤١)، والذي أختلف معه في هذه التسمية للأسباب المذكورة آنفا. أنظر أيضاً:

H.Lamb, Woerterbuch der Antike (Stuttgart 1963)S.201

[٢]- محمد محفل، المدخل إلى اللَّغة اللاَّتينيَّة (مطبعة جامعة دمشق ١٩٨٧) ص ٦ ت.

الرومان، وأسهمت في صقلها وبلورتها وتطوُّرها، كما أغنتها بكمٍّ كبير من المفردات والمصطلحات في العلوم والآداب والثقافة والفلسفة وسواها.

تجدر الإشارة إلى أنَّ اللُّغة اللاَّتينيَّة مرَّت بطورين في تاريخها، هما:

- اللاَّتينية القديمة Old Latin من القرن السادس حتى مطلع القرن الأول قبل الميلاد.

- اللاَّتينيَّة الكلاسيكيَّة Classical Latin من القرن الأول قبل الميلاد حتى سقوط روما (٤٧٦ م)، وكانت اللُّغة الرسميَّة للأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ولغة الأدب والكتابة والعلوم المختلفة، ولغة الأوساط المثقَّفة. وقد وصلت إلى قمَّة تطوُّرها على أيدي يوليوس قيصر وشيشرون ورجيل وهوراس وغيرهم، فيما أصبح يُعرف بالعصر الذهبيِّ للأدب الرومانيِّ، ثمَّ تلاه العصر الفضيُّ وأشهر كتَّابه الفيلسوف سنيكا والمؤرِّخ تاكيتوس. وأخيراً العصر المتأخِّر ويتمثَّل بكتابات آباء الكنيسة المسيحيَّة:لاكتنتيوس والقديس أوغسطين وغيرهما.

وتنقسم اللاَّتينية القديمة بدورها إلى مرحلتين: الأولى لاتينيَّة العصر العتيق Archaic Periodمن القرن السادس حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وتتمثَّل بعدد قليل جداً من النقوش. (مثل دبوس برينستي والحجر الأسود...) وقوانين الألواح الاثني عشر. والثانية لاتينيَّة ما قبل العصر الكلاسيكيِّ Preclassical Period، والتي سادت في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.

وإلى جانب هذه اللُّغة اللاَّتينيَّة المكتوبة، هناك اللاَّتينيَّة المنطوقة، أي لغة الحديث اليوميِّ التي تجري على ألسنة الناس والطبقات الدنيا في المجتمع، والتي تتميَّز ببساطتها وعفويَّتها وعدم التزامها بكثير من قواعد الصرف والنحو، وتغيُّرها باستمرار، وهي التي شكَّلت في ما بعد أساس اللُّغات الرومانيَّة (الإيطاليَّة والفرنسيَّة والإسبانيَّة والبرتغاليَّة وغيرها[١]).

وندين بمعرفتنا باللُّغة اللاَّتينيَّة العتيقة إلى حركة إحياء التراث الرومانيِّ القديم على يد الباحث ماركوس فارو M.Varro (١١٦- ٢٧ ق.م)، والذي ألَّف الكثير من الكتب عن هذا التراث، ومنها كتابه عن اللُّغة اللاَّتينيَّة والأدب اللاَّتينيُّ (De Lingua Latina) الذي

[1]- P.S.Noble , Latin Language ,OCD (Oxford 1970)P.580 ff.

وصلنا بعض أجزائه. كما ورد كثير من المفردات العتيقة لدى شعراء الملاحم والكوميديا والتراجيديا الرومان من القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الأعمال الشعريَّة الأدبيَّة لكلٍّ من أندرونيكوسونايفي وسوبلاوتوسوترنتيوس كانت معاصرة للأعمال النثريَّة التاريخيَّة، ولكنَّ الأولى كانت باللُّغة اللاَّتينيَّة، بينما الأخرى باللُّغة الإغريقيَّة (فابيوسبيكتور وكتاب الحوليَّات القديمة).

ثالثاً: الكتابة الأبجديَّة اللاَّتينيَّة

يدين الرومان بأبجديَّتهم اللاَّتينيَّة Latin Alphabet (وتدعى أحياناً الرومانيَّة)، إلى الإغريق الذين اقتبسوها بدورهم من الكنعانيين الفينيقيين سكان الساحل السوري القدماء. لقد ساد زمناً طويلاً الرأي القائل إنَّ الأبجديَّة اللاَّتينيَّة مأخوذة مباشرة من الأبجديَّة الإغريقيَّة لمدينة كوماي Cumae، الواقعة على خليج نابولي في منطقة كمبانيا إلى الجنوب من روما[١]. ويُستدلُّ على ذلك من أشكال الحروف اللاَّتينيَّة،التي تشبه نظيراتها في كوماي شبهاً شديداً. ولكن بدأت تعمُّ حديثاً النظريَّة القائلة بأنَّ المصدر المباشر للكتابة اللاَّتينية يعود إلى الكتابة الإتروسكيَّة المأخوذة بدورها من الأبجديَّة الإغريقيَّة الغربيَّة السائدة في كوماي[٢].

لقد اقتبس الرومان في البداية (٢١) حرفاً من الأبجديَّة الإغريقيَّة فحافظوا على اتِّجاه الكتابة وتسلسل الأحرف، مع ملاحظة أنَّه لا وجود للأصوات المفخَّمة في اللاَّتينيَّة، وبالتالي ليس هناك حروف مركَّبة في هذه الأبجديَّة. ومن الناحية الشكليَّة ليس هناك فارق كبير بين الحروف اليونانيَّة واللاَّتينيَّة إلاَّ في حرف الدال والسين، ومع مرور الوقت دخلت بعض التعديلات، مثل زيادة عدد الحروف إلى (٢٣) حرفاً[٣]، كما غيرَّوا في أسماء الحروف وطوَّروها بما يتناسب مع أصوات لغتهم. وأهمُّ التعديلات التي أدخلوها عليها هي:

---

[١]- كانت كوماي مستعمرة إغريقيَّة أقامها أهالي مدينة خلقيس من جزيرة أوبويا في القرن الثامن قبل الميلاد.

[٢]- من المعروف أن الإتروسكيين حكموا مدينة روما في القرن السادس قبل الميلاد في العصر الملكيِّ، وامتدَّت سيطرتهم حتى منطقة كمبانيا.

أنظر: محمد محفل – محمد الزين: دراسات في تاريخ الرومان(جامعة دمشق ١٩٨٢) ص ٤.

[٣]- سها بشير أحمد عبد العال، الكتاب في الحقبة اليونانيَّة الرومانيَّة، جامعة بهنا ٢٠١٩م، ص ١٠.

١- إلغاء الحرف السابع(Z)، وكذلك الحرفينΘو/Φ في الأبجديَّة الإغريقيَّة لأنَّه لا وجود لها في اللاَّتينيَّة[١].

٢- أصبح الحرف الثالث (c) في البداية يلفظ كافاً أو جيماً(مصريَّة).

٣- فصلوا حرف الجيم(المصريَّة)، ووضعوا له رمزاً خاصَّاً به، وذلك بإضافة شطرة صغيرة إلى الحرف الثالث(c) ليصبح شكله (G)، ووضعوه مكان حرف(Z) المحذوف.

٤- أضافوا حرفيَ (Y) و(Z) إلى آخر أبجديَّتهم لكتابة الأسماء والكلمات الإغريقيَّة التي لا يرِدَان إلاَّ فيها.

وهكذا أصبح عدد أحرف الأبجديَّة اللاَّتينيَّة في العصر الكلاسيكيِّ (٢٣) حرفاً، وكانت تكتب بحروف كبيرة(Capital) ترصف بعضها إلى جانب بعض، بلا فواصل بين الكلمات[٢]. كما هو الحال في الكتب التي كتبت على شكل كراسات (مثل كراسة فرجيل)، واستمرَّ هذا الشكل حتى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ثمَّ بسط الرومان هذه الحروف فظهر شكلان: المربع Square والمزخرف Rustic، والتي تمتاز بحواف أصغر وبخط أفقيٍّ يرسم بشكل أغلظ من الخطوط الرأسيَّة ويمكن كتابته بشكل متَّصل أو منفصل، وبالتالي تتمُّ الكتابة بشكل أسرع من حروف التاج الكبيرة[٣]. ولم تكن تعرف التفريق بين الأحرف الكبيرة والصغيرة (minuscle)،الذي نشأ في العصور الوسطى. كما أنَّها لم تكن تفرِّق بين الحرف الصوتيِّ(U) والحرف الساكن(V)، وكذلك بين الحرف الصوتيِّ (i)، والحرف الساكن(J) الياء. وقد حصل هذا التفريق في عهد النهضة الأوروبيَّة، وأضيف أيضاً الحرف(W[٤]).

هكذا أصبحت الأبجديَّة اللاَّتينيَّة تتألَّف بشكلها الحاليِّ من(٢٦)حرفاً، وهي المستعملة اليوم في معظم بلدان العالم (مع بعض التعديلات البسيطة بما يتلاءم مع طبيعة اللُّغات الوطنيَّة). وكان اتِّجاه الكتابة من اليسار إلى اليمين، وتفرَّعت عن هذه الأبجديَّة خطوط زخرفيَّة أخرى، وأصبحت الكتابة من اليسار إلى اليمن[٥].

---

[1]- Jean Collart , Grammaire du Latin , Que sais – Je1234,3 emeedition (Paris 1975) P.11

[2]. M Reynolds ,Oxford Classical Dictionary s.v.Epigraphy Latin, (OCD 1970).p.397 f

[٣]- سها بشير أحمد عبد العال، الكتاب في الحقبة اليونانيَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص ١٠.

[4]. M Reynolds ,Op. Cit., 1970.p.397 f

[٥]- سها بشير أحمد عبد العال، الكتاب في الحقبة اليونانيَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص ١٠.

أمَّا أقدم الشواهد التي وصلتنا عن الكتابة اللاَّتينيَّة فهي:

١- نقش برينستي Praeneste Fibula [١] من القرن السابع قبل الميلاد.

وهو يتضمن أربع كلمات منقوشة على دبوس ذهبيٍّ للزينة، ويُعدُّ في نظر كثير من الباحثين أقدم كتابة باللُّغة اللاَّتينيَّة،واتِّجاه الكتابة فيه من اليمين إلى اليسار (مثلما كان في الفينيقيَّة والإغريقيَّة الباكرة). وفي ما يلي صيغة هذا النقش باللاَّتينيَّة القديمة مع مقارنتها باللاَّتينيَّة الكلاسيكيَّة.

MANIOS MED FHEFHAKHED NVMASIO = Manius me fecitNumero

وترجمته: مانيوس صنعني لأجل نوميروس.

٢-نقش الحجر الأسود Lapis Niger: [٢] وهو أقدم نقش لاتينيٍّ على الحجر، اكتُشف عام ١٨٩٩ قرب الفورومرومانوم على ضريح اعتقد الرومان أنَّه يمثِّل ضريح مؤسِّس مدينتهم رومولوس.

وقد كتب بطريقة خطوط الفلاحة (أي من اليمين إلى اليسار، ثم يلتفُّ من اليسار إلى اليمين)، والتي تُسمَّى بالإغريقيَّةBoustrophidon، وتميَّز هذا النقش:

أ- كتابته أقرب إلى الأحرف الإغريقيَّة من أيَّة كتابة أخرى.

ب- أول نقش لاتينيٍّ ترد فيه كلمةREX التي تعني ملك.

ج- طريقة الخطوط الملتفَّة استُخدمت في أقدم النقوش الإغريقيَّة.

د- لا يزال محتواه مثار نقاش بسبب فقدان المقدِّمة والخاتمة وتهشُّم كثير من سطوره. ويعتقد أنَّه يعود إلى عام نحو ٦٠٠ ق.م

٣- نقش دوينوس Duenos وجد على هضبة كويرينال في روما، ويؤرَّخ في النصف الأول من القرن السادس ق.م.

---

[1]-PLeTicha –Schoenberger ,DirRoemer (Gutersloh 1980) S.293

[2]- Otto Hiltbrunner ,KleinesLexikon der Antike.4. Aufl (Sammlung Dalp Bern) 1964.

٤- أمَّا نقش هيركولانيوم، فهو أقدم النماذج الذي تمَّت الكتابة عليه بخط ذي أحرف حادَّة، وزوايا قائمة متعدِّدة.

ومع أنَّ الباحثين لا يتَّفقون على تأريخ هذه النقوش،إلاَّ أنَّها تُعدُّ أقدم الأمثلة المتوفِّرة على الأبجديَّة اللاَّتينيَّة.

رابعاً: مادَّة الكتابة:

لقد استخدم الرومان أوراق البرديِّ مادَّة للكتابة، بعدما اقتبسوا استخدامه عن الإغريق، وأطلقوا عليه في صورته الخام اسم Charta. أمَّا بالنسبة إلى لفائف البرديِّ فقد اطلقوا عليها اسم Volumen، وبدأ يظهر في الأسواق تدريجيَّاً عدد كبير من أصناف البردي عرف بعضها بأسماء حكام رومان، كلفائف أغسطس Charta Augusta. وكان يتم الكتابة على وجه واحد فحسب، وفي الغالب كان يتم استخدام الوجه الداخليِّ الأكثر لمعاناً، باستخدام أقلام مصنوعة من البوص، وكان كتابة النصِّ تتمُّ في أعمدةPagina، ولم يكن هناك عرض محدَّد للعمود، لكن تكون الأسطر موازية لطول اللفافة، وفي حال مُلىء الوجه الداخليِّ ولم ينته النص يستخدم الكاتب اللاَّتينيُّ ظهر اللفافة. وقد أطلق الرومان على باطن اللفافة أو الجزء الداخليِّ منها اسم Recto وتعني المخطَّط، وعلى ظاهرها اسمVerso .

كان بعض الكتاب اللاَّتين يعيدون استخدام أوراق البرديِّ، إما بالكتابة على ظهر الورقة، أو بغسل البرديَّة من الحبر الذي دوِّن فيه النصُّ الأول عليها، وإعادة استخدامها مرَّة ثانية. وكانت روما تستورد هذه الأوراق من مصر، حيث كان البطالمة يتقاضون ضريبة باهظة على تصديرها إلى روما. وقد لاحظ بيليني الأكبر أنَّه في وقت تبيروس كان هناك عجز في أوراق البرديِّ فقام مجلس الشيوخ الرومانيُّ بتعيين مشرفين لمراقبة توزيعه. ولاحظ أنَّ هناك أنواعاً متفاوتة في جودتها وقوَّتها وحجمها ودرجة بياضها في النصف الأول من القرن الأول الميلاديِّ[١].

خامساً: الأدب الرومانيُّ والثقافة الإغريقيَّة

ارتبط الأدب الرومانيُّ في مختلف عصوره بصورة وثيقة بالحياة الأدبيَّة والفكريَّة الإغريقيَّة، حتى أن ولادته الحقيقيَّة كانت مرهونة بقدوم أسير إغريقيٍّ من مدينة تارنت الإغريقيَّة هول

[١]- سها بشير أحمد عبد العال، الكتاب في الحقبة اليونانيَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص ١٣- ١٤.

يفيوس أندرونيكوسLivius Andronikos (اسمه الأول رومانيٌّ واسمه الأصلي إغريقيٌّ) إلى مدينة روما، وتكليفه عام (٢٤٠م) بترجمة إحدى المسرحيَّات الكوميديَّة الإغريقيَّة إلى اللُّغة اللاَّتينيَّة، لتعرض في مهرجان الألعاب الرومانيَّة(Ludi Romani)، ثم قام بترجمة ملحمة الأوديسيه للشاعر الكبير هوميروس، وأصبح بذلك مؤسِّس الأدب الرومانيِّ.

كان ذلك أول اتصال أدبيٍّ رومانيٍّ بالثقافة والأدب الإغريقيِّ، والذي سيزداد ويتعمَّق على مرِّ السنين القادمة، ويشمل ليس الشعر المسرحيَّ والملحميَّ فحسب، وإنَّما أيضاً كلَّ الأجناس الأدبيَّة الأخرى، ومختلف فروع الثقافة والإنتاج الفكريِّ والعلميِّ. وقد سبقه اقتباس الرومان أبجديَّتهم (عن طريق الإتروسكيين!) من الأبجديَّة الإغريقيَّة، التي أصبحت أداة التعبير عن إنتاجهم الفكريِّ والأدبيِّ والحقوقيِّ، والذي تمثَّل أولاً بتدوين قوانين الألواح الاثني عشر في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، والذي جاء بعد زيارة وفد رومانيٍّ إلى أثينا للاطِّلاع على تشريعاتها وقوانينها. ثم سعى الرومان، مدفوعين بشعورهم الوطنيِّ واعتزازهم بتاريخهم وبطولاتهم، لإيجاد صلات مع التراث الميثولوجيِّ وعالم الآلهة الإغريقيَّة. وهكذا نسجوا أسطورة تأسيس مدينتهم، وربطوها بحرب طروادة عبر إينياس وأحفاده بأصولهم الإلهيَّة، وأحاطوها بهالة من القدسيَّة لا سابق لها.

وقد شقَّت أسطورة تأسيس روما طريقها عبر مسار الأدب الرومانيِّ بأكمله، وشكَّلت أحد مكوِّنات الوعي السياسيِّ والتاريخيِّ الرومانيِّ. وهكذا دوَّن المؤرِّخون الرومان الأوائل كتاباتهم باللُّغة الإغريقيَّة لتمجيد مدينتهم، كي لا تقلَّ عراقة عن أعظم المدن الإغريقيَّة. وفي هذا السياق، يقول المؤرِّخ الكبير ليفيوس،الذي سمَّى تاريخه(منذ تأسيس المدينة AbUrbe Condita) : «يمتاز العالم القديم بإشراكه الآلهة في تأسيس المدن ليضفي عليها هالة من المجد والجلال[١]».

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّه في أعقاب الحروب التي شنَّها الرومان في الشرق الهلنستيِّ، تدفَّق مئات الآلاف من الأسرى الإغريق، وكثير منهم كان يمتلك معارف ومهارات مختلفة،

[١]- محمد محفل – محمد الزين، دراسات في تاريخ الرومان(مطبعة جامعة دمشق ٢٠٠١)، ص ٤.

استغلَّها الرومان في كثير من المجالات، وفي مقدِّمتها تعليم الأطفال والشبيبة من أفراد الطبقات العليا، الذين كانوا يتلقُّون على أيدي معلمِّيهم اللُّغة والآداب الإغريقيَّة، ثمَّ يذهبون إلى أثينا وجزيرة رودس والعواصم الفكريَّة الهلنستيَّة لاستكمال تحصيلهم، حيث يتعمَّقون بدراسة فنِّ الخطابة والبلاغة والفلسفة، وكلُّ ذلك باللُّغة الإغريقيَّة. وهكذا أصبح التعليم والثقافة في روما مزدوج اللُّغة بصورة متزايدة[١].

وقد غزت الكتب اليونانيَّة روما بعدما رحل تجار الكتب إليها، كما نشط نسخ الأعمال الخاصَّة بالمؤلِّفين الإغريق، وكان يُطلق على تاجر الكتب اسم Bibliopola، الذي كان يستعين بجملة من العبيد المدرَّبين، وكان يطلق عليهم servi literati، أي العبيد العاملين بالقراة والكتابة. كذلك انتشرت حوانيت الكتب في في أكثر المناطق ثراء، وكانت تعلَّق على مدخل هذه الحوانيت وأعمدتها قوائم باسماء الكتب ومؤلِّفيها. وكان تجَّار الكتب الرومان يسمحون بقراءة الكتب النادرة والقيِّمة مقابل أجر يتقاضونه. ولا شكَّ في أنَّ هذه الكتب كانت تعاني في نسخها من بعض الأخطاء ما جعل شيشرون يعنِّف ناشره أتيكوس على سبيل المثال[٢].

بعد انتصار الرومان في سنة ١٦٨ ق.م في معركة بودنا، أحضر القائد الرومانيُّ اميليوس باولوس مكتبة الملك المقدوني برسيوس كغنيمة حرب من مقدونيا، لتصبح في متناول أيدي كلِّ هواة الثقافة الهيلينيَّة. وفي العام ذاته، جلب الرومان من بلاد اليونان ألف رهينة من زعماء الحلف الآخيِّ وعلى رأسهم المؤرِّخ الكبير بوليبيوسPolybios (٢٠٠-١٢٠ ق.م)، الذي عاش في كنف أسرة آل اسكيبو العريقة، الذين كانوا من أكبر رعاة الأدب والثقافة الإغريقيَّة في روما، وأصبح معلِّم القائد الشهير كورنيليوس اسكيبيو امليانوسAemilianus P.Corneluis Scipio(١٨٥-١٢٩ق.م) الذي كان شديد الاعجاب بمعلِّمه، وربطته به صداقة متينة. فقد كان من أشدِّ المتحمِّسين للثقافة الإغريقيَّة، وجمع حوله نخبة من رجال الفكر الإغريق والرومان

[1]- K. Christ m Die Romer(Munchen 1984) S.131

[٢]- سها بشير أحمد عبد العال، الكتاب في الحقبة اليونانيَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص ٤٢.

الذين عُرفوا في ما بعد باسم حلقة اسكيبيو:([١]Circle of ScipioScipionic Circle or) التي كانت تضمُّ مجموعة من كبار الفلاسفة والشعراء ورجال الدولة وصل عددهم إلى (٢٧)، وفي مقدِّمتهم بوليبيوس والفيلسوف الرواقيُّ بانايتيوسPanaitios (نحو ١٨٠-١٠٠ق.م). ومن أبرز أعضائها الرومان القنصل لائيليوس Laelius الذي اشتهر بخطبه الآسرة، ولقِّب بالحكيم لثقافته الشاملة، وكذلك الشاعر المسرحيُّ ترنتيوس القرطاجيُّ AferTerentius (نحو ١٩٠-١٥٩ق.م)، والشاعر الهجَّاء لوكيليوسLucilius (نحو١٨٠-١٠٢)، وغيرهم.

وممَّا لا شك فيه أنَّه كان لهذه الشخصيات وأمثالها دور مؤثِّر في نشر الثقافة الإغريقيَّة والفلسفة الرواقيَّة في أوساط الطبقة الأرستقراطيَّة الرومانيَّة وأجيالها اللاَّحقة. ويعترف الشاعر هوراس في بيت مشهور له بفضل الإغريق فيقول:»لقد أسرت الآن إغريقيا المهزومة آسريها الشرسين بفكرها وحضارتها، وجلبت الثقافة الرفيعة إلى لاتيوم الفلاَّحة[٢]«.

ولا ريب في أنَّ هذا «الغزو» «الثقافيَّ الإغريقيَّ» أثار ردود فعل قويَّة لدى الدوائر المحافظة الرومانيَّة التي رأت فيه تهديداً لقيم الأجداد المتوارثة، وارتفعت الأصوات التي تندِّد بانتشار مظاهر الهلينيَّة (Hellenization)، وتطالب بالتصدِّي لها، وتزعَّم هذه الحملة المضادَّة كاتو الأكبر الذي أعلن على الملأ: «بمجرَّد أن يعطينا هذا الشعب أدبه، فإنَّه سيدمِّر كلَّ شيء[٣]«. وكان من نتيجة ذلك أن أُحرِقت الكتب الفلسفيَّة علناً.

وطالت هذه الحملة الفلاسفة والخطباء الإغريق الذين صدر عام (١٦١ق.م) قرار بطردهم من روما. ومع حلول عام(١٥٥ق.م)، وقدوم وفد أثيني يضمُّ ممثِّلين عن المدارس الفلسفيَّة الإغريقيَّة، سارع كاتو إلى المطالبة برحيلهم في أقرب، بعندما رأى إقبال الشباب الرومانيِّ على سماع فيلسوف الأكاديميَّة كارنيادسKarneades وهو يدافع فلسفيَّاً في محاضرة له عن مبدأ العدالة، ليقوم في اليوم التالي بنقضها.

---

[١]- عرف باسم اسكيبيو الأصغر (Minor) تفريقاً له عن سميِّه الأكبر قاهر هانيبال. نال لقب أفريكانوس Africanus لتدميره قرطاجة عام ١٤٦ ق.م، ولقِّب نومانتينوس Numantinus لتدميره مدينة نومانيتا الإسبانية عام ١٣٣ ق.م. ومع ذلك فإنَّه يوصف في الأدبيَّات الأوروبيَّة بأنَّه كان من دعاة المُثُل والأفكار الإنسانيَّة (Humanitas) وكأنَّ الإنسانيَّة تقتصر على ماهو أوروبيٌّ وأميركيٌّ في عالم اليوم.

[2]-Pleticha – Schonberger , Die Roemer (Guthersloh 1980) S. 190 .

[3]- dem s. 191 .

ولكنَّ هذه الاعتراضات لم تفلح في إيقاف تيَّار الانفتاح على الثقافات الأخرى. ويُروى أنَّ كاتو بدأ يتعلَّم في أواخر أيامه اللُّغة الإغريقيَّة بنفسه، كما أنَّ كتبه لا تخلو من التأثُّر بالنماذج الإغريقيَّة ولا سيَّما في تاريخه «الأصول».

لقد كان من الطبيعيِّ أن يتأثَّر الأدب الرومانيُّ بهذه الأجواء والتيَّارات الثقافية، وأن ينهل منها ليبدأ السير على خطى أدباء الإغريق وشعرائهم، وترجمة أعمالهم وتقليدها، واستيحائها في فنون الشعر والنثر، مستخدماً اللُّغة الوطنيَّة اللاَّتينيَّة التي تطوَّرت من خلال تعاملها وتنافسها مع الموضوعات والأشكال الإغريقيَّة، واكتسبت المزيد من السلاسة والدقَّة وأساليب التعبير المختلفة.

سادساً: بواكير الأدب الرومانيّ

لم يدخل الرومان في خضمِّ الحياة الأدبيَّة الحقيقيَّة إلاَّ في القرن الثالث قبل الميلاد، أي بعد خمسة قرون من تأسيس مدينتهم المفترض (٧٥٣ق.م). وهنا يبرز السؤال: هل كانوا طيلة هذا الزمن المديد بلا فنون وآداب؟ هذا ما نفاه أحد كبار الباحثين في تاريخهم وحضارتهم الذي نادى بالقول: إنَّه كان في إيطاليا ملاحم شعبيَّة كبيرة تناقلتها الأجيال المتتالية شفويَّاً منذ القِدم ثمَّ تلاشت مع مرور الزمن[١]».

وقد سادت هذه النظريَّة زمناً طويلاً، ثمَّ بدأت تتهاوى في ضوء الأبحاث التاريخيَّة الحديثة، وأهمُّ الانتقادات التي وجِّهت إليها أنَّه لو كان هناك تراث شعريٌّ شفويٌّ يرقى إلى درجة الملاحم لصمد أمام تحدِّي عوامل الضياع والنسيان، ولكان مصيره كمصير التراث الشعبيِّ الإغريقيِّ والشرقيِّ الذي بقي قروناً طوالاً تتناقله الألسن قبل أن يتجسَّد في الملاحم الهوميريَّة، ويجري تدوينه فيما بعد، أو لترك هذا التراث في أوهى الاحتمالات آثاراً واضحة على النتاج الأدبيِّ الرومانيِّ الذي وصلنا في العصور اللاَّحقة.

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الرومان عرفوا في عصورهم الغابرة نوعاً من الأشعار والأغاني والأناشيد الدينيَّة البسيطة، ولكنها لا ترقى بأيِّ شكل من الأشكال إلى مرحلة الملاحم

[١]- هو المؤرِّخ الألماني نيبور B.G. Niebuhr (١٧٧٦- ١٨٣١) مؤسِّس التأريخ اللُّغويِّ النقديِّ (Historiography) الذي طبَّقه على التاريخ الرومانيِّ الباكر فحرَّره من معالمه الأسطوريَّة.

والأشعار الحقيقيَّة التي يمكن البناء عليها، كما جرى عند الإغريق أو بلاد الشرق. ويمكن تفسير ظاهرة تأخُّر الرومان في إنتاجهم الأدبيِّ بالعوامل التالية:

١- تميُّز الرومان بنزعتهم الواقعيَّة العمليَّة وبمحدوديَّة مواهبهم الفنيَّة، وهذا شاعرهم الكبير فرجيل يعترف في ملحمته الانيادة في العصر الذهبيِّ للأدب الرومانيِّ بتفوُّق الشعوب الأخرى في ميدان الفنِّ بقوله:

«قد يشكِّل الآخرون من المعدن المطواع صوراً فنيَّة تنبض بالحياة ويصوغون من المرمر أشكالاً تفيض بدفء الحياة.. أمَّا أنت أيُّها الرومانيُّ فصنعتك أن تحكم العالم لأنَّك سيِّده[١]».

٢- كان الرومان في عهودهم الأولى شعباً من الرُّعاة والفلاَّحين يعيشون حياة بسيطة، ويكدحون في سبيل لقمة العيش. ثمَّ مع تنامي دولتهم انصبَّ اهتمامهم، بالإضافة إلى متطلِّبات الحياة العمليَّة،على الحرب والقتال والسياسة.. إلخ. وبالتالي، لم يكن هناك في أولويَّاتهم للاهتمامات الفنيَّة والأدبيَّة. « ولم تكن حرفة الشعر عندهم شرفاً فإذا اهتمَّ شخص ما بهذا الأمر فإنَّه كان يتطفَّل على المآدب كما كان يطلق عليه اسم الصعلوك[٢]».

٣- لم ينشأ اهتمام الرومان بالأدب والأدباء إلاَّ بعدما أصبحوا قوَّة عظمى في غرب البحر المتوسِّط، وبالتالي ازدادت اتصالاتهم بالشعوب الأخرى المتفوِّقة ثقافيَّاً وفنيَّاً وأدبيَّاً، فكان عليهم أن يتلاءموا مع هذا الواقع الجديد، ويقدِّموا أنفسهم، ويبرِّروا سياساتهم، ويثبتوا ذاتهم على الصعيدين الفكريِّ والأدبيِّ.

وهكذا، ونتيجة هذه العوامل، بقيت إرهاصات الأدب الرومانيِّ قروناً طوالاً وإلى حدٍّ كبير في مرحلة التراث الشفوي Oral Heritage، الذي يدور على ألسنتهم في المناسبات المختلفة، سواء أكانت ترانيم دينيَّة، أم أناشيد حماسيَّة، أو أغاني الزواج، أو مراثي الموتى، أو أشعاراً تمجِّد سِيَرَ الأجداد وانتصاراتهم..إلخ.

ومن أبرز سمات هذه المقطوعات الشعبيَّة أنَّها لم تكن دائماً أشعاراً موزونة، وإنما كانت

[1] -K. Christ, Die Romer S.143

تتجلَّى في هذه الأبيات كما هو واضحٌ النزعة الاستعماريَّة الرومانيَّة.

[٢]- يروي هذه المقولة المشهورة لكاتو الأكبر (٢٣٤ – ١٤٩ ق.م) الأديب جلليوسGellius في كتابه « الليالي الأتيكيَّة». أنظر: أحمد عثمان، الأدب اللاَّتيني، ص ١٤.

أحياناً جملاً نثريَّة مقفَّاة، لكن وجود القافية والسجع أو الجناس الصوتيِّ يخلع عليها طابع الفنِّ والأدب. وهي بالتالي تنضوي تحت المفهوم الرومانيِّ كارمينا Carmina [١] التي لا تعني كلَّ ما نظم شعراً فحسب،وإنَّما تشمل أيضاً كلَّ ما صيغ من كلام وأخذ شكلاً فنيَّاً، مثل الصلوات وتعويذات السحر، بل وحتى الحكم والأقوال المأثورة والصيغ القانونيَّة وما إلى ذلك. وقد حفظ لنا كاتو الأكبر مقطوعة نظمت من أجل الاحتفال السنويِّ بالخصوبة وتطهير الأرض، ممَّا يدلُّ على أنها ارتبطت بالمناسبات الدينيَّة. وكانت بعض هذه الأناشيد تُلقى في المآدب، وهي غالباً أشعار بطوليَّة تتوارثها الأُسر الرومانيَّة العريقة.

وقد ترك هذا التراث الشعبيُّ، الذي عرفته أيضاً شعوب أخرى في بدايات تاريخها، أثراً لا يُستهان به على الأدب الرومانيِّ شعراً ونثراً [٢]، ولكن لم يصلنا منه إلاَّ النزر اليسير، ويعود الفضل فيه إلى حركة الاهتمام بالتراث الرومانيِّ القديم والتي رعاها الباحث سكايفولا Scavola فقام بجمعه والإشادة بمآثره.

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ الرومان استخدموا الكتابة في المقام الأول من أجل احتياجاتهم العمليَّة، وعلى سبيل المثال لتدوين الاتفاقيَّات والمعاهدات (يتحدَّث المؤرِّخ بوليبيوس عن وجود معاهدة عقدت عام ٥٠٨ ق.م أي في أول سنة من قيام الجمهوريَّة الرومانيَّة مع قرطاجة لتنظيم العلاقات بين الدولتين). واستخدموها أيضاً في تدوين قرارات مجلس الشيوخ والجمعيَّات الشعبيَّة، وفي مجال الطقوس الدينيَّة (التنبُّؤات) والترانيم الدينيَّة والسجلاَّت الكهنوتيَّة، والتقويم الرومانيِّ (الذي تقول الروايات إنَّه يُنسب إلى نومابومبليوس ثاني ملوك روما). وكذلك من أجل تدوين القوانين وعلى رأسها القوانين الرومانيَّة.

سابعاً: قوانين الألواح الاثني عشر

صدرت هذه القوانين عام ٤٥٠ ق.م، وكانت أول نصٍّ كتابي متكامل باللُّغة اللاَّتينيَّة العتيقة، كما تمثَّل بداية تدوين للحقوق الرومانيَّة والمصدر الأساس للقوانين والتشريعات اللاَّحقة. وقد جاءت هذه القوانين تتويجاً للصراع الطبقيِّ الباكر في روما بين طبقة النبلاء

[1]-Kleines Lexikon der Antike S.V.Carmen s. 117

[2]- K. Christ. Die Roemer S.142 f

والعامَّة من أجل المساواة ونيل حقوقهم المدنيَّة والسياسيَّة.

هذه القوانين وضعتها لجنة مؤلَّفة من عشرة أشخاص بعد اطِّلاعها على القوانين الإغريقيَّة في أثينا. وقد دوِّنت على اثني عشر لوحاً من البرونز (أو الخشب)، ونُصبت في الساحة العامَّة الرومانيَّة (Forum Romanum[١]). وتجدر الإشارة إلى أنَّ عادة الكتابة على الأخشاب كانت أمراً شائعاً عند الرومان، منذ وقت مبكر من تاريخهم، ليس للأغراض اليوميَّة ولكن للوثائق الرسميَّة والشهادات القانونيَّة، وقد كان الاسم اللاَّتيني للَّوح الخشبيِّ المخصَّص للكتابة هو الكراس Codex. وقد ذكر بيليني (الابن) أن عمَّه استخدم الألواح الخشبيَّة لكتابة مسوَّدات مؤلَّفاته. أمَّا طريقة الكتابة على ألواح الخشب؛ فكانت تتمُّ عن طريق تغطيتها بطبقة من الشمع، ثم الكتابة عليها بواسطة قلم معدنيٍّ Stitus . وقد طوَّرها الرومان لتستوعب كمِّيات كبيرة من النصوص[٢].

لكن هذه الألواح الاثني عشر تعرَّضت للدمار في أثناء الغزو الغاليِّ لروما عام ٣٨٧ق.م. وقد شرحها وفسَّرها كبار الحقوقيين، واستوحوا منها معظم أحكامهم في العصر الجمهوريِّ، وكان يتعلَّمها الأولاد في مدارسهم. ويروي الخطيب الشهير شيشرون (القرن الأول قبل الميلاد) كيف أنَّه حفظ نصوصها غيباً قبل أن يمارس مهنة المحاماة. وقد وصلتنا بعض فقراتها من خلال استشهادات الكتَّاب المتأخِّرين الذين نقلوها من لغتها القديمة إلى اللُّغة اللاَّتينيَّة الكلاسيكيَّة، وتتحدَّث بنودها بلغة الأمر وفي جمل قصيرة.

أمَّا عن محتوى هذه القوانين، فهي تشمل كلَّ المجالات الحقوقيَّة، وتختلط فيها القوانين العامَّة والخاصَّة والجنائيَّة والدينيَّة. فهي تنظِّم طريقتي دفن الموتى السائدتين في روما: الدفن أو الحرق، كما تجرِّم ممارسة السحر، وتنظِّم حقوق الناس العامَّة بخصوص أقنية المياه، والسير والطرق، ورعي المواشي..إلخ.

وجاء في الفقرة الثامنة منها: «إذا قام أحد بإيذاء شخص آخر فيجب أن يلقى الفاعل المصير ذاته، إذا لم يتَّفق مع المجني عليه على تسوية مُرضية». وهذا يعني أنَّ المبدأ المتَّبع

[1]A. Berger. Twelve Tables , OCD (Oxford 1970) P.1100.

[٢]- سها بشير أحمد عبد العال، الكتاب في الحقبة اليونانيَّة الرومانية، مصدر سابق، ص ١٤- ١٥.

في الأمور الجنائيَّة كان قانون العين بالعين والسنُّ بالسِّن. ومن هذا القبيل أيضاً: «الذين يشعلون حريقاً يجب قتلهم حرقاً، كما أنَّ أولئك الذين يتسبَّبون في هلاك أحد المواطنين، يجب رميهم في الهاوية[١]».

ثامناً: شعراء الملاحم

الشعر الملحميُّ (Epos) هو أحد الأجناس الأدبيَّة الثلاثة التي قسَّم من خلالها الفيلسوف أرسطو أنواع الشعر في كتابه المسمَّى «فن الشعر» (Ars Poetika)، إلى جانب الشعر المسرحيِّ (Drama)، والشعر الغنائيِّ (Lyrik). وأقدم تجلِّياته في الآداب الإغريقيَّة والكلاسيكيَّة يتمثَّل بملحمتي الإلياذة (Iliada) والأوديسيه. (Odyssey) اللتين تتغنَّيان بأبطال الإغريق في حرب طروادة، والمنسوبتين إلى الشاعر هوميروس (Homeros)، ويتمثَّل كذلك بملحمتي الشاعر هسيود (Hesiodos) أنساب الآلهة (Theogony) والأعمال والأيام (The Works and Days)، اللتين تتغنَّى أولاهما بسير الآلهة، وتصف الثانية أعمال الزراعة وحياة الفلاَّحين[٢].

وقد أصبحت هذه الأعمال الأدبيَّة النموذج والمثل الأعلى لكلِّ الملاحم الإغريقيَّة والرومانيَّة والأوروبيَّة، إذ سعت لتقليدها واستيحائها شعوب وآداب مختلفة، ومنهم الرومان منذ أن بدأوا مسيرتهم الأدبيَّة في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد.

وهكذا، فإنَّ ملاحم الرومان نشأت وتطوَّرت وفق الأُسس والصيغ الملحميَّة الإغريقيَّة، كما أنَّه لم يكن هناك - كما رأينا - تراث ملحميٌّ رومانيٌّ بالمعنى الحقيقيِّ للكلمة يمكن البناء عليه.

وقد عرف الرومان ثلاثة أنواع من الملاحم هي: الملحمة الأسطوريَّة، والملحمة التاريخيَّة-القوميَّة، والملحمة التعليميَّة، واستخدموا في البداية وزنهم الشعريَّ التقليديَّ وهو «بحر الساتورا Satura».

---

[1]-K. Christ , Die Roemer (Beck Munchen 1984) S. 131 ff.

-إنَّ من يقارن هذه القوانين بقوانين حمورابي (١٧٩٢- ١٧٥٠ ق.م) التي سبقتها بـ (١٣٠٠) سنة، يلمس بدائيَّتها وتدنيِّ مستوى الحياة الاجتماعيَّة التي وضعت من أجلها.

[2]-O. Hiltbrunner , Kleines Lexikon der Antike(Munchen)1964 , S.220.

١. اندرونيكوس

أول ملحمة شعريَّة باللُّغة اللاَّتينيَّة جاءت من يراع أندرونيكوس، الكاتب المسرحيِّ الإغريقيِّ الرومانيِّ ليفيوس **أندرونيكوس L.LiuiusAndronikos**: وهو إغريقيٌّ ولد نحو عام (٢٨٤ ق.م) في مدينة تورنتوم (تورينتو حالياً) الواقعة في أقصى جنوبي إيطاليا، وتوفيِّ في روما عام (٢٠٥ ق.م)، والتي جاء إليها أسيراً بعد الحرب التي شنَّها الرومان على مدينته الأمِّ عام (٢٧٢ ق.م)، وعمل مربِّياً في كنف أسرة رومانيَّة عريقة، وحمل اسم وليِّ نعمته ومولاه (ليفيوس)، الذي أعتقه ومنحه حريَّته بعدما ظهرت مواهبه الشعريَّة. أما اسمه الأصليُّ (أندرونيكوس) فهو إغريقيٌّ. ويصفه المؤرِّخ الرومانيُّ سويتونيوس (القرن الثاني الميلادي) بأنَّه «نصف إغريقيٍّ»، ولكنَّه يقصد بذلك من حيث الجنس الأدبيِّ، وليس الأصل الإثنيَّ فهو ثابت لا غبار عليه. كما كان أقدم الشعراء الرومان المعروفين بالاسم، وقد عدَّه أدباء العصر الكلاسيكيِّ (فارو وشيشرون وهوراس) أنَّه منشئ ومؤسِّس الأدب اللاَّتينيّ[١].

كانت ترجمة ملحمة الأوديسيه إلى اللُّغة اللاَّتينيَّة من الأحداث المهمَّة في تاريخ الأدب الرومانيِّ؛ إذ أتاحت للرومان التعرُّف على هذه الملحمة العظيمة بلغتهم الوطنيَّة والتي سمَّاها أندرونيكوس باللاَّتينيَّة أودوسياOdussia، وأعطى بطلها Odysseus اسماً مغايراً لصيغته الإغريقيَّة وهو أوليكسUlixesأو أوليس Ulysses.

وتعدُّ الأودوسيا أطول قصيدة باللُّغة اللاَّتينيَّة صاغها مترجمها في سبعة عشر كتاباً (بالمدلول القديم أي لفافة بردية)، يقابلها أربعة وعشرون كتاباً في الأصل الإغريقيّ. ولكن لم يصلنا منها سوى أبيات متفرِّقة لا تتعدَّى (٤٦) بيتاً.

إلى ذلك، حافظ أندرونيكوس على النوعيَّة الفنيَّة للأصل الإغريقيِّ، وكان عليه التغلُّب على عدد كبير من الصعوبات، فكثير من الأبيات ترجمه حرفيَّاً والبعض الآخر بتصرُّف. وقد استخدم صيغاً لاتينيَّة عتيقة ليعطي لغته طابعاً احتفاليَّاً فخماً مجاراة لهوميروس، كما أنَّه أجرى عدداً من التجديدات المهمَّة. فهو يستهل ملحمته بالقول: «آرويلي ياكامينا Camena (بدلاً من

[1]- G.W. Williams ,Livius Andronicus , Oxfored Classical Dictionary (Oxford 1970) P. 614.

ربة الشعر) عن الرجل الماهر[١]».ومع ذلك كان حريصاً على أن يكون مخلصاً للأصل، ولكن بعض التعابير الإغريقيَّة لا تكن ممكنة ترجمتها فتوجَّب عليه تغييرها وإيجاد ما يكافئها.

على العموم، إنَّ ملحمة أندرونيكوس ليست ترجمة بقدر ما هي إعداد لاتينيٌّ للأوديسيه مع الحرص الشديد على الحفاظ على الجوهر الأصيل لهذه الملحمة. وقد نجح في إيجاد اللُّغة اللاتينيَّة الشعريَّة المناسبة والقادرة على نقل إحدى ملاحم الأدب الإغريقيِّ، والتي بقيت شائعة في روما سنين طويلة، وكانت في عداد الكتب المدرسيَّة المفضَّلة التي تعلَّمها الشاعر الكبير هوراس، وبالتالي فإنَّها تشكِّل البداية الحقيقيَّة للشعر اللاَّتينيِّ الرومانيْ.

أمَّا بالنسبة إلى شعراء الملاحم الثلاثة الذين اشتهروا في الأدب الرومانيِّ القديم (أندرونيكوس ونايفيوس وإنيوس)، فلا يمكن فصل أعمالهم الملحميَّة عند انتاجهم المسرحيِّ (الكوميديِّ والتراجيديِّ)، إذ إنَّ نشاطهم الأدبيَّ شمل أيضاً هذه الأجناس. ولذلك، لا بدَّ من إعطاء لمحة عن هذا الإنتاج المسرحيِّ في هذا التقديم مع أنَّ شهرتهم تقوم على الملاحم في المقام الأول.

- كتب أندرونيكوس أعمالاً للمسرح (تراجيديَّات وكوميديَّات) كانت في البداية كتباً تعليميَّة في المدرسة التي أنشأها، وتُعدُّ أولى المسرحيَّات التي عرفها الرومان باللُّغة اللاَّتينيَّة. وأول عرض مسرحيٍّ له والذي شارك فيه ممثِّلاً، كان بحسب شيشرون عام (٢٤٠ ق.م)، ولذلك عدَّ «أبا الدراما الرومانيَّة».

كانت أعمال أندرونيكوس المسرحيَّة تلبِّي متطلَّبات الدراما الإغريقيَّة. وثمَّة عنوانان معروفان لكوميديَّاته هما غلاديوس Gladiolus (أي السيف الصغير)، ولودوس Ludus (أي اللُّعبة)، وتتبعان مثال الكوميديا الإغريقيَّة الحديثة، وتقتبسان مواضيعهما من الإغريقيَّة. وقد سمَّى الرومان هذا النوع Comoedia Fabula Palliata، وذلك بحسب الرداء القصير للممثِّلين.

أمَّا أهم عناوين تراجيديَّاته، وكلُّها إغريقيَّة، فهي: آخيل، أياكس، أندروميدا، داناي،

[١]-Camena. musa هي ربَّة الينبوع في الميثولوجيا الرومانيَّة، وتقابل ربَّة الشعر عند الإغريق،

وحصان طروادة (EquusTrojanus) وغيرها. وكانت أعماله التي لم يصلنا منها سوى (٦٠) شذرة تضمُّ قطعاً شعريَّة (Cantica) وحوارات (Diverbia).

ومن أعماله الشعريَّة أنَّه ألَّف ولحَّن نشيداً لكورس يتألَّف من (٢٧) فتاة تمجيداً للإلهة يونو (جونو)، في إطار احتفال دينيٍّ أقيم عام ٢٠٧ ق.م. وبسبب نجاحه الكبير نال تكريماً خاصَّاً، وهو السماح له بإنشاء جمعيَّة للممثِّلين في روما.

٢. غنايوس نايفيوس

وُلد الشاعر غنايوس نايفيوس Cn.Naivius في منطقة كمبانيا الإيطاليَّة بالقرب من مدينة كابوا الإغريقيَّة، وهو أول رومانيٍّ يستحقُّ لقب شاعر بالمعنى الحقيقيِّ للكلمة - كما سمَّاه أحد كبار المتخصِّصين في التاريخ الرومانيِّ وهو تيودور مومسن ThedorMommsen .

وقد ألَّف عدداً من الكوميديَّات والتراجيديَّات بحسب النموذج الإغريقيِّ، ويعدُّ مؤسِّس التراجيديا الرومانيَّة القوميَّة (المسمَّاة Fabula Praetexta)، أي مسرحيَّة بالوشاح الأرجوانيِّ، وهو الزيُّ التقليديُّ للحكَّام الرومان)، والتي تستقي موضوعاتها من الأحداث التاريخيَّة.

لنايفيوس ثلاث مسرحيَّات أشهرها بعنوان رومولس Romuls التي تروي أسطورة تأسيس روما. كما نظم بعض التراجيديَّات التي تعود إلى أصول إغريقيَّة من دائرة الملاحم الطرواديَّة (الحصان الطروادي وهيكتور راجلاً). وأول عرض مسرحيٍّ ظهر له في عام ٢٣٥ ق.م (أي بعد خمس سنوات من ظهور مسرحيَّة معاصره أندرونيكوس). كذلك يُنسب إليه (٢٨) عنواناً لكوميديَّات ألَّفها ولم يصلنا منها سوى شذرات قليلة متفرِّقة، يغلب عليها الطابع الرومانيُّ الواقعيُّ، والنقد السياسيُّ الصريح، والهجوم على الطبقة الأرستقراطيَّة وخصوصاً آل ميتيللوس (إحدى أشهر الأسر المتنفِّذة في روما)، حيث أعلن في إحدى كوميديَّاته:»بالقدر وحده أصبح آل ميتيللوس قناصل في روما»[١]). وقد جرَّت عليه هذه السخرية السياسيَّة الويلات فسُجن ثم نُفي إلى مدينة أوتيكا (بالقرب من قرطاجة في تونس)، وتُوفي فيها عام ٢٠١ ق.م.

ولعلَّ أعظم أعمال نايفيوس الأدبيَّة هي ملحمته عن الحرب البونيَّة الأولى Bellum

[١]- أحمد عتمان، الأدب اللاَّتيني، ص ١٩.

Punicum. (٢٦٤-٢٤١ ق.م)، التي شارك فيها بنفسه جنديًّاً محارباً ممَّا جعلها تفيض بالحيويَّة والدقَّة في رواية الأحداث التي يربط فيها بين أسطورة تأسيس روما والعداوة التقليديَّة بينها وبين قرطاجة المتمثِّلة في قصَّة ملكتها Dido وحبِّها للبطل الطروادي إينياس،الذي هجرها، فانتحرت وهي تصبُّ اللَّعنات عليه وعلى أحفاده الذين سيؤسِّسون مدينة روما [١].

لقد استخدم نايفيوس في ملحمته البحر الساتوريَّ الرومانيَّ وكلمات لاتينيَّة قديمة، والجناس، وتركيب بعض الصفات، وإدخال بعض العناصر الملحميَّة[٢] المألوفة مثل الترس. وكان ذلك مجازفة في اللُّغة اللاَّتينيَّة، وخطوة كبيرة إلى الأمام في تطويعها للشعر الملحميّ. ويستدلُّ من الشذرات المتبقِّية من هذه الملحمة أنَّه مهَّد الطريق لفرجيل في ملحمته الإلياذة من خلال وصفه لمغامرات الطرواديين، وهم في طريقهم إلى إيطاليا، ومرورهم بقرطاجة، وحكاية ديدو مع إينياس. وهكذا فإنَّ نايفيوس «خطا بالشعر اللاَّتيني الملحميَّ من مرحلة الترجمة التي يمثِّلها ليفيوس أندرونيكوس إلى التأليف الإبداعيِّ والتأصيل بمعالجة موضوع محليٍّ وقوميٍّ[٣]». وهذا منح عمله الانتشار حتى عصر شيشرون وهوراس الذي يذكر أنَّها كانت لا تزال تقرأ في أيامه.

٣. كوينتوس إنيوس

ولد كوينتوس إنيوسQuintus Ennius عام ٢٣٩ ق.م في منطقة كالابريا في أقصى الجنوب الشرقيِّ من إيطاليا، حيث تلتقي ثلاثة عناصر تمثِّل الحضارات الإغريقيَّة والرومانيَّة والأوسكيَّة(الأوسك أحد الشعوب الإيطاليَّة القديمة). ولذلك كان هذا الشاعر يردِّد أن له ثلاثة أفئدة، أي أنَّه كان يعرف اللُّغات الثلاث لهذه الحضارات.

خدم إنيوس في الجيوش الرومانيَّة في الحرب البونيَّة الثانية (٢١٨ – ٢٠١ ق.م) في جزيرة سردينيا. وهناك لفت نظر المفكِّر الرومانيَّ كاتو الأكبر الذي أعجب بشخصيَّته ومواهبه فاصطحبه معه إلى روما، حيث عاش في منزل متواضع، وانهمك في أنشطة أدبيَّة متعدِّدة،

[١]- هذه هي التسمية الرومانيَّة لملكة قرطاجة إليسا التي ينسب إليها تأسيس المدينة مع أنصارها انطلاقاً من مدينة صور في لبنان في عام ٨١٤ ق.م.

[2] -G. W.Willams ,OCD (1970) s.vNaevius.

[٣]- أنظر أحمد عتمان: الأدب اللاَّتيني، ص ٢٣.

فقام بتدريس اللُّغة والأشعار الإغريقيَّة وإعداد بعض المسرحيَّات الإغريقيَّة. وسرعان ما شقَّ طريقه إلى الأوساط الرومانيَّة المتهلْينة من أبناء الطبقات العليا، فأصبح من رعاة شخصيَّات مرموقة مثل اسكيبيو أفريكانوس (الأكبر) وماركوس فولفيوس نوبيليورM.FulreNobilior، الذي اصطحبه معه في حملته على إقليم أيتوليا في بلاد اليونان عام ١٨٩ ق.م، على أمل أن يتغنَّى الشاعر بأمجاده. وقد أشاد إنيوس بهذا القائد في حوليَّاته ومسرحيَّته التاريخيَّة أمبراكيا.

وعندما نال حقوق المواطنة الرومانيَّة على يد ابنه كوينتوس أنشد مفتخراً: «أنا الذي كنت قبلئذٍ من روديايٍ أصبحت الآن مواطناً رومانيَّاً[١]».

إلى ذلك، كان إنيوس كاتباً غزير الإنتاج، فله بالإضافة إلى ملحمة الحوليَّات،عشرون مسرحيَّة تراجيديَّة ومسرحيَّتان كوميديَّتان بمواضيع إغريقيَّة وأربعة كتب من أشعار الساتورا وأشعار أخرى متفرِّقة. ومن الواضح أن إنيوس كان يفضل التراجيديا على الكوميديا، ومن تراجيديَّاته العشرين يُلاحظ أنَّ اثنتي عشرة منها مأخوذة من الشاعر الإغريقيِّ يوربيديس، الذي يميل إلى الأساطير الطرواديَّة، وتراجيديَّة واحدة (الغافرات) من إيسخليوس، ومن هذه المسرحيَّات «هيكوبا» و»افيجينيا» و»ميديا المنفيَّة». وبمقارنة شذرات إنيوس مع أصولها الإغريقيَّة يتبيَّن أنَّه يسعى في الغالب لتقليدها، ولكنه أحياناً يخالفها مجاراة لجمهوره الرومانيّ.

ومن أشعار إنيوس المتفرِّقة تبرز قصيدة «سكيبو» التي تشيد بأمجاد هذا القائد الذي انتصر على هانيبال. وفي قصائده المعروفة باسم ساتورا ابتدع فناً أدبيَّاً جديداً متأثِّراً بالإغريق والتراث الشعبيِّ المحليِّ، وهي تفيض بالنقد الأخلاقيِّ والاجتماعيِّ، ولكن هذا الفنَّ لم يبلغ ذروته إلاَّ على يد الشاعر لوكيليوس. كما أنَّ الأدب الرومانيَّ يدين لإنيوس بإدخال فنِّ المقطوعة الشعريَّة المسمَّاة ابيجرامه Epigram، وينسب إليه شيشرون مقطوعتين إحداهما لتنقش على تمثاله، والأخرى لتنقش على قبره والتي تقول: «لا تدع أحداً يكرِّمني بدموعه باكياً في جنازتي فلمَ الدموع والبكاء وأنا حيٌّ وسيرتي لا تزال على الشفاه؟».

استقى إنيوس عنوان ملحمته «الحوليَّات Annales» من اسم السجلَّات الكهنوتيَّة، الذي

[١]- أحمد عتمان: الأدب اللاَّتيني، ص٢٤. روديايٍ هي مكان ولادته. تجدر الإشارة إلى أنَّ الإيطاليين القدماء لم يحصلوا على حقوق المواطَنة الرومانيَّة إلاَّ منذ عام ٨٨ ق.م، أمَّا قبل ذلك فكان يتمُّ منحها بصورة إفراديَّة وشخصيَّة.

اعتمده أيضاً المؤرِّخون الأوائل، والمؤلَّفة من (١٨) كتاباً سرد فيها التاريخ الرومانيَّ، متغنِّياً بأمجاد روما على شكل وأسلوب الملاحم الإغريقيَّة، ولكن لم يصلنا منها سوى شذرات قليلة لا تتعدَّى (٢٦٠) بيتاً جاء معظمها من استشهاد الكتاب المتأخِّرين.

أمَّا إنجازه الرئيسيُّ فيتمثَّل في «خلق ملحمة إغريقيَّة الشكل رومانيَّة الروح والمضمون[١]»، وربَّاتها الملهمات هنَّ ربات الشعر الإغريقيَّات (Musai).

تبدأ الحوليَّات يحلم يرويه لنا الشاعر، وفيه يعلن هومير أنَّ روحه قد تقمَّصت بإنيوس، وفي هذا انعكاس للتعاليم الفيثاغوريَّة عن تناسخ الأرواح. ولذلك، فإنَّ هذا الشاعر كان يعدُّ نفسه هوميروس الرومانيَّ، وأنَّه المبدع الحقيقيُّ للشعر الملحميِّ الرومانيِّ.

في الإطار عينه، تخلَّى إنيوس في ملحمته عن الوزن الساتورنيِّ الرومانيِّ، واعتمد الوزن السداسيَّ الهوميريَّ، وحقَّق بذلك خطوة عظيمة الأهميَّة في مسار الأدب اللاَّتينيِّ. وهو يبدأ ملحمته باستلهام ربات الفنون الإغريقيَّة بحسب التقاليد الهوميريَّة، ثمَّ يحكي الحلم الذي رأى فيه هوميروس، لينتقل بعدها إلى سرد الأحداث التاريخيَّة بدءاً من هروب إينياس من طروادة وحتى عصره، مروراً بأهمِّ محطَّات التاريخ الرومانيِّ. أمَّا من حيث الأسلوب، فإنَّ لغة الحوليَّات تكشف تأثير هوميروس والصفات الملحميَّة التقليديَّة كما تسلك نهج أندرونيكوس في استعمال المفردات القديمة والتعابير القويَّة.

لقد أرسى إنيوس قواعد الشعر الملحميِّ إيقاعاً وترتيباً للمفردات، وظلَّت «الحوليات» ملحمة الرومان القوميَّة حتى ظهور رائعة فرجيل التي تتردَّد فيها أصداء إنيوس،الذي استطاع من خلال ربطه الماضي الأسطوريِّ بالحاضر التاريخيِّ أن ينمِّي الشعور بالتواصل الحضاريِّ لدى الشعب الرومانيِّ. وبذلك نالت الحوليَّات شهرتها وشعبيَّتها الكبيرة، حتى أنَّها كانت تُنشد في المحافل العامَّة مثلما تُنشد ملاحم هوميروس في بلاد الإغريق، إلى أن حلَّت الإلياذة محلَّها كملحمة قوميَّة للرومان.

مات إنيوس عام ١٦٩ ق.م في السبعين من عمره. وثمة رواية تقول إنَّ تمثاله كان في قبر

[١]- أحمد عتمان، الأدب اللاَّتيني، مصدر سابق، ص٢٩.

آل سكيبو بحسب ما يرويه شيشرون[١]. ومن أقواله المأثورة:

- ليس المنتصر منتصراً إذا لم يعتبر المهزوم نفسه كذلك.

- لا أحد يتأمَّل ما هو أمام قدميه، فكلنا ننظر إلى النجوم.

- من عنده لغتان عنده روحان.

- لا تسأل أصدقاءك ما يمكنك عمله بنفسك.

وقد أشاد سكاليجر أحد علماء عصر النهضة بعبقريَّة إنيوس وشاعريَّته الفذة، وتحسَّر على حوليَّاته المفقودة بروحها الرائعة.

تاسعاً: الكوميديا وشعراؤها

في الوقت الذي كان فيه الفنُّ المسرحيُّ قد بلغ ذروته في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وكانت المدن الكبرى في بلاد اليونان وإغريقيا الكبرى (جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية) تُعرف بمسارحها وعروضها التراجيديَّة والكوميديَّة، في ذلك الوقت لم تكن إيطاليا تعرف الفنَّ الدراميَّ، وإنما كان فيها بعض المظاهر «المسرحيَّة» البدائيَّة جدَّاً والتي تتَّصف بالارتجال والخشونة، وتتخلَّلها رقصات إتروسكيَّة وقصص هزليَّة ومباريات غنائيَّة ذات طبيعة ماجنة. ولذلك، فإنَّ الرومان عندما بدأ اهتمامهم بالفنون، توجَّهوا نحو المسرح الإغريقيِّ، وظهرت أوَّل مسرحيَّة كوميديَّة باللُّغة اللاَّتينيَّة عام ٢٤٠ ق.م على يد الأسير الإغريقيِّ ليفيوس أندرونيكوس، الذي نشأ في أحد مَواطن المسرح الإغريقيِّ، وهي مدينة تارنت الواقعة في أقصى جنوبي إيطاليا. وكانت تلك هي البداية التي انطلق منها الفنُّ المسرحيُّ الرومانيُّ، وظهرت الأعمال المترجمة عن الإغريقيَّة لدى شعراء الملاحم، ولكن لم يصلنا منها إلاَّ شذرات بسيطة لا يعتدُّ بها.

ويجدر القول أنَّ الكوميديا الرومانيَّة ارتبطت بشاعرين هما بلاوتوس وترنتيوس اللَّذان نهلا من التراث المسرحيِّ الإغريقيِّ، ولا سيَّما الدراما الأتيكيَّة الحديثة وشاعرها (ميناندروس Menandros)، وبدآ تقديم العروض المسرحيَّة في الأعياد الدينيَّة والمناسبات الوطنيَّة.

[١]- أنظر أحمد عتمان: الأدب اللاَّتيني، مصدر سابق، ص٣٤.

وكان جمهور المشاهدين مختلطاً إذ ضمَّ كلَّ فئات المجتمع، ولم يكن يعبأ بأصول تلك المسرحيَّات، التي كانت تحفل بالعنصر الموسيقيِّ أكثر من الدراما الإغريقيَّة. ويبدو أنَّ الملابس كان لها دور بارز في هذا المسرح، لذا فإنَّنا نتعرف على أنواع هذه الدراما بمجرَّد معرفة الملابس التي يرتديها الممثِّلون. وكانت هذه الملابس مأخوذة عن ملابس المسرح الإغريقيِّ المعاصر بدليل أنَّ تلك الكوميديا كانت تسمَّى «مسرحيات بملابس (أو بعباءة) إغريقيَّة» (فابولاي بالياتاFabula Palliata) نسبة إلى (Pallium) باللاَّتينية، وهي ترجمة لاسم العباءة الإغريقيَّة (Himation[١])، وكانت أحبَّ أنواع الكوميديا إلى قلوب الرومان.

بالمقابل، كان هناك «كوميديا بالعباءة الرومانيَّة Fabula Togata» المنسوبة إلى ليفيوس أندرونيكوس، والتي كانت أحداثها تجري في روما أو في الرِّيف الإيطاليِّ، وكان أبطالها من بسطاء الناس، ولذلك فهي تعطي صورة عن الحياة الرومانيَّة في الأسواق والمحاكم والحقول.

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ الفنَّانين المسرحيين الرومان استعاروا الحبكة الدراميَّة والأوزان الشعريَّة والملابس والأقنعة من نظرائهم الإغريق، وأدخلوا عليها بعض التعديلات البسيطة، وعلى رأس هؤلاء بلاوتوس وترنتيوس.

١. بلاوتوس

هو تيتوس ماكيوس بلاوتوسT. Maccius Plautus، أشهر شعراء الكوميديا الرومانيَّة، لا يعرف الكثير عن سنواته الباكرة سوى أنَّه ولد في سارسينا في مقاطعة أومبريا الإيطاليَّة نحو عام ٢٥٤ ق.م، ثم انتقل إلى روما وعمل في أحد المسارح حيث اكتشف مواهبه التمثيليَّة، وبدأ بتأليف أعماله على غرار الكوميديا الأتيكيَّة الحديثة من النوع المسمَّى بالياتا على مدى عشرين عاماً (٢٠٤-١٨٤ ق.م)، وتنسب إليه بعض الروايات القديمة (١٣٠) كوميديا وهو رقم مبالغ فيه جدَّاً، ولكن المسرحيَّات الأصليَّة فيها بحسب الباحث الرومانيِّ فارو لا تزيد عن (٢١) كوميديا وصلتنا بكاملها، وهي بذلك أقدم إنتاج أدبيٍّ رومانيٍّ.

وفي ما يلي نبذة مختصرة عن أهمِّ الكوميديات وأشهرها:

[١]أحمد عتمان، الأدب اللاَّتيني، مصدر سابق، ص ٣٩.

- **أمفتريون (Amphitruo):** وهي مسرحيَّة ميثولوجيَّة تدور حول الإله جوبيتر وتنكُّره في هيئة أمفتريون، ملك مينة طيبة (الإغريقيَّة)، مستغلاً خروجه إلى الحرب، فدخل على زوجته الكومينا، التي قضى وطره منها وأنجب البطل هرقل. وفي هذه المسرحيَّة تبدو الأساطير واضحة في الفكر الدينيِّ الرومانيِّ، وموضوع تجسُّم الاله والذي كان سائداً أيضاً في الديانة الإغريقيَّة.

- **الجرَّة الذهبيَّة (Aulularia):** بوكليو رجل عجوز شديد البخل يجد جرَّة مليئة بالذَّهب فيخبِّئها هنا وهناك ويتظاهر بالفقر، ولكن العبد الذكيَّ لحبيب ابنته يتمكَّن من سرقتها وتسليمها لسيده ليكونيديس، الذي يعيدها إلى والد حبيبته فيوافق هذا على تزويجه ابنته[١].

- **الأسرى (Captive):** تدور أحداثها حول أسر ابن هيجيو في الحرب ضدَّ إليس (مقاطعة إغريقيَّة)، وخطف أحد الخدم ابنه الثاني وغياب أثره. وحدث في الوقت نفسه أن وقع بعض الإيليين في الأسر، فاشترى هيجيو اثنين منهم وهما فيلوكرايتس وعبد تينداروس، على أمل أن يفتدي بهما ابنه الأسير.

وكان على العبد الأسير تينداروس الذهاب إلى إليس للتفاوض على عمليَّة التبادل، ولكنه من باب الولاء لسيِّده تبادل الأدوار معه. وهكذا ذهب فيلوكراتيس إلى أليس متنكِّراً بثياب العبيد. واكتشف هذا الأمر مصادفة أحد الأسرى الإيليين، فلمَّا عرف هيجيو أنَّه قد خدع وأنَّ أمله في استرجاع ابنه الأسير قد ضاع إلى الأبد، انتقم من العبد تينداروس الذي خدعه، وأرسله مقيَّداً بالأصفاد للعمل في أحد المحاجر، ولم يمض وقت طويل حتى ظهر فيلوكراتيس ومعه ليس فقط ابن هيجيو الأسير، وإنما أيضاً للخادم الذي اختطف ابنه الثاني، والذي تبيَّن أنه بيع عبداً لفيلوكرايتس، أي أنَّه هو تينداروس نفسه الذي عاقبه هيجيو أشدَّ العقاب، فيندم هذا على سوء معاملة ابنه، ويرسل في استدعائه على الفور. عموماً، تعدُّ الأسرى من أهمِّ مسرحيَّات بلاوتوس[٢].

- **الشقيقان التوأم مينايخموس (Menaechmi):** كان لتاجر من سيراقوزه (بصقلية) ابنان

[١]- كانت هذه المسرحيَّة نموذجاً لمسرحيَّة موليير الشهيرة البخيل (L Avare).

[٢]- عن أحمد عتمان: الأدب اللاَّتيني، مصدر سابق، ص٤٣ ت و٦٦ بتصرُّف.

توأم لا يمكن التفريق بينهما. اختطف أحدهما وهو في سنِّ السابعة وكان اسمه مينايخموس، أمَّا الثاني سوسكليس فغيَّر اسمه إلى مينايخموس تخليداً لذكرى أخيه المفقود. وعندما صار شابّاً انطلق للبحث عن أخيه، فوصل إلى إبيدامنوس حيث كان يعيش مينايخموس المفقود، وهناك التقى بعشيقة وزوجة وصهر أخيه على التوالي، فكان الكلُّ يعامله على أنَّه مينايخموس، وعندما لم يتجاوب معهم ظنُّوا أنه فقد صوابه واختلَّ عقله، فقرَّروا احتجازه، ولم ينقذه سوى ظهور أخيه مينايخموس الحقيقيِّ، وعندئذٍ يلتقي الأخوان وجهاً لوجه ويُحلُّ اللُّغز[١].

- **الضابط المعروف بأمجاده (Miles Glorious):** يغرِّر هذا الضابط بفتاة من أثينا ويذهب بها إلى إفسوس (في آسيا الصغرى) في غيبة عشيقها، الذي يقع خادمه لاحقاً في قبضة ذلك الضابط، لكنه يتمكَّن من إبلاغ سيده بما حدث.

وهكذا يصل العاشق إلى إفسوس، ويتَّخذ لنفسه مسكناً بجوار مسكن الضابط. وينجح الخادم الداهية في تدبير لقاء الحبيبين بفتح ثغرة في الجدار الفاصل بين المسكنين. ويتمُّ إيهام الضابط بأنَّ زوجة جاره الشابة الفاتنة تهيم به فيطلق سراح الفتاة، ويذهب إلى المنزل المجاور حيث انهالوا عليه بالضرب المبرِّح حتى خارت قواه، ويهرب الحبيبان إلى أثينا[٢].

تبيِّن هذه النبذة عن أعمال بلاوتوس أنَّه لم يتعرَّض لأحداث عصره، وتجنَّب الخوض في المسائل السياسيَّة والاجتماعيَّة، سائراً على خطى مثله الأعلى الكوميديا الأتيكيَّة الحديثة، التي ركَّزت على الأمور البيتيَّة والعلاقات الأسريَّة والفرديَّة. لم يكن متقيِّداً بالأصول التي أخذ عنها، وإنما كان يتعامل معها بحرِّيَّة فيضيف إليها أحياناً مقاطع من بنات أفكاره ومن مسرحيَّات أخرى، أو عناصر رومانيَّة. كما كان يغفل تقاليد المسرح الإغريقيِّ إلاَّ عندما تزيد فرص الإضحاك، ولم تكن الحبكة الدراميَّة جوهر مسرحيَّاته. كان الحب بين العشاق هو المحرِّك الأوَّل للأشخاص على خشبة المسرح. أمَّا بنية مسرحيَّاته فكانت تتألَّف من ثلاثة أجزاء: الحواريِّ (المحادثات والحوار)، السرديِّ (أشعار طويلة يصاحبها عزف على الناي)، والغنائيِّ (مقطوعات غنائيَّة Cantica).

---

[١]- أحمد عتمان: الأدب اللاَّتيني، مصدر سابق، ص ٤٦.

[٢]- كانت شخصيَّة الجندي المغرور ببطولاته من الشخصيَّات المحبَّبة في المسرح الإنكليزيِّ في العصر الإيزابيثي.

إلى ذلك، تميَّز أسلوب بلاوتوس باقترابه من لغة الحديث العاديَّة، وبتراكم المفردات وكثرة الجناس والطباق، واستعمال كلمات لاتينيَّة عتيقة، ونحت كلمات جديدة، واستعارة مفردات إغريقيَّة.

٢. كايكيليوس ستايتوس Caecilius Statius

شاعر كوميديٌّ من شمالي إيطاليا (٢٢٢-١٦٨ ق.م)، جاء إلى روما أسيراً، ثمَّ أُعتق وعاش مع صديقه الشاعر الملحميِّ إنيوس. أخفق في بداية مسيرته المسرحيَّة، ولكنه حقَّق بعد ذلك نجاحاً كبيراً.

تُنسب إليه (٤٢) مسرحيَّة كوميديَّة، ستَّ عشرة منها تعود بصورة واضحة إلى ميناندروسد، ومع أنَّها كانت من المقرَّرات المدرسيَّة وأشاد بها أدباء العصر الأوغسطيِّ، لم يبقَ منها سوى شذرات قليلة.

يروى عن ستايتوس أنَّه كان أكثر المسرحيين الرومان فكاهة وإضحاكاً. وقد امتدح فارو حبكة كوميديَّاته وقوَّته العاطفيَّة. وكان يحتلُّ تقنيَّاً وتاريخيَّاً مكانة وسطى بين بلاوتوس وترنتيوس[١].

٣. ترنتيوس

هو بوبليوس ترنتيوس الأفريقيُّ P. Terentius Afer. أشهر شعراء الكوميديا الرومان بعد بلاوتوس، وُلد نحو عام ١٩٠ ق.م في قرطاجة. جاء أسيراً إلى روما وعاش في كنف سيناتور رومانيٍّ قام بتربيته وتعليمه بعدما اكتشف مواهبه، ثم أعتقه ومنحه اسمه. هذا الأمر أتاح له الاتِّصال مع طبقة النبلاء، وأن يصبح أحد أعضاء حلقة اسكيبيو الشهيرة. ولا يُعرف تاريخ وفاته، وثمَّة رواية تقول إنَّه لقي حتفه في أثناء سفره إلى بلاد اليونان عام ١٥٩ ق.م وهو في الحادية والثلاثين من عمره.

ألَّف ترنتيوس ستَّ مسرحيَّات كوميديَّة عُرضت في المهرجانات في الفترة (١٦٦-١٥٦ق.م)، وقد وصلتنا كاملة وكلُّها محاكاة وتقليد، وترجمة لمسرحيَّات ميناندروس

[1]- G.G. Williams, Oxford Classical Dictionary (2hd Edition 1970)p.187.

والكوميديا الأتيكيَّة الحديثة، وهي: فتاة أندروس، المعذِّب نفسه، الخصي، فورميو، الحماة، الإخوان[١]. وأهمُّ نماذجها:

-فتاة أندروس (Andria): تتحدَّث عن شاب أثينيٍّ يعتدي على فتاة عذراء على أنَّها أخت عاهرة من جزيرة أندروس، ثم يحاول إصلاح غلطته بالزواج منها، ولكن أباه كان يخطِّط لتزويجه من ابنة صديقه، الذي علم بالقصَّة فرفض ذلك. ويسعى الأب لتدارك الفضيحة بإتمام الزواج على عجل، ويقنع صديقه بالعدول عن رفضه، ولكنَّه ما كاد يعلم بتدبير من خادم الشاب أنَّ الفتاة حامل بطفل، حتى يرفض مجدَّداً بصورة قاطعة. وتشاء الصدف أن يأتيه ضيف من أندروس يكشف النقاب عن أنَّ تلك الفتاة وصلت الجزيرة بعد تحطُّم سفينتها.

ودلَّت ملابسات الحادث على أنَّها ليست سوى ابنة مضيفه، وهكذا اتَّفق الصديقان على تزويج الحبيبين، وانتهت المسرحيَّة بالفرح والحبور. ومن الأقوال المأثورة في هذه الكوميديا: «خصام المحبِّين تجديد الحب[٢]».

-الخِصي(Eunuchos): تدور أحداثها حول الشاب الأثينيِّ فايدريا الذي وقع في حبِّ الغانية ثايس، التي يتودَّد إليها قبطان مشهور يدعى ثراسو، والذي اشترى لها وصيفة من الإماء التقطها من جزيرة رودس.

وتكتشف ثايس أنَّ هذه الوصيفة من أصل أثينيٍّ عريق، ولكنها كانت قد اختطفت في طفولتها. وبما أنَّها كانت متلهِّفة لإعادتها إلىأسرتها، فقد استأذنت فايدريا أن تتظاهر بقبول عروض القبطان الغراميَّة لكي تحصل على الوصيفة. وفي الوقت نفسه، ابتاع فايدريا خصيَّاً قدَّمه إليها هديَّة. وكان خايريا-أخو فايدريا- قد رأى الوصيفة فأحبَّها من أول نظرة. ولكي يصل إليها تخفَّى في ملابس الخصيِّ، ودخل منزل ثايس وانتهز أول فرصة واغتصب هذه الوصيفة، ثمَّ تزوَّجها بعدما عرف أصلها.

أمَّا ثراسو فقد طردته ثايس بعدما نالت ما كانت تسعى له، وذهبت جهوده سدى لاسترداد الوصيفة.

---

[1]-G.W.Williams Terence , OCD 1970,P.10.

[٢]- أحمد عتمان: الأدب اللاَّتيني،مصدر سابق، ص ٦٨ بتصرُّف.

وأخيراً، تم إبرام اتفاق يسمح له بأن يقاسم فايدريا حب ثايس.

وقد ورد في مقدمة هذه المسرحية القول المشهور: «لم يبق من قول يُقال الآن، فقد قِيل كلُّ شيء من قبل[١]».

-الإخوان (Adelphoe):عُرضت عام ١٦٠ ق.م (مع مسرحيَّة الحماة) في إطار الألعاب الرياضيَّة الجنائزيَّة تكريماً للقائد الرومانيِّ ل.ايميليو سباولوس، بطل الحرب المقدونيَّة الثالثة عام ١٦٨ ق.م.

تقوم المسرحيَّة الثالثة على فكرة التناقض بين أخلاق المدينة وأخلاق الريف. كان لدى ديميا ولدان هما أيسخينوس وكتيسيفو، قام العم ميكيو بتربية الأول في المدينة على الدلال والسخاء، أمَّا الثاني فربَّاه أبوه في القرية على القسوة والبخل. وكانت النتيجة أنَّ أيسخينوس اغتصب سيدة أثينيَّة فقيرة فوقع في حبها وأراد أن يتزوَّجها. أمَّا كتيسيفو الريفيُّ فأحبَّ فتاة تعزف الموسيقى، ولكي يساعده أخوه اشتراها له من النخَّاس، وأحضرها إلى بيت العم ميكيو، الذي غفر له زلَّته ووافق على زواجه بالسيدة.

أمَّا ديميا فاستشاط غضباً بعدما أدرك فشل أسلوبه التربويِّ، وقرَّر التحوُّل إلى النقيض، والظهور بمظهر الرجل اللَّطيف، فأرغم أخاه المسنَّ على الزواج من أمِّ السيدة التي سيتزوَّجها ابنه، ومنح أهلها مزرعة من ممتلكاته، كما أرغمه على عتق عبده ومساعدته. وكلُّ ذلك ليثبت أنَّ التسامح يمكن أن يكون أيضاً وبالاً على صاحبه[٢].

بعد هذا العرض الموجز لبعض مسرحيَّات ترنتيوس، ينبغي إلقاء نظرة على عمله الدراميِّ. فرغم أنَّه كان أكثر إخلاصاً لأصوله الإغريقيَّة من بلاوتوس، حاول أن يعطي كلَّ مسرحيَّة من مسرحيَّاته خصوصيَّتها، وأن يضفي عليها الطابع الرومانيَّ في بعض التفاصيل إرضاء لجمهوره. ولكن شخصيَّاته ومكان الأحداث كانت دائماً إغريقيَّة.

لقد اهتم بموضوع العلاقة بين الآباء والأبناء وموضوع التربية، ونجح إلى حدٍّ كبير في

[١]- المصدر نفسه، ص ٧٣/ ٧٤ بتصرُّف. وتمَّت ترجمتها من قبل محمد سليم سالم وأحمد رفعت في سلسلة «روائع المرح العالمي»، الهيئة المصريَّة العامَّة للتأليف، القاهرة ١٩٦٤م.

[٢]- أحمد عتمان، الأدب اللاَّتيني، مصدر سابق، ص ٧٥ ت.

رسم الشخصيَّات الدراميَّة الجذَّابة، وبرع في تصوير الشخصيَّات النسائيَّة. لكنَّه واجه صعوبة في التوفيق بين أفكاره وأذواق النخبة المميَّزة، أعضاء حركة اسكيبيو من ناحية، وأذواق غالبيَّة الناس من الدهماء والعامَّة. وكان حريصاً على النقاء اللُّغويِّ. وقد وصفه يوليوس قيصر بأنَّه «عاشق اللَّفظ المصفَّى»، وبأنَّه «نصف مناندروس[١]». وفي الحقيقة، أنَّه كان يسعى لأن يصبح «مناندروس الرومان»، ونجح في تحقيق ذلك بالفعل[٢].

٤. نظرة نقديَّة في الأعمال الكوميديَّة

وأخيراً، لا بدَّ من التوقُّف وإلقاء نظرة نقديَّة، ولو سريعة، على هذا الإنتاج الدراميِّ (الكوميديِّ) الرومانيِّ ومحتواه، انطلاقاً من مبدأ أنَّ الكوميديا «مرآة الحياة».

أ- تُظهر هذه الأعمال الكوميديَّة الفساد والفجور ومظاهر الانحلال التي كانت تنخر في جسم المجتمعين الإغريقيِّ (الذي يجري تقليده) والرومانيِّ (الذي يتقبَّل بل ويهلِّل له)، إذ تدور معظم المسرحيَّات حول موضوع العشق والعلاقات الإباحيَّة غير الشرعيَّة، كما أنَّ كثيراً من العشيقات كنَّ يعملن في بيوت الدعارة المنتشرة في كلِّ مكان.

ب- تصوِّر الكوميديَّات المرأة كيف تُباع وتُشرى في أسواق النخاسة، لينتهي بها المطاف في بيوت الدعارة تحت رحمة النخَّاسين والقوَّادين الجشعين، الذين يستغلوها أبشع استغلال. وممَّا يلفت النظر أنَّ الزواج يتمُّ بعد الاغتصاب وكأنَّه ترضية أخلاقيَّة للمُثُل التي يرفعها المجتمع.

ت- تتجلَّى المفارقات الاجتماعيَّة بين السادة والعبيد حيث يظهر العبيد (وهم في معظمهم من أسرى الحرب السابقين) على الدوام أذكى من أسيادهم، ويحرِّكون الأحداث والدسائس والمؤامرات على خشبة المسرح، بينما في كثير من سادتهم لا همَّ لهم سوى الجري وراء شهواتهم وتحقيق نزواتهم، ولو كانوا في أرذل العمر.

ث- كان جلُّ اهتمام الجمهور الرومانيِّ ينصبُّ على المتعة والضحك، ومتابعة عروض السيرك الخليعة، ومبارزات المجالدين الدمويَّة، وليس على الأعمال الدراميَّة، وخير مثال

[١]- مناندروس، هو أبرز كاتب يونانيٍّ في مرحلة «الملهاة الأتيكيَّة الجديدة».

[٢]- المرجع نفسه، ص٧٩ -٨٠ ش.

على ذلك أنَّ مسرحيَّة «الحماة» تعطَّل عرضها مرَّتين لتلك الأسباب.

عاشراً: التراجيديا وشعراؤها

كانت التراجيديا، شأنُها شأن الكوميديا من الفنون الأدبيَّة الإغريقيَّة، التي جاءت إلى روما في أواسط القرن الثالث الميلاديِّ، وكانت البداية في عام ٢٤٠ ق.م عندما شاهدت الجماهير الرومانيَّة أول مسرحيَّة باللُّغة اللاَّتينيَّة لغتها القوميَّة. أمَّا أول ظهور للتراجيديا فكان عام (٢٤٠ ق.م) على يد ليفيوس أندرونيكوس، ولكن من المؤكَّد أنَّه جرى في عام (٢٣٥ ق.م) أوَّل عرض مسرحيٍّ تراجيديٍّ من يراع الشاعر نايفيوس، الذي وضع أُسس هذا الفن وأسلوبه ومحتواه. وهو مؤسِّس التراجيديا الرومانيَّة الوطنية المعروفة باسم فابولا برايتكستا (Fabula Praetexta)، حيث ألَّف فيها ثلاث مسرحيَّات هي رومولس(Romulus)، وكلاستيديوم (عن انتصار ماركلوس على زعيم الغالبين، الذي غنم أسلابه)، والذئبة(Lupus عن التوأمين رومولس وريموس).

ويُنسب إلى ليفيوس أندرونيكوس عناوين ثمان تراجيديَّات، لم يصلنا منها إلاَّ شذرات ومقطع من مسرحيَّة حصان طروادة (EquosTroianus). أمَّا الشاعر إنيوس فله نحو (٢٠) عنواناً (اثنا عشر منها بالاعتماد على يوريبيديس، وثلاثة على ايسخيليوس). وعدا ذلك، ألف تراجيديَّة رومانيَّة بعنوان السابينيَّات (Sabinae) حول اختطاف النساء السابينيَّات من قبل رجال رومولس. والغالبيَّة العظمى من هذه التراجيديَّات ترجمات من أصول إغريقيَّة.

في ما يلي، سنتعرَّف على أهمِّ شاعرين تراجيديَّين رومانيَّين وأعمالهما، وهما باكوفيوس وأكيوس.

١. باكوفيوس (٢٢٠ – ١٣٠ ق.م)

وُلد ماركوس باكوفيوسM.Pacuvius في بروندیزیوم في الجنوب الشرقيِّ من إيطاليا، وامتدَّ به العمر حتى عصر الغراكيين، ومات وهو في سن التسعين. كان قريباً للشاعر إنيوس، وعاصر الشاعر بلاوتوس، وقد اعتبره شيشرون أعظم التراجيديين الرومان.

كان مقلاً في إنتاجه الذي لم يزد عن ثلاث عشرة مسرحيَّة تراجيديَّة (إحداها تاريخيَّة

رومانيَّة)، لم يصلنا منها سوى (٥٠٠) بيت. ومن أعماله المعروفة مسرحيَّته (أورديستيس عبداً)، الذي أراد الانتقام لأبيه من أمه وعشيقها فتنكَّر بزيِّ أحد العبيد. ومن مسرحيَّاته أيضاً (الحمام) التي يخفض فيها من نغمة الأنين والبكاء في شخصيَّة أوديسيوس الجريح، وقد امتدح شيشرون إحدى فقراتها لأنَّها مكتوبة بروح رواقيَّة رومانيَّة تبرز فضيلة الرزانة (Gravitas). وبذلك فضَّله على يوربيديس.

وقدَّم أيضاً المسرحيَّة التاريخيَّة الرومانيَّة من نوع (Praetexta) وتسمَّى (باولوس) التي تمجِّد انتصاراته على المقدونيين عام (١٦٨ ق.م). أمَّا آخر مسرحيَّة له فعُرضت عام(١٤٠ق.م)،

كان باكوفيوس الشاعر الوحيد الذي نذر نفسه للفنِّ التراجيديِّ مثل بلاوتوس الذي اختصَّ بالفنِّ الكوميديِّ. وقد حقَّق نجاحاً كبيراً على المسرح، وظلَّت مسرحيَّاته تُعرض حتى بعد مماته وتُقرأ زمناً طويلاً. ويشير بلينيوس في تاريخه الطبيعيِّ إلى صورة لباكوفيوس رسمها الشاعر لنفسه بنفسه[١] - فقد كان رساماً أيضاً- ووُضعت بعد موته في معبد هرقل بروما تكريماً له.

٢. أكيوس (١٧٠ – ٩٠ ق.م)

وُلد لوكيوس أكيوسL. Accus عام ١٧٠ ق.م لأحد العتقاء في مقاطعة أومبريا الإيطاليَّة. عاش في روما، وقام برحلة ثقافيَّة إلى أثينا والمدن الإغريقية في آسيا الصغرى.

لم يكن عضواً في حلقة اسكيبيو إيميليانوس الأدبيَّة، ولكنه كان صديقاً لقنصل عام (١٣٧ ق.م) بروتوس كلاكيوس الخطيب ومحبِّ الهيلينيَّة، الذي رعاه وشجعه، فردَّ له الجميل بأن نظم له قصيدة بالوزن الساتورنيِّ لتنقش على جدران المعبد الذي أقيم لتخليد الانتصارات الرومانيَّة الاسبانية.

عرضت له أول مسرحيَّة تراجيديَّة عام (١٤٠ ق.م) في الثلاثين من عمره، مع مسرحيَّة منافسة لمعاصره باكوفيوس ابن الثمانين عاماً آنذاك. وكان غزير الإنتاج لكنَّه لم يتخصَّص بفن أدبي واحد – كما فعل باكوفيوس- وإنما كتب مؤلَّفات متنوِّعة ومنها:

[١]أحمد عتمان: الأدب اللاَّتيني، مصدر سابق، ص ٨٤ ت، بتصرُّف.

- **دايداسكاليكا (Didascalica):** في تسعة كتب تسجِّل تاريخ الأدب من عصر هوميروس حتى عصره، ولم يبقَّ من هذا العمل سوى (٢٢) سطراً شعراً ونثراً.

- **الحوليَّات (Annales):** وهي قصيدة بالوزن السداسيِّ شبيهة بقصيدة الأعياد للشاعر أوفيد.

- **المسرحيَّات:** وتُعرف له عناوين (٤٥) مسرحيَّة تراجيديَّة، منها اثنتان في التاريخ الروماني «بروتوس» (مؤسس الجمهوريَّة الرومانيَّة)، و«سلالة إينياس» (عن تضحية دكيوس بنفسه من أجل روما).

وكانت غالبيَّة مسرحيَّاته مترجمة عن يوريبيدوس وبعضها عن سوفوكليس، وتدور حول الأساطير الطرواديَّة، ولكنَّه كان مجدِّداً في تناوله لأصوله. «وقد تحرَّر في تقليده للإغريق ولكنَّه لم يكن عبداً لهم[١]».

وقد أُعجب الأدباء الرومان بأسلوب أكيوس المليء بالجناس اللَّفظيِّ والصوتيِّ، بالإضافة إلى أسلوب اللعب بالكلمات. وأهَّلته مقدرته اللُّغويَّة لنيل لقب (السامي) من الشاعر هوراس. كما اقتطف شيشرون العديد من فقرات أعماله، وقلَّده الشاعر فرجيل. فقد كان شاعراً بكلِّ معنى الكلمة، وترك بصمة واضحة في تاريخ اللُّغة اللاَّتينيَّة والأدب الروماني[٢].

من أقواله المأثورة: «دعهم يكرهوني طالما يخشونني».

٢. فنُّ الهجاء (ساتورا saturaا)

كانت النزعة الذاتيَّة، وحبُّ النقد، والانحياز السياسيُّ، من الظواهر المميَّزة ليس لفنِّ النثر الرومانيِّ فحسب، وإنما أيضاً لفنِّ الشعر المتمثِّل خصوصاً بالهجاء. ويظهر هذا في قصائد الشاعر غايوس لوكيليوس Caius Lucilius المسمَّاة ساتوراي Saturae [٣] (بصيغة

[١]- أحمد عتمان، الأدب اللاَّتيني، مصدر سابق، ص؟؟؟؟، بتصرُّف.

[2]- G. W.Williams , Accius in OCD P. 2F.-2

[٣]- كلمة ساتورا تعني «أشعار متنوِّعة »، بينما يرى آخرون أنَّها تعود إلى كلمة اتروسكيَّة بمعنى تحث (Satr)، وبالتالي فإنَّها تعني بصيغتها الأدبيَّة « حديث حرٌّ «(أي بلا قيود). أنظر: O.H iltlrunner , K leinesLexikon der Antike (1964) s.358f .

الجمع)، التي يمتزج فيها الشعر مع النثر، حتى أنَّ الشاعر نفسه سمَّاها – وقلَّده في ذلك الشاعر هوراس في ما بعد – الأحاديث Sermones. وكان هذا النوع من الشعر متأصِّلاً في التقاليد الرومانيَّة والإيطاليَّة، ولكنه اقترن – بعدما أصبح جنساً أدبيَّاً- باسم الشاعر لوكيليوس وعصره.

يعدُّ لوكيليوس أول شاعر رومانيٍّ يتمتَّع بمركز اجتماعيٍّ مرموق، فهو ليس مثل أغلب من سبقوه من الشعراء من أصول وضيعة، إذ إنَّه ولد في أسرة رومانيَّة ثريَّة في بلدة تقع على حدود مقاطعة كمبانية نحو عام ١٨٠ ق. م. وقد توفيٍّ وهو رجل مسنٌّ عام ١٠٢- ١٠١ ق.م وتقديراً لمكانته أقيمت له جنازة رسميَّة، مع أنَّه لم يتقلَّد أيَّ منصب حكوميٍّ.

خدم لوكيليوس في سلاح الفرسان تحت إمرة صديقه سكيبيو أفريكانوس الأصغر في نومان(الإسبانيَّة) عام ١٣٤- ١٣٣ ق.م. وسافر إلى اليونان حيث انكبَّ على دراسة الفلسفة، وقضى وقتاً طويلاً في أثينا حيث أهداه رئيس أكاديميَّة أفلاطون أحد مؤلَّفاته الفلسفيَّة، ولكن غلبت عليه أفكار المدرسة الأبيقوريَّة. كما كان صديقاً حميماً للقائد العسكريِّ الشهير ورجل الدولة المثقَّف اسكيبو إمليانوس أفريكانوس (١٨٥- ١٢٩ ق.م)، ومن أعضاء حلقته الأدبيَّة والفلسفيَّة ذات التوجُّهات الهيلينيَّة[١]. أمَّا في حياته الخاصَّة، فلم يكن من أعداء المرأة، ولكنه أضرب عن الزواج، ليبقى سيِّد نفسه كما يقول، وإن كان يرى فيه واجباً وطنيَّاً. وقد صرح في إحدى قصائده قائلاً: «يثقل الناس كاهل بعضهم بعضاً، فهم يتزوَّجون وينجبون الأطفال لكي يتقاسموا في ما بينهم متاعبهم... [٢]».

لم يبدأ لوكيليوس بنظم الشعر الهجائيِّ إلاَّ بعد عودته من نومانتيا، وكان آنذاك قد خبر الحياة وبلغ أوج نضجه. وسرعان ما تداول الناس قصائده قبل أن تُجمع وتُنشر أولاً في مجموعتين، ثمَّ في طبعة كاملة تضمُّ ثلاثين كتاباً بعد وفاته، ولكن لم يصلنا منها سوى (١٣٠٠) بيت. يبدأ أحد كتبه بحوار يدافع فيه عن أشعاره الهجائيَّة، وكيف أنَّ إحساسه الشديد يدفعه إلى كتابة هذا النوع من الشعر. كما يبدي معارضة ساخرة بالتراجيديا(ويقصد بذلك الشاعر أكيوس) لأسلوبه الفضفاض. ويعود نقده اللاَّذع إلى اهتمامه الشديد بإصلاح

[١]- سبق الحديث عنها في هذا البحث ص؟؟؟؟؟

[٢]- أحمد عتمان: الأدب اللاَّتيني ودوره الحضاري (١٩٨٩)، ص ٩١.

حروف الهجاء وضبطها ونطقها، وأصول الكتابة باللُّغة اللاَّتينيَّة. ويصف في كتاب آخر مأدبة لبعض الفلاسفة الأثينيين وما دار فيها من حوار (Symbosion)، ويعرِّج على مغامرات بعض العشَّاق الرومان. كما يشنُّ هجوماً لاذعاً في كتاب آخر على شعراء الملاحم والكوميديا. وقد اقتطف الكتَّاب اللاَّحقون بعض الفقرات من أشعاره، ومنها ذلك الوصف لرجل بخيل لا يترك كيس نقوده يفلت من يده ليلاً ونهاراً وفي حال اليقظة والنوم.

ولا تخلو كتب لوكيليوس من النقد السياسيِّ والاجتماعيِّ والأدبيِّ. وقد مكَّنه انتماؤه إلى الطبقة العليا، وثراؤه الكبير، وصلاته بذوي النفوذ والحكَّام، من نقد مساوئ المجتمع وفساد رجال السياسة بحرِّيَّة وجرأة غير معهودة. وهو يقول في إحدى قصائده منتقداً الجشع والاستغلال: لقد أصبح متعهِّدو الضرائب (publicani) في ولاية آسيا الصغرى (تركيا حالياً) يجنون الأموال الطائلة من عائدات الأملاك العامَّة الرومانيَّة بلا حسيب أو رقيب. كلا، لا أريد هذا ولو بكلِّ كنوز الدنيا[1]». وهكذا، فإنَّ قصائده تعكس الفساد المنتشر في المجتمع الرومانيِّ، وتُعدُّ من الوثائق المهمَّة لعصره الذي تفجَّرت فيه الصراعات السياسيَّة وعلى رأسها حركة الأخوين غراكوس. كان إنتاجه الشعريُّ يتدفَّق سريعاً وبكلِّ يسر وسهولة، كأنَّه يغرف من بحر (فهو يشبه الشاعر العربيَّ حرير)، ولهذا انتقده هوراس، رغم تقديره الكبير له، لأنَّه لم يصقل شعره. تجمع قصائده بين السخرية والدعابة والتهكُّم اللاَّذع والنقد الجارح، وكذلك أقوال الحكمة اللَّطيفة ووعظ الفيلسوف المتجوِّل في الشوارع متشبِّهاً بالفيلسوف سقراط والفلاسفة الكلبيين. وكان يستخدم في أشعاره أسلوب الحوار وصيغة الرسائل، ويلجأ إلى الاستطرادات فيتحدَّث عن قصائده وتأمُّلاته الذاتيَّة ومغامراته وأسفاره ومشاهد مسلِّيَّة عايشها.

كان لوكيليوس يكتب أشعاره باللُّغة الدارجة، لغة الحديث اليوميِّ بين طبقة المثقَّفين ويطعِّمها بكلمات وتعابير إغريقيَّة. وتتَّصف لغته بالقوَّة البالغة، والشعر الساتوري يتميَّز على العموم – في تلك المرحلة – بخشونة اللُّغة وفحشها أحياناً، وهي سمة أساسيَّة في فن الهجاء الرومانيِّ. وهو استعمل في البداية أوزاناً شعريَّة متعدِّدة، ثمَّ تخلَّى عنها واقتصر على الوزن السداسيِّ، الذي صار في ما بعد البحر المفضَّل للشعر الهجائيِّ الرومانيِّ.

[1]- K.Christ , Die Romer S. (147)-1

صفوة القول أنَّ هجائيَّات لوكيليوس في جوهرها وأسلوبها كما في عنوانها « الساتوراي»رومانيَّة أصيلة[١]»، وهي تدلُّ على أنَّ مبدعها وضع نصب عينيه هدفاً سامياً، ألا وهو تعليم القارئ وتثقيفه، وجعل من الساتورا جنساً أدبيَّاً يعدُّ الوحيد الذي ابتكره الرومان. ولقد حظي هذا الشاعر بتقدير كبير في حياته، ووضعه البعض في صدارة الشعراء الرومان، وأشاد به أدباء العصر الذهبيِّ وعلى رأسهم شيشرون وفارو وهوراس وسواهم، وعدُّوه رائد الشعر الهجائيِّ الرومانيْ.

حادي عشر: فنُّ النثر

سبق النثر الرومانيُّ (Prosa) فنَّ الشعر (Poesie)، واكتسب صفاته المتميِّزة قبل وصول التأثيرات الإغريقية إلى روما[٢]. وقد مهَّدت الخطابة والحوليَّات الكهنوتيَّة لظهور هذا الفنِّ على أيدي الخطباء والمؤرِّخين القدماء، كما ساعدت نصوص القوانين الاثني عشر المعلنة على الملأ، والتي كان يحفظها التلاميذ الرومان عن ظهر قلب، على تطوُّر فنِّ النثر الأدبيْ.

ينسب الرومان أوَّل مؤلَّف بالنثر لرجل الدولة الشهير الرقيب أبيوس كلاوديوس، وهو أول شخصيَّة معروفة بالاسم في الأدب الرومانيِّ، وينسب إليه أول مؤلَّف نثري باللغة اللاتينية (كايكوس الأعمى (Appius Cloudivs) الذي كلَّف كاتبه بنشر تقويم قضائيٍّ يتضمَّن أيضاً صيغ الدعوى القانونيَّة، والتي كانت امتيازاً تحتكره طبقة الكهنة. كما ألَّف كتاب (كارمينا Carmina) الذي يتضمَّن مجموعة من الحكم الأخلاقيَّة والأقوال المأثورة باللاَّتينيَّة (ومنها: كلُّ إنسان هو صانع سعادته). ومن مواقفه أنَّه عندما أراد مجلس الشيوخ قبول شروط السلام مع بيروس عام ٢٨٠ق.م أمر بأن يحمل وهو العجوز الأعمى إلى المجلس حيث ألقى خطبة مشهورة دعا فيها الرومان إلى مواصلة القتال، فكان له ذلك. وهي أقدم خطبة لخطيب رومانيٍّ دُوِّنت ونُشرت وتداولها الناس حتى عصر شيشرون[٣].

---

[١]- أحمد عتمان: الأدب اللاَّتيني ودوره الحضاري (١٩٨٩)، ص ٩٥.

[٢]- وهذه ظاهرة ينفرد بها الرومان عن غيرهم من الشعوب التي سبق تراثها الشعريَّ (مثلاً ملاحم هوميروس) أدبها تراثها النثريْ.

[٣]- كان أول شخصيَّة معروفة في الأدب الرومانيِّ تقلَّد القنصليَّة مرَّتين ديكتاتوراً، وشغل منصب الرقيب (Censor) عام ٣١٢ ق.م وقام بشق طريق أبيا (Via Appia) إلى منطقة كمبانيا كما مد اول قناة لمياه الشرب إلى روما (Appia (Aqua . أنظر-Hilt brummerKl.Lex d Ant.S65 ومنح العنقاء حقوق المواطنة.

أمَّا أبو النثر اللاَّتينيِّ، ورائد الاتِّجاه القوميِّ الرومانيِّ في الأدب وفي الحياة السياسيَّة، فهو كاتو الأكبر (٢٣٤- ١٤٩ ق.م) الذي اشتهر بالرقيب كنسور Censor [١].

هو ماركوس بوركيوس كاتو كنسوريوسM.Porcius Cato Censorius ، وكان رجلاً متعدِّد المواهب، إذ اشتهر أديباً وخطيباً ومؤرِّخاً، ومع ثقافته الواسعة كان من أشدِّ المعارضين لانتشار مظاهر الحياة الإغريقيَّة، التي يعتقد أنَّها تؤدِّي إلى تدمير «القيم» الرومانيَّة المتوارثة، ومع أننا لا نعرف عن أيِّ القيم يتحدَّث، فقد شنَّ حملة شعواء على الهيلينيَّة وأنصارها (Philhellenism)، ولا سيَّما حلقة أسكيبيو أكبر دعاتها. ومن أقواله: حينما يعطينا هذا الشعب (أي الإغريق) أدبه، فإنَّه سيدمِّر كلَّ شيء[٢].

وانطلاقاً من موقفه هذا، عمل على طرد الفلاسفة الإغريق من روما عام ١٦١ ق.م، وإغلاق مدارس الخطابة والبلاغة، وحذَّر ابنه من دراسة كتبهم والتداوي عند أطبائهم بقوله: لقد تآمر الأطباء الإغريق في ما بينهم من أجل القضاء بأدويتهم على البرابرة – ولاسيَّما الرومان – حتى أنَّهم يتقاضون أجراً على ذلك ليكونوا محلَّ ثقة ضحاياهم.

من جانب آخر، كان كاتو خطيباً يفيض حماسة في مهاجمة خصومه من أفراد الطبقة الأرستقراطيَّة بلغة شخصيَّة وتعابير قويَّة. وبينما كان معاصروه من رجال الفكر يكتبون بالإغريقيَّة، فإنَّه اختار اللاَّتينيَّة في كتاباته، وهكذا أصبح مؤسِّس أسلوب نثريٍّ في مختلف مجالات النثر اللاَّتيني(في الخطابة والتعليم والتدوين التاريخيِّ) سيتطوَّر وصولاً إلى قمَّته على يد شيشرون. وأهم مؤلَّفاته:

١-الأصول Orignes: في سبعة كتب يعالج فيها تاريخ المدن الإيطاليَّة وعلى رأسها روما من بداياتها الأسطوريَّة حتى عصره ؛ ولكنه لم يتَّبع أسلوب كتاب الحوليَّات الذين يسردون الأحداث عاماً فعاماً، وإنَّما كتب تاريخاً متَّصلاً لأهمِّ الأحداث والوقائع حتى أيامه.

[١]- كان كاتو رجلاً عصاميَّاً (Homo Novus) ينتمي إلى طبقة الفرسان، وهو أول من وصل من أسرته إلى منصب القنصليَّة، وتقلَّد أعلى المناصب. ولد في منطقة توسكوم، ومارس الأعمال الزراعيَّة قبل دخوله ميدان الخدمة العامَّة. شارك في الحرب الهاينباليَّة، وعيِّن والياً على جزيرة سردينا حيث اصطحب معه الشاعر إينوس إلى روما، وكان مثال الرومانيِّ المتمسِّك بالعادات والتقاليد، وخصماً عنيداً للتجديد والهيلينيَّة.

[2]-Pleticha Schonberger , Die Romer (1977) s. 191.

كانت الأصول أول تاريخ رومانيٍّ باللُّغة اللاَّتينيَّة، ولكنَّه مثل كثير من المؤلَّفات القديمة فقد معظمه ولم يصلنا منه سوى شذرات.

٢-الزراعة De Agri Cultura: وهو أول مؤلَّف في بابه، كُتب نثراً باللُّغة اللاَّتينيَّة والوحيد الذي وصلنا كاملاً، وهو ليس كتاباً تعليميَّاً عن الزراعة وإنَّما يتضمَّن تجارب كاتو الحياتيَّة وخبراته، بالإضافة إلى تجارب معاصريه وكثير من الأمور العمليَّة، حيث يرى مؤلِّفه أنَّ أفضل مردود يتأتَّى من زراعة الكرمة والزيتون، ويُعتقد أنَّه اعتمد فيه على مؤلَّف قرطاجيٍّ في هذا الموضوع اطَّلع عليه من خلال زيارته لقرطاجة، التي كان من أكبر أعدائها، وكان يستهلُّ خطبه في مجلس الشيوخ وينهيها بمقولته الشهيرة: يجب تدمير قرطاجة (Carthago delendaest[١]).

ثاني عشر: فنُّ الخطابة

كانت الخطابة في العصور الكلاسيكيَّة تحظى بأهميَّة كبرى؛ فهي بالنسبة إلى السياسيين وسيلة لكسب الجماهير الشعبيَّة، وبالنسبة إلى الأفراد سلاح أمام المحاكم، حيث كان كلُّ شخص يدافع عن نفسه بنفسه (لأنَّه لم يكن هناك محامون بالمعنى الحديث للكلمة). لذلك سعى الناس للتدرُّب عليها وإيجاد نظريَّة تعليميَّة لهذا الفنِّ. وقد قسَّم أرسطو الخطابة إلى ثلاثة أنواع: السياسيَّة والقضائيَّة والاحتفاليَّة وجعلها إلزاميَّة للفيلسوف.

كانت الخطابة تشكِّل قسماً من علم البلاغة (ريطوريقا Rhetorika)، وقد تبنَّاها الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد كجزء من النظام التعليميِّ، ولكنَّه لقي معارضة شديدة من كاتو زعيم الاتِّجاه القوميِّ وأنصاره؛ لأنَّها تركِّز على الصيغة الجماليَّة للكلمات وليس محتواها . وكان من نتيجة ذلك أن تمَّ نفي معلِّمي الخطابة الإغريق من روما عام ١٦١ق.م، ولكن فنَّ الخطابة الإغريقيَّة خرج منتصراً في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد أي بعد موت كاتو.

وقد اهتمَّ الرومان بالخطابة منذ أوائل العصر الجمهوريِّ بسبب طبيعتها العمليَّة كوسيلة للصعود السياسيِّ وهي تنقسم إلى فرعين: الخطابة السياسيَّة وخطابة الرِّثاء على المتوفِّين

[1]-P. Schonberger , Die Romer S.253.

وتمجيدهم (أمَّا الخطابة أمام المحاكم فلم تزدهر إلاَّ في عصر متأخِّر).

أمَّا أقدم خطبة معروفة في الأدب الرومانيِّ فهي تلك التي ألقاها أبيوس كلاوديوس عام ٢٨٠ ق.م أمام مجلس الشيوخ، ودعاه فيها إلى رفض السلام مع الملك بيروس، ومواصلة القتال حتى النصر، وبلغت من شهرتها أنَّها بقيت متداولة حتى عصر شيشرون، ولكنَّ أعظم خطيب رومانيٍّ في القرن الثاني قبل الميلاد كاتو الأكبر، وهو أول من دوَّن خطبة ونشرها وأدخلها بالتالي في نطاق الأدب، وقد بلغ مجموعها (١٥٠) خطبة، غير أنَّه لم يصلنا منها سوى مقتطفات وشذرات ومن أشهرها خطابه دفاعاً عن الرودوسيين عام ١٦٧ ق.م الذي أنقذهم من عقاب الرومان بسبب موقفهم في الحرب ضدَّ الملك المقدونيِّ برسيوس. كما كتب تعليمات لتدريب ابنه على الخطابة - ولكن لم تصلنا - وكانت وصيَّته الجوهريَّة فيها « ضع الموضوع نصب عينيك، تأتِك الكلمات من ذاتها ». أمَّا أسلوبه فكان يتَّسم بالبساطة والإيجاز وقوَّة التعبير وخال من المحسَّنات البديعيَّة، وكان لخطبه تأثير على الخطباء اللاَّحقين.

وإلى جانب كاتو، كان الأخوان غراكوس أهمَّ الخطباء في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، وهما يدينان لأمهما كورنيليا بموهبتهما الخطابيَّة، وتلقَّيا تدريبهما في مركز الخطابة الشهير في رودوس، ونهلا أفكارهما من حلقة اسكيبيو الأصغر المحبِّ للهيلينيَّة.

اشتهر الأخ الأكبر تيبريوس Tiberius Gracchus بخطبته (١٦٢- ١٣٣ ق.م) التي يصف فيها أحوال الفلاَّحين الرومان المزرية (١٣٣ ق.م)، والتي جاء فيها :إنَّ كلَّ الحيوانات، التي تعيش في إيطاليا عندها كهوف وملاجئ تأوي إليها، ولكن الرجال الذين حاربوا وماتوا من أجل إيطاليا يتيهون اليوم مع نسائهم وأطفالهم بلا بيت، لكن القادة يكذبون عندما يدعون جنودهم للقتال من أجل القبور والمقدَّسات، مع أنَّه لا يوجد بينهم من يملك مذبحاً في البيت أو قبراً لأجداده. يقال عنهم أسياد العالم، ولكن ليس عندهم قطعة أرض يعيشون منها[١].

كما أنَّ أخاه غايوس Caius Gracchus (١٥٣ - ١٢١ ق.م) كان خطيباً مفوَّهاً، وقد فاق أخاه بكلماته المؤثِّرة وأسلوبه، وكانت خطبه تثير العواطف. وقد لقي الاثنان حتفهما بسبب مشاريعهما الإصلاحيَّة. أمَّا أمهما كورنيليا Cornelia ابنة سكيبيو الأكبر فكانت امرأة واسعة، وقد وصلتنا عنها مقاطع من رسالتها الشهيرة إلى ابنها غايوس عام ١٢٤ ق.م تحثُّه فيها على

[1]-Pleticha Schonberger , Die Roemer (1977)S.187.

عدم ترشيح نفسه لمنصب محامي الشعب، وجاء فيها: « يا بني، إذا كان ذلك من المحال حقّاً فاصبر قليلاً حتى أفارق الحياة، وافعل بعد ذلك ما تشاء، ورشِّح نفسك نقيباً للعامَّة. افعل ما يحلو لك طالما لن أكون على ظهر الأرض، ولن أجني ثمار أفعالك. وعندما أموت سوف تقدِّم القرابين على قبري وتدعوني أمَّك المبجَّلة[١]».

لقد ارتبط صعود الخطابة وهبوطها بصورة وثيقة بطبيعة النظام السياسيِّ الرومانيِّ، إذ ازدهرت في خلال تصدِّي كاتو لتيَّار الهيلينيَّة، وفي خضمِّ الصراع الدمويِّ العنيف حول الإصلاحات الاجتماعيَّة في زمن الأخوين غراكوس، وبلغت أوجها على يد الخطيب الأشهر شيشرون في أواخر العصر الجمهوريِّ، ثمَّ انحدرت في العصر الأمبراطوريّ.

ثالث عشر: الكتابات والتدوين التاريخيّ

كان التاريخ من بين كلِّ الأجناس الأدبيَّة يحظى بأرفع مكانة عند الرومان، الذين جاء مؤرِّخوهم الأوائل من الأسر الرومانيَّة العريقة ومن رجال السياسة الذين شاركوا في صنع الأحداث قبل أن ينصرفوا إلى التدوين التاريخيِّ، الذي رأوا فيه وسيلة لصعودهم السياسي. وهكذا، فإنَّ التاريخ كان يخدم في المقام الأول الدعاية السياسيَّة وكان أداة في الصراعات الاجتماعيَّة، وبالتالي لم يكن يسعى لتدوين الأحداث بروح موضوعيَّة نابعة من الجهد الذاتيِّ والبحث النقديِّ. ومن الغريب أنَّهم كتبوا تواريخهم باللُّغة الإغريقيَّة والتي عرفت باسم الحوليَّات القديمة، وفي مقدِّمتهم المؤرِّخ السياسي فابيوس بيكتورFabius Pictor[٢] الذي شارك بفعاليَّة في أحداث عصره، وبدأ تاريخه من تأسيس روما حتى الحرب الهاينباليَّة.

كان الهدف من الكتابة الإغريقيَّة تبرير سياسة الرومان في الحروب البونيَّة والردَّ على الكتَّاب الإغريق، الذين سجَّلوا الأحداث من وجهة النظر القرطاجيَّة. كان منهجهم في التأليف رومانيَّاً، وانطلقت رؤيتهم وأعمالهم من منظور قوميٍّ[٣]، وكان تسجيلهم للأحداث بحسب السنين مأخوذاً من الألواح الكهنوتيَّة المعروفة بالحوليَّات العظمى AnnalesMaximi والتي جمعت عام ١٢٣ ق. م برعاية الكاهن الأعظم موكيوس سكايفولا، وصدرت في ثمانين كتاباً،

[١]أحمد عتمان، الأدب اللاَّتيني ودوره الحضاري (١٩٨٩) ص ١٠٩.

[٢]- هو أوَّل شخصيَّة تاريخيَّة معروفة كان من طبقة النبلاء، وعضواً في مجلس الشيوخ، شارك في الحرب البونيَّة الثانية وذهب على رأس وفد إلى اليونان لاستشارة وحي دلفي وشرح السياسة الرومانيَّة.

[3]-F. Altheim , Rom and der Hellenismus (1942) S.34 .

وشكّلت سجلاً لأهمِّ الأحداث والوقائع السياسيَّة والاجتماعيَّة والظواهر الطبيعيَّة وغيرها. ورغم ضآلة معلوماتها التاريخيَّة، إلاَّ أنَّ شيشرون، وبموقف لافت، اعتبر أنَّها قدَّمت مادَّة مهمَّة عن تاريخ العصر الجمهوريِّ الباكر، وكانت منطلقاً للتدوين التاريخيِّ الرومانيِّ[١].

الجدير بالذِّكر أنَّ أهمَّ مؤلَّف صدر باللُّغة الإغريقيَّة حول تاريخ صعود روما إلى قوَّة عظمى في القرن الثاني قبال الميلاد، جاء على يد المؤرِّخ الإغريقيِّ بوليبيوس Polybios (٢٠٠- ١٢٠ ق.م) الذي كان من أعضاء حلقة سكيبيو المشهورة. وقد اعتمد على فابيوس بيكتور في تاريخه للحروب البونيَّة بين روما وقرطاجة في القرن الثاني ق. م.

ولقد أصبحت اللاَّتينيَّة أداة التعبير المعتادة للمؤرِّخين الرومان بفضل جهود وكتابات كاتو الأكبر، وعلى رأسها تاريخه المعنون بالأصول Origines. وما إن جاءت نهاية ذلك القرن حتى أصبحت اللاَّتينيَّة اللُّغة الوحيدة للتعبير الأدبيِّ، وترسَّخت مكانتها في وعي المثَّقفين الرُّومان. كان كاتو يهدف من تاريخه إلى إظهار فضائل الرومان، وتفوُّقهم مع الإيطاليين على الإغريق، في استعلاء لا يبتعد عن استعلاء الإغريق أنفسهم. وقد بدأ تدوينه بعد تقدُّمه في السنِّ واعتزاله الحياة العامَّة (نحو ١٦٠- ١٤٩ ق.م)، واعتمد على فابيوس بيكتور والسجلاَّت الكهنوتيَّة وتجاربه الخاصَّة في الحرب البونيَّة الأولى. واللاَّفت في كتابه إغفال أسماء القادة والأبطال الرومان الذين ينسب بطولاتهم إلى الشعب الرومانيِّ، مع التأكيد على أنَّ الدولة بنظامها الجمهوريِّ لم تكن من صنع فرد واحد وإنَّما كانت من صنع الكثير من الشخصيَّات[٢].

مخطوطة رومانيَّة ترجع للقرن الأوَّل الميلادي

[1]-M, Cary, AHistorz of rome. p270.

[2]-D.Schonberger, Die Roemer. (1977)s.298 .

خاتمة

لقد تأثَّر الأدب الرومانيُّ في كلِّ عصوره بالأدب الإغريقيِّ والثقافة الإغريقيَّة، وكانت ولادته الحقيقيَّة في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد في أعقاب الحرب البونيَّة، بعدما أصبحت روما قوَّة كبيرة في عالم البحر المتوسِّط. وكان الرُّومان قد اقتبسوا الأبجديَّة الإغريقيَّة، والتي اقتبسها الإغريق بدورهم من الفينيقيين، ودوَّنوا بها أولى كتاباتهم وقوانينهم، ثمَّ بدأ تأثُّرهم العميق فتعرَّفوا على أجناس الأدب الإغريقي وأشكاله ومواضيعه، فترجموا، وقلَّدوا، وأعادوا صياغة الأعمال المسرحيَّة التراجيديَّة والكوميديَّة.

وقد عاش الرومان تحت نوع من التبعيَّة الأدبيَّة والفكريَّة، لكن ذلك لا ينفي كونهم أبدعوا أعمالاً تعبِّر عن طبيعتهم وميولهم، من فنون الكتابة النثريَّة والخطاب إلى التأريخ باللُّغة اللاَّتينيَّة، والتي بدأت تكتسب قوة التعبير ودقَّته وسلاسته، وتتخلَّى عن خشونتها السابقة مع الاحتفاظ بسِمَتها الأساسيَّة وهي الإيجاز.

وكانت الخطوة الحاسمة في مسيرة ذلك عبر ليفيوس أندرونيكوس، ثمَّ تلاه الشعراء نايفيوس وإيينوس وبلاوتوس وتيرنس وغيرهم. ورسَّخ لوكيليوس أكثر الأجناس الأدبيَّة أصالة عند الرومان وهو فنُّ الهجاء، وبرز من الخطباء الأخوان غراكوس، والمؤرِّخون من طبقة النبلاء، ليؤكِّدوا على السِّمات الرومانيَّة واعتزازهم بماضيهم، وترافق ذلك مع صراعات سياسيَّة وفكريَّة بين المحافظين المتمسِّكين بالتراث وقيم الأجداد، والمجدِّدين الذين انتظموا في حلقة سكيبيو من أصدقاء ومحبِّي الهيلينيَّة، التي خرجت منتصرة في ذلك الصراع، وشكَّلت الأساس الذي انطلق منه الأدب الرومانيُّ في مرحلة لاحقة.

لائحة المصادر المراجع

١. أحمد عتمان: الأدب اللاَّتينيُّ ودوره الحضاريُّ: (عالم المعرفة ١٤١ الكويت)، ١٩٨٩.

٢. محمد محفل: المدخل إلى اللُّغة اللاَّتينيَّة (مطبعة جامعة دمشق)، ١٩٨٧.

٣. محمد محفل - محمد الزين: دراسات في التاريخ الروماني (مطبعة جامعة دمشق)، ١٩٨٢.

4. A.Berger , Twelve Tallets, Oxford Classical Dictionary (Oxford)1970.

5. M.Cary , A History of Rome (London)1967.

6. K. Christ , Die Romer , eine Einfuhung in ihre Geschichte und Zivilisation(Munchen)1984.

7. J.Collart Grammaire du Latin Que sais –Je.3 emeEdition (Paris) 1975.

8. N.G.L Hammond -H.H.Scullard , the (Oxford) ClassicalDictionary 2 hd Edition (Oxford)1970.

9. O.Hiltbrunner , Kleines Lexikon der Antike (Muenchen) 1964.

10. J.Irmscher , Lexikon der Antike (Leipzig)1977.

11. Fr. Klinger , Romisch Geisteswelt (Muenchen)1965.

12. H. Lammer , Woerterbuch der Antike 6. Auflage (Stuttgart)1963.

13. P.S Noble , Latin Language ,Oxford Classical Dictionary (Oxford)1970

14. J.M.Reynolds,Epigraphy Latin ,Oxford Classical Dictionary (Oxford)1970.

15. P.Schoenberger , Die Roemer (Gueterslols)1980 .

16. G.W.Williams, Livius Andronicus, Oxford Classical Dictionary

17. (Oxford)1970.

الديانة الرومانيَّة

رفاه محمد تحسين البوشي الدباغ[١]

مقدّمة

تُعتَبر الحياة الدينيَّة بصورة عامَّة خيطاً يربطنا بأول فكرة تعبُّديَّة تطرَّق إليها فكر الإنسان منذ أقدم العصور حتى الوقت الحالي، وتتشابه الأديان القديمة بشكل كبير، حيث تبدو كأنَّها صادرة عن مبدأ واحد وهو تصوُّر إله وحيد سمَّاه سكان كلِّ منطقة اسماً دالاًّ على إحدى صفاته.

وتلعب دراسة الحياة الدينيَّة لأيِّ شعب من الشعوب دوراً هامَّاً، ينعكس من خلاله التطوُّر الفكريُّ الذي ألمَّ بهذا الشعب، ومدى مرونة أُسُسه وقابليَّتها للاستيعاب من غيرها، كما يصوِّر أصالة الشعب ومدى ارتباطه بالمعتقدات التي توارثها عبر الأجيال المتعاقبة، فالدين مركز اهتمام الإنسان ومحور تفكيره وتنظيم مجتمعه. وقد تسربت إلى بلاد الرومان العديد من معتقدات الأمم والشعوب القديمة وفي مقدِّمتهم اليونانيون والفينيقيون والمصريون، فالرومانيُّ كان يتقبَّل إله أيِّ أمة يحتكُّ بها.

من خلال هذا البحث، سيتمُّ الحديث عن الديانة الرومانيَّة وجذورها وأهمِّ مؤسَّساتها الدينيَّة والكهنوتيَّة ومعتقداتهم، والتأثيرات الخارجيَّة التي وصلت إليهم.

أوَّلاً: جذور الديانة الرومانيَّة

ارتبط الدين الرسميُّ الرومانيُّ بالتقلُّبات السياسيَّة في تاريخ الرومان، من عصر ملكيٍّ إلى جمهوريٍّ إلى أمبراطوريٍّ، وما تضمَّنه من صراعات متنوِّعة. وكل ذلك منع الراحة الذهنيَّة

---

[١]- دكتوراه في تاريخ الشرق القديم.

في عقول الرومان، ولهذا شهدوا ضعفاً في حياتهم الفكريَّة والدينيَّة، نتيجة الاقتباس الدينيِّ من المحيط المجاور[١].

ويمكن تصنيف المصادر المباشرة التي استقت منها الديانة الرومانيَّة عقائدها ضمن الجذور التالية:

١. الجذور الأتروسكيَّة

كان للأتروسك معتقدات دينيَّة خاصَّة اعتزُّوا بها ولم يدمجوها مع معتقدات أخرى، فالإلهة الأمُّ كان اسمها فولتمنا voltumna، كما كانت عقائد ما بعد الموت تشكِّل أساس هذه الديانة، ولذلك احتلت إلهة الموت ثوفلثا thufltha مكانة فريدة في مجمع آلهتهم، وعبدوا في ما بعد إلهة أصبحت جزءاً من البانثيون الروماني، وهي يوني uni التي أصبحت عند الرومان جونون وهي زوجة الإله جوبيتر، وتينا tinna الذي كان إلهاً للعاصفة والصاعقة والبرق، وهو إله المشتري الذي أصبح عند الرومان جوبيتر، ومنيرفا Minerva التي أصبحت الإلهة العذراء إلهة الحكمة الرومانيَّة، وكذلك ميركو merku الذي أصبح الإله عطارد (ميركوري). كل هذه الآلهة المشتركة بين الأتروسك والرومان كانت ذات جذور أتروسكيَّة[٢].

٢. الجذور الإغريقيَّة

خلال فترة اتِّساع الأمبراطوريَّة الرومانيَّة تغلغلت التأثيرات الإغريقيَّة في الديانة الرومانيَّة بشكل ملحوظ، وإذا جاز لنا وصف الديانة الأتروسكيَّة كأهمِّ ينابيعها في العصر الملَكي، فيمكننا القول أنَّ الديانة الإغريقيَّة كانت أهم ينابيعها في العصر الجمهوريِّ. فلم يأت القرن الثالث قبل الميلاد على نهايته حتى كان الرومان يعترفون رسميَّاً بمجموعة من الآلهة الكبرى تماثل الآلهة الإغريقيَّة الاثني عشر التي كانت تؤلِّف مجموعة آلهة الأولمب، وكانت النتيجة الطبيعيَّة لذلك هي أنَّ الآلهة ذات الأصل الإغريقيِّ خلفت سريعاً الآلهة اللاَّتينيَّة الصغرى، وأنَّ الآلهة الرومانيَّة غير المجسَّدة اتَّخذت أشكالاً آدميَّة مثل آلهة الإغريق[٣].

---

[١]- إبكار السقاف: الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين، مؤسَّسة الانتشار العربي،ط١، بيروت ٢٠٠٤م، ص ٢٦٥-٢٦٦.

[٢]- خزعل الماجدي: المعتقدات الرومانيَّة، دار الشروق،عمان، ط١ ٢٠٠٦م، ص ١٠٤- ١٠٥.

[٣]- ابراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج ٢، مكتبة الأنجلو المصريَّة، ط١، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٤٢٥.

ونتيجة لتأثُّر الإغريق بالدين الفينيقيِّ بسبب الانتشار الفينيقيِّ - الإغريقيِّ في حوض البحر المتوسِّط، وإقامة المستوطنات، والاحتكاك المباشر بينهما، وتحقُّق التمازج الثقافيِّ والحضاريِّ، والذي انعكس من خلاله المدُّ الثقافيُّ الذي سرعان ما تحوَّل إلى تلاقح بين الآلهة، فكان بينهما تأثُّر وتأثير متبادل. وبالتالي، انتقل هذا التأثير إلى الرومان، حيث لعب الإغريقيُّ دور الوسيط بين الطرفين، هذا عدا عن الطرق المباشرة التي عبرت فيها الآلهة السوريَّة إلى روما عبر أبنائها تجاراً كانوا أم عبيداً جنوداً أو أباطرة[١].

٣. الجذور الإيطاليَّة المحلِّيَّة

انصهرت الشعوب الإيطاليَّة المحليَّة في بوتقة واحدة، وهي تتكوَّن من (اللاتينو والامبيريون والسابنيون)، وجميعهم من أصل آري اختلطوا بسكان العصر الحجريِّ الحديث الأصليين الذين سكنوا إيطاليا.

ومن أهم آلهة روما القديمة من أصل إيطالي:(جانوس، جوبيتر، مارس، كويرين، فستا، بناتس، لاري، غينيي، يونانا، سارتون، نبتون، فولان..وغيرها)، وهناك آلهة روما القديمة من أصل إيطالي ولكنها دخيلة وهي:(ديانا، فورتونا، كاستور، بول لوكس، هيركولوس، فينيرا.. وغيرها[٢]).

ثانياً: تطوُّر الديانة الرومانيَّة

١. العصر الملَكي

كان أقدم أشكال الدين الرومانيِّ متمثِّلاً في ديانة الأسرة، فقد كانت الأسر الفلاحيَّة البسيطة تعتقد بالأرواح (نومينا Numina) والتي كانوا يرون أنَّها تحمي بيوت وحقول الفلاَّحين وأسرهم.

وفي هذه الفترة تكوَّن الثالوث الأكبر الرومانيُّ من(جوبيتر، جونون، منيرفا)، ومع ظهور

[١]- مرسيا إلياد: تاريخ المعتقدات، تعريب عبد الهادي عباس، ج٢، دار دمشق، ١٩٨٦م، ص ١٥٤.

[٢]- خزعل الماجدي، المعتقدات الكنعانيَّة، أزمنة للطباعة، عمان، ط١، ١٩٩٩م، ص ١١٨.

هذا الثالوث بدأت ديانة الدولة تتطوَّر شيئاً فشيئاً، ورغم أنَّ الرومان قلَّدوا في هذا الثالوث ما كان قد فعله الأتروسك، فإنَّ ذلك عُدَّ تطوُّراً في ديانتهم.

وكانت الطقوس بدائيَّة جدَّاً تدلُّ على قصور التفكير الرومانيِّ في تلك الفترة، وكان الطقس الرئيسيُّ هو محاولة كسب رضا الآلهة من خلال عدة طرق عدَّة مثل سكب اللبن أو النبيذ بقدر محدود أمامهم، وتقديم كعكة أو أضحية لها، وبدأ في نهاية تلك الفترة دخول بعض التأثيرات الإغريقيَّة لكنها كانت محدودة.

٢. العصر الجمهوريّ

ازداد تأثير العرافة الأتروسكيَّة مع العرافة الرومانيَّة، وكانت لكلِّ جماعة أساليبها الخاصَّة في التعرُّف على الإرادة الإلهيَّة، واستمرَّت التأثيرات الإغريقيَّة في بلورة ونضج الديانة الرومانيَّة فقد دخلت آلهة جديدة، كما ظهرت أعياد دينيَّة ذات طقوس إغريقيَّة مثل أعياد ديس (بلوتون) و(بروسربينا)، ودخلت الأعياد الديونسيوسيَّة تحت ستار الإله باخوس[١].

٣. العصر الأمبراطوريّ

في هذا العصر بدأت ظاهرة تأليه الحكَّام لدى الرومان مع شخصيَّة يوليوس قيصر الذي ألقيت عليه قائمة طويلة من ألقاب الشرف والامتيازات ذات الطَّابع الدينيِّ، ويرى البعض أنَّها كانت تمهِّد لتأليه قيصر رسميَّاً اقتداء بما فعله ملوك الشرق الهلينستيِّ، في حين يرى البعض الآخر أنَّ هذه الألقاب لم يكن الهدف منها إلاَّ تثبيت وتوحيد سلطة يوليوس قيصر[٢].

وقد خلَّد أوفيد قصَّة تأليه يوليوس قيصر وما تلاها من تأليه أغسطس أيضاً في ديوانه «مسخ الكائنات»، مشيراً إلى أنَّ قيصر المؤلَّه كان يتابع أعمال ابنه بالتبنِّي، وقد سلَّم بتفوُّق أغسطس عليه مُوازِناً بينه وبين الإله ساتورنوس الذي سلَّم بتفوُّق ابنه جوبيتر عليه أيضاً[٣].

على أنَّ هناك شواهد تاريخيَّة عديدة تدلُّ على ميل الحكَّام الدكتاتوريين إلى تنصيب أنفسهم كآلهة، وإعطاء الأوامر ببناء التماثيل لأنفسهم.

---

[١]- خزعل الماجدي، المعتقدات الرومانيَّة، ص ١٢٢.

[٢]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، عصر الثورة، دار النهضة العربيَّة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص ٣٢١- ٣٢٢.

[٣]- أوفيد: مسخ الكائنات(ميتامورفورس)، تعريب ثروت عكاشة، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ط١٩٨٤،٢م، (كت ١٥: ٧٤٠- ٨٦٠)، ص ٣٣٦-٣٣٩.

ولذلك يرجع الكثيرون إلى العهد الأوغسطي تأسيس عبادة الأباطرة الرومان، ولا يمكن القول أنَّ أغسطس قد أوجد هذه العبادة، لأنَّها كانت سائدة في العالم في أيَّام سابقة لعهده، وضمن ظروف معيَّنة هي دخلت روما قبل وصوله للحكم، ومع ذلك، فإنَّه تحكَّم واستفاد منها بذكاء وبراعة وذلك من خلال تشجيعها أحياناً وردعها أحياناً أخرى[١]. وقد تركَّزت منذ عهده ملكيَّة الحقِّ الإلهيِّ، كما أنَّه اتَّخذ لنفسه لقب قيصر وابن الإله وأمير مجلس الشيوخ ولقب أغسطس أي المقدَّس[٢].

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ مركز الحاكم ومكانته وسلطته باتت تُحاط أثناء الاحتفالات العامَّة والمواكب الرسميَّة بحشد من دلائل التكريم والتعظيم، وقد أصبحت عقيدة عبادة الأباطرة الراحلين والطقوس التي تُقام أمام روح الأمبراطور تهيِّئ ديانة من نوع خاصٍّ تسمح للجميع بأن يشتركوا في طقوسها، وأن يعبِّروا بها جميعاً - بغضِّ النظر عن الجنس أو الوطن أو اللُّغة - عن حبِّهم العميق وولائهم للأمبراطور.

ثالثاً: المؤسَّسة الدينيَّة الرومانيَّة

١. المؤسَّسة الإلهيَّة

من المفيد القول أنَّ مفهوم الوثنيَّة أو تعدُّد الآلهة هو مفهوم واحد لدى كلِّ الشعوب مهما تعدَّدت توجُّهاتهم الروحيَّة والفكريَّة وباعدت بينهم المسافات. فالإنسان القديم بشكل عامٍّ والرومانيُّ بشكل خاصٍّ لم يُعمِل تفكيره في هذا الكون بشكل صحيح، فهم تصوَّروا أنَّ لكلِّ مظهر طبيعيٍّ أو اجتماعيٍّ أو اقتصاديٍّ إلهاً يشرف عليه ويسيِّر شؤونه، حتى لو اختلفت التسميات، فالمبدأ كان واحداً، ولذلك كان من السهل المزج بين هذه الأقانيم والألوهيَّات مادامت هي نفسها مسؤولة عن الوظائف نفسها، ولم يكن ذلك يعني أبداً التخلِّي عن آلهتهم أمام آلهة الشعوب أو المناطق الأخرى، بل هي نوع من الدمج بين أقانيم لايميِّزها بعضها عن بعض إلاَّ الأسماء. ويعود السبب في ذلك إلى استئناس الإنسان بالمحسوس، وعدم قدرته على تصوُّر المجرَّد. ورغم أنَّهم جميعاً كانوا يؤمنون بإله خالق واحد، فهم كانوا يتَّخذون

[1]- Jesse Benedict, Carter; Life of Ancient Rome –Houghton mifflin company boston , New York, 1911, p 70.

[٢]- بيير روسي: تاريخ العرب الحقيقي، ترجمة فريد جحا، باريس،١٩٧٩م، ص ٢٢٥.

لكلِّ ظاهرة ربَّاً. من هنا تحدَّث البعض عن أنَّ مشكلة الشِّرك في الأساس هي في الربوبيَّة لا في الألوهيَّة.

مهما يكن من أمر، فالرومان تصوَّروا الأرواح على شكل كائنات غيبيَّة يمكن تمثيلها بالأحجار أو الرموز، مثل الأحجار الكبيرة التي تمسَّك بها الفلاَّحون على أنَّها تمثِّل الأرواح، والنار على أنَّها تمثِّل روح النار فيستا (بينس). أمَّا القوى الخارقة فلم يتمكَّنوا من تجسيدها واعتبروها قوَّة سارية تحلُّ في الآلهة والأباطرة والبشر. وأمَّا الطوطم فكان من الممكن تمثُّلها بالطوطم الحيوانيِّ نفسه أو بتمثاله. وقد رافق هذا التصوُّر الفقير عن الآلهة فقر في الخيال الميثولوجيِّ الرومانيِّ ولذلك نجد أنَّ الميثولوجيا الرومانيَّة شاحبة جدَّاً، لكن تجسيد الآلهة وظهور قصصهم الأسطوريَّة ظهر مع دخول الآلهة الإغريقيَّة وأساطيرها التي جرى تطابقها مع نظيراتها من الآلهة الرومانيَّة[١].

٢. المؤسَّسة الكهنوتيَّة

استخدمت روما نظاماً من الكهنوت مُحكَم الوضع، فكانت هناك الصلوات العامَّة التي يرأسها جماعات من الكهنة، وعلى رأسهم الحَبر الأعظم (Pontifex Maximus) تختاره الجمعيَّة المئويَّة، ولم تكن عضويَّة هذه الهيئات المقدَّسة تحتاج إلى تدريب خاصٍّ، بل كان في وسع كلِّ مواطن أن ينضمَّ إليها أو يخرج منها، ولم تكن تؤلِّف مرتبة أو طبقة منفصلة عن سائر طبقات المجتمع، وليس لها أيُّ سلطان سياسيٍّ عدا عن أنَّ الدولة كانت تستخدمها كأداة من أدواتها، وكانت تستولي على إيرادات بعض أراضي الدولة لتستعين به على العيش، ولها عبيد يقومون على خدمتها، ومع توالي الأجيال أصبحت عظيمة الثَّراء.

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ الهيئة الدينيَّة الكبرى في القرن الثالث ق.م ضمَّت تسعة أعضاء يحتفظون بالحوليَّات التاريخيَّة، ويسجِّلون القوانين، ويقرأون الغيب، ويقدِّمون القرابين، ويطهِّرون روما مرَّة كلَّ خمس سنوات. ويساعد هؤلاء الأحبارَ في القيام بالمراسم الرسميَّة خمسة عشر كاهناً آخر يُسمُّون فلمينى Flamine أي موقِدي نيران الأضاحي، وثمَّة طوائف من الأحبار أقلَّ من هؤلاء شأناً يؤدُّون واجبات خاصَّة، فالساليون Salii كانوا

[١]- خزعل الماجدي: المعتقدات الرومانيَّة، ص ١٣٣.

يستقبلون العام الجديد بنوع من الرقص المقدَّس، والفيتالى Fetiales يصدِّقون على عقد الصلح وإعلان الحرب، واللوبرس Luperci أو إخوان الذئاب يقومون بطقوس لوبر كاليا Lupercalia العجيبة، وكانت طائفة العذراى الفستيَّة Vestal Virgins تُعنى بموقد الدولة وتنثر عليه في كلِّ يوم الماء المقدَّس الذي تأخذه من عين الحوريَّة المقدَّسة إجيريا Egeria، وكانت هؤلاء الراهبات يخترن من بين الفتيات اللَّواتي يتراوح أعمارهنَّ بين السادسة والعاشرة، وكنَّ يقسمن على أن يبقين عذارى في خدمة الآلهة فستا ثلاثين سنة، وإذا اقترفت إحداهنَّ جريمة العلاقات الجنسيَّة ضُربت بالعصا، ودُفِنت وهي على قيد الحياة، فإذا قضين الثلاثين سنة كان لهنَّ أن يتركن خدمة الآلهة ويتزوَّجن[١].

أعظم طوائف الكهنة كانت طائفة العرَّافين الذين يدرسون إرادة الآلهة في كلِّ أمر هامٍّ، حيث كان كبار الحكَّام قبل كلِّ عمل هامٍّ من أعمال السياسة أو الحكم أو الحرب.... إلخ، يستدعون العرَّاف فيقوم بخطٍّ بقعة مستطيلة الشكل في عنان السماء بواسطة قضيب منحنٍ وهو الشارة الرمزيَّة للعرَّافين، وبعد ذلك يراقب العرَّافون طيران الطيور، فإذا مرَّت أثناء طيرانها على يمين البقعة المحدَّدة كان ذلك طالع سعد، ومعنى ذلك أنَّ الآلهة موافقة على المباشرة بالعمل، ولكن إذا كان مرور الطير عن شمال البقعة كان ذلك طالع شؤم، أي أنَّ الآلهة غير راضية وعندئذٍ يؤجِّل تنفيذ العمل[٢].

رابعاً: المعابد الرومانيَّة

ما كان لشعب اعتمد في شؤونه الحضاريَّة على آلهة متعدِّدة، ألاَّ يقيم لتلك الآلهة أماكن لأداء الطقوس التعبُّديَّة ومراسمها، فقد كشفت الأبحاث الأثريَّة عن وجود معابد في أماكن مختلفة في روما، وتطوَّر بناء المعبد الرومانيِّ متأثِّراً من ناحية مخطَّطه بما كان شائعاً لدى الأتروسكيين والإغريق، وحين يقرِّر الرومان بناء معبد لأحد الآلهة يختارون المكان بكلِّ دقَّة ومن ثمَّ يقوم العرَّافون بمعرفة ما إذا كان الإله راضياً عن البناء، وفي حالة الردِّ الإيجابيِّ يضعون مخطَّط المعبد بموجب قواعد محدَّدة، وبعد بناء المعبد تجري عمليَّة تكريسه حيث تأتي شخصيَّة مرموقة تمثِّل الدولة برفقة الكاهن الأكبر، وبعد أن يلامسا عضادات الباب

[١]- ول ديورانت: قصَّة الحضارة ج ٩، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت،١٩٨٨م ، ص ١٢٢.

[٢]- محمد محفل: تاريخ الرومان، منشورات جامعة دمشق، ط١، ١٩٧٤م ص ٢١٠.

يتلون صيغ خاصَّة، وتحتوي الصيغة على ما يعرف بقانون السيامة الذي يحدِّد حدود الأرض المقدَّسة وشروط الصلاة وأشكال القرابين وكيفيَّة تقديمها[١]. لقد أُقيم المعبد الروماني بشكل عامٍّ على مصطبة يتقدَّمها سلَّم مكوَّن من عتبات عدَّة، ويقع في واجهة المعبد، أي من طرف واحد فقط، وهذا الأمر كان شائعاً في المعابد الأتروسكيَّة، بينما نجد السلالم تحيط المعبد الإغريقيَّ من جوانبه الأربعة.

وكان المعبد الرومانيُّ في الفترة الأتروسكيَّة - الرومانيَّة مستطيل الشكل، مثل معبد باخوس في بعلبك، وكان هناك الشكل الدائريُّ مثل معبد الإلهة vesta(إلهة الموقد والحياة المنزليَّة وحارسة المصالح العامَّة) يوجد في ساحة الفورم في روما، يقول بلوتارخوس إنَّ الملك(نوما) قد أعطاه الشكل المستدير تقليداً لاستدارة الكون حيث كانت النار – حسب المذهب البيثاغوريِّ – وسطه، واسم Vesta يدلُّ على النار وعلى الوحدانيَّة.

ويختلف المعبد الرومانيُّ عن المعبد الإغريقيِّ بأنَّه لم يكن محاطاً من أطرافه الأربعة بالأروقة بل كان كالمعبد الأتروسكيِّ منقسماً إلى قسمين: الرواق الأمامي والقسم المغلق خلفه.

وهنا نجد أنَّ الرومانيَّ عند بناء معبده أخذ من هنا وهناك وغير بما يتناسب مع طبيعته ومتطلِّباته، فقد كان عليهم إدخال تعديلات على معالم العمارة الإغريقيَّة حتى تستجيب لحاجاتهم الخاصَّة بهم وتتكيَّف معها.

وإضافة إلى المعابد، أجرى الرومانيون القدماء عباداتهم في الطبيعة قرب غابات وينابيع مقدَّسة[٢].

خامساً: العبادات الرومانيَّة

لم يكن يُقصد بالعبادات الرومانيَّة إلاَّ أن تقدِّم هديَّة أو أضحية للآلهة لكسب عونها واتِّقاء غضبها، وكان الكهنة يشرفون عليها. ومن أهمِّ هذه العبادات:

[١]- يولي سيركين: أساطير روما القديمة، ترجمة هاشم حمادي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١١م، ص ٣٢٧.

[٢]- محمد محفل: تاريخ الرومان، ص ٢١٢.

١. العبادة الأسريَّة

اعتقد الرومان أنَّ لكلِّ بيت ربَّاً يحميه، وكانت طقوس عبادة ربِّ البيت تجري في المعبد المنزليِّ حيث ينتصب مذبح يحتوي في قسمه العُلويِّ على موقد تشتعل فيه من دون انقطاع النار المقدَّسة، فلا يجوز أن تنطفئ هذه النار وإلاَّ تعرَّض المنزل وأهله للمصائب، وإضافة إلى المذبح يوجد محراب في أحد جدران المعبد يحتوي على تماثيل صغيرة من الشمع لربِّ البيت ولمعاونيه، ألقي على عاتقهما السهر ليل نهار لمراقبته وتقديم الزيت والخمر والبخور[١].

٢. العبادة الزراعيَّة – الرعويَّة

شغلت المعتقدات والطقوس الزراعيَّة مكانة مرموقة في ديانة الرومان، ويشهد على هذا أنَّ الكثير من الآلهة في البانثيون الرومانيِّ، والتي عادت عليها في النهاية وظائف كثيرة التنوُّع، إنَّما هي من حيث المنشأ على علاقة مع العبادات الزراعيَّة.

وقد ظهرت آلهة الزراعة والرعي والمياه مبكرة مثل فاونوس وكنوس وباليس والإلهة الأم تيلوس وكيريس وغيرهم من الآلهة التي اختصَّت بالزراعة، ومعظم الآلهة الكبار كانوا من أصول زراعيَّة، فقد كان جوبيتر إله الأمطار والرعود، ومارس إله الزراعة والخصب، وفونوس إله الرعاة، وكذلك ارتبط الإله سارتون بالحراثة.... وغيرهم. وشغلت هذه الآلهة في ما بعد وظائف كونيَّة ورمزيَّة وأخلاقيَّة عظمى بسبب تعلُّق الناس بها، فرفعت من المنشأ الزراعيِّ البسيط إلى الرتبة الكبيرة عندما سطعت روما في سماء الحضارات[٢].

٣. عبادة الأباطرة

يُقصد بها تكريم الأباطرة بعد موتهم وضمِّهم إلى صفوف الآلهة رسميَّاً بواسطة مجلس الشيوخ الرومانيِّ، وذلك لعمل عظيم أنجزوه، أو إصلاح جليل. ولم تحدث هذه العبادة إبان حكمه على اعتبار أنَّه إله وإنما دائماً بعد موته، وفي شخص الأمبراطور كانت تتجسَّد

[١]- شارل سينوبوس: تاريخ الحضارات العام، ترجمة محمد كرد علي، الدار العالميَّة للنشر، مصر، ط١، ٢٠١٢م، ص ١٤٩.
[٢]- خزعل الماجدي، المعتقدات الرومانيَّة، ص ١٥٥.

قوة روما الأبديَّة[١]. وكما ذكر سابقاً، بدأت ظاهرة تأليه الحكَّام لدى الرومان مع شخصيَّة يوليوس قيصر الذي ألقيت عليه قائمة طويلة من ألقاب الشرف والامتيازات ذات الطابع الدينيِّ والتي يرى البعض أنَّها تمهِّد لتأليهه رسميَّاً اقتداء بما فعله ملوك الشرق الهلينستيِّ. وقد عُثِر على العديد من النقوش في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى، وُصِف فيها يوليوس قيصر بأنَّه إله، لكنَّها لا تمثِّل وجهة النظر الرسميَّة الرومانيَّة، وتبعاً لذلك، لا يمكن اعتبارها دليلاً على تأليهه في حياته تأليهاً رسميَّاً[٢]. ويرى البعض أنَّ هذه الألقاب لم يكن الهدف منها إلاَّ تثبيت وتوحيد سلطته[٣]. أمَّا تأليهه بشكل رسميٍّ فتمَّ من قبل مجلس الشيوخ بعد حادثة اغتياله عام (٤٤ ق.م) وشاع تقديسه في كلِّ روما.

وقد كُرِّست مختلف التقدمات في المناسبات الأمبراطورية سواء من قبل العامَّة أم من الجنود كسكب الخمور، وإحراق البخور، وذبح الأضاحي، أو تلاوة الصلوات[٤].

ولم تنحصر عبادة التأليه هذه بالأباطرة فحسب بل تم أيضاً تأليه الأمبراطورات مثل أزليا ابنة الأمبراطور تيتوس، وسابينا زوجة الأمبراطور هادريان وغيرهما. وقد تزايدت أهميَّة هذه العبادة بشكل كبير إلى درجة أصبحت تمثِّل المقياس لولاء المواطنين للدولة، واستطاعت توحيد العالم الروماني[٥].

٤. عبادة الأبطال

برزت هذه العبادة مع ظهور العائلات الأرستقراطيَّة في اليونان نهاية العصر البرونزيِّ، والبطل هو من أصل إلهيٍّ، فهو ابن الإله أو الإلهة، وبالتالي يتلقَّى نوعاً من الرعاية والحماية، وكانت تظهر عليه خصائص نادرة كالشجاعة والعبقريَّة والإتيان بالخوارق، وأصبح من عادة الأُسَر الملَكيَّة والنبيلة عند الرومان أن تنسب لأحد الأبطال وعن طريقه إلى أحد الآلهة مثل

[١]- م.ب تشارلزورت: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ترجمة رمزي عبده جرجس، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٦٦.

[٢]- إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، ج٢، ص ٦٩٠.

[٣]- عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني، عصر الثورة، دار النهضة العربيَّة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص ٣٢١-٣٢٢م.

[4]- S.R.F,Price, Belween man and God-Jrs.vol lxx, 1980, p 29.

[5]- James Bryce ; The Holy Roman Empire Publishers Thomas y growell company – New york p 29.

قيصر الذي أدَّى انتمائه إلى إينياس ومن ثم إلى فينوس، كما درج الرومان على تأليه القادة العسكريين الذين حقَّقوا انتصارات عسكريَّة هامَّة وأبدوا شجاعة كبيرة[١].

سادساً: الأعياد الدينيَّة

عرفت الشعوب القديمة أنواعاً من الاحتفالات والأعياد التي ارتدى أغلبها الطابع الدينيَّ، وظلَّت قائمة بأشكال مختلفة ومتجدِّدة على مدى آلاف السنين، وترافقت هذه الأعياد مع تقديم القرابين والهدايا للآلهة في معابدها، وترافقت أيضاً بالمهرجانات والطقوس الدينيَّة مع إقامة صلوات التضرُّع والمباركة للآلهة وترتيل الأناشيد الدينيَّة[٢].

وقد حظيت الأعياد الدينيَّة بمكانة هامَّة لدى الرومانيين الذين نمُّوا حبَّها في قلوبهم ووجَّهوا نحوها أكبر قسط من عنايتهم وخصوصاً في المدن المقدَّسة. وكان الغرض منها إظهار الابتهاج والشكر للقوى الإلهيَّة التي تتحكَّم في الطبيعة.

كما كانت تقام الأعياد والاحتفالات لاسترضاء الموتى وإقصاء غضبهم، فقد خُصِّص بعضها لتقديس الموتى والأرواح في العالم السفلي، اعتقاداً منهم بأنَّ أرواح الذين كانوا يُدفَنون أو تُحرَق جثثهم كانت تهبط إلى هذا العالم ثمَّ تعود لزيارة الأرض في أوقات معيَّنة من السنة[٣]. وكانت هذه الأعياد زراعيَّة الأصل لكنَّها تأخذ أشكالاً أخرى كلَّما ابتعدت عن أصولها، فقد أصبحت تقام في المدن لذا تحوَّرت بعض الشيء رغم أنَّ أصولها ظلَّت واضحة[٤].

كانت السنة تزدان بأكثر من مائة يوم مقدَّس من بينها اليوم الأول من كل شهر، وقد تشمل أحياناً اليومين التاسع والخامس عشر، ومن هذه الأعياد أنَّ الأُسر الرومانيَّة كانت تحتفل في الأيام ما بين ١١- ١٣ من شهر مايو احتفالاً رهيباً بعيد الأرواح الميتة Lemures، ولم تكن أعياد البارنتاليا Parentalia والفراليا Feralia التي تقام في شهر فبراير إلاَّ محاولات من هذا النوع لاسترضاء الأموات المخيفين، لكن بالمقابل كانت الأعياد مناسبات للمرح وملء

[١]- سهيل عثمان: عبد الرزاق الأصفر، معجم الأساطير اليونانيَّة والرومانيَّة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٢م، ص ٨٦.

[٢]- محمود حمود: الديانة السوريَّة القديمة، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٤م، ص ٢٩٢.

[٣]- هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ج١، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٧م، ص ١٤٣.

[٤]- خزعل الماجدي: المعتقدات الرومانيَّة، ص ٣٣٣.

البطون بالطاعم والشراب، وكثيراً ما يتَّخذها العامَّة كوسيلة للإباحيَّة الجنسيَّة.

وكان الرومان يحتفلون في اليوم الخامس عشر من شهر فبراير بعيد لوبركاليا المخصَّص للإله فونس Faunus الحامي من الذِّئاب، حيث يُضحَّى بالمعز والضأن، وكان اللوبرس Luperci ، وهم كهنته، لا يلبسون على أجسادهم إلاَّ مناطق من جلد المعز، ويدعون الإله فونا أن يبعد عنهم الأرواح الشرِّيرة، ويضربون من يلقون من النساء بسياط من جلود الحيوانات المضحَّى بهنَّ ليطهِّروهنَّ ويزيدوا من قدرتهنَّ على الإنجاب، ثمَّ يُلقوا بدمى من القش في نهر التيبر لاسترضاء إله النهر. ولعلَّ هذ الإله في الأيام التي كانت أكثر همجيَّة كان يتطلَّب أن تُلقى فيه ضحايا بشريَّة. وفي اليوم الخامس عشر من شهر مارس كان الفقراء يخرجون من أكواخهم، فيحتفلون بالسنة الجديدة، ويدعون الإلهة برنا Anna Perenna (حلقة السنين) أن تهبهم سنين بعدد ما يحتسون من أكواب الخمر. وفي شهر أبريل ستة أعياد كلُّها مرح وسكر، وكذلك في شهر مايو عدد من الأعياد.

بعد ذلك، كانت تُهمل الأرباب فلا تُقام لها أعياد في أشهر الخريف لأنَّ كلَّ المزروعات تحصد وتودع في المخازن، حتى يقبل شهر ديسمبر فيقيمون عدداً من الأعياد منها عيد السترناليا Saturnalia الذي يحتفلون فيه ببذر بذور العام المقبل، ولم يكن الناس فيه ينقسمون إلى طبقات، بل تُلغى الفروق بين الأحرار والعبيد ويتبادلون الهدايا. [١]

بشكل عام، نجد أنَّ الاحتفالات التي يقيمها الرومان صاخبة، ويتخلَّلها دويُّ الصنوج والأغاني الصاخبة، ممَّا يثير الأعصاب، ويبعث على الهياج، خصوصاً لدى الكهنة، مع ما يرافق ذلك من جنون وتصرُّفات غير مقبولة.

سابعاً: الطقوس الرومانيَّة

سعى الروماني لكسب رضا الآلهة بتكريمها والتعبُّد لها بانتظام، وإقامة الشعائر والطقوس الخاصَّة، وتقديم القرابين. وقد تأثَّر بشكل كبير بالطقوس الإغريقيَّة.

ولكي يدلِّل على صدق إيمانه، كان من واجبه الانضمام إلى المواكب الدينيَّة والاشتراك في تكريم الآلهة وتقديم القرابين، وكانت هذه الطقوس لا تثمر ثمرتها إلاَّ إذا رُوعِي فيها

[١]- ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٩، ص ١٣٧- ١٣٨.

منتهى الدقَّة في الأقوال والحركات، وهي دقَّة لا يستطيع غير الكهنة أن يشرفوا عليها، وإذا وقع خطأ في طقس من هذه الطقوس أيّاً يكن نوعه وجبت إعادته من جديد ولو تطلَّب ذلك تكراره ثلاثين مرة، وكان أهمُّ ما في هذه الطقوس هو إقامة الصلوات، وإجراء النذور، وتقديم الأضاحي [١]، وكانوا يعتقدون أنَّه إذا تُلِيت صِيَغٌ خاصَّة على التضحية استحالت إلى الإله الذي يُراد منه أن يتقبَّلها، وعلى هذا الاعتبار، كان الإله نفسه هو الذي يضحَّى به، وإذا كانت التضحية من الحيوانات فكانت أحشاؤها وحدها هي التي تُحرق على المذبح، وكان الكهنة والناس يأكلون كل ما بقي منها.

ولعلَّ من أكثر الطقوس متعة بالنسبة إلى الرومان احتفال التطهير الذي يُقام للمحاصيل الزراعيَّة، أو لقطعان الماشية، أو للجيش أو المدينة، حيث يطوف موكب خاصٌّ بالشيء المُراد تطهيره، ويقدَّم لهم الصلوات والذبائح، وكان واجب الآلهة مقابل كلِّ هذا حماية العباد وتسهيل أمورهم. وبتعبير آخر، كما كان للآلهة حقوق على البشر كان عليهم مقابل ذلك واجبات تجاههم[٢].

ثامناً: العقائد السريَّة

المحرِّك الأساسيُّ للعقائد السرِّيَّة وجوهرها يكمنان في قضيَّة واحدة هي **(الخلود)**. فبعدما يئس الإنسان من الخلود أثناء الحياة عوَّل على الخلود بعد الموت، ولأنَّه لا يستطيع أن يضمن لجميع أخوته من البشر الحصول على هذا الخلود، سعت نخبة عارفة منه للوصول نحو هذا الحلم، إمَّا من طريق المعرفة **(العرفان)** حيث يخوض هؤلاء الخاصَّة في علوم ومعرفة ذوقيَّة تضمن لهم الاتحاد بالإله لينالوا هذا الخلود، وإمَّا بالطقوس السرِّيَّة ذات الطَّابع الخاصِّ والغامض.

والحقيقة أنَّ العقائد السرِّيَّة لم تنشأ بسبب منعها واختفائها بل لأنها عقائد غامضة وهي أقرب إلى الممارسات الخاصَّة منها إلى العامَّة، ولم تنبت داخل روما بسبب قلَّة التعطُّش الروحيِّ وغلبة الاستهلاك الحسِّيِّ للحياة لدى الرومان، بل جاءتها من بلاد الإغريق والبلاد الشرقيَّة. ومن أهم هذه العقائد:

---

[١]- محمد محفل: تاريخ الرومان، ص ٢١٣.

[٢]- ول ديورانت: قصَّة الحضارة، ج٩، ص ١٣٤.

١. العقائد السرِّيَّة الإغريقيَّة المنشأ

- الإليوسيَّة

تعود ديانة الأسرار الإليوسيَّة إلى حوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد، واستمرَّت حتى القرن الرابع الميلاديِّ، وربما تكون قد نشأت أصلاً من الديانات الإغريقيَّة القديمة. فالأدلَّة الأثريَّة توضح أنَّها من أقدم ديانات الأسرار عند الإغريق[١].

وقد انتشرت هذه الديانة من إليوسيس إلى بلاد الإغريق كلِّها، بل وصاحبت الإغريق في هجراتهم ومستعمراتهم الجديدة في آسيا الصغرى وصقلية وجنوب إيطاليا. وفي العصر الهلينستيِّ أصبح من الممكن لغير الإغريقيِّ أن ينضمَّ إلى هذه الديانة التي كانت متاحة للجميع من الرجال والنساء والأطفال. وهي مستوحاة من طقوس الزراعة ودورات فصول السنة، بطلتها هي الآلهة ديميتر أو «الأرض الأم» مانحة الحياة والخصوبة وابنتها برسيفوني[٢]. وقد اتَّخذها العابدون الرومان إلهة لهم، وتمَّ توحيدها مع سيريس الرومانيَّة، وأقيم أوَّل معبد لها في روما عام ٤٩٣ ق.م.

كانت الربَّة العظمى ديميتر قويَّة جبَّارة، تهب الخصب للأرض، ومن دون قوَّتها الخيِّرة لا ينبت شيء لا في الغابات الظليلة، ولا في المروج الغناء، ولا في الحقول الخصبة، وتُقدَّم لها قرابين غير دمويَّة من الثِّمار والعنب وأقراص العسل وصوف غنم تمَّ جزُّه حديثاً، وكان هذا كلُّه يُجمَع فوق المذبح ليُصبَّ عليه زيت الزيتون[٣].

ولقد حاولت الأسطورة أنَّ تفسِّر أصل هذه الديانة قائلة: كانت ديميتر والإلهة كوري تجمع الزهور في مدينة إليوسيس مع أثينا وأرتميس، وإذ قطفت كوري زهرة زعفران انشقَّت الأرض أمامها، وعبر ذلك الشق حمل هاديس إله المملكة السفلية كوري، ومضى بها إلى هناك وتزوَّجها. وقد بحثت ديميتر طويلاً عن ابنتها، وعانت الطبيعة كلُّها جرَّاء فقدانها،

[1]- Edgar Krentz , The Mystery Religion; An ouverview Religion,and Ethics intitute Evanston, p6.

[٢]- وديع بشور: ديانات الأسرار، دار المرساة، دمشق، ٢٠٠٦م، ص ١٧٦.

[٣]- سيرغي.أ. توكاريف: الأديان في تاريخ شعوب العالم، ترجمة أحمد محمد فضل، الأهالي للطباعة، دمشق، ط١، ١٩٩٨م، ص ٤١٢.

فجفَّت الأنهار، وأقحلت الحقول، فأحدق خطر الموت جوعاً بالناس، ولكن ديميتر عرفت أخيراً مكان ابنتها، وطالبت بأن يعيدها هاديس إليها، بيد أن ذلك كان مستحيلاً، فكوري كانت قد فقدت الخلود لأنَّها أكلت من ثمار بستان العالم السفليِّ من شجرة الرمان، عندئذٍ التأم مجلس الآلهة وحسم الأمر كما يلي:

بعد أن باتت كوري زوجة هاديس صار لزاماً عليها أن تقضي ثلث العام مع زوجها في المملكة السفليَّة، أمَّا باقي أيام السنة فتقضيها فوق سطح الأرض. وإذ تكون كوري على سطح الأرض تزدهر وتعطي ثماراً، ومع رحيلها إلى العالم السفليِّ تغرق الأرض في سبات الشتاء العميق. وعلى محور الازدهار والسبات «الحياة والموت « بنيت المسرحيَّات الدينيَّة[١].

إلى ذلك، كان الاحتفال بالأسرار الإليوسسيَّة الصغرى والكبرى يتمُّ سنويَّاً. ولا يُعرَف الكثير عن الأسرار الصغرى ماعدا أنَّها كانت تتمُّ في الربيع، أما الأسرار الكبرى فقد كان الاحتفال بها يتمُّ في الخريف خلال شهر «بويدروميون» (سبتمبر - اكتوبر) في الوقت الذي تبدأ فيه الحقول بالاخضرار. وفي الثالث عشر من شهر بويدروميون (٢١- ٢٢ سبتمبر) كان الكهنة يحملون تمثال ديونيسيوس مع رموز أخرى مقدَّسة تتعلَّق بعبادة ديميتر من معبدها في إليوسيس ليودع في معبدها في أثينا عبر الطريق المقدَّس في موكب حافل. وفي اليوم التالي يعلن الكاهن الأكبر للإلهة ديميتر في أثينا بداية الاحتفالات. وفي اليوم الذي يليه يبدأ معتنقو هذه الديانة إجراء طقوس التطهير في خليج فاليرون إلى الشمال من أثينا حيث يقومون بالاغتسال، ويطهِّرون معهم خنزيراً صغيراً، ثم يُذبَح ويُنثَر دمه على عبَدَة ديميتر، بعدها يُطلب منهم الصِّيام لثلاثة أيام. وفي التاسع عشر والعشرين من هذا الشهر يتجمَّع كهنة الإلهة ديميتر مع عُبَّادها الذين تطهَّروا حاملين أغصان وأوراق الريحان، ثمَّ يتحرَّكون من أثينا عبر الطريق المقدَّس إلى إليوسيس حاملين معهم تمثال ديونيسيوس الذي كان سبق أن أُحضِر قبل أسبوع إلى أثينا، وكان الموكب يتحرَّك ببطء شديد حيث كان من المفترض أن تُقدَّم القرابين والأضاحي على كلِّ المذابح التي يمتلئ بها الطريق. وأخيراً، في اليوم الحادي

[١]- أ. س ميغوليفسكي: أسرار الآلهة والديانات، ترجمة حسان مخائيل إسحاق، دار علاء الدين ط ٤، دمشق، ٢٠٠٩م، ص ٤٧.

والعشرين من هذا الشهر يصل الموكب ليلاً إلى معبد ديميتر في إليوسيس بصحبة المشاعل المضيئة، ويبدو أنَّهم كانوا يشاركون في وجبة مقدَّسة من الخبز مع شراب مميَّز هو عبارة عن خليط من مسحوق الشعير والماء المعطَّر بالنعناع يُسمَّى كيكيون **Kykeon**، ويُسكب في أوعية ذات شكل غريب يُسمَّى كيرنوى **Kernoi**.

وكان الوعد بالخلود بعد الموت هو مكافأة المشاركين في هذه الطقوس، وهو الخلود الذي يرتبط بالبذور الميتة التي تعود إلى الحياة في رحم الأرض الأم، وكان من المعتقد أنَّه الخلود سيتمُّ تحت الأرض[١].

- الباخوسيَّة

انتقلت عبادة ديونيسيوس الإغريقيِّ إلى روما في بداية القرن الثاني قبل الميلاد، وكان لها انتشارها واسع. وباخوس هو اسم الإله الرومانيِّ المقابل لديونيسيوس.

في هذا السياق، يقول **هيرودوت** عن عبادة ديونيسيوس:«إنَّ ميلاميوس بن امثيون أخذ هذه العبادة عن قدموس الصوريِّ ومن أتوا معه من بلاد الفينيقيين إلى بويوتية[٢]»

ويبدو من شخصيَّته وصفاته أنَّه إله مشرقيٌّ وفد من فينيقية، ومن المرجح أنَّه الإله أدونيس ثمَّ تحوَّر لفظه إلى ديونسيوس (رغم أنَّ هناك إلهاً منفصلاً عند الإغريق اسمه أدونيس وهو عشيق أفروديت). لكن أدونيس وهو يتحوَّل إلى ديونسيوس اكتسب صفات جديدة له. فقد أصبح إلهاً للخمر والتهتُّك والمتعة في صورته الدنيويَّة، كما أصبح إلهاً في العالم الأسفل يشفع لمريديه في صورته الأخرويَّة[٣].

وقد أقيمت لديونيسيوس احتفالات دينيَّة شكلت الأصول الأولى للمسرح التراجيديِّ، مع الإشارة هنا إلى أنَّه كان أيضاً إلهاً للحصاد والثمار والكروم، واشتهر بصفته إلهاً للخمر.

[١]- حسين الشيخ: ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ، دار العلوم العربيَّة، بيروت، ص ٦٧- ٦٩. أنظر أيضاً أ. س ميغوليفسكي: أسرار الآلهة والديانات، ص ٤٩.

[٢]- هيرودوت: التاريخ، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي أبو ظبي،٢٠٠١م، الكتاب الثاني، ص ١٥٦.

[٣]- خزعل الماجدي: المعتقدات الإغريقيَّة، ص ٢٨٦.

وكان الإغريق يقومون بهذه الاحتفالات كمظهر من مظاهر الابتهاج والشكر للقوى الإلهيَّة التي تتحكم في الطبيعة[١].

ومن المفارقات أنَّ الأعياد الباخوسيَّة كانت أكثر الأعياد تميُّزاً بالهرج والمرج والعربدة في محاولة لأداء طقوس تطهُّريَّة توصلهم بباخوس، وذلك من أجل الشفاعة في عالم أسفل، وأملاً في الخلاص.

- الأورفية

الأورفيَّة هي حركة إغريقيَّة ذات طابع فلسفيٍّ دينيٍّ، فأورفيوس لم يُعبد كإله، ولم تكن لهذه الديانة معابد، ورغم هذا فقد كان لها معتقدات دينيَّة محدَّدة وطقوس للتَّطهير والتكريس،، انتقلت هذه العبادة من بلاد الإغريق إلى روما في القرن الثاني قبل الميلاد وأورفيوس كما يظهر في الأساطير هو موسيقى من تراكيا، حصل على الخلود، وأقدم إشارة له تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. وكانت الديانة الأورفيَّة ديانة المنطق والنظام والزهد على عكس العقيدة الباخوسيَّة التي تمارس التهتُّك الجسديَّ والخمر والجنس، وكان لها شعائر سرِّيَّة لتلقين مريديها وإعدادهم تتضمَّن أعمال السحر وطرد الشياطين، وكان الحصول على السعادة الأبديَّة غاية هذه الطقوس. وتلعب حادثة موت أورفيوس، كما وردت في الأساطير، دوراً هامَّاً في ديانته، حيث مزَّقت عابدات ديونيسوس جسده وهنَّ في حالة من الجنون المقدَّس الذي ينتابهنَّ أثناء أدائهنَّ لطقوس ديانة ديونيسيوس السرِّيَّة، وهذا مايفسِّر الموقف العدائيَّ الذي اتَّخذته الأورفيَّة من النساء، ولاشك في أنَّها لم تكن واسعة الانتشار في العصر الجمهوريِّ في روما، لكنَّها ربما انتشرت في العصر الأمبراطوريِّ مع شيوع نزعات التقشُّف والورع والاعتقاد بالخلاص[٢].

٢. العقائد الرومانيَّة الشرقيَّة المنشأ

إذا كانت العقائد الإغريقيَّة قد انتشرت عند الرومان في العصر الجمهوريِّ فإنَّ العقائد

---

[١]- ول ديورانت: قصَّة الحضارة، ج١، مج٢، ص ٣٣٨.

[٢]- حسين الشيخ: ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ، ص ٨٩-٩٠.

الشرقيَّة انتشرت عندهم منذ احتكاكهم الواضح بالشرق مع نهاية العصر الجمهوريِّ وعلى امتداد العصر الأمبراطوريِّ، ومنها:

أ. الإلهة الأناضوليَّة

كانت الإلهة الفريجيَّة الأم (سيبيل Cibyl) تجسد الكهوف، وقد عبدت فوق الجبال، ولها السلطة على الحيوانات المفترسة، وكانت تمثِّل الخصوبة والأمومة، وانتقلت عبادتها أوَّلاً إلى بلاد الإغريق، ثمَّ إلى روما وتوحَّدت مع ريّا. وقد قرنت سيبيل مع الإله آتيس ولها معه أسطورة عندما أحبَّته وجعلت منه كاهناً لها شرط ألاَّ يخونها، وعندما تزوج ابنة النهر سانكاريوس ضربته سيبيل بنوبة من الجنون شوَّهت جسده، وعندما شفي من جنونه كاد يقتل نفسه فحوَّلته إلى شجرة صنوبر. وكانت الإلهة سيبيل تسمَّى في روما ماغنا ماتر(Magna Mater[١]).

ب. الإلهة السوريَّة

الإلهة أترغاتيس هي الإلهة الرئيسة في سورية خلال العصر الهلينستي، وكانت تشكِّل مع هدد وسيميوس الأقانيم الثلاثة في المدينة المقدَّسة منبج(بامبيكه – هيرابوليس)، إلاَّ أنَّها كانت أكثر شعبية، وكان يحيط بعرشها أسد من كل جانب، وبما أنها كانت تمثل الخصوبة والحياة الرغيدة فقد اتخذت من السنبلة شعاراً لها[٢]. لقبها الرومان بلقب إلهة سورية،حيث انتشرت عبادتها في أصقاع مختلفة من الامبراطورية الرومانية واستمرت عبادتها إلى مابعد ميلاد السيد المسيح بوقت قصير[٣].

ت. الإلهة المصريَّة

جاءت أسرار إيزيس من مصر، وكانت تمثِّل الإلهة الأم الكبرى للمصريين، وقد انتقلت عبادتها إلى بلاد الإغريق ومنها إلى روما، وهي تقوم على الأسرار إذ تمثِّل طقوسها أحزان إيزيس على مصرع زوجها[٤].

---

[١]- خزعل الماجدي: المعتقدات الرومانيَّة، ص ١٧٦.

[٢]- د.ادزارد، م. ه.بوب، ف. رولينغ: قاموس الآلهة والأساطير، ترجمة محمد وحيد خياطة، حلب، ٢٠٠٤م، ص ١٦١.

[3]- Fergus,Millar; The Roman near east Harvard ,university pres 4th pr London England 2001, p244

[٤]- جفري بارندر: المعتقدات الدينيَّة لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣م، ١١٢.

ث. الإله الفارسي

كانت الشمس في أجزاء متعدِّدة من الشرق موضوعاً بارزاً للعبادة، وقد انتقلت عبادة الإله ميثرا الفارسيِّ -(وهو إله الشمس في أوجها) -إلى روما، وكانت معابده تقام تحت الأرض وذلك تخليداً للفترة التي كانت عبادته تجري فيها في الكهوف والمغاور، وقد استُبعِدت النساء من عبادته ذات الطقوس السرِّيَّة[١].

تاسعاً: الأساطير الرومانيَّة

غنيٌّ عن القول أنَّ جميع الشعوب في مرحلة من مراحل تطوُّرها حاكت لنفسها أساطير أي حكايات مدهشة فيها القليل من الحقيقة والكثير من المبالغة والتخيُّلات والتعابير الخرافيَّة التي لا يقبلها عقل، لعب أدوارها آلهة وأنصاف آلهة. وكانت الأسطورة تمثِّل كلَّ شيء فهي تمثِّل الخلق وأصول الدين والأخلاق، أمَّا الميثولوجيا فهي تُعنى بدراسة وتفسير الأساطير، وفي كلِّ ميثولوجيا يوجد قصة حول خلق الكون وخلق الإنسان والطوفان.

وعند العودة إلى الميثولوجيا الرومانيَّة لابدَّ من القول أنَّ هناك بعض الصعوبات منها أنَّ الرومان اقتبسوا الكثير من الميثولوجيا الإغريقيَّة التي اقتُبِست بدورها من الميثولوجيا الفينيقيَّة، ممَّا أدَّى إلى امتزاج الاثنتين إلى درجة أنَّ التمييز بينهما أصبح ضعيفاً.

وغالباً ما كان الكتَّاب المختلفون ينقلون الأسطورة نفسها والخرافة الواحدة بشكل متناقض، ومن جهة أخرى لعب الكتَّاب المسيحيُّون الأوائل دوراً في إيصال الأساطير الوثنيَّة التي نقلوها في معرض ردودهم على الفكر الوثنيِّ، وكانوا أحياناً يختارون أبعده عن المعقول ليظهروا تهافت العقائد الوثنيَّة التي لم تستنر بالنعمة الإلهيَّة [٢].

وسنعرض في ما يلي بعضاً من الأساطير الرومانيَّة التي تضمَّنت أسماء الآلهة وأشباهها والأبطال الذين ورد ذكرهم فيها:

١. تأسيس روما

لمَّا كانت روما مدينة عظيمة وحاكمة للعالم فمن الطبيعيِّ أن تكثر الروايات حول

[١]- دونالد دولي: حضارة روما، ترجمة جميل يواقيم الذهبي، فاروق فريد، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص ٣٧٨.

[٢]- سهيل عثمان، عبد الرزاق الأصفر: معجم الأساطير اليونانيَّة والرومانيَّة، ص ١٦.

تأسيسها، البعض يعتقد أنَّ بعضاً من سكان طروادة نجا وتمكَّن من الصعود إلى المراكب والابتعاد عن المدينة المحترقة. ولمَّا لم تكن لدى هؤلاء وجهة محدَّدة فقد تركوا المراكب تحت رحمة الرياح والأمواج التي ساقتها من حول شبه جزيرة البلقان، ودفعت بها إلى مصب التيبر، فدخلت المراكب النهر، ووصلت إلى سفح جبل البالاتان حيث تقرَّر التوقُّف للمبيت، وتمَّ سحبها إلى الشاطئ. وحيث أنَّ الرحلة أضنت النساء فقد عمدت إحداهنَّ واسمها روما إلى إقناع زميلاتها بحرق المراكب ليلاً لوضع حدٍّ لهذه الرحلة القاسية، وفي الصباح ثارت ثائرة الرجال حين رأوا النار، لكنهم اضطرُّوا للقبول بالأمر الواقع وخصوصاً أنَّهم عاجزون عن بناء مراكب جديدة. وبعد مرور بعض الوقت، تبيَّن أنَّ الأرض المحيطة بالمهاجرين خصبة، وأنَّ جيرانهم طيبون، وأنَّ الهضبة ملائمة لبناء مدينة لهم، عندها أعرب المهاجرون عن امتنانهم لروما الخادمة[١].

٢. ولادة مارس

تقول الأسطورة إنَّه ذات مرَّة كانت جونون غاضبة جداً من زوجها جوبيتر، فقرَّرت أن تنجب ابناً من دون مساعدة زوجها، وهكذا قصدت ساحل المحيط النهر الجبَّار الذي يزنر المعمورة كلِّها، وفي الطريق توقفت بالقرب من البيت الذي تقطنه الربَّة فلورا التي نادت جونون وراحت تسألها عن وجهتها، فحدَّثتها عن حزنها قائلة لها إنَّها تبحث عن العقار الذي يساعدها في تحقيق رغبتها، فعطفت عليها فلورا ولكنها كانت تخاف سخط جوبيتر، وعلى الفور أدركت جونون أنَّ بوسعها أن تساعدها، فراحت تتوسَّل إليها، وهمَّت فلورا ثلاث مرَّات بمساعدتها ثمَّ تراجعت لخوفها من جوبيتر، عندها أقسمت جونون يميناً راسخة يمكن أن تقسمها الآلهة بأنَّها لن تخبر أحداً بأنها ساعدتها، فرضخت فلورا لذلك، وأخبرتها بأنَّ لديها زهرة واحدة فقط يمكن أن تساعدها على الحمل، وجلبت لها من البيت غصناً يحمل الزهرة، فقطفت جونون الزهرة ولامست بها جسدها، ولم تكد تفعل ذلك حتى شعرت بحركة الجنين، وانطلقت وهي سعيدة إلى تراقيا، وهناك ظهر ابنها إلى النور، وحين شب

[١]- يولي سركين: أساطير روما القديمة، ص ١٥٩. للمزيد انظر أيضاً سهيل عثمان، عبد الرزاق الأصفر: معجم الأساطير اليونانيَّة والرومانيَّة، ص ٢٧٥.

مارس لم ينسَ يد فلورا البيضاء، فأمر بأن تعيش معه في روما العظيمة[١].

عاشراً: معتقدات الموت عند الرومان

مهما تنوَّعت مفاهيم الموت، يبقَ في النهاية معنى واحد هو « **أنَّه نهاية كلِّ حيٍّ في هذا الوجود، يكون مظهره خمود الشعور وتلاشي الإدراك**». ولكنَّ ما بعد الموت هو السؤال الذي تنوَّعت النظرة إليه بين الشعوب قديماً وحاضراً، لأنَّ باطنه ارتبط بمعتقدات فكريَّة لا تستند إلى دليل ملموس بين حقيقة الموت وحال الجسد بعد مفارقته الروح والانفصال عن الدنيا، فتبنَّى كلُّ شعب فكرته الخاصَّة التي من خلالها يتمُّ التعامل مع جسد الميت بطقوس تعبرِّ عن الفكرة.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ المعتقدات العامَّة عن الحياة بعد الموت في المجتمع الرومانيِّ معقَّدة بدرجة التعقيد نفسها في معظم المجتمعات الأخرى، فقد اعتقد الرومان أنَّ الروح تبقى بعد موت الجسد، لذلك كان دفن الميت يُعتَبر الواجب الأول على أسرة المتوفىَّ، فإن عنوا بدفن الجثَّة بحسب العادات عندها الروح تذهب لتحيا تحت الأرض وتصبح ربَّة، وإن لم يعتنوا بدفنها فالروح ليس في استطاعتها الدخول إلى عالم الأموات بل كانت تعود إلى الأرض وتُدخل الرعب إلى قلوب الأحياء، وتعذِّبهم ليدفنوها، فكان أفراد أسرة الميت ينصبون كومة حطب يحرقون فيها الجسد ويجعلون الرماد في صندوق يضعونه في القبر، وكان لهم معبد صغير خاصٌّ بدفن أرواح الأرباب، ويأتون في أوقات معيَّنة من السنة لزيارة القبر حاملين طعاماً، ومعتقدين أنَّ الأرواح محتاجة إلى الغذاء، وكانوا يهرقون الخمر واللبن على الأرض[٢].

من جهة أخرى، أهمل الرومان بناء القبور بشكل عامٍّ، ولم يصنعوا النواويس الفخمة، كغيرهم من الشعوب القديمة، ومردُّ ذلك إلى اعتقادهم بأنَّ الروح لا تدوم كثيراً في القبر[٣].

تلك العقائد كانت بالغة القِدَم وتبدو مثيرة للسخرية، إلاَّ أنَّها ظلَّت تسيطر على الإنسان فترة طويلة من الزمن.

---

[١]- يولي سركين: أساطير روما القديمة، ص ٣٠٧.

[٢]- شارل سينوبوس: تاريخ الحضارات العالم، ص ١٤٩

[٣]- حسن نعمة: ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٨١.

خاتمة

كلنا نعلم أنَّ الدين يعين على تقويم الأخلاق وتهذيب النفس البشريَّة، إلاَّ أنَّه عند الشعوب القديم بشكل عام، ولدى الرومان بشكل خاصٍّ، كان مبعثاً للفساد الخلقيِّ، ودليلاً على قصور التفكير، وعدم إدراك أنَّ هناك إلهاً واحداً يدير هذا الكون الواسع.

وكان اهتمام الرومانيِّ بالطقوس والمراسم يوحي أنَّ الآلهة لا تجزي الشخص لصلاحه بل لما يقدِّمه لها من الهدايا وما يتلوه من الصيغ، وما تقام من احتفالات مليئة بمظاهر الفساد من السكر والعربدة وممارسة الجنس. نحن لا ننكر أن الديانة الرومانيَّة كانت أيضاً تدعو في بعض عباداتها وطقوسها إلى فضائل الأخلاق، وإلى النظام والقوَّة في الفرد والأسرة، ومنح الأسرة حقوقاً وضمانات ومعونة مقدَّسة، وجعل الأبوة شرطاً أساسيَّاً لطمأنينة روح الميت وتمتُّعها بالهدوء والسلام، إلاَّ أنَّها بشكل عام لم يكن لها قوة أخلاقيَّة، فكان اهتمام الرومانيِّ مركَّزاً على الفوائد المادِّيَّة التي يمكن الحصول عليها عن طريق استرضاء الإله وإقامة الشعائر الدينيَّة بشكل منتظم ودقيق.

خلاصة القول، أنَّ الدين احتلَّ المكانة الأسمى عند الرومان لارتباطه بحياتهم اليوميَّة، وكان على الشعب طاعتها طاعة تامَّة، وإقامة الشعائر الدينيَّة لها، وبناء المعابد واللُّجوء إليها عند الشدائد. فالرومانيُّ القديم عبد قوى الطبيعة، وعبد آلهة عدَّة، كما قدَّس العظماء والأبطال والملوك، وعدَّ نفسه خادماً للآلهة.

وبقي الرومان يفتقرون إلى التصوُّر العميق عن الإله وماهيَّته ووظائفه وشكله، لذلك ظهر فقر كبير في عباداتهم، كما أنَّهم كانوا يستقبلون أيَّ إله من أيِّ أمَّة طالما أنَّهم كانوا يشعرون أنه يفيدهم أو ينشط قواهم الروحيَّة، وهذ ما يدلُّ على تشتُّتهم الفكريِّ والروحيِّ.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع العربيَّة:

١- الأصفر،عبد الرزاق، عثمان،سهيل: معجم الأساطير اليونانيَّة والرومانيَّة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٢م.

٢-بشور، وديع: ديانات الأسرار، دار المرساة، دمشق، ٢٠٠٦م.

٣--حمود، محمود : الديانة السوريَّة القديمة، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٤م.

٤-السقاف، إبكار: الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين، مؤسسة الانتشار العربي، ط١، بيروت ٢٠٠٤م

٥-الشيخ ، حسين: ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ، دار العلوم العربيَّة، بيروت.

٦- الصفدي،هشام: تاريخ الرومان، ج١، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٧م

٧- علي، عبد اللطيف أحمد : التاريخ الروماني، عصر الثورة، دار النهضة العربية، بيروت، ط١ ١٩٨٨م

٨- الماجدي، خزعل:- المعتقدات الرومانيَّة، دار الشروق، عمان، ط١ ٢٠٠٦م.

- المعتقدات الكنعانيَّة، أزمنة للطباعة، عمان، ط١، ١٩٩٩م.

٩- محفل، محمد: تاريخ الرومان، منشورات جامعة دمشق، ط١، ١٩٧٤م.

١٠ - نصحي، ابراهيم: تاريخ الرومان،ج ٢، مكتبة الأنجلو المصريَّة، ط١، القاهرة، ١٩٨٨م.

١١- نعمة،حسن: ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٤م.

- المصادر المعرَّبة:

١- أوفيد: مسخ الكائنات(ميتامورفورس)، تعريب ثروت عكاشة، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ط١٩٨٤،٢م(كت ١٥: ٧٤٠- ٨٦٠).

٢- هيرودوت: التاريخ، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي أبو ظبي،٢٠٠١م.

-المراجع المعرَّبة:

١- ادزارد، د..بوب، رولينغ م. ه ف.: قاموس الآلهة والأساطير، ترجمة محمد وحيد خياطة، حلب، ٢٠٠٤م.

٢- إلياد، مرسيا: تاريخ المعتقدات، تعريب عبد الهادي عباس، ج٢، دار دمشق، ١٩٨٦م.

٣- بارندر، جفري: المعتقدات الدينيَّة لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣م.

٤- تشارلزورت، م.ب: الامبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي عبده جرجس، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

٥ - توكاريف أ، سيرغي.: الأديان في تاريخ شعوب العالم، ترجمة أحمد محمد فاضل، الأهالي للطباعة دمشق، ط١، ١٩٩٨م.

٦- دولي ، دونالد: حضارة روما، ترجمة جميل يواقيم الذهبي، فاروق فريد، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

٧- ديورانت، ول: قصَّة الحضارة ج ٩، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

٨- روسي، بيير: تاريخ العرب الحقيقي، ترجمة فريد جحا، باريس،١٩٧٩م.

٩- سيركين، يولي: أساطير روما القديمة، ترجمة هاشم حمادي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١١م. ١٠- سينوبوس، شارل: تاريخ الحضارات العام، ترجمة محمد كرد علي، الدار العالمية للنشر، مصر، ط١، ٢٠١٢م.

١١- ميغوليفسكي، أ. س: أسرار الآلهة والديانات، ترجمة حسان مخائيل إسحاق، دار علاء الدين ط ٤ دمشق، ٢٠٠٩م.

المراجع الأجنبيَّة:

1-Bryce, James; The Holy Roman Empire Publishers Thomas y growell company – New york.

2-Carter; Jesse Benedict: Life of Ancient Rome –Houghton mifflin company boston, New York, 1911.

3- Khan, RefaquatAli; GeoRawlinson: Phoenicia: EncyclopaedicHistory Of Word civilization, vol 18, INDIA,1992.

4- Krentz, Edgar, The Mystery Religion; An ouverview Religion, and Ethics intitute Evanston.

5-Millar, Fergus; The Roman near east Harvard, university pres 4th pr London England 2001.

6- S.R.F. Belween man and God-Jrs.vol lxx, 1980, Price, 6.

التربية والتعليم عند الرومان

معمر نوَّاف الهوارنة[١]

مقدِّمة

لم تكن الحياة في روما تُوفِّر للأسر الرفاهية والعيش الهانئ، فالتاريخ يصوِّر لنا حدَّة الطِّباع وصعوبة المراس لدى الرومان، فضلاً عن الحروب واضطراب الأمن. ولا شكَّ في أنَّ هذه الأمور تنعكس على التربية وإعداد أجيال المستقبل. فمنذ تأسيس روما الذي يعود تقليديًّا إلى العام (٧٥٣) قبل الميلاد، وحتى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، لم يكن هناك دليل على وجود أيِّ تعليم أكثر من التعليم البدائيِّ، وفي الغالب كان المعلِّمان الرئيسيَّان للطفل هما والديه. ولم تظهر المدارس الأولى إلاَّ في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد في وقت ارتقت طبقة العوامِّ إلى السلطة السياسيَّة. وكانت هذه المدارس تهتمُّ بالتنشئة الاجتماعيَّة الأساسيَّة والتعليم البدائيِّ لصغار السنِّ، ويُعزى الفضل إلى عبد سابق اسمه سبوريوسكافيليوس في افتتاح أوَّل مدرسة للتعليم المبكر الحرِّ. لكن، مع ذلك، بقي التعليم المنظَّم نسبيًّا، ولم يرد إلاَّ القليل من المصادر أو الروايات المتعلِّقة بهذه العمليَّة.

تجدر الإشارة إلى أنَّ الآباء الرومان كانوا يقومون بتعليم أطفالهم المهارات اللاَّزمة للحياة كالزراعة، والنشاطات المنزليَّة، والألعاب الرياضيَّة كالفروسيَّة والمصارعة، واستخدام الأسلحة المعروفة في ذلك الوقت، بالإضافة إلى تعليمهم بعض قواعد النظافة وآداب السلوك والأساطير، وكانوا يعلمُّونهم ممارسة الطقوس مثل تقديم القرابين وغيرها. وكانت الأسرة تتولَّى تربية الأبناء في جوٍّ من الرعاية منذ بداية المراحل الأولى من عمر الطفل، ولكن الأولويَّة هي عكس ما تذكره بعض الروايات من تركيز على (غرس صفات المواطن الجيِّد في نفوس الشباب لبناء مجتمع متماسك)، فذلك بالتأكيد مبالغة وتزوير لحقيقة لامعة

---

[١]- عميد كليَّة التربية الثالثة- درعا (سوريا).

كالشمس، وهي أنَّ الدمويَّة والعدوان والشراسة كانت كالحليب المغذِّي الذي يغدقه الآباء الرومان على أبنائهم.

إلى ذلك، كان بوسع أبناء النُّبلاء والأثرياء وملاَّك الأراضي من الطبقة الأرستقراطيَّة وأبناء التجَّار، أن يتَّخذوا مدرِّسين خصوصيين، وبإمكانهم الذهاب إلى المدارس التي يديرها علماء النحو والبيان سواء في روما أم في الأقاليم. من هنا، كان الصبية ذكوراً وإناثاً يتوافدون على مدرسة في الريف، حيث يتلقَّون تعليمهم الابتدائيَّ من القراءة والكتابة ومبادئ الحساب على يد معلِّم قليل الأجر[١].

ومع ارتقاء الجمهوريَّة الرومانيَّة إلى أوج مجدها، ثم الوصول إلى مرحلة الأمبراطوريَّة، اتَّخذ نظام التعليم شكله النهائيَّ، ورغم تأسيس المدارس الرسميَّة التي تتلقَّى أجراً لقاء التعليم وتلك التي تؤمِّن التعليم المجانيَّ بأبسط أشكاله، إلاَّ أنَّ التوسُّعات العسكريَّة المتعدِّدة في الشرق اليونانيِّ جعلت الرومان يتبنَّون مجموعة من المفاهيم التعليميَّة اليونانيَّة، والاستشهاد بأنَّهم يفتقرون إلى أدنى أُسُس العلم والحضارة، وأنَّهم كانوا أوعية فارغة احتاجوا لملئها ممَّن احتلُّوا بلادهم واستعمروها بالعنف والدمويَّة. عدا ذلك، كان الطلاَّب الذين يرغبون بمتابعة أعلى مستويات التعليم يتوجَّهون إلى اليونان لدراسة الفلسفة مع خلوِّ روما من أماكن لإكمال مراحل التعليم العليا. ومع اعتماد الرومان نظام التدرُّج التعليميِّ من المدرسة الابتدائيَّة، مروراً بالمرحلة الثانويَّة، وصولاً إلى الكليَّة أو الجامعة، لم يكن هذا التدرُّج شاملاً لكلِّ أبنائهم، فقد كان أبناء النُّخبة فحسب هم من يحظون بالتعليم الرسميِّ الكامل، أمَّا التاجر أو المزارع فيحصل على القدر الأغلب من مهارته خلال عمله. من هنا كان التعليم العالي في روما رمزاً للحالة أكثر ممَّا هو هدف للاهتمام العمليِّ.

أوَّلاً: التربية لدى قدماء الرومان

عَنِي الرومان بالتدريبات المتَّصلة بساحة القتال أو ساحة مارس، وقيل إنَّهم في جانب من تعليمهم اهتمُّوا بحفظ الأناشيد الملحميَّة التي كانت تحتوي على أسماء للآلهة والإلهات، ومن أهمِّ هذه الملاحم التي كانت تلقن للتلاميذ أناشيد الإلياذة تماماً كما كان الأمر عند

[١]- علي مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، كليَّة الآداب: جامعة بنغازي، (٢٠١٢)، ص١١٣.

اليونان الذين يملون على تلاميذهم أناشيد الهومريَّة كنوع من التربية الأيديولوجيَّة، فهذه الأناشيد تحتوي في مضمونها على قدر كبير من تقدير الذات وذمِّ الآخرين، يضاف إلى هذا دراستهم للألواح الإثني عشريَّة محتوى للقانون الرومانيِّ، وعن طريق هذه التربية خرج الشجعان، وهي المدرسة الكبرى للفضائل المدنيَّة والحربيَّة بالنسبة إليهم.

ومع جمال هذه الروايات عن الرومان، لابدَّ لنا من التطرُّق إلى تفشِّي الجهل والأميَّة بين عامَّة الشعب نظراً لاحتكاره من الطبقات الغنيَّة، فضلاً عن سيطرة النزعة القتاليَّة العنيفة على عقول الجميع على حدٍّ سواء. فكما سبق وأشرنا، لم يعرف الرومان المدارس إلاَّ في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، أما قبل هذا العصر فلم يعرفوا من المعلِّمين إلاَّ أباءهم والطبيعة، فكانت التربية لديهم تربية جسديَّة وأيديولوجيَّة فحسب، أو بتعبير أدقَّ حربيَّة ووطنيَّة، فكانوا يعنون من جهة بالتدريبات المتَّصلة بساحة الوغى، ومن جهة ثانية بحفظ الأناشيد الملحميَّة. فقد أرادوا أن يكونوا جنوداً ومواطنين مطيعين قادرين على التضحية، وأنكروا الحديث عن الإنسان بكونه إنسانيّاً، ولم يسيغوا سوى الحديث عن المواطن الرومانيّ.

في ما يتعلَّق بالسلطة المنزليَّة، كانت سلطة الأب مطلَقة، وكانت الإطاعة له عمياء، ومن ثمَّ يأتي دور الأم في الأسرة حيث كانت في روما أعظم منزلة منها في أثينا، وكانت مساوية للرجل تقريباً وحامية للأسرة ومربِّية الأولاد. هذه المنزلة الكبرى للمرأة تتجلَّى في ما ذُكِر عن كوريولان القائد الرومانيِّ الشهير في القرن الخامس قبل الميلاد، حيث عزم على الإيقاع بوطنه روما، والثأر منها، ولكن لم يثنه عن هذا العزم إلاَّ دموع أمه فيتوريا وزوجته فولومنيا.

إلى ذلك، كان للدِّين دور في تعزيز مكانة الأسرة، إذ عاش الرومانيُّ محاطاً بالآلهة من كلِّ جانب، فإذا بلغ الوليد الفطام، على ما تروي الأساطير الرومانيَّة، أتت آلهة لتعلِّمه الطعام، وأخرى لتعلِّمه الشراب، وثالثة لتأخذ بيده وتقوده في مشيِه، ومثل هذه الأوهام من شأنها أن تفرض النِّظام على كلِّ الأفعال التي يقوم بها الإنسان في حياته اليوميَّة.

في السياق عينه، كان الطفل الرومانيُّ يتعلَّم القراءة في قوانين الألواح الإثني عشريَّة، فيعتاد منذ نعومة أظفاره على أن ينظر إلى القراءة نظرته إلى شيء طبيعيٍّ مقدَّس لا تُنتَهك حرمته[١].

[١]- عبدالله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ، بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٨٤)، ص١٠١.

لا ريب في أنَّ هذا الطرح يعيدنا إلى أسرة نموذجيَّة ومجتمع مثاليٍّ يرفع شعار الإنسانيَّة واحترام حقوق المرأة، وما إلى ذلك، ولكنَّ الواقع كان مختلفاً، حيث أنَّ النساء كنّ يُعاملن معاملة العبيد، ويُعتبرنَ البضاعة المتداولة في غالب الطبقات. أما عن تعلُّم الولد للقراءة فلم يكن ضرورياً بمستوى القدرة على مواجهة الأقران، والفوز في مباريات المشاجرة، ورمي السهام، والضرب بالأسلحة الحديديَّة.

وُيعدُّ كونتليان أحد أعلام التربية الرومانيَّة بالإضافة إلى شيشرون، وقد أسهم إسهاماً بارزاً في حقل التعليم عندما أكَّد على أهميَّة تعليم الصغار في المدارس بعدما كان السائد في كثير من المجتمعات أن يدرسوا معظم وقتهم في محيط الأسرة. وهو شنَّ هجوماً على استخدام العقاب البدنيِّ فلم يقربه، واعتبره صورة متخلِّفة للتربية. ولقد ترك مقطوعات نثريَّة لها قيمة تربويَّة كبيرة وكأنه استلهمها من دراسة عميقة لمبادئ علم النفس الحديث. مثال ذلك رأيه في استخدام اللعب كوسيلة من وسائل التربية، وحديثه عن أهميَّة الترويح والتسلية في تجديد نشاط الطفل من المباحث العصريَّة التي تعرَّض لها في مواعظه التعليميَّة القيِّمة والتي تنسجم تماماً مع روح التربية الحالية[١].

وفي إطار الحديث عن التنديد بالعقاب البدنيِّ، لا بدَّ من الوقوف عند المصطلح أو العبارة التي تبدو مناسبة لما يتزعَّم الهالة الرومانيَّة، ولكن التنديد به من كونتليان أو غيره من المربِّين كان مبادرة خافتة وسط أضواء العنف والبحث عن غرس روح الإجرام والفتك، ومفهوم العقاب، وحتمية الكون إما قاتلاً أو مقتولاً في الصورة التي صوَّرها الرُّومان لأبنائهم عن العالم الذي يحفل بالذئاب المفترسة. واللَّعب كوسيلة للتربية جاء في حلبة المصارعة الخاطئة وسط أنواع العراك المتعدِّدة في المدرَّجات. ولا نظنُّ أنَّه كان لعباً بالكرات المطاطيَّة. ولسنا بهذا الكلام نقلِّل من شأن مثل هذه الأطروحات التي تبنَّاها المربُّون الرومان آنذاك، ولكنَّ الطابع العامَّ الدمويَّ للشعب والحكم يقيِّد أيَّ مبادرة لإعادة الطفولة إلى فطرتها، وينبغي إذ ذاك العودة إلى الأساس، والبدء بالمرحلة الأولى من محاولة تبييض صفحات

[١]- زيرق دحمان، التربية في الفكر الإسلاميِّ المعاصر، رسالة دكتوراه منشورة، جامعة محمد خضير، بسكرة، (٢٠١٦)، ص١١٥.

عقول هؤلاء الأطفال كغرس قِيَم الحبِّ والوئام والسلام والعلم وغيرها، بدلاً من قِيَم الرومان القاسية في ما يتعلَّق بأطفال صغار.

ممَّا تقدَّم، يُلاحَظ اهتمام التعليم في العصر الرومانيِّ بالتربية الأيديولوجيَّة والجسديَّة أكثر من اهتمامه بالتربية الفكريَّة والعلميَّة؛ كما كان الاهتمام منصبَّاً على تربية الطفل المحارب أكثر من الاهتمام بالطفل الواعي المثقَّف الملمِّ بالعلوم؛ لذلك رأينا طفلاً ترجع السلطة عليه إلى الآباء الذين يحاولون صناعة جنديٍّ مقاتل أكثر من تنمية الطفل والشاب المستقلِّ بعلمه وآدابه. وهذا غير مُستغرب، فالشغف بالحروب والقتل والعراك كانت المُثُل التي يتغنَّى بها الأجداد والآباء ويورثونها للأبناء والأحفاد.

وبمراجعة الوثائق التاريخيَّة نرى أنَّ التربية الرومانيَّة تنحصر بأربع مراحل، سنتناول في بحثنا المرحلتين الأولى والثانية:

١. مرحلة الوطنيين أو عصر التربية الرومانيَّة

تمتدُّ هذه المرحلة من سنة (٧٠٢) إلى (١٤٦) ق. م. حيث كان المنزل هو المدرسة الأولى، والأسرة عماد التربية، والأم ترعى أبناءها، وتربِّيهم على الطاعة والدين، حتى عمر السبع سنوات، يتعلَّم منها اللُّغة وإتقان اللَّفظ (لفظ الكلمات)، والقراءة والكتابة ومبادئ الحساب. وكانت تقوم أيضاً بتعليم ابنتها شؤون البيت وإدارته، لتصبح امرأة ناضجة وتتهيّأ للزواج، وتصبح ربة بيت. ويعود سبب إشراف الأسرة على تعليم أبنائها إلى عدم وجود مدارس في هذه الفترة.

أمَّا الأب فكان يتولىَّ تربية أبنائه عن طريق أخذهم معه أينما ذهب طيلة اليوم سواء إلى المعبد، أم إلى المعسكر، أو العمل، فيندمج الولد تدريجيَّاً في المجتمع، ويدرك مبادئه عن طريق الممارسة الفعليَّة. وكان الإعداد يشمل الواجبات المتعدِّدة من قانونيَّة وزراعيَّة وعسكريَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة عن طريق التقليد والممارسة في المزارع والمحاكم أو الجيش، وتصبُّ كلُّ هذه الجهود في هدف تكوين الجنديِّ القويِّ. وهذا الاتِّجاه يختلف عن الاتِّجاه اليونانيِّ الذي يقلِّل من أهميَّة المنزل، وتجلَّى ذلك في «جمهوريَّة أفلاطون» حيث أهملت قيمة البيت باعتباره وسيلة من وسائل التربية.

وقد تمَّ تشجيع الأطفال على الاشتراك في الألعاب الرياضيَّة المختلفة، على النحو الآتي:

الألعاب الرياضيَّة التي تحتاج إلى نشاط جسمانيٍّ، ومن هذه الألعاب الأراجيح وبناء البيوت من الرمل والطين...إلخ.

الألعاب الرياضيَّة التي تساعد على تقوية الجسم وتقويمه، من هذه الألعاب الجري والقفز والملاكمة ورمي الكرة والصيد.

الألعاب الرياضيَّة الحربيَّة كاستعمال الآلات والرماح، والوقوف على ظهور الخيول. أمَّا العلاقة بين القوانين والتربيَّة في معناها الضيِّق فتتلخَّص بما يأتي:

تحديد سلطة الوالد على ولده وواجباته في ما يختصُّ بتربيته.

ضرورة حفظ كلِّ طفل للقوانين كما نشرت في دار الخطابة وفهمها تماماً.

وفي نهاية هذا العصر اهتمَّت المدارس الأوليَّة بتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وكانت تُعرف باسم «ludi» ومعناها اللَّعب، وهذا يدلُّ على أنَّ المدارس لم تكن أساسيَّة في التربية الحقيقيَّة للشاب الرومانيِّ بل كانت ذات طابع خاصٍّ، وتُقام في بعض المنازل، أو في ردهة معبد، أو في بناء عام[١].

أما عن حقوق الوالد وواجباته في هذا العصر فكانت كما يأتي:

عقب الولادة مباشرة يوضع الطفل عند أقدام والده في حفل دينيٍّ، فإمَّا أن يرفعه الأب من فوق الأرض، وبهذا يصبح عضواً في الأسرة، أو يُعرض عنه فيُلقى في مفترق الطرق، أو يصبح من الرقيق، وذلك لفقر الوالد، أو لتشوُّه المولود، أو لأيِّ سبب آخر. ولمَّا كان هذا تقليداً دينيَّاً كان من المفروض أن تكون لدى الأب أسباب وجيهة لترك الطفل والتخلُّص منه، وهذا التقليد وإن كان وحشيّاً، لكنَّه بدا مناسباً بالنسبة إلى الدولة التي تهتمُّ بالعناصر السليمة الخالية من التشوُّه أو النقص في التكوين، مبتعدة عن العوامل والقيم الأخلاقيَّة. ولم يكن الوالد ليفقد حقَّه على ابنه حتى بعد أن يصبح هذا الابن مواطناً أو جنديّاً أو ضابطاً أو موظَّفاً حكوميّاً؛ كما أنَّه ما كان ليفقد حقوقه على ابنته عند زواجها إلاَّ إذا قبل التنازل عن هذه

[١]- السيد شريف، تاريخ تربية الطفل، القاهرة: كليَّة رياض الأطفال، (٢٠٠٤)، ص١٠٩.

الحقوق في حفل دينيٍّ خاصٍّ تنتقل فيه ابنته إلى الأسرة الجديدة. وقد رُوعِيت هذه الحقوق حتى نهاية العصر الأمبراطوريّ.

ويمكن القول أنَّ هذا الارتباط بين الواجبات والحقوق كان مبدأً أساسيّاً من مبادئ الفكر الرومانيِّ، وعلى ذلك فإنَّ حقوق الأب القويَّة كانت من أجل خدمة الدولة، والتي كانت هي مدار الحقوق والواجبات. ومع أنَّ الطفل يصبح مواطناً في سن السادسة عشرة، ويرتدي زيَّ المواطن، وينضمُّ إلى الجيش، ويحقُّ له بالملكيَّة، ويُدلي بصوته في انتخابات الهيئة التشريعيَّة، بيد أنَّ حقوق الوالد تظلُّ مفروضة عليه حتى موته.

٢. مرحلة الانتقال أو عصر تغلغل الثقافة اليونانيَّة في روما

أنشأ الرومانيون في هذا العصر عدداً كبيراً من المدارس في تخصُّصات مختلفة منها: الخطابة، الأدب، النحو. وقد شهدت هذه المدارس إقبال بعض المعلِّمين اليونانيين وعلى رأسهم أندرو نيكيس andro nicus (٢٨٤-٢٠٤ ق.م) الذي علَّم فيها اللُّغتين اليونانيَّة واللاَّتينيَّة.

وكانت المدارس الأوليَّة تقوم بتدريس مبادئ القراءة والكتابة والحساب بصورة بسيطة جداً، ثمَّ دخلت في هذا العصر مدارس الخطابة والنحو اليونانيَّة إلى روما، حيث كان هدف التربية في هذه المرحلة هو إعداد الخطباء والفصحاء الكاملين. وقد جاء هذا الانتقال والتحوُّل تدريجيّاً، وتجلَّى بدخول الثقافة اليونانيَّة ومُثُلها في النواحي الدينيَّة وإلى حدٍّ ما في القانون.

وازدهر هذه المرحلة الثقافيَّة ما سُمِّي بـ«Hellenization of Roma»، أو بمعنى آخر جعل روما إغريقيَّة، ويُلاحظ أنَّه قبل هذا التاريخ كانت مجتمعاً محلِّيّاً ثم أصبحت أمبراطوريَّة، وفي مستهلِّ هذه المرحلة الانتقاليَّة كانت المدارس الأوليَّة قد ازدادت زيادة كبيرة، وقام اندور نيكيس بترجمة «الأوديسيه» إلى اللاَّتينيَّة، وظهرت المدارس الثانويَّة. كذلك ظهر الأثر اليونانيُّ في التربية بإدخال مدارس البلاغة أو الخطابة لإتمام الرسالة التي بدأتها المدارس الثانويَّة[١].

ممَّا سبق نستنتج أنَّ التربية في روما مرَّت بأربعة عصور متتالية ومختلفة، وقد تناولنا

[١]- السيد شريف، تاريخ تربية الطفل، مصدر سابق، ١١٤.

بحثنا المرحلتين الأولى والثانية بالتفصيل، وما يُؤخذ على المرحلة الأولى هو الاهتمام الزائد للأسرة بتربية الطفل على حساب التعليم المدرسيِّ الأساسيِّ، فالمدارس كانت ذات طابع معينَّ وخاصٍّ تُعلِّم بعض الأمور المحدَّدة، أمَّا التعليم النظريُّ فيتمُّ عن طريق الوالدين ومرافقة الطفل الدائمة للوالد. وأما المرحلة الثانية فما يُشار إليه نقداً هو التأثُّر الكبير جداً بالثقافة الإغريقيَّة اليونانيَّة التي استطاعت التغلغل في التعليم الرومانيِّ وفرض ثقافتها وتعاليمها عليه.

بيد أنَّ ثمَّة أمرين ظهر تبايُن حولهما هما: الموسيقى والألعاب الرياضيَّة. فمن المعلوم أن الموسيقى لدى اليونانيين كانت عنصراً أساسيّاً في النظام التعليميِّ، في حين اعتبرها الرومان من الأشياء غير الضروريَّة. أمَّا الألعاب الرياضيَّة فكانت بالنسبة إلى اليونانيين وسيلة للحصول على جسم صحيٍّ ورشيق وكانت غاية بحدِّ ذاتها وطُوِّرت في ما بعد لتصبح منافسات كبيرة، في حين أنَّ الرومان لم يتبنُّوا هذه النظرة وما كانت تلك الألعاب عندهم إلاَّ وسيلة للوصول بالجنود إلى حالة بدنيَّة جيِّدة تساعدهم على القتال في حروبهم المستمرَّة.

ثانياً: التربية الرومانيَّة ومظاهرها

وردنا الكثير من الروايات التي تضفي طابعاً هادئاً مسالماً على المجتمع الرومانيِّ، حيث أُعطيت الأسرة دورها في تربية الطفل إلى سن السابعة من عمره يتلقى خلالها التعليم والعادات السلوكيَّة لاعتقادهم بأنَّه في هذه السن يتميَّز بقوَّة الذاكرة لا سيَّما إذا ما رضع من مرضعة فصيحة، وتم تلقينه من أبوين متعلِّمين ما يؤهِّله لأن يكون مواطناً مثقَّفاً وخطيباً متمكِّناً، مع التأكيد على البُعد الجسماني؛ لأن هدفه هو إيجاد الخطيب والجندي المقتدر. كما تميَّزت تلك التربية بممارسة الخطابة، والإكثار من الأسئلة للأطفال، وإعطائهم المكافآت، مع عدم الإسراع في ذلك أكثر مما ينبغي[١].

والعلم آنذاك لم يكن متاحاً للفقراء الذين انغمسوا في الشوارع المنسيَّة، وعاشوا على آثار حياة القتال والسعي وراء التدريب في النهار، واللَّهو والمجون في الليل، من دون أي هدف معنويٍّ سامٍ. ومع تقدُّم الزمن ظهر بعض الأسخياء الذين قدَّموا الأموال لتعليم بعض

[١]- خالد محمود، تطوُّر تربية الطفل ما قبل المدرسة بين الماضي والحاضر، كليَّة التربية، جامعة الإسكندريَّة، (٢٠١٦)، ص١١٦.

الفقراء، ثم أخفت الدولة أثر هؤلاء الأفراد، وأصبح الصندوق الذي أمر به الأمبراطور يقوم بتدبير الأموال لتعليم الفقراء في المدارس.

في السِّياق عينه، تباينت المظاهر الأدبيَّة في ما يخص السنَّ التي يجب أن يلتحق فيها الطفل أو الطالب بالمدرسة، وتتراوح عند المفكِّرين والفلاسفة القدماء ما بين الخامسة والسابعة، ما يجعل العشوائيَّة والتشتُّت أمراً غالباً على التعليم. وعليه، فإنَّ المعلومات التي ينبغي أن تُلقَّن للطالب لم تكن متتابعة أو دقيقة أو تتَّبع منهجاً علميّاً وأهدافاً تربويَّة إنَّما كانت مقتطفات يونانيَّة متعدِّدة ليس بينها من الترابطات ما يجعلها متكاملة.

ومن هذه المظاهر التربوية والتعليمية:

١. الآداب

يُعتبر الأدب من مميِّزات العلم والتعليم آنذاك، وكان مستورداً من اليونان ومطبوعاً بطابع الإغريق، باستثناء الأنواع ذات الأصل الرومانيِّ كالهجاء والتاريخ والبلاغة. وقد برز روَّاد في الأدب آنذاك أمثال كاتولوس ولوكريتيوس والسياسيِّ والخطيب ماركو توليو شيشرون. ومع تأثُّر الرومان الكبير بالأدب اليونانيِّ إلاَّ أنَّ الكوميديا كان لها وزن أكبر من المأساة على عكس اليونان. ومن المعلوم أنَّ الأدب بدايةً كان عملاً بالسُّخرة رغم أنَّه كان يدور حول العبيد الأكاديميين وتأخُّر بدء النبلاء أو حتى العوامِّ في ممارسته، وحتى بعد تطوير الأدب بشكل رئيس باللُّغة اللاَّتينية استمرَّ المؤلِّفون الرومانيون المختلفون في الكتابة باللُّغة اليونانيَّة على مرِّ العصور.

وفي ما يتعلَّق بالأنواع الأدبيَّة التي كانت يونانيَّة في معظمها، فقد تصدَّرها الشعر الملحميُّ بفضل ترجمات هوميروس من قبل ليفي أندر نيكوس. ومع تصدر الشعر الملحميِّ المختصِّ بتصوير الملاحم والمعارك والدماء عند الرومان، طُبِع الأدب بطابع الدمويَّة والشعر، وكان التربويُّ نوعاً فرعيّاً من الشعر الملحميِّ ويهدف إلى توجيه الأفكار الفلسفيَّة، وأعظم ممثِّليه عمل لوكريتيوس « من طبيعة الأشياء ». وأمَّا الشعر الغنائيُّ فكان مرتدياً ثوب الثقافة اليونانيَّة، وقد كتب الرومان حول الحب والحياة اليوميَّة بنظرتهم وميولهم، ومثَّلوها في أبيات شعريَّة بأحجام سداسيَّة في المرثيَّات والمقاطع الشعريَّة. ومن الأنواع الأدبيَّة الهجاء الذي يكاد

يكون رومانيّاً بامتياز ولا يدين إلاَّ بالقليل لليونان. ولا غرابة في ذلك فالهجاء متوافق تماماً مع متطلِّبات الشاعر الرومانيِّ الذي جُبِل على الشجار والعراك وتوجيه الضربات وتلقِّيها. ومن الأنواع الأدبيَّة أيضاً أبيغرام « أي نصوص جنائزيَّة ومدح وآيات ودعابة وذكاء، وهناك الخرافة والمأساة المستوحاة من الدراما اليونانيَّة «تورجيا»، وأبرز مؤلِّفيها سينيكا، ولكن لم ترقَ إلى الأهميَّة التي حظيت بها في اليونان، هذا فضلاً عن الكوميديا والتاريخ والخطابة والرواية التي كانت متأخِّرة جداً، ولم تبرز أيّاً من المواقف الحياتيَّة إلاَّ كأبطال حروب ومقاتلين ومحاربين في ميادين الدماء.

خلاصة القول أنَّ الأدب الرومانيُّ مال في مجمله إلى مدح الحب اليائس، وبعض من مظاهر الحياة الريفية، وبالتأكيد الهجوم الشرس على الشعراء الآخرين في النثر ولا سيَّما في التاريخ، فقد حاولوا الحفاظ على ذاكرة الشعب، والأهمُّ من ذلك تبرير الطريقة التي استحوذوا فيها على العالم.

٢. الفلسفة

اتَّبع الفلاسفة الرومان نزعات جديدة في الفكر، فمنهم من دعا إلى العودة إلى أفلاطون وفلسفته، ومنهم من اتَّبع المدرسة الرواقيَّة، ومنهم من اتَّبع المدرسة الأبيقوريَّة حيث تأثَّروا بالفلسفة والفلاسفة اليونانيين[١].

ولا شكَّ في أنَّ أبرز رواد الفكر والأدب كان شيشرون الذي أثار جدلاً كبيراً، ولا سيَّما في الجانب السياسيِّ من حياته، فهو تارة مثقَّف مفكِّر وسط بيئة سيِّئة، وتارة أخرى ثريٌّ إيطاليٌّ صاعد في روما، وثالثة انتهازيٌّ متقلِّب ومتملِّق، ولكنه مع ذلك يُعتبر أبو الفلسفة السياسيَّة والكاتب السياسيُّ الأول في روما، هذه المدينة التي تحرِّكها طموحات العظمة والنفوذ. ولا بدَّ من التطرق إلى أهم ما نادى به ألا وهو القانون المتغيِّر الأدنى مرتبة الذي يطلق عليه الإنسان العادي اسم « قانون »، فجميع الناس متساوون حسب قوانين الطبيعة، ويملكون القدرة العقليَّة التي يمكن تغذيتها، وهذا ما يسمح للجميع بالتوصُّل إلى الأفضليَّة والمعرفة، وكذلك العدل من الطبيعة، وهذا يعني أنَّ الإنسان إذا لم يبتعد عن الطبيعة فإنَّ

[١]- أنس الشامي، الحياة الثقافيَّة الأدبيَّة في سوريا في العصر الروماني، مصدر سابق، ص١٨٤.

العدل والمساواة سوف يسودان في الكون أجمع من دون حاجة إلى السلطة أو العنف، لكن الفساد سوف يطغى للأسف على تلك الشعلة الجميلة التي أشعلتها الطبيعة فينا، وهذا مأزق لم يستطع شيشرون ولا الطبيعيون أنفسهم الإفلات منه.

٣. هدف التربية الرومانيَّة

تهدف التربية الرومانيَّة إلى ما يأتي:

١. إخضاع الفرد إلى الدولة.

٢. الاهتمام باللُّغة والخطابة والجدل.

٣. تحقيق المُثُل العليا الرومانيَّة التي تمثَّلت في عدد من القيم العمليَّة كالاحترام والطاعة والشجاعة.

٤. تكوين الخطيب البليغ في خطابه الفصيح في بيانه وإقناعه[١].

٥. خلق أمَّة محاربة قادرة على القيام بواجبات الحرب والقتال.

٦. التركيز على الجوانب العمليَّة النفعيَّة والعسكريَّة هو الأهمُّ عند الرومان.

٧. تكوين مواطنين أقوياء مَهَرة لهم أثرهم في حياة مجتمعهم في الحرب، وخصوصاً في المعارك.

٨. إعداد الجنديِّ الشجاع المتميِّز بالخصال الهجوميَّة والدفاعيَّة القتاليَّة.

نلاحظ من أهمِّ الأفكار التربويَّة عند الرومان هو إعداد الإنسان المقاتل القادر على القتال للتوسُّع والمزيد من السيطرة، والتركيز في تكوين الأفراد على الصفات القتاليَّة وغرس خصال الجنديِّ الدمويِّ من خلال الأسرة أولاً والمجتمع ثانياً.

لقد انصبَّ اهتمام القيادات الرومانيَّة على تسخير الأفراد كعبيد وخادمين لهذه الدولة، وطبعهم بطابع التفاني في سبيل الوطن من دون الاهتمام بقضاياهم الخاصَّة أو اهتماماتهم.

---

[١]- جون هامرتن، تاريخ العالم والحياة الاجتماعيَّة في ظلِّ الجمهوريَّة الرومانيَّة. ترجمة وزارة المعارف العامَّة. القاهرة: دار النهضة للنشر، (١٩٧٠)، ص١٥٦.

فترسيخ المعتقدات في ذهن الفرد يُعدُّ من أولى اهتمامات الدولة قبل الاهتمام بهوايات الطفل ومتطلِّباته ليصبح أكثر حرصاً على تحقيق أهداف الأمَّة قبل تحقيق أهدافه وآماله. أما القادة أنفسهم فقد تشرَّبوا روح العداء منذ الصغر حيث شهدت فتراتهم المتلاحقة مشاهد دمويَّة مستميتة في محاولات نيل السلطة، والغدر ببعضهم البعض، والصراع على المناصب، والتجاوزات الكثيرة للقانون، ولا سيَّما القناصل وأعضاء مجلس الشيوخ، وأصحاب رؤوس الأموال والنافذين. فالوضع كان مختلفاً تماماً عن عامَّة الشعب حتى انتشر الإجرام بينهم في حالات السلم والحرب.

٤. مراحل التربية الرومانيَّة وخصائصها وأساليبها

انحصرت التربية الرومانيَّة بأربع مراحل لكل منها خصائصها وأساليبها، وتتمثَّل بما يأتي:

مرحلة الوطنيين: حيث جرى تعظيم شأن المنزل كوسيلة من وسائل التربية. ومن أبرز ممارساتها للفرد البالغ: المعايشة من خلال تعزيز العلاقة بين الشاب وأبيه، حيث يصاحبه في كلِّ الحفلات الدينيَّة والزيارات والاجتماعات للاستماع إلى المناقشات، فيتعلَّم من خبرات الحياة وممارسة الرياضة التي هي من المؤهَّلات اللاَّزمة للجنود لتقويَّة الجسم وتقويمه وتدريبه، ومن أهمِّها القفز والملاكمة ورمي الكرة والحربة والصيد.

مرحلة الانتقال: حيث ظهرت المدارس الثانويَّة ومدارس البلاغة أو الخطابة، وكانت تلك المدارس تنقسم إلى مدارس لتعليم النحو اليونانيِّ، ومدارس لتعليم النحو الرومانيِّ، ويتمُّ التركيز فيها على قواعد اللغة والخطابة، وشرح تراجم الشعراء، وتفسير القطع الأدبيَّة، والتدريب على الكتابة والإنشاء، إضافة إلى دراسة الحساب والهندسة والفلك والجغرافيا. أمَّا مدارس البيان أو الخطابة فيلتحق بها الطالب حسب ميوله ومقدرته حيث تقدَّم أسمى ما وصلت إليه التربية الأدبيَّة والعمليَّة.

مرحلة المعاهد الرومانيَّة: في هذه المرحلة يمكن اعتبار التربية تقليداً لما كانت عليه في اليونان، حيث تمَّ الاهتمام بالمكتبات وإنشاء الجامعات التي عَنِيَت بالقانون والفلسفة والدراسة العلميَّة والفنون[١].

[١]- إبراهيم أيوب، التاريخ الروماني، سبها: منشورات جامعة سبها، (١٩٩٦)، ص٢٧٨.

مرحلة الانحلال أو الضمور: تأثَّرت التربية في هذه المرحلة بالمجتمع الفاسد، واتَّبعت ثقافة المظاهر والادعاء من دون غيرها، فاختفى عنصر الإنكار من الأدب الرومانيِّ وكذلك الفلسفة، وتمَّ التصدِّي لجامعة أثينا التي تُعتَبر مركز العلم، وصدر الأمر بإغلاقها.

وقد لعبت الحضارة الرومانيَّة وريثة الحضارة اليونانيَّة دوراً في تاريخ الفكر البشريِّ، حيث حوَّلت الآراء الفلسفيَّة إلى نظريَّات وابتكارات مادِّيَّة ملموسة، وتحوَّلت النظريَّات المنطقيَّة والعلوم الأكاديميَّة إلى إنجازات علميَّة، حيث كانت تقوم في غالبها على التقليد والقسوة لدفع المتعلِّم إلى الدراسة[١].

بيد أنَّ ثمَّة سلبيَّات للتغلغل اليونانيِّ الكبير في التعليم الرومانيِّ، تجلَّى في فرض الأفكار الخارجية على منظومة التعليم، ومرحلة المعاهد تأثَّرت بالفكر اليونانيِّ المبالغ فيه، في وقت كان المجتمع الروماني غارقاً في ظلمة الجهل والأساطير والتخلُّف والعدوائيَّة.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذا التغلغل جعل من الشعب الروماني أشبه بسلعة مقلَّدة من فكر اليونان ليس بالجودة المطلوبة إنَّما من دون أدنى درجات التوافق بين العلوم والمعارف والمعتقدات المستقاة والتي لا تنطبق على الواقع الرومانيِّ العنيف.

ثالثاً: القوى والعوامل التي شكَّلت الفكر التربويَّ عند الرومان

من أهم هذه العوامل ما يأتي:

القوى والعوامل السياسيَّة

مرَّت روما منذ تأسيسها بثلاثة أنظمة للحكم هي:

الحكم الملكيُّ

امتدَّ من عام (٧٥٣ ق.م) حتى (٥١٠ ق.م) وخلال تلك الفترة كانت البلاد تحت قيادة ملك يعاونه مجلس الشيوخ والجمعيَّة العموميَّة، وكان الملوك طغاة وظالمين ما أدَّى إلى الثورة عليهم وتبدُّل نظام الحكم إلى النظام الجمهوريِّ.

[١]- قاسم قحوان، إضاءات في أصول التربية، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، (٢٠١٦)، ص٣٣٢.

النِّظام الجمهوريُّ

بدأ عام (٥١٠ ق.م) حيث حكم البلاد قنصلان تمَّ انتخابهما بمعرفة الشعب الرومانيِّ ويعاونهما مجلس الشيوخ، واتَّسم هذا العصر بالديموقراطيَّة الاقتصاديَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة إلاَّ أن ذلك لم يستمرَّ طويلاً حيث اقتصر اختيار القناصل في نهاية الأمر على الطبقة الأرستقراطيَّة التي استولت على الأرض والحكم ما أدَّى إلى مهاجمة الأباطرة لهذه الطبقة والاستيلاء على الحكم.

النِّظام الدكتاتوريُّ

بدأ بسيطرة الطبقة الأرستقراطيَّة على الحكم، ثمَّ هاجمها الأباطرة وأصبح الأمبراطور هو الديكتاتور الأعظم، وقد أثَّر نظام الحكم في كلِّ عصر على نوعيَّة التربية فيه.

٢ - القوى والعوامل الاجتماعيَّة

العصر الملكيُّ

كانت الأسرة أساس الحياة الاجتماعيَّة وعمادها الأب.

العصر الجمهوريُّ

اتَّخذ المجتمع شكلاً طبقيَّاً قمَّته الأمبراطور وأتباعه الأثرياء، ثمَّ عامَّة الشعب والعبيد الذين كانوا في قاعدة الهرم. وقد كان هذا التقسيم الطبقيُّ إشارة إلى فشل الأمبراطوريَّة الرومانيَّة في إقامة نظام اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ وسياسيٍّ ديموقراطيٍّ[١].

٣ - القوى والعوامل الاقتصاديَّة

انتعش الاقتصاد في عصر الجمهوريَّة، ولا يُعزى ذلك إلى نهضة وازدهار وتطوُّر في الأداء الرومانيِّ على الصعيد الحياتي، أو إقبال على الكدِّ والتعب والعمل، وإنما يعود إلى النهب والتوسُّع العسكريِّ والغزوات التي عادت على روما بالغنائم والثروات، ولم يكن ذلك بالطبع نتاج شعب كادح مُجدٍّ كما هو الحال لدى الشعوب المنتجة ودعاة الاكتفاء

[١]- إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان، مصر: منشورات كليَّة الآداب، (١٩٧٨)، ٢٦٧.

الذاتي، حيث كانت ملكيَّة وسائل الإنتاج لكل أفراد الشعب، بينما كسد الاقتصاد في عصر سيطرة الطبقات، وكانت الزراعة هي أساس الاقتصاد، كما عمل الرومان بتربية الماشية والتجارة البحريَّة، ولم يلبثوا أن أهملوا الزراعة، وزادت الضرائب على الشعب، وكان ذلك أحد أسباب انحلال الأمبراطوريَّة الرومانيَّة.

٤ - القوى والعوامل الثقافيَّة

اتَّسم الرومان بميلهم إلى التنظيم والعمل أكثر من التأمُّل والتفكير، فقد عرف عنهم أنَّهم شعب نفعيٌّ عمليٌّ استفاد من أفكار الآخرين وطبَّقها في حياته العمليَّة، فاللُّغة اللاَّتينيَّة أصبحت لغة الدين والعلم في أوروبا في العصور الوسطى، والأدب اللاَّتينيُّ أصبح من أكثر الآداب المدنية قراءة، كما أصبح القانون الرومانيُّ أساساً لكلِّ النُّظُم القانونيَّة الحديثة.

٥ - القوى والعوامل الدينيَّة

اعتقد الرومان مثلما اعتقد غيرهم بوجود القوى الخفيَّة التي يجب استرضاؤها، وارتبطت آلهتهم بكلِّ أنشطة الحياة. بيد أنَّ الإخلاص والتفاني كانا في سبيل القتل فحسب عند الغالبيَّة العظمى، ولم يكن القتال والمعارك التي يخوضونها مبنيَّة على عقيدة وإيمان راسخ، إنَّما على غريزة دمويَّة جُبِلت عليها نفوسهم حتى أدمنوها، وأصبحوا يقتاتون عليها، وساهمت عقيدتهم الدينيَّة في انتشار قيم حبِّ الوطن والشعور بالواجب، وكان للدين تأثير كبير في حياتهم فقد نظروا إليه على أنَّه وسيلة لتنظيم حياة الناس اليوميَّة[١].

لقد احتفظ الدين لدى الرومان بصبغته العمليَّة، ثم صار أكثر ارتباطاً بالشؤون السياسيَّة، فقد كان كلُّ شيء مقدَّساً يؤدَّى على أكمل وجه، وتعدَّدت آلهتهم لأنَّ لكل عمل حفلَهُ الديني المناسب. وما نلاحظه هنا هو أنَّ إيمانهم لم يكن سامياً، ولم يهدف إلى بلوغ درجة المُثُل العليا من الجمال، فكانت ذات أثر ضعيف في الشعب من الناحيتين العقليَّة والجماليَّة. فقد تولَّدت لديهم نزعة حب الوطن، فأعلوا من قيمة العلاقات العائليَّة، وارتفعوا بمعنى الواجب. وكان مثلهم الأعلى يتجلَّى أساساً في تناسب الواجبات مع الحقوق، وفي تصوير الحياة وترجمتها إلى مبادئ وقوانين تصبُّ في صالح الدولة.

---

[١]- عبدالله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ، مصدر سابق، ص٢٩٦.

وما يجب الإشارة إليه هو أن المُثُل العليا الأخلاقيَّة التي تمتَّع بها الرومان لا تشمل العناصر المثاليَّة، فالفضائل المطلوبة كانت كلُّها تتمثَّل في الصفات العمليَّة المستمدَّة من الحياة الواقعيَّة، فالرجولة كمثل أعلى كانت ممثَّلة في صور الرجال أو الشخصيَّات التاريخيَّة المهمَّة، وكانت تمثِّل الدرجة التي لا بدَّ على الشباب أن يقترب منها من حيث الفضائل العمليَّة والقوَّة والنجاح.

رابعاً: النظام التربوي الروماني

جاءت الممارسات التربوية انعكاساً لوجهات نظر الرومان حول طبيعة العمليَّة التربويَّة، وذلك بدءاً بالأهداف التربويَّة ومروراً بمؤسَّسات التربية، وطبيعة المعلمين، ومناهج التعليم، وانتهاءً بالتقويم وأساليب الثواب والعقاب[١].

تضمَّن نظام التعليم الرومانيِّ ثلاثة مستويات تربويَّة، هي:

١. مدارس الأدب

مدة الدراسة فيها خمس سنوات من العمر من (٧) إلى (١٢) تعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب والقانون، وكانت هذه المدارس للجنسين إلاَّ أنَّ الغالبيَّة العظمى كانت من البنين، وبالتحديد من أبناء الطبقة الغنية في المجتمع.

٢. مدارس النحو

أول ما ظهرت هذه المدارس في روما في القرن الأول قبل الميلاد، كما ظهرت في جميع أنحاء البلاد، وكان الأولاد يدخلونها في سن الثانية عشرة من العمر، ويبقون عادة نحو أربع سنوات، وتقسم هذه المدرسة إلى قسمين:

- مدارس خاصَّة لتعليم اللُّغة اليونانيَّة.
- مدارس خاصَّة لتعليم اللُّغة اللاَّتينيَّة.

وقد أوصى كونتليان بالذهاب إلى المدارس اليونانيَّة أولاً وتعلُّم لغتها، وكان أهم عمل

[١]- تشارلز وورث، الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ترجمة رمزي عبده جرجس، القاهرة: الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، (٢٠٠٠)، ص٢٣٦.

في هذه المداس هو دراسة اللُّغة بالإضافة إلى منتخبات شعريَّة ونثريَّة من الآداب الرومانيَّة واليونانيَّة. وكانت قصائد وأشعار هوميروس تحظى بمكانة مرموقة في مناهج هذه المدرسة بالإضافة إلى تعليم الفنون الحرَّة[١].

٣. مدارس الخطابة

كانت هذه المدارس تقليداً لمدراس الخطابة في أثينا، ويرتادها التلاميذ في سنِّ السادسة عشرة لدراسة فنِّ الخطابة، وهدفها الرئيس إعداد خطباء في المجتمع المحليِّ، وتشتمل موضوعات الخطابة على القانون والمذاهب الرومانيَّة.

ويرى شيشرون أنَّ الخطيب الناجح يجب أن يُلمَّ بالفلسفة والسياسة والجغرافيا والرياضيَّات والقانون والمنطق والفنون العسكريَّة، أمَّا التعليم العالي فكان في المكتبات العامَّة الكبيرة (الجامعات) التي أنشأها الأباطرة الرومان، وكان الطلاب يدرسون فيها الهندسة والطبَّ والقانون والآداب والخطابة والفلسفة، ومن أشهرها جامعات روما والقسطنطينيَّة والإسكندريَّة[٢].

وقد تأثَّر تعليم الخطابة في روما إلى حدٍّ كبير بالخطابة الأثينيَّة؛ ولم تشتهر في روما الجامعات إلاَّ في المكتبات الكبيرة حيث لم يكن هناك نظام أكاديميٌّ بحت له أُسُسه وقوانينه ومعالمه الخاصَّة.

خامساً: مستويات التعليم عند الرومان

منذ تأسيس روما، والذي يعود إلى العام (٧٥٣) قبل الميلاد، وحتى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، لم يكن هناك أيُّ دليل على وجود تعليم أكثر من التعليم البدائيّ. وفي الغالب، كان المعلِّمان الرئيسيَّان للطفل هما والده ووالدته. وكان أولياء الأمور يقومون بتعليم أطفالهم المهارات اللاَّزمة للحياة في الجمهوريَّة الأولى، أي الزراعة والمهارات المنزليَّة والعسكريَّة. ورغم ذلك فإن الأهمَّ هي المسؤوليَّات الأخلاقيَّة والمدنيَّة المتوقَّعة

[١]- عيسى علي، النُّظُم التربويَّة، كليَّة التربية، جامعة دمشق، (٢٠١٦)، ص٤٤.

[٢]- المصدر نفسه، ص٤٥.

من مواطني الجمهوريَّة، والمتعلِّقة بغرس سمات « vir bonus » أو المواطن الجيد. ومن مستويات التعليم عند الرومان ما يأتي:

المستوى الأول

عندما يبلغ الطفل السابعة من العمر يذهب إلى معلِّم يفتح له دكاناً بالقرب من الميدان العام. وكان الناس من محدودي الدخل أي من الطبقة العاملة هم الذين يسلِّمون أبناءهم لهذا المعلِّم، أمَّا الأسر الموسِرة فقد كانت تذهب بأبنائها إلى مدرِّس خصوصيٍّ يكون عادة من العبيد الإغريق، وعند وصوله إلى سن الحادية عشرة يذهب إلى المستوى الثاني وهو التعليم الثانويّ[١].

المستوى الثاني

يذهب الطفل إلى المستوى الثاني، أي التعليم الثانوي، ليتعلم اللُّغة تعليماً صحيحاً، إضافة إلى دراسات تاريخيَّة وأسطوريَّة، وكان الرومانيُّ الراشد يتعلَّم اللُّغة الإغريقيَّة التي كانت تساعد كثيراً في التخصُّص بأحد الفروع، وعندما يصل إلى سنِّ السابعة عشرة يصل إلى المستوى الثالث[٢].

المستوى الثالث

هو التعليم العالي الذي يتلقَّاه الطالب على يد خطيب يُعلِّمه الكلام الذي يحتاجه عندما يمارس مهنة السياسة، ولم يكن يواصل الدراسة بعد المرحلة الثانويَّة إلا أكثر الرومان مالاً وميلاً إلى الثقافة، وكان هذا التعليم يشمل الفلسفة، وفنِّ الخطابة، أمَّا الطلبة الراغبون في مواصلة الدراسة فيذهبون إلى المدن الإغريقيَّة التي أصبحت مركزاً علميَّاً مثل أثينا ورودس. بعد ذلك أنشأ الرومان مدارس للخطابة من أشهرها مدرسة لوكيوس جالوس سنة (٩٥) قبل الميلاد[٣].

---

[1]- Hornblower, S. & Spawforth, A. Oxford Classical Dictionary, New York: Oxford University Press, (1996).

[٢]- حسن صبحي بكري، موجز تاريخ روما، الرياض: مؤسَّسة الشباب الجامعي، (١٩٩٧)، ص٣٥.

[3]- Carcopino, J. Ancient Roma, London: George Routleand sons, (1974), p. 315

إذاً، كان الطالب الرومانيُّ يتدرَّج في الدراسة تماماً مثل الطالب المعاصر، وهذا التدرُّج يعتمد على القدرة والمرحلة العمريَّة مع التركيز بشدَّة على الموهبة الفطريَّة[١].

لقد كان التطور السريع للتعليم نتاجاً واضحاً لاحتكاك الرومان بالثقافة الإغريقيَّة، وقد اهتموا بدراسة الفلسفة والفنون الخطابية التي رأوا أنها تساعد على النجاح في الحياة العامة والخاصة على حد سواء. ومع ذلك لم يكونوا مبالين بإنشاء أي نظام للتعليم، فكان كل أب يوجه أبناءَه في المكان الذي يرغب فيه، وكان مدرِّسي اللُّغة والمواد الأوليَّة من الإغريق[٢].

سادساً: مناهج المدارس الرومانيَّة ودرجاتها

تتمثَّل مناهج المدارس الرومانيَّة ودرجاتها بما يلي:

- السنُّ من (٧-١٢) سنة: الدرجة هي التعليم في المدارس الأوليَّة، والعلوم التي يتلقاها الطلبة هي القراءة والكتابة والحساب.
- السنُّ من (١٢-١٦) سنة: الدرجة هي التعليم الثانوي، واسم المدرسة هي مدرسة النحو، وتكون العلوم التي يتلقاها الطلبة هي الصرف والنحو والأدبيات.
- السن من (١٦-١٨) سنة، وتكون درجة التعليم هي العلمي ومدارس هذه الدرجة هي مدارس الخطابة وتدرس علوم النحو والخطابة والجدل والحقوق.
- السن من (١٨-٢٥) سنة، ودرجة التعليم هي العالي، وتدرس في الجامعات وعلومها الحقوق والطب وفن البناء والرياضيات والخطابة والنحو وعندما ظهرت الديانة المسيحية وأصبحت الدين الرسمي للدولة في أواخر القرن الرابع الميلادي ظهرت المدارس المسيحية وفيها يتعلمون تعليماً عالياً في المعتقدات واللاهوت المسيحي وكان هذا السن في الماضي يلتحق أصحابه بالمدارس الرياضية لدراسة التدريبات المتقدمة[٣].

---

[1]- Yun. TEducation in Greek and Roman antiquity, Boston: Brill, (2001).

[٢]- علي مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ٦٧.

[٣]- محمد حسن العمايرة، الفكر التربوي الإسلامي، الأردن: دار المسيرة للتوزيع والطباعة، (٢٠٠٠)، ص٣٤٧.

إن أهم آراء وأفكار الرومان هي:

١. تخريج أجيال مدربة على فنون القتال والحرب.

٢. البلاغة والخطابة والفصاحة في البيان والإقناع.

٣. إعداد الأفراد لمعرفة واجبات حياتهم العملية وفهمها.

٤. الاهتمام بالنواحي المهنية والإعداد المهني والاستعداد للحرب والسيطرة والتوسع.

ومن أهم الأفكار التي سعت التربية الرومانية إلى غرسها لدى الناشئة هي الطاعة العمياء للدولة، ولعلَّ للتربية الرومانية دوراً مهماً في تخليد ممارسة العقاب البدني؛ لأن المعلمين كانوا قساة غلاظاً يمارسون أشدَّ أنواع العقاب البدنيِّ على عكس الأثينيين الذين اعتمدوا على جذب المتعلِّمين وترغيبهم[١].

كان اليوم الدراسيُّ عند الرومان يبدأ باستيقاظ الطالب في الصباح الباكر، والذهاب إلى المدرسة ليتعلَّم القراءة والكتابة، وفي النصف الثاني من الفترة الصباحيَّة يأخذ استراحة يمارس فيها الألعاب الرياضيَّة تحت حرارة الشمس، ثم يعود إلى بيته ليتناول وجبة الغداء، ثم يعود إلى المدرسة مرَّة أخرى ليكون معلِّم القراءة في انتظاره حتى يأتي المساء، وينتهي من دراسته، فيعود إلى المنزل لينام حتى يستعدَّ لليوم التالي[٢].

أما الإجازات في المدارس فإنَّ المعلومات في هذه الناحية تكاد تكون شحيحة، ورغم ذلك فإنَّ العطلة الرسميَّة هي يوم السبت من كلِّ أسبوع، أما يوم السوق التي كانت تُقام في اليوم التاسع من كلِّ شهر فلم يتَّخذه الرومان يوماً للراحة وإنما كان يوماً دراسيّاً عاديّاً[٣].

كما لاحظنا أنَّ الرومان قسَّموا المراحل الدراسيَّة إلى مناهج في كلِّ مرحلة عمريَّة تدرَّس فيها أنواع معيَّنة من العلوم، وهذا يؤدِّي إلى عدم تكامل التسلسل الدراسيِّ حيث أنَّه في كلِّ مرحلة يتمُّ تدريس علوم مختلفة من دون الرجوع إلى العلوم السابقة ما يسبِّب نسيان العلوم التي سبق تدريسها والاهتمام بالعلوم المرحليَّة.

[١]- خالد محمود، تطور تربية الطفل ما قبل المدرسة بين الماضي والحاضر، مصدر سابق، ص٥٣.

[٢]- مصطفى محمد قنديل زايد، التربية والتعلُّم في الحضارات الإغريقيَّة والرومانيَّة، القاهرة: الأنجلو المصريَّة، (٢٠٠٦)، ص٤٠.

[٣]- علي مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٦٧.

سابعاً: مكانة المعلِّم في المجتمع الرومانيّ

كان التدريس عند الرومان مهنة وضيعة، فلم يكن ممتهنوها موضع احترام وتقدير وإنَّما موضع استخفاف؛ لأنَّها كانت الملجأ الأخير لمن تقطَّعت بهم السبل، وتدهورت بهم الحال بعدما كانوا سادة في قومهم، كسياسيٍّ منفيٍّ، أو طاغية معزول مثل ديونيسيونا لسيراكيوزي الذي امتهن التعليم بعد عزله، وكذلك اقتصرت هذه المهنة على العبيد المحرَّرين[١].

وعدم احترام المدرِّس في المجتمع الرومانيِّ يعود إلى أجره المتواضع إذ كان يتقاضى ثمانية آسات (as) عن كلِّ تلميذ في الشهر، فيما يتقاضى العامل العادي ديناراً كاملاً، ولذلك كان على المدرِّس أن يدرس فصلاً كاملاً مكوَّناً من ثلاثين تلميذاً لكي يوفِّر لنفسه حياة كريمة مثله مثل العامل العادي.

وقد أتى كوانتيليان بآراء سديدة حول الذاكرة وملكة التقليد وأفكار الذكاء المبكر، يكشف فيها وضوح نظرته النفسيَّة الدقيقة، ومثل هذا العمق نجده في نظرته حول النظام والطاعة وقواعدهما حين يقول: «إن الخوف يروِّع بعض الأطفال ويهيِّج بعضهم الآخر، أما أنا فأريد أن أعطي طفلاً يؤثِّر فيه الثناء، ويلهبه المجد، وينتزع الإخفاق دموعه «. وهو حمل بشدَّة على استخدام الدرة « رغم أن العادة تبيحه وكريزيبوس لا ينكره [٢]«.

ويجب ألاَّ ننكر دور المعلم في نقل التعاليم الإغريقيَّة وتكريسها لتكون ملائمة إلى حد كبير إلى الطبيعة والواقع الروماني البسيط الذي يفتقد إلى التعقيد والتنوُّع في مناهجه التربويَّة[٣].

ثامناً: التأثيرات التي تعرَّض لها التعليم الروماني

في الفترة التي تبعت الحرب البونيَّة الأولى، لم يكن الرومان قد تأثَّروا بالفكر اليونانيِّ. حينها بِيْعَ أسيرٌ يونانيٌّ من تارينتم اسمه ليفيوس اندرو نيكوس كعبد، فتمَّ تعيينه معلِّماً لأطفال سيِّده وبعد حصوله على حرِّيته استمرَّ في عمله، وأصبح أوَّل معلِّم خاص يتَّبع أساليب التعليم اليونانيَّة، وقام بترجمة الأوديسيه لهوميروس إلى اللُّغة اللاَّتينيَّة[٤].

---

[١]- حسين الشيخ، الرومان، الإسكندريَّة: دار المعرفة الجامعيَّة، (٢٠٠٠)، ص١٣٧.

[٢]- مصطفى محمد قنديل زايد، التربية والتعلم في الحضارات الإغريقيَّة والرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٥٦.

[٣]- خالد محمود، تطور تربية الطفل ما قبل المدرسة بين الماضي والحاضر، مصدر سابق، ص٥٩.

[4]- Dobson, J.F. Ancient Education and Its Meaning to Us Cooper Square: New York ,(1963)p. 171

ومع زيادة نفوذ روما بعد تلك الحرب برزت أهميَّة الأسرة كوحدة مركزيَّة في المجتمع الرومانيِّ، وبفعل الانهيار تأثَّر نِّظام التعليم القديم، وبدأ التركيز بشكل أكبر على النِّظام الذي رآه الرومان لدى الهلنستيين، ثمَّ في مراكز التعليم المهمَّة مثل الإسكندريَّة بعد ذلك، وقد أخذ في التحوُّل إلى نظام تعليميٍّ أدبيٍّ[١].

حتى ظهور أينوس (٢٣٩ إلى ١٦٩ ق.م) الأب الروحيِّ للشعر الرومانيِّ، لم تكن روما قد شهدت أيَّ نوع من أنواع الأدب القوميِّ، وتبنَّى الرومان العديد من أوجه التعليم اليونانيِّ. وكانت الموسيقى بالنسبة إلى اليونانيين عنصراً أساسيّاً في النِّظام التعليميِّ، وتغطِّي كل تلك الموضوعات التي يشرف عليها الشعراء وتشبه الفنون الليبراليَّة المعاصرة، وكانت القدرة على العزف على إحدى الآلات علامة تحضُّر الرجل.

وكانت الألعاب الرياضيَّة بالنسبة إلى اليونانيين وسيلة للحصول على جسم صحيٍّ ورشيق، ثمَّ طوَّروا عشقهم للمنافسات، لكن الرومان لم يتفقوا معهم في ذلك؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الألعاب الرياضيَّة ما هي إلاَّ وسيلة للوصول بالجنود إلى حالة بدنيَّة جيِّدة، ويمثِّل ذلك واحداً من الفروق الرئيسة لنظرتهم إلى التعليم، فبالنسبة إليهم لم تكن موضوعات الدراسة جيِّدة إلاَّ إذا كانت تخدم هدفاً أو غاية أسمى خارج إطار هذا الموضوع[٢].

لقد انحصر التعليم في روما في أماكن محدَّدة وخاصَّة، وهذا الشيء أثَّر على عدم قدرة جميع أفراد الدولة في نيل الدراسة والتعليم، بالإضافة إلى أهميَّة دور الأب في تربية الطفل وتقرير مصيره حسب القانون الرومانيِّ القديم حيث يخطِّط له مستقبله وكيفيَّة تعليمه ويرسم الطريق الخاص به من جميع نواحي الحياة، ومن بينها الناحية التعليميَّة، وكذلك كان جلُّ اهتمام الرومان بالآداب على حساب العلوم أو المناهج العلميَّة التي لم تأخذ ذلك الاهتمام والقيمة لدى الدولة الرومانيَّة وقادتها؛ حتى الألعاب الرياضيَّة لم تؤسَّس على مبدأ المتعة والتسلية؛ بل كانت مبنيَّة على تأسيس فرد قويٍّ وجنديٍّ مقاتل يتمكَّن من مجابهة المنافسين في محافل القتال والمنافسة.

[1]- Barrow. R., Greek and Roman. London. MacMillan Education, .(1976), 86

[2]- Chiappetta, M. Historiography and Roman Education Journal, (1953), 150.

الخاتمة

حاولنا في هذا البحث أن نتناول بالدراسة الموجزة أهمَّ الأفكار التربويَّة التي ظهرت عند الرومان، وأشرنا عند الحديث عن تطوُّر مفهوم التربية إلى العوامل التي أثَّرت في هذا التطوُّر، حيث أن الهدف الذي حدَّدناه لهذا البحث هو الكشف عن الأفكار التربوية التي ظهرت عند الرومان، وكيف امتزجت التربية الرومانيَّة بالتربية اليونانيَّة، وعن تأثير الدين على التربية في العصر الروماني.

كانت الأسرة من أهم المؤسَّسات التعليميَّة في الحياة الرومانيَّة المبكرة، وكان الأب هو أعظم الشخصيَّات في الأسرة، وكان له الحقُّ في الحكم بالحياة أو الموت على الأبناء. كما كان له دور كبير في تعليمهم الشجاعة والوطنيَّة والقوة. فمثلاً، كانت المزرعة المؤسَّسة التعليميَّة للأبناء والبيت المؤسَّسة التعليمة للبنات، ولم يكن للقراءة والكتابة مكان في المحتوى التعليميِّ إلاَّ بعد الاتصال بالإغريق.

كانت التربية الرومانيَّة معنيَّة بتدريب الناشئة على الحياة العمليَّة، وإعداد المواطن الجيِّد المتمتِّع بحقوقه والمؤدِّي لواجباته، كما استهدفت تنمية قيم الطاعة والقوة والإخلاص، وإخضاع الفرد إلى الدولة، وخلق أمَّة من المحاربين الأشدَّاء، لم يكن التعليم الرومانيُّ في أولى مراحله يوفِّر المهارات الأساسيَّة اللاَّزمة للحياة؛ بل كان ينشر القواعد الاجتماعيَّة التقليديَّة التي كانت وسيلة لخلق مجتمع يتَّسم بالتماسك.

لقد انتشرت مظاهر التربية والتعليم في روما في جميع عصورها وكانت لها أهدافها وغاياتها التي تختلف عن أساليب التربية والتعليم في باقي الحضارات، فقد كان التعليم مقتصراً في أغلب الأحيان على الطبقات الغنيَّة، وكان جلُّ الاهتمام ينصبُّ على تعليم القراءة والكتابة والحساب، إضافة إلى الخطابة التي كان المجتمع يوفِّر لها الوقت والدعم الكبير، كذلك التربية كانت ترتكز بشكل أساسيٍّ على والدَي الفرد اللَّذين يعلِّمانه القوانين الأساسيَّة.

ومن الإنصاف القول بأنَّ التربية الرومانيَّة كانت تتمُّ بالعمليَّة والجديَّة الخالصة من دون الأهداف المعنويَّة أو الوجدانيَّة وما إلى ذلك، فقد كان المقام الأول ينصبُّ على صناعة العبد المقاتل المتفاني الشرس الذي يستطيع العيش في ساحات روما المدويَّة بصراخ القتال،

فالشعب الروماني شعب دمويٌّ في المقام الأول، ولو بحثنا في تاريخه لوجدناه حافلاً بالحروب والتوسُّع والغزوات، ومن الطبيعيِّ أن يُصمِّم كي يكون نافعاً في ما تستدعيه الحياة والظروف. ولسنا بصدد التنكيل بعدم جنوحه إلى السلم والتربية السلميَّة وذمِّ هذا الأمر به، ذلك أنَّه مُجبرَ على الخصال القتاليَّة، فهذا ما تفرضه عليه حياة روما. ولكن مع كلِّ هذا الانصياع للتربية العسكريَّة لم تخلُ المنازل من التعليم، فقد انتشرت مظاهر التربية والتعليم كباقي الحضارات، وقد ركَّزوا في قسم كبير من التعليم على القراءة والكتابة والخطابة التي لقيت الدعم الأكبر لما لها من فائدة في ساحات الوغى، فالخطيب المقاتل القادر على البيان قادر على إشعال الحماسة في قلوب المقاتلين، فضلاً عن كون الوالد ذا سلطة عليا في تربية الأولاد وتعليمهم الانصياع، وهي أقرب إلى التربية العسكريَّة حيث كان جل الاهتمام ينصبُّ الفرد السليم جسديّاً ذي البنية القويَّة ليصبح مقاتلاً له دوره واسمه.

وفي ما يتعلَّق بالمناهج التعليميَّة في روما تركَّزت على الآداب والتاريخ والجغرافيا والشعر والفلسفة التي تأثَّرت جميعها بشكل كبير بالمدارس اليونانيَّة وفلاسفة اليونان حيث ظهر كثير من الفلاسفة الرومان المتأثِّرين بهم أمثال أفلاطون.

وفي الختام، نكاد نجزم بأنَّ التعليم في روما لم يأخذ ذلك المسار التعليميَّ الصريح، ولكنَّه بُنِي على غايات وأهداف متعلِّقة بالطابع الرومانيِّ والسياق السياسيِّ والعسكريِّ والاجتماعيِّ في تلك البلاد.

لائحة المراجع

أوَّلاً: المراجع العربيَّة

١. قاسم قحوان، إضاءات في أصول التربية، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، (٢٠١٦).

٢. حسن صبحي بكري، موجز تاريخ روما، الرياض: مؤسَّسة الشباب الجامعي، (١٩٩٧).

٣. خالد محمود، تطوُّر تربية الطفل ما قبل المدرسة بين الماضي والحاضر، كليَّة التربية، جامعة الإسكندريَّة، (٢٠١٦).

٤. عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ، بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٨٤).

٥. عيسى علي، النظم التربويَّة، كليَّة التربية، جامعة دمشق، (٢٠١٦).

٦. محمد حسن العمايرة، الفكر التربوي الإسلامي، الأردن: دار المسيرة للتوزيع والطباعة، (٢٠٠٠).

٧. زيرق دحمان، التربية في الفكر الإسلامي المعاصر، رسالة دكتوراه منشورة، جامعة محمد خضير، بسكرة، (٢٠١٦).

٨. أنس الشامي، الحياة الثقافيَّة الأدبيَّة في سوريا في العصر الروماني، رسالة ماجستير منشورة، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة دمشق، (٢٠١٥).

٩. السيد شريف، تاريخ تربية الطفل، القاهرة: كليَّة رياض الأطفال، (٢٠٠٤).

١٠. إبراهيم أيوب، التاريخ الروماني، سبها: منشورات جامعة سبها، (١٩٩٦).

١١. حسين الشيخ، الرومان، الإسكندريَّة: دار المعرفة الجامعيَّة، (٢٠٠٠).

١٢. ديورانت ول، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، بيروت: دار النهضة العربيَّة، (١٩٧٢).

١٣. علي مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة، رسالة ماجستير في التاريخ القديم، كليَّة

الآداب: جامعة بنغازي، (٢٠١٢).

١٤. تشارلز وورث، الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ترجمة رمزي عبده جرجس، القاهرة: الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، (٢٠٠٠).

١٥. مصطفى محمد قنديل زايد، التربية والتعلم في الحضارات الإغريقيَّة والرومانيَّة، القاهرة: الأنجلو المصريَّة، (٢٠٠٦).

١٦. إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان، مصر: منشورات كليَّة الآداب، (١٩٧٨).

١٧. جون هامرتن، تاريخ العالم والحياة الاجتماعيَّة في ظلِّ الجمهوريَّة الرومانيَّة، ترجمة وزارة المعارف العامَّة، القاهرة: دار النهضة للنشر، (١٩٧٠).

ثانياً: المراجع الأجنبيَّة

1. Carcopino, J.(1974), Ancient Roma, London: George Routleand sons.
2. Dobson, J.F. ,(1963), Ancient Education and Its Meaning to Us Cooper Square: New York.
3. Barrow. R.(1976), Greek and Roman, London, MacMillan Education.
4. Chiappetta, M.(1953), Historiography and Roman Education Journal.
5. Yun. T.(2001), Education in Greek and Roman antiquity. Boston: Brill.
6. Hornblower, S. & Spawforth, A. (1996), Oxford Classical Dictionary, New York: Oxford University Press.

المؤسَّسة العسكريَّة الرومانيَّة
من التأسيس حتى نهاية العصر الجمهوريّ

عبد الله السليمان[١]

مقدّمة

كان الجيش عماد الدولة الرومانيَّة وسبب وجودها وبقائها وتوسُّعها، حيث تمَّ الاعتماد عليه كأداة لشنِّ الحروب على جميع شعوب العالم القديم، ونهب ثرواتها، واستعباد شبَّانها، واستعمار بلدانها، تحت ذريعة أنهم من خلال تلك الحروب يدافعون عن أنفسهم. وصدق من قال إنَّهم «احتلُّوا العالم بحجَّة الدفاع عن النفس».

نفرد هذا البحث للحديث عن الجيش الروماني، متناولين فيه التطوُّرات البنيويَّة التي مرَّ بها، من جيش وطنيٍّ منظَّم وفق أصول ومعايير اجتماعيَّة واقتصاديَّة معيَّنة، إلى جيش محترف فاسد لا همَّ له سوى تحقيق مآرب القائد العسكريِّ الشخصيَّة، والذي كان بدوره يسعى إلى الإغداق على جنوده وحمايتهم من المخالفات القانونيَّة والدستوريَّة التي كانوا يرتكبونها، وهكذا أمسى ولاء الجنود لقادتهم لا للدولة. لكنَّ هذا الجيش لم يكن منضبطاً دائماً كما يُشاع عنه، فتاريخه حافل بالتمرُّد والتطاول على الدولة، بل وصل الأمر في نهاية المطاف إلى زحفه على العاصمة وانتهاك حرمتها السياسيَّة.

كما يتناول هذا البحث الصفات التعبويَّة للجيش من حيث التسليح ونوعيَّته، وتطوُّر هذه الأسلحة الذي ترافق مع تطوُّر هيكليَّته. وقد خصَّصنا فقرة للحديث عن البحريَّة الرومانيَّة، وانتقدنا الخرافة التي تحدَّثت عن تأسيسها، موضحين أنَّ تفوُّقها لم يكن نتيجة عبقريَّة الرومان وإنَّما نتيجة سيطرتهم على المدن الإيطاليَّة ذات التاريخ البحريِّ العريق، فما كان منهم إلاَّ استثمار تلك الخبرات والأساطيل والبحَّارة الإغريق في تشكيلات أسطولهم الحديث.

---

[١]- مدرِّس التاريخ القديم في جامعة دمشق.

ولم يغب عن بالنا الدور الكبير للحلفاء الإيطاليين الذين ضحُّوا بكلِّ غال ونفيس من أجل الالتزام بوعودهم واتفاقيَّات التحالف المشترك مع الرومان، الذين كانوا يستغلُّون تلك الاتفاقيَّات من أجل الزجِّ بهم في حروب ومعارك لا ناقة لهم فيها ولا جمل، من دون أن يجازوهم على إخلاصهم لهم، ما تسبَّب في نهاية المطاف باندلاع شبه حرب أهليَّة بينهم في القرن الأول قبل الميلاد، ولم تنتهِ تلك الحرب إلاَّ بعدما حصل الإيطاليون على حقوقهم في الجنسيَّة الرومانيَّة.

إذن، أملنا من خلال هذا البحث أن نحيط بالمؤسَّسة العسكريَّة الرومانيَّة من كلِّ جوانبها في العصرين الملكيِّ والجمهوريِّ.

أوَّلاً: الجيش في عصر المملكة الرومانيَّة

١. بنيته في العصر الملكيِّ

كان الجيش الرومانيُّ في بداية تأسيسه جيشاً عشائريَّاً، يشبه إلى حدٍّ كبير تكوين الجيوش الإغريقيَّة التي تصفها لنا ملاحم هوميروس، حيث كان جميع أفراد الشعب من الذكور البالغين مدعوين للاشتراك في القتال وأداء الخدمة العسكريَّة، إلاَّ أنَّ النبلاء كانوا يتميَّزون عن بقية المواطنين بأنَّهم يذهبون إلى ساحة المعركة على ظهور خيولهم أو في العربات العسكريَّة، مشكِّلين فرقة الخيَّالة Equites، وأثناء المعركة يترجَّلون للقتال، بينما يشارك بقيَّة الجنود كمشاة Pedites[1]. وكان الجيش يخضع لأمرة الملك مباشرة، فهو القائد العامُّ له، يتمتَّع بسلطات لا حدود لها على ضبَّاط وعناصر جيشه، وتتَّسع هذه السلطات حتى تشمل حقَّ الحياة والموت.

وكان الملك مكلَّفاً بعقد المعاهدات وإقرار السلم أو إعلان الحرب وقيادة الجيش، الذي كان أشبه بفرقة مقاتلين تحت قيادة الملك المحارب نفسه. وما كان يميِّز الجيش في المملكة الرومانيَّة أنَّ جميع أفراده كانوا من طبقة النبلاء، حيث كان العوامُّ مُعفين من أداء الخدمة الإلزاميَّة، ولم يكن تعداده يزيد على ٣٠٠٠ مقاتل و٣٠٠ فارس يأخذون ما معدَّله ١٠٠٠ مقاتل مشاة و١٠٠ فارس من كل قبيلة من القبائل القديمة الثلاث، وكان يتوجَّب على

[1]- Boak, A, E, R., Book of A History of Rome to 565 A. D., New York 1921, p.68.

جميع المقاتلين تزويد أنفسهم بالسلاح الذي كان يشتمل عادة على خوذة ودرع ورمح وسيف، وكانت الأسلحة مصنوعة من البرونز أو الحديد[١]. وكان سلاح الفرسان هو القوَّة الضاربة، والمفروض فيهم أن يكونوا مدرَّبين تدريباً جيِّداً على القتال وفي حالة استعداد دائم له، وهذا لم يكن متيسِّراً إلاَّ لأفراد طبقة النبلاء؛ أصحاب الثروة الكبرى والعُدَّة المتوافرة، وهكذا كان العبء الأكبر لمقاتلي الفرسان يقع على هذه الطبقة، ومنها ومن أتباعها كان يتألَّف الجيش الملكيُّ[٢].

وكان إعلان الحرب يتطلَّب فتح أبواب معبد الإله جانوس التي كانت تفتح تغلق أثناء السلام. ويعزى إلى الملك سيرفيوس توليوس Servius Tullius (سادس ملوك روما) استحداث نظام عسكريٍّ جديد بدلاً من نظام العشائر الوراثيَّة؛ كان الأساس في نشوء الجمعيَّة المئويَّة[٣]Comitia Centuriata. وقبل الخوض في تفاصيل هذا الإصلاح العسكريِّ علينا التعرُّف على دوافعه الحقيقيَّة، لاسيَّما أنَّه عُدَّ خطوة جريئة، ويرى عدد من المؤرِّخين أنَّ هناك عاملين أساسيين دفعا بهذا الملك نحو هذا الإصلاح، غلَبَ على أحدهما الصبغة العسكريَّة، بينما اعتبر الثاني سياسيَّاً محضاً، وقد رَدَّ المؤرِّخون **العامل العسكريَّ** إلى التوسُّعات التي أنجزها ملوك روما الأواخر، وبما أنَّ واجب الخدمة العسكريَّة ودفع الضرائب كان مفروضاً على أفراد طبقة الأشراف فحسب، فإنَّ كثرة الحروب التي خاضتها روما في عهد هؤلاء الملوك اضطرَّتهم إلى تحمُّل تضحيات جِسام في الأموال والأرواح ما أسهم في نضوب مَعِين ثروات معظمهم، كما هلك عدد كبير من أفراد طبقتهم، ونظراً لتفكير الملوك بمتابعة سياسة التوسُّع التي انتهجوها، كان لا مناص لهم من التفكير بالحصول على موارد بشريَّة وماليَّة جديدة لتعبئة جيش روما، لاسيَّما بعدما تبيَّن أنَّ طبقة الأشراف لم يعد بوسعها أن تملأ الشواغر العديدة التي حدثت من جرَّاء مقتل جنودها القدامى، وقد لاحظ الملوك أنَّه لم يعد أمامهم سوى أثرياء طبقة العوامِّ لينفقوا على الجيش، ولينخرط أبناؤهم في صفوف مقاتليه، وليتحمَّلوا نصيبهم من أعباء الدولة الماليَّة[٤].

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، ط١، دار مرايا للطباعة والنشر، دبي ٢٠٢٠م، ص٤٠.

[٢]- إبراهيم أيوب، التاريخ الروماني، ط١، الشركة العالميَّة للكتاب، لبنان ١٩٩٦م، ص٣٠.

[٣]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكريُّ الرومانيُّ بين الدفاع والهجوم والتوسُّع والاستعمار حتى نهاية العصر الجمهوريِّ، مطبعة دار الروضة، القاهرة ٢٠١٠م، ص٢٦.

[٤]- نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص٥١٦.

أمَّا **العامل السياسيُّ** فيرُدُّ إلى حرص الملوك على أن يجدوا في العوامِّ أداةً طيِّعة تساندهم وتشدُّ أزرهم بعدما زادت حدَّة التوتُّر بينهم وبين الأشراف الذين لم ينقطعوا عن النظر إلى ملوك روما الإتروسكيين كملوك أجانب اغتصبوا السلطة من أصحابها الشرعيين الأصليين، وبما أنَّ الغالبيَّة العظمى من عوام روما كان من الأجانب الذين استوطنوها طلباً للرِّزق، فقد ظهر التعاطف جليَّاً بين هاتين الطبقتين الغريبتين، وهما ملوك روما الإتروسكيون والأجانب المستوطنون، وهكذا وجد الملوك في العوامِّ أداة تساعدهم -بالنظر إلى كثرة أعدادهم وثراء بعضهم- على الحدِّ من نفوذ الأشراف ما يجعلهم أكثر انصياعاً لما يصدر إليهم من أوامر، وكان إصلاح هذا الملك -السياسيِّ والاجتماعيِّ- الخطوة الأولى نحو إدخال جميع عناصر العوامِّ في الجيش الرومانيِّ[١].

بالعودة إلى ما تضمَّنه إصلاح الملك سيرفيوس توليوس؛ فإنَّه اقتضى أن يخدم في الجيش جميع أبناء روما من الذُّكور ممن تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والخامسة والستين، إن كانوا يمتلكون نصاباً معيَّناً من الثروة غير المنقولة أي العقاريَّة، وقد تمَّ إحصاء السكان بحسب ثرواتهم، ونُظِّموا في ١٩٣ مجموعة مئويَّة -كلُّ مجموعة تضمُّ مئة مواطن- من المواطنين الذين يمتلكون ثروة متساوية، قسِّموا إلى ١٨ مجموعة من الفرسان، و ١٧٠ مجموعة من المشاة، و٥ مجموعات أخرى متنوعة ضمت اثنتين منها العمال، واثنتين من الموسيقيين، وواحدة من الفقراء المعدَمين[٢]، حيث كان يُلحَق بالجيش الرومانيِّ وحدتان مئويَّتان من الصناع والفنيين Fabrum ووحدتان من عازفي النفير Cornicium وضاربي الطبول Tupicinum بينما كانت الوحدة المائة والثلاثة وتسعون تتكوَّن من المواطنين المعدَمين الذين لا يستطيعون شراء أيِّ قطعة سلاح[٣].

هكذا دخل أثرياء العوامِّ في سلاح الفرسان الذي لم يعد يتكوَّن من أبناء الطبقة النبيلة فحسب، أمَّا سلاح المشاة الموزَّع على خمس طبقات بالترتيب حسب مقدار ثروة كلٍّ منها، والذي يؤهِّلها لاقتناء نوع معيَّن من السلاح، وتقلُّ درجة التسليح كلَّما تدرجنا بين هذه

[١]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، مصدر سابق، ص٥١٧.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان، مطبعة غندور، بيروت ١٩٧٤م، ص٢٩٦.

[٣]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني م.س، ص٢٧.

الطبقات من الأعلى إلى الأسفل، حتى نصل إلى الفئة الخامسة التي تُسلِّح نفسها بالمقاليع والحجارة.

كانت هذه الوحدات المئويَّة (باستثناء مجموعات الفرسان) موزَّعة على الطبقات الخمس التي أوجدها هذا التصنيف، وهي كالآتي:

- **الطبقة الأولى**: يمتلك أفرادها مبلغاً قدره ١٠٠ ألف آس (نقد رومانيٌّ يساوي واحد أونصة؛ أي ٣١غ)، وكان يندرج في إطارها ثمانون مجموعة مئويَّة، أربعون من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين، ويناط بهم أمر القتال في ساحات الوغى، ويحتلُّون الصفوف الأماميَّة في مسير الجيش، بينما أُسنِدت إلى مجموعة الثانية مهمَّة الدفاع عن المدينة، وكانوا من الكهول والشيوخ، ممن تراوح أعمارهم بين الخامسة والأربعين والستين سنة.

- **الطبقة الثانية:** ضمَّت من زادت ثروتهم عن ٧٥ ألف آس، وكان يندرج في إطارها عشرون مجموعة مئويَّة، عشر مجموعات من الشباب، وعشر مجموعات من الشيوخ.

- **الطبقة الثالثة:** ضمَّت من زادت ثروتهم عن ٥٠ ألف آس، وكان يندرج في إطارها عشرون مجموعة مئويَّة، عشر مجموعات من الشباب، وعشر مجموعات من الشيوخ.

- **الطبقة الرابعة**: ضمَّت من زادت ثروتهم عن ٢٥ ألف آس، وكان يندرج في إطارها عشرون مجموعة مئويَّة، عشر مجموعات من الشباب، وعشر مجموعات من الشيوخ.

- **الطبقة الخامسة**: ضمَّت من زادت ثروتهم عن ١٢,٥ ألف آس، وكان يندرج في إطارها ثلاثون مجموعة مئويَّة، خمس عشرة مجموعة من الشباب، وخمس عشرة مجموعة من الشيوخ.

وتُضاف إلى هذه الطبقات **طبقة في أدنى السلَّم الاجتماعي** وتضمُّ جميع الأفراد الذين يقلُّ دخلهم عن ١٢,٥ آس، أو الذين لا يملكون أي ثروة. وقد دُعي أفراد هذه الفئة بالمفلسين، وأعفوا من الخدمة العسكريَّة إلاَّ في الحالات النادرة عندما تشتدُّ الحاجة إلى الجنود[١].

[١]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، مصدر سابق، ص٥١٨، ٥١٩.

هكذا ارتكزت فكرة هذا الإصلاح العسكريِّ على أساس الثروة والوضع الاجتماعيِّ، أي تجنيد كلِّ المواطنين الرومان للخدمة في الجيش حسب الطبقات الاجتماعية، وحسب مقدار ثروة كلِّ طبقة، وبناءً على ذلك كان المواطنون الأغنياء في مقدِّمة الجيش، في حين كان الفقراء في المؤخَّرة، حيث يقف كلُّ فرد وفقاً للامتيازات الاجتماعيَّة لطبقته، فكان النبلاء وأثرياء العوام الذين شكَّلوا سلاح الفرسان يتقدَّمون الوحدات الأخرى، ويلي ذلك باقي الجيش الذي يشمل ١٧٠ وحدة، مقسَّمة حسب الوضع الطبقيِّ إلى خمس مجموعات تبدأ بأغنى رجال الطبقة الوسطى[١].

إنَّ تقسيم الشعب الرومانيِّ إلى خمس طبقات على أساس ثروتهم لا على أساس مولدهم، قد ترك لطبقة الأشراف القديمة حقَّ الاحتفاظ بكيانها، لكنَّه رفع تجاهها طبقة أثرياء العوام، وشكَّل هؤلاء طبقة الفرسان؛ تلك الطبقة التي كانت تمكنها ثروتها من اقتناء جواد بعتاده الحربيِّ، بالإضافة إلى رمح ودرع واقٍ للصدر ودرع واقٍ للسَّاقين وخوذة وسيف[٢]، وقد تعهَّدت خزينة الدولة بدفع مبلغ قدره عشرة آلاف آس لكلِّ فرد من أفراد هذه الطبقة ثمناً لجيادهم فحسب، وذلك من واردات ضريبة فرضت لهذه الغاية[٣].

عناصر الجيش الرومانيِّ في العصر الملكيِّ

٢. الملك المحارب

كانت سياسة ملوك روما قائمة على مبدأ التوسُّع والعدوان التي انتهجوها منذ تأسيس مدينتهم سنة ٧٥٣ ق.م. ولقد تفوَّق الملك **توللوس هستيليوس** Tullus Hostilius الذي

[١]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني مصدر سابق، ص٢٦.

[٢]- ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج١، مج٣، ترجمة محمد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص٣٢.

[٣]- نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، مصدر سابق، ص٥١٨.

حكم بين (٦٧٢- ٦٤٠ ق.م)، على رومولوس في نزعته نحو الحرب والقتال، واشتهر بحروبه ضدَّ الجيران وبمآثره العسكريَّة، واختار ألبا المستطيلة عدوَّاً له، حيث نشبت في أيامه الحرب عليها[١]، وكانت المدينة الرئيسيَّة في إقليم اللاَّتيوم، واصطرع خلالها ثلاثة أبطال من روما وهم الأخْوان (هوراتيوس Horatii) مع الأبطال الألبينيين الثلاثة وهم الأخْوان (كورياتيوس Curiatii)، عندما اتفَّقت المدينتان على المبارزة الشخصيَّة بين ثلاثة أشقاء من كلِّ مدينة. في البداية تمكَّن الأشقاء الثلاثة التابعون لألبا من قتل اثنين من الأشقاء التابعين لروما، ورغم هذا فقد نجح شقيقهم الثالث في أن يصرع الأشقاء الثلاثة القتَلَة، وبالتالي تمَّ حسم الأمر لمصلحة روما، فأقيمت الاحتفالات ابتهاجاً بهذا النصر، غير أنَّ أخت البطل المنتصر ظلَّت تنتحب وتنوح بسبب مقتل خطيبها وهو أحد أبطال ألبا الذين قضوا نحبهم بسيفه، وما ضاعف من حزنها أنَّ أخاها ارتدى قميصاً كانت قد صنعته بنفسها لهذا الخطيب، فما كان منه إلاَّ أن قتلها، وقال عبارته الشهيرة: «فليهلك كلُّ من ينوح على أعداء روما[٢]».

ونتيجة تفوُّق الرومان ورثت روما من ألبا السيادة على اللاَّتيوم ولكن هذه الأخيرة تمرَّدت بقيادة ملكها ميتوس Mettus، فحاربتها سيدة اللاَّتيوم الجديدة ودمَّرتها، ونقلت سكانها إلى روما وأسكنتهم في تل كايليوس، وأصبح تل الكابيتول المركز الدينيَّ الأول بدلاً من المعبد الكائن على جبل كافو Cavo، كما تمَّ ضم بعض التلال. وعندما فسدت علاقات الملك المحارب مع الآلهة قذف الإله جوبتير قصره بالصاعقة[٣]، فأحرقته وهلك فيه هو وزوجته وأولاده، بينما يشير المؤرِّخون إلى أن أنكوس ماركوس حفيد نوما (ثاني ملوك روما)، والذي كان يطمح إلى تسلُّم السُّلطة، انتهز فرصة اشتداد العاصفة فقتل الملك.

سيطر الملك **أنكوس مارتيوس** Ancus Martius (٦٤٠- ٦١٦ ق.م) على مصبِّ نهر التيبر وشيَّد ميناء أوسيتا Ostia عنده، وحصَّن تل الجانيكولوم Janiculum للدفاع عن روما من جهة الغرب حيث موقع النهر، بينما جميع تلال روما السبعة الأخرى تقع شرقه. وقد تبنَّى هذا الملك فلسفة عسكريَّة غريبة، حيث كان يرى أنَّه لا يكفي لمن ينشدون السلم أن يكفُّوا

[١]- ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، ج١، مج٣، مصدر سابق، ص٣٠.

[٢]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص٢٤.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٧٣

عن أذى الناس، فكلَّما اشتدَّت رغبة الإنسان لهذا السلم اشتدَّ تعرُّضه للأذى، وبالتالي، فإنَّ هذه الرغبة لا تكفي إلاَّ إذا صاحَبَها الاستعداد للحرب، وكان يعتقد أنَّ الابتهاج بالبعد عن المشاكل الخارجيَّة سرعان ما سيقضي على الذين يسرفون في حماستهم لهذا البعد[١]، وقد أثبتت الأحداث صحَّة وجهة نظره، حيث تحرَّش اللاَّتين بحدود روما ما تسبَّب في نشوب حرب انتصر فيها عليهم، ولم يكتفِ بهذا النصر بل غزا القرى المنتشرة في سهل اللاَّتيوم بين روما والبحر، ومنح سكَّانها حقوق المواطنة الرومانيَّة، وسمح لمن يرغب منهم بالإقامة في روما فوق تل الأڤـنتين[٢].

من جهته، أحرز **لوكيوس تاركينيوس** Tarquinus Lucius (٦١٦ - ٥٧٨ ق.م) في عهده الجديد سلسلة من الانتصارات على جيرانه فأخضعهم لحكمه، حيث سيطر على كامل اللاَّتيوم وحارب السابينيين وانتصر عليهم. بينما وزَّع **سرفيوس تلليوس** Servius Tullius (٥٧٨- ٥٣٤ ق.م) السكَّان بحسب ثرواتهم على خمس طبقات ليسهل تجنيدهم في الجيش، واشتهر بمنجزاته العمرانيَّة حيث بنى السُّور الجديد بجداره الضخم الذي بلغ طوله ١١ كم، وأحاطه بخندق ليحمي روما من الغارات. أما آخر ملوك روما **تاركينيوس سوبربوس** Tarquinus Superbus (٥٣٤- ٥٠٩ ق.م)، فقد كان أول الأعمال التي قام بها هو ألغاء تنظيمات سلفه العسكريَّة وتشكيل حرس خاصٍّ لحمايته، وقضى مدَّة حكمه وهو يحارب الأقوام المجاورة وخصوصاً اللاَّتين والسابينيين[٣]، وقد انتصر على الـڤـولسكي Volsci وهم شعب كان يسكن بالقرب من روما على الطريق المؤدِّي إلى كامبانيا[٤]، كما عرفت البلاد في عهده انتصارات مشرِّفة في الميادين الخارجيَّة؛ حتى أنَّه استطاع السيطرة على شواطئ اللاَّتيوم كلِّها، كذلك عرفت ازدهاراً اقتصاديَّاً ورخاء معاشيَّاً[٥].

[١]- ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، ج١، مج٣، مصدر سابق، ص٣٠.

[٢]- محمد السيد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، ج١، جامعة الإسكندريَّة ٢٠٠٦م، ص١١٥.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٢

[٤]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص٢٨.

[٥]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيَّة الجمهوريَّة الأمبراطوريَّة حتى عهد الأمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م، ص٧٤.

ثانياً: الجيش في عصر الجمهوريَّة الرومانيَّة

انتقلت أنظمة العصر الملكيِّ العسكريَّة إلى العصر الجمهوريِّ (باستثناء سلاح العربات الذي تمَّ التخلِّي عنها)، واستمرَّت تلك التنظيمات العسكريَّة سارية المفعول حتى الشطر الأوَّل من القرن الخامس قبل الميلاد[١]، ومع منتصف ذاك القرن تمَّت إعادة توزيع الشعب الرومانيِّ إلى ٢٠ قبيلة، بدل القبائل الثلاث القديمة، شكَّلت أربع منها سكَّان مدينة روما، أما الست عشرة قبيلة الباقية فقد شملت سكَّان الريف من أبناء المقاطعات الرومانيَّة في اللاَّتيوم. وقد أحدث هذا الأمر تبدُّلاً جوهريَّاً في بنية الجيش، فعوضاً عن نظام القبائل الثلاث الذي كان سائداً في الشطر الأول من العصر الملكيِّ، والذي يحدِّد عدد جنود الفرقة العسكريَّة بثلاثة آلاف جندي من المشاة وثلاثمئة من الفرسان، توزَّع نسبها بشكل متساوٍ على القبائل الثلاث فارتفع عدد الجنود الذين يجب تقديمهم بموجب التصنيف الجديد إلى أربعين وحدة مئويَّة Centuries تتألَّف كلُّ وحدة منها -حسبما يدلُّ اسمها- من مئة جنديٍّ، تُستدعى بنسبة وحدتين من كلِّ قبيلة، وهذا العدد المتزايد يدلُّ بوضوح على تكاثر أعداد المواطنين الرومان القادرين على تسليح أنفسهم بالعتاد اللاَّزم[٢].

في الواقع، إن اتِّساع نطاق حروب روما، وتهديدها من قبل القبائل الغاليَّة، وعجز النبلاء عن النهوض بواجباتهم العسكريَّة المتزايدة؛ والتي لا تتناسب وأعدادهم القليلة؛ كانت وراء تلك الإصلاحات التي أسهمت في زيادة عدد المواطنين الذين ألقي على عاتقهم عبء الخدمة العسكريَّة، فتحول الجيش الرومانيُّ من جيش دفاع إلى جيش مجنَّدين يشبه الجيوش الأوروبيَّة التي ظهرت في أعقاب الثورة الفرنسيَّة. وهكذا زاد عدد المشاة الكاملي العدَّة في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى أربعة آلاف مقاتل، وصار الجنود يقاتلون وفق نظام الفيلق الإغريقيِّ hoplite phalanx. وأخذت الدولة تدفع لجنودها مرتَّبات رمزيَّة، وتقدِّم لهم مؤناً، رغم أنَّه حتى تاريخه لم تتحوَّل الجنديَّة إلى مهنة، لكن الهدف من هذا الراتب هو تحسين أوضاع الجنديِّ المعاشيَّة أثناء الخدمة[٣]. وتمَّ تمديد مدَّة الخدمة العسكريَّة؛ حيث

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٣.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص١١٦.

[3]- Goldsworthy. A., The fall of Carthage., The Punic wares 265 - 146 B.C, Cassell Military Paperbacks, London 2000, p.45

كان الالتحاق بالجيش في واحد آذار من كلِّ سنة، وكان من المفترض أن يسرَّح الجنديُّ بعد ستة أشهر من التحاقه؛ أي حتى نهاية شهر آب، ونظراً لطول الحملات العسكريَّة الرومانيَّة، صارت الخدمة تستمرُّ طوال السنة[١]، أو حتى انتهاء الحرب أو المهمَّة القتاليَّة التي صارت مدَّتها سنة كاملة، وقد اعتُمِد مبدأ عدالة الخدمة، أو توزيع واجب الخدمة على السكَّان بالتساوي، وكان من الممكن أن يطلب الرجل لأداء الخدمة في ستة عشر حملة عسكرية، إلا أن أحدا لم يحقق نصابه قبل الحروب البونية التي شنها الرومان ضد قرطاجة[٢].

١. اعتماد الرومان نظام الفيلق الإغريقيِّ في جيشهم

قبل الإسهاب في الحديث عن بنية الجيش الرومانيِّ في العصر الجمهوريِّ، دعونا نتوقَّف قليلاً عند نظام الفيلق الإغريقيِّ الذي اقتبسه الرومان من اليونانيين بتأثير من الإتروسكيين Etruscan، وقد استخدموه منذ مطلع العصر الجمهوريِّ حتى مطلع القرن الثالث قبل الميلاد. ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ تبنِّيهم لنظام الكتيبة الثقيلة، أو ما يُعرف بنظام الفيلق الإغريقيِّ في تشكيل وحداتهم القتاليَّة، كان إعجاباً منهم بأنظمة القتال الإغريقيَّة السائدة في القرن الخامس قبل الميلاد، مركِّزين اهتمامهم على دور فرقة المشاة في الحرب[٣]؛ وأصبح هؤلاء المشاة ينتظمون في صفوف متراصَّة تؤلِّف كتلة صلبة متلاحمة. وكانت هذه القوة تشقُّ طريقها من دون الاكتراث بالكمائن والعقبات التي تعترضها، وعند لقاء العدوِّ كانت تهجم دفعة واحدة معتمدة على قوَّة التصادم. وكان كلُّ جنديٍّ فيها مسلَّحاً بحربتين وخنجر وسيف، ويلبس على رأسه خوذة من البرونز، ويضع على صدره درعاً من الزرد[٤]. ومنذ تلك الفترة، أصبحت فرقة المشاة عماد قوَّة الجيش الرومانيِّ، بينما تراجع دور الخيَّالة كثيراً.

تجدر الإشارة إلى أنَّ تشكيل فرقة المشاة الثقيلة والخفيفة كان يقوم على مبدأ الثراء الماليِّ[٥]، حيث ساهمت الطبقات الثلاث الأولى في تكوين كتيبة الفالانكس، بحكم أنَّها

[1]- Dillon, M., & Garland, L., The Ancient Romans; History and Society from the Early Republic to the Death of Augustus., published by Routledge., New York 2021, p.199.

[2]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.45.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٩٠.

[٤]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٣.

[٥]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٩٠.

كانت قادرة على تسليح نفسها بدرع ورمح وسيف، فأفرادها من المواطنين الأثرياء ومن الأفراد المزارعين الذين كانوا يحتملون ترك مزارعهم لأوقات محدودة لا تتعدَّى بضعة أسابيع من السنة[١]، بينما استمرَّت الطبقتان الرابعة والخامسة تعملان في الجيش كقوَّات خفيفة rorarii، ولا يتمُّ استدعاؤها إلاَّ في حالات الطوارئ العظمى، لهذا كان إحصاء السكَّان في روما أمراً ضروريَّاً، لمعرفة القوَّات التي يمكن تجنيدها في الحرب، وقد كُلِّف الرقيب بهذا الغرض[٢].

٢. أثر الانتصارات والهزائم على تركيبة الجيش الرومانيّ

تسبَّبت الحرب مع مدينة فييى Veii الأتروسكيَّة في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد والانتصار عليها، إلى مضاعفة مساحة نفوذ روما، حتى أنَّها أمست أكبر مدينة في اللاَّتيوم، وأدَّى تقسيم أراضي هذه المدينة المغلوبة إلى مساحات صغيرة؛ وتوزيعها على الجيش إلى زيادة قوَّته[٣]، كما أسهمت هذه الحرب في زيادة عديد الجيش إلى ستة آلاف مقاتل ممن تتراوح أعمارهم ما بين ١٧ و٤٥ سنة، وكانوا يُدعَون الشبان، بينما كان المواطنون الذين تتراوح أعمارهم بين ٤٦ و٦٠ سنة يُسمَّون الشيوخ وتُعهد إليهم أعمال الحراسة في الثكنات والحاميات داخل المدينة[٤]. وهكذا لم يعد يُحسب حساب المؤهِّلات الاجتماعيَّة في منظومة الجيش، وأخذ الجنود مواقعهم على أساس العمر والتجربة، وبالتالي تناسبت نوعيَّة الأسلحة مع المهام العسكريَّة التي سيقومون بها[٥].

لقد كانت إيطاليا كلُّها محطَّ أطماع القبائل الغاليَّة التي لم تتوقَّف عند أتروريا، بل اجتازت جبال الأبنيين Apennines جنوباً نحو سنة ٣٩٠ ق.م، وواصلت السلب والنهب حتى وصلت إلى بوابات مدينة كلوزيوم Clusium الأتروسكيَّة، التي بعثت بدورها تطلب النجدة من روما، ولاسيَّما أنَّها أمست تابعة لها منذ أن سيطرت على أتروريا الجنوبيَّة، لذلك

[1]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.45.

[2]- Boak, A, E, R., Op. Cit., 1921, p.68.

[٣]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص٣٣.

[٤]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج١، منشورات الجامعة الليبيَّة كلية الآداب، طرابلس ١٩٧٣م، ص١٥٩.

[5]- Boak, A, E, R., Op. Cit., 1921, p.69.

رأى الرومان أنَّهم مضطرُّون لمجابهة هذا الخطر الجديد، وقاموا بإرسال وفد سعى لإقناع الغال بضرورة رفع الحصار عن المدينة، فاعتبره هؤلاء تحدِّياً لهم، لاسيَّما أنَّ الوفد الرومانيَّ اشترك في معركة نشبت وانحاز لصالح الإتروسكيين[١]. فما كان من القبائل الغاليَّة إلاَّ أن تركت كلوزيوم واندفعت كالسيل الجارف جنوباً صوب روما وبقوَّة تقدَّر بـ ٣٠ ألف جنديٍّ سحقوا قوَّة رومانيَّة تقدَّر بـ ١٠ آلاف جنديٍّ خرجت لمواجهتهم قرب ألليا Allia (أحد روافد نهر التيبر) في سنة ٣٨٧ ق.م، حيث تشتَّت الجنود الرومان في الحقل الذي جرت فيه المعركة، وتعرض معظمهم للذَّبح، أمَّا الذين فرُّوا من أرض المعركة فالتجأوا إلى خرائب مدينة فيي التي حطَّموها من قبل، والتي لم تكن مؤهَّلة لحمايتهم، واستمرَّ حصار الغال للرومان في قلعة الكابيتول ٧ أشهر إلى أن حصلوا منهم على غرامة حربيَّة كبيرة تقدَّر بألف باون ذهب[٢].

لقد أسهمت هذه الخسارة العسكريَّة القاسية في إعادة النظر بتركيبة الجيش الرومانيِّ، حيث تبيَّن أنه متى نجحت قوَّة معادية سريعة الحركة مسلَّحة بسيوف طويلة في فتح ثغرات في قوَّة مؤلَّفة من صفوف عدَّة متراصَّة من المشاة المسلَّحين بالرماح، أصبح من العسير عليها أن تصمد أمام عدوِّها، لذلك قرَّر الرومان أن توضع أمام قوَّة المشاة الثقيلة؛ قوَّة مشاة خفيفة العدَّة تُسمَّى velites، تتألَّف من أصحاب المقاليع ورماة الرماح الخفيفة، كما تقرَّر زيادة عددهم إلى ٨٤٠٠ مقاتل(كلُّ فرقة مؤلَّفة من ٤٢٠٠ جنديٍّ) وعدد الفرسان إلى ١٨٠٠ فارس[٣].

٣. الجيش الرومانيُّ الحديث

لم يدم العمل بنظام الفيلق الإغريقيِّ طويلاً عند الرومان، حيث حلَّ محلَّه قبل اندلاع الحرب السمنيَّة الثانية سنة ٣٢٦ ق.م مفهوم الجيش الحديث، وهو عبارة عن تشكيلات الفرق العسكريَّة Legion (الجحافل)، والتي صارت الأهمَّ في تكوينه [٤]، فما هي الأسباب

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٩٩

[2]- Boak, A, E, R., Op. Cit., 1921, p.39

[٣]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج١، مصدر سابق، ص١٦٠.

[4]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.46

التي أفضت إلى ذلك؟

في الواقع، لن يتسنَّى لنا فهم هذا التحوُّل إلاَّ إذا سلَّطنا الضوء على تاريخ الفيلق الإغريقيِّ الذي تمَّ الاستغناء عنه. لقد كان هذا الفيلق، أو الكتيبة الثقيلة، التنظيم العسكريَّ الأمثل بالنسبة إلى المزارعين في بلاد اليونان خلال القرن الخامس ق.م، والذين كانوا يتمنَّون انتهاء الحملة العسكريَّة بسرعة حتى يتمكَّنوا من العودة إلى مزارعهم، وكان هذا النوع التنظيميُّ لا يتطلَّب خبرات وتدريبات كبيرة، حيث يتمُّ الاكتفاء بمهارة أو تدريب تقنيٍّ محدود؛ لأنَّ المواطنين اليونان -ما عدا المتقشِّفين منهم- ما كان عندهم الوقت الكافي لمثل هذه التدريبات، لكن هذا الفيلق كان يحتاج، كي يحقِّق النصر، غلى شجاعة كبيرة وتضامن أفراده في ما بينهم. والجدير بالذكر أنَّ الحرب بين دويلات المدن اليونانيَّة التي امتلكت مثل هذه الكتائب، كانت تستمرُّ لأسابيع فقط، وتُحسم في يوم واحد غالباً، ولمَّا تطوَّرت الحرب خلال القرن الرابع ق.م، ظهر الجنود المحترفون بأعداد متزايدة، واكتمل تطوُّر الفيلق اليونانيِّ على يد فيليب الثاني المقدونيِّ والد الإسكندر الثالث؛ الذي درَّب جنوده المحترفين تدريباً جيِّداً، وشكَّل الجيوش التي تضمَّنت سلاح الفرسان الثقيل والخفيف، والمشاة الثقيلة والخفيفة، وبهذا الجيش استطاع الإسكندر أن يحتلَّ الشرق القديم كلَّه، وبعد تفكُّك دولة الإسكندر استعملت الممالك الهلينيَّة التي ظهرت على أنقاض دولته الأساليب ذاتها التي استخدمتها، إلاَّ أنَّها ظهرت عديمة الفائدة لأنها كانت متعادلة في نوعية السلاح والتكتيك، ما دفع قادتها إلى البحث عن أساليب قتال وأسلحة جديدة؛ وهكذا ظهر مفهوم **الجيوش الحديثة**، وتدريجيَّاً تمَّ التخلِّي عن نظام الفيلق الإغريقيّ[١].

من المهمِّ القول أنَّ الرومان لم يكونوا يمتلكون جيشاً حديثاً مستنداً إلى النموذج الهيلينيِّ، لكنَّ الحملات التي شنُّونها كانت تستند إلى أساليب الحرب الهلنستيَّة المعاصرة، وبقي عنصر الصدام في أرض المعركة هو المفضَّل، رغم أنَّ الحصار بدأ منذ هذا التاريخ يلعب دوراً أكثر أهميَّة بكثير ممَّا كان عليه الأمر عندما تألَّف الجيش الرومانيُّ من نظام الفيلق الإغريقيّ.

على أيِّ حال، تغيَّرت هذه العقليَّة العسكريَّة، فبعدما كان الهدف من الحرب التقليديَّة

[1]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.54

هو تحطيم جيش العدوِّ في أرض الميدان، صار الهدف هو تحقيق الأهداف الاستراتيجيَّة للدولة، فإذا أمكن للقائد أن يتجنَّب المواجهة - مدركاً أن لا فائدة من خوض المعركة- فكان يتجنَّبها إلى أن تتحقَّق الشروط المناسبة له[١].

بعدما تعرَّفنا على مفهوم الجيش الحديث، يتوجَّب علينا السؤال عن بنية هذا الجيش؟

في أعقاب تبنِّي الرومان نظام الفرقة (الجحافل) صار جيشهم يتألَّف من فرقتين؛ كلِّ فرقة تضمُّ ٤٢٠٠ جندي، ولها علمُها الخاص، وكان عاراً أن يسقط هذا العلم في أيدي الأعداء، لذلك كان القادة الرومان إذا ما أرادوا أن يستثيروا همَّة الجنود يقذفون به وسط أعدائهم، فيندفعون في سبيل تخليصه مهما كلَّفت هذه المهمة من تضحيات[٢]. وكانت الفرقة تنقسم إلى وحدات قتاليَّة أصغر هي الوحدات الخاصَّة Maniples[٣]، لها استقلاليَّتها وحريَّتها في الحركة والمناورة؛ ما أمَّن للجيش الرومانيِّ المرونة والقدرة على العمل حتى في المناطق الصعبة[٤]، في حين أنَّ الفيلق الإغريقيَّ كان عليه خطأ أن يثبت في مكانها[٥]. لقد كان يقود الوحدة الخاصَّة ضابط رومانيٌّ ذو خبرة وكفاءة ومقدرة وشجاعة عالية، بينما كان يُستبعد الشبَّان الطائشين، عموماً، إنَّ كثرة الضباط ساعدت في السيطرة عليه[٦]، وغالباً ما كانت الوحدة الخاصَّة مكوَّنة من ١٢٠ (أو١٦٠) جنديَّاً، وكلُّ جنديٍّ مسلَّح بدرعٍ مستطيل scutum، وبرمح الرومان الطويل pilum، وهو رمح خفيف يمكن قذفه بسهولة تمَّ اقتباسه عن السمنيين[٧]، بعد الاستغناء عن الرمح الرومانيِّ الثقيل Hasta[٨]، حيث لم تتوقف الدولة عن تطوير قوَّاتها المسلَّحة وجيشها بسرعة كبيرة مُقتبِسةً من أعدائها أفضل ما لديهم من فنون الحرب والقتال[٩].

[1]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.55.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٤

[3]- Boak, A, E, R., Op. Cit., 1921, p.68.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٩١

[5]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.198.

[6]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.49.

[7]- Boak, A, E, R., Op. Cit., 1921, p.68.

[8]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.198.

[٩]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٩١

لقد كانت **قوَّات المشاة الثقيلة** العنصر الفاعل في الفرق الرومانيَّة، وكان هؤلاء المشاة يتوزَّعون على ثلاثة صفوف بأسلحة مختلفة، ولكلِّ صفٍّ دور مختلف في أرض المعركة، وكان الخطُّ الأول لصدِّ هجوم العدو الأول ثم خرق صفوفه، ويقف فيه من هم أصغر سنَّاً وأكثر جرأة، وكانوا في الغالب مجنَّدين جدداً يعرفون بـاسم hastati، لا يألفون رعب الحرب، لذلك كانوا متلهِّفين للقتال والصدام، بينما وقف في الصف الثاني من هم في أواخر العشرينيَّات وأوائل الثلاثينيَّات وكانوا متمرِّسين في القتال، خبراء فيه، أشدَّاء، يقومون بضرب العدو متى تعب من مواجهة جنود الصفِّ الأول، ويُعرفون بـاسم principles. أمَّا في الصف الثالث فقد وقف الجنود المجرِّبون ذوي الخبرة القتاليَّة العريقة، والذين لا يشتركون في القتال إلاَّ إذا اقتضى الأمر ذلك، وكانوا يُعرفون باسم triarii[١]. وكان الصف الواحد يحتوي على عشر وحدات خاصَّة Maniples، وكلُّ وحدة تشمل ١٢٠ جنديَّاً كما أشرنا، ويمكن رفع العدد إلى ١٦٠ في الحالات الخاصَّة من اليافعين والشبَّان، لكنَّ عدد عناصر الصف الثالث triarii ظلَّ ثابتاً في الوحدة الخاصَّة، وهو ٦٠ جنديَّاً فقط[٢].

فرقة من الجيش الرومانيّ

ومن تكتيكات قوَّات المشاة الثقيلة أنَّها كانت تترك فراغاً بين كلِّ وحدة قتاليَّة والوحدة التي تجاورها، في ساحة المعركة، حيث تقف الوحدات في الصف الثاني قبالة الفراغ الذي تركته الوحدات في الصفِّ الأول. وليست معلومة لدينا المسافة التي تتركها صفوف المشاة

[1]- Mills, C. W., Ancient World Leaders; Hannibal., by Infobase Chelsea House Publishing, New York 2008, p.61.

[2]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.46.

بين بعضها البعض، لكن بهذه الطريقة يمكن إمداد كلِّ صفٍّ من الصفِّ الذي خلفه، وكان بالإمكان تحويل أيِّ وحدة لمواجهة التفاف جانبيٍّ، وهذا ما أمَّن للجيش المرونة وحريَّة الحركة والعمل حتى في المناطق الصعبة، كما أعطى مجالاً لإبراز المهارات الفرديَّة عند كلِّ جنديٍّ، وسمح لجميع الجنود بإمطار عدوِّهم بوابل من الرماح من دون أن يؤذوا أنفسهم[١]. وإذا كان كلُّ جنديٍّ رومانيٍّ يشغل واجهة تقدر بـثلاث أقدام (٩٠ سم)، وعمق يتراوح ما بين ست وسبع أقدام (نحو ٢م)، فإنَّ تقدير المساحة التي كانت تقف عليها الوحدة الخاصَّة يكون بنحو ٣٦٥م، بينما يشغل المشاة جميعاً مساحة الميل مربَّع[٢].

اعتباراً من القرن الثالث قبل الميلاد، أصبحت هذه الصفوف الثلاثة مدعَّمة بالمشاة الخفيفة المُسمَّاة velites، وكانت كلُّ قوَّة مشاة ثقيلة مؤلَّفة من ثلاثة آلاف جنديٍّ تساندها قوَّة مشاة خفيفة مؤلَّفة من ألف ومائتي جنديٍّ، مع الإشارة إلى قابليَّة زيادة العدد تبعاً لما تقتضيه الظروف. لقد كان أفراد قوة المشاة الخفيفة من المواطنين الرومان الأفقر الذين لا يستطيعون شراء درع مستطيل scutum، بل كانوا يتسلَّحون بالسيوف والرِّماح والدروع الصغيرة المستديرة parma[٣]، والتي يبلغ قطرها نحو ٤٠ سم، ولبسوا الخوَذ التي كانوا يغطُّونها بقطع من جلود الحيوانات، وغالباً ما تكون من جلود الذئاب، لجعل أنفسهم أكثر وضوحاً لضبط المسؤولين عليهم. وقد نُظِّمت قوَّة المشاة الخفيفة في وحدات خاصَّة maniples أيضا[٤]، فإذا ما وقعت الحرب تقوم قوة المشاة الخفيفة بالمناوشات أمام خطوط المشاة الثقيلة، حيث يقومون بقذف العدو، الذي لم تكن تبعد عنه أكثر من عشر خطوات، ببوابل من الحراب، ويهاجمه من الجانبين رُماة النِّبال والمقاليع بالسِّهام والحجارة، ثم ينسحبون تاركين المجال للمشاة الثقيلة، حيث تهجم فرقهم بأسنَّة الرماح والسيوف القصيرة، ويبدأ بعدها الاشتباك. ومنذ ذلك العصر أصبحت فرقة المشاة عماد قوة الجيش الرومانيِّ بينما تراجع دور الخيَّالة. وقد استمرَّ الجيش الروماني يعتمد على تجنيد المواطنين الرُّومان الفقراء في سلاح المشاة الخفيفي التسليح حتى عهد ماريوس، الذي بدأ بالاعتماد على

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٤.

[2]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.53.

[3]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.198.

[4]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.48.

اللِّيجوريِّين والمرتزقة الكريتيِّين، غير أنَّه من الصَّعب أن نعزو إلى ماريوس بدأ استخدام المرتزقة.

كما استخدم الجيش الرومانيُّ رُماة النِّبال ضمن تشكيلاته ولكن ليس بأعدادهم ذاتها في الجيوش اللاَّحقة، لقد كان هؤلاء الرُّماة من القوَّات الرديفة أو القوَّات المساعدة، التي كانت مختصَّة ببعض أنواع الأسلحة غير المناسبة لأسلوب القتال الذي تدرَّب عليه المشاة الرومان المسلَّحون تسليحاً ثقيلاً، ولا يختلف سلاحهم كثيراً عمَّا هو موجود في كثير من العصور؛ فالقوس مصنوع من الخشب المرن ومربوط بطرفيه بوتر من جِلد الحيوان، وكان السَّهم يُوضع فيه، ثم يُرمى، وكان مداه القاتل يصل إلى ٢٠٠م. لقد كان بوسع النبَّال أن يرمي ١٢ سهماً في الدقيقة الواحدة، لكن من العسير علينا التعرُّف على عدد النبَّالين الذين كُلِّفوا بمرافقة كلِّ فرقة عسكريَّة، وإذا افترضنا أنَّ عددهم ١٠٠ فقط، وبما أنَّ لكلِّ جنديٍّ القدرة على أن يرمي ١٢ سهماً في الدقيقة الواحدة، فإنَّ هؤلاء بوسعهم أن يرموا حوالي ٦ آلاف سهم في غضون خمس دقائق[١].

أمَّا **قوَّة الخيَّالة** فكانت تضمُّ أبناء أعضاء مجلس الشيوخ، وتتألَّف من ست وحدات، في كلِّ وحدة ثلاثمئة خيال، وتنقسم إلى عشر وحدات أصغر تسمَّى turmae، تضمُّ كلُّ واحدة منها ثلاثين خيالاً، ويقود هذه القوة ثلاثة ضبَّاط يُعرفون باسم decurions. وكانت الدولة تتعهَّد للفارس الذي يخسر فرسه أثناء القتال بفرس بديل، يسلَّم إليه فوراً، وكان كاتو الخطيب الروماني الشهير يفتخر بأنَّ جدَّه تسلَّم من الدولة خمسة خيول قتلت تحته أثناء المعركة، وكلَّما قتل خيل كان يستبدله من الدولة بآخر وبشكل فوريٍّ.

لقد حمل الفرسان الرومان الدروع المسديرة، ولبسوا الدروع الواقية للصدر والسَّاقين، واعتمروا الخوَذ البرونزيَّة، وتسلَّحوا بسيوف ورماح، وكانت سيوفهم أطول من الكلاديو (السيف الرومانيِّ القصير)، وتُسمَّى سيوف الفرسان باسم spatha[٢]. ومن الواضح أنَّ هذه السيوف كانت أطول من سيوف المشاة؛ حتى تعطي لهم فرصة أكبر للوصول إلى مشاة

[1]- Sim, D., The Roman iron industry in Britain., The History press., London 2011, p.80.

[2]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.48.

العدو، وربمَّا أنَّ الخيول نالت نصيبها من التدريع أيضاً لاسيَّما لصدرها ورأسها[١]. وقد وضع الفرسان الرومان على ظهور جيادهم السرج المقرن الذي أعطاهم راحة في امتطائها. ويشير المؤرِّخون إلى أنَّهم اقتبسوه من قبائل الغال.

جدير بالذِّكر أنَّه كان على الفارس الرومانيِّ الذي يخدم في سلاح الفرسان أن يشترك في عشر حملات عسكريَّة حتى يمسي مؤهَّلاً لترشيح نفسه لمناصب سياسيَّة في الدولة، ما يدلُّ على عسكرة الحياة السياسيَّة الرومانيَّة. ويشير المؤرِّخون إلى أنَّ معظم أفراد هذا السلاح كانوا متهوِّرين وفي بعض الأحيان يُسند إليهم القيام بدور الكشافة لتقدُّم الجيش[٢]. وقد ظلَّ المواطنون المسجَّلون في الوحدات المئويَّة للفرسان؛ المورد الذي يعتمد عليه القادة ليختاروا منه ضبَّاطهم؛ بوصفهم خيَّالة الجيش، إلاَّ أنَّ الدولة الرومانيَّة أخذت تعتمد باطِّراد على الحلفاء الإيطاليين، ثمَّ على النوميديين والتراكيين، وبعدها على الغال وغيرهم في تزويد الجيش بقوات الفرسان[٣].

السيف الطويل؛ سيف الفارس الرومانيّ

٤. أسلحة الجيش الرومانيّ

كان تسليح الجنديِّ الرومانيِّ يتألَّف من **الدِّرع المستطيل نصف الأسطوانيِّ**؛ الذي يُعرف باسم scutum، وكان طوله حوالي ٤ أقدام(نحو ١٢٠ سم)، وعرضه حوالي ٢,٥ قدم (نحو ٧٦سم) في أقصى نقطة اتِّساع، وكان مصنوعاً من الخشب بثلاث طبقات ومغلَّفاً بقطع من جلود الثيران، ما اكسبه نوعاً من المرونة، وقد أحيطت أطرافه بشرائط من النُّحاس لتقيه ضربات السيوف. وحُمِل الدرع بواسطة قبضة يدويَّة أفقيَّة مثبَّتة في منتصفها، خلف النقطة المركزيَّة فيها، وفي الغالب كانت هذه القبضة من البرونز أو من الحديد، وفي بعض الأحيان

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.201.

[2]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.48.

[٣]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٢٠٠.

كانت من الخشب.

لقد كان الدرع الرومانيُّ ثقيلاً حيث بلغ وزنه ٢٢ باون (١٠كغ)، أثناء فترات الهدوء وتوقُّف القتال يمكن إسناده إلى الأرض، بينما في القتال يُحمل بقوَّة الساعد؛ وتراصف دروع الجنود الرومان أمام الوحدة يشكل لها سدَّاً منيعاً، يحمي أجساد المقاتلين حتى أسفل الركبة. كما كان المقاتل الثريُّ يرتدي على صدره مباشرة درعاً من الحلقات الحديديَّة المتداخلة في ما بينها، ورغم ثقل وزنه إلاَّ أنَّه كان مرناً، ويؤِّمن حماية كاملة لجذعه، بينما ارتدى المقاتل الأفقر درعاً من البرونز على صدره مباشرة، وهو عبارة عن صحن برونزيٍّ مربوط بقطع من الجلد إلى جذعه. وبالمجمل كان الجنديُّ يرتدي درعين واقيين للسَّاقين مصنوعين من البرونز على خلاف النموذج اليونانيِّ، وفي بعض الحالات كان يرتدي واقية للساق اليسرى فحسب لأنَّها أقرب إلى العدو عند الالتحام به، ويعتمر خوذة معدنيَّة بهدف حماية قمَّة الرأس، وتعلو هذه الخوذة ريشة سوداء أو أرجوانيَّة، لتعطي انطباعاً بأنَّه أكثر طولاً؛ ما يرعب العدو[١]. عموماً، بلغ ما يحمله المقاتل الرومانيُّ من سلاح وعتاد حوالي ٧٠ باوناً، وكان يُتوقَّع منه أن يكون قادراً على المشي بسرعة أكثر من أربعة أميال في الساعة بمعدل مسير خمس ساعات في اليوم الواحد[٢].

الدرع الرومانيُّ المستطيل نصف الأسطوانيِّ scutum

[1]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, pp.46, 47.

[2]- Mills, C. W., Op. Cit., 2008, p.61.

خوذة الجندي الرومانيّ

كان الجنود الرومان فرساناً مبارِزين، وكان كلُّ جنديٍّ يحمل على خصره الأيمن سيفاً من نوع الكلاديو gladius يستخدمه أثناء الالتحام مع العدو، وهم تسلَّحوا أو بالسيف الإسبانيِّ القصير، أثناء أو بُعَيد الحرب البونيَّة الأولى، وربما اقتبسوه من الجنود الإسبان الذين كانوا يقاتلون في الجيش القرطاجيِّ كمرتزقة، ويتراوح طول نصلته ما بين ٢٠ - ٢٤ بوصلة (٥١-٦١ سم)؛ وتنتهي برأس مثلَّث الشكل مصمِّم لثقب الدروع. وكانت صناعة الكلاديو عالية الجودة، حيث كان يحتفظ بحدِّ نصلته رغم الطعان. كما كان كلُّ جنديٍّ رومانيٍّ يستلَّح بخنجر صغير يسمَّى puglio[1].

الكلاديو أو السيف الروماني القصير

الخناجر الرومانيَّة

أمَّا **حربة** البولمباتا plumbata فهي عبارة عن نصلة معدنيَّة لها أشواك بطول ١٥سم،

[1]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.47

تثبت على عمود خشبيٍّ تُقذَف على العدو، من مسافة ١٠٠ قدم (٣٠م)[١]، وهذه الأشواك التي زُوِّدت بها تمنعها من أن تسحب من جرح العدو إذا أصابت جسده مباشرة، وكان بوسع الجنديِّ الرومانيِّ أن يحمل معه خمس حربات، يضعها خلف درعه، وفائدتها المضاعفة أنَّها كانت سهلة الاستخدام، رخيصة الكلفة[٢].

حربة البولمباتا plumbata

وكانت **الرِّماح** السلاح الأول للجنود الرومان الذين كانوا يقفون في الصفَّين الأول والثاني في فرقة المشاة الثقيلة؛ وهي طويلة ومعروفة باسم pilum، اقتبسها الرومان من السمنيين، ولا يُعرف

على وجه التحديد تاريخ إدخالها إلى الجيش الرومانيِّ، لكن من المؤكَّد أن استخدامها كان شائعاً قبل الربع الأخير من القرن الثالث قبل الميلاد، وربما استُخدمت في الحرب البونيَّة الأولى[٣].

في الواقع، لقد مرَّ الرِّمح الرومانيُّ pilum بالعديد من التغيُّرات منذ تصميمه، من خلال الشكل وطول العمود الخشبيِّ الذي يستند إليه، لكن بعدما استقرَّ تصميمه أصبح السنان أو الرأس الحديديَّ مصنوعاً على شكل هرم مربع، وساهم هذا التصميم على خرق دروع الجنود[٤]، وكان طول هذه السنان يتراوح ما بين ٢٤ – ٣٠ بوصلة (٥١- ٧٦ سم)، بينما كان طول العمود الخشبيِّ نحو ٤ أقدام (١٢٠سم)، أمَّا النصلة الحديديَّة فمثبَّتة على العمود

[1]- Chaudhuri, Sh., & Kharbanda, P., Pocket Genius Ancient Rome., Dorling Kindersley Limited., New York, 2014, p.45.

[2]- Sim, D., Op. Cit., 2011, p.83.

[3]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.47.

[4]- Sim, D., Op. Cit., 2011, p.106.

بمسمارين. عموماً، كان هذا الرمح يُستخدم وبشكل أساسيٍّ كقذيفة حيث يتمُّ قذفه من مسافة ٦٥ قدم (٢٠م)، فتصميمه جعل وزنه يتركَّز -عند تسديده في الهواء- في النقطة الهرميَّة في رأس السنان، ما أعطاه القوَّة الأمثل لخرق دروع الأعداء والوصول إلى أجسامهم، وحتى وإن لم تصل سنان الرمح إلى الجسد؛ كان من الصعب إخراج الرمح من الدرع، لذلك كان الجنديُّ يُضطرُّ إلى إسقاط الدرع أرضاً والتخلِّي عنه، ليتابع قتاله من غير درع يحميه[١]. إضافة إلى ذلك، فإنَّ انحناء سنان الرمح عند قذفه بعد خرقه للدِّرع الذي يرتطم به، حرم جنود العدو من التقاطه مباشرة واستخدامه مرَّة أخرى ضدَّ الجنود الرومان، وبعد انتهاء الاشتباك كان هؤلاء الجنود يجمعون الرِّماح من أرض المعركة، ويبعثونها إلى الحدَّادين المرافقين لهم لإصلاحها[٢]، معنى ذلك أنَّ الرِّمح الرومانيَّ لم يكن هدفه الطِّعان بل استخدامه كقذيفة تسدَّد على جنود العدو لقتلهم، أو لتجريدهم من حماية دروعهم، وبالتَّالي سيسهل عليهم قتلهم بالسيوف والخناجر أثناء

الالتحام[٣]، لكن إذا اقتضت الحاجة يمكن أن يُستَخدم الرمح في الطِّعان[٤].

الرمح الروماني البيلوم pilum

إلى ذلك، كان الجيش الرومانيُّ يمتلك أسلحة ثقيلة لرمي المقذوفات تسمَّى بنادق المزلاج catapultae أو رامية الحجارة ballistae، وحصلت قوَّتها الدافعة من قوس من الخشب المرن، والوتر المصنوع من جلود الحيوانات، كان لها هيكل خشبيٌّ كبير، معزَّز بالحديد وبالتصفيحات البرونزيَّة، أمَّا عن صفاتها التعبويَّة فلها عياران الكبير ٧٥ملم والصغير ٤٥ملم. وقد تجاوز مدى هذه الآلة مدى الأقواس اليدوية المعاصرة، وكانت تعطي نسبة إصابة عالية، بحكم دقَّة صناعتها، لكنها لم تكن تؤذي إلاَّ من مسافات قريبة، ولم يكن

[1]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.47.

[2]- Chaudhuri, Sh., & Kharbanda, P., Op. Cit., 2014, p.46.

[3]- Mills, C. W., Op. Cit., 2008, p.61.

[4]- Sim, D., Op. Cit., 2011, p.106.

لها دور كبير في حسم المعركة التي كانت في الغالب تحسمها شجاعة الجنود أثناء الالتحام المباشر بالسيف والرِّمح، كما كان لرماة النِّبال -بحكم خفَّة حركتهم- دور فاعل وأكثر أهميَّة في الحرب من هذه الآلات الثقيلة[١].

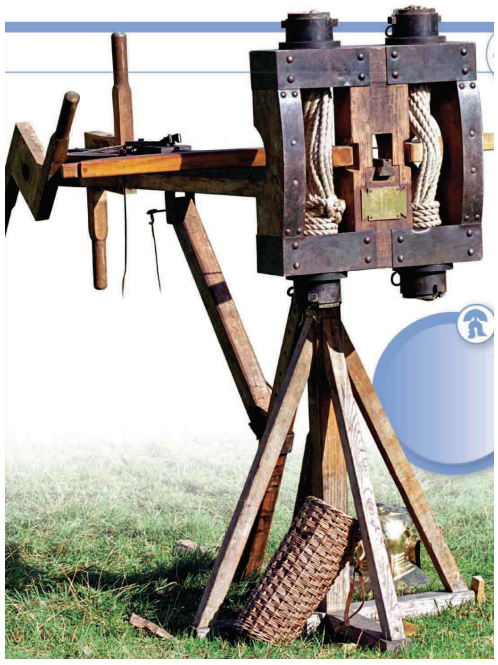

نموذج من بنادق المزلاج catapultae

أمَّا في عمليَّات الحصار، فكان يُستخدَم فيها المنجنيق الخشبيُّ الذي يُدار بالجذب أو اللَّيِّ، وتُقذف بواسطته حجارة تزن عشرة أرطال. كما امتلك الجيش الرومانيُّ كباشاً حربيَّة ضخمة كانت تُستخدم لفتح أبواب القلاع، ولأحداث الثقوب في الجدران والأسوار[٢]. ومنذ نهاية العصر الجمهوريِّ استخدم الجيش المهندسين المختصِّين في بناء الآلات ومعدَّات الحصار، والأبراج، والمصائد، بالإضافة إلى الطرق والجسور، وكان هؤلاء يعملون تحت إشراف ضبَّاط مهندسين متطوِّعين. ومن أهمِّ أمثلة الحصار التي خاضها الجيش أنَّه

[1]- Sim, D., Op. Cit., 2011, p.80.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٦.

بعدما تمكَّن قيصر من هزيمة الغال سنة ٥٧ ق.م تابع حربه على أقوام أخرى منهم تسمى Aduatuci، لكنهم امتنعوا عنه في بلدتهم الحصينة التي كانت محاطة بسور عالٍ ارتفاعه ١٢ قدماً، بينما بلغ محيطه ١٥ ألف قدم، كما أنَّ البلدة كانت محميَّة بالمنحدرات الصخريَّة التي يصعب تسلُّقها، ما عدا من جهة واحدة؛ بني فيها السور بصورة مضاعفة، وعندما بنى قيصر برجه قبالة مدينتهم هزئ الغال به لنصبه البرج بعيداً عن الحائط، وهم في الواقع لم يتوقعوا أن كون يهذا البرج متحرّكاً، وظنُّوا أنَّ الرومان قصار جداً ولن يكونوا قادرين على تحريكه. شمل ذلك البرج عدداً من الأرصفة الخشبيَّة المكسوة بجلود الحيوانات والمعدن، وكان في كلِّ مستوى منه مكان مخصَّص لوضع منجنيق بعيد المدى، قادر على رمي الصخور الكبيرة.

بلغ ارتفاع برج قيصر العملاق في Uxellodunum عشرة طوابق، وكان فيه جسر متحرّك يمكن وصلُه بحائط العدو، عند رؤيته اعتقد Aduatuci أنَّ العناية الإلهيَّة تدخَّلت لمساعدتهم في بنائه، وساعدتهم على اعتلاء الأسوار، فمن غير المعقول أن يتقدَّموا بمثل هذه السرعة من مكان مرتفع كهذا، فما كان منهم إلاَّ أن وافقوا على الاستسلام، لكنَّهم عادوا ونكثوا العهد، وخرقوا الاتفاقيَّة التي أبرموها مع الرومان الذين كرُّوا عليهم مرَّة أخرى، وباعوهم في أسواق النخاسة للعبوديَّة بعد هزيمتهم[١].

تشير المصادر التاريخيَّة إلى أنَّ الجيش الرومانيَّ حصل على موادِّه الحديديَّة من مصادر تصنيع عدَّة، فبعض مصانع الحديد كانت تُدار من قبل العمَّال الأحرار، وهي مختصَّة بصناعة الدُّروع والسُّيوف والسِّهام، وملحقة بالجيش، ويمكن أن نشبِّهها اليوم بمؤسَّسات التصنيع العسكريِّ، رغم أنها لم تكن ضمن جدران القلعة العسكريَّة. ولمَّا كان من الواجب على الفرقة العسكريَّة الرومانيَّة أن تكون مكتفية بذاتها، لذلك كان من الواجب رفدها بعشرات من الجنود الحرفيين؛ لاسيَّما من الحدَّادين، من أجل سدِّ النقص الحاصل في السلاح، أو إصلاح المعطوب منه، وكان هؤلاء الجنود الحرفيون معفيين من الواجبات المختلفة كالحراسة والاستعراضات العسكريَّة[٢].

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, pp.202, 203.

[2]- Sim, D., Op. Cit., 2011, p.61.

٥. المعسكر الرومانيّ

كان من الصَّعب إخفاء تقدُّم الجيش الرومانيِّ خلال الحروب؛ فأقدام عشرات الآلاف من الجنود وحوافر الخيل كانت كفيلة بتشكيل سحابة غبار مرئيَّة من بعد أميال، وعندما يقترب من جيش خصمه تُصبح حركته بطيئة للغاية[١]. وكان على القائد أن يلقي خطاباً أمام الجنود من أجل أن يعزِّز روحهم المعنوية، ويشعرهم بقوَّتهم وتفوُّقهم، ومدى خوف الأعداء منهم ومن سمعتهم العسكريَّة[٢]. ومن أهمِّ ميزات هذا الجيش أنَّه كان يقوم بإنشاء معسكرات خاصَّة به، أثناء تقدُّم فرقه العسكريَّة، رغم الإرهاق والتعب بفعل طول المسير، على نقيض الجيوش اليونانيَّة التي لم تكن تقوم ببناء أي معسكرات لها أثناء تقدُّمها[٣]. وكان المعسكر منطلق القوَّات الرومانيَّة في أرض الأعداء سواء في عمليات الهجوم أم الدفاع، ومن أهمِّ فوائده صدُّ الهجمات المفاجئة[٤]. ولعلَّ ما يميِّز هذه المعسكرات أنها كانت تُهدَم كلَّ يوم وتتمُّ إعادة بنائها ثانية إذا استؤنف المسير. طبعاً سيكون المعسكر أكثر ديمومة إذا كان الجيش الرومانيُّ يخيِّم لحصار بلدة أو قلعة[٥].

وقد رُوعيَ في اختيار موقع المعسكر أن يكون مكاناً مرتفعاً وحصيناً[٦]، ويتوفر فيه الماء والعلف، وكان يتمُّ البناء وفق مخطَّط وقواعد ثابتة، ونمط محدَّد، فمن حيث التصميم هو مربَّع الشكل؛ أطوال أضلاعه حوالي ٢,١٥٠ قدم لكلِّ ضلع[٧]، وله أربع بوابات على نهاية طريقين متعامدتين تتقاطعان بزاوية ٩٠ درجة، تتفرَّع منهما الشوارع الأخرى، ويجري توزيع خيم الضبَّاط والجنود بإتقان مُتناه[٨]، بحيث أنَّ أول خيمة تضرب أوتادها فيه هي خيمة القنصل؛ وغالباً ما تكون في وسط المعسكر أو في أكثر مكان مناسب فيه، بينما خيم الترابنة

[1]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.55.

[2]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, pp. 50,51.

[3]- Boak, A, E, R., Op. Cit., 1921, p.70.

[٤]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٦.

[5]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.202.

[6]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.50.

[7]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.202.

[8]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, pp. 50,51.

العسكريين الاثني عشر تُنصب على طول الشارع الرئيسيِّ، أمَّا خيم الفرسان والمشاة فتُنصب في الفراغات المستطيلة الناتجة من تقاطع الشوارع الفرعيَّة[١].

وقد أُحيط المعسكر بخندق وساتر ترابيٍّ، وسور من أخشاب وأغصان الأشجار، من أجل زيادة مناعته وتحصينه. فعلى سبيل المثال، كان معسكر يوليوس قيصر في Dyrrhachium محاطاً بخندق عمقه ١٥ قدماً، وبسور ارتفاعه عشرة أقدام، وبسماكة تقدَّر بعشرة أقدام أيضاً. وتجدر الإشارة إلى أنَّ جُنود الحلفاء من الإيطاليين كانوا مكلَّفين ببناء السور وحفر الخندق، وحرص الرومان على ترك حوالي ٢٠٠ قدم كمساحة خالية بين السور والخيم الأقرب إليه، استُعملت لتحرُّك القوَّات داخل المعسكر جيئةً وذهاباً، ولجمع الماشية والغنيمة، وتُرك هذا الفضاء كمسافة أمان في حال تعرَّض المعسكر للقصف والتهديد[٢].

كان الجنود يقضون لياليهم في المعسكر، وكان هناك ضابط مختصٌّ يدعى tesserarius يقوم بتوزيع الحرس على السور وتحديد كلمة السرِّ لكلِّ ليلة، وغالباً ما كان الحرس من الجنود الكبار في السنِّ الذين يكونون الخطَّ الثالث في أرض المعركة والمعروفين باسم triarii[٣]. وقد وُضِع على كلِّ باب من أبواب المعسكر عشرة رجال أشدَّاء يحرسونه، وكلُّ حارس ينام أثناء نوبة الحراسة كان يتعرَّض لأشدِّ أنواع العقوبات؛ ويمكن أن يضرب حتى الموت، وإذا ما تمكَّن من الهرب فمن الصعب أن يجد مكاناً يؤويه؛ لا في بيته ولا عند أيِّ أحد من أقاربه. كما كانت هناك عقوبات قاسية لكلِّ من سرق من رفاقه أو أعطى معلومات مضللة، أو حاول إغواء الجنود الآخرين[٤]. وكان الفرسان يخرجون من أجل خوض بعض الاشتباكات مع جنود العدو قبل بدء يوم الالتحام، الذي كان يتطلَّب أن يخرج القائد من معسكره، وينشر قوَّاته في أرض المعركة، وعند الهزيمة كان المعسكر ملاذاً للتراجع[٥].

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.202.

[2]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.202.

[3]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, pp. 50,51.

[4]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, pp. 204,205.

[5]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, pp. 50,51.

٦. يوم المعركة

في يوم المعركة يخرج الجيش كاملاً من المعسكر للانتشار والتَّمركُز، وهي عملية صعبة ودقيقة وتتطلَّب الكثير من الحذر، وعدداً كبيراً من الضبَّاط لضمان تموضع الجيش في المكان الصحيح وبالتنسيق الصحيح[١]. ولا شكَّ في أنَّ جيشاً بدروعه الكاملة وسلاحه الحربيِّ يثير الرُّعب في قلوب أعدائه، لذلك حرص الجنود الرومان على تلميع معادن أسلحتهم دوماً؛ فلمعانها تحت أشعة الشمس كان له تأثير البرق الذي يخطف الأبصار. وقد ارتدى الجنود الخوَذ العالية التي تعطي انطباعاً بأنهم أطول[٢].

تؤكد المصادر التاريخيَّة أنَّ الجيش الروماني كان دائماً في موقع العدوان، وقبل أن يشتبك مع أيِّ عدوٍّ كان ضبَّاطه يعملون ما بوسعهم لبعث الشجاعة والحماسة والثقة بنفوس جنودهم من خلال الخطابات الرنَّانة، وفي المقابل يسعون لإخافة خصومهم[٣]. وهم استخدموا وسائل مختلفة من أجل إعطاء العدوِّ انطباعاً خاطئاً بأنَّ تعداد قوَّاتهم المسلَّحة هو أضعاف الرقم الحقيقيِّ، وبعد خلق الانطباع البصريِّ، يعملون على إيصال الإحساس السمعيِّ من خلال الضوضاء من خلال الهتاف بالصرخات العالية[٤]، ونفخ الأبواق، وقرع الطبول، وقرع أجراس البرونز، وضرب السُّيوف بالتُّروس، ولم تكن هذه الحركات هيِّنة، ففي كثير من المعارك لعبَ عامل الحرب النفسيَّة أو رفع المعنويَّات نتائج فعَّالة في حسم المعركة التي تبدأ برمي كلِّ فريق عدداً من القذائف على الآخر[٥]، بعدها يبدأ الهجوم والالتحام بين الفريقين، حيث يصرخ الجنود صرخة واحدة أثناء الإغارة بهدف إرعاب العدوِّ وتحفيز بعضهم على القتال، كما يعملون على تدمير معنويَّات الخصوم من خلال الهجمات

[1]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.56.

[2]- Ureche. P., Op. Cit., 2014, p.4.

[3]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.56.

[4]- Ureche. P., The Soldiers morale in the roman army., Journal of Ancient History and Archeology No; 1.32014/, p.4.

[5]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.57.

المفاجئة والكمائن[١]. كذلك كانوا يصيحون ويصدرون أصواتاً مرعبة كالزمجرة والزئير؛ بهدف إرهاب خصمهم في الميدان[٢].

تجدر الإشارة إلى أنَّ المجموعة العسكريَّة في الجيش الرومانيِّ كانت تضمُّ ثمانية جنود ينامون في الخيمة ذاتها، ويتناولون الطعام معاً، بعد أن يطهوه سويّاً، ويشتركون في القتال معاً ما نمَّى بينهم روح التكاتف والتعاضد في الميدان[٣].

٧. قيادة الجيش

مع نهاية القرن الثالث قبل الميلاد كان الجيش يتألَّف من أربع فرق، تُسند قيادة كلِّ فرقتين إلى قنصل، وكان أحد القنصلين يتولَّى قيادة الفرقتين الأولى والثالثة، بينما يتولى القنصل الثاني قيادة الفرقتين الثانية والرابعة، وفي كلِّ سنة يقوم الرومان بإعادة ترقيم فرقهم، ما يكسب الجنديَّ الشعور بالتجديد، ويجعل ولاءه للجيش ككل، لا للفرقة التي يخدم فيها. وكان القناصل يقودون الجيوش في المعارك الكبرى بينما أُسنِدت قيادة الحملات الصغيرة للترابنة العسكريين، حيث يعاون القنصل ستة ضبَّاط يُعرفون بترابنة الجنود وهم بمنزلة الحكَّام Magistratus، لأنَّ الجمعيَّة القبليَّة هي التي كانت تنتخبهم، ومن النادر أن تُسند قيادة الجيش إلى تريبون عسكريٍّ واحد، وإن صار هذا الأمر شائعاً أثناء الحروب البونيَّة التي شنُّوها ضدَّ قرطاجة[٤].

من المفيد القول أنَّ الجيش اتَّبع نظاماً عسكريّاً صارماً؛ حتى أنَّه أباح للقنصل أن يحكم بالإعدام على أيِّ جنديٍّ أو ضابط يلوذ بالفرار، أو يرفض أن ينفِّذ الأوامر العسكريَّة[٥]. وقد أدَّت كثرة الحروب وطول مدَّة الخدمة العسكريَّة إلى وجود جماعة كبيرة من الجنود المحترفين ضمن كلِّ وحدة؛ استطاعوا أن يحافظوا فيها على مستوى لائق من الكفاءة العسكريَّة، وبصورة عامَّة كان القناصل أنفسهم جنوداً خبراء في الأصل إن لم يكونوا قادة

[1]- Ureche. P., Op. Cit., 2014, p.4.

[2]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.57.

[3]- Ureche. P., Op. Cit., 2014, p.5.

[4]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, pp.50, 51.

[5]- Boak, A, E, R., Op. Cit., 1921, p.70.

عسكريين قديرين، إذ كان يُشترط في المرشَّح لشغل وظيفة ما في الدولة أن يكون له رصيد خدمة؛ في عشر حملات عسكريَّة على الأقلّ، وبالمثل كان مساعدو القنصل من الترابنة العسكريين جنوداً متطوِّعين لهم في الجيش خدمة تتراوح على الأقل بين خمس إلى عشر سنوات[١]، وكانت كلُّ فرقة رومانيَّة تحتوي على ستة ترابنة عسكريين، وكانوا في الغالب من الشباب الطموحين، لكن ذلك لم يكن قاعدة، ولم يمنع من أن يضمَّ الجيش ترابنة مجرِّبين ذوي خبرة عالية[٢].

ولا شكَّ في أنَّ إعادة النظر في تكوين الجيش ومؤسَّسات الدولة تجلَّت بعد هزيمة الرومان أمام الغال، ما أسهم في بلورة معنى الجنديَّة، وتلت ذلك تطوُّرات دستوريَّة مهمَّة سنة ٣٦٧ ق.م فتحت الباب أمام العوامِّ لتوليِّ المناصب العليا في الدولة من دون أيِّ قيد أو شرط[٣]، ما أفسح المجال أمام ذوي الكفايات جميعها لتوليِّ قيادة الجيش الجديد، كما أسندت قيادة الوحدات الخاصَّة للجنود المجرِّبين من ذوي الخبرة، وكان يُشترط فيهم أن يكونوا مثقَّفين[٤]. وبعدما أخذ الرومان عن الأتروسكيين الشارات العسكريَّة، كانت الشجاعة في أرض المعركة تجلب لصاحبها أعظم النياشين والشارات والجوائز العسكريَّة، أعظمها تاج الغار الذي يُمنح لكلِّ جنديٍّ أنقذ حياة مواطن رومانيٍّ، وكان الجنديُّ يُكلَّل بهذا التاج يكلَّل في احتفال مهيب، يجلب لصاحبه احتراماً عظيماً[٥].

ثمَّة قضية مهمَّة في قيادة الجيش الرومانيِّ من الضروريِّ التطرُّق إليها، وهي أن الرومان خلال فترة معيَّنة من تاريخ جمهوريَّتهم تخلُّوا عن مبدأ قيادة القنصل لقوَّاتهم، وأسندوا هذه المهمَّة إلى **الترابنة العسكريين ذي السلطة القنصليَّة**، حيث لم يترتَّب على اتِّساع نطاق حروب روما؛ تلك الاصلاحات العسكريَّة التي شملت بنية الجيش وتسليحه، والتي تحدَّثنا عنها، بل مرَّت الدولة أيضاً بتجارب عدَّة في كيفيَّة ممارسة السلطة العليا سواء المدنيَّة أم العسكريَّة، فقد اقتضت ظروف كثيرة وجود أكثر من شخصين (أي القنصلين) يستطيعان

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٩٢.

[2]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.49.

[٣]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص٣٧.

[4]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.46.

[5]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.49.

ممارسة هذه السلطة في أماكن عدَّة وفي وقت واحد، ذلك أنَّه بين سنتَيْ ٤٤٤ و٣٦٧ ق.م استبدل الرومان بالقنصلين في مرَّات عديدة، وفي فترات غير منتظمة، هيئة من الحكام كان عددهم يزداد باطِّراد، ويُدعَون الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصليَّة، وكان هؤلاء يتولُّون إدارة البلاد وقيادة جيوشها، وكان لقب التيربون يُطلق على ضبَّاط الوحدات الرئيسيَّة في الجيش، ويبدو أنَّ ذلك كان مدلول لقب تريبيون في أواخر القرن الخامس ومطلع القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت الجمعيَّة المئويَّة مكلَّفة بانتخابهم، لكن تقرَّر في سنة ٣٦٧ ق.م العدول نهائيَّاً عن نظام قيادة الترابنة العسكريين والعودة إلى نظام القنصلين، وإسناد جميع السلطات التنفيذيَّة المدنيَّة والعسكريَّة إليهما، بعد انتخابهما في كلِّ سنة، بينما تحوَّل الترابنة إلى قادة عسكريين في الجيش تحت سلطة القنصلين[١].

٨. الحلفاء

كانت إيطاليا في القرن الرابع قبل الميلاد مليئة بالجاليات التي كانت في حالة تعاون أو تنافس مستمرٍّ، وتجاوزت العلاقات الشخصيَّة لزعماء تلك الجاليات حدودها، مسهِّلة ترابط العالم الإيطاليِّ واندماجه في علاقات رسميَّة سهَّلت أمور التعاون العسكريِّ.

إنَّ فحص المعلومات بتروٍّ يبيِّن أنَّ التعاون العسكريَّ ما كان خاصيَّة رومانيَّة فريدة، وأنَّ الحرب الإيطاليَّة التي خاضتها روما في القرن الثالث قبل الميلاد، والحرب البونيَّة التي خاضتها في القرن الثاني قبل الميلاد، ساهمت في ابتعاد الجيش الرومانيِّ عن جذوره الإيطاليَّة، حيث توقَّف مبدأ التعاون العسكريِّ، وضمِّ القوى البشريَّة الإيطاليَّة إلى الجيش الرومانيِّ الجديد. وقد استُبدِل دور العلاقات الشخصيَّة القديم بفكرة التحالفات الرسميَّة التي ألزمت الإيطاليين بتقديم القوَّات العسكريَّة للرومان، متى ما طلبوها منهم.

إنَّ التطوُّرات الجديدة طالت المنظومة السياسيَّة للجمهوريَّة الرومانيَّة أيضاً، حيث فرض مجلس الشيوخ سلطات أكبر على القنصليين، وأصبحت المناطق الإيطاليَّة عبارة عن مقاطعات أو محافظات ملحَقة بروما، لكن سكَّانها وُضِعوا في منزلة متناقضة مع أهميَّتهم العسكريَّة ما أسهم في قيام حرب الحلفاء في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. وتُظهِر دراسة

[١]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج١، مصدر سابق، ص١٧٠.

تاريخ الجيش الرومانيِّ حجم استغلال الرومان للقدرات البشريَّة الإيطاليَّة من أجل تحقيق مطامعهم العسكريَّة وبناء أمبراطوريَّة البحر المتوسِّط الرومانيَّة[١]، حتى صار الرومان يطلقون على البحر المتوسِّط بفخر واعتزاز Mare nostrum أي (بحرنا)، وظلَّ العرب يسمُّونه «بحر الروم» سبعة قرون منذ إخضاعه لهم.

إذاً، أشرنا إلى أنَّ العلاقات التي كانت تربط الرومان بالإيطاليين قد تغيَّرت، فبدل العلاقات الشخصيَّة القائمة على مبدأ التعاون أو التنافس، بدأوا يسعون للسيطرة على شبة الجزيرة الإيطاليَّة كاملة بقوَّة السلاح، وعندما كانوا يُخضِعون منطقة يطالبونها بعقد معاهدة foedera معهم، يلزمونها من خلالها بأن تسهم بقوَّة عسكريَّة في جيشهم، مع ترك حريَّة تصريف شؤونها الداخليَّة الخاصَّة بها. إنَّ وجهة النظر التقليديَّة هذه؛ المدوَّنة في موسوعة كامبردج، تعود إلى المؤرِّخ المختصِّ موميسون Mommsen الذي دوَّنها في سنة ١٨٨١م، وملخَّص هذه الفكرة أنَّ الرومان سيطروا على المصادر العسكريَّة لحلفائهم لإكمال قوَّتهم، ويرى أنَّ هذا الأمر ناتج من عمل منطقيٍّ هو أنَّ حلفاء روما قد وجدو أنفسهم ضمن الحالة الرومانيَّة العامَّة التي واجهت الخاصيَّة الوطنيَّة الإيطاليَّة أثناء تعرُّضها للغزو، فكسب الرومان سيطرة تامَّة على مصادرهم العسكريَّة[٢].

لقد كان الحلفاء يقدِّمون للرُّومان قوَّات تعادل قوَّات مشاتهم، وربما ثلاثة أضعاف تعداد فرسانهم، حيث ضمَّ الجيش القنصليُّ الكامل نحو ١٨ ألف رجل مشاة، ونحو ٢٤٠٠ فارس، كان عليهم جميعهم أن يبيتوا في معسكر واحد[٣]. وتذكر الوثائق التاريخيَّة أن القناصل كانوا يحدِّدون عدد الجنود والفرسان والبحَّارة الذين يتوجَّب على كلِّ مدينة إيطالية حليفة تقديمهم، ويعيِّنون لهم تاريخ ومكان تجمُّعهم، وعندما يتقدَّم الجيش الرومانيُّ كانت تحيط به هذه القوَّات[٤]. طبعاً، نحن لا نمتلك مصادر تصف لنا قوَّات الحلفاء وأجهزتهم

[1]- Kent, P. A., The Roman army's emergence from its Italian origins., A dissertation submitted to the faculty of the University of North Carolina at Chapel Hill in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in the Department of History., Provided by Carolina Digital Repository 2012, p.1.

[2]- Kent, P. A., Op. Cit., 2012, pp.2,3.

[3]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.202.

[٤]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٦.

وأسلحتهم وتشكيلاتهم القتاليَّة، إن ما نعلمه أن مشاة الحلفاء كانوا مقسَّمين إلى وحدات قتاليَّة؛ يتراوح تعداد المجموعة الواحدة ما بين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ رجل، وأنَّ هذه المجموعات تُعرف باسم extraordinarii، وكانت تخيِّم قرب خيمة الضابط الرومانيِّ المسؤول عنها، لتكون تحت طاعته وتنفِّذ أوامره بشكل فوريٍّ. ويُعتقد أنَّ تركيبة قوات الحلفاء كانت مماثلة لتركيبة الجيش الروماني[١].

ورغم أنَّ نجاحات الرومان العسكريَّة العظيمة اعتمدت في واقع الأمر على قوى حلفائهم الإيطاليين[٢]، إلاَّ أنَّه كان يقع على عاتق المدن التي جنَّدتهم أن تتكفَّل بأسلحتهم ونفقتهم، ولا يقدِّم الرومان لهم إلاَّ مؤنهم وعلف دوابهم، وفي وقت لاحق أصبح عدد الذين يجنَّدون من الولايات يزداد تباعاً، حتى بلغ عدد الإيطاليين الحلفاء الذين يمكن أن يلتحقوا بالخدمة العسكريَّة وفق إحدى الوثائق المتأخِّرة من العصر الجمهوريِّ بـ ٤٢٣ ألف جنديٍّ. وبالقابل، كانت روما تضمن لهؤلاء الحلفاء أمنهم وسلامة أراضيهم، وتعطيهم نصيباً من غنائم انتصاراتها[٣].

لقد طرح أساتذة التاريخ إشكاليَّة جوهريَّة في بنية الجيش الرومانيِّ الجديد؛ هي: كيف حصل الرومان على الدعم العسكريِّ من حلفائهم أثناء شنِّ الحروب العدوانيَّة، لأنَّ المعاهدات تضمَّنت إلزام حلفاء إيطاليا بالاشتراك في الحرب الدفاعيَّة عن روما، لكن لهم حرية الخيار في الاشتراك في الحرب العدوانيَّة من عدمه تحت قيادة مليكهم. يمكن الإجابة عن هذه الإشكالية بنقطتين جوهريتين: الأولى: هي أنَّ الرومان أحتلُّوا العالم بحجَّة الدفاع عن النفس، بمعنى أنَّ جميع الحروب التي شنُّوها سواء في إيطاليا ذاتها أم في أوروبا، أو في عالم البحر المتوسِّط، كانت حروباً هدفها دفع الخطر عن روما، وبالتالي ليس هناك حرب عدوانيَّة من وجهة نظرهم.

الثانية: هي أنَّ المعاهدات التي أبرمتها روما مع حلفائها الإيطاليين كانت غير متكافئة، وتقوم على مبدأ التبعية ومطالبة الحلفاء بالحدِّ الأقصى من عدد الرجال، بمعنى أنَّ حلفاء

[1]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.49.

[2]- Kent, P. A., Op. Cit., 2012, p.2.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٧.

إيطاليا لا حَول لهم ولا طَول أمام رغبات الرومان في التوسُّع، وشهوتهم للقتل وسفك الدماء[١].

وبعدما توسَّع أساتذة التاريخ الرومانيِّ في دور هذه المعاهدات في بناء القوَّة العسكريَّة الرومانيَّة، وجدوا أنَّه لم يكن فيها الحلفاء الإيطاليون بمرتبة الندِّ، بل كانوا أتباعاً لروما. إنَّ المعاهدة التي لا تكون بين طرفين متساويين ليست معاهدة، بل هي وثيقة استعباد، وما يثبت ذلك أن كلَّ المعاهدات كانت تتضمَّن بنداً يُطالب الحلفاء صراحةً بدعم صعود روما، وهذا ما دفع بعدد من المؤرِّخين إلى التحدث عن أنَّ هذا البند استغلَّه الرومان أيُّما استغلال من أجل شنِّ حروب عدوانيَّة تصبُّ في مصالحهم الخاصة، يتورَّط فيها حلفاؤهم من دون أن يكون لهم أدنى مصلحة[٢].

في الواقع، لم تستخدم روما المرتزقة في قوَّاتها، بل استخدمت قوَّات الرديفة auxilia أو المساعدة بالإضافة إلى حلفائها الإيطاليين، لكن من دون أن تدمج هذه القوَّات في بنية الجيش الرومانيِّ حيث كانت تقاتل منفصلة عنه، بحكم أنَّها كانت وحدات أجنبيَّة، تماماً مثلما استعمل سيبو سلاح فرسان ماسينا Massinissa ملك نوميديا في معركة زاما Zama سنة ٢٠٢ ق.م.

إنَّ أكبر تطوُّر حدث في الجيش الرومانيِّ كان استعمال القوَّات الرديفة، لكنَّهم حرصوا على أن يشركوها في الحملات التي كانت تتمُّ بعيداً عن وطنها الأصليِّ فحسب، حتى أن يوغارتا Jugurtha حفيد ميسينا خدم في الوحدات النوميديَّة Numidian العاملة في إسبانيا تحت قيادة سيبو أميلينوس بقوَّة عسكريَّة ضمَّت ١٢ فيلاً[٣].

٩. التجنيد

اعتباراً من القرن الثالث قبل الميلاد، أصبحت الخدمة العسكريَّة في الجيش والبحريَّة الرومانيَّة؛ خدمةً إلزاميَّة على كلِّ من تتوفَّر فيه اللياقة الجسديَّة، وتمَّ توزيع عبء الخدمة

[1]- Kent, P. A., Op. Cit., 2012, pp. 5,6.

[2]- Kent, P. A., Op. Cit., 2012, p.5.

[3]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.199.

على السكان كافَّة[١]، وكانت السنُّ القانونيَّة تمتدُّ من سن ١٧ حتى سن ٤٦ سنة للمواطنين الأحرار، ولم يكن الرومان يرتضون تجنيد العبيد إلاَّ في حالات الطوارئ الخطيرة؛ كما حدث مثلاً للجمهوريَّة الرومانيَّة في أعقاب معركة كاناي. وكانت الخدمة العسكريَّة تضفي على صاحبها مزايا كثيرة، فأيُّ رجل رومانيٍّ كان يرغب في مزاولة عمل سياسيٍّ، عليه أن يُتمَّ عشر سنوات في الخدمة بسلاح الفرسان، أو ١٦ سنة بسلاح المشاة، رغم أنَّ مدَّة الخدمة الحقيقيَّة قد تمتدُّ إلى ٢٠ سنة. ويشير مؤرِّخون إلى أنَّ جنود رومان خدموا ست سنوات متَّصلة في إسبانيا إلى أن تمَّ استبدالهم بمجنَّدين جدد[٢]. وعند النفير العام كان يتمُّ تعبئة القوَّات الرومانيَّة في الكابيتول بعد إحصاء المطلوبين للخدمة، وقد يستغرق تسجيلهم وقتاً، تماماً كما حصل أثناء التحضير للحملة الرومانيَّة على مقدونيا سنة ١٦٩ ق.م حيث استغرق تسجيلهم ١١ يوماً إلى أن تمَّت تعبئة أربعة فيالق. وكانت القبائل الرومانيَّة تستدعى قبيلة تلو قبيلة، وكان يؤخذ من الجنود القسم على الولاء للدولة والجيش، وكان القناصل يرسلون الطلبات إلى المدن الحليفة من أجل امدادهم بالقوَّات اللاَّزمة، والتي كانت مفروضة عليهم، ويحدِّدون لهم تعدادها، والمكان والزمان الذي يجب أن تلتحق فيه، وكانت المدن الإيطالية تختار جنودها ثم ترسلهم إلى روما مع قائد ومدير رواتب[٣].

أمَّا ضبَّاط الجيش فكانوا هواة بالمعنى الحديث للكلمة، بمعنى أنَّهم لم يتلقُّوا أيَّ دروس أو تدريبات عسكريَّة، ومنذ الحرب البونيَّة الأولى فضَّل الجنود أن يقودهم في أرض المعركة القادة القديرون، وأصبح هذا الأمر أكثر شيوعاً خلال الحرب البونيَّة الثانية. وقد أنجب الجيش بعض الضباط الذين قادوا جيوشهم إلى التهلكة، كما أنجب قادة قادرين من أمثال سيبو الأفريقي، وعلينا الانتباه إلى أنَّ معظم الضبَّاط اكتسبوا خبرات كبيرة قبل أن يرقُّوا إلى مرتبة القيادة[٤].

.عندما قبل النبلاء، ممثَّلين بمجلس الشيوخ، توسيع دائرة المواطنين الرومان الذين يحقُّ

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، م صدر سابق، ص٩١.

[2]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.199

[3]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.201

[4]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.52

لهم الخدمة العسكريَّة، لم يكن ذلك الأمر يصبُّ في مصلحة هؤلاء المواطنين الذين لم يكن همُّ النبلاء جعلهم يستفيدون من المزايا التي تُمنح لمن نال حقَّ الخدمة في الجيش، بل كان هدفهم استخدامهم وسيلة لتحقيق الانتصارات التي ستضفي مزيداً من المجد على أسماء عائلاتهم، بينما يقدم هؤلاء الجنود المساكين دماءهم ثمناً لتلك الأمجاد التي لن ينالوا منها فتيلا. ولعل تيبيروس جراكوس Tiberius Gracchus (١٦٢- ١٣٣ ق.م) كان خير من صوَّر لنا واقع الحال في إحدى خطبه الشهيرة عندما قال: «يرتكب القادة خطأ مضحكاً عندما يحمِّسون الجنديَّ البسيط، ويدفعونه وهم على رأس الجيش للحرب في سبيل مذابح قرابينهم، وأنصابهم المقدَّسة، في حين لا يوجد أحد من بين هذه الجموع الرومانيَّة، من يملك مذبحاً أو نصباً بل بيتاً، أو مأوى ورثوه من أسلافهم لكي يدافعوا عنه، إنَّهم في الواقع يَقتلون ويُقتَلون ليحافظوا على غنى الآخرين وترفهم، ويشار إلى هؤلاء المساكين بأنهم سادة الدنيا لكنَّهم في الواقع لا يملكون قدماً واحدة من الأرض[١]».

١٠- الراتب

بعدما كان من الواجب على الجنديِّ في مطلع العصر الجمهوريِّ أن يجهِّز نفسه بالسلاح والعتاد اللاَّزم، تغيَّر ذلك الأمر بعد حملات روما المستمرَّة والمتزايدة[٢]، حيث لم يعد توزيع الجنود على أساس ما يمتلكون من أموال، بل تدخَّلت الدولة وأمَّنت نفقات جنودها وأسلحتهم، ووضعت كلَّ فرد في رتبة تتناسب مع سنِّه وخبرته في القتال[٣]. كان ذلك قد بدأ منذ سنة ٤٠٦ أثناء الحرب مع مدينة فيي Veii، ودوَّن لنا المؤرِّخون أنَّ الجنود استلموا اثنتين أوبولة obols في اليوم الواحد (١٢٠ دراخمة في السنة: دراخما العصبة الآخية كانت أقل وزناً من الدينار بعض الشيء)، بينما حصل القائد على ضعف راتب الجنديِّ (٢٤٠ دراخمة)، أمَّا الفرسان فقد استلموا دراخمة واحدة في اليوم؛ بمعدل ٣٦٠ دراخمة في السنة، وكان السبب في ذلك هو ضرورة تأمين العلف لخيولهم.

---

[١]- بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج٣، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م، ص١٥١٧

[2]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.200

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٥.

في الواقع، لم يكن الراتب يكفي، ولم يكن الرومان ينوون من صرف الرواتب للجنود تحويل الجنديَّة إلى مهنة، لكن كان لابدَّ من التكفُّل بتأمين حاجاتهم. أمَّا في عهد قيصر فقد ضوعف المبالغ بسبب الطول المتزايد لمدَّة الحملات السنويَّة[١].

كما تسلَّم الجنود كميَّات من الحنطة غذاء لهم، وتسلَّم الفرسان كميَّات من الحنطة والشعير غذاء لهم ولخيولهم، وتسلَّم جنديُّ المشاة حوالي ٢٦,٥ كيلوغراماً من الحنطة في الشهر (٣١٦ كيلو في السنة)، بينما تسلَّم الفارس ٧٩ كيلوغراماً من الحنطة ونحو ٢٧٥ كيلوغراماً من الشعير (لحصانه وللخادم الذي يعتني به)، هذا بالإضافة إلى الملابس وبعض المهامِّ الأخرى،. ولم تكن روما تتعهَّد بدفع أيِّ نفقات أو مرتَّبات لجنود الحلفاء، مكتفية بمنح مشاتهم حصَّة غذاء من الحنطة معادلة لحصة الجنديِّ الرومانيِّ، بينما نال فرسانهم حصَّة أقل من حصَّة الغذاء التي كان يحصل عليها الفارس الروماني[٢]. عموماً، كانت الخضروات والخبز طعام الجيش الأساسيِّ، وفي زمن يوليوس قيصر قلَّت الغلال فأكلوا اللحم واشتكى الجنود من ذلك[٣].

بالإضافة إلى الغذاء، كان على الدولة أن تسلِّم الجنود مخصَّصاتهم من اللباس، إلاَّ أنَّها كانت تقتطع ثمنه من مراتبهم، ويشهد على ذلك أنَّ القانون الذي أصدره جايوس جراكوس Gaius Gracchus ينصُّ على ألاَّ تقلَّ سنُّ المكلَّف عن ١٧ سنة، وأن لا تقتطع الدولة ثمن اللِّباس الذي تقدِّمه له، وهكذا يبدو أنَّ قانون الجيش الذي استصدره جايوس لم يفعل أكثر من أنَّه قضى على عيب خطير، ومَظْلَمة حقيقيَّة، من دون أن يدخل إصلاحات عسكريَّة على نظامه، ولعلَّ أهميَّة هذا القانون في أنَّه كان بداية إصلاح الجيش بعدما أهملت الحكومة أمره[٤].

١١- الغنيمة

كانت الغنيمة والنهب والسلب عوامل أساسيَّة في اندفاع الجنود الرومان، لكن هناك

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.200.

[2]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.201.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٥.

[٤]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص١١٣.

تعليمات صارمة بأنَّها ملك للجيش لا ملك للجنديِّ الذي سينال منها حصَّته القانونية، لذلك كان يُمنع من النهب لمصلحته الخاصَّة، لضمان الانضباط والعدالة في توزيع الغنائم. وعندما تقع إحدى المدن في قبضة الجيش كان نصفه يقوم بجمع الغنائم، بينما يبقى النصف الآخر على أهبة الاستعداد، وكان الحفاظ على الغنيمة من مسؤوليَّات وواجبات الترابنة العسكريين.

لقد كان الرومان حسَّاسين تجاه الجانب المادِّي في جيشهم، فعندما يبدأ الزحف كان الجنود يقسمون أمام الترابنة العسكريين بألاَّ يسرقوا شيئاً، وإذا ما وجدوا أيَّ شيء ثمنه أغلى من ليرة فضيَّة واحدة sesterce كانوا يعطونه للترابنة، ما عدا رمح أو عمود رمح أو حطب أو فاكهة أو علف أو مصباح، وإذا كان ما عثروا عليه لأحد الجنود يتوجَّب عليهم أن يردُّوه لمالكه الأصليّ[١].

١٢- المكافأة والعقاب

كان الرومان يحتفلون في نهاية كلِّ معركة بما يُعرف بموكب النصر، وكان مجلس الشيوخ هو الذي يقرِّر منح الجنرال المنتصر هذا الشرف العظيم مكافأةً له ولجنوده عند عودتهم إلى روما منتصرين، وذلك تقديراً لجهودهم في أرض المعركة، وكانت الجوائز الأعظم تُمنح للجنود الذين أبدوا شجاعة فرديَّة. هذه المكافآت نمَّت روح العدوان في الجيش طمعاً بها[٢]، وأهمُّها أكاليل الزهور التي مُنِحت لأعظم أعمال الشجاعة، أمَّا المكافأة الأكثر رفعة فكانت إكليل الأعشاب graminea الذي كان يمنح للقائد المنتصر الذي أنقذ كامل الجيش من الخطر، ويمنح عادة من قبل الجنود أنفسهم، ويُصنع من الزهور البريَّة التي جمعت في ساحة المعركة. أما أكليل الحصار obsidionalis فكان يُمنح للقائد الرومانيِّ الذي تمكَّن من رفع الحصار عن قوَّاته وأنقذها. بينما كان التاج المدنيُّ civica -من الدرجة الثانية- يُمنح للجندي الذي أنقذ حياة زميله في ساحة المعركة، ويُصنع من أوراق البلوط، وكان على الجنديِّ الذي تمَّ إنقاذ حياته أن ينظر إلى الجنديِّ الذي أنقذه نظرة احترام تعادل احترامه لوالده الذي أنجبه. وقد مُنِح أوكتافيوس في نهاية العصر الجمهوريِّ هذا التاج، وسُمِح له

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.206.

[2]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.50.

بأن يعلِّقه على باب بيته كرمزٍ لإنقاذ حياة مواطنيه. أمَّا تاج الحائط muralis فكان يُمنح لأول من يعتلي تحصينات العدو، وكان القائد سيبو أميلينوس Scipio Aemilianu قد كُرِّم به نتيجة لاعتلائه تحصينات العدو أثناء القتال في إسبانيا. أمَّا تاج السور vallaris فكان يُمنح لأول من يخترق سور معسكر العدو. بينما كان تاج الـ navalis يمنح للجنود البحَّارة الشجعان ومنهم أول جنديٍّ يضع قدمه على متن سفينة الأعداء. أمَّا تاج الـ rostrata فكان يُمنح للأميرال البحريِّ الذي حطَّم أسطول العدوّ. وأخيراً، كان تاج الأورو aurea المصنوع من الذهب يُمنح لأفعال الشجاعة الأخرى. وصحيحٌ أنَّه كان يجري توزيع كميَّات من الغنائم على الجنود المنتصرين، إلاَّ أنَّ التاج وحده الذي يضفي -على المكرَّم به- احتراماً ومكانة وشهرة كبيرة، لا في الجيش الرومانيِّ فحسب بل في كلِّ أنحاء روما[١].

في المقابل، كانت هزيمة الجيش الرومانيِّ أمام السمنيين في معركة شعاب كوديوم Caudine الجبليَّة سنة ٣٢١ ق.م، من أكثر الهزائم المذلَّة في تاريخ المؤسَّسة العسكريَّة الرومانيَّة، وأُجبِر القنصلان على توقيع معاهدة بشروط قاسية، تعهَّدا فيها بعدم تجديد الحرب وتخلَّيا عن بعض مواقعهما الأماميَّة أهمها Fregellae التي استولى عليها الرومان في سنة ٣٢٨ ق.م وأراضٍ أخرى على ليريس، مع تسليم ٦٠٠ فارس كرهائن، على أن يمرَّ الجيش المستسلم في كوديوم تحت النير كرمز للمهانة والإذلال، لكن مجلس الشيوخ رفض التصديق على هذه المعاهدة[٢].

لقد كان مصير الوحدة العسكريَّة التي تمُنى بالهزيمة في أرض المعركة، أو تلوذ بالفرار في المواجهة، عقوبات قاسية من الممكن أن تصل إلى حدِّ القتل[٣]. أمَّا في حالات التمرُّد الفرديِّ عندما يهجر الجنود قائدهم، أو يهربون هروباً جماعيَّاً، كان من الواجب على الترابنة العسكريين أن يجمعوهم ثم يوبِّخوهم على فعلتهم هذه، وكانوا يعدمون عشرهم؛ أي بنسبة واحد من كلِّ عشرة بأيدي زملائهم[٤]، بينما يتعرَّض التسعة الآخرون لإذلال رمزيٍّ مهين،

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.194, 195.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧٨.

[3]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.50.

[4]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.205.

حيث يُطعَمون الشعير وهو غذاء الدواب بدلاً من الحنطة، بعد أن تُنصَب لهم خيم خارج أسوار روما، وكان عليهم أن يتناولوا طعامهم وهم وقوف، بدل أن يتناولوه وهم متكئون وفق الأسلوب والعادات الرومانيَّة.

لقد كانت الصرامة مطلوبة في الجيش الرومانيِّ، وغالباً ما كان الجنديُّ الذي ينام أثناء نوبة الحراسة يتمُّ إعدامه، كما كان يتمُّ إعدام الجنود الذين سرقوا من رفاقهم، ومن مارس الشذوذ الجنسيّ[١]. عموماً، كان الترابنة العسكريون مسؤولين عن الانضباط؛ وامتلكوا الحقَّ في فرض الغرامات، وحجز السلع، وعقاب منتهكي القانون بالجَلْد[٢].

١٣- أسطورة الطَّاعة في الجيش الرومانيّ

الأسطورة الأكثر شيوعاً عن الجيش الرومانيِّ أنَّه جيش منضبط، وليس أغلى منها على قلوب مادحي روما، سواء أكانوا يوناناً أم رومانا، فهؤلاء يعتبرون أنَّ ذلك الانضباط كان السبب الأساسيَّ في الإنجازات العسكريَّة الرومانيَّة، وأنَّ مهندسي البناء ومهندسي الماء الذين شيَّدوا المجاري المائيَّة والعبَّارات والجسور والسدود في أعقاب تقدُّم الجيوش الرومانيَّة، قدَّموا عملهم إتماماً لما قام به الجنود المنضبطون. وكان بوليبيوس من أكثر الإغريق أعجاباً بروما ودعاية لها. كما شارك في بناء هذه الأسطورة الهواة من كتابة التاريخ -وهم غير مختصِّين في التاريخ العسكريِّ- وقد علق في أذهانهم أنَّ جميع جيوش الأمم التي انتصرت هي جيوش متحضِّرة ومنضبطة ومطيعة بشكل جيد جداً، أما المختص في التاريخ العسكريِّ الرومانيِّ، والذي يبحث في الوثائق والمصادر الكلاسيكيَّة، فسيجد أنَّه حتى في عصر هتلر تمَّ الترويج للجيش الرومانيِّ على أنَّه مثال للطَّاعة حتى يصبح قدوة للجيش النازي، وهكذا ترسخت فكرة أنَّه جيش منضبط. كما ساهم الشعراء وكتَّاب الروايات الإغريقيَّة في هذه الأسطورة، لكنَّ ما كان يحدث هو النقيض تماماً حيث كان التمرُّد هو الصفة السائدة في هذا الجيش، ولم ينحصر في فترة تاريخيَّة معيَّنة[٣].

---

[1]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.50.

[2]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.204.

[3]- Messer, W. S., Mutiny in the roman army The Republic., Classical Philology XV, April, 1920, pp.160- 162

بدأ التمرُّد في الجيش الرومانيِّ عندما كان كلُّه مكوَّناً من المواطنين الرومان، وقاتل في تشكيلات مشابهة للكتائب الثقيلة phalanx في السنة ٤٩٥ ق.م. فبينما كان الـفـولسكيون يسيرون لمحاصرة روما تمرَّد الجنود الذين كانوا تحت قيادة القنصلين بوبليوس سيرفيليوس Publius Servilius وأبيوس كلاوديوس Appius Claudius، وأخيراً تمَّ تشكيل جيش من المتطوِّعين للقتال ضدَّ العدوِّ، ولم يتمكَّن قنصلا السنة التالية من جمع المواطنين للقتال ضدَّ الأعداء المُحدِقين بروما فما كان من مجلس الشيوخ إلاَّ أن كلَّف ديكتاتوراً للتصدِّي لخطر ثلاثة جيوش تحيط بروما وهم: الـفـولسكيون Volscian والسابينيون Sabine وأيكويان Aequian. وقد تمَّ تعيين مانيوس فالريوس Manius Valerius فتمكَّن بشعبيَّته من جمع قوَّة كبيرة، وأوقع هزيمة نكراء بالسابينيين، ولكن بعد النصر مباشرة تمرَّد الجنود، واتَّهموا قائدهم بأنَّه ينوي إطالة الحرب. فمكا كان من الديكتاتور إلاَّ أن قدَّم استقالته وعاد الرومان إلى نظام القنصلين، ليصبح هذان القنصلان القائدين القانونيَّين للدولة والجيش. من جهته، قام مجلس الشيوخ بشنِّ حملة عسكريَّة ضدَّ خطر الـفـولسكيين وأيكويان المحدق بروما، تحت قيادة القنصلين اللذين ارتبط معهما المواطنون الرومان (أي الجنود) بقسم الولاء، وكان الجنود في البداية يأملون قتل قادتهم حتى يصبحوا في حلٍّ من قسمهم، إلاَّ أن ذلك الأمر لم يتحقَّق لهم[١].

عبر الجنود نهر التيبر Tiber إلى جبل مجاور يسمَّى الجانيكولوم Janiculum (الجبل المقدَّس)، على بعد ثلاثة أميال من مدينة روما، ضمن منطقة يرتادها التجَّار الإغريق (ذوي الأفكار الديمقراطيَّة)، واعتصموا به رافضين العودة، وأعلنوا أنهم انشقُّوا عن روما ولن يعملوا أو يحاربوا من أجلها ما لم يُستجب لمطالبهم[٢]، في ما صار يعرف بحادثة الجبل المقدَّس the Sacred Mount سنة ٤٩٤ ق.م. كانت حادثة الانشقاق هذه بقيادة الضابط سيسينوس Sicinius، وهناك بنوا معسكراً محاطاً بسور وخندق، وقد استعد العمال للَّحاق بالمنشقِّين، حيث كان هذا التمرُّد قد تمَّ على خلفيَّة طبقيَّة[٣]. وكان يعني هذا فراغ روما من

[1]- Messer, W. S., Op. Cit., 1920, p.164.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٩، ٦٠.

[3]- Messer, W. S., Op. Cit., 1920, p.164.

اليد العاملة والقوة العسكريَّة، في الوقت الذي كانت فيه بحاجة متزايدة إلى المال والجنود نتيجة سياساتها القائمة على التوسُّع الخارجي، وتهديدات جيرانها اللاَّتين لها بالاحتلال.

لجأ مجلس الشيوخ إلى جميع الحيل السياسيَّة أو الدينيَّة لإغراء العامَّة بالرجوع إلى روما، فلمَّا أصرَّ العوام على مطالبهم رأى النبلاء أن من الحكمة إعطاءهم بعضاً من حقوقهم[١].

لم يقتصر التمرُّد على الجنود بل شمل الضبَّاط أيضاً، فمن أهمِّهم كايوس ماركوس Caius Marcus الذي قاد عمليَّة تمرُّد سنة ٤٨٨ ق.م أثناء حرب روما مع الـڤـولسكي، وهو ما يُعرف عند المؤرِّخين بقصَّة كوريولانوس Coriolanus. هذا الضابط المقدام ذو الأصول النبيلة لعب دوراً كبيراً في احتلال مدينة كوريولي Corioli عاصمة الـڤـولسكيين، وما توردہ الروايات أنَّه بينما كان يقاتل مع روما ضدَّ أعدائها، وأثناء محاولة السيطرة على عاصمتهم، أراد أن ينال من حقوق محامي الشعب (نقباء العوام)، فاتَّخذ هؤلاء قراراً بنفيه، بعدما رفض المثول أمامهم لاستجوابه حول سلوكه، فما كان منه إلاَّ أن لجأ إلى الـڤـولسكيين وترأَّس جيشهم، وزحف به إلى روما، وعسكر على بعد خمسة أميال منها وهدَّد أسوارها. حاول مجلس الشيوخ بشتَّى الطُّرق ثنْيَ كايوس عما أقدم عليه لكن عبثاً، حيث فشلت جميع الوساطات بسبب تعنُّته وقسوة الشروط التي طالب بها لعقد الصلح، ومنها أن تنسحب روما من جميع المدن التي احتلتها من الـڤـولسكيين في الحرب الأخيرة. عندها اقترح أحدهم التوسُّل إلى والدته للذهاب إليه، وبالفعل فقد لبَّت هذه السيدة النبيلة الطَّلب، واصطحبت معها زوجته وأطفاله وزمرة من سيدات النُّبلاء، وما إن شاهد كايوس الوفد حتى قفز من فوق مقعده وهم بتقبيل أمه، التي أبعدته والدموع تنهمر من عينيها، وأخذت في تأنيبه على تهديد وطنه، بينما تعلَّقت زوجته وأطفاله بقدميه. وفي الواقع، كانت الأم بتدخُّلها هذا قد حكمت على ابنها بالنفي والإعدام؛ فما إن امتثل لقرارها وأبعد الجيش عن روما حتى دبَّر غريمه القائد الـڤـولسكي حادثة مصرعه، ولاسيَّما أنه كان يحسده ويحقد عليه[٢].

من المهمِّ القول أنَّ السنوات المحصورة بين تاريخَيْ ٤٨٢ و ٤٨٠ ق.م كانت مؤهَّلة لتمرُّد الجنود الرومان في حال تعرُّض البلاد لخطر غزو أجنبيٍّ، حتى في ساحة المعركة

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٠.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٦١، ٢٦٢.

ذاتها، ولم يكن بوسع الجنرالات المشرفين على الجيش عقابهم. ولا ريب في أنَّ القصَّة التي يقدِّمها ليفي عن حادثة عقاب روما لجنودها المتمرِّدين على سيادتها سنة ٤٧١ ق.م هي التي طبعت في الأذهان أنَّه لم تكن تتساهل مع في هذا الأمر، إنَّما تضرب عمليَّات التمرُّد بيد من حديد، حيث لم يكن القائد أبيوس كلاوديوس سابينوس Appius Claudius Sabinus الذي قاد الجيوش الرومانيَّة لمواجهة قوَّات الـڤـولسكيين التي خربت أرض روما، يتمكَّن من أن يكبح تمرُّد الجنود وعصيانهم من لحظة مغادرتهم المدينة. عموماً، كان النبلاء يسعون لإبقاء البلاد في حالة تعبئة عسكريَّة دائمة حتى يظلَّ العوامُّ منقادين لهم أو تحت سيطرتهم[١].

لقد كان أبيوس يرغب في اعتماد الشدَّة ضدَّ الذين تمرَّدوا على قراره العسكريِّ، لكنَّ نوَّابه ونقباء العوامِّ الذين أنيط بهم أمر الدفاع عن مصالحهم بعد اتفاقيَّة الجبل المقدَّس، رفضوا ذلك الأمر ونصحوه بضرورة إعلان الانسحاب، وهذا ما وجده الـڤـولسكيون فرصة سانحة لمهاجمة الجيش الرومانيِّ ودحره، فما كان أبيوس إلاَّ أن جمع من بقي على قيد الحياة من الجنود، ووصمهم بأنَّهم خوَنة وغير متقيِّدين بالانضباط العسكريِّ، وأمر بجَلْد الذين فقدوا سلاحهم، والذين هجروا قادتهم[٢]. كما أنَّ تمرُّداً مهمَّاً حصل في الحرب السمنيَّة الأولى سنة ٣٤٢ ق.م. فبعدما استبسل الجنود الرومان أثناء القتال ضد السمنيين، كان عليهم أن يقضوا فصل الشتاء في كمانيا، حتى يتجنَّبوا أيَّ هجوم عليهم، وخلال تلك الفترة اندلع تمرُّد بين الجنود الذين تموضعوا حول مدينة كابو Capua. في الواقع، ما كان من قنصل السنة التالية ماركيوس روتيليوس C. Marcius Rutilus يرغب في قمع تمرُّدهم مباشرة، بعدما وردت إليه معلومات عن خططهم، وتعرَّف على هوية رؤسائهم، فلجأ إلى الحيلة للتخلُّص منهم وإخماد التمرُّد، حيث سرَّح بعض الأفراد والمجموعات، وشتَّت شملهم، فتجمع الجنود المسرَّحون وشكَّلوا ما يشبه الجيش، ودمَّروا أرض ألبا Alban، وأجبروا تيتوس كوينسيتوس Titus Quinctius الأعرج الذي كان متقاعداً يعيش خارج المدينة، على أن يقودهم إلى روما التي سارعت إلى تعيين دكتاتور لمواجهتهم هو فالبريوس كورفوس M. Valerius Corvus.

[1]- Messer, W. S., Op. Cit., 1920, p.164.

[2]- Messer, W. S., Op. Cit., 1920, p.165.

وعندما تناهى إلى مسامعهم ذلك الأمر، خشي المتمرِّدون على أرواحهم، وادَّعوا أن المودَّة تجمعهم بهذا الديكتاتور الكبير السنِّ ما منع من وقوع القتال بينهم، فتوصل الطرفان إلى اتفاق مكَّن الثوَّار من الإفلات من العقاب[١].

بيد أنَّ التمرُّد المهمَّ الذي حدث أثناء الحرب السمنيَّة الثانية؛ كان عندما استعدَّ بابيريوس Papirius الديكتاتور المكلف بمواجهة العدو لملاقاته، فما كان من قائد خيَّالته المدعو فابيوس Fabius إلاَّ أن وجَّه طلباً سريعاً إلى قائده العام بضرورة الصدام، وقبل أن يتلقَّى الجواب هاجم السمنيين وتمكن من هزيمتهم هزيمة ساحقة Inbrinium وقتل ٢٠ ألف جنديٍّ منهم، وحتى يكمل تمرُّده زفَّ أخبار النصر إلى مجلس الشيوخ مباشرة من دون أن يعلم بها قائده العامَّ، وعندما طلبه بابيريوس ليحاسبه على تصرُّفاته وتجاوزاته بعدمت عاد إلى التخييم، راح يناشد الجنود أن يتمرَّدوا لحمايته، وفي حالة الفوضى التي أصابت الجيش هرب إلى روما، وفي المحاكمة شهد والده بأن لابنه العديد من السوابق في مساندة أعمال الشغب.

لقد توقَّع بابيريوس أن يحدث نوع من الخلل في الانضباط العسكريِّ إذا ما أفلت فابيوس من العقاب، لكن أنصار الأخير تخلَّوا عن كلِّ إجراء قانونيٍّ، وتقدَّموا بالتماس للعفو عنه، وبالفعل عفا عنه الديكتاتور[٢].

وأمَّا التمرُّد الأكثر تميُّزاً فهو تمرُّد الجنود الرومان في ريجيوم. فعندما هاجم بيروس جنوب إيطاليا طلبت مجموعة من المدن الإغريقيَّة حاميات من روما، فأرسلت إليهم حامية مؤلَّفة من أربعة آلاف جندي تحت قيادة الكمباني Decius Vibellius، فانبهر أعضاء الفيلق الرومانيِّ بموقع مدينة ريجيوم وسحرها وثروتها، وما كان منهم إلى أن استولوا عليها، وتسنى لروما أن تحوِّل انتباهها إلى الحامية المتمرِّدة، فأرسلت قوَّة حاصرت بها المدينة، وقاتلتهم وقتلت منهم الكثير، وأسرت ٣٠٠ جندي اقتيدوا إلى روما، وكانوا أقلَّ حظَّاً من الجنود الذين قضوا في أرض القتال، حيث جلبهم القنصلان إلى وسط المدينة وجلداهم وقطعا رؤوسهم[٣].

---

[1]- Messer, W. S., Op. Cit., 1920, p.166.

[2]- Messer, W. S., Op. Cit., 1920, p.167.

[3]- Messer, W. S., Op. Cit., 1920, p.168.

لكن التمرُّد الأعظم الذي حصل في الحرب البونيَّة الثانية، كان في إسبانيا سنة ٢٠٦ ق.م. في ولم يقتصر التمرُّد في الجيش الرومانيِّ على القوَّات الفاشلة أو القادة المكروهين، إنَّما امتدَّ حتى شمل الجيوش المنتصرة للقائد سيبو الصغير (الأفريقي). فبعدما أحرز نجاحات باهرة في إسبانيا، وتمكَّن من إخراج القوَّات القرطاجيَّة العاملة فيها إلى جزر الباليار Iles Baleares، استغلَّ جنوده حادثة مرضه، وبحجَّة التأخُّر في دفع الرواتب ثار نحو ثمانية آلاف جنديٍّ، واحتار هو في ما يفعل إزاء تمرُّد جنوده، رغم أنَّه كان ذا أسلوب في الشؤون العامَّة، وعندما رفض الضبَّاط الانضمام إلى الجنود المتمرِّدين، هبَّ هؤلاء ضدَّهم وأخرجوهم من المعسكر، وانتخبوا اثنين من الجنود كزعيمين لهم. بيد أنَّ سيبو لجأ إلى الحيلة والخديعة من أجل القضاء على تمرُّد جنوده ، وما أن تمكَّن منهم حتى وبَّخهم بشدَّة، ونال زعماؤهم الذين بلغ عددهم ٣٥ رجلاً عقوبة قاسية حيث جُلِدوا أمام مرأى الجميع ثم قُطِعت رؤوسهم[١].

١٤ - القوَّة البحريَّة الرومانيَّة

منذ أن دخلت روما في مواجهة عسكريَّة مع قرطاجة في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد سنة ٢٦٤ ق.م أمست بحاجة إلى أسطول حربيٍّ، أوَّلاً من أجل أن تدافع عن سواحلها، وثانياً من أجل أن تكمل مشروعها في احتلال صقلية التي كانت أرضاً قرطاجيَّة. وبما أنَّ الحاجة أمُّ الاختراع، يذكر المؤرِّخ تيتوس ليفيوس في هذا السياق: أنَّ الرومان قد شيَّدوا بأنفسهم سفن أسطولهم الخماسيَّة المجاديف، على نموذج إحدى السفن القرطاجيَّة التي كانت قد جنحت إلى الشواطئ الرومانيَّة، ثمَّ قاموا بتدريب طواقمها على استخدام المجاديف، وكلُّ ذلك تم خلال ستين يوماً، بعدها أسندت قيادة الأسطول إلى القنصل دويليوس Duillius. ولا شكَّ في أنَّ هذه الرواية طريفة، ولا يمكن تصديقها، فروما حديثة العهد بالبحر ولا خبرة لها في ركوبه، وقوَّتها العسكريَّة ذات طابع بريٍّ أصلاً، فأقدم مؤسَّسة تمَّ تأسيسها في روما للإشراف على الشؤون البحريَّة كانت في سنة ٣١١ ق.م، وهو زمن قصير لا يمكن لها أن تجاري به عظمة قرطاجة البحريَّة، فلا بدَّ من تجربة ومعرفة سابقة يمكن أن تتطوَّر تحت ظروف الحرب لتكوِّن أسطولاً يلعب دوراً مهمَّاً إلى جانب الجيش البريِّ.

[1]- Messer, W. S., Op. Cit., 1920, p.169.

في الواقع، إنَّ الأجزاء الجنوبيَّة من شبه الجزيرة الإيطاليَّة، أو ما يسمَّى بلاد اليونان العظمى، كانت ذات خبرة في صناعة السفن وركوب البحار، وكان يكفي الاعتماد على سفنها لتشكيل نواة الأسطول الأول، وعلى خبرة أولادها الذين عملوا فيه[١]، بعدما سيطر الرومان على جميع هذه المدن. عموماً، بلغ عدد سفن هذا الأسطول الخماسية المجاديف حوالي المئة، بالإضافة إلى عشرين سفينة ثلاثيَّة المجاديف[٢].

واعتمد الرومان في قتالهم البحريِّ على تكتيك جديد. فحتى يحوِّلوا المعركة البحريَّة إلى شبه بريَّة اخترعوا سفينة تسمَّى الغراب Corvus، يبلغ طولها حوالي ١٠ أمتار، وعرضها حوالي المتر الواحد، وهي مؤمَّنة من الجانبين بواسطة حوافٍ، وتوجد في نهايتها دعامة قائمة مغطَّاة بالمعدن، فبدا ذلك كمنقار طائر منحنٍ، ومن هنا جاءت تسميتها الرومانيَّة «الغراب». وقد كانت أيضاً مزوَّدة بنوع من الجسور توضع فوق مقدِّمة السفينة وعلى جانبيها، ترتفع عالياً خلال الرحلة. فإذا اقتربت سفينة معادية يُنزل هذا الجسر بسرعة، فتنغرس المسامير بظهر سفينة الخصم، وبعدها يعبر الجنود إلى ظهر سفينة أعدائهم (كانت كلُّ سفينة رومانيَّة تحمل ثمانين جنديَّاً)، ويشتبك الجنود مع طاقم السفينة غير المستعدِّ لهذا الموقف، وبهذا الشكل تتحوَّل المعركة من بحريَّة إلى شبه بريَّة[٣].

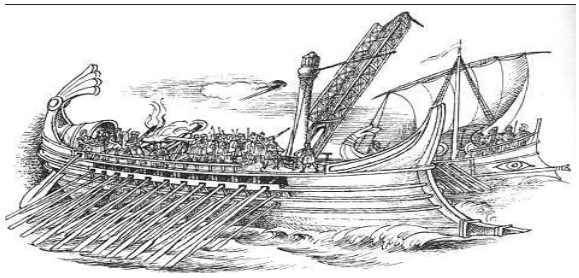

سفينة رومانيَّة ثلاثيَّة المجاذيف من طراز الغراب

وما يؤخذ على البحريَّة الرومانيَّة هو كثرة حركات التمرُّد التي كانت تقع فيها، ومنها عدم

[١]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت، د.ت، ص٤١.

[٢]- عادل عمران زايد، الوجود القرطاجيُّ في الحوض الغربيِّ للبحر الأبيض المتوسِّط، من القرن الخامس حتى منتصف القرن الثاني ق.م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق ٢٠١٢م، ص١٩٧

[٣]- فينفريد إلليغر، قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ط١، دمشق ٢٠٠٨م، ص١٢٧

انصياع جنودها لأوامر القتال، ويُذكر في هذا السياق أنَّه خلال الحرب البونيَّة الأولى أبحر الأسطول الرومانيُّ بقيادة القنصل كورنيليوس سيبيو Cornelius Scipio إلى جزيرة صقلية، وعسكَر في جزيرة ليباري Lipara استعداداً لقتال الجيش القرطاجيِّ، فتمَّ تطويق الجزيرة في الليل من قبل الأسطول القرطاجيِّ، وعندما طلع الصباح رفض أفراد طواقم السفن الرومانيَّة القتال، ونزلوا إلى الشاطئ وتواروا داخل الجزيرة، فكانت النتيجة أن تعرَّض القنصل وسفنه السبع عشرة للأسر[١].

١٥- إصلاحات ماريوس العسكريَّة

إن ضعف النظام العسكريِّ الرومانيِّ كان قائماً على مبدأ تسريح الجيوش بعد كلِّ حملة، وإعادة تعبئتها من جديد مرَّة أخرى، وبالتالي لن يخدم الجنود ذاتهم مرَّة ثانية، وعند القائد ذاته، لكن بدأ يظهر في القرن الثاني قبل الميلاد صنف من الضبَّاط الصغار شبه المحترفين وبعض القادة الرومان الذين نظروا إلى الجيش كحرفة، ومن غير الواضح كم هي أعداد هؤلاء الضبَّاط، كما أنَّنا لا نمتلك أيَّ إشارة إذا كان هؤلاء الضبَّاط قد ظهروا في القرن الثالث قبل الميلاد[٢]، ومهما يكن من أمر، فلا شكَّ في أنَّ هذا التطوُّر هو الذي مهَّد لظهور ماريوس، فكيف تمَّ له ذلك؟

بعدما استطاع ماريوس الانتصار على يوغارتا في شمال أفريقيا، تعرَّضت روما لخطر داهم من قبل قبائل الكمبرى Cimbres والتيوتون Teutones، وكانوا أخيراً قد تمكَّنوا من دخول الأراضي الإيطاليَّة، واستطاعوا أن يتغلَّبوا على الجيوش الرومانيَّة الواحد تلو الآخر، ويقضُّوا مضاجع الرومان. ويذكر أنَّه نظراً لتفوُّق ماريوس العسكريِّ وتعرُّض روما لمخاطر أجنبيَّة، ولعدم تطرُّفه السياسيِّ، وتذبذبه بين طبقتَيْ النبلاء والعوامِّ، قبل مجلس الشيوخ الرومانيُّ إعادة ترشيحه لمنصب القنصليَّة خمس سنوات متَّصلة ١٠٤ - ١٠٠ ق.م. ولم يحدث أن تولَّى شخص القنصليَّة مرَّتين متتاليتين مهما كانت مواهبه، وبالتالي عُدَّ ذلك مخالفة دستوريَّة عظيمة[٣].

[1]- Messer, W. S., Op. Cit., 1920, p.168.

[2]- Goldsworthy. A., Op. Cit., 2000, p.52.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٣.

مهما يكن من أمر، فقد أتاح هذا الأمر لماريوس الفرصة لإعادة تنظيم الجيش وتغيير طريقة تسليحه وتدريبه وأسلوب قتاله ونظامه التأديبيِّ تغييراً جوهريَّاً، فاستطاع أن يوجد لأول مرَّة جيشاً نظاميَّاً تقوم الدولة بتسليحه، فبعدما ألغى نظام التجنيد القديم القائم على مبدأ أن يسلِّح كلُّ جنديٍّ نفسه حسب الثروة التي يمتلكها، تساوى الجنود وتسلَّحوا كلُّهم بالسلاح نفسه وهو السيف والرمح الرومانيُّ Pilum [١]. وأصبحت الفرقة Legio تتألَّف من ٤٨٠ رجلاً؛ كلُّ ثمانين رجلاً كان يرأسهم ضابط، وكلُّ مجموعة مقسَّمة إلى عشر كتائب، والكتيبة Cohors هي وحدة القتال الرئيسيَّة، ومكوَّنة من ثمانية رجال ينامون في الخيمة ذاتها ويأكلون معاً ويتدرَّبون معاً[٢]. وهكذا حلَّت الكتائب محلَّ الوحدات الخاصَّة Manipulus، وجعل لكلِّ فرقة علمها أو شعارها في شكل نسر مزخرف بأكاليل من الذَّهب والفضَّة. ولم يحدث تغيرٌّ في القيادات إلى أن جاء يوليوس قيصر الذي قلَّل من أهميَّة تراتبيَّة الجنود، وأسند قيادة الفرقة إلى قائد يحمل لقب Ligionis/ Legatus [٣].

الأهمُّ من ذلك أنَّ ماريوس غيَّر نظام التجنيد، حتى يتمكَّن من تعبئة القوَّات اللاَّزمة، وكانت الحكومة الرومانيَّة تجد صعوبات في تجنيد العدد الكافي من الجنود بمقتضى النِّظام القديم، فوفْق الأنظمة القديمة كانت الغالبيَّة العظمى من العوامِّ معفيين من أداء الخدمة العسكريَّة في الحالات العاديَّة؛ لأنَّهم لا يمتلكون ما يخوِّلهم الانخراط في صفوف القوَّات المسلَّحة، وإن كانوا يشتركون في القتال في الحالات والظروف الطارئة التي تعصف بالبلاد. وبعدما أمست الجمهوريَّة دولة مترامية الأطراف على مساحات شاسعة، انتشر الجنود الرومان على امتدادها، واستسلم بعضهم لحياة الترف والنعيم وهم من أبناء طبقة النبلاء، فتلكَّأوا في تلبية نداء الوطن[٤]. وأمام هذا الواقع المتردِّي تجلىَّ خبث ماريوس بصفته جنرالاً يسعى إلى طموحاته الشخصيَّة، عندما سمح للعبيد والمفلسين بدخول الجيش بعدما ألغى مؤهَّل الملكيَّة بالكامل بهدف تأسيس جيش من المتطوِّعين، وهكذا صار بوسع أيِّ تافه

[١] - عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني عصر الثَّورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربيَّة، بيروت ١٩٨٨م، ص٥٤.

[2]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.199.

[٣]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٥٥.

[٤]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٤.

أو سيِّىء أو مفلس أن ينتسب إلى صفوف الجيش، ويجد له عملاً دائماً فيه[١]، فتحوَّلت الخدمة الإلزاميَّة من التزام نحو الدولة إلى شبه حرفة تعتاش منها أعداد غفيرة من المواطنين المعدمين أو العاطلين عن العمل، ولم يعد المجنَّدون على هذا الأساس يتوقون في ما يبدو إلى تسريحهم بعد انتهاء الحملات، بل أصبحوا يفضِّلون البقاء في الخدمة العسكريَّة سنوات عديدة تحت أمرة قائدهم المظفر[٢].

أمَّا النتيجة الخطيرة الثانية فتمثَّلت في أنَّ الجنود كانوا يقضون سنوات طوالاً خارج حدود إيطاليا ما أسهم في تمتين العلاقة بين القائد وجنوده، إذ كان الجنود يعتمدون على قائدهم في الحصول على مكافآت سخيَّة من أرض ومال بعد انتهاء الحرب، وهكذا ارتبطت مصالح الجنود بشخصيَّة القائد، وهذه ظاهرة جديدة سوف تظهر خطورتها حين يتَّخذ القادة العسكريون أمثال بومبي وقيصر جيوشاً خاصَّة بهم، فالجيوش لم تعد جيوش الوطن، بل جيوش الأحزاب المتناحرة، ولم يعد الجنديُّ يقسم ولاء اليمين للدولة بل صار يقسم يمين الولاء للقائد[٣]، ولم يعد لديه سوى فكرة غامضة عن الدولة التي كان من المفترض أنَّه خادمها، ومنذ ذلك الحين ظلَّت الجيوش الرومانيَّة تتألَّف من أتباع لماريوس وسلا وبومبي وقيصر، ما جعلها مصدراً من مصادر القلق والخطر المستمرِّ على الدولة[٤].

لقد حاول كلٌّ من بلوتارخ وسالوست تصوير عمل ماريوس، في معرض الدِّفاع عنه، على أنَّه لم يكن استثنائيَّاً، وأنَّ روما قبلت المتطوِّعين من الفقراء في صفوف جيشها من أجل الدفاع عن نفسها. والواقع أنَّ دفاعهما كان دفاع المتحيِّز، أمَّا التجاوز الذي قام به ماريوس فتمثَّل بقبوله للجنود في صفوف جيشه من دون موافقة مجلس الشيوخ، ويُعدُّ هذا الأمر مخالفة دستوريَّة عظيمة، ويدخل في إطار اغتصاب سلطات المجلس. ورغم أنَّ سالوست يشير إلى أنَّ ماريوس قد امتلك تلك الرخصة من المجلس ليقبل عدداً من المتطوِّعين في صفوف جيشه، إلاَّ أنَّ تلك الرُّخصة كانت مصاغة بعبارات غامضة استغلَّها ماريوس بما

[1]- Hannah Szapary., Playing Offense: A Deeper Look into the Motivations and Significance of Sulla's March on Rome., Brown University., Classics and Applied Math – Biology., Class of 2019, p.2.

[٢]- عبد اللَّطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٥٥.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٤.

[٤]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٥٦.

يناسب طموحاته، لا بل إنَّه فتح باب التطوُّع أمام العناصر الشعبيَّة سواء كانت الظروف طبيعيَّة أم استثنائيَّة، ولم يفتح لهم من قبل على مصراعيه[١]، والأدهى من ذلك أنَّه منح الأراضي التي استولى عليها إلى محاربوه، حيث تمَّ إصدار قانون سنة ١٠٣ ق.م بمساعدة صديقيه سارتونينوس سارتونينوس وجلوسيا Glaucia بمنح مائة يوجرا (٦٦ هكتاراً) لكلِّ جنديٍّ من جنوده في إفريقيا[٢].

يقول أولوس غاليوس Aulus Gellius الذي أرَّخ لهذه الأحداث بعد مضيِّ ٢٥٠ سنة على وقوعها؛ إنَّ المواطنين النبلاء لم يكونوا جميعهم مؤهَّلين للخدمة في القوَّات العسكريَّة، وإنَّ الهدف من تطويع أفراد طبقة البروليتاريا proletarii في صفوف جيشه هو تقوية هذا الجيش. ومن وجهة نظره أنَّ هؤلاء المتطوِّعين سيكونون جنوداً أفضل، ودائماً تحت السلاح.

إلى ذلك، قام ماريوس بتوحيد شعار الجيش فجعله النسر، وجعل لكل فرقة وكتيبة علمها الخاصَّ بها، ووحَّد تسليحه فصار كلُّ جنديٍّ يحمل سيفاً ورمحاً رومانيَّاً pilum. لكن ميشيل تايلور Taylor Michael يردُّ عليه بأنَّ غاليوس لم يكن دقيقاً عندما تحدَّث عن العناصر البشريَّة التي سُمِح لها بالانتساب إلى الجيش، حيث خلط بين البروليتاريا من جهة، والعبيد والمعدمين من جهة ثانية، فكان يتمُّ الاعتماد على البروليتاريا أيَّام الحروب البونيَّة، وكلٌّ منهم لم ينقص دخله الشهريُّ عن ١٥٠٠ asses وهذا صحيح، أمَّا الدهماء الذين سمح لهم ماريوس بالانتساب إلى الجيش فلم يزد دخلهم عن ٣٧٥ asses. وبالتالي، فإنَّ مبرِّرات غاليوس كانت مبنيَّة على خطأ في فهم الإجراءات التي قام بها ماريوس[٣]، وهذا ما أكَّده بلوتارخ قائلاً إنَّه سجَّل عبيداً وأناساً معدمين في صفوف الجيش[٤]. عموماً، إنَّ تبريرات غاليوس ليست مقنعة لتصرُّفات ماريوس، وربمَّا أنها أتت بنتائج أوليَّة جيِّدة إلاَّ أنَّها كانت أول مسمار يُدقُّ في نعش النِّظام الجمهوريِّ الرومانيِّ[٥].

[1]- Toohey, K. D., On the Rise of Gaius Marius., ResearchGate 24 March 2016., p.6.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٣٣.

[3]- Toohey, K. D., Op. Cit., 2016., p.6.

[٤]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٢٢.

[5]- Toohey, K. D., Op. Cit., 2016., p.4.

ولا ريب في أنَّ جيش ماريوس الذي كان الضبَّاط والجنود يخدمون فيه فترات طويلة؛ قد خلق لروما مشكلة ثانية، وعرَّضها بطريقة غير مباشرة لخطر جسيم آخر. هذه المشكلة تتمثَّل في الجنود المسرَّحين وموقف الحكومة منهم، وما ينبغي أن يرصد لهم عند عودتهم إلى الوطن بعد سنوات من الخدمة من جهات نائية، فكثير منهم، وربما معظمهم، لم يكن لديهم بيوت يأوون إليها، وكان من البديهيِّ أن يطالبوا بمستعمرات يقيمون بها بصفة دائمة، لكنَّ مجلس الشيوخ لم يحرِّك ساكناً، ولم يكن في مقدور القائد من دون تعاون المجلس أن يفعل شيئاً حيال هذه المشكلة، وترتَّب على ذلك نزوح كثير منهم إلى العاصمة المكتظَّة بالسكَّان سعياً وراء الرِّزق بشتَّى السبل معتمِدين على القمح الذي كانت توزِّعه السلطات بسعر زهيد على هؤلاء السكَّان، وكان بينهم الجنود نفرٌ من غير المواطنين لا يُسمح لهم القانون بالتصويت في الانتخابات أو الاقتراع على المشروعات في الجمعيَّة التشريعيَّة ولا يكفل لأشخاصهم أو ممتلكاتهم الحماية الكافية، وذلك رغم خدمتهم الطويلة في الجيش. وقد بدأ هؤلاء الناس يقحمون أنفسهم كناخبين، ويزاولون حقوق الجنسيَّة بالباطل، ولم يكن ثمَّة سبيل إلى اكتشاف أمرهم نظراً إلى ما كان يسود السجلاَّت من فوضى واضطراب. وأخيراً اتَّضح بجلاء أنَّ مجموعة المواطنين أصبحت تضمُّ عناصر غريبة، فأصدر القنصلان اللَّذان تولَّيا في سنة ٩٥ ق.م قانوناً للتمييز والفصل بين المواطنين وغير المواطنين، وطرد الإيطاليين المستوطنين بروما من العاصمة، وإعادتهم إلى مواطنهم الأصليّة[١].

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٦١.

الخاتمة

نخلص من هذا البحث إلى جملة من الحقائق المهمَّة، هي:

أولاً: أنَّ الدولة الرومانيَّة دولة حرب وعدوان استخدمت الجيش لنهب خيرات وثروات العالم القديم. **ثانياً:** لم يكن الجيش الرومانيُّ هو الجيش الذي لا يقهر كما يُشاع عنه في بعض كتب التاريخ، بل هو كسائر الجيوش القديمة مرَّ بساعات ولحظات عسيرة كادت تودي به، وإن كان قد استفاد منها في تلافي الخلل واقتباس ما عند أعدائه من تقنيَّات قتال جديدة.

ثالثاً: كان جيشاً انتهازيَّاً استثمر موارد وطاقات إيطاليا البشريَّة والاقتصاديَّة في سبيل الاستمرار في حروبه العدوانيَّة، هذا ناهيك باستغلال طاقات مدنها وخبرتها البحريَّة في بناء أسطوله.

رابعاً: كان الأداة المثلى بيد نبلاء روما وبرجوازيَّتها في سبيل زيادة ثرواتهم على حساب الطبقة الوسطى. فجنود روما الذين كانوا يندفعون إلى ساحات الوغى من دون تفكير سوى بتحقيق مجدها، لم يكن لديهم شبر تراب واحد فيها أو حتى في إيطاليا ليدفنوا فيه.

خامساً: كانت إصلاحات ماريوس العسكريَّة، ومنها سماحه لحثالة المجتمع بالانتساب إلى صفوف الجيش، كارثة على المجتمع والشعب الرومانيِّ، لكنها لم تكن السبب الوحيد، فقد أسهم النبلاء ممثَّلين بمجلس الشيوخ بقسط وافر في هذه المأساة، ولاسيَّما بعدما تغلغلوا في الفساد، وأخذوا الرشوة من أعداء روما، لذا لم يجد ضيراً من إنهاء فصول هذه المسرحيَّة لمصلحته الشخصيَّة، إلاَّ أنَّ الجنود الذين قاتلوا في صفوفه وهو شاب عادوا وانقلبوا عليه عندما هَرِم، وهم ذاتهم الذين سيقاتلون في كلِّ زمان ومكان من تاريخ الأمبراطوريَّة الرومانيَّة لمن يدفع لهم.

سادساً: بما أنَّ المقدِّمات الصحيحة تفضي إلى نتائج صحيحة، كان من المنطقيِّ أن يسهم تدهور حال المُثُل والقِيَم العليا والأخلاق في الجيش، بتحويله في السنوات الأخيرة من تاريخ الجمهوريَّة الرومانسَّة إلى المعول الذي قوَّض أركانها، وأسهم في نهايتها نهاية بشعة.

لائحة المصادر والمراجع

١. إبراهيم أيوب، التاريخ الرومانيُّ، ط١، الشركة العالميَّة للكتاب، لبنان ١٩٩٦م.

٢. إبراهيم نصحي، التاريخ الرومانيُّ، ج١، منشورات الجامعة اللِّيبيَّة كلِّيَّة الآداب، طرابلس ١٩٧٣م.

٣. بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج٣، ترجمة جرجس فتح الله، الدَّار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م.

٤. رجب سلامة عمران، الفكر العسكريُّ الرومانيُّ بين الدفاع والهجوم والتوسُّع والاستعمار حتى نهاية العصر الجمهوريِّ، مطبعة دار الرَّوضة، القاهرة ٢٠١٠م.

٥. عادل عمران زايد، الوجود القرطاجيُّ في الحوض الغربيِّ للبحر الأبيض المتوسِّط، من القرن الخامس حتى منتصف القرن الثاني ق.م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق ٢٠١٢م.

٦. عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، ط١، دار مرايا للطباعة والنشر، دبي ٢٠٢٠م.

٧. عبد اللَّطيف علي أحمد، التاريخ الرومانيُّ عصر الثَّورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربيَّة، بيروت ١٩٨٨م.

٨. فينفريد إلليغر، قرطاجة مدينة البونيِّين والرومان والمسيحيِّين، ط١، دمشق ٢٠٠٨م.

٩. محمد السيِّد عبد الغني، التاريخ السياسيُّ للجمهوريَّة الرومانيَّة، ج١، جامعة الإسكندريَّة ٢٠٠٦م.

١٠. محمد محفل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان، مطبعة غندور، بيروت ١٩٧٤م.

١١. مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الرومانيِّ، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت، د.ت.

١٢. هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيَّة الجمهوريَّة الأمبراطوريَّة حتى عهد الأمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م.

١٣. ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج١، مج٣، ترجمة محمد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

١٤. نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م.

المراجع الأجنبيَّة:

1. Boak, A, E, R., Book of A History of Rome to 565 A. D., New York 1921.
2. Dillon, M., & Garland, L., The Ancient Romans; History and Society from the Early Republic to the Death of Augustus., published by Routledge., New York 2021.
3. Chaudhuri, Sh., & Kharbanda, P., Pocket Genius Ancient Rome., Dorling Kindersley Limited., New York, 2014.
4. Goldsworthy. A., The fall of Carthage., The Punic wares 265 - 146 B.C, Cassell Military Paperbacks, London 2000.
5. Hannah Szapary., Playing Offense: A Deeper Look into the Motivations and Significance of Sulla's March on Rome., Brown University., Classics and Applied Math – Biology., Class of 2019.
6. Kent, P. A., The Roman army's emergence from its Italian origins., A dissertation submitted to the faculty of the University of North Carolina at Chapel Hill in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in the Department of History., Provided by Carolina Digital Repository 2012.
7. Messer, W. S., Mutiny in the roman army The Republic., Classical Philology XV, April, 1920.
8. Mills, C. W., Ancient World Leaders; Hannibal., by Infobase Chelsea House Publishing, New York 2008.

9. Ureche. P., The Soldiers morale in the roman army., Journal of Ancient History and Archeology No; 1.32014/.

10. Sim, D., The Roman iron industry in Britain., The History press., London 2011.

11. Toohey, K. D., On the Rise of Gaius Marius., ResearchGate 24 March 2016.

روما: شخصياتها وحروبها

محمد مرتضى[١]

المبحث الأول: الوجه الآخر لعظماء روما (في عصرَيْ المملكة والجمهوريَّة)

مقدّمة

وجد الرومان في تاريخهم الكثير من المادحين وأنصاف المؤرِّخين الذين أعملوا جهدهم في سبيل تجميل صورتهم، وتصوير دولتهم بالعظيمة والمجيدة، وقادتهم بالأبطال. وسواء اتَّفقنا مع هؤلاء المؤرِّخين في جزئيَّات عملهم أم اختلفنا، فإنَّ ثمَّة وجهاً آخر لهؤلاء القادة «العظماء»، وأوَّلهم رومليوس مؤسِّس مدينة روما، وآخرهم أنطونيوس، وما بين هذين الإثنين عشرة من القادة الذين كلَّلتهم روما بالغار، قبل أن يخلِّد المادحون أسماءهم في الكتب.

إنَّ المتبصِّر في هذا التاريخ سيجد دوافعَ خفيَّة تقف خلف التركيز على بطولة الشخصيَّة الرومانيَّة وتصويرها على أنَّها شخصيَّة خارقة في عاداتها وتقاليدها و«أخلاقها» و«قوَّتها» و«عفَّتها»، وإن كانت في الواقع تقع على النقيض من ذلك تماماً. ولعلَّ السبب الكامن وراء ذلك هو أنَّ الرومان لم يقدِّموا منجزات حضاريَّة يُعتدُّ بها، لا على مستوى الدراسات العلميَّة، ولا حتَّى على مستوى الدراسات النظريَّة، وهذا الأمر شكَّل عقدة نقص دائمة لديهم، فجعلوا من سلسلة شخصيِّات قادتهم الذين قهروا الدنيا بالنار والحديد، العنوان العريض لحضارتهم. وقد عبَّر عن هذا الأمر، أو هذه المعضلة، صراحةً الشاعر اللاَّتيني فرجيل Vergil (٧٠ - ١٩ ق.م)، عندما صرَّح بأنَّ مهمَّة روما هي أن تحكم الشعوب، وأنَّ الإله جوبيتير Jupiter (الإله القوميَّ للشعب الرومانيِّ) لم يضع هدفاً محدَّداً للدولة الرومانيَّة؛ لذلك لا نهاية لهذه الدولة. وليس الهدف من هذا البحث هو الهجوم على رموز

---

[١]- الدكتور محمد مرتضى، باحث وأكاديمي لبناني، واستاذ تاريخ الفلسفة الغربية في جامعة المعارف (لبنان).

هذا الشَّعب، وإنَّما إجراء تقييم لتلك الشخصيَّات من خلال رؤية وجهها الآخر.

عموماً، إذا أردنا أن نصنِّف هؤلاء القادة العشرة سنجد أنَّهم ملك (رومولوس)، وثلاثة مصلحين سياسيين (تابيروس وغايوس جراكوس، وشيشرون)، وستة ضبَّاط عسكريين (ماريوس، سولا، كراسوس، بومبي، قيصر، أنطونيوس). وإذا استثنينا الملك، فإنَّ تاريخ التسعة الباقين هو تاريخ متَّصل، وجميعهم شاركوا بصورة أو بأخرى في هدم الجمهوريَّة الرومانيَّة، فلست أدري عن أيِّ عظماء يتحدَّثون!

أوَّلاً: عصر المملكة: رومولوس (حوالي ٧٧١ إلى ٧١٥ ق.م.)

١. الولادة الأسطوريَّة

يُعدُّ رومولوس الشخص المؤسِّس لمدينة روما سنة ٧٥٣ ق.م، وبغضِّ النَّظر عن قصَّة ولادته الأسطوريَّة، التي تشبه قصَّة ولادة شاروكين الأكادي Šar.ru.ki.in (٢٣٣٤ - ٢٢٧٩ق.م) مؤسِّس الأمبراطورية الأكاديَّة في بلاد الرافدين[١]، والتي تشير بصورة واضحة إلى حجم الاقتباس والتلقِّي الذي مارسه الرومان من حضارات الشرق القديم، أقول: بغضِّ النظر عن هذا الجانب، حتى لا يكون بحثنا تقليديَّاً يدرس عوامل تأثير الحضارات الشرقيَّة القديمة في نظيراتها الغربيَّات، فإنَّنا سنقصره على تحليل وتفسير سلوك رمزيَّة تلك المدينة الغريبة.

يجعل التاريخ الروماني من رومولوس -مؤسِّس تلك المدينة- من أسرة نبيلة ترجع في نسبها إلى بطل من أبطال ملحمة طروادة، وهو إنياس الذي وجَّهته الآلهة ليبني روما المجد العظيم على ساحل إيطاليا لا على ساحل ليبيا[٢]، ولم يكن إنياس جَدًّا لـ رومولوس من جهة أبيه، بل من جهة أمِّه ريا سيلفيا Rhea Silvia؛ التي كانت من سلالته، والتي كان عمُّها الملك (آميليوس) قد وهبها لخدمة ڤيستا Vesta إلهة النار، مما يجبرها على أن تتبتَّل، ليضمن أنَّها لن تنجب طفلاً يأتي من نسلها يطالب بثأر والدها الذي أبعده عن كرسيِّ الحكم. لكنَّ إله

[١]- أنظر تلك الولادة في كتاب فوزي رشيد، سرجون الأكادي؛ أول أمبراطور في العالم، الموسوعة الذهبيَّة، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٩٠م، ص١٧.

[٢]- أنظر تفاصيل رحلة إنياس من طروادة إلى إيطاليا مروراً بليبيا في كتاب فرجيل، الإنياذة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٥م، ص٦٢

الحرب مارس Mars أُغرم بالفتاة، بعدما شاهدها نائمة عند ضفَّة مجرى ماء، وكانت قد فتحت صدرها لتتلقى النسيم، واستغرقت بالنوم وهي واثقة أكثر مما يجب بطهارة الآلهة والبشر، وقد أَسَرَ جمالها قلب هذا الإله؛ فاتَّصل بها سرّاً وحملت منه سفاحاً. غضب آميليوس بعدما علم بالأمر، وأراد أن يعاقبها أفظع عقاب، إلاَّ أنَّ آنثو Antho بنت الملك تدخَّلت وتوسَّطت لها عند أبيهما، فأودعت سجناً منفرداً ومنعت من أي رفقة لئلاَّ تضع وليدها من دون علم الملك، وفي الوقت المحدَّد وضعت طفلين ذكرين هما رومولوس Romulus وريموس Remus ما زاد غضب الملك الذي أمر بإعدام الطفلين، من دون أن تأخذه رأفة بهما، وكلَّف أحد رجاله؛ ويدعى تيراتيوس Teratius، بأن يأخذهما ويدفنهما حيَّين، لكن عامل الملك لم يستطع قتلهما، ووضعهما بدل ذلك في صندوق من الخشب مصفَّح برقائق من النُّحاس على ضفَّة نهر التيبر، الذي أخذت مياهه تتعالى فسحبت سرير الطفلين وعوَّمته برفق ولين إلى أن علق بجذع شجرة تين، فأتت ذئبة وأرضعتهما، وأخذ صقر يحلِّق فوقهما ليحميهما، بينما أخذ طائر نقَّار الخشب بإطعامهما (ومنزلة الذئبة والطير مقدَّسة عند الربِّ مارس)، إلى أن عثر عليهما راعي قطعان الملك المدعو فاوستولوس Faustulus فحملهما إلى زوجته التي تعهَّدت برعايتهما[١].

٢. فاتحة الحكم قتل الشقيق

هذا ما قدَّمته لنا الأسطورة الرومانيَّة عن ولادة مؤسِّس مدينة روما، لكنَّ إقحام الآلهة وجعل رومولوس من نسلها مقابل إخفاء نسبه الحقيقيِّ يثير الشكوك حول شخصيَّته وأصولها. فإذا كان تأسيس روما أمراً مقدَّساً؛ فلا شكَّ في أنَّها بحاجة إلى مؤسِّس مقدَّس من نسل الآلهة، لكن تصرُّفاته لم تكن توحي بذلك، وليس أدلَّ على ذلك من قيام رومولوس بقتل شقيقه. حصل ذلك عندما حدَّد كلٌّ منهما مكاناً مختلفاً لإنشاء المدينة، ودار بينهما شجار عنيف، واستشارا جدَّهما الذي أشار عليهما باستخارة الآلهة من خلال البشارة أو الإشارات. • صعد رومولوس إلى هضبة البالاتان (Palatine Hill) حيث أراد أن يبني المدينة، بينما صعد ريموس إلى هضبة الأفنتين (Aventine hill)، وكانت الإشارة التي ينتظر الشقيقان أن

[١]- بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج١، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م، ص٧٠، ٧١.

تأتي من الآلهة هي مرور الطيور في السماء، ففاز رومولوس بتسجيل ١٢ نسراً مقابل ٦ نسور لشقيقه ومنافسه. حينها أخذ محراثه النحاسيَّ وربطه إلى عنق ثور، وراح يشقُّ أخدوداً حول التلِّ مخطِّطاً بذلك سور المدينة الجديدة، وتاركاً فيها ثلاثة أبواب رئيسيَّة، فكلَّما وصل إلى موضع باب كان يرفع شفرة المحراث النحاسيَّة. ولا شكَّ في أنَّ اختيار الآلهة لرومولوس قد أثار غضب شقيقه ريموس، وبينما هو واقف بجانبه يراقب عمليَّة بناء السور ثار غضبه أكثر فقفز عبر الحائط صائحاً: «هل لمثل هذه الحواجز أن تصون مدينتك؟». وأصاب كلامه هذا حنق رومولوس فقتله وهو يصيح: «هكذا سيهلك كلُّ من يمتهن أسوار مدينتي هذه».

بهذه الصورة ارتفعت أسوار روما على الدماء التي سيسفكها الرومان بغزارة طوال قرون عديدة، قبل أن يتمكَّنوا من إخضاع باقي أراضي شبه الجزيرة الإيطاليَّة لهم، ومن ثم مدِّ سلطانهم على كامل حوض البحر المتوسِّط. وبعدما دفن رومولوس شقيقه في جبل ريمونيا Remonia، بعث إلى توسكانا يطلب منها من يرشده إلى الطقوس الدينيَّة التي تُقام عند بناء المدن، والأحكام الدينيَّة التي يجب اتِّباعها[١]. فهل يكون سليل «الآلهة» من يقتل شقيقه ولا يدري ما هي الطقوس الدينيَّة؟

٣. الغدر بالجوار

بالإضافة إلى القضيَّتين السابقتين هناك **قضيَّة ثالثة** جوهريَّة ومهمَّة تعبِّر عن أخلاق الرومان منذ اليوم الأول لتأسيس مدينتهم، فبعدما أتمَّ رومولوس بناء المدينة في يوم ٢١ نيسان ٧٥٣ ق.م، وهو اليوم الذي يحتفل فيه الرومان من كلِّ سنة، ويطلقون عليه اسم «يوم ميلاد الوطن»، أراد الإكثار من السكَّان فافتتح على تل الكابيتول المجاور ملاذاً لجأ إليه المغامرون والعبيد والمتمرِّدون وقطَّاع الطُّرق والأفَّاكون، فلم يكترث للعنصر السكانيِّ الذي ستتكوَّن منه مدينته، لكن هذا العمل أثار حفيظة الجوار، فما كان من أهالي القرى والمدن إلاَّ مقاطعة الرومان الأوائل، حتى أنَّهم رفضوا أن يصاهروهم بإعطائهم بناتهم كزوجات لهم، عندها أحسَّ مؤسِّس روما ألاَّ مستقبل لمدينته، فقام بحركة عجيبة في الشهر الرابع لبنائها، حيث دعا إلى حفل أقامه لجيرانه السابينيين، الذين كانوا يقيمون إلى الشرق من روما، وخلال

[١]- بلوتارخ، ج١، ص٧٦، ٧٧، ٧٨.

الحفل قام الرومان باختطاف الفتيات السابينيات، فما كان من تيتس تاتيوس Titus Tatius ملك قبيلة الكيورين Curites السابينيَّة إلاَّ أن شنَّ هجوماً عليهم، ونشبت الحرب سجالاً بين الطرفين، ولما اقتربت قوَّات تاتيوس من تل البلاتين، توسَّطت النساء السبينيَّات اللواتي أصبحن زوجات رومانيَّات، داعيات إلى عقد هدنة، ثم سعين لإقناع الملكين بالصلح، على أن يقيم السابينيون في روما. وقد تم عقد الصلح بين الطرفين، وبموجبه أصبح (رومولوس اللاَّتيني) و(تاتيوس السابيني) ملكين على الشعبين الرومانيِّ والسابينيِّ. إذاً، يضاف إلى قائمة القتل والجهل بالطقوس الدينيَّة لدى رومولوس عنصر ثالث هو الخطف والاغتصاب.

٤. التوسُّع والطمع القاتل

لم يترك رومولوس سبيلاً إلى التخلُّص من زميله في الحكم، وبعدما تمَّ له ذلك، بدأ يشنُّ العدوان إثر العدوان على المدن والقرى المجاورة لروما بهدف توسيع أملاك دولته، وبدَّل سلوكه الشعبيَّ الذي كان يتستَّر خلفه إلى سلوك الكبرياء الملكيِّ؛ حيث لبس القرمز وفوقه رداء مطرَّز الحاشية بالأرجوان، وكان يقابل الناس وهو جالس على عرشه، وحوله حرَّاسه وخدمه، كما كان هؤلاء الحرَّاس يسيرون أمامه لحمايته. وفي سبيل تدعيم مركزه قام بمنح المكتسبات لجنوده، وكان أول تلك المكتسبات أرض ألبا؛ فبدل أن يتركها في يد ملاَّكها، وزَّعها على الجنود الذين قاتلوا معه طمعاً في كسب ولائهم؛ لكن ذلك الأمر أثار ثائرة الأسر العريقة، ما تسبَّب في مقتل الملك المؤسس.

٥. وسقط صريعاً

اختفى رومولوس ولم يترك شيئاً يُحكى عن موته إلاَّ يوم اختفائه، وغالبُ الظنِّ أنَّ أعضاء مجلس الشيوخ قد فتكوا به في معبد ڤـولكان، بعدما امتعضوا منه بسبب توزيع الأراضي التي غنمها على جنوده، وهم بعدما قتلوه قطَّعوا جثته أجزاء صغيرة، أخفى كلُّ واحد منهم جزءاً في طيَّات ثيابه، ثمَّ تخلَّصوا منها.

ويُروى أنَّه يوم اختفائه كان يقف خطيباً في الناس خارج المدينة قرب موضع يسمَّى «مستنقع الماعز» فاكفهرَّ الجوُّ فجأة، وحصلت ظواهر عجيبة في السماء، وأظلم وجه الشمس، وانقلب النهار ليلاً، وضرب الرعد، ولمع البرق، وهبَّت الرياح، وحدثت الصواعق،

فتفرَّق الناس وهربوا لا يلوون على شيء، إلاَّ أنَّ الشيوخ بقوا في موضعهم كتلة واحدة، ولمَّا سكنت العاصفة، وانكشف الظلام، وأشرق النور، واجتمع الناس ثانية، افتقدوا ملكهم، ولمَّا سألوا عنه أجابهم الشيوخ: لا تبحثوا عنه ولا تشغلوا أنفسكم بأمره. وأمروهم بأن يكرموه ويعبدوه لأنَّه ارتفع إلى مصاف الآلهة. لكن ظهر بين الرومان من سخَّف هذه الرواية ورأى أنَّ الشيوخ خدعوا عامَّة الشعب، وأنهم هم من فتكوا بالملك الرومانيّ[١].

وهكذا، في العام السادس والخمسين من عمره، وفي العام الثامن والثلاثين من حكمه، غادر رومولوس الدنيا، وكان ذلك عام ٧١٥ ق.م.

ثانياً: عصر الجمهوريَّة الرومانيَّة

١. الأجواء التي أفرزت عظماء روما في العصر الجمهوريّ

قبل أن نبحث في سِيَر وشخصيَّات رمز الشعب الرومانيِّ، نودُّ التمهيد للظُّروف التي أفرزت تلك الشخصيَّات والبيئة التي ساهمت في ظهورهم.

لقد أدَّى اتِّساع الدولة الرومانيَّة إلى تدفُّق الثروات عليها من المناطق المغلوبة؛ من غنائم الحرب والضرائب والمستعبدين، واتَّسعت رقعة أملاكها من الأرض نتيجة المناطق التي احتلَّتها روما، لكن هذه الثروات لم توزَّع بشكل عادل، حيث استأثرت بها طبقة النبلاء، أما طبقة العوام التي كان أبناؤها وقوداً لهذه الحرب، فلم تنل إلاَّ النذر اليسير من غنائم هذه الحروب، لا بل إنَّ النبلاء وضعوا أيديهم على أملاك الدولة وأراضيها، وراحوا يستثمرونها كما يحلو لهم، وانتشرت إقطاعيَّات النبلاء الكبيرة على امتداد الجمهوريَّة الرومانيَّة منذ سنة ١٤٠ ق.م، ولم يتركوا للعوام الذين كانوا يحملون لقب «سادة الأرض» رقعة يُدفنون فيها، وأخذت الهوَّة تتسع بينهم، وأخذت البطالة بالتفشِّي في المجتمع بعد طرد صغار المزارعين من مزارعهم ليحلَّ محلَّهم أسرى الحروب من العبيد، وهكذا تضاعفت أعداد هؤلاء مقابل تناقص أعداد الشعب الإيطالي الذي خسر خيرة شبابه في حروب التوسُّع الرومانيَّة، وكان مجلس الشيوخ يستأثر بالسلطة السياسيَّة لنفسه، ولم تعد تلك المؤسَّسة التي بنت مجد روما حريصة على مصالح الدولة، بل طائفة من الأثرياء الذين تردَّت أخلاقهم، وساءت العلاقة

[١]- بلوتارخ، ج١، ص٩٩، ١٠١.

بين هذا المجلس وحلفائه القدماء من أبناء طبقة الفرسان؛ الذين فقدوا لياقتهم وأخلاقهم العسكريَّة وأمسوا مُلاَّكاً أثرياء، بعدما تضاربت مصالحهم الماليَّة. وأصبح المجتمع الروماني في مأزق حقيقيٍّ؛ حيث اختفت الطبقة الوسطى التي كانت عماد الجيش والمجالس الشعبيَّة، وحلَّت محلَّها طبقة من النازحين استوطنت روما، وكانت فئة عديمة الأخلاق لم تتورَّع عن بيع أصواتها في الانتخابات، وما زاد الموقف تعقيداً أنَّ أبناء إيطاليا راحوا يطالبون بمساواتهم بأبناء روما الأحرار مساواة تامَّة[١].

٢. الأخوان جراكوس

كان من المفترض أن تظهر محاولات الإصلاح على يد أعضاء من مجلس الشيوخ بوصفه الحارس الأمين على مصالح الدولة والشعب، إلاَّ أن ذلك لم يحدث، وهذا ما فتح الباب على مصراعيه لأن تظهر بوادر الإصلاح على أيدي شقيقين مثقَّفين بالثقافة اليونانيَّة، لم يتجاوزا الثلاثين من العمر، هما تيبيروس Tiberius Gracchus وجايوس جراكوس Gaius Gracchus اللذان حاولا أن ينتشلا النظام الجمهوريَّ من ورطته الخانقة[٢]. والأخوان جراكوس ينتسبان إلى بعض الأسر الأرستقراطية في روما، حيث كان والدهما قنصلاً، بينما كانت أمهما ابنة سيبيو الأفريقي بطل معركة زاما سنة ٢٠٢ ق.م، ولمَّا توفيِّ والدهما في مقتبل العمر، رفضت الأم الزواج من ملك مصر بطليموس الثامن وآثرت تربية ولديها، وكانت من دعاة الثقافة الهللينيَّة، وكان هذا سبباً في ما ناله ولداها من الثقافة والأدب اليونانيِّ[٣]، وأسهم في إطلاعهما على تاريخ حركات الإصلاح في بلاد الإغريق وتأثُّرهما بها. وبعدما عاينا واقع الشعب الرومانيِّ المرير وجدا نفسيهما في صف الفلاَّحين والفقراء (العوام) يدافعون عنهم[٤]. ولا جدال في أنَّ عصرهما كان نقطة التحوُّل الخطيرة في تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة؛ لأنَّهما فتحا باب الثورة الاجتماعيَّة على مصراعيه، وسواء اعتبرناهما زعيمين انقلابيين أم لا، فلا ريب في أنَّهما عجَّلا بقيام الثورة التي لن تنتهي إلاَّ بسقوط تلك

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص١٧٥.

[٢]- عبد الله السليمان، المصدر نفسه.

[٣]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، منشورات الجامعة الليبيَّة كليَّة الآداب، طرابلس ١٩٧٣م، ص١٨.

[٤]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٧٦.

الجمهوريَّة[١].

١. تيبيروس جراكوس

يتَّصف تيبيروس جراكوس (١٦٢- ١٣٣ ق.م) بأنَّه كان عميق الشعور بالواجب، رقيقاً، غير أنَّه كان مثاليّاً تنقصه الخبرة العمليَّة، بدأ حياته السياسيَّة عندما عُيِّن خازناً في إسبانيا سنة ١٣٧ق.م، وهناك شاهد الإقطاعات الكبيرة التي يمتلكها النبلاء ويعمل بها العبيد، في حين أنَّ الشعب الرومانيَّ من طبقة العوام لا يمتلك شبر تراب واحد، وأغلبه أمسى يعاني الفقر. لذلك رأى أنَّ الخطر الأكبر الذي يتهدَّد الجمهوريَّة الرومانيَّة يكمن في نظام الاقطاعات الزراعيَّة الضخمة التي نتج منها تشريد المزارعين الفقراء. رشَّح تيبيروس نفسه لمنصب نقيب العوام في أواخر سنة ١٣٤ ق.م، وقدَّم اقتراحاً رأى فيه أنَّ العلاج الأمثل لمشكلة الدولة الرومانيَّة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة هو توزيع قطع صغيرة من الأراضي الزراعيَّة على العوام؛ لأنَّ ذلك سيوجد حلاًّ لمشكلة الإقطاعات، وسيحسِّن وضعهم المادِّي والمعيشي، وسيعالج مشكلة تدهور الزراعة[٢].

نجح تيبيروس في انتخابات سنة ١٣٣ ق.م. بعدما حصل على دعم القنصل اسكيفولا Scaevola الذي كان يُعتبر أكبر فقيه قانونيٍّ في عصره، كما حصل على تأييد الشعب بمختلف طبقاته، فالمزارعون رأوا فيه أملاً لهم للعودة إلى أراضيهم، بينما رأى أهل المدينة في مشروعه حلاًّ عادلاً يتكفَّل بإعادة المزارعين إلى أرضهم، مما سيخفِّف الضَّغط السكانيَّ عن المدينة بعدما اكتظَّت بهم، هذا ناهيك بفصاحته وقوَّة حجَّته ولاسيَّما أنَّه درس البلاغة والخطابة اليونانيَّة.

أعلن تيبيروس عن برنامجه الإصلاحيِّ الذي تضمَّن إعادة تطبيق قانون ليكينيوس Licinius الصادر سنة ٣٦٧ ق.م والذي حدَّد الحدَّ الأقصى للملكيَّة الفرديَّة في الأراضي بما لا يزيد عن ٥٠٠ فدَّان روماني (ايكر)، وكنوع من التساهل سمح لربِّ الأسرة بحيازة ٢٥٠ فدَّاناً أخرى إذا كان لديه ولد واحد، و٥٠٠ فدان أخرى إذا كان له أكثر من ولد، والأرض التي سيتمُّ توزيعها

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربيَّة، بيروت ١٩٨٨م، ص٤٠.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٧٦.

على الفلاَّحين ستكون مقابل إيجار رمزيٌّ، وستبقى ملكاً للدولة، وسيحرَّم بيعها. بيد أنَّه قَصَر مشروعه على الأراضي العامَّة، ولم يتطرَّق إلى الملكيَّات والأراضي الخاصَّة[١].

تيبيروس جراكوس

من خطب تيبيروس الشهيرة في هذا المضمار: «يرتكب القادة خطأ مضحكاً عندما يحمِّسون الجندي البسيط، ويدفعونه وهم على رأس الجيش للحرب في سبيل مذابح قرابينهم، وأنصابهم المقدَّسة، في حين لا يوجد أحد من بين هذه الجموع الرومانيَّة، من يملك مذبحاً أو نصباً بل بيتاً، أو مأوى ورثوه من أسلافهم لكي يدافعوا عنه. إنَّهم في الواقع يَقتلون ويُقتلون ليحافظوا على غنى الآخرين وترفهم، ويشار إلى هؤلاء المساكين بأنَّهم سادة الدنيا لكنهم في الواقع لا يملكون قدماً واحدة من الأرض[٢]».

طبعًا، عارض النبلاء مشروع القرار هذا معارضة عنيفة؛ لأنَّه كان يقوم على مبدأ مصادرة الأراضي العامَّة التي كانوا يستغلُّونها كما لو كانت ملكاً لهم، وتوزيعها على الفقراء والفلاَّحين، وأرادوا تعطيله عن طريق القنصل الثاني أوكتافيوس Octavius وأقنعوه بضرورة استخدام حقِّ الاعتراض الفيتو على القانون[٣]، وكان الأخير ممن خرقوا القانون أيضاً،

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٧٦

[٢]- بلوتارخ، ج٣، ص١٥١٧

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٧٧

واحتفظ لنفسه بمساحات كبيرة من الأراضي الأميريَّة، لذلك وقف بقوة في وجه تيبيروس[١]. لكن تيبيروس تغلَّب على زميله ونجح باستصدار قرار من الجمعيَّة القبليَّة، بعدما اقتنعت بأهميَّة المشروع الذي كان يرمي إلى تعمير الريف بالفلاَّحين الأصحَّاء. لا بل تمكَّن من استصدار قرار بسحب الثقة من أوكتافيوس وعزله بعدما خيَّب ثقة العوام الذين انتخبوه حتى يدافع عن قضاياهم، ويعتبر هذا القرار ثوريَّاً، وسابقة غير دستوريَّة تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة[٢]؛ لأنَّه كان أول من تسبَّب بانتهاك حرمة منصب نقيب العوام عندما عزل أوكتافيوس بتلك الطريقة المهينة، وقد بقيت حتى ذلك اليوم مصونة مقدَّسة أبداً، وقد حاول في خطبه أن يبرِّر ما قام به[٣]. كما كان قرار الإصلاح الزراعي تحدِّياً لإرادة مجلس الشيوخ الروماني وتطاولاً عليه، ولم يكن أحد قد سبقه إلى ذلك. في الواقع، إنَّ ثنائيَّة التشريع في الدولة الرومانيَّة؛ والذي كان حقَّاً ممنوحاً لمجلس الشيوخ والجمعيَّة القبليَّة، كان من عيوب الدستور الرومانيِّ الخطيرة، ما ساهم في اتِّساع هوَّة الخلاف بين النبلاء الذين كان مجلس الشيوخ يرعى مصالحهم، وبين العوام الذين كانت الجمعيَّة القبليَّة ترعى مصالحهم[٤].

في الواقع، كان تيبيريوس جراكوس مصلحاً من الناحية النظريَّة فحسب، لقد رأى داءً مستحكماً واعتقد أنَّه اكتشف الدواء، وصمَّم على تنفيذ مشروعه، ويتبيَّن لنا أنَّه كان بالفطرة غير قادر على رؤية جانبَيْ قضيَّة من القضايا، بل غير قادر حتى على إدراك أنَّه قد يكون لها جانبان، ولمَّا كان مقتنعاً تماماً بصواب سياسته، فقد عجز عن أن يتصوَّر شيئاً كالاختلاف في الرأي، لا بل افترض أنَّ معارضة خصومه مبعثها سوء النيَّة أو الغفلة، وبالتالي تعذَّر عليه تصوُّر أنَّ الاختلاف في الرأي ربما يكون نزيهاً[٥]، وتأكيداً منه على قصر نظره فقد صمَّم على تنفيذ مشروعه من دون الاستعانة بخبرة غيره، وهذا ما يؤخذ عليه، فقلَّة خبرته وطيشه دفعاه

[١]- بلوتارخ، ج٣، ص١٥١٨

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيَّة الجمهوريَّة الأمبراطوريَّة حتى عهد الأمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م، ص٢١٦.

[٣]- بلوتارخ، ج٣، ص١٥٢٢.

[٤]- محمد عطية الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري وقيام النظام الأمبراطوريِّ في روما (السياسيَّة، الاقتصاديَّة، الاجتماعيَّة)، رسالة معدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بنغازي ٢٠١٧م، ص٧٩.

[٥]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٩.

إلى النظر في المشروع من جانب واحد، ونتيجة لتعنُّته وتمسُّكه برأيه كان من الطبيعيِّ أ٠ن يكون للطَّرف الآخر موقفاً مضاداًً[١]، ولاسيَّما مع رجل من هذا الطراز، حيث لم يكن هناك أمل في التفاهم معه للوصول إلى حلٍّ وسط، أو في تخويفه لزعزعته عن موقفه. ولمَّا كان من المستحيل أن يقبل النبلاء وأعضاء مجلس الشيوخ بالتنازل بمصادرة جزء كبير مما استحوذوا عليه، فقد استعدُّوا لخوض المعركة ضدَّه حتى الرمق الأخير[٢].

لقد سعى مجلس الشيوخ لعرقلة جهود لجنة توزيع الأراضي، وكان ناسيكا الرأس المدبِّر، الذي كان يحقد على تيبيروس حقداً مكشوفاً؛ حيث كان إقطاعيَّاً كبيراً، ضبط مساحات شاسعة من الأراضي الأميريَّة، وأُرغم على التنازل عنها، فلم تكن ضغينته باليسيرة[٣]، وكانت أولى الخطوات التي اتَّخذها مجلس الشيوخ لعرقلة جهود اللَّجنة، هو عدم إمدادها بالمال اللاَّزم لتنفيذ مشروعها، لكن شاء القدر أن يُتوفىَّ أتالوس الثالث Attalus III ملك برغامون Pergamun (على الشاطئ الغربيِّ لآسيا الصغرى) في السنة ذاتها (١٣٠ ق.م)، وهو الذي كان قد أوصى بمملكته لروما بعد موته، فاستصدر تيبيروس قانوناً من الجمعيَّة القبليَّة ينصُّ على توظيف الأموال التي سترِدُ من مملكة برغامون في تطبيق هذا القانون، ولا يعتبر هذا القرار ثوريَّاً فحسب؛ لأن إدارة الولايات والإشراف على شؤونها الماليَّة من حقِّ مجلس الشيوخ، بل كان أيضاً إهانة قاسية له، لم يتعرَّض لمثلها من قبل؛ لأنَّها تطاوُل صارخ على هيبته[٤].

لقد نجح هذا المشروع -جزئيَّاً- في حلِّ مشكلتَيْ إقفار الريف وتدهور الزراعة، كما أنَّ نجاحه كان مؤقَّتاً؛ لأنَّه لم يكن علاجاً جذريَّاً شاملاً لمشكلة الأرض ومشكلة دهماء العاصمة الذين لم يطرأ على حالتهم أيُّ تحسُّن. ولمَّا مضت سنة ولاية تيبيروس، ولم يكن قد انتهى بعد من توزيع أراضي الإقطاعات على الفقراء، رشَّح نفسه للسنة الثانية على التوالي لمنصب نقيب العوام لضمان تطبيق هذا القانون، كما أنَّه كان يخشى أن يفقد الحصانة التي

[١]- محمد عطية الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٨٠.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٩.

[٣]- بلوتارخ، ج٣، ص١٥٢٠.

[٤]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٧٧

منحه إياها منصبه، وفي ترشيح نفسه مرَّة ثانية على التوالي خَرقٌ للعرف والتقاليد الدستوريَّة؛ حيث كان أمراً محظوراً بمقتضى قانون فيلليوس الصادر سنة ١٨٠ ق.م، ومع أنَّه ليس من المؤكَّد أنَّ هذا القانون كان ينطبق على نقابة العوام لعدم اعتبارها -من الناحية الفنيَّة- منصباً عامَّاً من مناصب الشعب الرومانيِّ كافَّة، إلاَّ أنَّه لم يحدث أن تكرَّر ترشيح أحد للمنصب عينه مرتين متتاليتين، منذ الصراع القديم بين طبقتَيْ النبلاء والعوام. لقد أقدم إذاً على عمل جريء آخر، ومع أنَّه كان على ما يرجَّح لا يتعارض والدستور، إلاَّ أنه كان مجافياً لروحه لما فيه من خروج على القاعدة العرفيَّة المستقرَّة منذ القرن الثالث ق.م[١].

قدَّم تيبيروس في برنامجه الانتخابيِّ مجموعة من المقترحات كان أهمّها مشروع قرار يقضي بتقليل عدد سنوات الخدمة العسكريَّة، ومشروع قرار يجيز استئناف أحكام القضاة أمام الشعب، وطالب بإضافة عدد مساوٍ لأعضاء مجلس الشيوخ -الذين كانوا مخوَّلين بصلاحيَّات القضاء- بعدد مساوٍ من طبقة الفرسان، في محاولة منه لتقليص نفوذ مجلس الشيوخ بدافع من العاطفة والتحزُّب للشعب، لا بدوافع منطقيَّة ومعقولة، أو لأجل المصلحة العامَّة والمساواة[٢]. وعندما بدأ النقاش حول هذا المرسوم وجد أنَّ المعارضة هي الأقوى، حيث ثار بعض أنصار مجلس الشيوخ بقيادة ناسيكا وقبضوا عليه وقتلوه في يوم الانتخاب مع ثلاثمئة من أنصاره بالهراوات والعصيِّ وقوائم الأثاث المحكم، ولم يقتل أحد في ذلك اليوم بالسلاح الحديديِّ. وهكذا كان تيبيروس السبب المباشر في إثارة الفتنة التي انتهت بسفك الدماء لأول مرة منذ سقوط النظام الملكيِّ في سنة ٥٠٩ ق.م، فكلُّ الخصومات سابقاً كانت تحلُّ بالتراضي، فإمَّا أن يتنازل مجلس الشيوخ خوفاً من العوام، أو يتنازل العوام توقيراً لمجلس الشيوخ[٣]. نعم، لقد كانت هذه الحادثة بدايةً لإسالة الدماء في صراع روما السياسيِّ، إلاَّ أنَّه لن يتوقَّف قبل مئة سنة، فقد هزَّ تيبيريوس الدستور بعنف، فقوبل بالعنف من جانب حُماته الأدعياء[٤]، الذين تعاملوا مع جثَّته بمنتهى الوحشيَّة والإهانة اللاَّإنسانيَّة؛ فجرُّوها في وسط المدينة، ولم يسمحوا لأخيه رغم رجائه الحارِّ بأن يدفنها ليلاً، بل ألقوها في نهر التيبر

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٢.

[٢]- بلوتارخ، ج٣، ص١٥٢٣

[٣]- بلوتارخ، المصدر نفسه.

[٤]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٣.

مع الجثث الأخرى خلافاً لعاداتهم وتقاليدهم، ولم يقف حقدهم عند هذا الحدِّ فقد أبعدوا أصحابه عن إيطاليا من دون اللُّجوء إلى الإجراءات القانونيَّة المعتادة، وقتلوا كلَّ من وقع بأيديهم[١]، ولأول مرَّة في تاريخ الحياة السياسيَّة الرومانيَّة تسفك الدماء وذلك بقتل تيبريوس جراكوس، ما أظهر بوضوح قصور الدستور عن الإيفاء بمتطلِّبات الدولة ومسؤوليَّاتها. ولمَّا أظهر الشعب دلائل سخط واسعة على مقتل تبيروس، رأى مجلس الشيوخ أنَّ من الحكمة أن تتابع لجنة الإصلاح الزراعي أعمالها، وكان بها جايوس جراكوس الذي حرص بدوره على تنفيذ رؤية شقيقه. وهكذا نرى أنَّ الأزمة التي فشلت الطبقة الأرستقراطيَّة في مواجهتها بطرق سلميَّة، استفحلت وكانت بداية النهاية بالنسبة إلى النظام الجمهوريِّ[٢].

٢. جايوس جراكوس (١٥٣. ١٢١ق.م)

يمكن لنا أن نستشفَّ شخصيَّة جايوس جراكوس من خلال مقارنة بلوتارخ بين الشقيقين، حيث يقول: «من ملامح تيبيروس وتعابيرها ومن ايماءاته وحركاته يظهر أنَّه رقيق الحاشية، هادئ الطبع في حين يظهر جايوس عنيفاً في غاية الجِدِّ، وينعكس هذا في حبِّهما للجماهيريَّة السياسيَّة، فالأول ذو أسلوب رزين منظَّم يقف على المنبر فلا يتحرَّك حتى ينهي خطابه، والثاني تراه لا يستقرُّ في مكان فيسير ويتنقَّل جيئةً وذهاباً، ويجتذب عباءته حتى تنحسر عن كتفه؛ وهو أول رومانيٍّ يلجأ إلى مثل هذا الأسلوب. وبينما كانت خطب جايوس عاطفيَّة عنيفة صريحة إلى أقصى حدٍّ، كانت خطب تيبيروس منطقيَّة مقنِعة رقيقة تثير الرِّثاء، وكان أسلوبه نقيَّاً لا شائبة في فصاحته، أمَّا أسلوب جايوس فهو حماسيٌّ فخمٌ. ويمكن قول هذا عن عيشهما ومأكلهما، فتيبيروس بسيط العيش زاهد، وجايوس متزمِّت. والفرق يبدو أيضاً في مزاجيهما، فجايوس خشن تسوقه العاطفة وهو في أوج خطبته فتنسيه نفسه، ويفقد سيطرته على صوته، وتتغيَّر نبراته الاعتياديَّة، وينحدر إلى البذاءة، فيتلف خطبته[٣]».

كان جايوس يصغر أخاه بتسع سنوات، اختير وهو في الحادية والعشرين من عمره عضواً في لجنة الإصلاح الزراعيِّ، ثم شغل منصب الخازن في ولاية سردينيا سنة ١٢٦ ق.م،

[١]- بلوتارخ، ج٣، ص١٥٢٦

[٢]- محمد عطية الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٩٩.

[٣]- بلوتارخ، ج٣، ص١٥١٢

لكنَّه عاد إلى روما قبل أن ينهي عامه فيها، ولم يكن سبب عودته هذه مفهوماً، فقد وُجِّهت له أصابع الاتِّهام بترك العمل الحكوميِّ من دون إذن، كما تمَّ اتِّهامه بالتحريض على ثورة فرجلاوي سنة ١٢٥ ق.م ضدَّ سيادة روما على شبه الجزيرة الإيطاليَّة، وعقوبة له تمَّ حرمانه من أن يشرح نفسه لمنصب نقيب العوام، ورغم تلك العقوبات والعراقيل فقد كوَّن جبهة قويَّة ضدَّ مجلس الشيوخ من أصحاب المصالح الماليَّة والتجاريَّة والفقراء والحلفاء الإيطاليين، وفاز في انتخابات سنة ١٢٤ ق.م أي بعد عشر سنوات على مقتل أخيه، ليتولَّى منصب نقيب العوام لسنة ١٢٣ ق.م[١].

نهض جايوس بأعباء الحكم بهمَّة ونشاط، وتولَّى مشاريع أخيه وبعث الحياة فيها، وتابع عمله على برامجه الإصلاحيَّة التي شملت الإدارة والقضاء والزراعة والاقتصاد. وكان النقباء الذين انتُخِبوا معه من أعضاء حزبه، واستطاع أن يبقى في منصبه حتى سنة ١٢٢ ق.م بعدما صدر قانون يقضي بالسماح بإعادة انتخاب النقباء. وحدث أن ترافق ترشيحه مع حدوث أزمة في الغِلال، فأصدر قانوناً عُرف باسم «قانون الغِلال» على عوام روما بنصف السعر، ثم مجاناً في ما بعد، وهذا ما ساهم في زيادة شعبيَّته بين الفقراء على وجه الخصوص. وفي سبيل تحسين أوضاع الريف استصدر قانوناً بإنشاء شبكة من الطرق الريفيَّة في مختلف أنحاء إيطاليا، وتحسين الطرق القديمة، وقد أولى هذا المشروع عناية خاصة حتى تكون تلك الطرق نافعة وجيدة ولا تقل جودة عن الطرق العسكريَّة المنتشرة في أرجاء شبه الجزيرة الإيطاليَّة، وكان يرمي بذلك إلى تيسير نقل الغِلال والمحاصيل الزراعيَّة الأخرى إلى الأسواق القريبة، فيسهل على صغار الزرَّاع مهمَّة تسويقها محليَّاً، كما أمَّن بذلك فرصة عمل للعاطلين، وشجَّع عمليَّات الاستيطان. ومن المرجَّح أنَّه أعاد للجنة الإصلاح الزراعيِّ سلطتها القضائيَّة التي سلبت منها سنة ١٢٩ ق.م بعد مصرع أخيه بسنوات قليلة[٢].

إلى ذلك، تمكَّن جايوس من استصدار قانون ينصُّ على أن تتولَّى محاكم الولايات هيئة من طبقة الفرسان بدلاً من أعضاء مجلس الشيوخ. لم يكن هدف هذا القانون إصلاح

[١]- محمد عطية الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٨٢.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٧٨، ١٧٩

محكمة الابتزاز، أو رفع مستوى نزاهتها، أو إحياء أمل أهالي الولايات في العدالة، لا سيَّما بعدما وضعت المحكمة في قبضة رجال كان جلُّ اهتمامهم منصبَّاً على استثمار أموالهم في الولايات واستغلال أهاليها، إنَّما كان الهدف إضعاف سلطات مجلس الشيوخ، حتى وُصِف بأنَّه سيظلُّ شوكة بجانب ذلك المجلس حتى بعد موته، ويكشف ذلك عن رغبة الانتقام التي كانت خليقة أن تشوِّه رغبته بالإصلاح[١]. كما أنَّه ألزم المجلس تعديل قانون تعيين حكَّام الولايات، حيث كان القانون في ما مضى يقضي أن يعيِّن القنصل المنتهية ولايته كحاكم لإحدى الولايات، فإذا كان هذا القنصل متملِّقاً للمجلس يكافئه بتعيينه في ولاية غنيَّة والعكس بالعكس، بمعنى أنَّ المجلس كان يتحكَّم بالقناصل بطريقة غير مباشرة، من هنا استصدر جايوس قراراً ينصُّ على تحديد ولاية القنصل بعيد انتخابه وقبيل مباشرته لمهامه، أي أنَّ الولاية صارت تعيَّن للمنصب قبل أن يُعرف الشخص الذي سيشغله، مما أفقد مجلس الشيوخ ممارسة أي ضغط أو نفوذ على القنصل[٢].

لقد كان من العسير على جايوس التوفيق بين سياسة رعاية مصالح سكَّان الولايات التي كان يعلنها، وبين سياسة كسب طبقة الفرسان إليه، وقد تجلَّى هذا الأمر بأوضح صورة في قانون العشور (على المحصولات الزراعيَّة) الذي يكشف تناقضاً في الاتجاه، حيث كانت جباية هذه الضريبة من مدن ولاية آسيا تتمُّ عن طريق جُباة محلِّيين، فجاء قانون جايوس لينصَّ على أنَّ عقود التزام جباية هذه الضريبة في كلِّ مدن تلك الولاية ينبغي أن تتمَّ عن طريق مزاد يجريه الرقيبان في روما، وكان القصد من هذا القانون حرمان الجُباة في ولاية آسيا من تحصيل هذه الضريبة، لأنَّ شروط العقد باهظة ولا تستطيع الوفاء بها إلاَّ شركة من شركات التزام الضرائب الغنيَّة التي كان كبار المساهمين فيها رجالاً من طبقة الفرسان الرأسماليين. وهكذا جعل جايوس جباية الضرائب في ولاية آسيا بيد الفرسان الذين استغلوا الناس استغلالاً فاحشاً، والأسوأ أنَّ هذه الشركات كانت قطاعاً خاصَّاً، أي أنَّها لن تقع تحت محاسبة قانون الابتزاز، إذ لم يكن من الجائز إقامة الدعوى عليهم كما هو الحال بالنسبة إلى حكَّام الولايات، بينما كان من السهل أن تلفِّق هذه الشركات القويَّة أيَّ تهمة لحاكم الولاية

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢٨، ٢٩.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٠

الذي يعترض سبيلها[١].

بدأ نجم جايوس بالأفول، بعدما استطاع زميله في نقابة العوام دروسوس سرقة الأضواء منه بالتواطؤ مع مجلس الشيوخ، وذلك من خلال تقديم مشاريع أكثر جذباً للعوام ودهماء العاصمة، ولم يعد لخطب جايوس الناريَّة ما كان لها من تأثير بعدما ملَّت الجماهير سماعها، وفقدت ما كان لها من سحر في نفوسهم. كذلك لم تعد الجمعيَّة القبليَّة صفَّاً واحداً معه، لا بل إنَّ فانيوس الذي عاونه في الفوز بالقنصليَّة سنة ١٢٢ ق.م فترت حماسته تجاهه، وسرعان ما تخلَّى عنه وحرَّض الدهماء على الانفضاض من حوله. عموماً، أخفق جايوس في الانتخابات عندما رشَّح نفسه نقيباً للمرة الثالثة، وصار في آخر سنة ١٢٢ ق.م مواطناً عاديَّاً مجرَّداً من حصانة المنصب، ولما كان مجلس الشيوخ قد قرَّر أن يتخلَّص منه إلى الأبد فقد أخذ يستفزُّه ويتحرَّش به[٢]. وكان من الحمق أن يستمع جايوس لنصيحة المتهوِّرين من بطانته ويكوِّن لنفسه حرساً خاصَّاً من أكثر أنصاره وفاء له ذلك أنَّ قتالاً عنيفاً وقع بين أنصاره وخصومه في روما، انتصر فيه أنصار مجلس الشيوخ وقتل فيه جايوس وثلاثة آلاف من أعوانه في سنة ١٢١ ق.م[٣]، وألقيت جثثهم في نهر التيبر، وحُمل رأسه المفصول عن جسده على رأس حربة إلى المجلس. وبعد هذه المذبحة قام أوبيميوس القنصل الرومانيِّ لسنة ١٢١ ق.م، والذي أخمد من قبل ثورة فريجللاي من دون رحمة أو شفقة، بتطهير المدينة من الدماء عن طريق مراسم دينيَّة[٤].

بعد الفشل الذريع الذي أصاب الأخوين جراكوس والذي يعتبره المؤرِّخون مأساة اجتماعيَّة وسياسيَّة كبيرة، يجدر بنا أن نستعرض الملابسات التي أدَّت إلى هذه النتيجة ومضاعفاتها.

ممَّا لا ريب فيه أنَّهما، رغم الدوافع المخلصة التي وجَّهت أعمالهما، ارتكبا أخطاء سياسيَّة لا يمكن تجاهل ردود فعلها بالنسبة إلى مسرح السياسة الرومانيَّة، فالخطيئة الأولى

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، ص٣٠.

[٢]- المصدر نفسه، ص٣٢، ٣٣، ٣٤.

[٣]- إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان، ج٢، مصدر سابق، ص١٢٩.

[٤]- محمد عطية الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٨٦.

تكمن في الطريقة التي اتَّبعها فريقهما لمقاومة الأرستقراطيين أذ إنَّهم اختاروا طرقاً ووسائل زعزعت أُسُس الدستور، فاعتُبرت تحدِّياً صارخاً لإشراف مجلس الشيوخ على الحكومة. وانسجاماً مع شعورهم بوطأة المجلس وقوة المعارضة المتكتلة فيه، ألتفت المصلحون إلى مجلس القبائل فتقرَّبوا إليه، وتعاونوا معه على حساب المجلس الأول، وجعلوه سندهم السياسيَّ ومحور الحركة في خطواتهم الإصلاحيَّة، رغم معرفتهم الأكيدة بهذا المجلس، وضعف قدرته على معالجة الأمور، وعدم استعصاء أعضائه على الفساد والرشوة، ولا أدلُّ على ذلك من أنَّ مجلس القبائل قد خذل جايوس جراكوس عندما رشَّح نفسه للمرَّة الثالثة، وبذلك اختلَّ التوازن في الحكم، ولم يعد مجلس القبائل يستطيع أن يتكلَّم باسم كلِّ الشعب الرومانيِّ. وقد انعكست هذه البداية السيِّئة على مجرى حركة الإصلاح التي حمل لواءها الحزب الشعبي أو العوام فأصابتها بضربة قاسية بعد إزاحة الأخوين جراكوس. وهكذا بقي الحزب من دون منهاج معيَّن أو خطة موحَّدة يشرف على تنفيذها زعماء مخلصون، هذا بغضِّ النظر عن أنَّ العوام أنفسهم لم يكونوا متفهِّمين لقضيَّتهم تماماً، لذلك انحرفت حركة الإصلاح الاجتماعيِّ إلى نطاق المعارضة الغوغائيَّة البحتة والتي ستغدو رهناً لإشارة أيِّ زعيم أو طامع بالسلطة، وبالتالي كان مصيرها بعد قرن من التشرُّد الارتماء في أحضان الحكم الفرديِّ الذي أدَّى إليه الصراع الطبقيِّ والحرب الأهليَّة. وقد استفاد المصلحون التالون من هذه التجربة القاسية، وتأكَّدوا من أنَّ أيَّ إصلاح مقبل يجب أن تدعمه القوَّة اللاَّزمة بالإضافة إلى العمل السياسيُّ[١].

وهكذا يتَّضح لنا أنَّ برنامج الأخوين قد انصبَّ على خدمة المصلحة العامة، إلاَّ أنَّه لم يتضمَّن أصلاً تعديلاً في الدستور، وإنما هو تحدٍّ مقصود لسلطة مجلس الشيوخ، وهذا التحدِّي العقيم دفعهما إلى الخروج عن القواعد الدستوريَّة، وفي المقابل أسهم في إضعاف نفوذ المجلس، وقلَّلَ من هيبته في نظر الناس[٢]، والذي فقد هيبته وكبرياءه عندما لجأ إلى القوَّة ليحقِّق انتصاره، وبذلك تخلَّى عن الوسائل الدستوريَّة التي تُعتبر جوهر كيانه وأساس

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٢٤، ٢٢٥

[٢]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى في بلاد الرومان دراسة تاريخيَّة، رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بغداد ٢٠١٥م، ص٣٧.

بقائه، وكان ذلك سابقة سيقتبسها السياسيون المقبلون في معاملتهم لمجلس الشيوخ[١]. وكان حصاد المعركة أن قَلَّ ولاء المواطن للدولة، وأخذت فكرة الواجب نحو الدولة تتلاشى رويداً رويداً في الأذهان، ولهذا لم يعد هناك منذ ذلك الحين دستور يستحقُّ الاحترام من جانب المواطنين المخلصين، مما أدَّى إلى هبوط مستوى الكفاية في مختلف فروع الإدارة، وإلى تفشِّي الفساد في مختلف الطوائف خصوصاً في الطبقة الحاكمة[٢]. أمَّا مجلس الشيوخ فقد ظلَّ على حاله لم يتغيَّر، ولم يمسَسه الإصلاح، وظلَّ الفساد متفشيا فيه[٣]، وتحقَّق هذا المجلس في تلك التجربة القاسيَّة من ضعفه إزاء تحالف طبقة الفرسان مع كتلة العوام، مثلما شعر بضعفه تجاه كتلة رجال الأعمال والمموِّلين الناشئة والتي شكَّلت قوَّة سياسيَّة يُحسب حسابها. علاوة على الهوَّة الكبيرة التي اتَّسعت شقَّتها بعد الصراع الدمويِّ بين فئتَيْ المجتمع الرئيسيَّتين: النبلاء والعوام، أصبح لطبقة الفرسان مكانة خاصَّة في المجتمع بعدما شعرت بدورها الذي وصلت إليه عن طريق حركة الإصلاح الزراعي، وأصبح الشيوخ يهابون أفرادها، وحتى بعد الانتصار الأخير لم يتمكَّن الشيوخ من إزاحة محلَّفي الفرسان من المحاكم بل بقي هؤلاء سيوفاً مُسلَّطة على رقاب الشيوخ، فلم تعد الجمهوريَّة الرومانيَّة سنة ١٢٠ ق.م وما بعدها هي ذاتها أيام الحروب البونيَّة، فقد أصبحت أكثر ضعفاً عندما فقدت وحدتها الوطنيَّة[٤].

إنَّ من أخطاء جايوس اعتماده على مجلس القبائل الذي كان متقلِّباً في قراراته شأنه في ذلك شأن أهواء العامَّة المتغيِّرة حسب مصالحها هي الأخرى، فكما أنَّ للنبلاء مصالحهم وطريقتهم الانتهازيَّة في التعامل مع الأوضاع السياسيَّة أظهر المشهد السياسيُّ في نهاية حياة جايوس انتهازيَّة واضحة من طبقة العوام الذين بمجرَّد التلويح لهم بمشاريع كان ظاهرها أفضل من مشاريع جايوس حتى تخلُّوا عنه وتركوه لمصيره، كما أنَّهم تعاملوا بكلِّ أنانيَّة مع مطالب أبناء جلدتهم من اللاَّتين والإيطاليين حين اقترح جايوس حقَّ منحِهم الجنسيَّة وحقَّ المواطنة، فلم يصوِّت العوام على المشروع متآمرين مع مجلس الشيوخ في هذا الأمر

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٢٥.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٤.

[٣]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثية الأولى، مصدر سابق، ص٣٧.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٢٥.

بالذات الذي سيسفر عن قيام حرب الحلفاء التي استمرَّت عشر سنوات وراح ضحيَّتها آلاف القتلى والجرحى من الطرفين، ولم تنته إلاَّ بمنحهم ذلك الحقِّ المصادر[١].

أما بالنسبة إلى العوام فقد غنموا من الأمر ثبات أسعار القمح حتى نهاية العصر الجمهوريِّ وقطع الأراضي التي وُزِّعت عليهم، إلاَّ أنَّ هذا المكسب سيضيع تدريجيَّاً من أيديهم بواسطة القوانين المتتالية التي ستسلبهم حقوقهم مرَّة أخرى. فقد صدر قانون سمح للمستوطنين ببيع أراضيهم، وبالتالي هرع المالكون الكبار لشرائها منهم، أو أنَّهم أجبروهم بالقوَّة على الرحيل عنها. ثم زالت في الفترة الواقعة بين سنتي ١١٨ - ١١١ اللَّجنة الثلاثيَّة الخاصَّة بالأراضي الزراعيَّة بموجب القانون المعروف باسم المحامي توريوس Thorius الذي حرم توزيع أراضي الدولة، وبرفع الضريبة المفروضة على حصص الأراضي التي وزَّعها جايوس جراكوس على صغار المزارعين غدت هذه الأراضي ملكاً لأصحابها، وبذلك ضاعت جهود الأخوين، وعادت الأوضاع القديمة إلى ما كانت عليه[٢].

٣. القادة العسكريُّون

بينما كانت روما منهمكة بالثورة الاجتماعيَّة ومحاولات الإصلاح والصراع المحتدم بين مجلس الشيوخ وجايوس جراكوس، كانت الجيوش الرومانيَّة على الحدود تخوض سلسلة من الحروب دفاعاً عن سلامة أراضي الجمهوريَّة. ولم تمض سنوات على موت جايوس حتى بان الفساد وعدم الكفاءة، واشتعلت من جديد نار التطاحن الحزبيِّ أثناء ذلك القتال الذي خاضته روما في شمال أفريقيا ضدَّ الزعيم النوميدي يوغورتا Iugurtha، والذي كان قد اغتصب السلطة في نوميديا رغم أنف روما، واستطاع أن يشتري أعضاءً من مجلس الشيوخ الرومانيِّ، وأن يدعم مركزه بالزواج السياسيِّ؛ فتزوج من ابنة بوكوس ملك موريتانيا (مراكش حاليَّاً)، مما اضطرَّ روما إلى إعلان الحرب عليه سنة ١١١ ق.م، ولكن هذه الحرب انتجت مجموعة من الضبَّاط كان أشهرهم غايوس ماريوس Gaius Marius الذي وضع اللَّمسات

[١]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة بين بومبي وقيصر وانعكاساتها على مملكة نوميديا، رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، الجزائر، جامعة الجزائر الثانية ٢٠١٤م، ص٢١.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٢٦.

الأخيرة على الحرب ضدَّ يورغوتا[١].

أ. غايوس ماريوس (١٥٧-٨٦ ق.م)

كيف استطاع غايوس ماريوس Gaius Marius أن يصل إلى سدَّة القيادة، ويعبث بأنظمة الجمهوريَّة المتوارثة؟! لقد قرَّرت روما تأديب يوغورتا فأرسلت لقتاله سنة ١١٠ ق.م جيشاً كبيراً، غير أنَّ الرشوة والخيانة لعبت دورها في تقاعس القادة عن القيام بواجبهم، وأثارت هزيمة الجيش الرومانيِّ واندحاره هيجاناً شعبيّاً، فشكَّلت الجمعيَّة العامَّة محكمة خاصَّة من الفرسان لمحاكمة المرتشين، فأُدين أربعة من ذوي المراتب القنصليَّة وحُكم عليهم بالنفي خارج روما[٢]. والواقع أنَّ هذه البيئة الفاسدة وهذه الظروف السيئة هي التي أنتجت أولئك القادة.

كان غايوس ماريوس حتى سنة ١٠٩ ق.م رئيس أركان حرب في جيش ميتللوس Coecilius Metellus الذي كُلِّف بالقضاء على يورغوتا، وكان ينتمي إلى أصل وضيع، على عكس قائده الأرستقراطيِّ، وقد تدرَّج في سلك الوظائف الشرفيِّ بين سنتَي ١١٩- ١١٥ ق.م وكان منها نقابة العوام، والحاكميَّة القضائيَّة، كما شغل منصب حاكم إسبانيا، وكان متزوِّجاً من عمَّة يوليوس قيصر. وقد كرهه النبلاء لأنَّه دخل مجلس الشيوخ عن طريق المناصب الوظيفيَّة، وليس عن طريق النسب القديم، بينما أحبَّه أبناء الشعب بعدما لعب على وتر مصالحهم[٣]، وذاع ذكره في روما لكونه يتصرَّف بين الجنود كما لو أنَّه جنديٌّ مثلهم لا قائد لهم، حيث كان يصبر كما يصبرون، ويتحمَّل معهم مشاقَّ القتال والألم والجوع والعطش، كما كان يقاسمهم المأكل والمبيت[٤].

كان ماريوس صاحب أخلاق خبيثة، حيث وصفه بلوتارخ بأنَّه صاحب طموح أهوج، وجشع لا يرتوي، جرَّ عليه الخراب وهو في شيخوخته، كما كان رجلاً سريع الإثارة والانفعال، حادَّ المزاج، متهالكاً على الشهرة، سريع الأضغان، ضنيناً على غيره بالشهرة.

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٢.

[٢]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثية الأولى، مصدر سابق، ص٤١.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٢

[٤]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٣٠.

غدر بقائده ميتللوس ولم يعترف بفضله في تعيينه قائداً لأركان جيشه، وادَّعى أنَّ ذلك يعود إلى نسبه لجدِّه، ولم يكتف بذلك بل طعن فيه حيث أوقع بينه وبين صديق عمره المدعو توربيلليوس الذي دبَّر له تهمة الخيانة، فاضطرَّ الصديق لأن يصدر قرار الإعدام بحق صديقه وينفِّذه، ولما ظهرت الحقيقة وتبيَّنت براءة توربيلليوس، راح يفخر بين السرايا بلهجة وقحة بأنَّه هو الذي ورَّط ميتللوس في إعدام صديق عمره[١].

لقد تمكَّن ماريوس من الظفر بمنصب القنصليَّة في سنة ١٠٧ ق.م في عمر الخمسين، نتيجة لانتهازيَّة مشاعر العوام، كما كان صاحب خطب متغطرِسة متعالية، ذات لهجة جارحة قاسية، فكان يقول إنَّه فاز بمنصب القنصل كما فاز بغنيمة حرب، وانتزعها من خنوثة المواطنين الأغنياء، وكانت عامَّة الشعب تسرُّ كثيراً لكلِّ إهانة أو عيب يُقذَف به أعضاء مجلس الشيوخ، وكانت مقاييس عظَمة الخطيب عندهم هي جرأة الخطبة وسلاطتها، لذلك واصلوا تشجيع ماريوس وشدَّ أزره[٢].

عموماً، إنَّ خلفيَّة ماريوس المتواضعة جعلته يسعى لاغتنام الفرصة وكسب المزيد من النفوذ والسلطة[٣].

كانت أول الأعمال التي قام بها ماريوس هو فتح باب التطوُّع في الجيش أمام المفلسين الذين لم يكونوا يملكون النصاب الماليَّ الكافي للانضمام إلى صفوفه، مخالفاً بذلك قانون الخدمة الإلزاميَّة. فكانت نتاج عمله خطيرة للغاية؛ ولعلَّها من أهمِّ الأسباب التي دكَّت معالم صرح النظام الجمهوريِّ لتدشِّن عصر الدكتاتوريَّة العسكريَّة. وكانت النتائج السياسيَّة والدستوريَّة لعمله بالغة الخطورة من حيث أنَّ الخدمة في الجيش كانت تمكِّن الجنديَّ من أن يكون مواطناً حرّاً متمتِّعاً بكامل الحقوق الرومانيَّة ولاسيَّما الحقوق السياسيَّة عندما يعود إلى روما بُعيدَ انتهاء مدَّة خدمته. بيد أنَّ استمرار الحروب اضطُرَّ هؤلاء الجنود

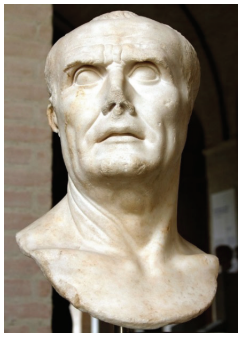
يوس ماريوس

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص٨١٨، ٨٢٢، ٨٢٣.

[٢]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٢٢.

[3]- Kathleen D Toohey., On the Rise of Gaius Marius., ResearchGate 24 March 2016., p.4.

الجدد إلى البقاء فترات طويلة في جبهات القتال؛ حيث توثَّقت العلائق بينهم وبين قادتهم، فاشتدَّ إخلاصهم لهم، وصار الجنديُّ يقسم على الولاء لقائده بعدما كان مقاتلو الرومان من قبل يُقسِمون على الولاء للدولة. وهكذا صار الجيش بعد إصلاحات ماريوس السيف ذا الحدَّين الذي أحسن ذوو الأطماع استغلاله مهدِّدين به من يحول بينهم وبين تحقيق مآربهم، وهذا ما دفع المؤرِّخين إلى اعتبار إصلاح ماريوس خطيراً للغاية على الجمهوريَّة ودستورها؛ لأنَّه وطَّد دعائم الحكم الدكتاتوريِّ العسكريِّ في روما[١].

أما ثاني الأعمال فهو نقل قيادة الحملة ضد يورغوتا إليه بدلاً من قائده ميتللوس، بعدما بيَّن للمسؤولين عجز الأخير عن تحقيق الحسم[٢]، وبالفعل تمَّ له ذلك، واتَّبع نهج سلفه في القتل والتدمير للقرى والمدن التي كان يستولي عليها، ضمن برنامج سياسة الأرض المحروقة[٣]. هذا من جانب، أما من جانب آخر فقد سرق ثمرة جهود ميتللوس الذي كان في الواقع قد أنهى حرب يوغورتا وبدَّد شملها، ولم يتبقَّ شيء ما عدا إلقاء القبض على يوغورتا نفسه، فأتى هو في هذه المرحلة ليجرِّد ميتللوس من ثمره نصره، ويحرمه من موكب النصر الذي يستحقُّه.

لم يكن إلقاء القبض على يوغورتا عملاً بطوليَّاً، فقد تعرَّض للخيانة من والد زوجته ملك موريتانيا الذي سلَّمه إلى خازن الجيش الروماني سولا Sulla فاقتاده هذا الأخير أسيراً إلى قائده، الذي اقتاده بدوره أسيراً إلى روما حيث مات فيها[٤]. وبتسليم يوغورتا تنتهي حرب ضروس استنفدت جهود روما، وكشفت عن المثالب التي تعتوِر نظام الحكم فيها، وقد أدَّت بالدرجة الأولى إلى إضعاف مجلس الشيوخ الروماني، وإظهار مخازي رجاله ودناءتهم، وتلاعبهم بمصير الدولة، وقبول بعضهم بالرشوة من عدوه الدولة من دون الاكتراث لما ستؤول إليه الأمور[٥].

---

[١]- نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص٥٤٥.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٣

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٣١.

[٤]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٢٣.

[٥]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٣١.

قبل أن يعود ماريوس إلى روما -منتصراً من حربه ضد يورغوتا- تعرَّضت روما لخطر داهم من ناحية الشمال، وهو هجوم عنيف قامت به قبائل الكلتين والجرمان وخصوصاً منهم من يطلق عليهم اسم الكمبرى Cimbres والتيوتون Teutones، واستطاعوا أن يتغلَّبوا على الجيوش الرومانيَّة الواحد تلو الآخر، ويقضُّوا مضاجع الرومان. ويذكر المؤرِّخون أنَّه نظيراً لتفوُّق ماريوس العسكريِّ وتعرُّض روما لمخاطر أجنبيَّة، وتذبذبه بين طبقتَي النبلاء والعوام، قبِل مجلس الشيوخ الرومانيُّ إعادة ترشيحه لمنصب القنصليَّة مرَّة ثانية[١]، رغم أنَّ في ذلك مخالفة للقانون الدستوريِّ الذي لا يسمح بانتخاب القنصل بغياب المرشَّح، الذي كان لا يزال في أفريقيا. أما المخالفة الثانية فهي أنَّه لا يجوز إعادة انتخاب القنصل مرَّة ثانية مهما كانت مواهبه، إلاَّ بعد مرور عشر سنوات على انتهاء سنة قنصليَّته الأولى، إلاَّ أنَّ العوام رفضوا كلَّ الاعتراضات بهذا الخصوص، متسبِّبين بارتكاب مخالفة دستوريَّة عظيمة[٢]. عموماً لم تقتصر تلك المخالفة على إعادة انتخابه مرَّة ثانية؛ بل ثالثة ورابعة وخامسة حيث انتُخب خمس سنوات متَّصلة ١٠٤ - ١٠٠ ق.م.

لقد واجه ماريوس التيتون قرب مدينة أيكس في البروفانس سنة ١٠٢ ق.م، وجرت المعركة الفاصلة على ضفَّة نهر الأرك، واشترك فيها رجال التيتون ونساؤهم، وسقط آلاف القتلى منهم؛ حتى أنَّه قضى عليهم قضاء مبرمًا، وسقط ملكهم تويتوبوخ أسيراً بيده. وفي السنة التي تلتها (أي سنة ١٠١ ق.م) واجه الكمبري الذين عبروا جبال الألب إلى سهل البو شمال إيطاليا، حيث فشل القنصل كاتولوس في التصدِّي لهم وإيقافهم عند ممرَّات جبال الألب، فانتظر قدوم ماريوس الذي تمكَّن من القضاء عليهم نهائيًّا، فاعتُبر بطلاً قوميًّا ومنقذًا لإيطاليا، وانتخب قنصلاً للمرَّة الخامسة في سنة ١٠١ ق.م، في حين تراجع دور مجلس الشيوخ الذي ظهر بمظهر الفساد والانحلال وانعدام المسؤوليَّة[٣].

تلك الإعمال دفعت الرومان إلى أن يطلقوا على ماريوس لقب المؤسِّس الثالث لمدينتهم، لأنه أزال عنها خطرًا لا يقلُّ بشاعة عن خطر الغاليين عندما حاصروها في القرن

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٣

[٢]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٢٥.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٣

الرابع قبل الميلاد[١]. لكن كي نحدِّد مدى صوابيَّة تلك الأوصاف علينا أن نلقي نظرة فاحصة بعين المؤرِّخ الناقدة:

أولاً: يجب عدم المبالغة بمديح العبقريَّة العسكريَّة لماريوس والقول أنَّه كان جنرال روما الألمع، فهو لم يحقِّق نصرًا حقيقيًّا حتى سنة قنصليَّته الرابعة؛ فالقضاء على يورغورتا Jugurtha كان بسبب خيانته من قبل والد زوجته، وليس بسبب بطولة ماريوس الذي لم يكن قائد القوَّة التي تسلَّمته مكبَّلاً، وإنما كانت بقيادة سولا. في الحقيقة، إنَّ ما حقَّقه ماريوس يجب أن ينسب إلى الظروف التي خدمته أو التي أوجدته، وأهمُّها الاستياء العامُّ من إدارة مجلس الشيوخ، حيث تلقَّى الرومان خمس هزائم متوالية في الشمال، بينما كان يوغورتا يقدِّم الرشاوى لأعضائه في الجنوب، فبيَّنت تلك الحرب حجم سوء التصرُّف والفساد المتغلغل في أهمِّ جهاز في نظام الدولة الرومانيَّة. إن هذه الظروف القاتمة هي التي دفعت الناس للنظر إلى من يخلِّصهم من هذه الحالة المتردِّية، ولا شكَّ في أنَّ ماريوس طموح، وهيَّأت له الظروف الجو المناسب لتحقيق طموحاته[٢].

ثانياً: يجب أن نعترف أنَّ الحظَّ قد رافق ماريوس حتى في أرض المعركة؛ فمعركة النهر (نهر الأرك) سنة ١٠٢ ق.م التي انتصر فيها على الأمبروتيين كانت من قبيل الصدفة، ولم تكن نتيجة تخطيط وعبقريَّة القائد الملهم، وهذا ما صرَّح به بلوتارخ من دون مواربة[٣].

ما إن انتهى خطر القبائل التي كانت تهدِّد روما بالغزو، حتى تراجعت شعبيَّة ماريوس بين جميع فئات الشعب الروماني، فموقف النبلاء منه مفهوم، لكن موقف العوام لم يكن مفهوماً أبدًا، إنَّهم والفرسان أصرُّوا على انتخابه خمس سنوات متتالية، كونهم شعروا بحاجتهم إليه حين كان الخطر محدقاً بهم على حدود بلادهم؛ ولكن بمجرَّد أن انتهت حربه ضدَّ التيتون والكمبري حتى وجد ماريوس صعوبة في الظفر بالقنصليَّة السادسة[٤]. وقال بلوتارخ إنَّه «لم يفز بقنصليَّة السنة السادسة إلاَّ بعد توزيعه مبالغ طائلة من المال على القبائل، فتمَّ إسقاط

---

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٣٩.

[2]- Kathleen D Toohey., Op. Cit., 2016., p.5.

[٣]- أنظر تفاصيل تلك المعركة في كتاب بلوتارخ، ج٢، ص٨٣٢، حيث يتحدَّث صراحة عن أنَّ النصر كان من قبيل الصدفة.

[٤]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٣٦.

غريمه ومنافسه ميتللوس بهذه الرشوة، وسعى لانتخاب فلاكوس ليكون أداة بيده لا زميلاً له[١]». وهكذا تخلىَّ العوام عن ماريوس تماماً كما تخلُّوا عن جايوس جاكوس من قبله، ويرى كثير من الباحثين أنَّ سنة قنصليَّته السادسة كان بداية العدِّ التنازليِّ لحياته السياسيَّة[٢].

ورغم أنَّ بلوتارخ كان من أشدِّ المعجبين بسيرة غايوس، إلاَّ أنَّه يصف لنا حاله وأساليبه الوضيعة في سبيل الحصول على القنصليَّة السادسة حيث يقول: «أخذ يخطب ودَّ العوام بالتزلُّف إليهم، مستخدماً كلَّ نوع مُتصوَّر من الوعود والتنازلات. ولم يكتفِ بإهانة وظيفته الرسميَّة والحطِّ من مكانة سلطانه الرفيع بهذا السلوك، وإنَّما ابتذل شخصيَّته بمحاولته الظهور بالمظهر الشعبيِّ المتواضع، وهو خُلق بعيد عمَّا جُبل عليه من طبع، كان رجلاً فاشلاً في السياسة، شديد الخفر والإحجام عن مواجهة الاجتماعات العامَّة الشعبيَّة، فترى حضور بديهته المتناهي الذي يواجه به العدوَّ في سائر المعارك، يخذله دائماً كلَّما واجه الجمهور، فيعتريه الاضطراب، ويتغيَّر حاله، ويفلت زمام نفسه لأقل ثناء أو نقد[٣]».

لقد كان ماريوس رجلاً لا يرعى عهداً ولا ذمَّة، تراه يقف في صفوف الشعبيين بعدما احتقره الأغنياء حتى وصل إلى منصب القنصليَّة، فلمَّا أدرك قنصليَّته السادسة سنة ١٠٠ ق.م بعد التملُّق والتزلُّف، ظهر أنَّه لا يمتلك برنامجاً سياسيَّاً، بل كشف عن حقيقته بأنَّه رجلٌ متذبذبٌ في مواقفه ما بين الشعبيين والأرستقراطيين، وسرعان ما تبيَّنت للعوام حقيقة أمره، ما أفسح الفرصة لصديقيه أبوليوس سارتونينوس L. Appuleuis Satirninus الذي كان تريبونا لسنة ١٠١ ق.م وسرفيليوس جلوسيا C. Servilius Glaucia وهو أحد النقباء العوام، كي يقودوا المعركة السياسيَّة معتمدين على التزلُّف إلى الجنود وإلى العوام، ولم يتورَّعا عن استخدام العنف والغوغائيَّة في سبيل تنفيذ مآربهما، إذ انحصر همُّهما في تمديد سلطتيهما وتربُّعهما في مراكزهما[٤]، كما لم يتورَّعا عن الانتقام من ميللتوس -قاهر نوميديا- أشدَّ انتقام؛ عندما حرماه من الماء والنار، (أي نفيه مع تجريده من حقِّ المواطنة ومصادرة

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٤٠.

[٢]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٣٦.

[٣]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٣٩.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٣٤.

أملاكه، وتعرُّضه في حال عودته إلى روما من دون إذن لحرمانه من حماية القانون واستباحة دمه)، وذلك لأنَّه حاول كرقيب في سنة ١٠٢ ق.م حذف اسم جلوسيا من قائمة أعضاء مجلس الشيوخ، ولم يتوانَّ هذا النقيب عن اللُّجوء إلى العنف في أثناء الانتخابات الخاصَّة بنقابة العوام[١]، رغم عدم شرعيَّة ترشُّحه، وبعدما فشل بها أمام منافسه ميميوس Mimmius عَمَدَ إلى اغتياله وإلى إثارة الفوضى، واستغلَّ محاربي جيش ماريوس القدماء للقضاء على المعارضة، الأمر الذي أثار نقمة الرأي العام عليه، ونتيجة لتلك الحوادث العنيفة زادت هواجس طبقة الفرسان فتخلَّت عن مناصرة الحزب الشعبيِّ[٢]. كما أنَّ ماريوس لم ينظر بعين الارتياح إلى تصرُّفات صديقه المشوبة بالعنف، أو أنَّه خشي أن يحتلّ مكانه، فوقع الخلاف بينهما وتصدَّعت الجبهة الشعبيَّة[٣].

إنَّ هذه الطموحات وما رافقها من عنف دفعت مجلس الشيوخ الرومانيِّ إلى إصدار القرار الأخير (أي العمل بقانون الأحكام العرفيَّة) الذي خوَّل ماريوس بموجبه اعتقال أصدقائه السابقين، ونشبت المعركة بين الطرفين في ساحة الفورم، واستطاع ماريوس هزيمة الشعبيين حزبه القديم، ولقي كلٌّ من سارتونينوس وجلوسيا حتفهما في العاشر من ديسمبر سنة ١٠٠ ق.م، وذلك بعدما تعرَّضا للاعتقال في إحدى غرف مجلس الشيوخ، فما كان من العوام إلاَّ أن هاجموا المكان ورجموهما بالحجارة والقرميد المنتزع من سقف البناء، كما أحرقوا منازلهم ودمَّروها، وصادروا ممتلكاتهم، وتمَّ إلغاء ما صدر من تشريعاتهم عن طريق العنف والترهيب. وبهذه النتيجة الخاسرة يُحكم على ماريوس بالفشل؛ إذ لم يستطع أن يحسن التصرُّف مع أصدقائه عندما عجز عن حمايتهم من عنف الغوغاء، أو مع أعدائه الذين يضمرون له الحقد؛ فضعف موقفه تجاههم عندما ساعدهم ضدَّ أصدقائه الشعبيين، وبالتالي انقسم الشعبيون على أنفسهم، بينما اتَّحد الفرسان ومجلس الشيوخ مؤقتاً لوقف أعمال القتل والإرهاب[٤].

---

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٥٩.

[٢]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٣٧.

[٣]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٥٩.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٣٥.

ب. سولا (١٣٨ – ٧٨ ق.م) قائد أول انقلاب عسكريٍّ في تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة

علينا أن نتصوَّر دولة مترامية الأطراف قوامها العبيد، أُنهكت قواها في مجابهة الأخطار الداخليَّة والخارجيَّة، وأوهنها القتال المستمر، قد سلَّمت مقاليدها في آخر الأمر إلى قادة عسكريين أقوياء رهنُ إشارتهم جموعٌ غفيرة من المحاربين القدماء، وكأنَّ الدولة فقدت حقَّها في مطالبة المواطنين بالولاء لها، أو حتى بالاحترام، وحلَّ مكانها قادة عسكريون متنافسون كانوا في الوقت نفسه زعماء لأحزاب سياسيَّة، أو بالأحرى حلَّ مكانها في تلك السنوات زعيمان يستهدف كلٌّ منهما مصالحه الشخصيَّة؛ كان أحدهما ماريوس زعيم الإيطاليين والعوام الرومان، وثانيهما سولا زعيم الحزب الأرستقراطي القديم، وقد ضُرِبَت جميع المبادئ الأخلاقيَّة عرض الحائط في غمرة الأحقاد المستعرة بين الحزبين، والخصومة الشخصيَّة بين الزعيمين، وترافق مع ذلك شبح حرب جديدة أطلَّ من ناحية الشرق، فتسبَّبت قيادة تلك الحرب في احتدام النزاع بين الزعيمين؛ لم تراعَ فيه مصالح الدولة، بل حدث النقيض من ذلك، حيث تسبَّب في قيادة سولا لأول انقلاب عسكريٍّ ضدَّ مؤسَّسة الدولة[١].

كان لوتشيوس كورنيليوس سولا Lucius Cornelius Sulla من الطبقة الأرستقراطيَّة من حيث النسب، إلاَّ أنَّه كان فقيراً معدماً من الناحية الماليَّة، ويعيش في بيت مأجور بثمن بخس، بدأ حياته السياسيَّة بتوليِّ منصب الخازن، ثم لمع كضابط في جيش ماريوس أثناء الحرب ضدَّ يورغوتا[٢]، حتى أنَّه قاد قواته إلى موريتانيا، وتمكَّن من إقناع ملكها بالتخليِّ عن حليفه يورغوتا، ثم أسره وأتى به حيا مكبَّلاً إلى ماريوس الذي زين به موكب نصره في روما[٣]. ولأنَّ شرف منح موكب النصر عُزيَ إلى سولا، حقد ماريوس عليه، وأضمر له السوء في نفسه، والحق يقال إنَّ سولا كان معجباً بنفسه، وازداد غروراً بهذه المآثر؛ فقد ذاع ذكره بين المواطنين، وتوجَّهت أنظارهم إليه ونقلته من الخمول إلى عالم الشهرة، وذاق طعم المجد، ما دفعه إلى التباهي والفخر، وعمد إلى نقش صورة تمثِّل عمله هذا على خاتم لم يفارقه قطُّ،

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧١.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٦

[٣]- إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان، ج٢، مصدر سابق، ص١٨٨.

وظلَّ يستعمله بمثابة ختم[١].

لم تقتصر مشاركة سولا على حرب يورغوتا بل اشترك مع ماريوس أيضاً في صدِّ خطر القبائل البربريَّة عن إيطاليا، وأبلى في حرب الحلفاء بلاءً حسناً. وإذا كانت الحرب ضد يورغوتا قد فتحت الطريق أمام ماريوس ليلمع نجمه، كانت حرب الحلفاء الحدث الأبرز الذي ساهم في سطوع نجمه، ولاسيَّما في المعارك التي خاضها في جنوب إيطاليا حيث استطاع أن ينتزع منهم الانتصار تلو الآخر، الأمر الذي كافأته عليه روما عندما انتخب قنصلاً في الخمسين من عمره؛ أي في سنة ٨٨ ق.م، وهي السنة ذاتها التي انتهت فيها حرب الحلفاء[٢]. ورغم تسلُّمه للقنصليَّة بعد انتصاراته، إلاَّ أنَّ المجتمع الروماني كان ينظر إليه بعين الوضاعة، ويظهر ذلك أنَّه عندما وُفِّق إلى الزواج من كيسيليا Caecilia بنت متيللوس عظيم الكهنة، نظم الشعب مختلف القصائد في التندُّر على هذه الزيجة، وثارت نفوس كثير من الأشراف اشمئزازاً منها، وقالوا إنَّه غير جدير بهذه المصاهرة[٣].

بالعودة إلى الأحداث السياسيَّة؛ فعندما تسلَّم سولا القنصليَّة كانت روما تواجه تهديدات مثراداتيس Mithradates السادس ملك بونتوس Pontus، الذي خلف والده مثراداتيس الخامس على العرش. فقد كان الوالد على علاقات مقبولة مع روما، واكتفى ببسط نفوذه على جيرانه من المدن الصغيرة، بينما ضاق الإبن ذرعاً بالرومان وتدخُّلاتهم في بلاده، وكان أشدَّ طموحاً من والده، فأعلن الحرب على روما، مستغلاًّ فرصة انشغالها بحرب الحلفاء، وهاجم آسيا في سنة ٨٨ ق.م، واصطدم بنيكوميديس حاكم بثينيا (شمال غرب الأناضول)، واجتاح مقاطعة آسيا (مملكة برغامون سابقاً)، ودمَّر القوَّات الرومانيَّة، وحرَّض أهالي المنطقة على التجَّار الرومان فقاموا بقتل ما يقارب الألف مواطن رومانيٍّ في يوم واحد، وصودرت أملاكهم لصالح الخزانة، وهكذا ضمَّ مثراداتيس أجزاء واسعة من الساحل الشماليِّ للبحر الأسود والتي كانت تتمتَّع بمقدار واسع من الثراء، وبذلك أصبح يسيطر على مملكة قويَّة في الشرق بعد تدهور سورية. ولم يكتف مثراداتيس بآسيا الصغرى بل حرَّض بلاد اليونان على

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٩١

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٧

[٣]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٩٥

التحرُّر من الاستغلال الرومانيِّ، والثورة التي سرعان ما امتدَّت حتى شملت العاصمة أثينا، وأخذ أسطوله يجوب بحر إيجة من دون أيِّ عائق[١].

وأمام تطوُّر الأحداث هذه بات من الضروريِّ على روما التخلُّص من هذا الخصم العنيد، فوقع اختيار مجلس الشيوخ على القائد سولا للتخلُّص من مثراداتيس، وطلب مجلس الشيوخ الرومانيِّ تجهيز خمس فرق ليتمكَّن من تنفيذ المهمَّة التي كلِّف بها، إلاَّ أنَّ الحرب الأهليَّة ما لبثت أن نشبت في روما، بسبب التنافس على قيادة الحملة، ولاسيَّما أنَّ الحملات الرومانيَّة للشرق كانت تضمن للقادة الشجعان الكثير من المجد والثروة، وكان من الطبيعيِّ أن يشعر ماريوس العجوز بالغيرة من مساعده السابق الذي كُلِّف دونه بحرب مثراداتيس، ولقي تأييد الفرسان الذين تأكَّدوا من أنَّ سولا سيكون نصيراً قويَّاً لمجلس الشيوخ ضدَّهم[٢]. وقد أخذ حزب ماريوس يعمل بشتَّى الوسائل لمقاومة قيادة سولا للحملة، واستعانوا بنقيب العوام دوفوس. وما كاد سولا يجمع جيشه خارج أسوار روما ويلحق به، حتى علم بانقلاب ماريوس عليه، عن طريق دوفوس الذي اتَّخذ من الفرسان حرساً خاصَّاً به واستصدر قراراً من الجمعيَّة القبليَّة بتسلُّم ماريوس قيادة الحملة بدلاً من سولا[٣]. فما كان من الأخير إلاَّ أن وجَّه جيشه إلى العاصمة، ولم يكترث بانسحاب ضبَّاط الأرستقراطيين من جيشه عندما قصد العاصمة روما، معتبرين عمله طيشاً وبربريَّة، لقد شكَّل زحفه هذا سابقة خطيرة في استخدام العنف ضدَّ الدولة، في سبيل الحصول على سلطة سياسيَّة، حيث كانت هذه المرة الأولى التي يُستخدم فيها الجيش في حلِّ المنازعات السياسيَّة[٤]، ولم يكن خصومه قد استعدُّوا لمثل هذه الخطوة التي اعتُبرت سابقة خطيرة في تاريخ الدولة الرومانيَّة، ودارت معركة قصيرة على أبواب روما بين جيش سولا من طرف، وأنصار حزب ماريوس من طرف آخر، انتهت بهزيمتهم، ومقتل نقيب العوام دوفوس وهروب ماريوس إلى شمال أفريقيا،

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٧

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٤١.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٨

[4]- Hannah Szapary., Playing Offense: A Deeper Look into the Motivations and Significance of Sulla's March on Rome., Brown University., Classics and Applied Math – Biology., Class of 2019, p.1.

الذي أعلنه سولا خارجاً عن القانون[١].

لقد أثار سولا بإجراءاته هذه امتعاضاً عظيماً في نفوس أعضاء مجلس الشيوخ، لكنه ظلَّ خفيَّاً إذ لم يجرؤوا على المجاهرة به، إلاَّ أنَّ سخط العوام واستنكارهم تجلَّى في تصرُّفاتهم؛ فقد اجمعوا على رفض ترشيح سرفيوس (وكان محسوباً عليه) ونونيوس (وكان ابن أخيه) لمنصب القنصليَّة لسنة ٨٧ ق.م، بالفعل فشل مرشَّحاه في انتخابات القنصليَّة، وانتخبوا غيرهما نكاية به وازعاجاً له، فتظاهر بالرضا التام عن كلِّ هذا، بينما فاز مرشَّح الشعبيين سينّا Cinna أحد أصدقاء ماريوس، أي من الحزب المعارض له، وقبل سولا بذلك تسكيناً لعداء الجماهير[٢].

خرج سولا من روما -غير مطمئنٍّ للوضع فيها- على رأس قوَّاته في سنة ٨٧ ق.م بصفته قنصلاً لمواجهة مثراداتيس، وكان يعلم في قرارة نفسه أنَّ نصره عليه هو الذي سيسمح له بالعودة إليها. كان خروجه أشبه بالهروب، وما أن خرج حتى أخذ سينّا يدعو لمحاكمته، كما أخذ يتحدَّى مجلس الشيوخ بدعوته لتسجيل الإيطاليين ضمن القبائل الرومانيَّة الخمس والثلاثين. إلاَّ أنَّ زميله في القنصليَّة أوكتافيوس Octavius وقف إلى جانب المجلس وطبقة النبلاء، وحدثت صدامات مسلَّحة في العاصمة روما بين أنصار الفريقين، وسرعان ما تطوَّرت هذه المصادمات إلى صراع سياسي ونزاع مسلَّح مفتوح، حيث جمع سينَّا أنصاره من الإيطاليين، وقتل أوكتافيوس، واستدعى ماريوس من أفريقيا، وهجم على روما واستولى عليها بعدما قتل ١٠ آلاف من سكانها، وانتخب ماريوس قنصلاً للمرة السابعة سنة ٨٦ ق.م، ولكن القدر لم يمهله ليقطف ثمار ظفره الدمويِّ، إذ مات بعد أيام عن عمر يناهز السبعين، فوقع على عاتق سينّا قيادة الحرب ضدَّ سولا[٣]، فاستطاع أن يؤمِّن فوزه في القنصليَّة في انتخابات سنة ٨٥ ق.م وهي المرة الثالثة التي كان يتولَّى فيها ذلك المنصب، فشرع مع زميله كاربو Carbo في حشد القوَّات اللاَّزمة لملاقاة سولا عند عودته من آسيا الصغرى، وقد أطال

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٨

[٢]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٩٩

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٨

هذان القنصلان مدَّة خدمتهما للعام التالي (٨٤ ق.م) وهو أمر يتنافى والدستور الرومانيِّ[١].

كان سولا في هذه الأثناء يخوض حربه في آسيا؛ حيث تمكَّن من طرد مثراداتيس من بلاد اليونان، وتتبَّعه في آسيا، وأجبره على أن يتخلَّى عن جميع الأقاليم التي كسبها في آسيا الصغرى، كما أجبره على دفع غرامة حربيَّة كبيرة لروما كتعويض عن جهدها الحربيِّ، وعقد سلام معها، وأن تعود العلاقات إلى سابق عهدها. في الواقع كان بوسعه أن يقضي عليه نهائيَّاً لولا أن وصلته الأخبار عن تأزُّم الوضع من جديد، فترك إقليم البونت له وقرر العودة إلى روما[٢]. وما يؤخذ على سولا أنَّه تناسى دماء الألف مواطن رومانيٍّ الذين ذبحوا في يوم واحد، وعندما ألتقى جيشه بالجيش الرومانيِّ التابع لحزب ماريوس في إقليم ليديا، والذي أُرسل لمعاقبته، استطاع أن يستميل جنود ذلك الجيش إليه، مما اضطرَّ قائده إلى الانتحار، بعدما فرغ معسكره من جنوده[٣]. في الواقع، لم يكن سولا أقلَّ ذنباً من ماريوس وسينَّا في تقويض دعائم الدولة الرومانيَّة، فقد عمل على إفساد الجيش من أجل مصالحه الخاصَّة؛ فتراه ينقلب كريماً جوَّاداً يحبب إليهم حياة الفسق والفجور، مغرياً جنود الآخرين بالانتفاض على رؤسائهم والغدر بهم، فلا غرابة في أن يكون بحاجة دائمة إلى الأموال الطائلة[٤].

بعدما تحقَّق النصر لسولا وجمع أموالاً طائلة، قرَّر العودة إلى روما التي كانت بيد الشعبيين وقائدهم سينَّا الذي كان يعلم مدى المودَّة التي رسَّختها الحرب بين الجنود وقائدهم في الشرق، ويعي حجم الأموال التي جمعها سولا في حربه، فأدرك الخطر المحدق به، فأراد أن يخفَّ لملاقاة عدوِّه قبل أن يعبر إليه، وبينما كان يستعدُّ لملاقاته في انكونا إحدى بلدات مقدونية في سنة ٨٤ ق.م، وقعت فتنة في جيشه، وحاك الجنود مؤامرة ضدَّه انتهت بمقتله في السنة ذاتها. وانتقلت مهمَّة الصراع مع سولا إلى كاربو زميله في القنصليَّة[٥]، لم يجرِ كابو انتخابات لاختيار زميل له، محتفظاً وحده بالمنصب بحجَّة ظهور طالع سيّىء، وهذا أيضاً تصرُّف يتعارض والدستور الرومانيِّ، وكان مجلس الشيوخ يرغب في حقن الدماء كما كان

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٩.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٩

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٤٥.

[٤]- بلوتارخ، ج٢، ص٩٠١

[٥]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٤٦.

يخشى على مصالحه، إلاَّ أنَّ كابو حال دون إجراء أيِّ مفاوضات[١].

سولا

عاد سولا في سنة ٨٣ ق.م إلى روما، ونزل في ميناء برنديزي Brundisium على رأس قوَّة عسكريَّة كبيرة، فلم ينتظر مجلس الشيوخ وصوله، بل بدأ بالمفاوضات معه أملاً في تجنُّب حرب أهليَّة جديدة، فأصرَّ الأخير الذي كان يعرف ضعف الشيوخ ولا يثق بالتعاون معهم على إعادة المنفيين والتعويض عليهم وعليه من أموالهم التي كان ماريوس قد صادرها، وفي خلال ذلك كانت قد انتهت مدَّة حكم القنصل كاربو، وتمَّ انتخاب قنصلين جديدين هما جايوس بورنابوس Gaius Norbanus ولوكيوس سكيبو Lucius Cornelius، فما كان من القنصلين الجديدين إلاَّ التحالف مع قنصل السنة الماضية، واعتمد الثلاثة على تأييد السمنيين لهم ضدَّ سولا (كان السمنيون يحقدون على سولا بعد الهزيمة القاسية التي ألحقها بهم خلال حرب الحلفاء)، واستعدُّوا لمواجهته في إيطاليا[٢].

كان سولا أقوى قائد عسكريٍّ يسيطر على أكبر جيش رومانيٍّ موجود خارج إيطاليا، قدِّر عدده ما بين ٤٠ - ٣٠ ألف جندي من المحاربين المخضرمين، وفي طريق زحفه إلى روما سنة ٨٣ ق.م خرج شبابها الأرستقراطيون لملاقاته وكان أهمُّهم بومبي (ابن بومبيوس سترابون قنصل سنة ٨٩ ق.م، وميتيللوس بيوس ابن ميتيللوس قاهر نوميديا، وكراسوس وهو شاب قدير عاد من إسبانيا وكان أبوه قد تولَّى قنصليَّة عام ٩٧ ق.م ولقي حتفه أيام الإرهاب على يد أنصار ماريوس).

وقد دخل سولا روما دخول الظافرين، بعدما هزم القنصلين في معركة بوابة الكولين Colline Gate سنة ٨٢ ق.م وانتهك خلالها حرمة أسوارها[٣]. وبعدما أصبح سيد الموقف بدأ بشنِّ حرب شعواء على خصومه ذهب ضحيَّتها ستة آلاف رجل من سكَّانها، حيث

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٩.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٤٦.

[٣]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٨٠.

وضعهم في محلٍّ واحد، وأمر بذبحهم بأيدي رجال عيَّنهم لهذه المهمَّة، وفي الوقت الذي كان يخطب في اجتماع لمجلس شيوخ المدينة في معبد بللونا بدأت المجزرة وتعالت صرخات هذا الحشد الكبير عندما راح السيف يعمل في رقابهم من الفسحة الضيقة التي حشروا فيها، حتى تناهى إلى أسماع المجتمعين فأجفلوا لها، ولم يكترث سولا بل استمرَّ في خطابه هادئاً، طالباً منهم الانتباه إلى ما يقوله وعدم اشغال إذهانهم بما يجري في الخارج، فكلُّ ما هنالك أنَّه أصدر تعليمات بخصوص عقاب بعض المجرمين، ومن هذا المنطلق أدرك حتى أغبى الرومان أنهم لم يتخلَّصوا من الطغيان بل استبدلوه بطغيان آخر ليس إلاَّ[١].

اللاَّفت أن الشعبيين فتكوا بأنصار سولا أثناء غيابه في الشرق، وحاول حزب ماريوس الانقضاض على خصومه السياسيين محاولاً قطع دابرهم بالاغتيال والتقتيل، واختفت روح التسامح وانطلقت وحشيَّة الرومان التي فطروا عليها من عقالها، فلما عاد سولا من الشرق في ربيع سنة ٨٣ ق.م، وما إن تمكَّن من روما حتى مال إلى الإرهاب والفتك بأرواح الناس، وانتقم لنفسه وحزبه بمذابح أشدَّ هولاً من مذابح ماريوس، وخسرت إيطاليا بذلك آلافاً عديدة من أبنائها، فأين ذهبت السجايا التي يتحدَّث عنها الرومان من الاتِّزان والإحساس بالمسؤوليَّة والشعور بالواجب[٢]. لا بل إنَّ الأمرَّ من ذلك أنَّه لم يكتف بالشعبيين سنة ٨٢ ق.م، ولا حتى بقبائل السمنيين التي بطش بها، بل تعدَّاهم إلى أثرياء روما الذين أصدر قوائم بأسمائهم. لقد كان بحاجة ماسَّة إلى المال والأراضي حتى يتمكَّن من توطين جنوده، حتى أنَّه ارتكب حمَّام دم لأثرياء المدينة ذهب ضحيَّته نحو ٤٧٠٠ ثري[٣]، ناهيك بالفرسان الذين وردت أسماؤهم في قوائم سولا، وبلغوا نحو ألف وستمائة فارس، وحوالي أربعين من الشيوخ بيعت بيوتهم بالمزادات العلنيَّة تحت إشرافه، كما حرَّر عبيدهم[٤] وعمَّم عقوبة رفع الحصانة على كلِّ مدن إيطاليا ولم يقصرها على روما، وتدفَّقت الدماء في كلِّ مكان، وسالت كما السيل، ولم يعد ينفع اللُّجوء إلى هياكل العبادة أو منازل الأسلاف أو مواقد المستجار بهم، وكان الرجال يذبحون وهم في أحضان زوجاتهم، والأطفال ينحرون على

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص٩١٩، ٩٢٠.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٨٢.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٠

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٤٧.

صدور أمهاتهم، وكان عدد الذين راحوا ضحيَّة غناهم أكثر بكثير ممن راح ضحيَّة العداء الشخصيِّ ومعارضته النظام القائم[١].

كما جعل سولا من نفسه في أواخر سنة ٨٢ ق.م دكتاتوراً لمدَّة غير محدودة (رغم أنَّ الدستور الروماني لا يجيز للديكتاتور أكثر من ٦ أشهر فقط)، وهي وظيفة كان الرومان قد تحاشوها طوال ١٢٠ سنة، وخلال فترة الديكتاتوريَّة مارس على الرومان كلَّ أنواع الاستبداد، حيث كان يبيع الأملاك التي صادرها ممن قتلهم بالسعر الذي يشاء ولمن يشاء، حتى لو كان المشتري مومساً أو بهلواناً أو عازف موسيقى، وكان يقتل كلَّ من لا يطيع أوامره أو يخالف رغبته، مثلما فعل بـ أوفيلا Ofella ضابطه الذي كان على رأس الجيش الذي كان يحاصر فلول أعدائه في برينست، والذي رشَّح نفسه للقنصليَّة، لكنَّه عارض الفكرة، ولما أصرَّ الضابط على رغبته، أرسل إليه من قتله وسط المواطنين. ووصل به الأمر إلى حدِّ تطليق نساء أزواجهنَّ وتزويج رجال آخرين بهنَّ، وهو ما فعله عندما أجبر بومبي على أن يطلِّق زوجته، ثم زوَّجه من إيميليا Emilie ابنة زوجته وميتيلا Metella من زوجها السابق سكاروروس Scaurus، وذلك بعدما أرغم زوج إيميليا وهو كلابريو Glabrio على تطليقها رغم أنَّها كانت حاملاً منه[٢]. وبحلول سنة ٨١ ق.م كان قد قضى على كلِّ معارضة له في إيطاليا. وسنة ٨٠ ق.م جمع بين الديكتاتوريَّة والقنصليَّة، وهو ازدواج نادر وإن كان على ما يبدو مشروعاً[٣].

وبموجب السلطة الممنوحة له كديكتاتور، أصدر سولا جملة من القوانين ألغى بها كثيراً من امتيازات العامَّة، وعمل على تأكيد سلطة مجلس الشيوخ[٤]، حيث كان يرى أنَّ ذلك المجلس العظيم ينبغي أن يكون محور الحكومة وعمودها الفقريِّ، وأنَّ الجمعيَّات الشعبيَّة التي لا خبرة لها بدراسة المسائل وتصريف الشؤون العامَّة لا تستطيع أن تنهض بالأعباء الإداريَّة. ورغم أنَّ جميع النظريَّات الدستوريَّة تؤكِّد أنَّ الشعب هو صاحب السيادة، فإنَّه رأى أنَّ مجلس الشيوخ، تلك الهيئة التي تركَّزت في يدها مقاليد الحكم من الناحية

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص٩٢١

[٢]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٥٨.

[٣]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٨٣.

[٤]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٠

العمليَّة منذ القِدم بمقتضى دستور غير مكتوب، يجب أن تحكم بموجب قانون مكتوب، لذلك أصدر قانوناً هامَّاً وخاصَّاً بالخيانة العظمى Maiestas، وهو الأول في كتاب الشرائع الرومانيَّة، ليجعل من المستحيل تقريباً على أيِّ شخص أن يتحدَّى المجلس من دون أن يتعرَّض للسقوط السياسيِّ، وهكذا ليس هناك في التاريخ مثال أوضح منه للتدليل على أنَّ الإصلاحات الدستوريَّة تتوقَّف على الروح التي تصدر عنها[١].

قام سولا بوضع العديد من التشريعات كان الهدف الأساسيُّ منها هو تقوية مركز مجلس الشيوخ، وإضعاف القوى الشعبيَّة؛ فحقُّ النقض الذي كان يتمتَّع به نقباء العوام اقتصر الآن استخدامه على الدفاع عن الأشخاص وفقاً لمبدأ حقِّ المساعدة، ولم يعد يحقُّ للمواطنين أن يعرضوا مشاريع القوانين التي يرغبونها على الشعب قبل أن يوافق عليها المجلس. كما حرم المحامين من شغل المناصب السياسيَّة الأخرى لمدة عشر سنوات بعد انتهاء فترة المحاماة، وبذلك أصبحت نقابة العوام غير مرغوب بها من قبل الطامحين. وبإعادته حقَّ ممارسة أعمال المحلَّفين للشيوخ وحرمان الفرسان منها يكون قانون جراكوس قد زال من الوجود. كما ألغى عادة توزيع القمح على المواطنين.

لم يقتصر سولا على ضرب التمثيل الشعبيِّ في مؤسَّسات الدولة في شخص نقباء العوام، بل تعدَّاه إلى تركيز السلطات في يد مجلس الشيوخ، فانتزع من الجمعيَّة المئويَّة حقَّ اختيار الأشخاص الذين يتولُّون سلطة الأمبريوم العسكريَّة وأعطاها للمجلس، وفرض موافقته على مشاريع القوانين التي تُقدَّم للجمعية[٢].

وأعاد سولا تنظيم سلك المناصب الشرفيَّة في روما، وفقاً لترتيب جديد يبدأ بمنصب الكويستير (وزير الماليَّة) ثم البريتور (القاضي)، وفي قمة الهرم جعل منصب القنصل، وقـيَّـدَ الترشُّح لكلِّ وظيفة بسنٍّ معينة؛ بحيث يبدأ المرشَّح بتوليِّ منصب الكويستور عند سنِّ الثلاثين كحدٍّ أدنى، ثم يتولَّى منصب البريتور في سنِّ التاسعة والثلاثين، أما منصب القنصل فلا يشغله قبل سنِّ الثانية والأربعين، وزاد عدد البريتور إلى ثمانية والكويستور إلى عشرين، وقصر التعيين في حكم الولايات الرومانيَّة على طبقة الأشراف من ذوي المرتبة

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٨٤.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٤٩، ٢٥٠.

القنصليَّة والبرايتوريَّة، بحيث يتولىَّ مجلس الشيوخ سنويَّاً تعيين هؤلاء الحكام وتحديد ولاية كلٍّ منهم، وكذلك تحديد عدد القوَّات الرومانيَّة المرابِطة في كلِّ ولاية، وزاد عدد أعضاء مجلس الشيوخ من ٣٠٠ إلى ٦٠٠ عضواً، وملأ الشواغر الجديدة بمؤيِّديه، وبذلك كسب هؤلاء الأعضاء إلى صفِّه[١].

وإذا كانت تشريعات سولا قد ساهمت في عودة الهيبة إلى مجلس الشيوخ، إلاَّ أنَّها لم تفعل شيئاً على صعيد تصحيح ما أصابه من احتكار للسلطة اتَّسمت بالأنانيَّة العمياء، الأمر الذي جعل موضوع الاستقرار السياسيِّ مستحيلاً، وموضوع اغتصاب السلطة العسكريَّة محتوماً، وكانت المواطنيَّة الرومانيَّة قد امتدَّت منذ عهد قريب إلى مختلف أرجاء إيطاليا تقريباً، إلاَّ أنَّ هؤلاء المواطنين الجدد المبعثرين في المدن الصغيرة والأرياف لم يكن لهم التأثير الفعَّال في استقرار الأمور ورسوخها على نحو ما كان متوقَّعاً منهم، وذلك لأنَّ حقَّهم في الانتخابات كان غير ذي جدوى تبعاً لحاجتهم إلى من يمثِّلهم، سواء في عمليَّة صنع القانون أم في عمليَّة انتخاب الحاكم[٢].

أمَّا إذا أردنا أن نحكم على إصلاحات سولا فيمكننا القول أنَّ الرجل الذي آلت إليه مقاليد الحكم في روما وقتئذٍ، لم يستطع أن يوحِّد بين مصالحه ومصالح الدولة العليا؛ لأنَّه كان بالفطرة مجرَّداً من روح العطف، ممَّا سلبه القدرة على تبيُّن حقيقة تلك المصالح. وقد قُورن بنابليون، والمقارنة صحيحة من وجهة أو وجهتين، ولكنَّهما يختلفان كلَّ الاختلاف في نقطة جوهريَّة وهي القدرة على الإدراك المشوب بروح العطف. فنابليون، على قسوته والتوائه في معظم الأحيان، أظهر بوضوح عند تنظيمه شؤون فرنسا وسويسرا ومصر أنَّه يدرك حاجات تلك الأمم فابتكر لها من النُّظُم ما يعينها على الخروج من حالة الركود، أما سولا، في المقابل، فرغم إدراكه أنَّ الظروف تتطلَّب إقرار النظام بأيِّ ثمن، وحفظ السلام، وتدعيم الحكومة، والقيام بالإصلاح، إلاَّ أنَّه أقبل على عمله بروح تنمُّ عن عدم اغتباطه به، أو اكتراثه بالشعب الذي يشرِّع له، وقد حقَّق فعلاً ما تطلَّبته الظروف، لكنه نفَّذه بالقسوة المستترة تحت

[١]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر رجل كل العصور، حياة أسطوريَّة ونهاية مأساويَّة، دار الكتاب العربي، دمشق -القاهرة ٢٠١٢م، ص٦٩.

[٢]- بيتي راديس، فتح بلاد الغال يوليوس قيصر، ط٢، ترجمة؛ علي زيتون، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠٧، ص٨.

قناع دستوريٍّ؛ ولذلك لم يبتهج أحد من العقلاء بعمله، ولم يشعر الشعب الرومانيُّ عامَّة بأيِّ ولاء نحوه[١].

وإذا أردنا أن نحكم على شخصيَّة سولا في التاريخ الرومانيِّ، فلا يمكن لنا ذلك إلاَّ إذا استعرضناها ضمن الإطار الذي وُجِدت فيه. فقد تمخَّضت الحروب الاجتماعيَّة عن قائد عسكريٍّ طموح، وجد نفسه يبرز في مجتمع أنهكته الصراعات الطبقيَّة، ومزَّقه تداعي مؤسَّساته الحكوميَّة وتفسُّخها، فلم يسمح له طموحه الشديد بأن يضيع الفرصة، وما كان عليه إلاَّ أن ينحاز إلى أحد الفريقين المتصارعين، وبالتالي أن يبطش بكلِّ قوَّة بعناصر الفريق المعادي، وعندما يشعر بالملل ينسحب من مسرح السياسة لينعم بملاذ الحياة.

لم يكن سولا رجل سياسة بل رجلاً عسكريَّاً؛ فهو على النقيض من جايوس جراكوس أو غيره من مصلحي السنوات السابقة، لم يأتِ إلى الحكم ببرنامج سياسيٍّ بنَّاء، بل اعتقد أنَّ المال والقوَّة العسكريَّة والبطش هي الطريق المؤدِّي إلى السلطة، ولم يتورَّع عن نهب المال من المعابد والمدن تحقيقاً لغايته[٢].

ولمَّا كان في معرض الفخر والتباهي بنفسه، والمبالغة في وصف مغامراته في ليبيا، ردَّ عليه رجل من كبار القوم بقوله: «وكيف يتَّفق أن تكون نزيهاً وأنت الآن بهذه الدرجة من الثراء حين لم يخلِّف لك أبوك شيئاً»! فلم يكن العصر الذي عاش فيه عصر استقامة ونزاهة بل تسرَّب الانحلال في الأخلاق، وسقطت النفوس في أحضان الجشع وشهوة المال والترف، إلاَّ أنَّ الرأي العام بقي ينظر بعين السخط الشديد إلى من ضاق صدره بفقر أسرته المتوارَث فطلب الغنى[٣]. وفوق هذا وذاك، تجاهل مشاكل عصره الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة عندما حاول تعطيل المشاريع الإصلاحيَّة، وضحَّى بالحريَّات الشعبيَّة تأميناً لمستقبله الذي ربطه بمصالح طبقة النبلاء، كما فشل في محاولة إعادة إحياء مجلس الشيوخ، فهو لم يتمكَّن أكثر من إعادة هذا المجلس إلى الوضع الذي كان عليه من قبل، وهو وضع أثبت مراراً عجزه عن

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٨٣، ٨٤.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٥٠، ٢٥١.

[٣]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٨٩

الاستمرار فيه، كما أنَّ المجلس والقناصل كانوا لا يتصرَّفون إلاَّ وفقاً لإرادة الديكتاتور[١].

لقد كان مثل سولا الأعلى في الحكم هو نظام الحكم الملكيّ، والسلطة المطلقة التي تستعين بمساهمة الطبقة الأرستقراطيَّة وبإخلاص الجيش، وهو لم يتورَّع عن ضرب النقود باسمه وتوشيحها بصورته، مضيفاً إليها لقب الديكتاتور، وفي ذلك تجاوز صارخ على سلطات مجلس الشيوخ الذي كان ينفرد بحقِّ إصدار النقود؛ لذلك يمكن اعتباره من خلال طريقة حكمه ومفهومه للدولة مقدِّمة للقيصر وأغسطس أول مؤسِّس للكيان الأمبراطوريِّ الرومانيْ. وأخيراً، لم يمتدَّ تفكير سولا السياسيُّ إلى المستقبل القريب ليؤمِّن للدولة الرومانيَّة حكومة ثابتة، بل ترك الدولة لمصيرها الذي سيرسم القادة العسكريون والجيوش المحترفة صورته القاتمة. وكما هو متوقَّع، لم يتمكَّن القادة المتنافسون من حلِّ خلافهم إلاَّ باستخدام الجيش واللُّجوء إلى العنف، وهذا ما تمَّ في عهد خليفته المقبل بومبي[٢].

يصف بلوتارخ سولا بأنَّه كان مفطوراً على حبِّ المزاح والتندُّر، مما جعله دائم الاختلاط بالممثلين ومشاهير المهرِّجين، كثير الصحبة لهم في دروب الغواية والملذَّات السافلة، وظلَّ على هذه العادة حتى بعدما أصبح السيد الأعلى على روما؛ فكان يجمع سفَلة لاعبي المدينة وأوباش ممثِّليها، فيساقيهم الرَّاح ويبادلهم المزاح، من دون اعتبار لسنِّه ومقامه السامي، تاركاً الأمور الهامَّة التي تتطلَّب منه الرعاية والاهتمام، ولم يكن من طبيعته أن يسمح بأيِّ حديث جدِّيٍّ عند جلوسه إلى المائدة، في حين تراه في سائر الأوقات رجل عمل وكدٍّ، لا يعرف البُشر والابتسام وجهه، فهذا العبوس يعتريه انقلاب عامٌّ مفاجئ، ويتحوَّل إلى بشاشة لا حدود لها، حالما يحتويه مجلس شراب ومنادَمة، فينشرح صدره، ويستخفُّه الطرب بين أهل الرقص والغناء والوضعاء، وكان على أتمِّ الاستعداد لإرضاء كلِّ من يقصده محدِّثاً، وظلَّ مدَّة طويلة يعشق ممثِّلاً اسمه ميتروبيوس Matrobius [٣].

ويقول بلوتارخ: بدا سولا شخصيَّة حافلة بالمتناقضات، قلقَ النفس لا يقرُّ قراره على اتِّجاه خلقيٍّ ثابت، مفرطاً في استسلامه للحنق وأكثر، غير شاعر بأيِّ مسؤوليَّة في إعزاز من

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٥١.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٥٢.

[٣]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٩٠.

يشاء وإذلال من يشاء، ذليلاً أمام من كانت حاجته عندهم، متجبِّراً على من تكون حاجتهم عنده؛ ولذلك يصعب الحكم في أيهما أغلب على طبعه: عزَّة النفس أم وضاعتها! وتراه أظلم الناس في العقاب، يسلِّم المرء إلى العذاب لأتفه دليل. ويصبر صبراً عظيماً على أعظم الزلل. تجده يصفح ويصفو حالاً بعد أشنع عمل من أعمال الحقد والعداء، في حين يفرض حكم الموت ومصادرة الأموال لأبسط المخالفات والهفوات، فلا مندوحة للمرء من أن يحكم على طبعه بالعنف وحبِّ الانتقام[١].

على أنَّ تشريعات سولا لم تكن جميعها ذات طابع سياسيٍّ بحت، وخصوصاً ما يتعلَّق منها بإعادة تنظيم سلك الوظائف الشرفيَّة، والقانون الجنائيِّ، وإجراءات الدعوى الجزائيَّة، إذ كانت جميعها أعمالاً قيِّمة؛ لذلك لم يحاول من تسلَّم السلطة بعده إلغاءها، فظلَّ بعضها قائماً طوال فترة الحكم الرومانيِّ.

في الواقع، لقد قصد أن يعيد مجلس الشيوخ إلى مركزه القديم الذي تمتَّع به قبل ظهور تيبيروس، وأن يوطِّد سلطة ذلك المجلس، ويضمن استمراره في ذلك المركز[٢]، ووصل الأمر به إلى حدِّ أن انتزع من الجمعيَّة المئويَّة حقَّ اختيار الأشخاص الذين سيتولُّون السلطة العسكريَّة، وأعطاها لمجلس الشيوخ، وفرض موافقته على القرارات المقدَّمة للجمعيَّة المئويَّة؛ لكن المجلس أثبت في أكثر من مناسبة أنه لم يعد قادراً على الاستمرار في مركزه القديم[٣].

مهما يكن من أمر، فإنَّ سولا تعرَّض لاتِّهامات بأنَّه يريد جعل سلطته دائمة، فاستقال بعد مرض ألمَّ به عام ٧٩ق.م، ثمَّ مات في السنة اللاَّحقة (٧٨ق.م)، ولم يمضِ على موته الكثير حتى انهارت حكومته وأعيدت لأصلها.

ت. بومبي الكبير

بومبي هو جنايوس بومبي (١٠٦ - ٤٨ ق.م) ابن بومبيوس سترابون قنصل عام ٨٩

[١]- بلوتارخ، المصدر نفسه، ص٨٩٤.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٠.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٥٠.

ق.م. وكان قد اشترك مع أبيه في الحرب الإيطاليَّة، وعندما علم بقدوم سولا إلى إيطاليا في سنة ٨٣ ق.م جمع جيشاً لمساندته، وأحرز انتصارات عدَّة على أعدائه خلال سنتي ٨٣ و ٨٢ ق.م، وعندما أصبح سولا سيِّد البلاد أسند إليه في أواخر سنة ٨٢ ق.م قيادة حملة ضد أنصار ماريوس وكسينا في صقلية وأفريقيا (نوميديا)، مع تخويله سلطة الأمبريوم التي يتمتَّع بها البريتور البديل Propratore مع أنَّه لم يكن قد تقلَّد أيَّ منصب عامٍّ قبل ذلك[١]. وبينما كان سولا منهمكاً في إصلاح أجهزة الدولة ودستورها، كان هذا الشباب الأرستقراطيُّ يقوم بتصفية فلول الشعبيين في جزيرة صقلية وأفريقيا[٢]، حيث قتل نحو سبعة عشر ألف من أنصار دميتيوس Domitius[٣]، وفتك برموزهم من دون رحمة؛ وكان أهمَّهم كوينتوس فاليريوس Quintus Valerius وهو رجل مشهور بعلمه وأدبه[٤].

لقد استطاع هذا الضَّابط الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، أن يحقِّق انتصارات كبيرة على أعدائه كانت سبباً في لفت الأنظار إليه[٥]، وفرض وجوده واحترامه بهذه الانتصارات؛ حتى أنَّ سولا كان يقف احتراماً له، ويحسر عن رأسه كلَّما دخل عليه، وهو احترام قلَّ أن أظهره حتى لمن يكبرونه سنَّاً[٦]، لا بل إنَّه منحه لقب «بومبي ماكنوس Magnus» أي بومبي الكبير تكريماً له، إلاَّ أنَّ ذلك اللَّقب لم يكن يكفي طموحاته، فأذن له سولا على مضض أن يحتفل بنصره في شتاء ٧٩ ق.م، وأن يدخل روما بموكب خاصٍّ به، بعدما ألحَّ عليه في منحه ذلك الشرف، رغم أنَّ القانون لا يسمح بالقيام بذلك إلاَّ للقناصل والبريتوريين[٧]. فما هي الأسباب التي جعلته يذعن له مع فارق السن الكبير بينهما؟! في الواقع ليس صحيحاً ما يروِّج له بعض المؤرِّخين من أنَّ سولا لم يكن راغباً في خوض غمار حرب أهليَّة جديدة يكون النبلاء وقودها هذه المرَّة، لا بل لأنَّه أدرك القوَّة الحقيقيَّة لبومبي

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٠٢.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٥٠.

[٣]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٦٤.

[٤]- بلوتارخ، ج٢، ص١١٧٧.

[٥]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٥٠.

[٦]- بلوتارخ، ج٢، ص١٠٤٥.

[٧]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٠

الذي كان أفضل الضبَّاط الذين خدموا تحت رايته، أضف إلى ذلك وجود ست فرق عسكريَّة رومانيَّة تحت يديه في أفريقيا، مع وجود أسطول رهن إشارته، وكان هناك احتمال كبير أن تؤيِّده نوميديا وموريتانيا، هذا بالإضافة إلى صِلاته القويَّة مع «غالة» القريبة، وولاء بعض مدن إيطاليا له مثل بيكينوم، في وقت لم تكن أحوالها قد هدأت تماماً[١].

ومن المفيد القول هنا أنَّ جور سولا وبطشه الشديدين بالسمنيين والأتروريين واللوكانيين، ومصادرة أموالهم وأراضيهم لتوطين جنوده ومكافأتهم، خلَّف في قلوب هؤلاء حقداً شديداً عليه، ونقمة متزايدة على الطبقة الأرستقراطيَّة التي يدعمها، وبالفعل تضافرت جهود هؤلاء المضطهدين، وتكتَّلوا ضدَّه، وعملوا ما في وسعهم في سبيل إنجاح مرشَّحهم للانتخابات القنصليَّة وهو ماركوس إيميليوس لبيدوس Marcus Aemilius Lepidus لسنة ٧٨ ق.م[٢]، وكان هذا الرجل من أسوأ الرومان أخلاقاً، استفاد من حملة مصادرة الأملاك أيُّما استغلال لإثراء نفسه أثناء حكمه لصقلية سنة ٨٠ ق.م[٣]، وكان عديمَ الكفاية، واسعَ الأطماع، سار في ركب سولا حتى اعتزاله ثم انقلب عليه، وانتهز فرصة التذمُّر العامِّ من دستوره، فأخذ يهاجم الدستور وصاحبه أثناء دعايته الانتخابية[٤].

وخلافاً لرغبة سولا، وقف بومبي إلى جانب ليبيدوس، ودعم ترشيحه، ونجح في إيصاله إلى منصب القنصليَّة باستخدام نفوذه عند الشعب. قد أثار نجاحه استياء سولا الذي اكتفى بتوبيخ بومبي على فعلته قائلاً له: «أيُّها الفتى، إنيِّ أراك فرحاً بما أحرزته من نصر، إنَّ إيصالك ليبيدوس إلى القنصليَّة وهو أحطُّ البشر، أليس هو عملاً كريماً منك حين فضَّلته على كاتولوس Catulus خير الناس وأجدرهم بالمدينة! وكلُّ ذلك تمَّ بفضل تأثيرك على الجمهور، أما وقد حصل فيحسُن بك منذ الآن فصاعداً أن تكون يقظاً، وأن تأخذ الحذر لنفسك وتهتمَّ بمصالحك، فقد جعلت عدوَّك أقوى منك». وفي السنة ذاتها، انسحب سولا من عالم السياسة بسب مرض ألمَّ بأمعائه أدَّى إلى تفسُّخ لحمه، ليموت بسببه، وتمَّ إحراق

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٠٣.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٥٢.

[٣]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٦٦.

[٤]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، المرحلة الثالثة، الصراع بين بومبي وقيصر حتى الحرب الأهليَّة ٧٩- ٥٠ ق.م، مجلَّة «عالم الفكر»، مج ١٢، العدد ٣، الكويت ص٩٣.

جثمانه باحتفالات رسميَّة اشترك فيها الشعب والدولة، ولم يمرَّ وقت طويل على وفاته حتى تحقَّقت نبوءته، حيث هبّ ليبيدوس يطالب بالتراجع عن تشريعاته، وطالب بكلِّ ما كان لمنصبه من سلطات وصلاحيَّات، وأصرَّ على أن يكون خليفة له، وفزع إلى السلاح، وجمع حوله جميع الفئات التي أفلتت من بطش سولا[١].

وسرعان ما احتدم خلاف ليبيدوس مع زميله القنصل الآخر لاختلاف طباعهما، فحاول أن يجمع العناصر الساخطة على دستور سولا حوله كي يظفر بتأييدهم له، فتقدَّم بمجموعة من مشاريع القوانين لردِّ الأراضي لأصحابها الإيطاليين، واستدعاء المنفيين من أشياع ماريوس، والعودة إلى عادة توزيع الغلال على الفقراء التي أبطلها سولا، وإعادة السلطة كاملة إلى نقباء الشعب بحيث تصبح كما كانت قبل أن تقييدها، لكنَّ زميله كاتولوس عارضه. ورغم أنَّ مجلس الشيوخ قد وافق على قوانين منح الغلال للفقراء، إلاَّ أنه رفض بقيَّة الاقتراحات الأخرى.

لقد أدَّى رفض مجلس الشيوخ إعادة الأراضي المصادرة لأصحابها الإيطاليين في شمال أتروريا، إلى ما يشبه الثورة، حيث طردوا جنود سولا المسرَّحين من مستعمراتهم، فعهد المجلس إلى القنصلين لمعالجة الموقف، لكن ليبيدوس انتهز الفرصة وجمع جيشاً وتزعَّم الثوَّار وزحف نحو روما، فما كان من المجلس إلاَّ أن أصدر القرار النهائيَّ باعتباره عدوَّاً للوطن، فيما تمكَّن القنصل الآخر من النجاح في صدِّه. في الواقع، لقد ارتكب مجلس الشيوخ خطأ دستوريَّاً كبيراً عندما قبل من بومبي المساعدة التي عرضها عليه، ولم يكن الأخير عضواً فيه، أو قد تولَّى منصباً عامَّاً من قبل، وخوَّله قيادة جيش للقضاء على التمرُّد، وبالفعل تمكَّن بومبي من هزيمة قوَّات خصمه وأعدم مساعده، ثم توجَّه إلى أتروريا وهزم ليبيدوس نفسه الذي هرب إلى سردينيا وتوفيِّ فيها سنة ٧٧ ق.م[٢].

عندما أنهى بومبي أمر جنود ليبيدوس، رفض أن يسرِّح جنوده وطالب بإيفاده إلى إسبانيا لمساعدة القوَّات الرومانيَّة العاملة هناك ضد ثورة سرتريوس الذي كان قطباً من أقطاب الحزب الشعبيِّ، ورغم أنَّه لم يكن قد بلغ السنَّ التي تؤهِّله لذلك، ولم يتدرَّج في سلك

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص١١٨١.

[٢]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٩٣، ٩٤.

الوظائف العامَّة، وأمام رفض القنصلين قيادة تلك الحملة، وافتقار مجلس الشيوخ للقادة الأكفياء، وافق على منحه سلطة الأمبريوم البروقنصليَّة ليتولىَّ بمقتضاها قيادة الجيش[١]. هكذا أُرغِم المجلس على قبول طلبات بومبي المخالفة للقواعد الدستوريَّة، وحين تساءل أحد أعضائه عما إذا كان من الضروريِّ منحه سلكة البروقنصل، قيل له إنَّه ذاهب للقيام بعمل القنصلين معاً لا بعمل قنصل واحد. عموماً، لقد استطاع بومبي أن يحقِّق النَّصر في إسبانيا على سرتريوس بشقِّ الأنفُس[٢]، وكان له الفضل في إنهاء الحرب الإسبانيَّة، وعاد إلى إيطاليا سنة ٧١ ق.م.

لم تكن أوضاع روما على ما يُرام، فقد اندلعت ضدَّها ثورة قام بها العبيد الذين كانوا قد ملأوا الشوارع منذ الحروب البونيَّة، وكانت ثورتهم بقيادة عبد من تراكيا يدعى سبارتاكوس Spartacus. بدأت هذه الثورة في سنة ٧٣ ق.م بحركة تمرُّد قام بها فريق منهم في إحدى مدارس المجالدين Gladiators بمدينة كابوا Capua بإقليم كمبانينا[٣]، وتعود أسبابها إلى طلبهم التحرُّر من الحال السيِّئة التي كان الرومان يجبرونهم على العيش فيها، واستغلالهم في الأعمال الشاقَّة والتدريبات القاسية على المبارزة لتسلية الجماهير في حلبات المصارعة، ويكون الموت فيها شبه محتوم للمهزوم منهم[٤]، عموماً، كانت أوضاع العبيد مزرية فإمَّا أن يموتوا في حلبات المصارعة، أو يقضوا حياتهم في العمل بمزارع الأثرياء.

حمل الثوَّار السلاح، وتحصَّنوا في منحدرات جبل فيزوف Vesuve، وسرعان ما بلغ عددهم ٧٠ ألف متمرِّد، وساندهم زعيم آخر كلتي هو كريكسوس Crixus، الذي انضوى تحت لوائه الجرمان والغاليُّون. وقد استمرَّت هذه الثورة من سنة ٧٣ حتى سنة ٧٠ ق.م، واستطاعت هزيمة جيشين رومانيين، إلى أنَّ تمكن ماركوس كراسوس M. Crassus أحد ضبَّاط جيش سولا القدامى من القضاء عليها، بعدما عيَّنه مجلس الشيوخ قائداً على ست فرق عسكريَّة رومانيَّة، ومنحه بصفة استثنائيَّة سلطة بروقنصليَّة لإتمام هذا الهدف[٥]. وكان

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٠٥، ص١٠٧، ص١٠٩.

[٢]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٩٤.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩١

[٤]- عمر بوصبيع، الحرب الأهلية، مصدر سابق، ص٦٦.

[٥]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩١.

هذا الرجل يتميَّز بثرائه الفاحش الذي جمعه من شراء الأملاك المصادرة أيام حكم سولا[١]، وبعدما تمكَّن من قتل سبارتاكوس في لوكانيا ونحو ١٢ ألفاً من أنصاره، صلب نحو ستة آلاف أسير على طريق أبيوس في منظر وحشيٍّ، وعندما عاد بومبي من إسبانيا تلقَّى رسالة من مجلس الشيوخ يطلب منه فيها الانضمام إلى قوَّات كراسوس فبادر على الفور بذلك، وهجم على فلول العبيد وشتَّت شملهم، وبعث برسالة إلى المجلس يفتخر فيها بأنَّه أنهى حرب العبيد[٢].

كان من أهم النتائج السياسيَّة لتلك الثورة والتي كانت أخطر منها بكثير، أن كراسوس اعتقد -بعد النصر الذي أحرزه على الثوَّار- أنَّه قائد عظيم له مواهبه التي ينبغي أن يفيد منها، وذلك من ناحية، أمَّا من ناحية أخرى فإنَّ تدخُّل بومبي في المرحلة الأخيرة من الثورة، ومشاركته المحدودة في إخمادها، ثم ادِّعاؤه بأنَّه هو الذي أنهاها، كلُّ ذلك ملأ صدر كراسوس حقداً عليه، ومن ثمَّ بدا العداء بينهما سافراً على نحو ما سنرى. فضلاً عن ذلك، وجد مجلس الشيوخ نفسه أمام قائدين كبيرين منتصرين، وتحت إمرة كلٍّ منهما قوَّات كبيرة، وكلاهما يقفان بقواتهما على أبواب روما[٣]، كما أنَّ انتصارهما على ثورة الرقيق أكسبهما شعبيَّة كبيرة، مكَّنتهما من الترشُّح سويَّاً لمنصب القنصل في سنة ٧٠ ق.م (لشغله سنة ٦٩ ق.م)، وقد نجحا رغم أنَّ بومبي الشاب لم يكن قد استوفى شروط الترشُّح، حيث لم يكن شغل منصب الكويستور أو البيرتور، ولا يزال بحاجة إلى ست سنوات حتى يحقِّق شرط السنِّ اللاَّزم لتوليِّ منصب القنصل. كما نجح كراسوس رغم معارضة المجلس له لأنَّه كان قد تولَّى منصب البيرتور سنة ٧٢ ق.م، وبالتالي لا يجوز له أن يشغل منصب القنصل سنة ٦٩ ق.م، وهذه مخالفة دستوريَّة جديدة، كما أنَّها تدخُّل أرعن من قبل الجيش في شؤون السياسة، وهذا ما كان يسعى سولا من خلال تشريعاته إلى عدم حدوثه[٤].

كان كلٌّ من القنصلين الجديدين يشعر بثقل قوانين سولا على طموحاته، ولاسيَّما أن

[١]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٦٩.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١١٧.

[٣]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٩٦.

[٤]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٢

مجلس الشيوخ أخذ يتمسَّك بها، لذلك اتَّفقا على تأجيل العداوة بينهما، وأخذا يتقرَّبان إلى الشعبيين والفرسان، وبدءا سنة القنصليَّة بمشروع قرار يهدف إلى إعادة صلاحيَّات نقيب العوام إليه بعدما سلبته إيَّاها تشريعات سولا. كما أعادا الفرسان للسيطرة على محاكم المحلَّفين التي كان من شأنها النظر في المخالفات الماليَّة والإداريَّة التي تقع في المقاطعات الرومانيَّة[١]، في محاولة منهما لردِّ الجميل للشعبيين والفرسان الذين دعموهما. كذلك قاما بإعادة منصب الرقيب الذي كان سولا قد عطَّله من قبل، فظلَّ شاغراً من سنة ٨٥ ق.م إلى سنة ٧١ ق.م، وقام الرقباء بمهمَّتهم على الفور، فراجعوا قوائم أعضاء مجلس الشيوخ، واستبعدوا منها أربعة وستين إسماً، كما قاموا بتسجيل أسماء المواطنين الجدد في جميع القبائل الرومانيَّة، وفي الوحدات المئويَّة، وهكذا قوّض بومبي -تلميذ سولا- دستور أستاذه تقويضاً شاملاً، ولا يعني ذلك أنَّ الجمهوريَّة الرومانيَّة باتت تنعم بالديمقراطيَّة، وإنَّما أخذت تمضي قُدُماً نحو نهايتها المحتومة[٢].

لم ينتهِ دور بومبي وكراسوس في الحكم بانتهاء سنة قنصليَّتهما، بل هما رفضا تسلُّم أيِّ منصب خارج روما، ومكثا فيها ينتظران فرصة أخرى لتحقيق مزيد من المجد والقوَّة، ولم تفلح محاولات مجلس الشيوخ بإقناعهما بتوليِّ منصب حاكم ولاية في إحدى مقاطعات الدولة الرومانيَّة. وسنحت لهما الفرصة الذهبيَّة عندما عاث قراصنة البحر فساداً في البحر المتوسِّط، متَّخذين من جزيرة كريت وكليليكا مقراً لهم، وقد ازدادوا لدرجة مكَّنتهم من مهاجمة شواطئ إيطاليا نفسها، بما في ذلك ميناء أوسيتا على مدخل نهر التيبر. وبالإضافة إلى تجارة العبيد التي أصبحت جزيرة رودس سوقاً هاماً لها، قاموا بتهديد تجارة الحبوب التي تعتمد عليها روما في غذائها. فتمَّ تكليف ميتللوس بالقضاء على القراصنة، وبالفعل تمكَّن خلال سنتين من احتلال جزيرة كريت وتحويلها إلى مقاطعة رومانيَّة، كما أخذ يتعقَّبهم في البحر. إلاَّ أنَّ جهوده لم تكن حاسمة، وبالتالي خطرهم بقي قائماً، فكان لا بدَّ من حسم سريع للقضيَّة، ولاسيَّما أنَّ وصول القمح إلى روما أصبح مهدَّداً، فارتفعت أسعاره، ما تسبَّب

[١]- عبد الله السليمان، المصدر نفسه.

[٢]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٩٦.

بتذمُّر الناس، وساد التوتُّر حتى أصبحت هذه القضيَّة محور سنة ٦٨ ق.م[١].

تقدَّم نقيب العوام جابنيوس Gabinus لسنة ٦٧ ق.م، بمشروع قرار يقضي بإسناد مهمَّة القضاء على القراصنة إلى قنصل سابق، ومنحه سلطات واسعة حتى يتمكَّن من القيام بمهمَّته، من دون أن يسمِّي أحداً بعينه. وقد أيَّد العامَّة والفرسان مشروع القانون، بينما لقي معارضة شديدة من الأرستقراطيين، غير أنَّ هذا التأييد الشعبي الكاسح مع تأييد شديد من جانب شيشرون Cicerone، ويوليوس قيصر، كان كافياً لاستصدار القرار[٢]؛ إذ رأى قيصر في بومبي حليفاً مستقبليَّاً يساعده على تحقيق طموحه، كما أنَّ غيابه سيفسح المجال أمامه لتوطيد علاقته بكراسوس. وبالفعل اقترب منه وصار مساعداً له ومستشاراً بل عشيقاً لزوجته السيِّئة السمعة تيرتولا[٣]. أمَّا بومبي فقد عهدت له روما القضاء على القراصنة، ونصَّ القرار على منحه سلطات غير عاديَّة أهمُّها سلطة قنصل على مياه المتوسِّط وعلى شواطئه حتى عمق ٦٥ كلم ضمن البرِّ تقريباً؛ بما في ذلك شواطئ إيطاليا، وذلك لمدَّة ثلاث سنوات. وقد استطاع فعلاً أن يقضي على خطر القراصنة باستخدام جزء من قوَّاته في مدَّة لم تتجاوز الثلاثة أشهر، ويرجع السبب في ذلك إلى معاملته الرحيمة لأسرى القراصنة، مما دفع الكثير منهم إلى تسليم نفسه من دون قتال، وأرشدوه إلى مخابئ المختفين منهم، فما كان منه إلاَّ أن عفا عنهم، ومنحهم حريَّتهم، وسمح لهم بإعمار بعض المدن التي يقلُّ فيها عدد السكَّان، وهكذا هيَّأ لهم سبل العيش الشريف[٤].

بعد انتهاء بومبي من حرب القراصنة بهذه السرعة، بقي له أن يتمتَّع بسلطان غير محدود على كامل البحر المتوسِّط لمدَّة سنتين وتسعة أشهر استناداً إلى قانون جاينيوس، واستغلَّ فرصة تجدُّد القتال بين مثراداتيس السادس ملك بونتوس وبين روما، وكان لوكوللوس عاجزاً عن حسم هذه الحرب لصالح روما، لا بل كان قد ألحق إقليم كيليكيا بممتلكاته معتمداً على تأييد ملك أرمينيا له والذي كانت تربطه به علاقة المصاهرة. طلب بومبي من روما أن

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٢.

[٢]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٠٠، ١٠١.

[٣]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مجلَّة «عالم الفكر»، مج ١٦، عدد ٢، الكويت ١٩٨٥م، ص١١٣.

[٤]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٠٠، ١٠١.

تكلِّفه بالقضاء على هذا المتمرِّد، وكان في نيَّته احتلال الشرق الذي كانت ظروفه مؤاتية مع كلِّ هذه الفوضى. وبينما كان الجوُّ العامُّ على المستوى الشعبيِّ مؤاتياً لذلك، وسعى نقيب العوام مانيليوس لسنة ٦٦ ق.م لاستصدار القرار، وبالفعل فقد عرض القرار على مجلس الشيوخ فعارضه لوكوللوس وغيره من الأرستقراطيين، لكن مانيليوس عرضه على الجمعيَّة القبليَّة فأقرَّته وصدر سنة ٦٦ ق.م، ويقضي بتكليف بومبي بحرب مثراداتيس السادس[١].

تولَّى بومبي القيادة من لوكوللوس، وعمل منذ اللَّحظة الأولى على الوصول إلى نتيجة حاسمة فتحالف مع ملك فرثية، ودخل في مفاوضات مع مثراداتيس السادس لشلِّ حركته وإيقاف نشاطه، لكن هذه المفاوضات وصلت إلى طريق مسدود بعدما طرح بومبي شروطاً مجحفة، فدارت رحى القتال سنة ٦٦ ق.م وانتصر فيها، واضطرَّ مثراداتيس للفرار إلى أرمينيا التي ما لبث أن هرب منها هي الأخرى إلى المدن الإغريقيَّة في القرم، بينما التقى بومبي بملك أرمينيا (تيجرانس) الذي استسلم له من دون قيد أو شرط، فأبقاه على عرشه كحليف لروما.

في ربيع ٦٤ ق.م وضع بومبي تسوية مؤقَّتة لأوضاع آسيا الصغرى، واستقبل في بونتس وفداً من مثراداتيس الذي كان قد استردَّ أملاكه الشماليَّة حول البحر الأسود، وطلب الوفد استرداد بونتس مقابل الاعتراف بالسيادة الرومانيَّة، لكنَّ المفاوضات كتب لها الفشل، فطلب بومبي من أسطوله تشديد الحصار على مثراداتيس، بينما أقلع هو نحو سوريا وعرشها المترنِّح؛ حيث قرَّر ضمَّها نهائيَّاً إلى أملاك الدولة الرومانيَّة، بينما لقي مثراداتيس حتفه على يد جنوده الذين ثاروا عليه بقيادة ابنه نارناكيس وقتلوه في سنة ٦٣ ق.م، وهكذا انتهت متاعب الدولة الرومانيَّة مع هذا الملك الطموح[٢]. أمَّا بومبي فكان حينها على علاقة مع زوجة خادمه، ولم يكن سلوكه هذا فيه عدل ولا كرم، بل وقع في حبِّها نتيجة فتنتها التي لا تقاوم[٣].

على أيِّ حال، حصلت في تلك الفترة تطوُّرات بين قيصر وبومبي وحلفائه؛ إذ بعد عبور

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٣.

[٢]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانية، م.س، ص١٠١، ١٠٢.

[٣]- بلوتارخ، ج٢، ص١١٧٠

يوليوس قيصر نهر الربيكون ونشوء الحرب الأهليَّة بين الرومان، اتحدَّ بومبي مع مجلس الشيوخ والنبلاء ضدَّه، وفرُّوا من المدينة ما جعل روما مفتوحة الأبواب لقيصر الذي همَّ بملاحقتهم فوقعت بين جيوشهما معارك كثيرة كانت نهايتها معركة فارسالوس التي خرج منها قيصر منتصراً.

بعد هذه الهزيمة، استسلم أبرز النبلاء الرومان وأعضاء مجلس الشيوخ ليوليوس، فيما فرَّ بومبي إلى الإسكندريَّة التي كانت تربطه بحكَّامها الفراعنة علاقات جيِّدة، وعند وصوله، وأثناء تفاوضه مع مستشاري بطليموس الثالث عشر، وصلت أنباء قدوم قيصر متتبعاً إيَّاه، ما جعل مستشاري الفرعون يقتلون بومبي لتحسين علاقتهم مع قيصر؛ لكن الأخير لم يكن سعيداً بهذه المفاجأة حيث كان بومبي حليفه السابق وزوج ابنته جوليا؛ وهذا ما دفعه إلى قتل هؤلاء المستشارين، وتنحية بطليموس الثالث عشر عن الحكم، وتقليد كليوباترا السابعة حاكمة، وكان ذلك عام ٤٨ ق.م.

ث. يوليوس قيصر (١٠٠-٤٤ ق.م)

كان يوليوس قيصر Julius Caesar أحد زعماء الشعبيين في روما، وينتمي في نسبه إلى أسرة جوليا الأرستقراطيَّة، لكنَّه لم يكن من الأثرياء بل غارقاً في ديونه، وكانت عمَّته زوجة للزعيم الشعبيِّ ماريوس، وزوجته بنت القنصل السابق سينا، وكان مثقَّفاً بالثقافة اليونانيَّة. كاد سولا يفتك به بسبب وقوفه إلى جانب الشعبيين، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد، كما المئات الذين كانوا يُقتلون كلَّ يوم بسبب علاقاته السياسيَّة والأسريَّة بكلٍّ من سينا وماريوس خصمَيْ سولا. ولم ينقذ قيصر سوى أنَّه كان مرشَّحاً لشغل منصب دينيٍّ مقدَّس في تلك الآونة[١]؛ إذ عرض عليه سولا الانضمام إلى الحزب الأرستقراطيِّ شريطة أن يطلِّق زوجته كورنيليا Cornelie ابنة سينا، التي تزوَّجها عندما كان في السابعة عشرة من عمره أي في السنة الرابعة من قنصليَّة أبيها، وهي كانت على وشك أن تضع له ابنته جوليا Julia، وأغراه مقابل ذلك أن يزوِّجه بابنة أخته، طالباً منه أن يبدِّل توجُّهه السياسيَّ ويقف إلى جانبه، فرفض قيصر تلك العروض، وكان ذلك بداية الاضطهاد الذي تعرَّض له من سولا الذي حرمه من

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٥.

منصبه ككاهن للإله جوبيتير Jupiter ومن التصرُّف بأموال زوجته، بل حتى من مواريثه، وتعامل معه كأحد أعدائه[١].

لقد اضطرَّ قيصر للهروب إلى خارج روما، وبينما كان رجال سولا يمشِّطون إيطاليا طولاً وعرضاً عثر أحدهم عليه متخفِّياً ولم يفلت منه إلاَّ بعدما دفع رشوة كبيرة. بعد ذلك تدخَّل بعض النبلاء فعفا الديكتاتور سولا عنه، مبدياً بعض التحفُّظات والانتقادات. لم يطمئنَّ قيصر لذلك العفو، وابتعد عن روما مفضِّلاً الخدمة في ولايتَيْ آسيا الصغرى وكيليكيا على البقاء في العاصمة؛ حيث ذهب بصفة برايتور في بعثة رسميَّة للقاء نيكوميديس الرابع ملك بيثينا الذي استقبله استقبالاً حماسيَّاً. كان هذا الملك قد تباطأ في إرسال أسطول وعد به من قبل للرومان، فأراد أن يصحِّح خطأه، ويصلح الحال، ويخطب ودَّ البرايتور الرومانيِّ الزائر فقدَّم لقيصر ركنه الملكيَّ الخاصَّ بالنَّوم في القصر حتى يستطيع أن يستجمَّ ويستريح من عناء السفر. وقد يكون الأمر بسيطاً لا يتعدَّى كرماً شرقيَّاً عاديَّاً أو حتى مبالغاً فيه. ولكنَّ خصوم قيصر سيستغلُّون هذه الحادثة أسوأ استغلالاً في السنوات القادمة. وقيل إنَّه في اليوم التالي بعد إعداد الأسطول المطلوب أقام الملك حفل وداع صاخب نسي فيه قيصر نفسه، وقام بدور ساقي الملك واضعاً نفسه هكذا جنباً إلى جنب مع حاشيته، وهم من الشباب المخنَّث والصِّبية السَّاحري الجمال، فلا غرو أن نجد شيشرون في ما بعد يصرخ في إحدى رسائله قائلاً بأنَّ (قيصر سليل فينوس قد فقد عذريَّته في بيثينا). وسرعان ما انتشرت هذه الشائعة في روما وربمَّا نقلها إلى هناك بعض التجَّار الرومان الذين وُجدوا مصادفة في حفل الوداع الملكيِّ السالف الذِّكر[٢]. وحتى نكون منصفين، نقول إنَّ قيصر لم يكن وحده مخنَّثاً، بل كذلك شيشرون أيضاً، قد عاب عليه فيريس حياة الخنوثة التي يحياها، فردَّ شيشرون قائلاً: عليك أن تستخدم هذه اللُّغة مع أولادك، حيث كان لفيريس ابنٌ سلك سبل الغواية فساءت سمعته[٣].

في موكب النصر الذي أقامه قيصر احتفاءً بفتوحاته في بلاد الغال، كان يركب العربة

[١]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٧٨.

[٢]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٢.

[٣]- بلوتارخ، ج٢، ص١٥٨٤.

في قمة زينته وأوج أبَّهته، ومن خلفه جنوده يغنُّون أغانيَ بذيئة - كما جرت العادة - وربما درءاً للحسد، وحدث أن أشار أحدهم إلى فضيحة بيثينا هذه والعلاقة المشبوهة بين قيصر ونيكوميديس، ممَّا أغضب القائد المنتصر ودفعه إلى أن يغلظ القسم بأنَّها محض افتراء. ولكنَّ روما لم تغفر لقيصر هذه الزلَّة حتى بعدما عُرف كزير نساء، فخصمه اللَّدود كورنيليوس دولابيلا يسمِّيه (المنافس النسائيَّ لملكة بيثينا)، ويقول عنه جايوس سكريبونيس كوريو (قنصل سنة ٧٧ ق.م) إنَّه (عروس نيكوميديس) و(مومس بيثينا) و(زوج كلِّ امرأة وزوجة كلِّ رجل). ووصل الأمر إلى حدٍّ أنَّه عندما كان يدافع في مجلس الشيوخ عن بعض رعايا نيكوميديس بعد موته، ذكَّر أعضاء المجلس بأنَّه مدين لهذا الملك الراحل بأكثر من معروف، فقاطعه شيشرون قائلاً: «دعنا من هذا أرجوك. لا يوجد أحد هنا يجهل الجميل الذي صنعه هذا الملك لك، والثمن الذي دفعته أنت له». والجدير بالذكر أنَّه بعد موت الملك نيكوميديس ذهب قيصر إلى بيثينا على أمل أن يجد اسمه موجوداً في وصيَّته[١].

دسائس كراسوس

بعد موت سولا عاد قيصر إلى روما مكرِّساً إمكاناته الخطابيَّة للدفاع عن أنصار ماريوس، رغم أنَّ السلطة كلَّها كانت بيد الطبقة الأرستقراطيَّة، ومن خلال الشقاق الذي بدأ يدبُّ بين أفرادها أخذ يشقُّ طريقه نحو الصعود[٢]. في البداية لم يكن أسلوب حياته في روما ينمُّ عن أيِّ مهارة سياسيَّة، بل كان يُنظر إليه أحياناً باستخفاف بسبب ما وقع فيه من إسراف في الترف، وفي الجري وراء النساء، مع أنَّه كان معتدلاً في الشراب، ولا يعبأ كثيراً بنوعيَّة الطعام، وإن شغُف باقتناء الأحجار الكريمة وكان خبيراً باللُّؤلؤ، وقيل إنَّه أهدى سرفيليا أم ماركوس بروتوس M. Brutus لؤلؤة بـ ٦٠ ألف قطعة ذهبيَّة لأنَّها كانت أحبَّ عشيقاته إلى نفسه. والجدير بالذِّكر أنَّ سويتونيوس أورد قائمة بعشيقات قيصر فنجد من بينهنَّ زوجات كثير من أصدقائه مثل: بومبي، وكراسوس، وجابينيوس، مع أنَّه كان في أمسِّ الحاجة آنذاك إلى مساعدة هؤلاء الرجال[٣].

[١]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٢.

[٢]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٧٩.

[٣]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٣.

استطاع كراسوس زميل بومبي السابق في القنصليَّة أن يجذب إليه يوليوس قيصر، وعقد اتفاقاً معه بعدما التقت مصالحهما. فقد كان يرغب في تسخيره لتحقيق غايته مستغلاًّ طموحه، بينما كان الأخير في المقابل يطمع بثرائه الفاحش. وكان قيصر قد انتخب كويستيرا سنة ٦٩ ق.م وخدم في إسبانيا خلال سنتَي ٦٩- ٦٨ ق.م، وما إن عاد إلى روما حتى شغل منصب الأيديل (المحتسب) لسنة ٦٥ ق.م؛ حيث كان من مهامِّه الإشراف على المباني العامَّة، وقد وعده كراسوس الثريُّ بتسديد الأموال التي أنفقها في سبيل تولِّيه هذه الوظيفة.

أمضى بومبي فترة طويلة في الشرق يرتِّب أموره لصالح روما، بينما أخذ الحزب الأرستقراطيُّ بملاحقة أنصاره في روما والتضييق عليهم، ولم يكن الأرستقراطيون ومجلس الشيوخ وحدهم ضدَّه، بل جرّت عليه انتصاراته العسكريَّة ومآثره في الميدان عداوة كراسوس، زميله السابق في القنصليَّة سنة ٧٠ ق.م، الذي ضاق صدره حسداً؛ فانتصاراته في الشرق ملأت الدنيا وشغلت الناس[١].

عمل كراسوس على كسب طبقة الفرسان إلى جانبه مستغلاًّ ثروته التي جمعها من مصادرة أموال الأثرياء زمن سولا، كما قدَّم خبرته القانونيَّة كخطيب ومحامٍ ناجح في الدفاع عن كلِّ من يحتاج إلى خدماتهم؛ لكنَّه أدرك أنَّ الثروة والأموال لا تكفي ليقف بها ندَّاً على قدم المساواة مع بومبي القائد العسكريِّ المخضرم؛ لذلك عمل على تكوين جيش على غراره[٢]، وأخذ يسعى لتحقيق مكاسب عسكريَّة وسياسيَّة لا تقلُّ عن مكتسباته؛ ولاسيَّما بعدما عُيِّن رقيباً (الكنسور) لسنة ٦٥ ق.م. وكانت أولى الخطوات التي قام بها أن استخدم نفوذه بالتأثير على أعضاء مجلس الشيوخ لتعيين كالبورنيوس بيزو Calpurnius Piso حاكماً على إسبانيا القريبة، وكان الأخير من أشدِّ أعداء بومبي، واتَّصف برداءة أخلاقه وافتقاره إلى الكفاءة والخبرة في الحكم، وكان هدف كراسوس وقيصر من ذلك التعيين هو تشكيل قوَّة عسكريَّة خارجيَّة تكون تحت أمرتهم في حالة قيامهم بمواجهة بومبي، غير أنَّ مسعاهم فشل بسبب تعامله المجحف مع الإسبان[٣].

---

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٥.

[٢]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، مصدر سابق، ص٨٦.

[٣]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى، مصدر سابق، ص٦٩.

بعدما فشل كراسوس في تحويل إسبانيا قاعدة عسكريَّة له يمَّم وجهه صوب مصر ليتَّخذها قاعدة ينطلق منها لمواجهة بومبي، فدفع بأحد نقباء العوامِّ إلى التقدُّم بمشروع قرار ينصُّ على تحويلها إلى مقاطعة رومانيَّة، وتكليف قيصر بتنظيمها، ولاسيَّما أنَّ ملكها بطليموس الثاني عشر المعروف بالزمار (٨٠ - ٥١ ق.م) أوصى بممتلكاته لروما بعد موته (وهي وصيَّة لم تثبت صحَّتها بصورة قطعيَّة). وقد رحَّبت طبقة الفرسان بمشروع القرار هذا لأنَّه سيتيح لهم وضع يدهم على ثرواتها الطائلة، لكنَّ مجلس الشيوخ عارضه بشدَّة، كما تصدَّى شيشرون له، وحال دون وصول كراسوس إلى كنوز مصر[١]. وكما لم يوفَّق كراسوس في مسعاه في مصر وإسبانيا، فشلت جهوده في غالة، حيث سعى لمنح أهلها حقَّ المواطنيَّة الرومانيَّة، وذلك لكي يكسب ولاءهم إليه، رغم أنَّ إجراءات المنح غير قانونيَّة لعدم صدور قانون يجيز ذلك الأمر، ما دفع بزميله كاتولوس إلى معارضته، وحال دون تنفيذه[٢]، وبعدما فشلت كلُّ تلك الجهود عاد إلى حياكة الدسائس.

كان كراسوس يخشى أن يعود بومبي إلى روما مثلما عاد إليها سولا، ولاسيَّما بعد الانتصارات العظيمة التي حقَّقها. كما احتدم الصراع السياسيُّ في روما بينه هو وقيصر كممثِّلَين للحزب الشعبيِّ من جهة، وبين شيشرون الذي وقف إلى جانب بومبي والأرستقراطيين (رغم كراهيتهم له) من جهة أخرى. وقد تجلَّى دهاؤه في دفع أحد نقباء العوامِّ لسنة ٦٤ ق.م وهو المحامي روللوس Rullus بطرح مشروع قانون لتوزيع أراضٍ في إيطاليا، وإنشاء مستعمرات وإسكان الفقراء من الشعب الرومانيِّ فيها، لم يكن هذا المشروع يصبُّ في مصلحة مجلس الشيوخ ولا حتى الفرسان الذين سيخسرون الكثير من أراضيهم، وكان هدفه من طرح هذا القانون ضرب فئات الشعب الرومانيِّ بعضها ببعض، وأول ضحايا المشروع كان شيشرون الذي استطاع بخطبه وتعاونه مع مجلس الشيوخ والفرسان إبطال هذا المشروع وسحبه قبل التصويت عليه، ما كبده خسائر كبيرة من شعبيته مظهرا نفسه بمظهر الديماغوجي الذي لا يتورَّع عن تأييد الاتِّجاهات الرجعيَّة[٣].

---

[١]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٠٤.

[٢]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى، مصدر سابق، ص٧١.

[٣]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٨٠.

يوليوس قيصر يتولَّى منصب الكاهن الأعظم:

- **يوليوس قيصر يتولَّى منصب الكاهن الأعظم**

كفَّ كراسوس عن حياكة المؤامرات ضدَّ بومبي وغيره من الحزب الشعبيِّ، وحذا صديقه وحليفه قصير حذوَه، ليس كرم أخلاق منهم ولكنَّهم خافوا أن يتَّخذ القائد المتغيِّب من هذه الدسائس والمؤامرات حجَّة ليستخدم القوَّة أثناء عودته إلى روما على رأس جيشه. وكان قيصر قد وجد عزاءه في انتصار آخر حقَّقه بالرشوة التي دفعها كراسوس، حيث تولَّى منصب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus[١]، وهو أكبر منصب دينيٍّ لم يشغله من قبل سوى ملوك روما القدامى. فبعد وفاة ميتللوس بيوس Metellus Pius في شتاء ٦٤- ٦٣ ق.م، عزم قيصر على تولِّيه لما كان يوفِّره لصاحبه من مكانة بارزة في الحياة العامَّة طوال حياته، وكان التشريع الذي صدر منذ أيام سولا ينصُّ على أن الجماعات الدينيَّة وحدها هي التي تختار أعضاءها، لذ، لابدَّ من أن يصبح قيصر أولاً عضواً في هيئة الكهنة حتى يتمكَّن من ترشيح نفسه لمنصب الكاهن الأعظم، فاتَّفق مع لابينوس أحد نقباء العوامِّ لسنة ٦٣ ق.م، ليتقدَّم بمشروع قانون ينسف فيه قانون سولا؛ ويقضي بالعودة إلى طريقة الانتخاب الشعبيِّ العام[٢]، وإعادة العمل بقانون دوميتيوس الذي صدر سنة ١٠٤ ق.م وجعل اختيار الكاهن الأعظم في يد جمعيَّة انتخابيَّة خاصَّة تتألَّف من سبع عشرة قبيلة تختار بالقرعة من بين القبائل الخمس وثلاثين[٣]، وصدر القانون المطلوب فعلاً، وتمَّ اختيار قيصر في جماعة الكهنة، ومن ثمَّ رشَّح نفسه لمنصب الكاهن الأكبر وفاز في الانتخابات -رغم أنَّ منافسَيه كانوا قنصلَين سابقين- بفضل الرشاوى الكبيرة التي قدمها[٤].

مؤامرة كاتيلينا

كان كاتيلينا Catilina ينتمي إلى أسرة نبيلة قليلة النفوذ، وأحد المغامرين الانتهازيين

[١]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، مصدر سابق، ص٩٦.

[٢]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٠٨.

[٣]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، مصدر سابق، ص٩٦.

[٤]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٠٨.

الذين تسلَّقوا زمن سولا وساهموا في عمليَّات البطش والمصادرة ضدَّ الشعبيين[١]، كما كان رجلاً متهوِّراً، متقلِّب الأهواء، ارتكب جنايات عديدة منها افتضاضه بكارة بنته وقتله لأخيه بسبب خوفه من تبعات هذه الجريمة، وقد ذهب إلى سولا طالباً منه أن يدرج إسم أخيه القتيل في قائمة الذين سينفَّذ بهم حكم الإعدام بسبب إهدار حقوقهم المدنيَّة، كأنَّه ما زال بعد على قيد الحياة، ليبرِّر قتله. ومع ذلك اختارته حثالته زعيماً لها[٢]. إذن، رغم هذه السيرة القذرة استطاع أن يصل إلى منصب بريتور في سنة ٦٨ ق.م، ثم عُيّن بريتوراً سابقاً على ولاية أفريقيا سنة ٦٧ ق.م، وهناك قام بابتزاز السكَّان لأموالهم، ثم رشَّح نفسه لانتخابات القنصليَّة لسنة ٦٥ ق.م، وقدَّم برنامجاً تقرَّب فيه من الشعبيين؛ لكنَّه فشل في تحقيق النجاح وإيصال اسمه إلى الجمعيَّة المئويَّة بسبب ملفَّات الفساد التي فُتحت ضدَّه عندما كان مسؤولاً عن ولاية أفريقيا، وهي تهمة لم يفلت منها إلاَّ بعد انتهاء الانتخابات، فامتلأت نفسه حقداً وغيظاً على روما وأشرافها، فرأى أن يقوم بفتنة يعكِّر فيها الجوَّ ليقتل القنصلين، ويحرق مجلس الشيوخ والسوق،، ويغتصب السلطة؛ لكنَّه فشل في مسعاه هذا، بعدما استشعر المجلس ما يبيِّته من نوايا، لا بل إنَّه زوَّد القنصلَين بحرَّاس شخصيين لحمايتيهما[٣].

لم يكن كراسوس ضالعاً في هذه المؤامرة؛ لكنَّه بما يمتلك من نفوذ وثروة، استطاع أن يوقف التحقيقات مع المتآمرين، فتشجَّع كاتيلينا بعد نجاته من العقوبة في الترشَّح سنة ٦٤ ق.م لمنصب القنصليَّة في السنة التالية، وأعلن أنَّه إذا فاز بالمنصب فإنَّه سيلغي كلَّ الديون، وكان يهدف من ذلك إلى جذب أصوات الفلاَّحين الذين رهنوا أراضيهم، وترشَّح معه كلٌّ من أنطونيوس Antonius وشيشرون وكانت حظوظهما أوفر. وأمام هذا الفشل أيضاً في الترشُّح لمنصب القنصليَّة، فقَدَ صوابه وقرَّر أن يشعل فتنة خبيثة في روما، يقتل فيها القنصلين ويحرق المدينة، ثم يزحف عليها بجيش يجنِّده في شمال إيطاليا، ما يتيح له أن يتسلَّم مقاليد الأمور فيها بالقوَّة.

بدأ كاتيلينا بعقد الاجتماعات السرِّيَّة مع أعوانه، ما أثار حوله الشكوك التي ما لبثت أن

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٦

[٢]- بلوتارخ، ج٢، ص١٥٨٦.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٦.

أصبحت يقيناً حين ضعف أحد المتآمرين، وهو المدعو كوينتوس كوريوس، أمام محظيَّته فولفيا Fulvia وأفضى إليها بتفاصيل المؤامرة، فهالها الأمر، وانزعجت غاية الانزعاج، وما كان منها إلاَّ أن اتَّصلت بشيشرون الذي نجح في انتخابات القنصليَّة لسنة ٦٣ ق.م وأبلغته كلَّ شيء عرفته، فكافأها مكافأة سخيَّة، وطلب منها المداومة على الاتصال به وإبلاغه بكلِّ جديد يصل إلى علمها عن المؤامرة والمتآمرين[١]. وقد تأكَّدت أنباؤها بمجموعة من الرسائل ألقى بها مجهول أمام منزل كراسوس، الذي سلَّمها إلى شيشرون، وهي رسائل موجَّهة إلى فريق من أعضاء مجلس الشيوخ؛ وفحواها أنَّ كاتبها ينبِّههم إلى أن كاتيلينا يدبِّر مذبحة عظيمة، ويحثُّهم على مغادرة المدينة قبل وقوع الكارثة. وقد قصد كراسوس تدارك الخطر المحدق بالجميع، وإبعاد الشبهات عن نفسه لأنَّه كان صديقاً لكاتيلينا[٢].

عمل شيشرون على تدارك الموقف، بعدما تسرَّبت أخبار الخطَّة إليه، فدعا مجلس الشيوخ إلى اجتماع عاجل، حضره كاتيلينا كي يدافع عن نفسه ويزيل الشكوك حول شخصه، لكنَّ جهود شيشرون لم تلق آذاناً صاغية في المجلس، فما كان منه إلاَّ أن دعا كاتيلينا، لا بل استجداه أن يغادر روما ويريحها من شروره، وفي اليوم التالي استجاب لطلبه وغادر إلى أتروريا حيث كانت القوَّات التي حشدها بقيادة مانيلوس Manilus، وهو أحد ضبَّاط سولا القدماء، عندئذ أدرك مجلس الشيوخ خطر الموقف فأصدر القرار الأخير (الأحكام العرفيَّة)، وأعلن كاتيلينا عدوَّاً للوطن، وكُلِّف أنطونيوس زميل شيشرون في القنصليَّة بالتصدِّي للمتآمرين، فتمكَّن من القضاء عليهم عند بستوريا قرب فلورنسا سنة ٦٢ ق.م، وبهذا حصل شيشرون على لقب «أبو الوطن»، وصار زعيماً للمجلس في ظلِّ غياب بومبي[٣].

في الواقع، إذا كانت هذه المؤامرة قد خلَّدت شيشرون، فقد طُمست بعض معالمها من ناحية أخرى؛ إذ صوَّر الخطيب المفوَّه زعيم المؤامرة تصويراً قاتماً، وهوَّل بشاعة الجريمة حتى يتنبَّه مجلس الشيوخ والشعب إلى جسامة الخطر المُحدِق بهم. ومن العسير أن نتبيَّن

[١]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٠٩.

[٢]- بلوتارخ، ج٢، ص١٥٨٩.

[٣]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، مصدر سابق، ص١٠٠.

مدى انسياقه وراء كلماته الخطابيَّة لتشويه الحقائق وتحريف الوقائع وتلفيق التُّهم[١]. ولو افترضنا صحَّة الرواية التي وصلتنا بفضل خطب شيشرون، فإنَّها تتضمَّن جملة من الأخطاء العديدة التي ارتكبها خلال مؤامرة كاتيلينا وبعدها، أدَّت إلى استفحال الثروة وإراقة الدماء، إذ إنَّه، بصفته خطيباً لا قائداً عسكريَّاً، لم يتَّخذ الإجراءات الحازمة السريعة عقب تسرُّب نبأ المؤامرة إليه، بل حتى لم يعتقل الأشخاص الذين أرسلهم كاتيلينا لاغتياله في منزله، واكتفى باتِّباع الوسائل الدستوريَّة البطيئة، وانتظر قيام الثوَّار بثورتهم حتى يبدأ بمقاومتهم. ونراه بعد القضاء على قوى التآمر قد لجأ إلى تصرُّف خاطئ مرَّة أخرى، حينما أصرَّ على تنفيذ حكم الإعدام بالمتآمرين المسجونين في روما، في حين كان الواجب والقانون يحتِّم إحالتهم إلى محكمة خاصَّة تلفظ الحكم المناسب بحقِّهم، وتمَّ العمل بالرأي الأول الذي أيَّده الخطيب كاتو ومجلس الشيوخ رغم امتعاض يوليوس قيصر عليه، ونفَّذ الإعدام رغماً عن قانون تيبيروس جراكوس، وذلك لتجنُّب حدوث حرب شعبيَّة. فقد وُجِّهت إليه انتقادات شديدة بأنَّه أزهق أرواح مواطنين رومان بأسلوب لا ينسجم مع الأعراف والقواعد الدستوريَّة. وفي الحقيقة، تدلُّ مؤامرة كاتيلينا على الضعف الذي وصل إليه النظام الجمهوريُّ، والفوضى التي رافقت عهد الصراع بين مجلس الشيوخ والقادة العسكريين في مدَّة وجيزة[٢].

لقد كان موقف قيصر أثناء تطوُّر قضيَّة كاتيلينا دقيقاً وصعباً؛ إذ كانت تربطه به علاقة طيِّبة، وإلى جانب ذلك لم يُرِد أن يُغضب الناس الذين تعاطفوا مع هؤلاء المتآمرين، ورأوا أنَّهم يمثِّلونهم خير تمثيل، ويحسُّون بآمالهم وآلامهم، وأنَّهم أفضل من أولئك الأرستقراطيين الذين يدينون لهم والمتحصِّنين في مواقعهم القويَّة. لهذه الأسباب، لم يكن قيصر يؤيِّد إعدام المتآمرين، معارضاً بذلك سياسة شيشرون الذي كاد رجال حرسه يقتلونه داخل مجلس الشيوخ، لولا أنَّ بعض الأصدقاء (كورويو Curio) غطُّوه بعباءاتهم، بينما أشار شيشرون نفسه بالكفِّ عنه إمَّا لخوفه من العامَّة، أو أنَّه كان لا يحبِّذ سفك الدماء، وربما تكون هذه أول مرَّة يصل فيها قيصر فعلاً إلى حافَّة الموت[٣]، كما تعرَّض لخطبة قاسية من كاتو الصغير اتَّهمه فيها بالتواطؤ مع كاتيلينا[٤].

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٦١.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٧٦.

[٣]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٤. وانظر: بلوتارخ، ج٣، ص١٣٣٠.

[٤]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٦٧.

- **فضيحة كلوديوس**

تزامنت مع مؤامرة كاتيلينا فضيحة بيبليوس كلوديوس Publius Clodius سليل الأسرة الأرستقراطيَّة العريقة، والذي كان في قمَّة الانحلال والتدهور الأخلاقيِّ، ويعارض شيشرون ويحالف قيصر. وقعت الفضيحة في مهرجان الربَّة الطيِّبة Bona Deq المخصَّص للنساء فحسب، باعتبار أنَّ مجال عمل هذه الربَّة وطقوس عبادتها يدخلان في إطار أسرار النساء التي لا يصحُّ أن يطَّلع عليها الرجال. حينها كانت عذارى فيستا الطاهرات هنَّ اللاَّئي يشرفن بأنفسهنَّ على هذا المهرجان المقدَّس، والذي جرت العادة أن يُقام في منزل أحد مسؤولي الدولة، حيث يترك الرجال جميعاً المكان للنساء لممارسة شعائر العبادة. في سنة ٦٢ ق.م وقع الاختيار على منزل قيصر لإقامة هذا المهرجان الاحتفاليِّ فيه، وكانت زوجته بومبيا Pompeia المضيفة، وهي امرأة طاهرة وعفيفة ولا تُلام في شيء على سلوك زوجها وعلاقاته النسائيَّة. أمَّا كلوديوس فقد ساءت سمعته إلى حدٍّ أشاع فيه أنَّه على علاقة محرَّمة مع أخته كلوديا التي هام بها شاعر الغزل الأشهر كاتوللوس وتحدَّث عنها تحت اسم مستعار هو ليسبيا. وربمَّا طمع كلوديوس في الإيقاع بزوجة قيصر بومبيا في حبائله، وربمَّا أراد أن يقتحم حفلاً مقدَّساً مخصَّصاً للنساء. المهمُّ أنَّه تنكَّر في ثياب امرأة واندسَّ في صفوف المحتفلات، وكانت فضيحة كبرى عندما اكتشف أمره؛ إذ اهتزَّت روما وانتقلت الأصداء إلى عالم السياسة، وكان موقف قيصر محرجاً للغاية ولا سيَّما أنَّه كان يشغل منصب الكاهن الأعظم، وكانت زوجته بمثابة الكاهنة القائمة على شؤون الحفل الدينيِّ، وحُوكم كلوديوس وهُوجم بشدَّة من قبل شيشرون في خطب عنيفة، أما قيصر فتجاهل الموقف. على أيِّ حال، بُرِّئت ساحته بفعل الرشاوى التي دفعها وغطَّاها ماليَّاً كراسوس، وكان قيصر قبل ذلك يريد أن يطلِّق بومبيا العاقر، فجاءت الفضيحة لتُعجِّل في هذا القرار. وبعدما صار كلوديوس مديناً ببراءته لقيصر وكراسوس، فقد شرعا باستغلاله لتحقيق مآربهما السياسيَّة[١].

- **الحكومة الثلاثيَّة Triumvirate**

بعدما وطَّد بومبي أمور الشرق عاد إلى روما نحو سنة ٦٢ ق.م، ومرَّ في طريق عودته

[١]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، م.س، ص١١٤. وانظر بلوتارخ، ج٣، ص١٣٣١.

على بعض عواصم بلاد اليونان حضر فيها الاحتفالات التي أقيمت على شرفه، وعندما وصل إلى ميناء برنديزي في جنوب إيطاليا اعتقد أنَّ الشَّعب سيلاقيه بالتَّرحاب شكراً له على انتصاراته في الشرق، لكن روما التي كانت تعيش أحداث صراع سياسيٍّ خطير، توجَّست خيفة من هذا الجنرال الشاب من أن يفعل بها كما فعل سولا من قبله، هذا بالإضافة إلى ظهور مطامع القادة السياسيين من مختلف الأحزاب أمثال قيصر وكراسوس وشيشرون، الذين كانوا يطمعون في السلطة على أمل تحقيق مجد عسكريٍّ وشهرة كبيرة كتلك التي حقَّقها بومبي. وقبل دخول روما -ثقة منه بنفسه وبانتصاراته- سرَّح جنوده بعدما وزَّع عليهم منحاً ضخمة من المال، ودخلها كمواطن عاديٍّ، وصبَّ في خزينتها خمسين مليون دينار. لقد أظهر تصرُّفه هذا مقدار تأنِّيه، وعندما مثل أمام مجلس الشيوخ تحدث بودّ وولاء. ورغم أن الاحتفالات بعودته استمرت يومين، ورغم أن مجلس الشيوخ قرر منح بومبي موكب النصر وصرف له منحاً سخيَّة، إلاَّ أنَّه رفض أن يمنح ٤٠ ألفاً من جنوده الأرض اللاَّزمة لتوطينهم، كما رفض إقرار أعماله في الشرق، ولم يصادق على الاتفاقيَّات التي وقَّعها مع الملوك المغلوبين[١].

توقَّع بومبي أنَّ مجلس الشيوخ لن يتأخَّر عن إقرار أعماله ولاسيَّما أنَّه كان بمقدوره أن يحتفظ بجيشه ويستعين به في تنفيذ مطالبه، لكنَّ الشيوخ بلغوا من البله والحمق ما جعل أغلبهم يتبرَّأون من أعماله لا لشيء سوى أنَّهم كانوا فئة قصيرة النَّظر، ضيِّقة الأفق، شديدة التعصُّب، وكانوا يمقتونه ويخشون بأسه في الوقت نفسه، فلمَّا تجرَّد من جيشه استخفُّوا به وتجرَّأوا عليه وتملَّكتهم الرَّغبة في إذلاله[٢]. ولقد آثر بومبي الانتظار رافضاً فكرة الانقلاب على الحكومة وإجبارها على تنفيذ مطالبه بالقوَّة. وإن كان بعض المؤرِّخين قد رأى أنَّ تسريحه لجيشه قبل دخول روما كان عملاً جباناً لا حكيماً، فلو احتفظ به حتى نيل مطالبه لما تردَّد المجلس في إقرارها.

مهما يكن من أمر، فإنَّ هذا الموقف الذي لاقاه بومبي، لاقاه قيصر أيضاً عندما عاد من إسبانيا الداخليَّة في سنة ٦٠ ق.م، حيث أمضى مدَّة خدمته فيها حاكماً -بوصفه بريتوراً سابقاً

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٦، ١٩٧.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٧٠.

Proprator- خلال سنة ٦١ ق.م. فقد وقف منه مجلس الشيوخ موقفاً مشابهاً، لا بل خيَّره بين أن يمنحه موكب النصر على انتصاراته البسيطة في إسبانيا، أو أن يسمح له بترشيح نفسه لقنصليَّة السنة التالية سنة ٥٩ ق.م[١]. حيث يقضي القانون الرومانيُّ على القائد المنتصر المطالب بموكب النَّصر أن يبقى خارج أسوار المدينة منتظراً يوم الاحتفال، ويقضي قانون آخر بأنَّ على من يرشِّح نفسه للمنصب القنصليِّ أن يحضُر بشخصه إلى مكان الترشيح، وكان قيصر قد بلغ مشارف روما أثناء موعد الانتخابات فوقع بين نارين، وتحيَّر بين القوانين، وبعث يطلب من مجلس الشيوخ أن يسمح له بإنابة أصحابه في ترشيح نفسه للمنصب القنصليِّ لاضطراره إلى البقاء خارج روما. وأمام رفض وتعنُّت كاتو في مجلس الشيوخ، ظلَّ قيصر يصرف النظر عن موكب النصر، وأن يتابع ترشيحه للقنصليَّة قبل أن تنتهي فترة الترشُح، وهو خارج روما ينتظرهم للانتهاء من تحضيرات موكب النصر[٢].

قبل يوليوس المغامرة وتخطَّى أسوار المدينة قبل أن يغلق باب الترشح وأعلن ترشيحه للقنصلية[٣]، سنة ٥٩ ق.م وكان ذلك مفاجئاً لأعدائه ومنافسيه[٤]. ولا شكَّ في أنَّ هذه المغامرة خطرة علماً أنَّ حياته كلَّها عبارة عن سلسلة من المغامرات المتتالية[٥]. ولما أصرَّ على ترشيح نفسه، متوقِّعاً انتصاره فيها اتَّخذ مجلس الشيوخ قراراً استفزازيَّاً له -بتحريض من كاتو Cato وهو الرجل العنيد المعروف بتعصُّبه وضيق أفقه- ينصُّ على أنَّ قنصل سنة ٥٩ سيبقى في روما بعد انتهاء سنة قنصليَّته، ولن يتولَّى إحدى ولايات الدولة الرومانيَّة[٦]، وبدل أن يُكلَّف القناصل بمنصب الحاكم لإحدى الولايات الرومانيَّة، ويمُنحوا الفرصة لتحقيق المكاسب الشخصيَّة والانتصارات العسكريَّة، فقد كُلِّفوا -خلافاً لما جرت عليه العادة- بالإشراف على الغابات وطرق سيطرة قطعان الماشية في إيطاليا[٧]. في الواقع، إنَّ

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سايق، ص١٩٧.

[٢]- بلوتارخ، ج٣، ص١٣٣٣

[٣]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٧٢.

[٤]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٨٢.

[٥]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٤.

[٦]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٧.

[٧]- بيتي راديس، فتح بلاد الغال، مصدر سابق، ص١٠.

هذا الموقف غير المدروس من مجلس الشيوخ، كان كافياً لجعل أقوى شخصيَّتين في روما -بومبي وقيصر- تتَّفقان ضدَّه، اتَّصل قيصر ببومبي واعداً إيَّاه بإقرار أعماله في الشرق، وبمنحه الأرض ليوزِّعها على جنوده، بعد أن يتولىَّ القنصليَّة، فوافق على العرض، وتعهَّد بأن يساعده كي يُنتخب قنصلاً، وهكذا ارتمى في أحضان الحزب الشعبيّ[١].

اغتنم قيصر الفرصة السانحة، ونجح مسعاه في جمع كراسوس مع بومبي، وكانا أقوى شخصيَّتين في روما، ونجح في إزالة خلاف شديد كان بينهما[٢]، بعدما بدَّد مخاوف كلِّ طرف من الآخر، وهذا الأمر كان في نظر الكثيرين ضرباً من المُحال، فقوَّى نفسه بقوَّتيهما المتَّحدتين. كما اتَّصل قيصر بشيشرون علَّه يستميله إلى جانبه، لكنَّ هذا الرجل الدستوريَّ كان يكره الدخول في أعمال غير دستوريَّة، لذلك رفض عرضه. وهكذا تمَّ تشكيل الاتفاق الثلاثيِّ الأول من بومبي صاحب المجد الحربيِّ والشهرة العسكريَّة، وكراسوس صاحب المال التليد، ويوليوس قيصر صاحب العقل المدبِّر والطاقة التي لا تنضب. وكان القاسم المشترك بينهم هو عداء مجلس الشيوخ، فاتَّفقوا على ألاَّ يرتضوا بأيِّ مشروع قرار يضرُّ بمصالح أحد منهم[٣]. وإذا كان هذا الائتلاف يؤذن بمغيب شمس الجمهوريَّة الرومانيَّة لكنَّه لم يكن أول إسفين يُدقُّ في بنيانها. ومهما يكن من أمر، فقد كان مناسبة جديدة من أجل التشنيع بقيصر، فإذا كان بومبي ملك روما فهو ملكتها. وأشاع كالبورنيوس بيبولوس Calpurnius Bibulus الذي شارك قيصر القنصليَّة، وكان عدوَّاً وخصماً له؛ أنَّه إذا كان قد وقع في الماضي في حب ملك، فإنَّه الآن يعشق الملكيَّة[٤].

كانت الانتخابات القنصليَّة معركة قاسية بين حزب النبلاء بزعامة كاتو، وبين الحزب الشعبيِّ (الذي يمثِّله أركان الحكم الثلاثيِّ)، وقد استطاع قيصر النجاح بفضل الرشاوى التي دفعها حليفاه. وبوصوله إلى القنصليَّة أصبح بمقدوره تحقيق وعوده لشركائه في التحالف الثلاثيِّ، فكافأ كراسوس بأن أعلن عن تنازل الدولة عن ثلث الضرائب المتعاقد عليها لولاية

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٧.

[٢]- بلوتارخ، ج٣، ص١٣٣٤.

[٣]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت د.ت، ص٩٧.

[٤]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٥.

آسيا. ولكن حين حاول الوفاء بعهوده تجاه بومبي قُوبل بمعارضة شديدة من قبل مجلس الشيوخ الذي عرض عليه مشروع قرار ينصُّ على توزيع الأراضي الزراعيَّة الواقعة خارج كامبانيا على جنود بومبي المسرَّحين، وعلى فقراء روما، مع شراء مساحات واسعة من الأراضي الزراعيَّة الأخرى بهدف تحقيق هذا الغرض، والتصديق على الاتفاقيَّات التي أبرمها بومبي في الشرق[١].

تصدَّى الخطيب كاتو ومجلس الشيوخ الرومانيُّ من خلفه لمشروع قرار قيصر، فلجأ إلى الجمعية القبليَّة، وعندما حاول المجلس تعطيل مشروع القرار هناك عن طريق نقباء العوامِّ التابعين له باستخدام حقِّ النقض، رأى قيصر أنَّه لا مفرَّ من انتهاك الدستور فأحضر عدداً من جنود بومبي المسرَّحين بالفؤوس، واستعان بهم في القضاء على معارضة خصومه، حيث اعتقل كاتو وألقى به في السجن، ثم منحه ولاية صقلية لينظِّمها بحجَّة أنَّه رجل نزيه، وأرهب زميله في القنصليَّة كالبورنيوس بيبولوس Calpurnius Bibulus أحد أعضاء الحزب الأرستقراطيِّ، عندما اتَّهمه بالخيانة حتى لزم بيته ليرصد النجوم، ويؤكِّد للناس أنَّ الطالع غير مناسب لإصدار التشريعات[٢]. كذلك عمل على نفي شيشرون من روما بحجَّة قتل أعوان كاتيلينا بغير وجه حقٍّ، بعدما استصدر كلوديس قراراً في سنة ٥٨ ق.م بإيحاء من قيصر؛ يقضي بنفي كلِّ من قتل مواطناً رومانيَّاً من دون محاكمة. وبالفعل قام قيصر بنفيه من روما[٣]، ومنذ ذلك الحين لم يعد يحضر المجلس إلاَّ قلَّة من الشيوخ، وأضرب عنه الباقون وقد امتلأت أنفسهم قرفاً واشمئزازاً من الوضع[٤]، وبعد ذلك خلا له الجو فتمَّ إقرار قانون الأرض، ولم يكتفِ قيصر بذلك بل استصدر قراراً يقضي بمصادرة أملاك أعضاء مجلس الشيوخ في كامبانيا خدمة للمشروع[٥].

وإمعاناً من يوليوس في تكبيل مجلس الشيوخ، أصدر نُسخة رسميَّة لجميع القرارات التي تُتَّخذ سواء كانت في مجلس الشيوخ أو في الجمعيَّات الشعبيَّة، وهذه الإصدارات أشبه

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٨.

[٢]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٩٨.

[٣]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى، مصدر سابق، ص٨٧.

[٤]- بلوتارخ، ج٣، ص١٣٣٥

[٥]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٨١.

ما تكون بصحيفة إخباريَّة، وبهذا كان المجلس ملزماً بتوخِّي الجدِّيَّة في أيِّ عمل يقوم به، وهذا ما أتاح للمواطنين أن يكونوا مراقبين لجميع القرارات المتَّخذة من قبله، وأتاح لهم الاطلاع على ما كان يجري خلف الكواليس، حيث كانت هذه النُسخ تنشر يوميّاً وبشكل رسميٍّ، وبالتالي شكَّلت حجر عثرة في طريق ذلك المجلس ومنعته من التلاعب بأيِّ قرار[١].

أُعجب بومبي بوفاء قيصر والتزامه بتعهُّداته، ومن أجل تقوية أواصر التحالف بينهما، قام هذا الأخير بتزويج ابنته جوليا Julia (١٧ سنة) إلى بومبي (٤٧ سنة) رغم فارق السنِّ الكبير بينهما ورغم أنه كان معقوداً لها على رجل آخر هو كيبيو Caepio، وقد تمَّ استرضاؤه بأن عقدوا له على ابنة بومبي التي كانت مخطوبة لفاوستوس Faustus، وكان لهذا الزواج فوائده في تذليل الأزمات التي عكَّرت صفو العلاقات بين قيصر وبومبي، بينما تزوَّج هو (أي قيصر) من كالبورنيا Calpurnia ابنة كالبورنيوس بيزو Calpurnius Piso الذي استطاع أن يضمن له النجاح في انتخابات القنصليَّة في السنة التي تلتها، وهذا ما أثار جنون كاتو الذي صرخ قائلاً: «إنَّه إما لا يمكن التسامح فيه قطُّ أن تُستقْحب الحكومة عن طريق الزواج[٢]». وكان بيزو هذا أحد أصدقاء كلوديوس، وأحد المتورِّطين في مؤامرة كاتيلينا، وقد جمع ثروة طائلة من الابتزاز والنَّهب في أثناء ولايته على مقدونيا. وستكون هذه آخر زيجة لقيصر[٣].

كان بومبي في تلك الجبهة الشعبيَّة -القائمة على اشتراك المصالح المؤقَّتة- هو الشخصيَّة المسيطرة؛ نظراً لسمعته الحربيَّة ونفوذ جنوده القدماء، وكان قيصر يظهر كأداة في يده، لكنَّه كان في حقيقة الأمر العقل المفكِّر؛ إذ إنَّه أبرع من زميليه في السياسة وأكثر مكراً ودهاء، واستطاع أن يبني لنفسه مركزاً يتيح له أن يقوم بدور مستقلٍّ في السنوات التالية[٤]، حيث كانت الخطوة الجديدة لقيصر تأمين مستقبله السياسيِّ، ذلك أنَّ مجلس الشيوخ كان يمنح القنصل المنتهية ولايته إحدى مقاطعات الدولة الرومانيَّة ليديرها، وكان قد قرَّر أنَّ قنصل سنة ٥٩ ستُوكَل له مهمَّة الإشراف على الغابات والمراعي. بيد أنَّ يوليوس سعى لتعديل

[١]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى، مصدر سابق، ص٨٥.

[٢]- بلوتارخ، ج٣، ص١٣٣٤.

[٣]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٥.

[٤]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٧٧.

القرار عن طريق صديقه المحامي فاتينوس Vatinius والذي بدوره تقدَّم للمجلس بمشروع قرار ينصُّ على منح قيصر مقاطعة إيطاليا العليا مع إلليريا وثلاث فرق عسكرية لمدَّة قدرها خمس سنوات تنتهي سنة ٥٤ ق.م، ليؤمِّن حدودها، وينظِّمها، وهذا القانون عُرِف باسم Lex Vatinia De Provincia Caesaris. وهكذا حصل قيصر على قوَّة عسكريَّة وأَرض بكر غنيَّة، ما أمَّن له السيطرة العسكريَّة على شبه الجزيرة الإيطاليَّة، التي نصَّ القانون على عدم جواز إقامة القوَّات العسكريَّة فيها. لقد كانت لهذا القرار دلالة عميقة إذ بمقتضاه مُنح قيصر هذا السلطان الاستثنائيَّ في أثناء تولِّيه القنصليَّة، كان باستطاعته قانونيَّاً أن يكوِّن جيشاً في إيطاليا يصبح في المستقبل قوَّة تستطيع أن تواجه جنود بومبي المسرَّحين إذا لزم الأمر[١]. وحتى يضمن ولاء الحزب الشعبيِّ له؛ حرص على انتخاب صديقه أولوس جابنيوس Aulus Gabinius لقنصليَّة سنة ٥٨ ق.م ووالد زوجته بيزو Piso ليكون القنصل الثاني[٢]. ولعلَّ أكبر الفضائح التي وقعت في فترة قنصليَّته هي معاونته لكلوديوس في الوصول إلى منصب نقيب العوامِّ لتلك السنة. وكلوديوس هذا هو الذي حاول النيل من عفَّة زوجته بومبيا، فاقتحم بيته ودنَّس العبادات السرية، وقد عاونه لكي يضمن سقوط شيشرون[٣].

لم يطمئنَّ قيصر إلى استتباب الأمر له كما ينبغي إلاَّ بعدما انتزع من معارضيه كلَّ فرصة للحركة في غيابه، وذلك بالتخلُّص من ألدِّ أعدائه وهما كاتو وشيشرون، حيث توقَّع منهما مهاجمة خططه فور توجُّهه إلى بلاد الغال، فكلَّف كاتو بمهمَّة خاصَّة ظاهرها جليل الطابع وهي ضمُّ قبرص إلى الدولة الرومانيَّة، فسافر الرجل مرغماً، في حين استطاع نقيب العوامِّ كلوديوس أن ينتقم من عدوِّه اللَّدود شيشرون فقدَّم في أوائل سنة ٥٨ ق.م / كما سبق وذكرنا، اقتراح قانون يقضي باعتبار كلِّ شخص أزهق أرواح مواطنين رومان بطرق غير دستوريَّة خارجاً على القانون، وفي ذلك إشارة إلى تصرُّفاته خلال قضائه على مؤامرة كاتيلينا فبادر الأخير إلى اختيار المنفى الطوعيِّ وتوجَّه إلى تسالونيكي Thessalonique اليونانية من دون أن ينتظر نتائج محاكمته، وبالطبع تمَّت مصادرة أمواله وممتلكاته في غيابه[٤]. وهكذا،

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٩.

[٢]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٨٤.

[٣]- بلوتارخ، ج٣، ص١٣٣٥.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٨٢.

لم يغادر قيصر مدينة روما لقيادة جيشه إلاَّ بعدما تغلَّب على شيشرون وطرده من إيطاليا[١].

إنَّ ما كان يسعى له قيصر هو تكوين جيش خاصٍّ به، يستطيع أن يكسب ولاء جنوده له بمرور الزمن، وكذلك ليستطيع أن يظهر للرومان قدراته العسكريَّة. وبالفعل، قام بجمع جيشه كما شاء، وسار به بعد انتهاء قنصليَّته إلى الغالة الحرَّة -وكان في الثالثة والأربعين من عمره- وكانت الغالة الحرَّة هي الجزء الذي لم يكن قد خضع لروما بعد. وكان أول أعماله قيامه بدراسة وافية عن السكَّان وطبيعة البلاد والبيئة، ثم شنَّ عليهم مجموعة من الحملات العسكريَّة، حقَّق في بعضها انتصاراً سهلاً بينما لاقى في بعضها الآخر صعوبات جمَّة ومشاقَّ كادت تودي به وبجميع جيشه، وفي نهاية كلِّ موسم كان يكتب لروما عن أعماله حتى يكون الرومان على علم بما يفعله بالسلطان الاستثنائيِّ الذي مُنح له، وكانت كتاباته تطرب أبناء الشعب كثيراً وتشعرهم بالمجد الذي يضفيه إلى الاسم الروماني[٢].

ما كاد قيصر يغادر إيطاليا حتى بدأ النزاع يدبُّ بين زميليه في الحكومة الثلاثيَّة بومبي وكراسوس، اللذين كانت بينهما العداوة قديمة، لكنَّه استطاع أن يوفِّق بينهما ويقنعهما بضرورة التعاون لمناهضة نفوذ مجلس الشيوخ، فلمَّا رحل عن العاصمة لم يرَ أيَّاً منهما ما يبرِّر عدم استمرار التحالف بعدما حقَّق كلٌّ منهما أغراضه. فقد كان كراسوس يعمل دائماً على الحطِّ من قدر بومبي والانتقاص من شأنه، أمَّا الأخير فقد بدأ يشعر بانصراف الناس عنه، وأراد أن يصفِّي الأوضاع ما بينه وبين الحزب الارستقراطيِّ، ويسترضي شيشرون لشعوره بالخجل من موقفه نحوه وسكوته على نفيه، لذلك عمل جاهداً على إعادته من منفاه، وتكلَّل جهده بالنجاح[٣].

ما إن حلَّت سنة ٥٧ ق.م حتى بدأت الغيرة تأكل قلبَيْ طرفيَْ الاتفاق الثلاثي المقيمين من دون عمل في روما، سوى أن يقرآ عن أعمال قيصر العظيم، وأن يريا أثرها في نفوس الناس، وأن يشاهدا أتباعه في روما يروِّجون له. وتوجَّس بومبي خيفةً من طموحات قيصر، وحدثت بعض المشاحنات بين أتباع كلٍّ منهما، لذلك راح يعمل منفرداً خارج دائرة الاتفاق

[١]- بلوتارخ، ج٣، ص١٣٣٥.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٩.

[٣]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٩٩.

الثلاثيِّ، إذ اتَّصل بالحزب الأرستقراطيِّ في روما، وحسَّن علاقاته بهه، ووافق على مقترحه بإعادة شيشرون، حتى يستعين بخطاباته[١]، وبالفعل تمكَّن القنصل لنتولوس سبيثر Lintolos Spinther من إصدار قانون يستدعيه فيه من منفاه في سنة ٥٧ ق.م فعاد إلى روما، واستُقبل في مجلس الشيوخ استقبالاً حارًّاً، كما دعم بومبي تريبونا آخر في الخفاء كان يدعى تيتيوس آنيوس ميلو Annius Milo، وكان هذا مشهوراً بالعنف فكوَّن عصابات من المجالدين[٢]. وسرعان ما ردَّ له شيشرون الجميل بأن اقترح اسمه في مجلس الشيوخ ليتولىَّ مهمَّة إمداد روما بالغلال لمدَّة خمس سنوات، مع منحهِ سلطان بروقنصل على البحر المتوسِّط ليضمن خطوط مواصلات القمح بين الشرق والغرب[٣].

بلغت قيصر أنباء هذه الخلافات وهو في بلاد الغال، فساوره القلق من مصير التحالف الثلاثيِّ، وخشي أن يُضطرَّ بومبي إلى التخلِّي عنه أثناء غيابه، ولا سيَّما أنَّ شيشرون كان يسعى للتوفيق بينه وبين مجلس الشيوخ، أو بعبارة أخرى، يسعى للإيقاع بينه وبين قيصر[٤]. كما خشي من تفاقم الحال في روما وهو بعيد عنها في ظروف لا تسمح له بالعودة، أو أن تنتهي مدَّة سلطته سنة ٥٥ ق.م ويبقى من دون سلطان قبل أن يُتمَّ حروبه في أوروبا الغربيَّة، بينما يبقى لبومبي سلطان واسع على البحر المتوسِّط. لكن لحسن حظِّ قيصر أنَّ مجلس الشيوخ لم يمنح كامل ثقته لبومبي، وراح يتردَّد في التعاون معه، لذلك شعر الأخير أنَّه لا يزال بحاجة إلى قيصر والاتفاق الثلاثيِّ[٥].

عقد أركان هذا التحالف مؤتمراً في استراحة قيصر في **مدينة لوكا** Luca شمال أتروريا بإيطاليا، في شتاء سنة ٥٦ ق.م.، وجلسوا مع ما يقارب مئتي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ وجمع غفير من أتباعهم[٦]، وفي هذا المؤتمر تمَّ الاتفاق على تقاسم السيادة وتحطيم الدستور الجمهوريِّ، بحيث يتولىَّ كلٌّ من بومبي وكراسوس القنصليَّة في سنة

[١]- مصطفى العبادي، مذكرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٩٩.

[٢]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى، مصدر سابق، ص٨٨.

[٣]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٩٩.

[٤]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢٠٨.

[٥]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٠٠.

[٦]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢٠٩.

٥٥ ق.م، وأن يُمنحا سلطات بروقنصليَّة على الولايات الرومانيَّة بعد انتهاء قنصليَّة تلك السنة لمدَّة خمس سنوات، على أن يتولىَّ بومبي السلطان في إسبانيا وأفريقيا وكراسوس في سورية، وفي الوقت نفسه يجدَّد سلطان قيصر في الغالة لمدَّة خمس سنوات أخرى، وذلك رغم معارضة المحافظين في المجلس معارضة قويَّة. ويتَّضح من هذا الاتفاق أن قيصر كان الأقوى؛ فالمؤتمر عُقد برعايته وفي منطقة نفوذه، لكنَّ الأهم هو أنَّ مصير الدولة الرومانيَّة أصبح يُقرَّر من خارج مدينة روما[١].

تمَّ تنفيذ هذا الاتفاق رغم المعارضة الشديدة من قبل كاتو وأعضاء مجلس الشيوخ والمؤمنين بالجمهوريَّة وقيمها الدستوريَّة؛ حيث أجبروا كلَّ المرشحين لقنصليَّة سنة ٥٥ ق.م على سحب ترشيحهم بما لديهم من قوَّة عسكريَّة، وعن طريق نقيب العوام تريبونيوس Trebonius تم تحديد الولايات المخصَّصة للقنصلَين اللذين ستنتهي ولايتيهما وفق ما اتَّفق عليه المؤتمرون في لوكا. بينما استصدر القنصلان الجديدان قراراً يجدِّد سلطان قيصر في الغالة لمدَّة خمس سنوات أخرى، واشترطا عدم دراسة تعيين خليفة له على تلك البلاد قبل شهر آذار لسنة ٥٠ ق.م. ولم تُجدِ المعارضة الدستوريَّة نفعاً، فحتى شيشرون أيَّد الاتفاق عرفاناً بجميل بومبي تجاهه، ولأنَّه سعد بتعيين شقيقه وكيلاً لقيصر[٢]. لكن الدماء سرعان ما سالت في معركة انتخاب المحتسبين، وكانت هذه المرة الوحيدة التي استخدم فيها بومبي الإرهاب ضدَّ الجمعيَّة الشعبيَّة وهي مجتمعة لإجراء الانتخابات، وذلك بعدما احتضن هو وكراسوس تشريعات تستهدف الإصلاح في ظاهرها وإضعاف شوكة الأرستقراطيين في حقيقتها، وهكذا ثبُت للمرة الثانية أنَّ التحالف الثلاثيَّ هو الحاكم الحقيقيُّ للجمهوريَّة الرومانيَّة[٣].

بعد هذا قام يوليوس قيصر بعبور نهر الراين، وغزا بريطانيا (٥٥ - ٥٤ ق.م)، وعبر الأسطول فعلاً بجنوده، ونجح في إنزالهم على الشاطئ البريطانيِّ. وقد دعمت هذه الغزوة صورته، وضاعفت شهرته ومجده لدى الرومان. وهو أمضى بعد ذلك سنة ونيفاً يرتِّب أمور

[١]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٦.

[٢]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٠٠.

[٣]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢١١.

الغالة حتى اعتقد أنَّها استقرَّت له، وما إن غادرها قاصداً إيطاليا حتى ثارت عليه بقيادة شاب يدعى فيركين جيتوريكس؛ وهو من أبناء القبائل، جمع إلى شدَّة الحذر قسوةً بالغة، وتمكَّن من إثارة الفلاَّحين فتركوا حقولهم وحملوا السلاح في وجه الرومان، وهذا يحدث لأول مرَّة؛ لأنَّ كلَّ الثورات الغاليَّة السابقة كانت ثورات نبلاء، أمَّا هذه فكانت شعبيَّة عارمة ضمَّت حتى العبيد، وأعلنت من هذا الشاب ملكاً[١]. في الحال عاد قيصر إلى الغالة ولكنه واجه مشقَّة كبيرة في الاتِّصال بجيشه، وتمكَّن من الاستفادة من بعض القبائل التي لم تشارك في الثورة، وأخذ يستردُّ المناطق الواحدة تلو الأخرى إلى أن استطاع عزل الثوَّار في رقعة ضيِّقة في سنة ٥٢ ق.م، والقضاء على ثورتهم في سنة ٥٠ ق.م.

بعد انتهاء مدَّة قنصليَّة بومبي في روما سنة ٥٥ ق.م، بدأت مدة بروقنصليَّته على ولاية إسبانيا، وفق مقرَّرات مؤتمر لوكا والحكم الثلاثيِّ؛ لكنَّه لم يرحل إليها، بل بقي في إيطاليا متذرِّعاً بأنَّه مضطرٌّ للبقاء في روما من أجل إدارة تموينها بالقمح، وقام بإرسال من ينوب عنه في حكمها من مساعديه، مبتدعاً سابقة خطيرة في تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة[٢]، وانتهاكاً جديداً لدستورها، وقد قصد ببقائه خدمة أغراضه؛ لأنَّ هذا الوضع كان يمكِّنه من تعبئة القوَّات بدعوى الحاجة إليها في إسبانيا، واستخدامها فعلاً لتدعيم مركزه، فلا يستطيع مجلس الشيوخ أن يعالج أيَّ أزمة من دون الاستعانة به[٣].

استناداً إلى مقرَّرات مؤتمر لوكا سنة ٥٦ ق.م، وبمقتضى قانون تريبونيوس الذي صدر في أوائل سنة ٥٥ ق.م، والذي أعطى للقنصلين حقَّ إعلان الحرب، وإبرام الصلح، وجمع القوَّات العسكريَّة لا في إيطاليا وحدها بل في الولايات كذلك، رحل كراسوس إلى سوريا مع من كان تحت أمرته من فرق عسكريَّة (أربع فرق) استطاع أن يحشدها -رغم اعتراض نقباء العوام عليه- عاقداً العزم على أن يحرز مجداً عسكريَّاً بغزو بلاد الفرثيين، وقد استنكر الحزب الأرستقراطيُّ هذه الحملة واحتجَّ بأنَّ فارس لم تقم بأيِّ عمل استفزازيٍّ يبرِّر العدوان عليها، وعبثاً حاول بعض النقباء عرقلة الحملة عن الرحيل، فلم يملك أحدهم إلاَّ

[١]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٦، ١١٧.

[٢]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى، مصدر سابق، ص١٢٣.

[٣]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢١٨.

أن استنزل اللَّعنات على قائدها، ولم يملك كراسوس حجَّة ليعلن بها الحرب إلاَّ أنَّ فارس تهدِّد الولايات الرومانيَّة المتاخمة لها في الشرق، على أمل أن يخفي عن العيون طموحاته الشخصيَّة في تحقيق انتصارات عسكريَّة لا تقلُّ شأناً عن انتصارات زميليه. والأسوأ من كلِّ ذلك أنَّ كراسوس لم يكسب ولاء جنوده، وكان رجلاً جاهلاً بالنُّظم العسكريَّة الفارسيَّة وبأساليب قتالهم في الميدان، وطبيعة أرضهم، ولم يقدِّر قوَّتهم أو صعوبات الحرب في الصحراء تقديراً صحيحاً[١].

لم تدم مدَّة ولاية كراسوس على سوريا أكثر من سنة واحدة (٥٤- ٥٣ ق.م)، فبعدما أشعل الحرب مع الفرثيين في معركة كراهاي Crahae (أو حران) في سنة ٥٣ ق.م، وجرَّ على نفسه قتالاً كان هو بغنى عنه، وجد أن لا طاقة له بالفرس بقيادة سورين Surenas؛ الذراع الأيمن للملك، ولمَّا أحس بقوَّة خصومه انسحب من أرض المعركة بانتظام، إلاَّ أنَّ سورين دعاه إلى الاجتماع وأوقعه في الشرك المنصوب له، ولا أحد يعرف كيف كانت نهايته في خيمة الاجتماع، إلاَّ أن المؤكَّد أنَّ سورين قتله، ثم قطع رأسه وأرسله إلى بلاط الملك الفارسيِّ، وظلَّ الجيش بلا قيادة فانحلَّت عُراه وتشتَّت شمله. ورغم هزيمة الرومان والعرب الذين كانوا في جيش كراسوس للمعركة، إلاَّ أنَّ الفرثيين لم يهاجموا سورية عقب هذا الانتصار مباشرة، بل انتظروا حتى سنة ٥١ ق.م واجتاحوا أراضيها حتى وصلوا إلى أنطاكية، لكنَّهم عجزوا عن الاستيلاء عليها، حيث تصدَّى لهم كاسيوس (الذي خلف كراسيوس في إدارة سورية) وردَّهم على أعقابهم[٢].

تجدر الإشارة إلى أنَّ معركة كرهاي كانت من الهزائم الكبرى التي مُني بها الرومان إلاَّ أنَّها لم تحدث دويّاً كبيراً أو ذعراً شديداً، ولعلَّ ذلك يرجع إلى أنَّ الحملة على فارس كانت مغامرة شخصيَّة فلم يرَ الرومان إخفاقها خطراً مباشراً يهدِّد كيانهم. وقد بلغ من تفاقم الفوضى وتراخي الحكومة الرومانيَّة وقتئذٍ أنَّها لم ترسل الإمدادات إلى الشرق على وجه السرعة، وهكذا أصيبت هيبة روما بضربة قاسمة، وجُعلت الولايات الرومانيَّة تحت رحمة الفرس طوال القرون الثلاثة التالية. ولعلَّ من النتائج الخطيرة المباشرة لهزيمة كرهاي وموت

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢١٢- ٢١٥.

[٢]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، مجلَّة «المعرفة»، عدد ٦٧١، سنة ٥٨، دمشق ٢٠١٩م، ص١٦٩.

كراسوس، تعجيل الصدام بين بومبي وقيصر قطبَيْ الحكومة الثلاثيَّة، حيث انفصمت عُرى الائتلاف، ووجد كلٌّ منهما نفسه أمام الآخر وجهاً لوجه، وقد أدرك بومبي أنَّه لن يستطيع مواجهة قيصر منفرداً فسعى للاتِّصال بمجلس الشيوخ[١].

بالعودة إلى روما، فقد عاد كاتو من مهمَّته في سنة ٥٦ ق.م ليتابع حملاته الخطابيَّة ضدَّ أعداء الدستور الجمهوريِّ، أمَّا شيشرون فقد اتَّبع سياسة التقرُّب من بومبي وقيصر حتى أنَّه نظم قصيدة في مدح هذا الأخير[٢]، كما اضطرَّ للدفاع عن أعداء شخصيين له، متخلِّياً عن مبادئه أمام ضغوطهما عليه، أمثال بوبليوس فاتينيوس Publius Vatinius الذي جرت محاكمته سنة ٥٤ ق.م، وقد صاحبت عمليَّة محاكمة هذا الرجل رشاوى وضغوطات سياسيَّة وشخصيَّة من رجال الحزب الأرستقراطيِّ ومجلس الشيوخ، لكن في نهاية الأمر أدين مع دفع غرامة تقدَّر بأكثر من عشرة آلاف تالنت، أي حوالي مليونين ونصف مليون جنيه استرليني، وبالتالي تمَّ نفيه بسبب عدم امتلاكه المال اللاَّزم لدفع الغرامة[٣].

لقد كانت سنة ٥٤ ق.م سنة مفصليَّة في تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة؛ لأنَّها شهدت بداية انهيار الحكم الثلاثيِّ، حيث توفِّيت زوجة بومبي جوليا (بنت قيصر) أثناء وضعها في آلام المخاض والولادة، فحزن قيصر لانقطاع صلة الرحم بينه وبين بومبي[٤]، وعرض عليه أن يزوِّجه أوكتافيا (حفيدة شقيقته) وكانت أقرب أرحامه إليه، وطلب لنفسه ابنته زوجة له، لكنَّ الأخير رفض كلا الطلبين، وربما كان مسروراً بموت جوليا؛ فقد تخلَّص من علاقته الأسريَّة بقيصر، وبالمقابل تزوج فتاة من إحدى عائلات روما النبيلة، فغدا أكثر قرباً من الحزب الأرستقراطيِّ، وظهر واضحاً أنَّه بدأ يخطِّط ليخرج من اتفاق الحكومة الثلاثيَّة مدفوعاً بالغيرة من قيصر.

تأزَّم الموقف السياسيُّ في روما عندما اصطدم أنصار ميلو (حليف بومبي) مع أنصار كلوديوس (حليف قيصر)، حتى أنَّ انتخابات قنصليَّة سنة ٥٤ ق.م تعطَّلت سبعة أشهر. وقد

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢١٦، ٢١٧.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٩٠.

[٣]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى، مصدر سابق، ص١٢٦.

[٤]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٧.

شاع في المدينة أنَّ ما جرى كان من تدبير بومبي لأنَّه يريد أن يعلن نفسه ديكتاتوراً، وحدثت اضطرابات وتمَّ تعطيل انتخاب القنصلين لسنة ٥٣- ٥٢ قبل الميلاد، حيث وقع اشتباك دمويٌّ عنيف بين عصابات ميلو وعصابات كلوديوس المسلَّحة[١]. وفي غمرة هذه الأحداث قُتل كلوديوس مرشَّح الحزب الشعبيِّ، فثار الشعبيون، وأحرقوا مبنى مجلس الشيوخ وكثيراً من المباني العامَّة والسوق، وكانت روما بغير حاكم[٢]. ومع أنَّ بومبي كان قادراً على إعادة الأمور إلى نصابها إلاَّ أنَّه ترك الحالة تتدهور حتى يضطرَّ مجلس الشيوخ إلى أن يهرع إليه ويمنحه سلطات استثنائيَّة جديدة، فيخلِّص روما من الفتنة التي ألمَّت بها[٣]. وسرى في المدينة رأي اقترح أصحابه أن يتولَّى بومبي وقيصر قنصلين لذلك العام (سنة ٥٢ ق.م)، أو أن يُقام بومبي ديكتاتوراً، وكلا الخيارين لا يريح النبلاء، وأخيراً استقرَّ رأي بيبلوس باختيار بومبي قنصلاً منفرداً Cinsul Sobus، فذلك أهون الشرَّين من وجهة نظر النبلاء الذين يرون في قيصر أكبر خطر عليهم وعلى النظام الجمهوريِّ كلِّه، والذين يعرفون تماماً أنَّ بومبي وإن كان يحبُّ لنفسه المجد إلاَّ أنَّه لم يحاول أن يستند إلى السلطات الاستثنائيَّة التي منحت له لكي يقيم نفسه ديكتاتوراً[٤]، وبالفعل مال مجلس الشيوخ إلى هذا الخيار، حتى أنَّ كاتو أكبر مناصري الدستور الجمهوريِّ رأى ضرورة انتخاب ديكتاتور لوضع حدٍّ لهذه الفوضى العارمة، وانتخب بومبي قنصلاً منفرداً لسنة ٥٢ ق.م، أي ديكتاتوراً بصلاحيَّات عسكريَّة استثنائيَّة ونال لقب «الأمير» (بمعنى المواطن الأول) [٥]، وكان في ذلك خروجاً صارخاً على مبدأ الزمالة الذي قامت عليه وظيفة القنصليَّة، فضلاً عن ذلك، لم تكن قنصليَّة بومبي الثانية سنة ٥٥ ق.م قد انقضى عليها فترة العشر سنوات التي كان القانون يقتضيها[٦]، كما كان خروجاً عن قوانين سولا التي كانت تحرِّم منح أحد السلطة العسكريَّة في روما نفسها[٧].

---

[١]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٢٧.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٢.

[٣]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى، مصدر سابق، ص١٢٤.

[٤]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٢٨.

[٥]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٢.

[٦]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى، مصدر سابق، ص١٢٤.

[٧]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٩١.

وهكذا جمع بومبي في يده سلطات قنصليَّة وسلطات بروقنصليَّة؛ حيث كانت جيوشه ترابط خارج روما، كما أنَّ كثيراً من الجنود المستقرِّين في إيطاليا يدينون له بالولاء، لا بل طلب من جميع الإيطاليين القادرين على حمل السلاح أن يحلفوا له يمين الولاء، وبما أنَّه أمسى محسوباً على مجلس الشيوخ، واستطاع أن يطفئ نار الفتنة ويزيل التوتُّر، فقد جدَّد له المجلس سلطاته البروقنصليَّة على ولايات إسبانيا وأفريقيا لمدَّة خمس سنوات اعتباراً من تاريخ صدور القرار في سنة ٥٢ ق.م، وكان هذا القرار إخلالاً بميزان القوى بين قيصر وبومبي، فسلطات قيصر ستنتهي سنة ٤٩ ق.م، في الوقت الذي ستبقى به سلطات بومبي سارية المفعول حتى سنة ٤٦ ق.م[١].

إنَّ الهدوء الذي ساد في روما خلال سنة ٥٢ ق.م سمح بإجراء انتخابات الحكَّام سنة ٥١ ق.م فنال القنصليَّة روفوس الفقيه القانونيُّ المعروف، فعمل على تفادي الأزمة التي توشك أن تنزل بروما، وزميل له يدعى ماركس مارسللوس Marcus Marcellus وكان من النبلاء متزمِّتاً لمجلس الشيوخ، عدوَّاً لقيصر، يتمسَّك بالنظام الجمهوريِّ إلى أقصى حدٍّ، تنقصه الإيجابيَّة في التصرُّف، متحمِّساً إلى درجة الاندفاع[٢].

لقد توجَّس قيصر خوفاً ولاسيَّما بعدما صمَّم القنصل ماركوس ماركلوس Marcus Marcellus (عدوُّه) على استدعائه إلى روما اعتباراً من سنة ٥١ ق.م، بحكم أنَّ مهمَّته في غالة قد انتهت، طبعاً مع احتفاظه بسلطانه حتى وصوله إلى روما حسب القانون، لكن ماركلوس فشل في مسعاه أمام مجلس الشيوخ، حيث استخدم نقيبا العوام حقَّ النقض الفيتو، وكانا من أنصار قيصر الذي أدرك أنَّه سيحاكم متى عاد إلى روما بأكثر من حجَّة واهية أهمُّها أنَّه شنَّ حرباً خارج حدود الجمهوريَّة من دون إذن من مجلس الشيوخ[٣]، كما أنَّ كاتو أخذ يتحدَّث صراحة عن ضرورة محاكمة قيصر في إيطاليا ثمَّ نفيه منها بتهمة الخيانة والابتزاز[٤]. بينما تمادى ماركلوس في عدائه له عندما أمر بجلد أحد أعضاء مجلس الشيوخ

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٢.

[٢]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٣٠.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٣.

[٤]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، مصدر سابق، ص١٣٧.

المحلِّي لمستعمرة كوميون Comun (في بلاد الغال) التي منح قيصر أهلها حقَّ المواطنة الرومانيَّة الكاملة، أثناء وجود ذلك الشيخ في روما، حتى أنَّه طلب منه أن يُري آثار الجَلد لقيصر، والقانون لا يبيح جَلد مواطن رومانيٍّ، وتبعاً لذلك فإن ماركلوس لا يعترف لا بقيصر ولا بقوانينه[١].

لقد عمل قيصر ما بوسعه حتى يزيل أسباب الخلاف بينه وبين خصومه، فحين طلب منه مجلس الشيوخ فيلقاً عسكريّاً من أجل مواجهة فارس، لم يتردَّد لحظة واحدة في إرساله رغم أنَّه كان بأمسِّ الحاجة إلى جنوده من أجل استكمال السيطرة على غالة، وعندما طلب منه بومبي إعادة الفيلق الذي كان قد أرسله إليه قبل سنة ليسانده في حربه على بلاد الغال، لم يتردَّد في إرساله أيضاً، مع منحه لكلِّ عنصر فيه مائتين وخمسين درهماً، رغم أنَّ كلا الفيلقين لم يتوجَّها إلى حدود فارس، بل رابطا في كابو. وكانت سلطات قيصر ستنتهي في شهر آذار سنة ٤٩ ق.م، ولا يحقُّ له التقدُّم للقنصليَّة إلاَّ في خريف تلك السنة، بمعنى أنَّه سيظلُّ ستة أشهر بلا حصانة، وأدرك أنَّ فيالقه هي خير حصانة له ولاسيَّما أنَّ طلبه بواسطة حلفائه في مجلس الشيوخ، بجواز الترشُّح للقنصليَّة وهو غائب عن روما قُوبِل بالرَّفض، لا بل إنَّ مجلس الشيوخ طلب منه تسريح قوَّاته والعودة إلى روما[٢].

أمام تأزُّم الموقف بين مجلس الشيوخ وبومبي من جهة، وقيصر من جهة أخرى، قدَّم نقيب العوام جايوس كوريو Curio (وكان من أنصار قيصر) اقتراحاً توفيقيّاً ينصُّ على أن يتخلَّى قيصر وبومبي عن السلطة معاً، بحكم الشكوك المتبادلة بينهما، ثم يخوض قيصر الانتخابات القنصليَّة وهو مجرَّد من حصانته، وقد نال هذا الاقتراح تأييداً شعبيّاً عريضاً إذ حصد ٢٧٠ صوتاً من أصوات مجلس الشيوخ مقابل اعتراض ٢٢ صوتاً، ويعني هذا الاقتراح أن يترك قيصر ولايته في بلاد الغال، وأن يترك بومبي ولايته في إسبانيا التي كان يمارسها غيابيّاً بحكم إقامته في روما، لكنَّ ذلك الاقتراح لم يرُق لبومبي وأعضاء مجلس الشيوخ المتعصِّبين، فتمَّ تعطيله عن طريق اعتراض القنصل جايوس ماركللوس C. Marcellus

[١]- بلوتارخ، ج٣، ص١٣٤٦.

[٢]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، مصدر سابق، ص١٣٨.

الذي أعلن أنَّ على مجلس الشيوخ خضوعه لقيصر[١]. في الواقع، لقد وضع ذلك المقترح بومبي في موضع حرج؛ لأنَّه لم يكن في وسعه أن يقبل اقتراحاً يفرض عليه أن يتخلَّى عن سلطته البروقنصليَّة من دون أن يستوثق من أنَّ قيصر سيقتدي به، ولا كان في وسعه أن يجاهر برفض هذا الحلِّ الوسط الذي أبدى كثيرٌ من أعضاء مجلس الشيوخ قبوله، كشيشرون وأمثاله الذين ما كانوا يخشون قيصر بقدر ما كانوا يخشون وقوع الحرب الأهليَّة[٢]، وهذا ما أتاح لأنصار قيصر التحدُّث صراحة عن أنَّ بومبي يريد أن يستأثر بالسلطة لنفسه، وأنَّه لا يريد مصلحة الجمهوريَّة في حقيقة الأمر[٣].

لقد بذل قيصر كلَّ جهد ممكن للحصول على أكبر تأييد لمطالبه رغم غيابه عن روما، فأنفق الأموال عن سعة لتقديم الهدايا والقروض، ونجحت جهوده إلى حدٍّ كبير في اجتذاب الكثيرين من رجال السياسة ومن أعضاء مجلس الشيوخ، بل حتى من أنصار بومبي نفسه. ويقول شيشرون في أحد خطاباته إنَّ كلَّ المجرمين والشبَّان الفاسدين ودهماء المدينة، وكذلك كلُّ نقباء العوام وكلُّ المفلسين، قد وقفوا جميعاً إلى جانب قيصر الذي لم يهمل الجانب المعنويَّ في دعايته فبثَّ عملاءه في صفوف عامَّة الشعب يفهمونهم استعداده للتفاهم، ورغبته الأكيدة في تفادي حرب أهليَّة، حتى أصبح الشعب يعتبره بطله المنتظر، ويتوقَّع عودته ليردَّ الحياة إلى الجمعيَّات الشعبيَّة التي وأدها بومبي حين كان قنصلاً منفرداً[٤].

أعلن قيصر في مطلع سنة ٤٩ ق.م عن استعداده لتنفيذ قرار مجلس الشيوخ تسريح جنوده لو حذا بومبي حذوه، إذا ما منحه المجلس حقَّ الاحتفاظ بفيلقين فقط، ومدَّد ولاته على غالة حتى سنة ٤٨ ق.م، ولكنه وتَّر الجوَّ عندما أكَّد أنَّ رفض طلبه سيكون بمثابة إعلان حرب عليه، دافع شيشرون عن طلب قيصر، إلاَّ أنَّ اقتراحه لم يلقَ القبول[٥]، فذهب إلى أبعد من ذلك فأعلن عن استعداده لقبول أيِّ حلٍّ وسط إذا تعذَّر تنفيذ قرار مجلس الشيوخ من جرَّاء رفض بومبي التنحِّي عن قيادته، ولو كان المجلس يملك وقتها حريَّة التصرُّف

[١]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٩٣.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢٣٣.

[٣]- مصطفى العبادي، مذكرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٠٥.

[٤]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانية، مصدر سابق، ص١٤٢.

[٥]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، مصدر سابق، ص١٣٨.

لرحَّب بهذا الاقتراح، لكنَّه كان مغلول اليدين مسلوب الإرادة؛ إذ طوَّقت قوَّات بومبي أسوار المدينة، وسيطرت أقليَّة متطرِّفة في الحزب الأرستقراطيِّ عليه سيطرة تامَّة[١]، حتى وصل الأمر بالقنصل لنتولوس Lemtulus إلى أن يتدخَّل في الأمر، وأخرج كوريو وأنطونيوس نصيري قيصر من المجلس، وبعد نقاش طويل أصدر المجلس مكرها، بإلحاح من كاتو ولنتولوس ومارسللوس، قراراً يقضي بمنح بومبي أمراً وسلطة يعمل بهما على ألاَّ تُصاب الدولة بسوء، تلك عبارة كانت تُستخدم عند تنصيب ديكتاتور على روما[٢]، وكلَّفوه بحماية الجمهوريَّة والدفاع عن الوطن، بحجَّة أنَّ قيصر يحشد قوَّاته على الحدود الغالية، وبعد ذلك وفي قرار مصيريٍّ أعلن المجلس في كانون الثاني سنة ٤٩ ق.م قيصراً خائناً للوطن وعدوَّاً للشعب، وقد حاول نقيبا العوام أنطونيوس وكاسيوس، وكانا من أنصار قيصر، إيقاف القرار باستخدام حقِّ الاعتراض الفيتو، لكنهما طُردا من قاعة الاجتماع بقوَّة السلاح، وتمَّ إصدار القرار، فخشي النقيبان على روحيهما وهربا بملابس العبيد إلى قيصر الذي كان يرابط مع جيشه في شمال إيطاليا، وتبعهما نفر كبير[٣].

في الواقع، لم تكن معارضة بومبي وأعضاء مجلس الشيوخ لقيصر من أجل الحفاظ على التقاليد الجمهوريَّة؛ أو القواعد الدستوريَّة، كما ادَّعوا[٤]؛ لأنَّ طموحات هؤلاء انصبَّت على أن يحكم كلُّ واحد منهم ولاية رومانيَّة، ويصبح قائداً لجيش يأتمر بأمره، ويستطيع من خلال ذلك الحكم وتلك القيادة الحصول على الثروة من خيرات تلك الولايات وأموال الحلفاء من الملوك والأمراء، وذلك هو شأن القنصلين لونتولوس Lentulus وسكيبو Scipion. أمَّا كاتو Cato فلم ينس عداوته القديمة مع قيصر، ما فعله به عندما أرغمه على الذهاب إلى صقلية، ويلتف كلُّ هؤلاء الذين لم يُعرف لهم صيتٌ في الحرب والقتال حول بومبي[٥]، الذي كان أكثر من خَرَقَ دستور تلك الجمهوريَّة، فقد تولَّى القنصليَّة في سنة ٧٠ ق.م من دون أن يكون قد تولَّى قبل ذلك الكويستوريَّة والبرايتوريَّة، وتلك مخالفة صريحة لقانون

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢٣٥.

[٢]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، مصدر سابق، ص١٣٨.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٣.

[٤]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانية، مصدر سابق، ص١٤٢.

[٥]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٩٥.

تنظيم توليِّ الوظائف العامَّة، وحين تولىَّ القنصليَّة مرَّة ثالثة منفرداً سنة ٥٢ ق.م لم تكن قد انتهت السنوات العشر التي لا بدَّ من انقضائها على القنصليَّة الثانية التي تولاَّها سنة ٥٥ ق.م. أمَّا النبلاء ومجلس الشيوخ الذين منحوه قنصليَّة سنة ٧٠ ق.م مكرهين، فهم ذاتهم من خرقوا الدستور، وقوَّضوا دعائم النظام الجمهوريِّ حين أقاموه قنصلاً منفرداً سنة ٥٢ ق.م، وهم ذاتهم من ولُّوه في السنة ذاتها حكم ولايتي إسبانيا قبل انقضاء السنوات الخمس التي فرضها قانون أصدره بومبي نفسه. ومن هنا يظهر أنَّ معارضة قيصر لم تكن بدافع الحفاظ على القواعد الدستوريَّة أو الروح الجمهوريَّة إنَّما الخوف من عودته إلى روما قنصلاً، الأمر الذي يتيح له السيطرة الكاملة على مقدَّرات الدولة، وبالتالي تتلاشى كلُّ سلطة لبومبي، وسيطرة لمجلس الشيوخ. فالصراع كلُّه، إذن، كان دائراً حول السلطة ومن يظفر بها[١].

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ طرد نقباء العوامِّ وحرمانهم من استخدام حقِّ الاعتراض، وهو الحقُّ الذي كفلته القوانين المعمول بها، ولم تعمل كلُّ الإجراءات الاستثنائيَّة التي مرَّت بها الجمهوريَّة في عهد سولا على منعه، هذا الطرد يمثِّل درجة الاحتقان التي وصلت إليها الأمور. وقد استطاع قيصر أن يستغلَّها خير استغلال حيث وقف خطيباً بجنوده، مبيِّناً لهم أنَّ إهانة كبرى قد لحقت بقائدهم، وأنَّ انتهاكات دستوريَّة خطيرة قام بها بومبي ومن يحالفه من النبلاء الذين أعمتهم السلطة والثروة، داعياً أفراد الجيش إلى الدفاع عن شرفه وكرامته التي كان يعتبرها من شرف وكرامة الشعب الرومانيِّ، وأعلن أنَّه سينتصر لقضيَّة الشعب، وسيحمي نقباء العوامِّ بحكم القانون، وأنَّه يريد الانتقام لنفسه من الشتائم والإهانات التي لحقت به وبنقباء العوام، وهذا ما أجابه عنه الجنود بكلِّ حماسة وشجاعة[٢].

في العاشر من شهر كانون الثاني ٤٩ ق.م، صاح قيصر: «قُضي الأمر»، وعبر نهر الربيكون Rubico، هو نهر صغير كان يُعتبر حد إيطاليا الشمالي مع بلاد الغال، ولأنَّه عبر بجيشه من دون إذن مجلس الشيوخ يكون قد أعلن الحرب على روما، وفق تشريعات الخيانة التي أصدرها سولا. وحين سار في إيطاليا كانت المدن والبلدات تفتح أبوابها لقاهر غالية، وتخرج عن بكرة أبيها لتحييه، وكان هو رحيماً بأعدائه إذ لم يعاقب من قاوم تقدُّمه، وكتب

[١]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٤١، ١٤٢.

[٢]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٩٦.

إلى شيشرون أنَّه مستعد للتخلِّي عن كلِّ شيء واعتزال الحياة العامَّة، وتسليم الأمور إلى بومبي، مقابل أن يتعهد له الأخير أن يتركه آمناً على حياته. وقد بذل شيشرون كلَّ طاقته لكنَّ منطقه لم ينفع أمام قرقعة السلاح[١].

الواقع أنَّ عبور قيصر لنهر الربيكون أربك أعداءه، وهو يعلم أنَّهم لا يمتلكون قوَّة عسكريَّة حقيقيَّة، فأنصار بومبي وجنوده في إسبانيا، والفرقتان العسكريَّتان المرابطتان في كابو لم يتسلَّم بومبي قيادتهما فعليَّاً، لا بل كانتا في الأصل من فرق قيصر[٢]. ولمَّا أدرك بومبي تلك الحقائق آثر الانسحاب إلى أبيروس على الساحل الغربيِّ لبلاد الإغريق في ١٧ آذار ٤٩ ق.م حتى يتمكَّن من جمع أنصاره، ثم ضرب حصاراً بحريَّاً على شواطئ شبه الجزيرة الإيطاليَّة، وبذلك أصبحت مدينة روما مفتوحة لقيصر، وهكذا كانت خطته سليمة من الناحية العسكريَّة لاسيَّما أنَّ البحر الأدرياتيكيَّ كان تحت سيطرته، ولكنها أثارت دهشة حلفائه بل غضبهم عليه لأنَّها كانت مفاجأة لم يتوقَّعوها بعدما ملأ قلوبهم ثقة ومنَّاهم بالنصر. حتى أنَّ شيشرون استنكر فراره من روما ولم يفهم ضرورته، ولمَّا علم أنَّه ينوي الفرار من إيطاليا كلِّها تملَّكه الجزع وتردَّد في اللَّحاق به[٣].

دخل قيصر إلى روما مجرَّداً من السلاح في يوم ١٦ آذار ٤٩ ق.م ولم يلق مقاومة تُذكر، ووضع يده على الخزينة وأخذ منها آلافاً من سبائك الذهب والفضَّة والعملات، وكان فيها زوجات وأولاد العديد من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانيِّ الذين ناصبوه العداء وهربوا مع بومبي، إلاَّ أنَّه لم يمسس أحداً بسوء، بل أعلن العفو العامَّ عن كلِّ الذين كانوا في المدينة، ولم يحاول اللَّحاق ببومبي وأنصاره، بل توجَّه إلى إسبانيا، وقضى على بعض التمرُّدات فيها حتى يضمن مصادر تمويل إيطاليا بالحبوب، وذلك في شهر آب ٤٩، ثم عاد إلى روما عن طريق البرِّ، فتعرَّض لبعض المواجهات في مارسيليا، وتمكَّن من السيطرة عليها ونظَّم إدارتها، ووصل منها إلى روما في شهر ديسمبر ٤٩ ق.م حيث كلَّف أنصاره بالسيطرة على أفريقيا وصقلية وسردينيا. ثمَّ استصدر قراراً بتعيينه دكتاتوراً مدَّةً تكفي وتضمن له النجاح في

[١]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، مصدر سابق، ص١٤٠.

[٢]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٩٧.

[٣]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢٤٣.

انتخابات القنصليَّة في سنة ٤٨ ق.م.

بعد ذلك، اعتزل قيصر الدكتاتوريَّة وتولىَّ القنصليَّة وخرج لمواجهة بومبي بعدما فشلت جميع محاولات التفاوض معه؛ والتي كان يرمي من ورائها إلى انتزاع صديقه القديم من براثن الأرستقراطيين، وتقابل الجيشان في تساليا عند فارسالوس Pharsale في شهر آب من السنة ذاتها، وكانت المعركة الفاصلة في الحرب الأهليَّة، وانتصر هو رغم أنَّ قوَّاته لم تزد عن نصف قوات بومبي الذي فرَّ إلى مصر[١].

- **قيصر في مصر**

هرب بومبي على ظهر جواده الذي ظلَّ يعدو به طوال الليل حتى وصل إلى لارسا، ومنها ركب سفينة إلى الإسكندريَّة، وفي طريقه اصطحب زوجته كورنيليا من متليني، ورغم أنَّ أهلها طلبوا منه البقاء بينهم ووعدوه بالنصر، إلاَّ أنَّه طلب منهم الاستسلام للقائد المظفَّر ووصف قيصر بالرحيم. كانت مقاليد الأمور في الإسكندريَّة قد انتقلت من بطليموس الزمار الذي مات في سنة ٥١ ق.م، إلى ابنته كليوبترا السابعة مع شقيقها الأصغر وزوجها وشريكها في الملك، ولما حطَّت سفينة بومبي مرساتها على الشاطئ عند مصبِّ الفرع الشرقيِّ لنهر النيل في البحر المتوسِّط، على مقربة من معسكر بطليموس الثالث عشر شقيق كليوبترا، وبعد جدال طويل بين مستشاريه العسكريين، قرَّر الملك الصغير قتل بومبي حتى لا يتَّخذ قيصر من وجوده في مصر ذريعة لدخولها بجنده، وبعدما صعد البطالمة إلى سفينته، واستقبلوه بحفاوة، طعنوه غيلة في أثناء نزوله إلى الشاطئ[٢].

إذا كان هناك خلاف حول بومبي القائد، فليس ثمَّة خلاف كبير حول بومبي السياسي، حيث لم يكن يمتلك الحنكة السياسيَّة التي تمكِّنه من استثمار انتصاراته الحربيَّة، فكان كالأداة التي يستعملها من يجيد فنَّ السياسة والحكم. وكان قيصر أول من استغلَّ وزن هذا القائد والقنصل السابق أثناء تحالفه معه، وحصل بفضله على القنصليَّة وحكم بلاد غالة، وبذلك جعل لنفسه موقعاً مهمَّاً في الخارطة السياسيَّة والعسكريَّة الرومانيَّة. وما إن أفاق

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٤.

[٢]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١٢٢

بومبي من غفلته حتى وجد حليفه السابق قد عظم شأنه، وأصبح من الصعب مواجهته والتصدِّي له؛ الأمر الذي جعله يرتمي في أحضان المعسكر الأرستقراطيِّ المعادي. ورغم أنَّ قيصر لم يحاول أن يقطع معه حبائل العلاقة القديمة، وحاول إيجاد أرضيَّة للتَّفاهم معه ومن يدفعه لحربه[١]، لكن بومبي كانت تعوزه اللباقة والكياسة والكفاءة في معالجة المسائل السياسيَّة، وكان محبَّاً لذاته ولا يملُّ سماع المديح[٢]، ذا شخصيَّة سهلة الانقياد، فتمكَّن أقطاب مجلس الشيوخ من نبلاء روما المتعصِّبين من التأثير عليه وإيهامه بصورة القائد الأهمِّ لجيوش روما، والحامي لعاصمتها ممَّن يخترقون القانون والدستور[٣]. على أن نقطة الضعف الأساسيَّة فيه هو أنَّه لم يكن حازماً بقدر ما كان طموحاً، فقد دفعه طموحه إلى السعي وراء مركز يتعارض والدستور، فانتهك روحه وإن تمسَّك بنَصِّه، ولم يكن يحجم عن تقوية مركزه بطريقة غير مشروعة حتى لو تحمَّل غيره مسؤوليَّة خرق القانون، ولعلَّ افتقاره إلى الحزم هو ما جعله لا يقدم على هدم الدستور الجمهوريّ[٤].

توجَّه قيصر إلى مصر مقتفياً أثر عدوِّه بومبي، فلم يظفر إلاَّ برأسه وخاتمه، فجلس يبكي عليه ثم أرسل خاتمه إلى روما معلناً نهايته الأليمة[٥]، في الواقع، لم تنته الحرب الأهليَّة الأولى بموت ماريوس، كما لم تنتهِ الحرب الأهليَّة الثانية بموت بومبي؛ لأنَّ الحرب في الحقيقة لم تكن بين رجلين أو بين خصمين منعزلين، بل كانت بين حزبين أو تيَّارين سياسيَّين؛ فإمَّا أن يستمرَّ مجلس الشيوخ في الهيمنة على مقاليد الحكم في الجمهوريَّة الرومانيَّة، وإمَّا أن تذهب تلك الهيمنة إلى الأبد، فالنبلاء والأثرياء والأرستقراطيون اتَّسموا بأنانيَّتهم وحبهم لتملُّك كلِّ شيء في الدولة، وأدَّى بهم ذلك المنحى إلى تضييع المكاسب والتقاليد الديمقراطيَّة التي حكمت بها الجمهوريَّة لقرون عدَّة مضت، حيث وصل بهم الأمر إلى الاستعانة بالقوَّة العسكريَّة أي قوَّة الجيش التي يفترض فيه حماية الدولة من الأعداء لفرض نفوذهم على الدولة، لكن السحر انقلب على الساحر حين انقلب الجيش على تقاليد

[١]- عمر بوصبيع، الحرب الأهلية، مصدر سابق، ص٩٥.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢٥٦.

[٣]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص٩٥.

[٤]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٢٥٦.

[٥]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٤.

الجمهوريَّة ودستورها بعدما رأى بأمِّ العين كيف يقوم أعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم بخرق الدستور من أجل غاياتهم ومنافعهم الشخصيَّة. ومن بين هؤلاء الجنرالات قيصر الذي كان داهية سياسيَّة وسليل أسرة أرستقراطيَّة يقف في حزب الشعبيين ويناصر قضاياهم، ما دامت متَّفقة مع توجُّهاته ومشروعه الذي كان يهدف من خلاله إلى تقويض سلطات مجلس الشيوخ، وتعطيل مؤسَّسات الدستور الرومانيِّ، وجعل الكلمة العليا في الدولة لرجل قويٍّ، وهو ما سعى لتكريسه قبل الحرب الأهليَّة وبعدها[١].

في مصر، وجد قيصر نفسه مضطرَّاً إلى التدخُّل في الخلاف حول وراثة عرش الملك بطليموس الزمار بعد وفاته في سنة ٥١ ق.م، بين ابنته كليوبترا وشقيقها الحدث (بطليموس الثالث عشر). ولمَّا كانت مصر مصدر القمح الأول لروما كان لا بدَّ من معالجة مشاكلها السياسيَّة، فوقف قيصر إلى جانب كليوبترا بعدما فتنته بحسن أسلوبها ومنطقها، ومن المحتمل أنَّه كان في عمر (٥٢ سنة) وهي في عمر(٢١ سنة)، فأمسيا عشيقين من لقائهما الأول، ولما كان قد دخل الإسكندريَّة بشاراته العسكريَّة، وأقام في القصر الملكيِّ، وتدخَّل في الشؤون الماليَّة، كلُّ هذه الأمور مجتمعة أثارت غضب أهل الإسكندريَّة، وأدَّت إلى قيام الثورة عليه، بينما هاجم جنود بطليموس أسطوله وأحرقوا عدداً من سفنه ما تسبَّب في حريق مكتبة الإسكندريَّة، وهكذا انقطعت طرق إمداده البحريَّة، حتى وصلته إمدادات ميثريداتيس من برغامون عن طريق سورية، وكان من نتيجة المعركة التي خاضها الحليفان هزيمة المصريين، وموت ملكهم، فخلا الجوُّ لكليوبترا، وأصبحت بمساعدة الرومان ملكة مصر[٢]. واختار القائد العاشق أن يظلَّ بجانبها مدَّة ثلاثة أشهر أخرى، قضاها كفترة نقاهة قام خلالها برحلة معها إلى الصعيد عبر نهر النيل، وربما رأى نفسه بحاجة إلى أيام من اللَّهو والمرح بعد أكثر من عشر سنوات من الحروب والمعارك المتواصلة، وبعد ٦ شهور قضاها في مصر غادرها وغادر أميرتها الفاتنة [٣].

---

[١]- عمر بوصبيع، الحرب الأهلية، مصدر سابق، ص١٢٤.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٥.

[٣]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة، مصدر سابق، ص١٢٣.

- **قيصر في سورية**

توجَّه قيصر إلى سورية، وكان العرب الأنباط قد قدَّموا له فرقة من الفرسان لتؤازره في حملته على الإسكندريَّة أثناء مطاردته لبومبي، وكان ذلك في أيام ملكهم مالك الأول (٤٧ - ٣٠ ق.م). وكانت سورية قد خسرت الكثير خلال هذه الحرب الأهليَّة؛ لرفدها جيوش بومبي بالجنود والمواد التموينيَّة، وقد أدرك قيصر ما أصابها أثناء مروره بها سنة ٤٧ ق.م بسبب هذه الحرب، وأراد أن يخفِّف عنها فخفض الضرائب، ونقل حقَّ جبايتها من أيدي الملتزمين الرومان إلى الحكَّام المحليين، ونظر في مطالب السوريين، ووزَّع الهبات والامتيازات على المدن التي ناصرته كاللاَّذقية وجبلة وبيروت، وحصلت أنطاكية على حصَّة الأسد، بينما حُرِمت مدينة صور التي كانت مقرّاً لتجمُّع أنصار بومبي، واعترف بالأنباط الذين أعلنوا ولاءهم له، وأبقى مدينتي الرستن وحمص بيد أمرائهما، وكذلك فعل مع عنجر وبعلبك حيث تركهما بيد حكامهما الأيتوريين. وقبل أن يعود إلى روما عيَّن والياً على سورية هو أحد أقربائه المدعوِّ سكستوس قيصر (٤٧- ٤٦ ق.م).

لم تكن سياسة قيصر الإداريَّة في سورية تختلف أبداً عن سياسة الدولة الرومانيَّة الإداريَّة، التي كانت تعتمد على الزعامات المحليَّة بوصفهم أصدقاء لروما، مع وجود والٍ رومانيٍّ مهمَّته الإشراف على سير الأمور[١]. وكان القيام بحملة ضدَّ الفرثيين من أهمِّ المشروعات التي ينوي قيصر القيام بها، وقبل عودته إلى روما مرَّ بآسيا الصغرى؛ حيث أحرز نصراً سريعاً على فارناكيس ما جعله يسخر من أن يمنح بومبي موكب النصر لانتصاره على العدو الآسيويِّ الهشّ. ووصل إلى روما في شهر أيلول سنة ٤٧ ق.م وقد انتخب ديكتاتوراً بعد انتهاء عام قنصليَّته[٢].

- **عودة قيصر الى روما وحادثة اغتياله:**

عندما عاد يوليوس قيصر إلى روما، استقبل استقبالاً حافلاً، وتفاقمت ظاهرة النِّفاق له حتى أنَّ تماثيله غطَّت أنحاء المدينة، ووقف أحد التماثيل فوق الكابيتول جنباً إلى جنب

[١]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الإمبراطورية الرومانية، مصدر سابق، ص١٦٩.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٦.

مع ملوك روما القدامى، ووقف آخران في السوق العامَّة، بل صدر قرار بأن يُقام تمثال في كلِّ معبد رومانيٍّ، وهكذا تأسَّست عادة عبادة الحاكم في روما والتي ستصبح سمة بارزة في العصر الأمبراطوريِّ، وأصبحت احتفالات النصر تقام بشكل سنويٍّ[١]. في المقابل، كافأ قيصر كلَّ جندي من جنوده بخمسة آلاف دراخمة، وأعدَّ للشعب الروماني وليمة عظيمة ضمت اثنتين وعشرين ألف مائدة، وقدم عرضاً عسكريَّاً من خلال استعراض قوَّاته البحريَّة، ثمَّ توجَّه على إسبانيا، وقضي على آخر جيش موالٍ لبومبي سنة ٤٥ ق.م، وعين سالوست حاكماً على شمال أفريقيا، عاد إلى روما فوجدها غارقة في الفوضى[٢]. لقد ظهرت الفوارق والتطلُّعات التي كانت عنده عن تلك الرؤى والتصوُّرات التقليديَّة التي يتمسَّك بها أعضاء مجلس الشيوخ. لقد كان المجلس معنيَّاً بروما بالدرجة الأولى وإيطاليا بالدرجة الثانية فحسب فيما مضى، لكن اليوم كلُّ فرد فيه معني بقضاياه الخاصَّة. كما أنَّ عدداً منهم تلوَّثت سمعته بالفساد، بينما كان قيصر يرى أنَّ إيطاليا وجميع أراضي الجمهوريَّة التي تمتدُّ على رقعة جغرافيَّة هائلة قد صارت من مسؤوليَّات الدولة الرومانيَّة، وربما أن إقامته في بلاد الغال لعشر سنوات هي التي وسَّعت مداركه وتصوُّراته وتطلُّعاته، ورأى أنَّ النظام الجمهوريَّ قد أصبح قديماً، وأنه لم يستطع أن يُنقذ البلاد من حرب أهليَّة استمرت ١٠٠ سنة[٣].

والآن، بعدما انتهى عهد مجلس الشيوخ المهترئ والحافل بالفوضى والحرب الأهليَّة، توجَّب على قيصر إعادة ترتيب الدولة ومؤسَّساتها على الشكل الذي يلائم الأوضاع الجديدة، والتي تمخَّض عنها سيادة مطلقة لروما على البحر المتوسِّط وأوروبا الغربيَّة، وكانت كلُّها بيد حاكم عسكريٍّ متفرِّد هو قيصر، فما كان منه إلاَّ أن نهج منهج سولا في إعادة النظر في موضوع مجلس الشيوخ، وإصدار تشريعات جديدة كان الهدف منها وضع برنامج جديد لمؤسَّسات الحكم، وقد حاول أن يجمع في شخصه جميع السلطات الدستوريَّة الأخرى التي كانت تمارس في العصر الجمهوريِّ[٤].

---

[١]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١٢٥.

[٢]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، مصدر سابق، ص١٥٠.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٦.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٩٩.

لقد منح قيصر نفسه سلطات واسعة، وبفضلها كان يسيطر على خزينة الدولة، وخوَّله منصب الكاهن الأعظم أن يسيطر على الشؤون الدينيَّة في البلاد، وكان من حقِّه أن يقترح القوانين وينفِّذها، وبوصفه تريبونا كانت ذاته مصونة مقدَّسة لا تمسُّ، وبوصفه رقيباً كان له أن يعيِّن أعضاء مجلس الشيوخ ويسقطهم، واحتفظت الجمعيَّات بحقّها في الاقتراع على القوانين المعروضة عليها، ولكن "دلابلا وأنطونيوس» رجليْ قيصر كانا يسيطران عليها، وكانت توافق عادة على سياسته، وكان هو من ناحيته يجتهد لأن يقيم ديكتاتوريَّة على محبَّة الشعب له ورضائهم عنه، وقلَّل من سلطات مجلس الشيوخ حتى أصبح مجلساً استشارياً له، ولعلَّه تعمَّد أن يجعل المجلس الجديد هيئة ضخمة عاجزة عن المداولة الجديَّة المنتجة أو المقاومة الموحّدة، ولذلك اختار طائفة من أصدقائه من بينهم أبيوس وماتيوس وغيرهما ليتَّخذ منهم وزراء له غير رسميين ينفِّذون سياسته، وأدخل النظام البيروقراطيَّ في الدولة بأن وضع الشؤون الكتابيَّة في خزانة الحكومة، والأعمال الإداريَّة في أيدي من كان بيته من المحرَّرين العبيد، وسمح للجمعيَّة بأن تختار نصف كبار الحكَّام في المدينة، واختار هو النصف الباقي بطريقة التوصية، وكانت الجمعية تأخذ بهذه التوصيات على الدوام وكان من حقه أن يعترض على قرارات غيره من الرتابنة والقناصل ويبطلها، ورفع عدد القضاة إلى ستة عشر، والكويسترين إلى أربعين لنجز بذلك أعمال البلديَّة والأعمال القضائية، وراقب بنفسه شؤون المدينة كلِّها على اختلاف أنواعها، وقضى على كلِّ ما كان فيها من عجز وفساد، ونصَّ في جميع العهود التي منحها للمدينة على الأوامر الصريحة والعقوبات الشديدة التي يتعرَّض لها كلُّ من يحاول إفساد الانتخابات أو الوظائف العامَّة، وأراد أن يقضي على التقليد القديم المسيطرة على الشؤون السياسيَّة بابتياع أصوات الناخبين بالجملة، فألغى الاتحادات، وقصر وظائف المحلَّفين على الطبقات العليا، واحتفظ لنفسه بحقِّ النظر في أهمِّ القضايا وأخطرها شأناً، وكثيراً ما كان يجلس للقضاء بنفسه، وقد اقترح على المشرِّعين في أيام أن يجمعوا القوانين الرومانيَّة المعمول بها وقتئذٍ في كتاب واحد منظَّم، ولكن موته العاجل حال دون إتمام هذا المشروع. كان قيصر قد وزَّع الأرض على جنوده القدامى وعلى الفقراء،

وحاول أن يمنع عودة تَرَكُّز الملكيَّة الزراعيَّة بأيدي النبلاء، فحرَّم بيع الأرلضي الجديدة قبل مضيِّ عشرين سنة، كما أمر أن يكون ثلث العمال في المزارع من الأحرار[١].

في الواقع، لقد حكم قيصر بالموت على مجلس الشيوخ الذي كان يعتبر نفسه صاحب السلطة الحقيقيَّة في الدولة، وما زاد الطين بلَّة أنَّه لم يكن يأبه للتقاليد الجمهوريَّة المتوارثة والتي كان المجلس يعتبر نفسه حارساً أميناً عليها ومدافعاً عن حرمتها، ولم يراع مشاعر أولئك النبلاء المتحمِّسين لتلك التقاليد، لذلك كان الكثيرون منهم ينظرون إليه على أنَّه طاغية يسعى للتفرُّد في الحكم بصورة مطلقة، ويعتبرون رفضه التاج الذي قدَّمه له صديقه ونصيره الحميم ماركوس أنطونيوس في ١٥ شباط سنة ٤٤ ق.م ليس إلاَّ مناورة وخطَّة تكتيكيَّة؛ وذلك لأنه كان يدرك بحدسه السياسيِّ أنَّ الوقت لم يحن بعد لفترة الملكيَّة، وأكبر برهان على نيَّاته البعيدة تجلَّى -كما يرونه- في تسلُّمه منصب الديكتاتوريَّة مدى الحياة، وهي ظاهرة لم يعرفها الرومان منذ قيام الجمهوريَّة. والأمرَّ من ذلك هو ما شاع في الأيام القليلة التي سبقت مقتل قيصر حول أنَّه ينوي نقل العاصمة من روما إلى الإسكندريَّة وربما إلى طروادة. كما أنَّنا نسمع عن استياء أنصاره ومؤيديه الذين لم ينل بعضهم ما كان يحلم به من مغانم ومناصب رفيعة. وهكذا حيكت المؤامرة على حياة قيصر، وكان عدد العارفين فيها حوالي ٦٠ عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ[٢]، وتمَّ اغتياله في ١٥ آذار ٤٤ ق.م عندما استغلَّ رؤساء المؤامرة اجتماع مجلس الشيوخ، فأقبلوا عليه يريدون طلب العفو لشقيق أحدهم (كيمبر) الذي رجاه أن يسمح لشقيقه بالعودة من المنفى، إلاَّ أنَّهم انهالوا عليه بخناجرهم فأردوه قتيلاً بـ ٢٣ طعنة. بعدما أن تأكَّد لهم أنَّ قيصر لن يتخلى عن شيء من السلطات التي وضعت في يده، لا بل إنَّه قرَّر أن يضع يده على الجمهوريَّة وإلى الأبد[٣].

---

[١]- محمد عطية الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري، ص١٠٧، ١٠٨.

[٢]- محمد الزين، محمد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص١، ٢.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٧.

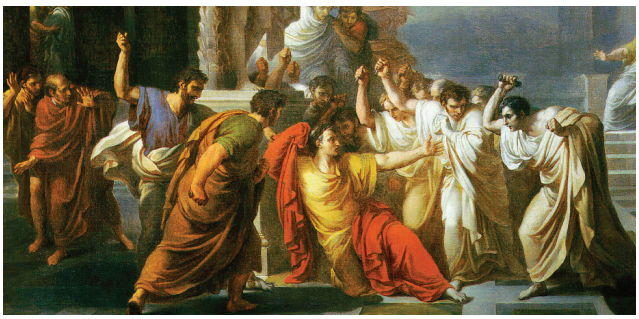

حادثة اغتيال قيصر ١٥ آذار ٤٤ ق.م

ويميل عدد من المؤرِّخين إلى اعتبار قتَلة قيصر، وعلى رأسهم كاسيوس Cassius وبروتوس Brutus، «أبطال الدفاع» عن الجمهوريَّة الرومانيَّة[١]، لاسيَّما أنَّ منفِّذي المؤامرة كانوا يتمتَّعون بتأييد غالبيَّة أعضاء مجلس الشيوخ والأرستقراطيَّة الرومانيَّة، وفي التراث اليونانيِّ والرومانيِّ كان قتل الطغاة يعتبر عملاً بطوليَّاً، وعلينا الآن أن نتذكَّر أنَّ رومولوس مؤسِّس روما الأسطوريَّ قُتل عندما حاول أن ينفرد في السلطة كليَّاً من دون مجلس الشيوخ، وبعد طرد تاريكوينيوس المتغطرس آخر ملوك روما سنة ٥٠٩ ق.م أقسم الرومان على أن لا يسمحوا للملكيَّة بالعودة إلى بلادهم[٢]. ولو أنَّ الدافع عند هؤلاء الذين قتلوا قيصر؛ كان مجرَّد الدفاع عن الحريَّة والديمقراطيَّة وإنقاذاً لأنظمة العصر الجمهوريِّ، لكان من الممكن إحاطتهم بهالة من المجد، واعتبارهم المدافعين عن حقوق الشعب ومخلصيه من الطغيان، إلاَّ أنَّ مؤسَّسة مجلس الشيوخ، التي حكم قيصر عليها بالموت، والتي تعتبر أهمَّ مظاهر العصر الجمهوريِ، كانت مسرحاً لتطاحن الأحزاب والمصالح الشخصيَّة، وإدارة يقوم عليها أقليَّة من الناس، هم الأرستقراطيون، ليستغلِّوا أكثريَّة الشعب الرومانيِّ[٣]، وإدراكاً من الشعب الرومانيِّ لهذه الحقائق فإنَّ قتَلة قيصر لم يلقوا التأييد والدعم من فئات الشعب الأخرى أو حتى من الجيش، بل ولا من سكَّان إيطاليا، فجميعهم مدينون لقيصر، وقد زاد من صعوبة

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، مصدر سابق، ص٧.

[٢]- أحمد عثمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١٢٥.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، مصدر سابق، ص٧.

موقفهم أنَّهم لم يكونوا منظَّمين، وليس لديهم خطة ينفِّذونها لإعادة الحكومة الدستوريَّة[١].

لقد خطَّط المتآمون لقتل قيصر، ولكنهم لم يخطِّطوا لمرحلة ما بعده، فحساباتهم لم تذهب إلى أبعد من التخلُّص من الديكتاتور، وكانوا ينتظرون أن تعود السلطة تلقائيَّاً إلى مجلس الشيوخ وذلك بمجرَّد قضائهم عليه، بيد أنَّ آمالهم خابت حيث وجد المتآمرون في وجههم أنصاره منظَّمين تحت قيادة أنطونيوس Antonius زميل قيصر في القنصليَّة وصديقه الحميم، وكذلك لبيدوس Lepidus قائد فرسان الديكتاتور المقتول، وكانا يمتلكان قوَّة عسكريَّة موالية لهما مكَّنتهما من التصدِّي لكلِّ حركة خطيرة قد يتَّخذها مجلس الشيوخ[٢]. لا بل إن انطونيوس تمكَّن في الاجتماع الذي عقده مجلس الشيوخ لحلِّ القضيَّة من تسوية الموضوع لمصلحة أهدافه مقابل تخلِّيه عن معاقبة المتآمرين، وقد تضمَّنت الأهداف إقامة جنازة تليق بقيصر، ووضع مشاريعه موضع التنفيذ، وإقرار وصيَّته التي جاء فيها تبنِّيه لابن شقيقته الشاب أوكتافيوس البالغ من العمر آنذاك ثمانية عشر عاماً، حيث جعله وريثاً لثلاثة أرباع ثروته، وأوصى بأن تترك بساتينه الواقعة على ضفة التيبر لتكون حدائق عامَّة للشعب الرومانيِّ، وأن يوهب لكلِّ مواطن مبلغ مالي قدره ٣٠٠ درهم.

- **د. روما بعد مقتل قيصر وبروز مارك أنتوني (٨٣ – ٣٠ ق.م)**

في جنازة قيصر في ٢٠ من آذار استطاع مارك أنتوني أو ماركوس أنطونيوس، بالكلمات التي ألقاها على الجثمان في ساحة السوق، أن يلهب مشاعر أبناء روما، وأن يثير نقمتهم على قتَلة قيصر، ولاسيَّما بعدما قرأ عليهم أنطونيوس وصيَّة قيصر والتي تظهر القدر العظيم من الهبات التي خصَّ بها سكَّان روما. ثمَّ جاء بعباءته المضرَّجة بالماء، فالتهبت مشاعر الجماهير المحتشدة، وبدأ الناس يوقدون المشاعل ويبحثون عن القتَلة، وأحرقوا بيوتهم، فخافوا على أنفسهم وقرَّر بعضهم الهرب من روما والتوجُّه إلى الولايات المخصَّصة لهم، والانطلاق منها لمواجهة خصمهم الجديد أنطونيوس، الذي بدأ مجلس الشيوخ يتوجَّس منه حذراً. وفي شهر أيار وصل أوكتافيوس وريث قيصر إلى روما وهو عازم على أن ينال حقوقه

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٨.

[٢]- محمد الزين، محمد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٤.

كاملة، فاستخفَّ أنطونيوس بهذا الشاب الذي وصل من أبوللونيا Apollonia وهو أول ورَثة قيصر، ولم يعره اهتماماً يذكر[١].

بدأ الخلاف بين أنطونيوس وأوكتافيوس حول خمسة وعشرين مليون درهم كان الأول قد احتجزها من التركة، ونتيجة لذلك اتجه الثاني إلى شيشرون يطلب عونه عند مجلس الشيوخ وعامَّة الشعب، على أن يتولىَّ هو أمر دعمه بنفوذه المالي، وبما هو تحت أمرته من القوَّات الكبيرة التي خدمت تحت لواء خاله قيصر. وكان بغض أنطونيوس هو العامل الأهمَّ الذي جمع هذا الفتى مع ذلك العجوز الذي كان يتوسَّم في خيراً. غير أنَّ هذا التحالف بين شيشرون وأوكتافيوس أثار استياء بروتوس (أبرز قتَلة قيصر) في المنفى، فكتب إلى أتيكوس مهاجماً شيشرون بقوله: «من الجليِّ أن تودُّدَه إلى أوكتافيوس خوفاً من أنطونيوس لم يكن يستهدف به حريَّة بلاده وإنَّما كان يخطب ودَّ طاغية، ليكون عطوفاً على شخصه ليس إلاَّ». واعتقد شيشرون أنَّه تغلَّب على أنطونيوس فأرسل القنصلين على رأس جيش للقضاء عليه، دفع مجلس الشيوخ أن يأذن لأوكتافيوس بالحرس الخاص، وشعار البريتور بوصفه يحارب دفاعاً عن بلاده، وبعد نجاح الجيش في هزيمة انطونيوس وقتل القنصلين، اتحد الجيش كله تحت راية أوكتافيوس، وهنا ذُعر أعضاء مجلس الشيوخ منه وحاولوا بشتَّى السبل سحب الجيش منه وتحديد سلطانه، متعلِّلين بأنَّ الجيش لم يعد ضروريَّاً بعد دحر أنطونيوس، وهذا ما كان يخشاه أوكتافيوس، فأرسل سرَّاً إلى شيشرون يرجوه أن يسعى له بالفوز بمنصب لهما معاً، وقال له إنَّه لن يزاحمه في السلطة العليا، وهنا استسلم شيشرون لكلمات شاب خادعه، فساعد أوكتافيوس في الانتخابات وكسب له رضا مجلس الشيوخ، وسرعان ما أدرك أنَّه ألحق الدمار بنفسه وخان بلاده في حريَّتها[٢].

ما إن أمسى أوكتافيوس قنصلاً حتى تصالح مع أنطونيوس وليبيدوس، وشكَّل معهم الحكومة الثلاثيَّة الثانية في سنة ٤٣ ق.م والتي عُرفت بـ Trimuviri reipublice Constituendae، بهدف إدارة البلاد. وقد تمَّ تقاسم السلطة في ما بينهم، ونصَّبوا أنفسهم كحكَّام مطلقي الصلاحيَّة لمدَّة خمس سنوات، وأعطوا لقراراتهم الشرعيَّة من دون الحاجة إلى عرضها على مجلس الشيوخ.

[١]- محمد الزين، محمد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦، ٨.

[٢]- بلوتارخ، ج٣، ص١٦١٢، ١٦١٣.

واحتفظ انطونيوس وليبدوس بمقاطعتيهما في بلاد الغال وإسبانيا، بينما خُصِّصت لأوكتافيوس جزيرتا صقلية وسردينيا ومقاطعة أفريقيا[١]. ثم نظَّموا قائمة بمئتي شخص قرَّروا القضاء عليهم، إلاَّ أنَّ معظم الخلاف الذي ساد مناقشاتهم كان موضوع شيشرون، فأنطونيوس يأبى كلَّ اتفاق إلاَّ إذا أدرج اسم شيشرون في رأس القائمة، وظلَّ أوكتافيوس طيلة يومين كاملين يرفض رغبته، إلاَّ أنَّه استسلم في اليوم الثالث وتخلَّى عنه، وكانت موادُّ اتفاقهما هي الآتية: يتخلَّى أوكتافيوس عن شيشرون، ويتخلَّى ليبيدوس عن أخيه باولوس، ويتخلَّى أنطونيوس عن خاله لوجيوس، وهكذا تخلَّى الثلاثة عن كلِّ مشاعر واعتبارات إنسانيَّة تاركين المجال لأحقادهم ومطامعهم، وبذلك برهنوا عن وحشيَّة الشعب الروماني[٢].

بعد اتِّفاق الحكومة الثلاثيَّة توجَّه القادة بقوَّاتهم نحو روما، فدخلوها من دون أيِّ مقاومة، وأصدروا قرار التطهير، أو ما عُرف بالقوائم العامَّة التي تضمَّنت أسماء عدد كبير من معارضيهم السياسيين، وإعدامهم ومصادرة أملاكهم وأموالهم[٣]. وكان على رأس القائمة شيشرون الذي حارب بكلِّ قواه ليمنع قيام دكتاتوريَّة جديدة في روما، وعندما فشلت محاولاته وصار الأمر بيد هؤلاء القادة الثلاثة، حاول أن يهرب لكنَّ محاولته باءت بالفشل، وألقي القبض عليه في الطريق، وذُبِح وحُمِل رأسه إلى روما ليسمَّر في الفورم، وقامت فولفيا زوجة أنطونيوس بثقب لسان خطيب الجمهوريَّة الرومانيَّة المفوَّه بدبوس شعرها، ولعلَّ في ذلك رمزاً للنهاية المريعة التي لقيها النظام الجمهوريُّ. كذلك تضمَّنت القائمة أسماء أعداء الحكم الثلاثيِّ وهم حوالي ثلاث مائة عضو من مجلس الشيوخ، وأكثر من ألفين من طبقة الفرسان والنبلاء، تمَّت تصفيتهم في مجازر دمويَّة رهيبة[٤]. وكان أعضاء الحكومة قد رصدوا مبلغاً ماليَّاً لمن يأتي برأس أحد المطلوبين، فجعلوا للعبد الذي يأتي لهم به مبلغ ١٠ آلاف سستروس، كما كان من بين قراراتهم فرض الضرائب على جميع مواطني الدولة الرومانيَّة، ومن يعجز أو يتقاعس عن أدائها يعلن عنه أنَّه عدوٌّ للدولة، وتُصادَر كلِّ ممتلكاته معاقبة له.

---

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٩.

[٢]- بلوتارخ، ج٣، ص١٦١٢، ١٦١٣.

[٣]- محمد عطية الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص١١٠.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، مصدر سابق، ص١٣.

كذلك أجبروا المدن الإيطاليَّة التي تخيِّم فيها أو تمرُّ بها قوَّاتهم على ضرورة أن يقوم سكَّانها بإيواء الجنود وإطعامهم من دون أن يدفعوا أيَّ مقابل. وهذه الإجراءات والقرارات التعسفيَّة التي اعتمدها قادة التحالف الثلاثيِّ، وجعلوها من أعمال حكومتهم، كان سببها حاجتهم إلى المال اللاَّزم لإتمام مشاريعهم السياسيَّة، وملء جيوبهم، والإغداق على جنودهم[١].

إنَّ الوحشيَّة التي انتهجها أعضاء الحكومة الثلاثيَّة دفعت بالكثيرين من السياسيين الرومان والقادة العسكريين المنهاضين لسياستهم للفرار إلى الشرق، والانضمام إلى قتَلة قيصر برئاسة بروتوس وكاسيوس. وبعد تصفية الجبهة الداخليَّة في إيطاليا ألتفت هؤلاء أعضاء إلى القتَلة وأعدائهم الرئيسيين وأعضاء مجلس الشيوخ الفارِّين من مذبحتهم. وبالنظر إلى نجاح أنصار الحزب الجمهوريِّ بجمع قوَّة بلغت نحو ٨٠ ألف جندي تجمَّعت في تراقيا، وسيطرت على مقدونيا وسوريا وأجزاء من آسيا الصغرى، وأخذت تستعدُّ لغزو إيطاليا، نقل أعضاء الحكومة الثلاثية قوَّاتهم عبر البحر الأدرياتيكيِّ لمواجهتهم. وقد التقى الجمعان في مقدونيا، وجرت معركة فيليبي سنة ٤٢ ق.م وكانت نتيجتها هزيمة ساحقة لقتَلة قيصر ممثِّلي الحزب الجمهوريِّ، وصار أنطونيوس الشخصيَّة الرئيسيَّة في هذه الحكومة، وتراجع دور ليبدوس الذي لم يكن صادق النوايا[٢].

بعد معركة فيليبي تمَّ تقاسم الدولة بين أنطونيوس الذي كان الشرقُ من نصيبه ويطمع في تكوين ثروة كبيرة من ولاياته الغنيَّة، وأوكتافيوس الذي كانت إيطاليا من نصيبه وكان يدرك أنَّ سيِّد روما سيكون سيِّد الدولة الرومانيَّة كاملة في المستقبل، وكانت من أول واجباته توزيع الأراضي على الجنود المسرَّحين ما تسبَّب بشبه ثورة من قبل المدن التي اختيرت أرضها لتوطين هؤلاء الجنود، سرعان ما تزَّعم حركات الاحتجاج هذه شقيق أنطونيوس، إلاَّ أن أوكتافيوس تمكَّن من القضاء على هذه الثورة، ولم يمسَس شقيق أنطونيوس بأيِّ أذى[٣].

أمَّا في الشرق فكان الوضع مختلفاً تماماً، حيث زارت كليوباترا ملكة البطالمة في مصر أنطونيوس في مدينة طرسوس في ولاية كيليكيا في سنة ٤١ ق.م، ودعته لزيارة مصر، وكان

[١]- محمد عطية الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص١١٠.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، مصدر سابق، ص١٤.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٠٩، ٢١٠.

قد وقع في حبِّها، لكن كان عليه أن يغادر سورية على وجه السرعة إلى إيطاليا، بعد انهيار نفوذه هناك وتشتيت شمل أنصاره. وكان أوكتافيوس قد أعدَّ العدَّة لمواجهته، إلاَّ أنَّ الجنود الرومان الذين ملُّوا الحرب والقتال أجبروا قادتهم على عقد صلح وتفاهم برنديزي سنة ٤٠ ق.م [١]، وتمَّت بموجبه إعادة تقسيم الإمبراطوريَّة الرومانيَّة بين الزعيمين الكبيرين؛ فكانت القسمة الآن وفق الحدود الجغرافيَّة، شرقيٍّ وغربيٍّ إيطاليا، حيث نال أوكتافيوس القسم الغربيَّ، وحصل أنطونيوس على الشرق، واتَّفقا على حكم إيطاليا سويَّة. وقد تمَّ تدعيم هذا الصلح بزواج أنطونيوس من أوكتافيا شقيقة أوكتافيوس، بعدما توفِّيت زوجته الأولى (فولفيا[٢]). في تلك الأثناء اجتاح الفرثيُّون ولاية سورية (عدا مدينة صور) وحكموها سنة كاملةً، مستغلِّين إهمال أنطونيوس للولاية، كما قامت ثورة ضدَّه في أرواد سنة ٤٠ ق.م، بينما قدَّم الأنباط كامل الدَّعم والتسهيلات لتقدُّم القوَّات الفرثيَّة نكاية بالرومان الذين دعموا الدولة المكابيَّة في فلسطين.

بعدما عالج أنطونيوس بعض مشاكله في الغرب، عاد إلى الشرق مرَّة أخرى في سنة ٣٩ ق.م وكان الفرثيُّون لايزالون يحتلُّون سورية. وأمام هذا الواقع الجديد كلَّف قائد جيشه المدعو فنتيديوس بالتصدِّي لهم، وبالفعل نجح القائد في مهمَّته في أواخر سنة ٣٧ ق.م، إلاَّ أنَّه فشل في القضاء على حاكم سوريا الكوماجينيَّة بتهمة ميوله إليهم. بيد أنَّه في المقابل، نجح في إجبار الأنباط على دفع تعويضات ماليَّة كبيرة عقوبة على موقفهم أثناء تقدُّم القوَّات الفرثيَّة. ولم تختلف سياسيَّة أنطونيوس في الإدارة عن سياسية سابقيه؛ حيث أعطى الزعماء المحلين قدراً كبيراً من الحكم الذاتي مقابل تحصيل الضرائب، وعدم قيامهم بأيِّ اتِّصال مع الفرثيين، أو مع منافسيه في مدينة روما[٣].

توجَّه أنطونيوس في سنة ٣٦ ق.م إلى سوريا وكانت فكرة غزو الأمبراطوريَّة الفرثيَّة لا تزال تستحوذ على اهتمامه. والظاهر أنَّه لم يتَّعظ من تجارب كراسوس الفاشلة والمؤلمة وهزيمة الجيوش الرومانيَّة الشنيعة على يد الفرثيين، فراح يعدُّ العدَّة لمحاربتهم واستدعى كليوبترا

[١]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٧٠.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، مصدر سابق، ص١٦.

[٣]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ص١٧٠.

إلى أنطاكية، وفي ربيع سنة ٣٦ ق.م شنَّ هجوماً لكنَّه لم يستطع الثأر لمقتل كراسوس، حيث لم يكن حظُّه أفضل من حظِّ سلفه، فاضطُرَّ للانسحاب من أرمينيا بعدما خانه ملكها، وبلغت خسائره أكثر من عشرين ألف جنديٍّ، عدا عن وصمة العار التي جلبها لروما. وقد توتَّر الجو من جديد بينه وبين وأوكتافيوس الذي رفض إرسال الفرق الرومانيَّة الأربع التي كان وعد بها لمساعدته بها في حربه ضد الفرس. وفي المقابل رفض أنطونيوس بالسماح لزوجته أوكتافيا أن تلحق به إلى الشرق، كما أنَّه أعلن عن زواجه الرسميِّ من كليوبترا، وبذلك تنفصم آخر عُرى الصداقة بين الركنين الأساسيين في الحكومة الثلاثيَّة[١].

كانت سنة ٣٤ ق.م الأبرز في تاريخ أنطونيوس، حيث أعلن زواجه من كليوبترا، وأطلق عليها لقب «ملكة الملوك»، وتنازل لها عن كامل جوف سورية بما في ذلك فينيقية وبلاد الأنباط. وهذا ما أثار غضب مالك الأول (٥٩ - ٣٠ ق.م) الذي أعلن صراحة أنَّه لن يدفع الجزية لها، فأوعز أنطونيوس إلى هيرودوس اليهوديِّ عامله على فلسطين، بشنِّ حرب على الأنباط أجبر مالك في نهايتها على دفع الجزية للرومان. ولا شكَّ في أنَّ تنازل أنطونيوس عن أجزاء من أراضي الدولة الرومانيَّة لكليوبترا كانت الخطيئة الأكبر له، والتي استغلَّها أوكتافيانوس خير استغلال؛ حيث صوَّر للشعب الرومانيِّ مدى استهتاره بحقوقه، وتفريطه بجزء من أراضي الدولة في ولاية سورية، بعدما غدا أسير هوى امرأة شرقيَّة، وهذا يتناقض مع مبادئ الجنديَّة الرومانيَّة[٢]. كما ذكر المؤرِّخون أنَّه كان هناك أيضاً عشيقٌ ذكرٌ لأنطونيوس اسمه ميسالا (كان رفيق بروتس)، ثم أصبح على صلة وثيقة به إلى أن أضحى هو عبداً لكليوباترا. وهكذا لم تظهر كليوباترا على أنَّها دمَّرت مصالح أنطونيوس فحسب، بل ربما يُستخدم هجره لميسالا أيضاً كدليل على تخلِّيه عن التقاليد الرومانيَّة[٣].

اعتُبرت سنة ٣٣ ق.م نهاية الحكم الثلاثيِّ، وفي مطلع سنة ٣٢ ق.م عاود أنطونيوس محاولة الاتِّصال بمجلس الشيوخ عن طريق القنصلين المواليين له، واللذين نجحا في انتخابات السنة ذاتها، وقد أعرب عن استعداده للتنازل عن السلطات التي خوَّلها له الحكم

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، مصدر سابق، ص١٧.

[٢]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ص١٧٠، ١٧١.

[٣]- سالي-آن أشتون، كليوبترا ملكة مصر، ترجمة زينب عاطف، مؤسسة هنداوي، المملكة المتَّحدة ٢٠١٧م، ص١٥٧.

الثلاثيُّ، وأكَّد عن رغبته في إعادة العمل بالدستور السابق مقابل أن يقرَّ مجلس الشيوخ الإجراءات التي اتَّخذها هو في الشرق، وفي الحقيقة كان هذا الطلب مناورة سياسيَّة، كان أوكتافيوس الخاسر الأول والأخير فيها لو تحقَّقت، إذ كان عليه أن يتنازل عن كلِّ شيء، بينما تبقى لخصمه مصر ومملكتها[١].

أحسَّ أوكتافيوس بخطورة الموقف بعدما شنَّ عليه القنصلان هجوماً سافراً في مجلس الشيوخ اتَّهماه فيه باغتصاب السلطة، لكنهما لم يتمكَّنا من التوصُّل إلى قرار ضدَّه، بسبب معارضة أحد الترابنة الموالين له، فما كان من أوكتافيوس إلاَّ أن غادر روما وبدأ بجمع جنوده القدامى، ثم عاد إلى مجلس الشيوخ يحيط به جنوده، وأعلن أنَّ سلطاته كأحد أعضاء الحكومة الثلاثيَّة قد انتهت، ووعد بإثبات خيانة أنطونيوس في الجلسة القادمة. رأى القنصلان أنَّه لا يمكنهما ممارسة سلطاتهما أمام تهديد أوكتافيوس وضغوطه العسكريَّة، لذلك تركا روما مع عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ (٣٠٠ عضواً) وقصدوا جميعاً أنطونيوس، الذي كان يستعدُّ للجولة الحاسمة في أفسوس، لكن كثيراً من المحافظين أثارهم وجود كليوبترا إلى جانب أنطونيوس، فطلبوا منه صرفها، إلاَّ أنَّه رفض متذرِّعاً بأنَّ معظم رجال الأسطول من رجالها. وعندما وصل أنطونيوس إلى أثينا أرسل كتاباً بطلاق أوكتافيا، وبذلك فقد حلقة وصل مهمَّة له مع روما ومكاناً لتجمُّع أنصاره، لاسيَّما أنَّها كانت تتمتَّع بسمعه حسنة في روما، فما كان منها إلاَّ أن عادت إلى منزل شقيقها. هذه الحركة أثارت امتعاض بعض أنصار أنطونيوس، ومن بينهم بلانكوس ونسيبه تيتيوس، اللذان انضمَّا إلى أوكتافيوس، ونقلا إليه مضمون وصيته التي كان قد أودعها في معبد فيسيتا في روما، فأسرع أوكتافيوس إلى الوصيَّة وفضَّها أمام أعضاء مجلس الشيوخ، ولدى قراءتها تبيَّن أنَّ أنطونيوس قد اعترف بقيصرون إبناً شرعيَّاً لقيصر من كليوبترا، وأوصى بأن توزَّع الولايات الرومانيَّة في الشرق على كليوبترا وأولادها، وأن يدفن في حال وفاته في الإسكندرية بدلاً من روما[٢]. ولا يُستبعد أن يكون ما نُشر منها عن خدمة أنطونيوس لمصالح كليوبترا وأولادها على حساب الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ورغبته في أن يُدفن في الإسكندرية بعد موته، مزيفاً.

---

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، مصدر سابق، ص١٩.

[٢]- محمد الزين، محمد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٦، ٢٧.

مهما يكن من أمر، فقد حقَّق نشر الوصيَّة الغرض الذي كان يتوخَّاه أوكتافيوس لتكتُّل الشعور المعادي ضدَّ غريمه لدى الشعب الرومانيِّ[١]، كما كان لهذه الوصيَّة وقع الصاعقة على أنصار أنطونيوس حيث صوَّرته أداة لامرأة أجنبيَّة، واستغل أوكتافيوس المشهد وسعى لاكتساب الشرعيَّة فأخذ يمين الولاء لشخصه من أعضاء مجلس الشيوخ؛ باعتباره قائداً عامَّاً في جهاد مقدَّس لدرء خطر الشرق، وبعدها توجَّه إلى هيكل إله الحرب، وغمس سهماً في الدم وسدَّده نحو الشرق، وأعلنها حرباً مقدَّسة على كليوبترا لا على أنطونيوس الذي كان يعتبر حليفاً لها يأتمر بأمرها[٢].

سرعان ما اشتعلت الحرب الأهليَّة بين أوكتافيوس وأنطونيوس، وانتهت في معركة أكتيوم البحريَّة سنة ٣١ ق.م، بالقرب من الساحل الغربيِّ في بلاد اليونان، وفي الأول من شهر آب سنة ٣٠ ق.م دخل أوكتافيوس الإسكندريَّة معلناً إضافتها إلى أملاك الشعب الرومانيِّ، وأصدر مجلس الشيوخ قراراً باعتبار ذلك اليوم عيداً وطنيَّاً، ووضع أوكتافيوس في مصر ثلاث فرق عسكريَّة واحدة في الشمال بالقرب من الإسكندريَّة، والثانية في الوسط بالقرب من العاصمة ممفيس القديمة، والثالثة في الجنوب بالقرب من طيبة، وأعلن عن إعفاء المصريين من بعض الضرائب.

لقد جعلت أكتيوم من أوكتافيوس الحاكم الأوحد في الدولة الرومانيَّة[٣]. أما أنطونيوس، فقد انتحر بعد هزيمة أكتيوم، وكان انتحاره سنة ٣٠ ق.م.

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج٢، مصدر سابق، ص١٩.

[٢]- محمد الزين، محمد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨.

[٣]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ص١٧٠.

خلاصة المبحث الأول

من خلال ما تقدَّم في هذا المبحث، يمكن لنا أن نخرج بالخلاصات التالية:

١. إنَّ العقليَّة الاستعماريَّة الأوروبيَّة الراهنة، ليست سوى امتداد للعقليَّة التي بدأت إرهاصاتها عند الإغريق؛ لكنها تعمَّقت وتجذَّرت عند الرومان.

٢. لقد أظهرت الحياة السياسيَّة والعسكريَّة الرومانيَّة، في شخصيَّاتها الرئيسيَّة، غاية في الشدَّة، ودرجات عليا في الفردانيَّة.

٣. تراجع حاد في الأخلاق السياسيَّة والالتزام بالتحالفات، وضرباً للقيم، مع تقدُّم المصالح الشخصيَّة، وهيمنة روح الغدر على الحياة السياسيَّة.

٤. مثَّل الشرق بالنسبة إلى الرومان كنزا تنبغي الهيمنة عليه، وإخضاعه، وإلحاقه بالجمهوريَّة الرومانيَّة.

٥. شكَّلت شعارات الديمقراطيَّة، والحفاظ على مصالح الجمهوريَّة أداة طيِّعة بيد السياسيين لتبرير الحصول على المكاسب، وتحقيق الأطماع.

٦. غلَبة همِّ جمع الثروات والمال على مجمل الحياة السياسيَّة والسياسيين، حتى أولئك الذين يُعتَبرون منظِّرين سياسيين من العيار الثقيل في الحياة السياسيَّة والتشريعيَّة الرومانيَّة، من أمثال شيشرون وغيره. وظهر لنا أنَّ الفلسفة، بالنسبة إلى شيشرون، لم تكن سوى وسيلة للوصول إلى المناصب السياسيَّة.

٧. كان المعيار في الوصول إلى المراكز السياسيَّة، هو الانتصارات العسكريَّة، ما يعني هيمنة معيار القوَّة والغلَبة على كلِّ المعايير.

٨. إنَّ هيمنة روح الغلَبة سوف يؤدِّي إلى سقوط الجمهوريَّة، وظهور الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، والتي تأسَّست على ترسيخ ما ساد في عصر الجمهوريَّة من الحروب والعنف وإراقة الدماء، والهيمنة الفرديَّة على حساب الديمقراطيَّة وحكم الجماعة.

المبحث الثاني: المرأة والسياسة (من التأسيس حتى سقوط النظام الجمهوريّ)

مقدِّمة

كان التاريخ الرومانيُّ تاريخاً ذكوريّاً، بمعنى أنَّه كُتِب بأيدي مؤرِّخين ذكور، لذلك أغفل بشكل كبير دور المرأة ونشاطاتها السياسيَّة، باستثناء بعض المعلومات عن بعض النسوة بحكم تقاطُعها مع شخصيَّات مُؤثِّرة، وكان لهذه الأحداث تأثيرها الذي لا يمكن غضُّ النَّظر عنه.

مهما يكن من أمر، فإنَّ تتبُّع هذه المتفرِّقات يقودنا إلى جملة من الحقائق أهمُّها أنَّ كثيرات من النسوة الرومانيَّات أسهمنَ في الحياة السياسيَّة، وإن لم يكن ذلك بصورة مباشرة دائماً. وبالتالي، فإنَّ هدفنا من هذا البحث هو تقييم هذه المشاركة، هل كانت إيجابيَّة؟ أم كانت سلبيَّة فأسهمت في نهاية المطاف في هدم الجمهوريَّة الرومانيَّة؟ والجواب سنتركه لتسلسل الأحداث التاريخيَّة، ولإسهامات تلك النسوة، مع التأكيد طبعاً على أنَّه ليس لدينا مرجع بديل عمَّا كتبه الرجال، حيث لا يوجد مصدر كلاسيكيٌّ واحد دوَّنته امرأة، مع الإشارة إلى أنَّ معظم المصادر الكلاسيكيَّة تطالبها بأن تقصر دورها على حياة المنزل والعائلة.

ولكن، رغم ذلك، ظهرت بين الحين والآخر نساء عملنَّ في السياسة، فهل أتقنَّ عملهنَّ، أم أنهنَّ أسهمنَ في خلط الأمور والإساءة إلى المجتمع والدولة الرومانيَّة؟ وهل كان ولوجهنَّ إلى عالم السياسة سبباً في فسادها؟ وبالتالي فساد الجمهوريَّة وانهيارها؟ أسئلة سنترك الإجابة عنها في سياق عرض الأحداث التاريخيَّة، مع الإشارة إلى أنَّنا نسعى من دراستنا هذه لفهم حقيقة النساء الرومانيَّات حتى نهاية العصر الجمهوريِّ سنة ٢٧ ق.م.

أوَّلاً: حقيقة إسهام المرأة الرومانيَّة في السياسة

بدايةً، لا بدَّ من القول أنَّ إسهام المرأة في السياسة كان ضئيلاً في **بداية التاريخ الرومانيِّ**؛ فهي لم تتدخَّل في أمور الحكم، ولم يكن لها أيُّ دور في نشاط الجمعيَّات الشعبيَّة، أو في انتخاب الحكَّام، لا بل كانت محرومةً من توليِّ أيِّ منصب عامٍّ. ويعود السبب في ذلك إلى أنَّ هذا الحقَّ كان مرتبطاً بالقدرة على دفع ضريبة الدم في الحرب، وهي لا تملك هذه القدرة، لذلك ظلَّت مُبعَدة من الحياة السياسيَّة في الدولة. ولكن هذا الإقصاء لم يمنع المرأة من ممارسة حقِّها في معرفة ما يدور في روما من أحداث، ولو بشكل غير مباشر، فهناك

الكثير من السيِّدات الطموحات واللَّواتي ينتمين إلى أسرة كبيرة، أو تربطهنَّ صلات قويَّة بذوي النفوذ والسلطان[١]، وهكذا كانت تقف موقف المشاهد مما يدور حولها من أحداث سياسيَّة في الفترة الأولى من تاريخ الدولة.

هذا على المستوى السياسيِّ، أمَّا على مستوى الحياة اليوميَّة؛ فرغم أنَّ الأدبيَّات الرومانيَّة سعت للترويج إلى أنَّ نساء الأتروسكيين عاهرات (وهم من الأقوام الذين سبقوهم إلى سُكنى إيطاليا)، لأنهنَّ شاركن أزواجهنَّ في مختلف أنشطة الحياة، إلاَّ أنَّ النساء الرومانيَّات لم يختلفن في تصرفاتهنَّ عن تلك النسوة، حيث سمح الرومان لنسائهم بتناول طعام العشاء معهم على المأدبة ذاتها التي جلس إليها أصدقاؤهم وأقاربهم الذكور، واحتسوا النبيذ سويَّة. كما كانت المرأة تخالط الرجال في الأسواق من دون حرج[٢].

إنَّ المقارنة بين هاتين الصورتين تدفعنا إلى التمهُّل قليلاً لفهم حقيقة الأمور، وإن دلَّ هذا على شيء فإنَّما يدلُّ على حجم التناقض الواضح ما بين الخطاب السياسيِّ الرومانيِّ والواقع. فبينما حظَّر الخطاب الرسميُّ للدولة على النسوة تعاطي السياسة، أو العمل بها، تاركاً هذه المهمَّة للرجال، وأمرهنَّ بالجلوس في البيت، إلاَّ أننا نجد الواقع مختلفاً، حيث أن بعض النسوة امتلكن نفوذاً واسعاً، وأسهمن في بعض الأمور السياسيَّة؛ وكنَّ يقمن بدور أو بآخر؛ سواء بصورة مباشرة أم من خلال أزواجهنَّ أو أولادهنَّ، لكنهنَّ لم يتربَّعنَ على كرسي السلطة[٣].

انطلاقاً ممَّا تقدَّم، تصبح الصورة واضحة بالنسبة إلينا؛ فالمرأة الرومانيَّة تعاطت السياسة من دون أن تجلس على كرسيِّها بصفة رسميَّة. وكلَّما تقدَّمت الأيام كان حجم مشاركتها يزداد ويتَّسع. لكن هذه الإشكاليَّة -بقدر ما هي مفيدة- ليست هي الإشكاليَّة الرئيسيَّة في بحثنا هذا،

---

[١]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة خلال العهد الجمهوري (١٣٣- ٢٧ ق.م)، رسالة معدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بنغازي، ليبيا ٢٠١٢م، ص٥٤.

[2] Zager, I., ThepoliticalroleofwomenoftheRoman elite, With Particular Attention tothe Autonomy and Influence ofthe JULIO-CLAUDIAN woman (44BCE to CE68).,submitted in accordance with the requirements for the degree of Master ofarts in the subject Classical Studies at the University of South Africa, June 2014., p.27.

[3]- Kennedy, J., Women's Rights in Ancient Rome: From Republic to Empire., p.7

بل هي تكمن في أهميَّة الدور الذي لعبته هذه المرأة في سياسة الدولة، سواء إيجاباً أم سلباً.

ثانياً: إرهاصات إسهامات المرأة الرومانيَّة السياسيَّة في العصر الملكيّ

إن معظم ما دوَّنه الكتاب الكلاسيكيون عن نساء روما في العصر الملكيِّ ومطلع العصر الجمهوريِّ، لا يختلف كثيراً عن تاريخ مدينة روما ذاته، بمعنى أن جميع ما دوَّنوه لا يخلو من الأسطورة، والخيال، والصورة النمطيَّة، لذلك لن نجد في كتاباتهم إلاَّ نساء أسطوريَّات من طراز لافينياLavinia (زوجة إنياسAeneas)، وريا سيلفياRhea Silvia (أم روميليوس Romulus وريموسRemus) ولارانتياLarentia (الأم التي أرضعت رومولوس وريموس) وهرسيلياHersilia (زوجة رومولوس) وتاربياTarpeiaلوكريشياLucretia (التي كانت السبب المباشر في سقوط النظام الملكيِّ في روما). ومن المعروف أنَّ هؤلاء النسوة تمَّ ابتكار قصصهنَّ في التاريخ الرومانيِّ المبكر لأغراض تربويَّة عقائديَّة؛ الهدف منها إيجاد القدوة والمثل الأعلى[1]، فهل كان الواقع مختلفاً عن المثاليَّات؟

غنيٌّ عن القول أنَّ أول إشارة إلى نشاط سياسيٍّ للنسوة الرومانيات، كانت إسهامات الفتيات السابينيَّات (اللَّواتي خطفهنَّ الرومان) في تهيئة الظروف المناسبة لعقد الصلح بين الرومان والسابينيين، ففي سبيل إكثار عدد سكان روما، افتتح رومولوس على تل الكابيتول ملاذاً لجأ إليه المغامرون والعبيد والمتمرِّدون، فما كان من أهالي القرى والمدن المجاورة إلاَّ مقاطعة الرومان الأوائل، ورفضوا أن يتصاهروا معهم بإعطائهم بناتهم كزوجات لهم، وفي الشهر الرابع من بناء روما دعا رومولوس جيرانه السابينيين إلى احتفال أقامه، وأثناء حضورهم تم اختطاف فتياتهم، فما كان منتيتستاتيوسTitus Tatius ملك قبيلة الكيورين Curites السابينيَّة إلاَّ أنَّ شنَّ هجوماً على روما، ونشبت الحرب سجالاً بين الطرفين، ولمَّا اقتربت قوَّات تاتيوس من تلِّ البلاتين، توسَّطت النساء السبينيَّات اللواتي أصبحن زوجات رومانيَّات؛ وكنَّ ينعمن بحياتهنَّ الجديدة، إلى عقد هدنة بين الطرفين، ثمَّ سعينَ إلى اقناع الملكين بالصلح، وأن يقيم السابينيون في مدينة روما، وفعلاً تمَّ عقد الصلح بين الطرفين، ومن هنا جاءت عادة فرق شعر رأس العروس من الوسط بسنان رمح في روما، تذكرة بأن مبدأ

[1]- Zager, I., Op. Cit.,2014., p.27.

زواج الرومانيَّات كان بالحرب والقتال. وبموجب هذا الصلح أصبح (رومولوس اللاَّتيني) و(تاتيوس السابيني) ملكين على الشعبين الرومانيِّ والسابينيِّ[١].

ورغم أهميَّة هذه الإشارة إلاَّ أنَّها تبقى إشارة عموميَّة، وربما تندرج في نطاق الأسطورة. أمَّا أول إشارة حقيقيَّة إلى تدخُّل النساء في شؤون السياسة الرومانيَّة، هو ما قامت به تناكويل Tanquil؛ زوجة ملك روما الخامس المدعو تاركينيوسTarquinus(٦١٦ - ٥٧٨ ق.م) وكانت ابنة عائلة قويَّة. فقد شجعت زوجها -وكان رجلاً عاديَّاً- أن يترك مدينته الأمتاركويني Tarquinii ويرحل إلى روما[٢]، وهناك قُدِّر له أن يحكم روما ثماني وثلاثين سنة، قتل بعدها غيلة على أيدي الأشراف الرومان الذين لم يتمكَّنوا من تستلُّم الحكم، لأن أرملة الملك القتيل (تناكويل) تولَّت الأمر بنفسها، وأخبرت الرعيَّة أنَّ زوجها في حالة أغماء لا أكثر، وأمرتهم بإطاعة أوامر صهرها سرفيوستلليوس Servius Tullius (٥٧٨- ٥٣٤ ق.م) ريثما يفيق الملك، وهكذا تمكَّنت من تنصيبه على عرش روما، وحين شاع الخبر بأنَّ الملك قد توفيِّ، كان سرفيوس قد أصبح هو الملك، ويقول شيشرون إنَّ سرفيوس هذا كان أول مَلك رومانيٍّ استطاع أن يتولىَّ المُلك من دون أن يختاره الشعب، (أي من دون أن تختاره الأسر الأرستقراطية الكبيرة)، ليصبح سادس ملوك روما[٣].

ونودُّ أن نتوقَّف قليلاً عند هذا الخبر، ربما أن أصل هذه المرأة (تناكويل) التي قَدِمت من مدينة تاركويني Tarquinii الأتروسكيَّة؛ كان له علاقة بالمزايا النسائيَّة عند الأتروسكيين، وبما شاع عند الرومان من أنَّهم يمنحون نساءهم حريَّة زائدة، تصل إلى حدِّ ممارسة الدعارة، وقد أشاعوا ذلك نتيجة للغيرة والعداوة القائمة بينهم[٤]. ولكن، رغم هذه الصورة السوداوية عن (تناكويل)، إلاَّ أنَّ التاريخ سجَّل اسمها كأول امرأة لعبت دوراً مهما في أمور السياسة والحكم في تاريخ مدينة روما.

لكن هذا الصهر الذي صار سادس ملوك روما ذهب ضحيَّة مؤامرة سياسيَّة حاكتها ابنته

---

[١]- عبد الله السليمان،تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص١٩.

[2]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.28.

[٣]- ول. ديورانت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح، ج١، مج٣،ترجمة محمد بدران، بيروت، ١٩٨٨م،ص٣٢.

[4]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.28.

وزوجها لوكيوس تاركينيوس، الذي تسلَّم السلطة بعد حميه[١]. وهكذا تظهر المرأة مرة ثانية في حقل السياسة، ويظهر دورها الفعَّال في تولي وتنصيب أو تنحية الملوك عن عرش روما؛ وتتلخَّص قصة هذه المؤامرة في أنَّ الملك السابق (تاركوينيوسبريسكوس) كان قد ترك وراءه اثنين من الأبناء تزوَّجا من ابنتين للملك سرفيوس، لكن الزيجتين كانتا غير متوافقتين، حيث تزوج لوكيوس الابن العنيف الطباع من الإبنة الرقيقة الطباع، في حين تزوج الابن الطيب الوديع أرونس من الإبنة العنيفة وتدعى توليا، وأمام هذا الاختلاف في الطباع تخلَّص الأقوياء الأشرار من الضعفاء الطيبين، وبذلك خلا الجو للشاب العنيف لوكيوس تاركوينيوس وتوليا التي ما لبثت أن أخذت في توبيخه ومعايرته بالجبن، ثم أوعزت إليه أن يستولي على العرش ويقتل أباها الملك سرفيوس، وقد فعل ما أوحت إليه به، واعتلى عرش روما، ولكن سرعان ما نعته الناس بلقب المتعجرف سوبربوس Superbus من جراء أفعاله العنيفة[٢]. فصار يعرف باسم تاركينيوس سوبربوس TarquinusSuperbus (٥٣٤- ٥٠٩ ق.م)، وهذا الملك المتعجرف هو ذاته الذي أنجب الفتى سكستوس Sextus الذي اغتصب لوكريشياLucretia زوجة أحد أقربائه، فانتحرت خجلاً أثر هذه الحادثة الشنيعة، ممَّا أثار امتعاض طبقة النبلاء عليه، وأسهم في نهاية العصر الملكي في روما سنة ٥٠٩ ق.م[٣].

ثالثاً: جدليَّة العلاقة بين الفساد الأخلاقيِّ والفساد السياسيّ

إنَّ دراسة جدليَّة العلاقة بين الفساد الأخلاقيِّ والفساد السياسيِّ مهمٌّ جدَّاً بالنسبة إلى بحثنا، لأنَّ فساد النخبة الحاكمة أخلاقيَّاً هو الذي سيفتح الباب على مصراعيه لولوج المرأة إلى عالم السياسة، كما أنَّ جميع المؤرِّخين متفقون على أن الفساد السياسيَّ يبدأ بالفساد الأخلاقيِّ، وتنهار الدول عندما تتخلَّى عن العفَّة والمثل والقيم العليا الرصينة، ويعتبر التقشُّف والزهد بالملذَّات والترف، معيار قوة الدولة، وإذا كان التسرِّي والفساد الأخلاقيُّ منتشراً بين الرومان، شأنهم في ذلك شأن معظم الأمم والشعوب القديمة، إلاَّ أنَّ الأمر اختلف عندهم

[١]- محمد محفل، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسة تاريخ الرومان ١، دار غندور، بيروت ١٩٧٤م، ص١٨٢.

[٢]- محمد السيد محمد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، ج١، منذ نشأة روما حتى عام ١٣٣ ق.م، المكتب الجامعي الحديث،جامعة الإسكندريَّة ٢٠٠٦م، ص١١٧، ١١٨.

[٣]- عبد الله السليمان،تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٣١.

عن غيرهم من الأمم، حيث كان من النظم الاجتماعيَّة المعترف بها، والذي تعمل الدولة على تنظيمه، لا بل نال الشرعيَّة القانونيَّة في بعض الأحيان، حيث كان التسرِّي على نوعين: الأول قانوني وبمقتضاه يحلُّ للمواطن أن يعيش مع سيدة من الطبقة الدنيا معيشة زوجيَّة من دون أن عقد زواج قانوني صحيح. والثاني هو التسرِّي غير القانوني، وكان الرجل بمقتضاه يعاشر امرأة أو أكثر معاشرة العاشق لعشيقته. وكان القانون الروماني يجيز النوع الأول من التسرِّي؛ وإن كانت الذريَّة الناتجة من هذه المعاشرة لا تعدُّ من أفراد أسرة أبيهم، ومن ثم لا يحقُّ لها أن ترث أملاكه. أما النوع الثاني فكان موضع استنكار الرأي العام إبان الفترة الأولى من تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة وتحديداً قبل الحروب البونيَّة Punic Wars(٢٦٤ - ١٤٦ ق.م) حيث كان قليل الحدوث، لكنه صار سمة دائمة من سمات المجتمع في أعقاب حروب روما في الحوضين الشرقيِّ والغربيِّ للبحر المتوسِّط[١].

لقد صار على الزوجة الرومانيَّة أن تتحمَّل وجود دائم للأَمَة الخليليَّة في عقر دارها، تزامناً مع تزايد أعداد النساء السبايا اللواتي جلبهنَّ الرومان من حروبهم التوسُّعيَّة[٢]. لا بل أصبحت الخيانة الزوجيَّة السمة الأساسيَّة لمجتمع الصفوة السياسيَّة الحاكمة، وكان هذا بدوره جزءاً من التدهور العامِّ الذي أصاب المُثُل الخلقيَّة عموماً نتيجة لحروب روما في سبيل التوسُّع والاستعمار. وانتشرت أخبار الفضائح لنساء الطبقة الأرستقراطيَّة (أو للمتزوجات من هذه الطبقة)، تلك الطبقة المفترض أنها تحافظ على تقاليد الأجداد، لكن ما كانت تفعله هو العكس تماماً[٣]، ولعلَّ أبشع الأمثلة على الخيانة الزوجيَّة لزوجة أحد أبرز وجوه الدولة، هو ما فعلته زوجة ماركس لبيدوسMarcus Lepidus قنصل سنة ٧٨ ق.م؛ فبعدما فشلت جميع مساعيه لإعادة ترشيح نفسه قنصلاً مرة ثانية، ونتيجة اضطراب الحال السياسيَّة، هرب من روما إلى ساردينياSardinia وهناك مات كسير القلب، لا لأنه فشل في مسعاه السياسي، بل لأن أخبار زوجته التي كانت تخونه قد بدأت تصل إليه[٤].

---

[١]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، سلسلة إقرأ ١٦٩، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م،ص١٤١.

[٢]- نور قطرميز، المرأة الرومانيَّة في العصر الأمبراطوري من ٣١ ق.م إلى ٣٣٠م، رسالة معدَّة لنيل درجة الماجستير في تاريخ الشرق القديم، جامعة دمشق، دمشق ٢٠١٤م،ص١١٤.

[3]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.8.

[4]- MacLachlan, B., Women in Ancient Rome., Bloomsbury Academic., London - New York, 2013, p.86

إنَّ التسرِّي والفساد الأخلاقيَّ والخيانة الزوجيَّة -كما أسلفنا قبل قليل- كان منتشراً في كلِّ المجتمعات القديمة والحديثة، لكنه تحوَّل إلى كارثة مزدوجة عندما تغلل في الصفوة السياسيَّة والنخبة الحاكمة في الدولة، وأصبح سمة أساسيَّة فيها، فنخبة المجتمع عند الرومان من أعضاء مجلس الشيوخ وغيرهم من السياسيين والقناصل كانوا يميلون إلى حياة اللَّهو والمجون؛ وكانوا يرون في الحياة العائليَّة الأرستقراطيَّة التقليديَّة ومسؤوليَّاتها عبئاً ثقيلاً عليهم، وقيداً يسعون إلى التحرُّر منه قدر المستطاع. لذلك انتشر التسرِّي انتشاراً كبيراً بينهم، وصار بوسع أمثال هؤلاء الرجال إطفاء شهواتهم وإشباع ميولهم ونزواتهم من دون التقيُّد بقيود الزواج والمجتمع الرصينة. ومثلما أسهمت تلك الحروب في انحلال القيم الأخلاقيَّة عند الرومان، وأثَّرت كذلك على طبيعة المجتمع الرومانيِّ الذكوريَّة؛ حيث أدَّت إلى تراجع السمة الذكوريَّة التي سيطرت عليه، بحكم غياب الرجال عن منازلهم في ساحات القتال، ونتيجة خسارة روما الكثير من شبَّانها في تلك المعارك، هذا بالإضافة إلى تدفُّق الكثير من الثروات إليها. والواقع أنَّ جميع تلك الأمور فتحت الباب على مصراعيه لتخلُّص المرأة الرومانيَّة من تقاليد المجتمع الثقيلة، وأعطاها مزيداً من الحقِّ لممارسة حريَّتها الشخصيَّة، حدَّاً وصل إلى ولوج عالم السياسة والحكم، وهذا بدوره أسهم في انزلاق كثير من النسوة الرومانيَّات إلى هاوية مفاسد هذه الحياة الاجتماعيَّة الصاخبة، حيث ظهرت في ذلك العصر فئة كبيرة من النساء الخليعات المستهترات ترعرعن في جو مشبع بالانحلال الخلقيِّ والدسائس والمؤامرات السياسيَّة، حتى وصفهنَّ البعض بأنهنَّ أرذل نساء العصور القديمة[١].

في هذا السياق، كان من أهمِّ المشكلات التي واجهت رجال السياسة عند الرومان، خلال الفترة الأخيرة من العصر الجمهوريِّ، أمثال الرقيب ماسيدو نيكوس سنة ١٣١ ق.م، ويوليوس قيصر، وأغسطس: هو عزوف الشباب عن الزواج، ولقد كان هذا مشكلة سياسيَّة خطيرة بالنسبة إلى دولة تمتهن الحرب والعدوان، أكثر ممَّا هي مشكلة اجتماعيَّة، والسبب الأساس في هذه المشكلة، أي عزوف الشباب عن الزواج، هو ازدياد ثراء النساء وكثرة ما حصلن عليه من الحقوق والامتيازات، حيث كره الرجال الرومان ما ظهر في النساء من

[١]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، مصدر سابق، ص١٥٢، ١٥٣.

مظاهر الاستقلال، والاعتداد بالنفس، والميل إلى التسلُّط والسيادة بسبب زيادة ثرائهنَّ عن الرجال. والواقع أنه أتى على المرأة الرومانيَّة عصر كانت فيه مطلَقة الحريَّة في كلِّ شيء، وهو العصر الذي تدخَّلت فيه في السياسة، وكان لها دور ونفوذ على رجال السياسة والحكم، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه لانهيار الدولة وأخلاقها وقيمها وسياستها[١].

رابعاً: رغبة المرأة في التسلُّط

حتى لا يبقى بحثنا في إطار فلسفة التاريخ وجدليَّة النقد، سنقدِّم أمثلة وشواهد على دور شخصيَّات نسائيَّة رومانيَّة أسهمن في الإساءة إلى سياسة الدولة، عندما تدخَّلن في مجرياتها. ولاشكَّ في أنَّ لجميع النساء، ولاسيَّما المتعلِّمات منهنَّ، دوراً وتأثيراً على مواقف أزواجهنَّ وأبنائهنَّ، وهذا أمر طبيعيٌّ؛ حيث لا يختلف الأمر كثيراً في العصور القديمة عمَّا عليه الحال في الزمن الحاضر. ولعلَّ أقدم شخصيَّة نسائيَّة يمكن التحدُّث عنها كسيدة رومانية أدَّت دوراً في عالم السياسة في الجمهوريَّة الرومانيَّة هي **كورنيليا**Corneliaالتي كانت ابنة سيبيو الأفريقي، وأمَّاً للأخوين جراكوسGracchus، والتي تعكف المصادر الكلاسيكيَّة على مديحها، إلاَّ أنَّها تعدُّ مثالاً على نوع من النساء، سنتناول نشاطاته كمؤثِّرات سلبيَّة على الدولة، حيث سمحت هذه المرأة لابنها جايوسGaius باستغلال اسمها في خطاباته السياسيَّة، بحكم أنَّ اسمها كان يحمل بعض السلطة الأخلاقيَّة في روما.

لقد استطاع جايوس أن يلعب على عواطف جمهوره بشكل ماهر، ولم يقتصر دور كورنيليا على هذا بل قامت باستئجار مجرمين من الريف وأرسلتهم إلى روما لمساندة جايوس. وهذا الدور الذي لعبته، وتدخُّلها في الشؤون السياسيَّة لروما عن طريق ولديها يشبه بنسب كبيرة دور تناكويل[٢]. لكنه يختلف من حيث النتائج؛ فبينما نجحت الأولى في مسعاها واستطاعت أن تثبت صهرها على عرش الملك، نجد الثانية قد جنت هلاك أولادها، وأسهمت معهم في دقِّ أول مسمار في نعش الجمهوريَّة الرومانيَّة، وأسالت الدماء في سبيل الخلافات السياسيَّة الداخليَّة التي لن يتوقَّف إلاَّ بسقوط النظام الجمهوريّ[٣].

---

[١]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، مصدر سابق، ص١٥٠، ١٥١.

[2]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.31

[3]- Zager, I., Op. it., 2014, p.33

لم تكن كورنيليا مثلاً مستقلاًّ على المرأة ذات الطموحات السياسيَّة، فـ تيرنتاTerentia زوجة شيشرون كانت امرأة طموحة أيضاً، يصفها لنا بلوتارخ نقلاً عن شيشرون فيقول: «لم تكن في طبعها امرأة رقيقة الفؤاد ولا بالجزوع، وإنما امرأة جمعيَّة الفراد، تفضِّل أن تحشر نفسها في شؤون زوجها العامة على مساراته بأمور العائلة[١]». وقد غذَّت هذه المرأة طموحات زوجها السياسيَّة. ويبدو أنَّها تزوَّجته من غير سلطان، بمعنى أن أموال أبيها بقيت ملكاً لها. ولا شكَّ في أن شيشرون قد تزوجها حتى يستفيد من أموالها في مشاريعه السياسيَّة، ويظهر في العديد من رسائله إليها أنَّه كان يدير عقاراتها وشؤونها الماليَّة. ولم يتوقف دورها على هذا الأمر، بل لعبت دوراً مهمَّاً وجوهريَّاً في تحالفات شيشرون في فترة الحكومة الثلاثيَّة الأولى، ومن ثمَّ التنافس بين بومبي وشيشرون[٢].

لكن أهمَّ الأدوار التي لعبتها تيرنتا في حياة شيشرون السياسيَّة هو أنَّها اقنعته بضرورة إعدام المتورِّطين في مؤامرة كتالينا سنة ٦٢ ق.م، وقد استخدمت حجَّة دينيَّة واهية في سبيل ذلك. ويروي لنا بلوتارخ تفاصيل القصة فيقول» بعدما تمكَّن شيشرون من إحباط المؤامرة دخل منزل صديقه سرَّاً وجلس وراح يقلِّب وجهات النظر في كيفيَّة معاملة هؤلاء الرجال، كان متردِّداً خائفاً بعض الشيء من إنزال العقوبة الرادعة الوحيدة بمرتكبي تلك الجرائم الشنعاء... وفيما كان بضرب أخماسه بأسداسه، حدثت معجزة للنسوة أثناء تقديمهنَّ للقرابين، ففي المذبح بدت النار وكأنها خامدة تماماً، ثم فجأة خرج لهب ساطع شديد من رماد الخشب المحترق، فساد الرُّعب النسوة، إلاَّ أنَّ الفستالات (كاهنات الربة فستا Vesta) نادَين ترينتا زوجة شيشرون وطلبن منها أن تسرع إلى زوجها وتطلب منه تنفيذ ما استقرَّ عليه رأيه لمصلحة البلاد... فأسرعت إليه وأنبأته بالمعجزة وراحت تحرض على المتآمرين[٣]».

لاشكَّ في أن تلك المسرحية- المعجزة كانت من أفكار تيرنتا، لكن هل كانت هذه الزوجة الطموحة صائبة في نصح زوجها، في الواقع لا يعتقد كثير من المؤرِّخين ذلك، لا بل إنَّ اعدام المتآمرين من دون محاكمة كان من أكبر الأخطاء التي وقع بها شيشرون، فقد وجِّهت إليه

[١]- بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج٣، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م، ص١٥٩٢.

[2]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.33.

[٣]- بلوتارخ، ج٣، ص١٥٩٢.

انتقادات شديدة بأنَّه أزهق أرواح مواطنين رومان بأسلوب لا ينسجم مع الأعراف والقواعد الدستوريَّة، وإنَّ ذلك الخطأ سيكلِّفه غالياً؛ حيث نفي من روما في سنة ٥٨ ق.م بسببه[١].

في الواقع، لم تقف رغبة النساء الرومانيَّات في التسلُّط والسلطة عند حدِّ التوجيه أو حتى التنسيق، لكن تطوَّرت إلى حدِّ المشاركة في المؤامرات ومحاولة قلب نظام الحكم في روما، فرغم الثقافة العالية والمكانة الاجتماعيَّة البارزة التي تمتَّعت بها **سيمبرونيا** Sempronia إلاَّ أنَّها كانت مشاركة في مؤامرة كتالينا Catiline، من دون أن تكترث إلى أنَّها زوجة لدكيموسيونيوس بروتوس D. Iunius Brutus قنصل روما لسنة ٧٧ ق.م، وأمٌّ لـ فولوفياFulvia زوجة ماركوس أنطونيوس Marcus Antonius، حيث لم تفلح في المحافظة على نقودها وسمعتها ومكانتها، بعدما تطلَّعت إلى دور مؤثِّر في الحياة السياسيَّة في روما. لقد تصرَّفت هذه المرأة بحريَّة واستقلاليَّة خرجت فيها عن التقاليد النسائيَّة المتوارثة للطبقة الأرستقراطيَّة، وارتكبت خطأ عظيماً بتأييدها لمؤامرة كتالينا، حتى أنَّها سمحت للمتآمرين باللقاء في منزلها، كما استاء المؤرِّخون من نشاطاتها اللاَّأخلاقية، حيث قيل إنَّ لديها الكثير من العشاق، الذين كانت تبحث عنهم هي بنفسها، بدل أن يبحثوا هم عنها[٢].

خامساً: المرأة والفساد السياسيّ

تُعدُّ كلوديا Clodia سليلة أعرق الأسر الرومانيَّة، وشقيقة بيبيلوس كلوديوسPublius Clodius بطل فضيحة مهرجان الربَّة الطيِّبة Bona Dea، وزوجة كوينتوس ميتللوس Metellus أحد أرستقراطيِّي روما، وصديقة القنصل شيشرون، وبطلة آلاف الفضائح[٣]؛ وكانت أفضل نموذج تجسَّدت فيه شخصيَّة المرأة ذات التأثير والنفوذ السياسيِّ، وإن كان هذا الأنموذج من النساء قد شاع خلال الفترة الأخيرة من حياة الجمهوريَّة الرومانيَّة، إذ كان لها تأثير كبير على زوجها في الشؤون السياسيَّة. ويعترف شيشرون بأنَّه ذات مرة ناشد كلوديا أن تؤمِّن له لقاء مع ميتللوس، إيماناً منه بأنَّ براعتها في السياسة لا تقلُّ براعة عن زوجها،

[1]- MacLachlan, B., Op. Cit., 2013, p.95.

[2]- MacLachlan, B., Op. Cit., 2013, p.85.

[٣]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيَّة، دمشق ١٩٩٧م، ص١١٥.

وأنَّها وحدها القادرة على إقناعه بوجهة نظره. ورغم أنَّها لم تكن بنفسها شخصيَّة سياسيَّة في روما بحكم العرف السائد، إلاَّ أنَّها نفَّذت سياساتها بطرق عدَّة[١]. فعلى سبيل المثال، كان شيشرون قد عانى الأمرَّين في سنة ٦٣ق.م لقرب نهاية قنصليَّته فاستعان بكلوديا Clodia وموكياMucia أختي كلوديوس، وكانت إحداهما زوجة بومبي والأخرى زوجة ميتللوس، للاستفادة من نفوذهما في تحقيق أهدافه المنشودة[٢].

من جانب آخر، كانت كلوديا أفضل نموذج تجسَّدت فيه شخصيَّة المرأة اللاَّمبالية العابثة في الشؤون السياسية من أجل رغباتها ونزواتها الشخصيَّة، حتى أنها فاقت كل النبيلات في الاستهتار والمجون في الفترة التالية من قنصليَّة شيشرون، حداً وصل معها -سواء أثناء زواجها أم في فترة ترمُّلها- إلى أنَّها كانت تظهر أمام الملأ في صحبة خلاَّنها المتعاقبين، حيث لم يكن زواجها الأول مع ابن عمها زواجاً سعيداً؛ ما دفعها لإقامة علاقات حميمة مع عدد من الرجال، كان أشهرهم شاعر الغزل كاتوللوسCatullus الذي هام بها وذكرها كثيراً في قصائده تحت اسم مستعار هو ليسبيا Lesbia. والغريب في الأمر أنَّها لم تكن تتحرَّج من أنَّها متزوِّجة، حتى أمست أشهر النساء في ممارسة المجون بعد زواجها؛ فكانت تستقبل الضيوف وتقوم بتقبيلهم أمام الملأ، كما تقوم بإعداد الولائم لاستقبال هؤلاء الرجال، ويتعمَّد زوجها الغياب عن البيت في فترة هذه الولائم. وقد قيل الكثير عن عهرها وأغانيها وما تقوم به من حفلات موسيقيَّة ومقاصف الشراب في مدينة بايا(Baia)، كان كلُّ رجل من عشَّاقها يأخذها خليلة لهو يستأثر بها إلى أن تفتر شهوته، ثمَّ يصبح عدوَّاً لها عندما تتَّخذ خليلاً غيره[٣].

وتلخِّص لنا الدكتورة أديث هاملتون الواقع المزري لـ كلوديا؛ كأنموذج لأولئك النسوة الخليعات المستهترات، وللسياسة الفاشلة، والأخلاق المنحطَّة التي وصل إليه الرومان، في عرضها لقضيَّة كلوديا مع ماركوس كاليوسروفوسMarcus Caelius Rufus، فتى شيشرون المرح الساخر: ففي صباح أحد الأعياد سنة ٥٧ ق.م، أي بعد عودة شيشرون من منفاه، غصَّ الفورم الرومانيForum بالمتجمِّعين في المكان على غير العادة، فـ كلوديا إحدى سيدات

[1]- Kennedy, J., Op. Cit., p.7.

[٢]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٥٥.

[٣]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة،مصدر سابق،ص٥٩.

روما من الطبقة الأرستقراطيَّة؛ وجَّهت تهمة القتل ومحاولة التسميم ضدَّ روفوس أحد أكثر الشبَّان أناقة وجمالاً في المدينة. والأشدُّ إغراءً في القضيَّة أنَّ الاثنين (أي المتَّهم والمدَّعية) كانا قد تصادقا مؤخَّراً، ومؤخَّراً جدَّاً، وقد ارتبط اسماهما على كلِّ شفة ولسان في روما.

هذه الحقيقة كانت معروفة، إذ عاش روفوس في بيتها ردحاً من الزمن، ولم يكن أحدهما يفكر بالتخلِّي عما يرغب بسبب ما يمكن أن يقال عنه. لكنهما الآن يقفان وجهاً لوجه في قاعة المحكمة، المدَّعية والمتَّهم في تهمة كبيرة[١]. كان المتَّهم أصغر من عشيقته بعشر سنين، وأقلَّ في الخبرة بعشرين سنة، وفوق ذلك فإنَّ الُّهمة سوف تدمِّره إن ثبتت عليه، ولكن حياة جميلة واسعة تنتظره عندما تُزاح هذه التهمة من طريقه، ربما اعتقد أنَّه تصرَّف بحماقة عندما تلاعب بعواطف سيدة مسنَّة وفرَّ بعيداً عنها فوراً. لقد ضحك عليها وهرب من عندها، ليجعل المدينة كلَّها تضحك عليها، سمَّاها الكواندرانتاريا (السيدة التي ثمنها فلس) فانتشرت السخرية في المدينة. ومتى ظهرت كلوديا أمام الملأ لا بدَّ من أن يصفر لها أحدهم، وكلُّ شخص يلقي عليها نظرة ويعبر سريعاً. لقد احتقرها هذا الفتى علانية، وهي اعتادت أن تسخر هي من الآخرين، حيث كانت ترمي رجلاً بعد آخر بعد أن تملَّ منه. كان كاليوسروفوس أحمق متهوِّراً منحرفاً وأمله الوحيد في النجاة مرافعة شيشرون عنه[٢]».

كان شيشرون في ما مضى صديقاً لكلوديا، لكنه الآن يقف في المحكمة خصماً لها، فما هي الأسباب التي دفعته إلى ذلك؟ كانت هذه المحكمة بعد عودته من منفاه في سنة ٥٧ ق.م، وكان كلوديوس (شقيق كلوديا) هو السبب المباشر في نفيه من روما في سنة ٥٨ ق.م، فأراد أن ينتقم منه من خلال شقيقته. وتعود جذور المشكلة بين شيشرون وكلوديوس إلى فضيحة مهرجان الربَّة الطيِّبة Bona Dea؛ التي تزامنت مع مؤامرة كتالينا وقنصليَّة شيشرون في سنة ٦٢ ق.م، وكان هذا المهرجان مخصَّصاً للنساء فقط (باعتبار أنَّ مجال عمل هذه الربَّة وطقوس عبادتها يدخلان في إطار أسرار النساء التي لا يصحُّ أن يطَّلع عليها الرجال)، وكانت عذارى فيستا الطاهرات هنَّ اللاَّئي يشرفن بأنفسهنَّ على هذا المهرجان المقدَّس، وجرت العادة أن يعقد هذا الحفل في منزل أحد مسؤولي الدولة؛ حيث يترك الرجال جميعاً

[١]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، ص١١٥.

[٢]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، ص١١٦.

المكان للنساء لممارسة شعائر العبادة، وفي سنة ٦٢ ق.م وقع الاختيار على منزل قيصر لإقامة المهرجان الاحتفاليِّ فيه وكانت زوجته بومبيا Pompeia هي المضيفة. أمَّا كلوديوس -ذلك الأرستقراطي سليل الأسرة العريقة- فكان في قمَّة التهوُّر والانحلال الأخلاقيِّ، حتى أشيع عنه أنَّه على علاقة محرَّمة مع أخته كلوديا، لا بل مع شقيقاته الثلاث، قد طمع في الإيقاع بزوجة قيصر في حبائله، وربما أراد أن يقتحم حفلاً مقدَّساً مخصَّصاً للنساء فقط، المهم أنَّه تنكَّر في ثياب امرأة واندسَّ في صفوف المحتفلات، وكانت فضيحة كبرى عندما اكتشف أمره[١].

ويروي لنا بلوتارخ القصة كالتالي: «لقد كان كلوديوس ينحدر من أسرة نبيلة وهو شاب في زهرة العمر، ذو نفس وثابة وإرادة قويَّة، وقع في هوى زوجة قيصر، ودخل سرَّاً منزلها بزيٍّ فتاة عازفة، وكانت النسوة آنذاك منشغلات بتقديم قرابينهنَّ وأداء طقوسهنَّ التي لا يُسمح للرجال بحضورها؛ فلم يكن أحد من الرجال موجوداً. ولمَّا كان كلوديوس أمرد لم ينبت شاربه بعد، توقَّع الاجتماع بـ بومبيا من دون أن تفطن إليه النسوة المجتمعات، ولكنَّه دخل البيت الكبير ولمَّا تاه في الماشي، لقيته وصيفة أوريليا (أم قيصر) وهو يمشي على غير هدى فاستوقفته وسألته عن اسمه فاضطرَّ للجواب، وقال إنَّه يبحث عن أبرا إحدى وصيفات بومبيا، وفضحه صوته الغليظ، فصرخت الوصيفة مستنجدة بالنساء، فقمن بإغلاق الأبواب، وأخذن يفتِّشن كلَّ موضع من الدار حتى وجدنه مختبئاً في غرفة الوصيفة التي أدخلته الدار»[٢].

لقد اهتزَّت روما، وانتقلت الأصداء إلى عالم السياسة، وكان موقف يوليوس قيصر محرجاً للغاية ولا سيَّما أنَّه كان يشغل منصب الكاهن الأعظم، وكانت زوجته بمثابة الكاهنة القائمة على شؤون الحفل الدينيِّ، وحوكم كلوديوس وهوجم بشدَّة من قبل شيشرون في خطب عنيفة[٣]، وكانت هذه الخطب بداية العداوة بينهما، كما شهد شيشرون ضدَّه في هذه الدعوى؛ التي أخذت منحاً سياسَّاً بامتياز. ويقول بلوتارخ في هذا المجال: «إنَّ سبب هذه

[١]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مجلَّة «عالم الفكر»، مج ١٦، عدد ٢، الكويت ١٩٨٥م، ص١١٤.

[٢]- بلوتارخ، ج٣، ص١٥٩٩.

[٣]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٤.

الشهادة زوجته تيرنتا التي كانت تكره كلوديوس وأسرته بسبب كلوديا، التي حاولت الزواج منه، واتَّخذت تللوسTullus أحد أخلص أصدقائه وسيطاً في ذلك الأمر، وكثرت شكوكها بكثرة زياراته لها، وأغاظها الاهتمام الكثير الذي يحيطها به. وكانت تيرنتا عصبيَّة المزاج، ودالتها وسلطانها على زوجها دفعته إلى الشهادة نكاية بكلوديس[١]»، في قضيَّة سياسيَّة – دينيَّة أكثر بكثير ممَّا هي قضيَّة أخلاقيَّة بكثير.

أمَّا قيصر فتجاهل الموقف، وهو كان من قبل يريد أن يطلِّق بومبيا العاقر، فجاءت الفضيحة لتعجِّل في هذا القرار[٢]. وهنا يقول بلوتارخ: «عندما دُعي قيصر للشهادة لم يُدلِ بشيء ضدَّه، وقال إنَّه لا يعتقد بارتكاب زوجه فعل الزنا، وهو لم طلَّقها إلاَّ لأنَّه لا يكفي لبيت قيصر أن يكون طاهراً من الرِّجس، بل منزَّهاً عن الشائعات أيضاً[٣]».

على أيِّ حال، لقد بُرِّئت ساحة كلوديوس بفضل ما دفع من رشاوى غطَّاها ماليَّاً ماركوس كراسوس M. Crassus أحد أركان الحكومة الثلاثيَّة الأولى، وبعدما صار مديناً ببراءته لقيصر وكراسوس فقد شرعا يستغلاَّنه لتحقيق مآربهما السياسيَّة[٤].

ومن المفيد القول أنَّ هذا الموقف كلَّف شيشرون غالياً، «فبعدما أصبح كلوديوس تريبوناً بادر إلى مهاجمته مؤلِّباً عليه الناس كافة، ووصمه بكلِّ ما يسيء إلى سمعته، وكان قد كسب ثقة العامَّة بقوانين شعبيَّة[٥]». وفي النهاية تمكَّن كلوديوس من نفي شيشرون خارج روما -كما أسلفنا- بحجَّة إعدام المتآمرين مع كتالينا من دون محاكمة. ولم يمضِ وقت طويل حتى قام بتطليق تيرنتا التي كانت سبباً في كثير من متاعبه السياسيَّة، كما أنَّها خلفت له بيتاً عارياً عن الأثاث، هذا فضلاً عن أنها ورَّطته في كثير من الديون، وكان هذا سبباً وجيهاً للطلاق[٦].

في الواقع، كانت قضيَّة كلوديا مع كاليوس روفوس بالنسبة إلى شيشرون هدية السماء،

---

[١]- بلوتارخ، ج٣، ص١٦٠٠.

[٢]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٤.

[٣]- بلوتارخ، ج٣، ص١٦٠١.

[٤]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٤.

[٥]- بلوتارخ، ج٣، ص١٦٠١.

[٦]- المصدر نفسه.

فقد عاد من منفاه إلى روما ليجد كلوديوس قد سوَّى بيته الجميل بالأرض وأقام مكانه معبداً. وهو كان في قاعة المحكمة مرتاحاً وسعيداً، فقد كان يعي تماماً ما يستطيع أن يفعله الآن. وكانت خلاصة القضيَّة بيد الادِّعاء:إن كاليوس روفوس قد استأجر رجلاً لاغتيال رسول ملك مصر بمال قدَّمته له كلوديا، وبهذا المال أيضاً رشى عبيداً لتسميمها، وقد جهَّزت هي الدليل لدعم الادِّعاء. حضر الشهود لقَسَم اليمين على كلتا التهمتين، ووقف شيشرون للرد، وكان يعرف الشعب الرومانيَّ جيداً، كأستاذ موسيقى يعرف أداته، فيستطيع العزف بمهارة وثقة[١]. وقد كذَّب شهادة كلوديا بالهجوم عليها بخطاب عنيف يحمل إساءة مبطَّنة لسمعتها، حيث اتَّهمها بأنَّها تحيا حياة العاهرات، ووصل الأمر بها إلى حدِّ ممارسة النكاح المحرَّم مع أخيها كلوديوس، الذي كان الهدف الحقيقيَّ لخطابه[٢]. وهكذا استطاع شيشرون أن ينتزع البراءة لموكِّله، ذلك أنَّ التَّهمة لم تستقر على شيء أساسيٍّ، ولا على برهان منطقيٍّ، ولا على نتيجة قائمة على الفرضيَّات، وإنَّما على شهود فحسب، يمكن استئجارهم، لا بل إنَّ الجميع كان يعرف أن هؤلاء الشهود كانوا مستأجرين من أجل أيِّ تقرير مرغوب فيه، وهم موجودون دائماً في كلِّ زاوية من شارع أو زقاق. لكنَّ حكم المحلَّفين ببراءة كاليوس روفوس لم يكن هو براءة له بقدر ما كان إدانة كاملة لكلوديا. وهكذا كانت المرأة التي جعلتها سخرية حياتها بطلة لقصَّة من أتفه قصص الحبِّ الرخيص في العالم القديم[٣].

خامساً: تسلُّط المرأة الرومانيَّة على الحكم والدولة

أدَّى ولوج النساء عالم السياسة إلى نتائج كارثيَّة على الدولة والنظام السياسيِّ في روما، فيكفي أن نعلم أن سيِّدة واحدة كانت تضع كلَّ مجلس الشيوخ في جيبها، هي أم بروتوس. ففي أحد الأيام، بعد حادثة اغتيال قيصر -في آذار سنة ٤٥ ق.م- بقليل، حضر شيشرون لقاء في منزل ريفيٍّ لثلاث سيدات هن سرفيليا وترتولا وبورتيا، أم ماركوس بروتوس M. Brutus وأخته وزوجته، تحدَّثن فيه عن الوضع الذي آلت إليه الأمور بعد مقتل قيصر، والإهانة التي لحقت بكلٍّ من بروتوس وكاسيوسCassius (أشهر قتلة قيصر) عندما استلما من مجلس

[١]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني،مصدر سابق،ص١١٧.

[2]- MacLachlan, B., Op. Cit., 2013, p.95.

[٣]- أديث هاملتون،الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص١٢٠.

الشيوخ أوامر للقيام بمهمَّات هزيلة، حيث عيِّن كاسيوس لشراء القمح من صقلية. وأثناء النقاش الدائر بينهنَّ دخل كاسيوس بعينين ملتهبتين وأعلن أنَّه لن يقوم بهذه المهمَّة، فوعدته سرفيليا Servilia بأنَّها ستهتمُّ بالقضيَّة بنفسها، وأكَّدت له أنَّها ستسحب قرار مجلس الشيوخ القاضي بتكليفه بذلك. ويتَّضح من ذلك أنَّها كانت تعرف أنَّها تضع مجلس الشيوخ في جيبها. وهي أعطت مثالاً عن تلك الشخصيَّات المحيِّرة في عالم السياسة الروماني[١].

المرأة الأخرى التي تسلَّطت على الحكم والدولة في روما، وقامت بممارسة النشاط السياسيِّ، هي **فولفيا** Fulvia؛ الزوجة الثانية لماركوس أنطونيوس، بينما كان أنطونيوس زوجها الثالث. لقد كانت من بين الزوجات الرومانيَّات الشهيرات اللواتي لعبنَ دوراً سياسيَّاً مهمَّاً في السنوات الأخيرة من عصر الجمهوريَّة الرومانيَّة[٢]، والتي يصفها لنا بلوتارخ بقوله: «هي امرأة لم تخلق للغزل والنسيج وتدبير المنزل، ولم يكن في وسعها أن ترضى برجل لا طموح سياسي له، بل كان همُّها أن تحكم بعلاً يحكم، وأن تقود قائداً عامَّاً[٣]». وكان من بين أهمِّ النشاطات التي اضطلعت بها؛ أنَّها التمست دعماً كبيراً لزوجها أنطونيوس، **أولاً** بأن جلبت إليه عصابات زوجها الأول الغوغائيِّ الشهير كلوديوس بلوشير ClodiusPulcher، ما أكسبه القوة الكافية في حرب العصابات التي خاضها ضدَّ منافسه دولابيلا Dolabella سنة ٤٧ ق.م[٤]. وسرُّ العداوة الدفين بين أنطونيوس ودولابيلا يعود إلى انتشار شائعات عن علاقة حميمة بن زوجته الأولى (ابنة عمه أنطونيا) وهذا الرجل، ما تسبَّب في طلاقها[٥]، وكانت هذه العداوة تزعج قيصر جدَّاً، بحكم أنَّ كلا الرجلين كانا من أنصاره.

في الواقع، منذ أن تعرَّض أنطونيوس لخيانة زوجته أنطونيا اتَّجه إلى حياة الشرب والفسق والمجون، حيث راح يسافر مع كوثريس (Cytheris) الممثلة الشعبيَّة ذات السمعة السيِّئة إلى مختلف المدن[٦]. ولم تكن حياة المجون تخصُّ النبيلات وحدهنَّ بل شاركتهنَّ فيها نساء

---

[١]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص٩١.

[2]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.35.

[٣]- بلوتارخ، ج٣، ص١٦٧٣.

[4]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.35.

[5]- MacLachlan, B., Op. Cit., 2013, p.100.

[6]- MacLachlan, B., Op. Cit., 2013, p.100.

من المجتمع، ومن أشهرهنَّ الممثلة التي كانت محظيَّة أنطونيوس، والتي استخدم شيشرون اسمها للتشهير به. عموماً، كانت علاقة أنطونيوس وكلوديوس بمحظيَّاتهما تصوِّر الحياة الماجنة والمنحطَّة التي كانت كثير من الرومانيَّات يمارسنها عند حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد، وكم من ثروات أُهدِرت من أجل إقامة المآدب، وعقد ندوات الشراب، وتقديم أثمن الهدايا لإرضاء المعشوقات الماجنات[١].

وبالعودة إلى فولفيا، فقد كان **العمل الثاني** الذي قامت به هو حشدها الدعم لزوجها أنطونيوس، عندما كان هو وأوكتافيوس مشغولين بمطاردة قتَلة قيصر في سنة ٤٢ ق.م. وأراد شيشرون أن يستغلَّ الموقف ويشهِّر بأنطونيوس ويصوِّره بأنَّه عدوُّ الوطن، لكنَّها وقفت له بالمرصاد، وعندما تركها أنطونيوس في روما كان يعي أنَّه يعتمد على قوَّة شخصيَّتها كأقوى امرأة في روما، وهي كانت كذلك فعلاً حتى أنَّها سيطرت على سياسة الدولة، وأذنت لـ Lucius Antonius بإقامة احتفال النصر في روما مكافأة له على انتصاره على بعض الأقوام التي تقطن في جبال الألب[٢]. وبعدما تمكَّن أنطونيوس من الظَّفر بخصمه اللدود شيشرون، وذبحه وحمل رأسه إلى روما ليسمَّر في الفورم، قامت فولفيا بثقب لسان خطيب الجمهوريَّة الرومانيَّة المفوَّه بدبُّوس شعرها[٣].

في ضوء ما تقدَّم، يمكننا أن نعتبر فولفيا امرأة رومانيَّة تاريخيَّة، فهي أول امرأة حقيقيَّة في روما (أي غير أسطوريَّة) تطبع صورتها على بعض العملات النقديَّة في بعض المدن، تكريماً لها منذ سنة ٤٢ ق.م، ويعدُّ هذا الأمر تدخُّلاً سافراً من النساء في شؤون السياسة والسيادة، بحكم أنَّ النقد هو من أهمِّ علامات سيادة الدولة على رعاياها. وبالإضافة إلى العملات المعدنيَّة، قامت مدينة Eumeneia بتبديل اسمها باسم هذه السيِّدة تكريماً لها وذلك في سنة ٤١ ق.م[٤].

غير أنَّ جهود فولفيا لم تكن جميعها موفقة بالنسبة إلى زوجها، فلا شكَّ في أنَّ روما

[١]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة،مصدر سابق،ص٦٠.

[2]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.35.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيَّة الجمهوريَّة الأمبراطوريَّة حتى عهد الأمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م، ص١٣.

[4]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.36.

لم تخلُ من بعض النسوة الرومانيَّات اللواتي لن يقبلن بالتطاول على مصالحهنَّ الخاصَّة، فعندما رغب أعضاء الحكومة الثلاثيَّة الثانية في روما سنة ٤٢ ق.م بمصادرة أموال النساء الثريَّات كضريبة لتغطية نفقات الحرب الأهليَّة[١]، وإصدار قائمة بأسماء أولئك النسوة اللواتي بلغ عددهن ١٤٠٠ امرأة، ثارت ثائرتهنَّ وقرَّرن الاستعانة بزوجات الحكَّام والمتنفِّذين في الدولة، لكن فولفيا طردتهنَّ من أمام بابها، فلم تتحمَّل سيدات روما وقاحتها، واجتمعن في ما يشبه الاحتجاج الشعبيِّ، وتقدَّمن إلى الفورم وتسلَّمن منصة الخطابة، حيث تنحَّى الناس والحرَّاس ونقباء العوام جانباً، وصعدت امرأة تسمَّى هورتينسيا Hortensia (وهي ابنة الخطيب الرومانيِّ الشهير Hortensius)، وألقت خطاباً بليغاً ضدَّ المصادرة وضدَّ وقاحة فولفيا، ونجحت في تخفيض كميَّة الضريبة، وتحديد عدد النساء اللواتي تشملهنَّ[٢]. فلم تكن هذه الحركة في صالح فولفيا وسطوتها على أمور الدولة.

وعندما عاد أوكتافيوس إلى روما في سنة ٤١ ق.م، وأراد أن يوزِّع الأراضي على جنود قيصر، وقفت له فولفيا بالمرصاد خشية أن يصبح ولاء هؤلاء الجنود له من دون زوجها أنطونيوس، فعملت على تجميع ثماني فرق عسكريَّة بمساعدة نسيبها Lucius Antonius وسعت للتصدِّي له، ودخلت معه في قتال مفتوح في ما عرف بحرب الـ Perusine، لكنَّه استطاع أن يربح هذه الحرب، وهكذا خسر أنطونيوس مكانته في روما وإلى الأبد بسبب زوجته[٣].

الأمر نفسه حدث عندما كان أنطونيوس في سورية يستعدُّ لقتال الفرس، فقد أفسدت عليه فولفيا كلَّ مشاريعه العسكريَّة والنصر الذي كان يحلم به. ويحدِّثنا بلوتارخ عن الموضوع قائلاً: «عندما كان أنطونيوس في فينيقيا وصلته رسالة من فولفيا مليئة بالتفجُّع والبكاء على ما بها من محن، فقرَّر إجراء تغيير في خطَّته متَّجهاً إلى إيطاليا بأسطوله المؤلَّف من مائتي سفينة، وفي الطريق التقى عدداً من أنصاره الذين تركوا إيطاليا هاربين، وعلم منهم أنَّ فولفيا كانت المسبِّبة الأولى للحرب مع أوكتافيوس، حيث كانت امرأة عنيدة صلبة المكسر، يلذُّ لها

[1]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.35.

[2]- MacLachlan, B., Op. Cit., 2013, p.107.

[3]- Zager, I., Op. Cit., 2014, p.36.

معالجة السياسة، فضلاً عن اعتقادها بأنَّ أسرع وسيلة لحمل أنطونيوس على ترك كليوبترا هو إثارة الخصومات والاضطرابات في إيطاليا، وتشاء الأقدار أن يعاجلها الأجل وهي في طريقها إليه، فقد سقطت مريضة في سيكيون وتوفِّيت. وما أن وطئ أنطونيوس تراب إيطاليا، حتى أصبح واضحاً لديه أن أوكتافيوس لا يعتزم تحميله مسؤوليَّة الحرب، وفي الوقت نفسه كان مستعداً لإلقاء التبعة على فولفيا في كلِّ الاتهامات التي قد تلصق به[١]». وربما كان حجم الدعم الذي قدَّمته هذه السيدة لأنطونيوس كان يعادل حجم الخسارة التي تسبَّبت بها له.

سادساً: المرأة والزواج السياسي

عرض سولا على قيصر الانضمام إلى الحزب الأرستقراطيِّ شرط أن يطلِّق زوجته كورنيليا Cornelia ابنة القنصل سينا Cinna لسنة ٨٣ ق.م، والتي تزوَّجها عندما كان في السابعة عشرة من عمره، في السنة الرابعة من قنصليَّة أبيها، وكانتحينها على وشك أن تضع له ابنته جوليا Julia. وقد أغراه مقابل ذلك بأن يزوِّجه بابنة أخته، طالباً منه أن يبدِّل توجُّهه السياسيَّ ويقف إلى جانبه، فرفض قيصر تلك العروض، وكان ذلك بداية الانزعاج والاضطهاد التي تعرَّض له من قبل سولا الذي حرمه من منصبه ككاهن للإله جوبتير Jupiter ومن التصرُّف بأموال زوجته، بل حتى من مواريثه، وتعامل معه كأحد أعدائه[٢]. وعندما أراد سولا أن يضمن ولاء بومبي له، أقنعه بالتخلُّص من زوجته الأولى والاقتران بربيبته إميليا، رغم أنَّها كانت متزوِّجة وحاملاً في ذلك الوقت، فوافقت على ذلك الزواج مكرَهة، ولكنها ماتت أثناء الولادة بعد انتقالها إلى بيت بومبي[٣].

وفي سنة ٦٠ ق.م انضمَّ بومبي إلى أقوى رجلين في روما يوليوس قيصر وكراسوس الغني، بعدما تعرَّض وقيصر للعداوة ذاتها من قبل مجلس الشيوخ الرومانيِّ، فقرَّرا توحيد جهودهما ضدَّه، وأصبح قيصر بموجب ذلك الاتفاق قنصلاً في روما في السنة التي تلتها،

---

[١]- بلوتارخ، ج٣، ص١٦٨٧.

[٢]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة بين بومبي وقيصر وانعكاساتها على مملكة نوميديا، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، الجزائر، جامعة الجزائر الثانية ٢٠١٤م، ص٧٨.

[٣]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة،مصدر سابق،ص٥٦.

وكان للنساء حضور كبير في عقد هذا الاتفاق، فبعدما أعجب بومبي بوفاء قيصر والتزامه بتعهُّداته، ومن أجل تقوية أواصر التحالف بينهما، قام هذا الأخير بتزويج ابنته جوليا Julia (١٧ سنة) إلى بومبي (٤٧ سنة) رغم فارق السن الكبير بينهما، ورغم أنَّه كان معقوداً لها على رجل آخر هو كيبيوCaepio، وكان من المفترض أن تزفَّ له بعد بضعة أيام، وقد تم استرضاؤه بأن عقدوا له على ابنة بومبي التي كانت مخطوبة لفاوستوسFaustus ابن سولا، وكان لهذا الزواج فوائده في تذليل الأزمات التي عكَّرت صفو العلاقات بين قيصر وبومبي، ونتائجه في عالم السياسة؛ فبينما كان بومبي مشغولاً بعروسه الجميلة يقضي أوقاته في تدليلها والتمشِّي معها في الحدائق، استغلَّ كلوديوس ذلك الفراغ السياسيَّ في الفورم لصالحه، ورغم الضغط الذي لاقاه بومبي لتطليق هذه الفتاة الجميلة من أجل إبعاده عن قيصر، إلاَّ أنَّه رفض رفضاً قاطعاً حبَّاً منه لجوليا، رغم عدم موافقته على تصرُّفات قيصر، ولم ينتهِ ذلك الزواج إلاَّ بموت جوليا، التي لفظت أنفاسها الأخيرة وهي تضع طفلها من بومبي، ماتت هي ومات طفلها لينقطع الخيط الأخير الذي كان يصل بومبي بقيصر. بعد ذلك تزوج بومبي من فتاة تدعى كورنيلياCornelia أيضاً، وهي من عائلة أرستقراطيَّة محافظة، حيث كان أبوها ميتللوسسيبيو Metellus Scipio، ومباشرة بدأ بتغيير دفَّة السفينة، حيث بدَّل سياسته متقرِّباً من الحزب الأرستقراطيِّ وأعضاء مجلس الشيوخ تأثُّراً بعروسه الجديدة، وظهر واضحاً أنَّه بدأ يخطِّط ليخرج من اتِّفاق الحكومة الثلاثيَّة؛ فتحوَّلت الصداقة إلى عداوة، وبدل أن يستعدَّ لمواجهة قيصر وينشغل في أمور القنصلية كان مشغولاً بارتداء الأكاليل والاحتفال بعروسه الشابة، التي كانت صغيرة جداً عليه، حتى أنَّ بعضهم حبذ لو خطبها لابنه بدلاً منه[١].

وعندما ماتت كورنيليا زوجة قيصر مدحها في قصيدة طويلة بيَّن خصائلها النبيلة، ولا شكَّ في أنَّ قيصر كان يريد أن يستغلَّ الحادثة لمصلحته السياسيَّة، فوفاؤه لزوجته زاد من شعبيَّته، وبعد ذلك تزوَّج من بومبياPompeia حفيدة سولا، لكن هذا الزواج كان قصير الأمد، بسبب ارتباط اسم بومبيا بفضيحة كلوديوس في مهرجان الربَّة الطيِّبة[٢]، وتزوج مرَّة ثانية (أي قيصر) من كالبورنياCalpurnia ابنة كالبورنيوس بيزو CalpurniusPiso الذي

[1]- MacLachlan, B., Op. Cit., 2013, pp.87,88.

[2]- MacLachlan, B., Op. Cit., 2013, p.90.

استطاع أن يضمن له النجاح في انتخابات القنصليَّة في السنة التي تلتها، وهذا ما أثار جنون كاتوCato الذي صرخ قائلاً: « إنَّ ما لا يمكن التسامح فيه قطُّ أن تُستقْحب الحكومة عن طريق الزواج[١]». وكان بيزو هذا أحد أصدقاء كلوديوس، وأحد المتورِّطين في مؤامرة كاتلينا، وقد جمع ثروة طائلة من الابتزاز والنهب في أثناء ولايته على مقدونيا. وستكون هذه آخر زيجة لقيصر[٢].

تجدر الإشارة إلى أن كاتو نفسه لم ينجُ من شرور النساء الرومانيَّات، ومن المتاجرة بزواجهنَّ، فقد اشتهرت شقيقته سرفيليا بسوء السمعة لعلاقتها بقيصر، رغم أنَّها كانت متزوِّجة من لوكوللوس أحد عظماء الرومان وأمَّاً لابنه، وقد اضطرَّ هذا الأخير إلى تطليقها. والأنكى من هذا أنَّ آتيليا زوجة كاتو نفسه لم تكن خالية من المطاعن والقول السوء، فبعدما ولدت له ولدين اضطرَّ إلى تطليقها لسوء سمعتها وسلوكها، ثم تزوج مارشياMarcia بنت فليبيس، وربما عقد قرانه على هذه الزوجة من دون غيرها طمعاً في بعض المكاسب الشخصيَّة. ورغم أنَّ بلوتارخ ينعتها بالجمال والخلق القويم، إلاَّ أنَّ ذلك لم يُعفِها من أن تكون موضعاً للروايات وللقيل والقال. والغريب في الأمر أنَّ كاتو الصغير المحافظ الذي ينادي بالقيم العليا ويستنكر أن تُستقْحب الحكومة، أتى بفعل يندى له الجبين عندما فرَّط بزوجته، والقصة كاملة يرويها لنا بلوتارخ قائلاً: إنه في سنة ٥٦ ق.م تقدَّم الخطيب الروماني الشهير هورتينسيوسHortensius، وهو في الستين من عمره، لخطبة بورشياPorcia ابنة كاتو، وكانت هذه الفتاة متزوِّجة من بيبلولوسBibulus (الذي كان شريك قيصر في قنصليَّة ٥٩ ق.م) ولديها منه ولدان وكانت حبلى في الوقت نفسه، وبيَّن هورتينسيوس أن الهدف من هذه الخطوبة هو تعزيز علاقته مع كاتو، وأن بورشيا امرأة ولود، واقترح هورتينسيوس أنَّه إذا ما أبى زوجها بيبلوس أن يطلِّقها وأن يفارقها مفارقة القطيعة، فبإمكانه أن يتزوجها لفترة ثمَّ يعيدها إليه حالما تلد له، وبهذه الوسيلة يتمُّ الاتحاد بين الأسرتين، وستتماسك الجمهوريَّة ويصلب عودها بهذه الروابط. وقد أجابه كاتو بأنه في الحقيقة يودُّه كثيراً، ويتمنَّى من صميم قلبه أن تتمَّ صلة القرابة بين البيتين، لكنه يستغرب منه اقتراحه بتزويجه ابنته وهي

[١]- بلوتارخ، ج٣، ص١٣٣٤.

[٢]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مصدر سابق، ص١١٥.

الآن متزوِّجة من آخر. فنقل هورتنسيوس الموضوع إلى ناحية أخرى وطلب منه أن يتنازل له عن زوجته مارشيا - رغم أنَّها كانت حاملاً وأنجبت طفلين- لأنَّها شابة ولود، وأنها قد ولدت له كثيراً من الذرِّية، فلم يرفض كاتو رجاءه وإنما اشترط موافقة والد مارشيا، وأرسل يستدعي فيليبوس فجاء ليجد الموافقة قد تمَّت، فلم يسعه إلاَّ الرضا. وقد تزوج هورتنسيوس بحضور كاتو الذي ساعده في إتمام أمور الزواج. وبعدما توفيِّ عاد كاتو ليتزوَّج بمارشيا من جديد[١].

خلاصة المبحث الثاني

إنَّ أهمَّ النتائج التي نخلص إليها من هذا المبحث هي حجم انحطاط الأخلاق والسياسة عند الرومان، فدراسة أحوال المرأة في أيِّ مجتمع إنسانيٍّ تعكس الصورة الحقيقيَّة لرقيِّ أخلاقه وتقدُّمه، فمن غير المعقول أن تجد مجتمعاً كالمجتمع الرومانيِّ يرفع شعارات الفضيلة والعفَّة والشرف والأخلاق، ثمَّ عند دراسة تاريخه تجد جميع ما يناقض تلك الشعارات. والغريب أنَّ أوروبا اتَّخذت من هذا التاريخ الكلاسيكيِّ (بشقَّيه اليونانيِّ والرومانيِّ) منطلقاً لنهضتها الحديثة، لأنَّها رأت فيه قيم الإنسان الحقيقيَّة!

لقد أثبت لنا هذا البحث أنَّ المرأة في روما كانت سلعة رخيصة، يمكن تطليقها وتزويجها مرَّات ومرَّات من أجل مكاسب سياسيَّة تافهة وآنيَّة. وكان التسرِّي وفساد النخبة السياسيّة عند الرومان سمة أساسيَّة لهم. وعندما كانوا يأذنون للمرأة بأن تقتحم عالم السياسة، كانوا يستغلُّون كلَّ ما عندها من مال، وكلَّ فيها من أنوثة وجمال ثم يتركونها لألسنة العوام الذين يلوكون سيرتها بأفظع النعوت والأوصاف.

خلاصة القول أنَّ السياسة عند الرومان كانت أشبه بالدعارة، فيكفي أن تخوض المرأة غمارها حتى تخرج منها برائحة نتنة، فلم يكن الرجال ولا زوجاتهم يتحلُّون بأبسط قواعد الأسرة أو الانضباط أو العفَّة أو الفضيلة. وجميع النساء اللواتي سعوا لتلميع صورتهنَّ لم يكنَّ في الحقيقة إلاَّ شخصيَّات خرافيَّة اختلقوها على أمل يكنَّ قدوة لنسائهم المتفلِّتات من كلِّ عقال.

---

[١]- بلوتارخ، ج٣، ص١٤٢٦.

المبحث الثالث: حروب الجمهوريَّة الرومانيَّة وسياستها الاستعمارية

مقدِّمة

إنَّ جميع الدول والأمبراطوريَّات على مرِّ التاريخ عرفت الحروب والقتال، ما بين طور قوَّة وتوسُّع، وطور ضعف وتراجع، لكن السِّمة الأبرز للدولة الرومانيَّة في التاريخ القديم أنَّها كانت دولة حرب وعدوان، تشنُّ الحرب إثر الحرب، حتى يكاد يكون تاريخها كلُّه عبارة عن سلسلة حروب متواصلة، تحت ذريعة الدفاع عن النفس. فصدق من قال إنَّ الرومان قد احتلُّوا العالم دفاعاً عن النفس.

على أنَّ المتأمِّل في السياسات الرومانيَّة يجد أنَّ هذه السياسة متأصِّلة في الشعب الرومانيِّ، منذ اللَّحظة الأولى لتأسيس روما، عندما قتل الشقيق (رومولوس) شقيقه (ريموس). فقد تعامل الرومان بهذه السياسة مع كبار الممالك في شرق المتوسِّط وغربه، تماماً كما تعاملوا بها عندما كانوا في طور التوسُّع على حساب جيرانهم في سهل اللاَّتيوم، فلا حكم إلاَّ للسيف. ثمَّ إنَّ خلق أعداء افتراضيين (نظريَّة المؤامرة)، لتبرير شنِّ الحرب عليهم (الضربة الاستباقيَّة) هي سياسة رومانيَّة أصيلة، سنجدها في عصور لاحقة في سياسة الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، ومن قبلها من سياسات الدول الأوروبيَّة.

لقد كانت حروب روما وحركتها الاستعماريَّة كبقعة زيت تتوسَّع، وقد غمرت في البداية قطرها المحيط، ثمَّ تمدَّدت إلى الدوائر الأبعد. فقد كانت بدايتها في سهل اللاَّتيوم، ثمَّ في شبه الجزيرة الإيطاليَّة، ثمَّ في الحوض الغربيِّ للبحر المتوسِّط، ثمَّ في الحوض الشرقيِّ للبحر المتوسِّط. ووفق هذا التسلسل الجغرافيِّ والزمنيِّ سندرس حروب روما، لا من باب استعراض أخبارها، وإنما دراسة نقديَّة لسياسة روما الاستعماريَّة؛ التي اتَّبعتها في شنِّ الحروب والعدوان على شعوب العالم القديم، واستعبادها للأمم المقهورة، وتبيان ظلم هذه الحروب، وفظاعتها، وجورها، وعدم مشروعيَّتها.

أوَّلاً: الحروب الرومانيَّة في تبريرها الدينيّ

أن تقاتل ضدَّ روما فأنت تقاتل ضدَّ خصم غير شريف، هذه قاعدة متَّفق عليها في التاريخ القديم، فإذا كان الرادع -وغالباً ما يتجلَّى في شعور الحلال والحرام، والخوف من الله أو

الآلهة- هو الذي يمنع الإنسان السويَّ عن ارتكاب المآثم، فيمكننا القول أنَّ الرادع عند الرومان لم يكن موجوداً؛ فإذا كانت «الآلهة» -في العصور القديمة- تمثِّل أنبل الرموز عند البشر، ولمَّا كانت جميع آلهة في العصور القديمة تدعو إلى الخير، والمحبَّة، وتمنح الأمن والسلام للبشر، بمن فيهم أسرى وجرحى الحروب الذين كانت تدعو إلى الرِّفق بهم، كما كانت تدعو إلى عدم شنِّ أيِّ حرب ما لم تكن عادلة؛ لكن الأمر كان مختلفاً عند الرومان، فإله الحرب (مارس Mars) كان عندهم سفَّاحاً، وشاذّاً أخلاقيّاً، فبدل أن يقوم بالمهامِّ الموكلة إليه وفق الميثولوجيا الرومانيَّة، نجده يهتك ستر فتاة «بعد أن شاهدها نائمة عند ضفة مجرى ماء، وكانت قد فتحت صدرها لتتلقَّى النسيم، واستغرقت بالنوم وهي واثقة أكثر ممَّا يجب بطهارة الآلهة والبشر، وقد أَسَرَ جمالها قلب هذا الإله؛ فاتَّصل بها سرّاً وحملت منه سفاحاً[١]»، وفق ما جاء في أسطورة تأسيس روما.

إنَّ فهم شخصيَّة هذا الإله سيسهِّل علينا فهم آلاف الانتهاكات للحرمات والأعراض، واستعباد الشعوب، وسرقة ثرواتها، ومئات الجرائم التي رافقت تقدُّم الجيوش الرومانيَّة؛ فإذا كان إله الحرب عند الرومان بلا أخلاق؛ فلن تزحف جيوشهم لنشر العدالة والحريَّة والمساواة بين البشر.

لقد كانت الحرب في روما تُعلن وفق طقوس دينيَّة، حيث عُرف فيها بعض الهيئات أو الجماعات الدينيَّة التي كانت مهمَّتها الإشراف على العلاقات الخارجيَّة، وإعلان الحرب في حال فشلت محاولات الحصول على شروط مناسبة لروما، وقد عُرفت هذه الجماعات الدينيَّة باسم الفيتاليس Fetials؛ وهم جهاز مكوَّن من عشرين كاهنًا يتمُّ اختيارهم من الأُسَر الأرستقراطيَّة، فهم كهَنة بدرجة سفراء، كانت مهمَّتهم الأولى حماية العهود والمواثيق مع الشعوب الأجنبيَّة. كما كانوا معنيين بالإشراف على مراسيم إعلان الحرب، أو إقرار السلام (الذي لم يكن إلاَّ استسلاماً لروما)، ويبدو أنَّ نطاق عملهم لم يكن محدَّدًا بالشعوب التي قهرتها روما بالحديد والنار، وربطتها بعلاقات تبعيَّة بها؛ من خلال معاهدات الإذعان، بل امتدَّ إلى كلِّ من لم يعلن الحرب عليها. وكان يُعيَّن أربعة منهم لبحث مسألة التعويضات

[١]- بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج١، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م، ص٧٠.

والغرامات الحربيَّة، كما كان من مهمَّتهم تشكيل ما يشبه المحكمة المستعجلة للنظر في المسائل والمنازعات الدوليَّة، وتسليم اللاَّجئين السياسيين[١].

إنَّ أولى الحروب التي خاضتها روما منذ تأسيسها في شبه الجزيرة الإيطاليَّة كانت الحرب على جيرانها السابين، ولا شكَّ في أنَّ هذه الحرب كانت تعبِّر عن سوء بنية المجتمع الرومانيِّ؛ فإنَّ مجتمعاً يفتح ذراعيه للمجرمين وقطَّاع الطرق والأفَّاكين، ثمَّ يدفع مؤسِّس روما بهذه الشرذمة لاختطاف النساء السابينيَّات، هو أسوأ ما يمكن أن يعبِّر عن بنية مجتمع قام أساساً على الغدر والخيانة وانتهاك حرمات الغير، والقتال من أجل اكتساب حقٍّ غير مشروع؛ ففي الشهر الرابع من بناء روما دعا رومولوس إلى حفل أقامه لجيرانه السابينيين، الذين كانوا يقيمون إلى الشرق من المدينة، وفي أثناء الاحتفال تمَّ اختطاف الفتيات السابينيَّات من قبل الرومان. فما كان من تيتس تاتيوس Titus Tatius ملك قبيلة الكيورين Curites السابينيَّة إلاَّ أن شنَّ هجوماً على روما، فاندلعت الحرب، وكانت سجالاً بين الطرفين، ولمَّا اقتربت قوات تاتيوس من تل البلاتين، توسَّطت النساء السابينيَّات اللَّواتي أصبحن زوجات رومانيَّات، إلى عقد هدنة بين الطرفين، ثمَّ قمن بإقناع الملكين بالصلح، وأن يقيم السابينيون في مدينة روما[٢]، وهكذا نجد أنَّ مؤسِّس المدينة يسير على نهج إله الحرب، وسنجد في ما بعد أنَّ القادة والجنود الرومان كانوا يقتفون أثر مؤسِّس مدينتهم في حروبهم، فارتكبوا آلاف الجرائم بحقِّ الإنسانيَّة.

وإمعاناً في تغذية هذه النزعة العدوانيَّة، عمد الرومان إلى **شحن عقول أبنائهم بأساطير** حاولوا أن يجدوا فيها رابطاً متيناً مع ملاحم وأساطير يونانيَّة، فادَّعوا أنَّهم من نسل البطل الطرواديِّ إنياس، من خلال ملحمة الإنياذة Aeneis المشهورة[٣]، وشبَّهوا حربهم على المدينة الإتروسكيَّة فيي Veii بحرب اليونان على طروادة ذاتها. لقد كانت مدينة» فييى« تقع على بعد حوالى تسعة أميال شمال روما، وكانت هذه المدينة كبيرة، وقد نَعِم أهلها بالرخاء والثراء من مكاسب تجارتهم المزدهرة، ما دعم رغبتها في حريَّة الملاحة في نهر التيبر والوصول إلى البحر.

[١]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني بين الدفاع والهجوم والتوسُّع والاستعمار حتى نهاية العصر الجمهوري، مطبعة دار الروضة، القاهرة ٢٠١٠م، ص٦١.

[٢]- بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، مصدر سابق، ص٩٩.

[٣]- فرجيل، الإنياذة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٥م.

إنَّ الصراع، إذًا، كان صراع حياة أو موت بين روما وفييى من أجل السيطرة على نهر التيبر وضفَّتيه ومصبِّه، وقد سقطت مدينة فيي سنة ٣٩٦ ق.م، بعد حصار طويل شبَّهه الرومان بحصار اليونان لطروادة، حيث عمدوا من خلال الأساطير التي علَّموها للناشئة أن يقارنوا بين حصار هذه المدينة وحصار الإغريق الأسطوري لطروادة، وأوجه الشبه التي أبرزوها أن حصار فييى استمرَّ عشر سنوات، وهي المدَّة ذاتها التي استمر بها حصار طروادة. وكما كان هناك «بطولات خارقة» للإغريق، مثل أخيل وغيره من القادة، كان هناك بطولات خارقة للرومان، ومثلما كانت هناك حيلة لاختراق طروادة بحصان خشبيٍّ، كانت هناك حيلة لاختراق مدينة فيي بنفق تحت أسوارها. ونسبوا هذه البطولات إلى الجنرال الرومانيِّ كاميللوس Comillus الذي أمر بحفر هذا النفق، ووصل بفضله الجنود الرومان إلى داخل المدينة المحاصرة[١]، وهكذا توفَّر للشعب الرومانيِّ من خلال حروبه القدوة الأسطوريَّة.

ومثلما توفَّرت الأسباب الروحيَّة والأسطوريَّة للحروب الرومانيَّة، توفَّرت الأسباب العميقة للاستعمار الرومانيِّ، والمقصود هنا ليس الأسباب المباشرة التي كانت سبباً في كلِّ حرب، فكلَّما بدت هذه الأسباب القريبة أسباباً منطقيَّة، وبدا أنَّها مرتبطة إلى حدٍّ بعيد بالمكان والزمان وبعض الرجال والمواقف، إلاَّ أنَّها لا تبدو مقنعة للمؤرِّخ المختصِّ، وبالتالي فإنَّ ما يستوقفنا هنا هو محاولة اكتشاف أسباب هذه النزعة الاستعماريَّة المستمرَّة نحو إشعال الحروب والفتك بالأمم وقهرها، أو ما يجب أن نطلق عليه مسمَّى الاستعمار الرومانيِّ، والبحث عن الأسباب الدائمة والمحرِّضة عليها[٢].

ثانياً: مقارنات لا تصحّ

لم تكن حركة الاستعمار الرومانيِّ شبيهاً بحركة الاستعمار الإغريقيِّ؛ فعندما انتشر الإغريق في أصقاع المعمورة كانوا مدفوعين بضيق الرقعة المكانيَّة لبلادهم وبفقر منتجاتها[٣]، وإن كان ذلك لا يبرِّر الاستعمار بأيِّ حال من الأحوال، إلاَّ أنَّ إيطاليا لم تكن تشكو من كثافة

[١]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص٣٣.

[٢]- أندرية إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وإمبراطوريتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م، ص١٠٨.

[٣]- ابتهال الطائي، تاريخ الإغريق منذ فجر بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، دار الفكر، عمان ٢٠١٤م، ص٣٩.

السكَّان، كما لم تكن روما أو غيرها من المدن الإيطاليَّة تشكو من ضيق رقعتها، أو تتوق إلى مجال حيويٍّ تقوم بإعادة توطين أبنائها فيه، فلم تؤسِّس روما مستعمرة لها إلاَّ في وقت متأخِّر نسبيًّا، واستجابة لأهداف عسكريَّة، لا معالجة لمعضلة اقتصاديَّة أو سكانيَّة[١]. فمستعمرة نارنيا Narnia أول مستعمرة أسَّسها الرومان سنة ٢٩٩ ق.م، في وادي نهر التيبر الأعلى؛ كانت على طريق فلامينوس العسكريِّVia Flaminia ، وكانت هذه المستعمرة بمثابة نقطة حراسة أماميَّة تربطها بروما مواصلات سريعة لصدِّ أيِّ عدوان من قبل الأتروسكيين أو الغال عنها[٢]. هذا إضافة الى أنَّ الزيادة السكانيَّة لم تكن في يوم من الأيام مشكلة بالنسبة إلى روما، أو بالنسبة إلى أيِّ دولة تنتهج سياسة المواجهة، فلم تسعَ روما للحدِّ من عدد سكَّانها، بل على العكس، فقد كان ينظر الرومان إلى العزوبيَّة نظرة استهجان واستنكار؛ لأنَّ الأعزب، بنظرهم لا يقدم للدولة ذرِّيَّة تكون عضداً لها ولعدَّتها في الحرب والأزمات[٣]، وقد وصل الأمر إلى حدِّ فرض غرامات ماليَّة على الشبَّان غير المتزوِّجين، تماماً كما فعل الرقيب الروماني كمللوس Camillus في سنة ٤١٣ ق.م[٤]. وليس ذلك فحسب؛ فلم تتعرَّض روما طوال خمسة قرون من تاريخ تأسيسها لأيِّ أزمة اقتصاديَّة أو اجتماعيَّة، يمكن حلُّها عن طرق التوسُّع والحرب والعدوان وقضم أراضي الغير. وليس هناك في التاريخ القديم نظام سياسيٌّ أو اجتماعيٌّ مكوَّن على أساس عسكريٍّ بحت، ويقسِّم أبناءه إلى طبقات من المحاربين، ويتلقون تربية عقائديَّة، وتعبئة روحيَّة ونفسيَّة، توجِّههم صوب الحرب والقتال، والاعتداد بالنفس إلى درجة التغطرُس[٥]. لا بل إنَّ الأسرة الرومانيَّة في عصورها الأولى؛ كانت مبنيَّة كما لو أنَّها كانت محضَّرة لتكون وحدة عسكريَّة من جيش في حرب دائمة[٦]. فمن وضع هذه السياسة؟ وشحن تلك العقول بمخطَّطات عميقة سرِّيَّة مدروسة؟ وحدَّد الأساليب التي يجب فيها تعيين مقدار العنف أو الحيلة في التعامل مع الخصوم؟

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وإمبراطوريتها، مصدر سابق، ص١٠٩.

[٢]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص٦٢.

[٣]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، سلسلة أقرأ ١٦٩، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٣٧.

[٤]- ول ديورانت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، ج١، مج٣، ترجمة محمد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص١٤٣.

[٥]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريتها، مصدر سابق، ص١٠٩.

[٦]- ول ديورانت، قصة الحضارة، ج١، مج٣، مصدر سابق، ص١١٩.

لم تكن السياسة الخارجيَّة الرومانيَّة في الواقع من رسم جمعيَّة المواطنين، وإن كانت استشارة الجمعيَّة أمراً واجباً لإعلان الحرب وفق القواعد والأنظمة الدستوريَّة المسنونة في روما، حيث كان بوسع القناصل بالتعاون مع مجلس الشيوخ Senatus تمرير أيِّ قرار، لكن بعد الاقتراع على إعلان الحرب، رأت الجمعيَّة نفسها محرومة من الصلاحيَّات حتى اليوم الذي دُعيت فيه للموافقة من دون مناقشة على معاهدة الصلح التي وُضِعت على غير معرفة منها.

لقد كانت إدارة السياسة الخارجيَّة في روما تعود إلى مجلس الشيوخ؛ وهو هيئة ضيِّقة يتَّصف انتخابها بأنَّه أبعد ما يكون عن الديمقراطية، وكان مناطاً به استقبال السفراء الأجانب، وتعيين السفراء الرومان وإعطاؤهم التعليمات، وتسمية القيادات العسكريَّة، وتحديد تعداد القوَّات البريَّة أو البحريَّة التي توضع تحت أمرة أيِّ قائد رومانيٍّ، ويؤمن ما تتطلَّبه الحرب من نفقات ماليَّة، وفي أكثر من مناسبة تكفَّل أعضاؤه بترميم الأسطول أو إعادة بنائه من أموالهم الخاصَّة. وأثناء المعارك كان المجلس يتلقَّى من هؤلاء القادة العسكريين تقاريرهم عن سير عمليَّات القتال، ويبلغهم قرارته، ويناقش مشاريع المعاهدات، ويوفد مفوَّضين ليقوموا بتطبيقها بالاشتراك مع القائد المنتصر. وهكذا، ليس ثمَّة ما يشبه الوضع في كلٍّ من الجمعيَّة الشعبيَّة والمجالس في الديمقراطيَّات اليونانيَّة، فبدلاً من أن تخضع السياسة الخارجيَّة لمقرَّرات، غالباً ما تكون مرتجلة، تمليها حماسة الشعب ويأسه وهواه، كانت ترسم ضمن دوائر سرِّيَّة ومغلقة من قبل نخبة قليلة تسيطر على المجلس البالغ عددهم ٣٠٠ عضو فقط، حتى أنَّ سلطانه الحقيقيَّ لا يبرز إلاَّ زمن الحروب[١]. فكيف استطاع مجلس الشيوخ حشد كلِّ طاقات الشعب الرومانيِّ باتِّجاه الحرب والقتال، بعدما رسم في دوائره السريَّة تلك السياسة التوسُّعيَّة العدوانيَّة الاستعماريَّة؟

لمَّا كان الاستعمار لا ينجو بالكليَّة من الأسباب العامَّة التي وُجِدت قبله أو بعده، فإنَّ المؤرِّخين عندما يتحدَّثون عن حركة الاستعمار الرومانيِّ يشيرون إلى الطمع كأحد أهمِّ أسباب هذا الاستعمار، فمن حيث أنَّ شعب الرومان تكوَّن في الأساس من الفلاَّحين؛ كان من الطبيعيِّ أن يطمع في أراضي جيرانه، وخصوصاً حينما تكون أكثر خصوبة وأفضل

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريتها، مصدر سابق، ص١٠٧ - ١٠٨.

استثماراً. ومن حيث أنَّه استوطن إقليماً تمرُّ فيه بعض الطرق التجاريَّة؛ فقد صمَّم على الاحتفاظ بمكاسب حركة التجارة، وعمل على زيادتها. كما رغب أيضاً في الحصول على بعض الموادِّ الخام من الأقاليم الأخرى التي كانت تتوفَّر فيها. ورغم منطقيَّة هذا الطرح، إلاَّ أنَّه من الواجب الإشارة إلى أنَّ للطمع البدائيِّ أو الفطريِّ حدوده، أمَّا روما لم تخضع لجانب المكاسب الفوريَّة، ولم تعمل في حروبها من أجل زيادتها، بقدر ما كانت تحارب تحت ذريعة الخوف من الآخر[١]، حيث ادَّعى الرومان أنَّ مدينتهم محاطة بالأعداء من كلِّ جانب، وكان عليهم الدفاع عن وجودهم المهدَّد بالخطر وإثبات ذاتهم[٢]. وخلال خمسة قرون، وتحت هذه الذريعة الواهية -التي لا أساس لها من الصحَّة- أثاروا حروباً دمويَّة، كحروب دفاعيَّة مقدَّسة.

إذن، إنَّ ادِّعاء الرومان أنَّ وجودهم مهدَّد بالخطر؛ كان المحرِّض الرئيس أو الحقيقيَّ لحروبهم طوال خمسة قرون، وهذا الادِّعاء المتزايد والحادُّ جدَّاً يمكن أن نجده في بلاد اليونان أيضاً، فسلامة دولة من دويلات المدن اليونانيَّة كانت تتعرَّض للخطر بمجرَّد قيام دولة أخرى مجاورة لها، لاسيَّما إذا ما بدت قوى هاتين المدينتين (القديمة والجديدة) متعادلة، أو بمجرَّد احتمال قيام تحالف لا تكون هذه المدينة طرفاً فيه؛ إذ إنَّ حرصها على المحافظة على استقلالها يدعو إلى القضاء على استقلال غيرها. فالحروب أوَّلاً ومن ثمَّ التوسُّعات، وإذا أمَّنت الحروب النصر، يستند بعضها إلى بعض؛ لأنَّ توسيع ممتلكات أيِّ دولة يضاعف الواجبات الدفاعيَّة الملقاة على عاتقها، ويهيِّئ استمرار ظروف الصراع. فيجد الاستعمار في مكاسبه مبرِّرات لا تقهر لنقل مطامعه باطِّراد إلى آفاق أبعد، بحيث لا يكون له حدود سوى حدود الأرض المأهولة[٣].

ثالثاً: الغطرسة كنقطة بداية للاستعمار الرومانيّ

إنَّ سلسلة الانتصارات وتجاوز النكبات بأقلَّ قدر ممكن من الخسائر، يخلق غروراً، وهذا الغرور لا بدَّ من تغذيته، وغالباً ما تسعى الأنظمة الشموليَّة لتسخير الأدب بكلِّ أصنافه

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريَّتها، مصدر سابق، ص١٠٩.

[٢]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص١٤.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريَّتها، مصدر سابق، ص١٠٩.

من أجل تمجيد هذا الغرور الذي يولِّد نوعاً من الغطرسة المترافقة بالتعالي والاستكبار. ومثلما كان هذا التكبرُّ محرِّضاً أساسيَّاً على الحرب والعدوان، كان عاملاً مهمَّاً في الصمود أمام أعتى أعداء روما (هانيبال، الغال). وتُعتبر خطب جايوس ماريوس Gaius Marius (١٥٧- ٨٦ ق.م) المتغطرسة المتعالية، ذات اللَّهجة الجارحة القاسية نموذجاً على ذلك[١]. كما أنَّ ما نظمه فرجيل Vergil (الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد وتوفي ١٩ ق.م) يُعدُّ انعكاساً لهذا النهج أو لهذه السياسة، حين قال: «إنَّ قدرنا أن نتوسَّع بلا حدود imperio sine fine»؛ أي أنَّ قدر الرومان أن يتوسَّعوا، وأن يغزوا العالم المسكون. ولا ريب في أنَّ هذه العبارة تكشف عمَّا يمكن أن نسمِّيه غطرسة القوة أو الاستكبار، وكأنَّنا أمام شعب لا يعرف حدوداً يقف عندها، وكلَّفته «الآلهة» بهذه المهمَّة. وقد تردَّدت أصداء هذا المعنى مرَّة أخرى عند الشاعر ذاته في موضع آخر؛ حين خاطب بني جِلدته قائلا: «لكن أنت أيُّها الرومانيُّ ضع نُصْب عينيك أن تسود الشعوب بسلطانك، فرسالتك هي أن تفرض سُنَّة السلام، وتصفح عن المقهورين، وتقهر المتجبِّرين». وكأن فرجيل كان مؤمناً -إلى حد بعيد- بقدَريَّة التوسُّع، وبالتالي فالجيوش الرومانيَّة في حروبها تتصرَّف وفق مشيئة الآلهة والقدر[٢].

وينبغي القول أنَّ التكبرُّ والتغطرس الرومانيُّ ازدادا على مرِّ الأيام بفعل الانتصارات المتواصلة؛ فأدخلا في نفوس الجميع، أو في نفوس الأغلبيَّة من الرومان فوقيَّة عليا، وليس بعيداً أن يكون هذا الشعب قد ظنَّ نفسه الشعب المختار، وأنَّه الشعب الأعظم عدلاً وفضيلة وتقوى. وهذه كلُّها أفضليَّات تبرِّر في نظره الهبات التي أغدقتها الآلهة عليه.

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ جرعات التكبرُّ التي حقن بها الرومانيُّ نفسه بعد كلِّ انتصار؛ كانت تشكِّل دافعاً جديداً لإقناعه بأنَّ أيَّ شعب آخر لا يستطيع، ولا يجب أن يستطيع، أن يقف في وجهه أو في وجه جبروته العسكريِّ، وأصبحت روما في نظره هي المدينة التي ألقيت على عاتقها رسالة إخضاع العالم؛ وكان عليها إخضاعه بالقوَّة من دون شفقة أو رحمة بالعصاة؛ وهكذا مارست حقَّ المنتصر في هدم قرطاجة وكورنثا في سنة واحدة (١٤٦ ق.م)، كما

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٢٢.

[٢]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص١٣- ١٤.

هدمت نومانس Numance سنة ١٣٣ ق.م من دون أدنى شفقة[١].

لقد كان من سياسة الرومان العدوانيَّة أن يخاطبوا الآخر بلهجة الاستكبار والتعالي، حيث يصل سفيرهم إلى أمَّة يجهل عنها كلُّ شيء، يخاطبهم على سجيَّته، فإذا غضبوا وأساؤوا معاملته، اتَّخذت روما ذلك ذريعة وحجَّة لشنِّ الحرب عليهم[٢]. وجميعنا يعلم كيف بدأت الحرب البونيَّة الثانية (٢١٨- ٢٠٢ ق.م) ضدَّ قرطاجة، فبعدما سقطت ساجنتيوم Sagonte بيد هانيبال في سنة ٢١٨ ق.م، وهي مدينة إسبانيَّة متأغرقة، أتى وفد رومانيٌّ برئاسة فابيوس بيكاتور Fabius Pictor إلى قرطاجة، وقدَّم حلاًّ من اثنين: إمَّا تسليم هانيبال والأشخاص المسؤولين عن هذا العمل، و«بالتالي أنتم لستم شركاء في هذه الجريمة، وأنَّها تمَّت بغير موافقتكم»، أو أن تكونوا مستعدِّين لأن تُعتَبروا شركاء في هذه الجريمة، ومسؤولين عن ذلك العمل، وعليكم أن تتحمَّلوا النتائج». وبعدما أعلن فابيوس بيكاتور الخيارين ثنى عباءته وقال بتغطرُس: «هنا أحمل السلم أو الحرب فاختاروا»، فردَّ مجلس الشيوخ القرطاجي: «بل اخترْ أنت»، فقال فابيوس: «الحرب»، فهتف القرطاجيون بإباء: «قبلناها بمودَّة[٣]». وهكذا أعلن مجلس الشيوخ الرومانيُّ الحرب، باعتبار أنَّ ساجنتيوم من حلفائهم، والآن أصبح بوسع روما أن تخوض حرباً ضروس ضدَّ قرطاجة، ولاسيَّما بعدما انتصرت على الغال والإليريين، هذا بالإضافة إلى وصول الحزب الديمقراطيِّ بزعامة فلامنيوس Flaminius إلى القنصليَّة منذ سنة ٢٢٣ ق.م، ومنح مناصب عليا عدَّة في هرم السلطة لأسرتي الإمليين Aimilies والسكيبيونيين Scipions هاتين الأسرتين اللتين تطالبان دائماً بالحرب وبالمواجهة العسكريَّة لدرء الأخطار[٤].

من هنا يتظهَّر كيف أنَّ سياسة التغطرس هذه دفعتهم إلى إذلال الشعوب وملوكهم، فإذا استولى أمير على بلد بعد جهد جهيد، طلع عليه في الحين سفير من روما ينزع منه ثمرة

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريتها، مصدر سابق، ص١١٠.

[٢]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م، ص٦٦.

[٣]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة من التأسيس حتى السقوط سنة ١٤٦ ق.م، منشورات الهيئة العامَّة السوريَّة للكتاب، دمشق ٢٠١٥م، ص١٤١.

[٤]- حسن بلعيد، حنبعل والحرب البونيَّة الثانية (٢١٨- ٢٠١ ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر ٢٠١٣م، ص٤٢.

جهده، والأمثلة في هذا الشأن تكاد لا تحصى. نذكر من بينها طردهم أنطيوخوس الرابع (١٧٥- ١٦٤ ق.م) من مصر[١]. فلماً وقعت الحرب بينه وبين بطليموس ملك مصر، تقدَّم الجيش السلوقيُّ حتى ضرب الحصار على الإسكندريَّة عاصمة البطالمة، فوصل وفد من رومانيا على الفور برئاسة بوبيليوس لايناس Po Laenas، بعدما استنجدت الإسكندريَّة بروما، لإبلاغ أنطيوخوس الرابع بمطالبها، وقد التقى الوفد الرومانيُّ به في ضاحية اليوسيس (القريبة من الإسكندريَّة)، وعندما اقترب السفراء منه، حيَّاهم ومدَّ يده لمصافحة لايناس، لكن الأخير لم يردَّ التحية بل وضع في يده رسالةً، وطلب منه أن يقرأها أوَّلاً، وعندما قرأ الملك الرسالة وتبيَّن فيها إملاءات روما عليه؛ طلب من الوفد أن يمهله حتى يتباحث في الأمر مع حاشيته، لكنَّ لايناس بدوره تصرَّف تصرُّفاً مستهجناً في عالم السياسة؛ يُعبِّر عن تغطرس ممقوت، ممزوج بعنجهيَّة وتكبُّر لا مثيل لهما؛ عندما خطَّ بعصاة كانت بيده دائرة في الرمال حول الملك، وطلب منه أن يعطيه الجواب قبل أن يخطو خارج تلك الدائرة. استاء أنطيوخوس من هذا المسلك الغريب، وذُهل من صلف ووقاحة هذه اللَّهجة التي تتنافى مع كلِّ الأعراف الدبلوماسيَّة، إلا أنَّه أشار بعدما تردَّد لحظة؛ إلى أنَّه موافق على كلِّ ما يطلبه الرومان. عندها فقط قبل لايناس أن يصافحه، وحيَّاه الوفد تحيَّة وديَّة، وشرع أنطيوخوس بتنفيذ إملاءات روما القاضية بوضع نهاية لتدخُّله في مصر، ولحربه ضدَّ بطليموس، وسحب قوَّاته من قبرص، فسحب الرجل جيشه وعاد إلى سورية في ٣٠ تموز ١٦٨ ق.م[٢]. وهكذا حقَّق الرومان هدفين بموقف، أذلُّوا أنطيوخوس وضيَّعوا عليه ثمرة جهده، واستعبدوا البطالمة بعدما أصبحوا أولياء نعمتهم. فبعدما تخلَّص هؤلاء من فتك أنطيوخوس الرابع، سافر مبعوثوهم إلى روما لتقديم الشكر لمجلس الشيوخ باسم الملك بطليموس وكليوبترا الثانية، وبيَّنوا أنَّهم مدينون بالفعل لهم، أكثر ممَّا هم يدينون لوالديهما، حيث أنَّهم تخلَّصوا بواسطة الرومان من حصار أكثر الدول قوَّة في الشرق، واستردُّوا مملكتهم التي كادت تسقط نهائيَّاً بيد جيرانهم السلوقيين[٣].

[١]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٩.

[٢]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، دراسة في التاريخ السياسيِّ والحضاريِّ الباكر والكلاسيكي، ج٢، ط٤، منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٢م، ص٢٥٠.

[٣]- مراد محمد إسماعيل، عصر أنطيوخس الرابع (١٧٥- ١٦٣ ق.م)، دراسة سياسيَّة حضاريَّة، أطروحة مُعدَّة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٥م، ص٨٢.

ومن مظاهر سياسة الرومان الاستعماريَّة أنَّه إذا تحارب شعبان، وإن لم يكن لأيٍّ منهما تحالف أو عداوة معهم؛ يسرعون للظهور على الساحة، كما كان يفعل الفرسان المتجوِّلون في أوروبا أثناء القرون الوسطى، يساندون الضعيف على القويّ[١]، ليس كرم أخلاق منهم، بل ترجمة لتغطرسهم وتكبُّرهم، وانتهازاً للموقف، فيذلُّون القويّ، ويستعبدون الضعيف بعد أن يصبح مديناً لهم بوجوده. ومن مظاهر هذه السياسة أيضاً أنَّه إذا دعتهم مدينة لنصرتها لا يتأخَّرون عن ذلك لتكون موطئ قدم لهم في الإقليم الذي تنتمي إليه، فعندما استنجدت بهم مدينة ثوري Thurii الإغريقيَّة في جنوب إيطاليا لحمايتها من هجمات بعض القبائل الإيطاليَّة، أسرعوا إلى إرسال حامية عسكريَّة إليها، فكان الأمر بنظر تارنتيوم Tarentum (كبرى المدن الإغريقيَّة في جنوب إيطاليَّا) تدخُّلاً رومانيَّاً سافراً في منطقة نفوذها، لذلك قامت على الفور بطرد الأسطول الرومانيِّ، وحطَّمت بعض سفنه. وقد طلبت روما التعويض عن هذه الإهانة، إلاَّ أنَّ تارنتيوم رفضت ذلك واشتبكت معها بحرب ضروس كانت فرصة مناسبة للرومان لإخضاع كامل جنوب إيطاليا لسيطرتهم، وتمَّ لهم ذلك بالفعل في سنة ٢٧٢ ق.م[٢].

ولعلَّ الغريب في الأمر أنَّ قرطاجة دعمت روما أثناء حملة بيروس Pyrrhos على إيطاليا، والذي هبَّ لنجدة تارنتيوم، علماً أنَّه لم تكن لديها أيَّة نيَّة لخوض حرب ضروس ضدَّ روما؛ فلا مصلحة لها بذلك، لكن بيروس كان أول من تنبَّأ بصدام عسكريٍّ وشيك الوقوع بين روما وقرطاجة، لاسيَّما بعدما عارك الرومان وخبر سياستهم الاستعماريَّة، وهو تحدَّث عن ذلك صراحة، عندما قال لمرافقيه «الآن نترك الساحة لروما وقرطاجة لتتصارعا[٣]». وبالفعل، ما إن تمكَّنت روما من السيطرة على جميع المدن اليونانيَّة في جنوب إيطاليا، وعلى رأسها تارنتيوم، حتى صار الرومان وجهاً لوجه مع قرطاجة التي كانت تسيطر على صقلية، واستناداً إلى معتقدهم الراسخ؛ فإنَّ هناك من يهدِّد وجودهم بالخطر، اتَّجهت أنظار الرومان إلى

[١]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٩.

[٢]- محمد عطيَّة الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوريِّ وقيام النظام الأمبراطوريِّ في روما (السياسيَّة، الاقتصاديَّة، الاجتماعيَّة)، رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بنغازي ٢٠١٧م، ص٥٢.

[٣]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة، مصدر سابق، ص٩٢.

القرطاجيين ليكونوا أعداءهم الجدد[١]. وما كان عليهم إلاَّ انتظار الحادثة المناسبة لإعلان الحرب.

ويجدر القول أنَّ هذه الحرب ليست بونيَّة بل هي حربٌ رومانيَّة؛ وهذا ينطبق على دور روما المعتدية، مع أنَّ قرطاجة برهنت عن حسن نيَّتها بأنَّها وقفت بجوار روما ضدَّ بيروس الذي هبَّ لنجدة تارنتيوم أثناء حربها مع روما، وأنَّها قدَّمت لها الدعم، وتعاملت معها بسلام بعد فشل حملة بيروس على إيطاليا[٢]. ولعلَّ ما غذَّى السياسة الاستعماريَّة، هذه المرة، كان الطمع بالثروة والمال والموارد الغنيَّة التي تمتلكها قرطاجة، فالسياسيون الرومان تحوَّلوا إلى رجال أعمال، وجمعوا ثروة كبيرة عن طريق تجارتهم في البحر المتوسِّط، ولاسيَّما مع قرطاجة، وفي حال سيطروا على مثل هذه المتاجر القرطاجيَّة تصبح روما أكثر ثروة وغنى وقوة[٣].

رابعاً: الثروات والأمجاد الشخصيَّة كدوافع للحروب الرومانيَّة

انتهت الحرب البونيَّة الأولى بفرض روما المنتصرة على قرطاجة معاهدة سنة ٢٤٢ ق.م والتي يمكن تلخيص أهمِّ بنودها أن تدفع قرطاجة غرامة ماليَّة قيمتها ألف تالنت بشكل فوريٍّ، وغرامة أخرى طويلة الأمد على مدى عشرين سنة قدرها ٢٢٠٠ تالنت. طبعاً بهدف إفراغ خزينتها وإضعاف اقتصادها، فضلاً عن إطلاق سراح الأسرى الرومان من دون شرط أو فدية، وعدم مهاجمة حلفاء روما سواء في أوروبا أم في شمال أفريقيا، والانسحاب من جزيرة صقلية. وهكذا تولَّدت من شروط السلام مسبِّبات الحرب، فما معنى كلِّ هذه الغرامات؟ وما معنى ألاَّ حق لك في الدفاع عن نفسك ضدَّ خصومك إن كانوا حلفاء لروما؟

في الواقع، لم يكتفِ الرومان بذلك، فبعدما انتصروا في الحرب البونيَّة الثانية، فرضوا شروطاً أخرى للسلام على قرطاجة كانت أقسى من الشروط الأولى؛ وهي أن تدفع غرامة ماليَّة قدرها عشرة آلاف تالنت على مدى خمسين سنة، وإطلاق سراح الأسرى الرومان من دون شرط، وأن تسلِّم مائة شاب من أفضل ما تمتلكه من المقاتلين إلى روما، وأن تسلِّم كلَّ

[١]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت د.ت، ص٣٩.

[٢]- فينفريد إلليغر، قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ترجمة عبيد مرعي، دمشق ٢٠٠٨م، ص١٢٥.

[٣]- محمد بيومي مهران، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة ١٩٩٩م، ص٢٥٥.

الأسلحة، والأسطول، والفيلة، وألاَّ تقوم بأيِّ حرب من دون إذن من روما، أن توقِّع معاهدة سلام مع مسينيسا؛ جار قرطاجة وحليف روما[١]. أي أنَّ روما جعلت الخنجر المسموم (مسينيسا) في خاصرة قرطاجة شرطاً أساسيَّاً للصلح معها. وهكذا تولَّدت من شروط سلام الحرب البونيَّة الثانية، مسبِّبات الحرب البونيَّة الثالثة.

ولا ريب في أنَّ حجم الغرامات التي فرضتها روما على قرطاجة، وعلى غيرها من الشعوب والأمم التي قهرتها؛ يُعبرِّ عن جشع الرومان وشهوتهم للمال والثروة، من دون أن تكون أيٌّ من هذه الشعوب المقهورة عامل تهديد لروما. وهكذا يتَّضح أنَّ طمع الرومان في مكتسبات جديدة، وسعيهم الحثيث للحفاظ على مكتسباتهم القديمة؛ كان عاملاً أساسيَّاً ومحرِّضاً رئيسيَّاً لاستمرار حركة الاستعمار الرومانيِّ، فانقلب الاقتصاد والمجتمع، وأخذ رجال الأعمال الجشعون يبتغون استثمار نطاقات جديدة. وابتغى الجنود حروباً جديدة تؤمِّن لهم الغنائم والمكافآت، فصار الرومان كالظمآن الذي يشرب من ماء البحر؛ كلَّما شرب أكثر عطش أكثر.

انطلاقاً من ذلك، بلغت أرباح الاستعمار الرومانيِّ درجة عالية، طبعاً بفعل مصادرة ثروات الأعداء، وتعويضات الحرب المفروضة على المغلوبين، وأُعطيات الحلفاء المتملِّقين للقوَّة، والجزية السنويَّة التي تدفعها المقاطعات. وقد حصلت عامَّة الشعب على قسط من سخاء الدولة، ترافق مع هذه الأرباح الطائلة، فساندت بحماسة سياسة تؤمِّن لها مزيداً من مثل هذه المكاسب، رغم أنَّها لم تنل إلاَّ النزر اليسير من غنائم هذه الحروب. وإن كان بعض رجال الدولة من ذوي الشأن قد تجاوزوا هذه الأنانيَّة، لكنَّهم رأوا أنَّ الحرب والتوسُّع ضرورة حتميَّة؛ لأنَّهما يساعدان على معالجة الصعوبات الداخليَّة، إمَّا بخلق عمليَّة إلهاء للشعب، أو بزيادة الموارد الماليَّة للدولة[٢]، وهكذا استحوذ الرومان بصفتهم أسياد المعمورة على كلِّ ذخائرها، نهبوها كحكَّام أكثر مما فعلوه كغزاة، لم يسلم منهم أحد، سواء كان حليفاً أم تابعاً؛ فعندما علموا أنَّ لبطليموس أمير قبرص كنوزاً لا تُحصى، صادقوا على قانون أحد نقباء العوام؛ الذي يتيح لهم إرث رجل لا يزال حيَّاً[٣].

[١]- محمد عطيَّة الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٥٨.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريَّتها، مصدر سابق، ص١١٠.

[٣]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧٣.

من جانب آخر، لم تكن شهوة الرومان للمال والثروة تقلُّ عن شهوتهم للمجد والشهرة؛ فالنصر دائماً وأبداً من حقِّ القائد، فإن كان حاسماً في نظر مجلس الشيوخ، يمُنح مجد موكب النصر؛ وهو احتفال موروث عن الأتروسكيين، يرتدي فيه القائد المنتصر الحلَّة المطرَّزة بالذهب، ويصبغ وجهه باللَّون الأحمر، ويحمل تاجاً ذهبيَّاً ويمسك بالصولجان، ويمثل جوبتير نفسه، ثمَّ يصعد إلى عربة يتقدَّمها موكب الغنائم المستولى عليها، ويسير وراءه جنوده مُدجَّجين بالسلاح حتى معبد الإله جوبتير على الكابيتول. ولكنَّه عند نهاية الاحتفال يبرهن عن خضوعه للأنظمة الجماعيَّة، ويعود إلى صفوف أمثاله متحلِّياً بسمعة خادم الدولة الأمين.

بيد أنَّ عدوى الأفكار والعادات الهلينيَّة من جهة، والإمكانات التي توفَّرت للرجل الماهر والقويِّ بفعل اختلال التوازن الاجتماعي القديم والنظام السياسيِّ من جهة ثانية، قد أعطت قوَّة فائقة للجاذب الذي توحيه القيادات العسكريَّة الكبرى. فما تستطيع أن توفِّره منذ الآن هو المجد الشخصيُّ للقائد المظفَّر، والذي يسحر الجماهير، والثروات التي يستطيع بواسطتها شراء ذمم الجنود وتفانيهم في القتال. وهم الجنود الذين يرون فيه حبيب الألوهيَّة، ويقرُّون له بموكب النصر قبل أن يبدي مجلس الشيوخ رأيه، ويعود أول مثل أكيد على هذه الحركة إلى سنة ٢٠٩ ق.م، حيث وصل الأمر مع هؤلاء الجنود إلى إعلان قائدهم «الملهم» أمبراطوراً في ساحة الوغى، ولم يتوانوا عن السير خلف أمثاله بعد مئة سنة لاحتلال روما ذاتها. وهذا ما أسهم في إعلان عدد من الحروب من دون التقيُّد بالقواعد والتقاليد الدستوريَّة، سعياً وراء النصر المضمون، وسعياً من القائد وراء ربط اسمه بإخضاع أقاليم جديدة[١].

خامساً: الغدر وزراعة الفتن كصفة متأصِّلة في الرومان

لقد كان من سياسة الرومان في إشعال الحروب؛ ترتيب أولويَّات الهجوم. فعلى سبيل المثال، إذا أهانهم أحد وهم منشغلون بحرب كبيرة، صبروا عليه، وانتظروا في صمت إلى أن يحين وقت الجزاء، وحتى إذا سلَّم لهم المسؤول عن الإهانة أعرضوا عن معاقبته مفضِّلين جعل المسؤوليَّة جماعيَّة لينتزعوا من الشعب المتَّهم فائدة سياسيَّة[٢].

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريَّتها، مصدر سابق، ص١١١.

[٢]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٦.

كانت روما قد اختلفت مع فيليب الخامس ملك مقدونيا حول السيطرة على بعض مناطق شمال غرب بلاد اليونان، وكانت قد احتلَّت بعض هذه المناطق، فردَّ عليها في سنة ٢١٥ ق.م بعقد تحالف مع هانيبال[١]، ولما كانت هي مشغولة بحرب هانيبال؛ الذي كان يجتاح قراها ومدنها، ردَّت على هذا التحالف أوَّلاً بأن ضربت وحدة الصف في بلاد اليونان من خلال شائعات مفادها أنَّ فيليب يعتزم إذا ما انتصرت قرطاجة عليها أن يجتاح بلاد اليونان بمساعدة حلفائه القرطاجيين، فانقلب اليونان الأيتوليون، ووقَّعوا اتفاقيَّة تحالف مع روما، وبعد هذا الخذلان لفيليب من قبل اليونان؛ اضطر الملك المقدونيُّ إلى توقيع اتفاقيَّة سلام منفردة مع الرومان[٢]، وهي اتفاقيَّة فوينكي Phoeniki سنة ٢٠٥ ق.م، والتي أتاحت له قدراً معيَّناً من حريَّة العمل لتحقيق أطماعه في الحوض الشرقيِّ للبحر المتوسط[٣].

وما إن تمكَّن الرومان من الانتصار على هانيبال في معركة زاما سنة ٢٠٢ ق.م حتى أخذ مجلس الشيوخ الذي لم ينسَ قطُّ إساءة وُجِّهت لبلاده، يكيد لمقدونيا ويستعدُّ للثأر، حانثاً باتفاقيَّة السلام بينهما، ذلك أنَّ المجلس كان يشعر بأنَّ روما لا تستطيع أن تأمن على نفسها ما دام من ورائها تلك القوَّة العظمى التي لا يفصلها عنها إلاَّ بحر ضيِّق، ولما عرض المجلس اقتراح الحرب اعترضت الجمعيَّة الشعبيَّة على هذا الاقتراح، وقام أحد نقباء العوام يتَّهم طبقة النبلاء في روما بأنَّهم يريدون أن يحوِّلوا أنظار الشعب عمَّا في البلاد من فساد. ولكن سرعان ما أخمدت أصوات المعارضين للحرب، واتَّهموا بوهن العزيمة وضعف الوطنيَّة[٤]، وهكذا طفقت روما تبحث عن سبب لإعلان الحرب، فاستغلَّت دعوة أرسلتها رودوس وبرغام (حليفتَي روما في تلك المرحلة) لمجابهة خطر فيليب، بإيحاء من روما نفسها، وما إن دخلت سنة ٢٠٠ ق.م حتى أبحر كونكتوس فلامينوس Quintus Flaminius إلى مقدونيا على رأس جيش جرَّار، وحقَّق النصر على فيليب في معركة كونوس كيفالاي Kynos Kephalae في إقليم تساليا سنة ١٩٧ ق.م، وأرغمه على توقيع اتفاقيَّة سلام حوَّلته إلى تابع صغير لروما في بلاد اليونان[٥].

[١]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، مصدر سابق، ص٢٣٧.

[٢]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، ج١، مج٣، مصدر سابق، ص١٧٨.

[٣]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، مصدر سابق، ص٢٣٨.

[٤]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، ج١، مج٣، مصدر سابق، ص١٧٨.

[٥]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، مصدر سابق، ص٢٣٨.

لقد كان الرومان مهَرة في إثارة الفتن والشكوك بين الحلفاء، فبعدما لجأ هانيبال إلى أنطيوخوس الثالث ملك سورية السلوقيَّة، أرسلت روما وفداً برئاسة فيلليوس Villius إلى هذا الملك، مهمة الوفد الظاهرة هي التباحث في بعض القضايا، وتكريس تحالف روما مع برغام، وباطنها رغبة الرومان في أن يطَّلعوا على وضع الدولة السلوقيَّة عن كثب ويستكشفوا نوايا أنطيوخوس الثالث، وأن يلقوا بذور الفتنة بين هانيبال وأنطيوخوس، ويثيروا الشكوك حوله. ومن أجل عقد فيلليوس أكثر من اجتماع وأكثر من مؤتمر مع الملك أنطيوخوس بحضور هانيبال، كان فيلليوس يتعمَّد أن يُظهر قدراً عظيماً من الاحترام والتقدير لهانيبال أمام أنطيوخوس، بهدف إثارة الشكوك حوله. ويذكر المؤرِّخون حادثة أثارت شكوك أنطيوخوس فعلاً، هي أن الحاضرين سألوا رئيس الوفد الرومانيِّ عن أعظم قائد في الدنيا. فأجاب فيلليوس: الإسكندر الكبير، وعندما قيل له لماذا قال لأنَّه استطاع مع نفر قليل من المقدونيين أن يهزم جيوشاً كبيرةً، ويحتلَّ أماكن بعيدةً جداً عن بلاده. وقيل له ثمَّ أي، فقال بيروس، فقيل له لماذا، فقال لأنَّه كان ماهراً في تشكيل قوَّاته في ساحة المعركة، كما كان ماهراً في كسب قلوب جنوده، حتى أنَّ سكان إيطاليا كانوا توَّاقين ليكون حاكمهم رغم أنَّه أجنبيٌّ. وعندما قيل له من الذي يشغل المرتبة الثالثة، (وكان هانيبال توَّاقاً ليسمع اسمه يحتلُّ هذه المرتبة). إلاَّ أنَّ فيلليوس قال سيبيو الأفريقيٌّ. ضحك هانيبال وقال: «أنا أصنِّف نفسي فوق الإسكندر وفوق بيروس، وفوق كلِّ الجنرالات الذين ظهروا في التاريخ». ومنذ تلك الحادثة فترت العلاقات بين هانيبال وأنطيوخوس الثالث، الذي ارتاب من نوايا هانيبال[١].

أدرك هانيبال ما حدث، لذلك رغب في شرح موقفه، وقد دافع عن نفسه طويلاً ولكن من دون طائل، إلى أن قال لأنطيوخوس آخر الأمر: «عندما أوشك والدي على الذهاب في حملته إلى أيبيريا سنة (٢٣٨ ق.م) كنت في التاسعة من عمري، وبينما كان يقدِّم القرابين إلى الآلهة كنت على مقربة من المذبح، وبعدما تمَّت التضحية بنجاح صبَّ والدي السكائب وأتمَّ الطقوس التقليديَّة عندئذ أمر جميع المصلِّين أن يتراجعوا قليلاً ثمَّ استدعاني وسألني في عطف عمَّا إذا كنت أودُّ أن أذهب معه في حملته، وعندما أبديت موافقتي بحماسة ورجوته بإصرار أن يسمح لي بالذهاب، أمسك بذراعي الأيمن، وقادني إلى المذبح، وأمرني

[١]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة، مصدر سابق، ص١٩٠ - ١٩١.

أن أضع يدي على الضحيَّة وأقسم ألاَّ أكون صديقاً لروما أبداً[١]. إنَّ كرهي للرومان تعرفه كلُّ الدنيا، وهو الذي جعلني أستلُّ السيف ضدَّهم ستاً وثلاثين سنة، إذا كنت قد تضايقت من وجودي، سوف أطير إلى كلِّ الأمم وأحثُّهم ضدَّ الرومان، وعداوة الرومان لي لا تقلُّ عن عداوتي لهم، وبما أنك يا أنطيوخوس ما زلت تحمل السلاح ضدَّهم عليك أن تصنِّف هانيبال بين أصدقائك الأفضل، ولكن إذا أشار عليك الآخرون بالسلام، فإني أُعلمك أنك عندئذٍ لست بحاجة أن تنتظر وشاية لتجعلك ترتاب مني، وكن على حذرك مني، فلن أمسك عن شيء أستطيعه للعمل ضدَّها[٢]».

لقد استمع أنطيوخوس إلى خطاب هانيبال النابع من قلبه، ونظراً لاقتناعه بصدقه وإخلاص عاطفته عدل عن جميع شكوكه. وصمَّم على إعطائه قيادة الأسطول، والقيام بخطَّة مشابهة لتلك التي اقترحها على الملك السلوقيِّ، مع ضرورة الاتصال والتنسيق مع فيليب ملك مقدونيا في الشمال واتحاد الدويلات الأيتوليَّة في الوسط وإسبارطة في الجنوب، ولاسيَّما بعد تعثُّر المفاوضات بين الوفد السوريِّ والوفد الرومانيِّ، وتأكيد الرومان أنَّ مطالب السلوقيين بأملاك أجدادهم في تراقيا وشرق أوروبا ما هي إلاَّ مزاعم، والأكثر من ذلك أن المجلس الحربيَّ عند اجتماعه مع أنطيوخوس قد أظهر حماسته للحرب[٣].

وبالعودة إلى مقدونيا، لم يقصِ الرومان فيليب عن عرشه، بل أعادوه إلى عرش هزيل لا حول له ولا قوَّة، حيث كان من عادة الرومان كلَّما واجهوا أعداء عديدين صالحوا الأضعف الذي يسعد بإمهاله وإرجاء ساعة هلاكه[٤]؛ لأنَّهم أخذوا يتحيَّنون لمواجهة عدوٍّ آخر هو أنطيوخوس الثالث ملك سورية، فبينما كان رسله يؤكِّدون صداقتهم لروما، كان هو خلال فصل شتاء ١٩٨/ ١٩٧ ق.م يعمل على إعداد حملة، علماً أنَّه كان قد استولى على بعض الممتلكات البطلميَّة في كيليكية وكاريا، وعندما كان يحاصر إحدى مدن جنوب آسيا الصغرى أدركت روما خطر هذا الزحف، ونظراً لصعوبة الحرب على جبهتين (مقدونيا،

[١]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١١٦.

[٢]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة، مصدر سابق، ص١٩١ - ١٩٢.

[٣]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، مصدر سابق، ص٢٤١.

[٤]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٥.

وسورية) معاً، أوعزت روما إلى حليفتها رودس أن ترسل وفداً يطالب أنطيوخوس بأن يحترم حريَّة المدن الإغريقيَّة واستقلالها، ولما كان هناك مصالح اقتصاديَّة متشابكة بين رودوس وأنطيوخوس، وكان الأخير يدرك أنَّ الرومان يبحثون عن ذريعة للصدام معه، فقد دخل مع رودوس في مفاوضات طويلة الأمد، وخلال هذه المفاوضات وصل نبأ هزيمة فيليب الخامس وأعلنت روما حريَّة بلاد اليونان[١].

لقد وصل الغرور الرومانيُّ مع هزيمة فيليب أوجه؛ حتى أنهم نصَّبوا أنفسهم قضاة يحاكمون الملوك على الأخطاء والجرائم التي تمسُّ حياتهم الخاصَّة، استمعوا لكلِّ من كانت لهم خصومة مع فيليب، بل أرسلوا للمتظلِّمين حماة حتى لا يتعرَّضوا لانتقامه[٢].

ولمَّا كانت الحرب تستتبع الحرب فقد استاء الحلف الأيتوليُّ من تحرُّر المدن اليونانيَّة التي كانت من قبل خاضعة له، وطالبوا أنطيوخوس الثالث بأن يحرِّر بلاد اليونان من تبعيَّتها لروما، واعتبر الأخير بما حازه من نصر رخيص في بعض المعارك التي خاض غمارها في الشرق، أنَّه قادر على بسط سلطانه على غرب آسيا، وخشيت برغام عاقبة بغيِه فلجأت إلى روما تستعينها عليه، وأرسل مجلس الشيوخ سيبو الأفريقيَّ وأخاه لوسيوس مع أوَّل جيش رومانيٍّ تطأ أقدامه أرض آسيا، والتحم الجيشان عند مغنيزيا Magnesia سنة ١٨٩ ق.م وانتصر الرومان وزحفت الجيوش الرومانيَّة صوب الشمال وردت الغال إلى غلاطيا Jalatia (الأناضول) وكانوا من قبل يهدِّدون برغام[٣].

لقد كان من سياسة الرومان أنَّهم إذا وافقوا على أن تظلَّ مدينة ما حرَّة، عملوا على أن ينقسم أهلها إلى حزبين، أحدهما متشبِّث بحريَّات البلد وتقاليده العريقة، والآخر مقتنع بأن لا قانون يعلو على ما تقرِّره روما. وبما أنَّ هذا الأخير هو الأوفر حظَّاً في كلِّ حال، فواضح أنَّ المدينة حرَّة بالاسم فحسب. وهذا ما حدث في بلاد اليونان بعدما تخلَّصوا بفضل روما من هيمنة فيليب الخامس[٤]. في تلك الاثناء، انقسم الإغريق على أنفسهم،

[١]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، مصدر سابق، ص٢٣٨.

[٢]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧٣.

[٣]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، ج١، مج٣، مصدر سابق، ص١٧٩ - ١٨٠.

[٤]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٨.

وأعرب الأرستقراطيون عن استعدادهم للدخول تحت السيادة الرومانيَّة المطلقة، بحكم أنَّ مصالحهم تتقاطع مع مصالح طبقة النبلاء الرومانيَّة. أمَّا فئة الوطنيين التي كانت تتمسَّك بأماني الإغريق الوطنيَّة وأحلامهم بالحريَّة؛ فقد رفضت ذلك الأمر مطلقاً. بينما اتَّهمت طبقة الفقراء روما بأنَّها تناصر الأغنياء عليهم أينما حلَّت. وكان من الطبيعيِّ أن تتَّجه أنظارها الإغريق إلى مقدونيا، حيث فيليب الذي كان ينتظر الفرصة المناسبة للثأر[١].

لقد كان من عادة الرومان إذا ما هادنوا أميراً أخذوا أحد أبنائه أو إخوته رهينة عندهم، فيسهل عليهم التدخُّل في شؤون البلد متى شاؤوا. إن كان الرهينة وليَّ العهد ابتزُّوا به الجالس على العرش، وإن كان أميراً من سلالة بعيدة أثاروا باسمه الشغب[٢]. وهذا ما صنعه الرومان مع فيليب الخامس، فبعدما أدركت روما أن جهود فيليب في إنعاش الدولة وجيشها تفضح نواياه العدوانيَّة اتِّجاهها، أخذت تحيك المؤامرات في أسرته للإيقاع به، فيسقط عرشه من دون أن تصطدم به، حيث سعت لأن يخلفه ابنه ديمتريوس على العرش، الذي عاش في كنف الرومان رهينة عندهم، وتطبع بطباعهم، رغم وجود الابن الثاني برسيوس Perseus، فأثار هذا الطرح الصراع على ولاية العرش بين الأخوين في حياة أبيهما، فما كان من فيليب إلاَّ أن أعدم ابنه ديمتريوس بتهمة الخيانة في سنة ١٨٠ ق.م، حتى يجنِّب البلاد شرَّ فتنة كبرى، وتوفيِّ فيليب على أثر هذه الحادثة في سنة ١٧٩ ق.م[٣]. حيث كان من عادة الرومان بعد انتصارهم على عدوٍّ أن يكتفوا بإضعافه، ويملون عليه شروطاً توهنه من دون أن يشعر بالأمر. إن انتعش عادوا وأهانوه إهانة أكبر حتى يصبح خاضعاً خانعاً، وهو لا يعلم متى حدث ذلك بالضبط، من هذا المنظور لم تكن روما أبداً على وجه التدقيق مملكة أو جمهوريَّة، بل كانت في واقع الأمر قوَّة استعماريَّة تسعى لابتلاع الدنيا بأكملها[٤].

لقد خلَّف برسيوس أباه في العرش، وحاول إعادة مقدونيا إلى سابق مجدها، فتحالف مع سلوقس الرابع Seleucus IV ومع أهل جزيرة رودس، فطلب مجلس الشيوخ الرومانيُّ

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة للنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص١٦٨.

[٢]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٧.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٦٩.

[٤]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧٥.

منه تسليم جميع أملاكه، وكان الجوابُ بالرفض جواباً متوقَّعاً، وهكذا صارت الحرب أمراً لا مفرَّ منه، فأهاب الملك الشاب بالإغريق أن يثوروا على روما، في سنة ١٧١ ق.م، لكن لوسيوس إيمليوس بولوس L. Aemilies Paullus هزم برسيوس في بدنا Pydne بعد ثلاث سنوات من ذلك العام، وتمَّ تدمير سبعين مدينة مقدونيَّة، وأسر برسيوس نفسه وسار مكبَّلاً يزيِّن موكب النصر في شوارع روما[١].

في الواقع لقد كانت كلُّ الظروف مناسبة بالنسبة إلى الرومان، فيومنيس Eumenes ملك برغام كان قلبه يقطر حقداً على مقدونيا، ويتحيَّن الفرصة ليوغر صدر الرومان عليها، أمَّا بروسياس Prusias ملك بثينا Bithynia في شمال غرب تركيا فقد كان يترقَّب الموقف، ويرى أنَّ الرومان سوف يلتمسون له العذر لأنه تزوَّج من أخت برسيوس، أمَّا ملك كبادوكيا فقد وعد بمساعدة روما علانية لأنَّه أيضاً كان مرتبطاً بزواج سياسيٍّ مع يمونوس، إلى جانب ارتباطه به في حالتَيْ السلم والحرب. أمَّا أنطيوخوس الثالث ملك سورية فقد كان يترقَّب الموقف، لكن همَّه الأول كان مراقبة الموقف من أجل ضم جوف سورية من مصر، أمَّا ملك مصر فقد كان طفلاً لا يعي، وكان في أيد غير أمينة. وبخصوص مسينيسا ملك نوميديا فقد كان مستعدَّاً لتقديم القمح إلى روما بانتظام، إلى جانب تقديم الدعم العسكريِّ للرومان إذا لزم الأمر[٢]. لم تكتف روما هذه المرة بهزيمة مقدونيا وفرض الضرائب عليها، بل عملت على إزالة كيانها السياسيِّ، حيث صمَّمت روما على ألاَّ تقوم قائمة لأيِّ قوَّة في بلاد اليونان يمكن للإغريق أن يلتفُّوا حولها، فتعود إلى الحرب مرَّة أخرى، لذلك قطعت أوصال مقدونيا إلى أربع ولايات منفصلة، ولم يسمح لأهالي كلِّ ولاية أن يتاجروا أو يمتلكوا أرضاً في أراضي ولاية أخرى، كما منعت أبناء هذه الولايات من التزاوج في ما بينهم[٣]. وإمعاناً في قسوة العقاب قام الرومان بتدمير إقليم إبيروس تماماً، ونفوا من سكانه ١٥٠ ألف إنسان، وألحقوا بهذا الإقليم أضراراً اقتصاديَّة لن يتعافى منها قبل خمسة قرون قادمة[٤].

---

[١]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، ج١، مج٣، مصدر سابق، ص١٨٠.

[٢]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص١٥٦.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٦٩.

[٤]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص١٥٧.

إلى ذلك، عوقبت رودس بتحرير كلِّ المدن الآسيويَّة التي كانت تؤدِّي لها الخراج. وإمعاناً في خنقها أقامت روما ميناء وسوقاً تجاريَّة جديدة في شرق المتوسِّط سنة ١٦٧ ق.م، في جزيرة ديلوس، ذات المكانة الدينيَّة المهمَّة (كونها مهداً لأبولون)، وأخذت تعمل على تحويل التجارة والنقل من رودس إلى ديلوس، ومع مرور الأيام فقدت أهميَّتها التجاريَّة والاقتصاديَّة، وبالتالي قوَّتها السياسيَّة، وأدركت خطورة الموقف فآثرت السلامة ودخلت منذ سنة ١٦٤ ق.م في تحالف غير متكافئ مع روما أنهى بصورة فعالة استقلالها السياسيَّ وتضاءل دورها شيئاً فشيئاً[١]. كما قبضت روما على ألف رجل من وجهاء بلاد اليونان؛ ومن بينهم المؤرِّخ بوليبيوس Polubios (٢٠٥- ١٢٥ ق.م) الذي كان والده يكورتاس رئيساً للعصبة الإغريقيَّة المناهضة لروما، واتَّخذوا رهائن في إيطاليا، وظلُّوا في النفي ست عشرة سنة مات خلالها سبعمائة شخص منهم. وهكذا سارت العلاقات بين اليونان والرومان خلال العشرة أعوام التالية سيراً حثيثاً نحو العداوة السافرة، ذلك أنَّ المدن والأحزاب والطبقات المتنافسة في بلاد اليونان لجأت إلى مجلس الشيوخ الرومانيِّ تطلب إليه العون، وهيَّأت لروما بطلبها هذا سبيلاً للتدخُّل انتهى بأن أضحت بلاد اليونان خاضعة فعليَّاً إلى روما، وإن ظلَّت بالاسم حرَّة مستقلة[٢].

وبينما كانت الجيوش تصرع البشر وتقهر الشعوب، كان أعضاء مجلس الشيوخ الرومانيِّ يضيِّقون الخناق على من وجدوه جاثماً على الأرض. انتصبوا قضاة لمحاكمة الشعوب، في نهاية كلِّ حرب يقرِّرون من يكافأ ومن يعاقب، ويقتطعون جزءاً من أرض المغلوب ويسلِّمونه للحليف. وهكذا يبلغون هدفين: ضمان وفاء من يخشونه قليلاً ويأملون منه الكثير، وإضعاف من يخشونه كثيراً ويأملون من القليل. يستخدمون الحليف لقتال العدو ثمَّ من دون تهاون ينقلبون عليه ويدمِّرونه. واستعانوا بالأيتوليين لقهر فيليب الخامس ثمَّ سحقوهم بدعوى أنَّهم انحازوا إلى جانب أنطيوخوس الثالث ملك سوريا. وهذا الأخير هزموه بمساعدة أهل رودوس، فأغدقوا عليهم المكافآت ثمَّ أذلوهم إلى الأبد عقاباً لهم على تجرؤهم واقتراحهم مهادنة بيرسيوس. ولمَّا كان الرومان يلحقون بأعدائهم أضراراً تفوق كلَّ تصوُّر، لم تتحالف

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٧٠.

[٢]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، ج١، مج٣، مصدر سابق، ص١٨٠.

ضدَّهم الشعوب الأخرى، إذ إنَّ البعيد لا يودُّ أن يقترب منهم فيكوى بنارهم. ومن هنا ما أجبروا على حرب، بل كانوا يختارون هم دائماً متى وكيف ومن يحاربون، وكم من شعب هاجموه كان يرضى أن يتحمَّل منهم كل أنواع المهانة لو تركوه وشأنه[١].

ومن المهمِّ القول أنَّ طفرات الاستعمار هذه لم تحدث من دون أن تصادف مقاومة داخليَّة، ولكن المقاومة بعد كلِّ حساب كانت هزيلة ومن دون جدوى[٢]، حيث لم يأذن الرومان لأحد من أدبائهم بأن يكتب ضدَّ خطابهم الاستعماريِّ، فقد تلقَّى نايفيوس Cn. Naevius عقوبة قاسية على بيت شعر انتقد فيه سياسة قناصل روما (من آل ميتيللوس) الدمويَّة الميَّالة نحو الاستمرار في الحرب والاستعمار، حيث قال «بالقدر وحده أصبح آل ميتيللوس قناصل في روما»، بمعنى أنهم بالحظِّ فحسب وصلوا إلى أعلى منصب في الدولة، ويبدو أنَّ نايفيوس قد حذا حذو أريستوفانيس في انغماسه الشديد في النقد السياسيِّ الصريح والمباشر بل بالاسم. وقد ردَّ آل ميتيللوس ردَّاً عنيفاً عليه، حيث وضعوا إعلاناً في كلِّ مكان عام في روما يحمل هذا البيت: «سيرد آل ميتيللوس للشاعر نايفيوس سوء ما فعله». وقد نفذ آل ميتيللوس وعيدهم، فبإيعاز منهم تم إلقاء القبض عليه سنة ٢٠٤ ق.م بتهمة «تأليف أغان سيِّئة»، وكانت قوانين الألواح الاثني عشر قد حرَّمتها، فنُفي الرجل من روما ومات في منفاه قهراً[٣].

لقد حارب كاتو Cato الأكبر فساد الأخلاق الذي استشرى في المجتمع الرومانيِّ، مثلما استشرى من قبل في المجتمع اليونانيِّ، كما حارب زعماء الجيش واختلاساتهم، ولكن أعماله الشخصيَّة، العسكريَّة أو الدبلوماسيَّة في إسبانيا واليونان على السواء، وعناده في محاربة قرطاجة ودعواته المتكرِّرة لتدميرها واستعمارها، يبرهنان بما فيه الكفاية عن قصر أفقه، وأنَّه لا يذهب من المعلول إلى العلَّة لإقناع مواطنيه بالاعتدال. وحين ذرف سيبو إميليانوس في سنة ١٤٦ ق.م الدموع السخيَّة أمام أطلال قرطاجة المحترقة، لم يحمله ذلك قط على كبح غضبه وعنفه، إذ إنَّه قد برهن بعد ثلاث عشرة

[١]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٥ - ٦٦.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريَّتها، مصدر سابق، ص١١١.

[٣]- أحمد عتمان، الأدب اللاَّتيني ودوره الحضاري، مجلَّة «عالم المعرفة»، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٤١، الكويت ١٩٨٩م، ص١٦ - ١٧.

سنة عن عزم مماثل لا يعرف للشفقة معنى أثناء حصار وهدم نومانس في إسبانيا[١].

سادساً: استراتيجيَّة الصلح كأداة للاحتلال

لم يكن من عادة الرومان أن يبرموا صلحاً ليدوم، بما أنَّ هدفهم البعيد هو الاستيلاء على كلِّ شيء، ولم يروا في أيِّ صلح سوى هدنة مؤقَّتة أو استراحة محارب. لذلك كانوا يفرضون شروطاً تؤدِّي لا محالة إلى دمار الدولة التي تقبلها، كإخلاء المواقع الحصينة، وحصر عدد الجنود عند رقم معيَّن، وتسليم الخيل والفيلة، وإحراق السفن، والابتعاد عن الشواطئ بالنسبة إلى الشعوب البحارة[٢]، وذلك وفقا لمبدأهم الشهير" ويل للمهزوم من شروط المنتصر[٣]"؛ ففي الصلح المهين الذي عقدوه مع أنطيوخوس الثالث ملك سورية، أجبروه على أن يتخلى عن جزء كبير من أراضي مملكته، وأن تكون جبال طوروس الحدود الشمالية للدولة السلوقية، ودفع كل تكاليف الحرب، ودفع غرامة مالية لملك برغام يومنيس حليف روما، وتسليم عشرين رهينة يقوم الرومان باختيارهم، وتسليم هانيبال، وثواس زعيم الأيتوليين، وبعض أعداء روما، إمداد الجيش الروماني بالغلال[٤]. وهكذا تتَّضح سياسة الرومان الاستعماريَّة في تحطيم خصومها؛ فبعد تجريد الأمير المغلوب من جنوده، كانوا يدمِّرون ماليته بعبء الغرامات، والإتاوات العالية، بدعوى التعويض عن تكاليف الحرب، مما يضطره إلى مضاعفة الضرائب وبالتالي إثارة حفيظة الرعية ضدَّه[٥]، وهكذا تضرب عصفورين بحجر واحد، تكسب لنفسها وتضعف خصمها.

في الواقع لم تفرض هذه التعويضات إلا على الدول التي حافظت على كيانها القانوني بعد نهاية الحرب، أما الدول الأخرى التابعة؛ فكانت تفرض عليها غرامات سنوية دائمة، حيث لم تتردد روما في فرض غرامة قدرها ٦٠٠ ألف درهم على مجموع الجمهوريات الأربع التي أوجدتها في مقدونيا بعد معركة بيدنا. بينما فرضت على المدن اليونانيَّة في

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريتها، مصدر سابق، ص١١١.

[٢]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٦.

[٣]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص١٧٠.

[٤]- محمد عطيَّة الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٦٣.

[٥]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٧.

جزيرة صقلية بعدما احتلَّت سيراكوزة في سنة ٢١٢ ق.م ضريبة قدرها عشر انتاجها من القمح والنبيذ والبقول. وهكذا كانت روما تفرض على كلِّ إقليم من الأقاليم التي احتلَّتها نوعاً من الضرائب الإتاوات. ولم تتورَّع عن وضع يدها عند احتلالها لإحدى الدول على ممتلكاتها والتي شملت بالإضافة إلى الأملاك العقاريَّة؛ أهمَّ المناجم والمحاجر والأحراج والملاحات، وكثيراً ما صادرت أملاك الجماعات والأفراد الذين تصمِّم على معاقبتهم بسبب موقفهم منها، فأنشأت أملاكاً عامَّة شاسعة متنوِّعة وافرة الدخل، وكانت تنشط في تنظيم إدارتها، حتى أنَّ مناجم الفضَّة في ضاحية قرطاجنة في إسبانيا كان يعمل فيها ٤٠ ألف عامل في أواسط القرن الثاني الميلاديِّ، وكانت ترفد الخزينة الرومانيَّة بربع مليون درهم يوميَّاً، وهكذا عبر الاستعمار الرومانيُّ في القرن الأخير من العصر الجمهوريِّ عن صورته الحقيقيَّة في نهب ثروات الشعوب، وأنَّ الآلة العسكريَّة الرومانيَّة في خدمة التوسُّع الاقتصاديِّ، حيث كان مجلس الشيوخ الرومانيُّ مجبراً على الإصغاء لنداء المصالح، فرؤوس الأموال الرومانيَّة الموظَّفة في أفريقيا أيام يوغورتا، ورؤوس الأموال الرومانيَّة الموظَّفة في الشرق أيام ميترادات، دفعت روما إلى زيادة الاهتمام بهذه المناطق حتى ابتلعتها[١].

أمَّا اتباعهم أو حلفاؤهم فعليهم مهمَّة مضاعفة، فبالإضافة إلى الضرائب الماليَّة السنويَّة المفروضة عليهم، كان من الواجب قيامهم بتنفيذ رغبات روما، فتضخُّم وتوسُّع مملكة برغام لا يعود إلى كرم أو سخاء الرومان ومكافأة حليفهم يومنيس الثاني، الذي لعب دوراً حيويَّاً للغاية في إشعال الحرب بين روما وأنطيوخوس الثالث، وهو الدور نفسه الذى لعبه بين روما وبرسيوس المقدوني، بقدر ما يعود إلى عزوف مجلس الشيوخ عن تحمُّل عبء آسيا الصغرى، حيث اتَّجه تفكيرهم لحكم آسيا الصغرى من خلال أتباع يدينون بالولاء والطاعة لروما، أي حكم آسيا الصغرى لصالح روما من دون أن يتحمَّل الرومان مسؤوليَّة حكمها[٢].

لقد كان هناك عدد من الملوك يدينون للرومان بالجلوس على عروشهم أو بتوسيع مملكته، لا حول لهم ولا طول أمام أوامر روما ورغباتها، منهم ملوك مصر، وبثينا، وكبادوكيا، وبرغام، ومعظم دويلات بلاد اليونان؛ ممن اختاروا عن طيب خاطر أن يتحالفوا معهم،

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريَّتها، مصدر سابق، ص١٦٩- ١٧٠.

[٢]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص١٢٤.

بعدما اعتادوا على الطاعة؛ حتى أصبحوا بالتدريج ذيولاً لهم وأتباعاً. أمَّا غير هؤلاء وهم الحشد الأعظم، فقد أرغموا إرغاماً على التحالف مع الرومان، بعد هزيمتهم؛ فتحالفوا معهم إثباتاً لخضوعهم وتبعيَّتهم، كما حصل لفيليب وأنطيوخوس، فالرومان لم يبرموا صلحاً إلاَّ وكان في صورة تحالف، بمعنى أنَّهم لم يخضعوا شعباً إلاَّ ليجعلوه منه أداة لاستعباد شعوب أخرى[١].

لم يتورَّع الرومان عن أيجاد أسباب جديدة لإعادة إشعال الحرب، ما داموا يتوجَّسون خطراً من قوة خصمهم، حتى وإن كانت هناك معاهدة أو اتفاق، فلم تكن جزيرة ساردينا ضمن المناطق التي كان من الواجب على القرطاجيين الانسحاب منها وفق اتفاقيَّة السلام التي وقَّعها الرومان في أعقاب الحرب البونيَّة الثانية، لكنَّ الرومان، مدفوعين بالاستعمار وبنهب الثروات واقتناص الفرص، استغلُّوا انشغال قرطاجة بثورة الجنود المرتزقة، واحتلُّوا الجزيرة ظلماً وعدواناً.

إلى ذلك، كان هامليكار برقة قد نقل نشاط قرطاجة من جزيرتي ساردينا وصقلية إلى إسبانيا، لكن الرومان تابعوا القرطاجيين إلى شبه الجزيرة الإيبيريَّة، وتدخَّلوا في شؤونها بطريقة استفزَّت وجود القرطاجيين هناك، وأفقدتهم هدوءهم، كما أنَّ روما نجحت في تحريض مستوطنة ماسيليا Massilia (مستوطنة إغريقيَّة أنشأتها مدينة فوكايا عند مصب الرون ، فراحت تتوسَّع تجاريَّاً وتنافس التجَّار القرطاجيين الذين كانوا يحتكرون التجارة في إسبانيا، وهكذا تهيَّأت الظروف للحرب البونيَّة الثانية[٢].

سابعاً: تفكيك القوى المهدِّدة للاحتلال

المشهد ذاته سيتكرَّر في أعقاب الحرب البونيَّة الثانية بهدف تهيئة الظروف للحرب البونيَّة الثالثة، فبعدما أدَّت قرطاجة إلى روما آخر الأقساط السنويَّة الخمسين من الغرامة المفروضة عليها بمقتضى معاهدة زاما وهي ٢٠٠ تالنت في سنة ١٥١ ق.م، ظنَّت أنَّها بهذا الأداء قد تحرَّرت من التزاماتها[٣]، وكان من عادة الرومان أنَّهم إذا ما انتصروا على عدوٍّ له

[١]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٨.

[٢]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص١٠٢.

[٣]- ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، ج١، مج٣، مصدر سابق، ص٢٢٠.

شأن، اشترطوا عليه في حالة نشوب أيِّ نزاع مع حليف لروما أن يحتكم إليها لا إلى السلاح، فأصبح كما لو أنَّه أعزل[١]. وكان بين شروط الصلح مع الرومان ألاَّ تشنَّ قرطاجة حرباً إلاَّ بإذن من روما، ولما كان ميسنسيا هو المعنيَّ بهذا البند فقد اعتقد القرطاجيون أنَّ بوسعهم الآن أن يحاربوه بعدما أساء الجوار، فكانت مناسبة عظمى للرومان ليعلنوا الحرب على قرطاجة، حيث انعقد مجلس الشيوخ لمناقشة الموقف، وتحدَّث كاتو عن الذهب والفضَّة والأموال والأسلحة والمجال الحيويِّ الضخم والغنائم التي يمكن الحصول عليها من النصر على قرطاجة، وبعدما أنهى خطابة رمى ثمرات تين طازجة كان يخبِّئها في عباءته وسط المجلس، وأشار إلى أنَّها جمعت في قرطاجة قبل ثلاثة أيام، ومثل هذه المسافة تفصلنا عن عدوِّنا، وقال: «هكذا يوجد العدو قريباً من أسوارنا». كانت هذه حجَّته الأولى أمَّا الحجَّة الثانية فهي أنَّ إعلان الحرب -من وجهة نظره- ضرورة حتى تستمرَّ روما قويَّة متحفزة لا تميل إلى حياة الرفاهية والعيش الرغيد[٢].

ولما كان من عادة الرومان أنهم لم يشهروا أبدا الحرب على عدو بعيد من دون أن يكون لهم بجواره حليف يكون موطئ قدم لهم[٣]، وقد توفر هذا الشرط عندما وصل نواب مدينة عتيقة Utica ثاني أكبر مدينة بعد قرطاجة العاصمة، وأعلنوا خروج مدينتهم من حلف قرطاجة وانضمامهم إلى الرومان. عندها وجدت قرطاجة نفسها قد تورَّطت في حرب من دون أن تستعدَّ لها أرسلت وفداً على جناح السرعة إلى روما تعتذر عمَّا حدث، وأمرت وفدها أن يجيب الرومان إلى جميع مطالبهم، وكعادة الرومان في التمويه، فقد عبَّروا عن موافقتهم على احتفاظ قرطاجة بحريَّتها وأراضيها وقوانينها وممتلكاتها العامَّة إذا ما سلَّمت قرطاجة للقنصلين الرومانيين في صقلية ثلاثمئة طفل من أبناء الأسر الشريفة فيها، ليكونوا رهائن في روما، وإجابة القنصلين إلى باقي طلباتهم، أيَّاً تكن هذه المطالب. لم يكن بوسع قرطاجة أن تدخل في حرب مفتوحة مع الرومان بعدما خسرت أسطولها، وجنرالاتها، وجيشها، واقتصادها، لذلك لم يكن هناك مجال للتفكير، حتى أنَّ القرطاجيين لم ينتظروا مرور الأيام

[١]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٩.

[٢]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة، مصدر سابق، ص٢٠٣.

[٣]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧٠.

الثلاثين، وقرَّروا تسليم الرهائن فوراً، وصل الرهائن إلى صقلية، ومن هناك أُرسل الأطفال إلى روما، وعبر القنصلان البحر إلى عتيقة على رأس الجيش والأسطول، واستدعيا سفراء قرطاجة، وطلبا أن تسلِّم حكومتهم كلَّ ما بقي لديها من السفن، وكميَّة كبيرة من الحبوب، وجميع الأسلحة والمعدَّات الحربيَّة، فقبل القرطاجيون وانتقلت مئتا ألف قطعة سلاح، وألفا منجنيق إلى الملكيَّة الرومانيَّة فوراً. جاء بعد ذلك المطلب الأكثر وقاحة وهو إخلاء المدينة، وخروج جميع سكانها منها، فقد أراد الرومان تدميرها وإحراقها، وعلى سكانها أن يستوطنوا في الداخل ولكن على بعد خمسة عشر كيلو متر بعيداً عن الساحل، على الأقل، فرؤية البحر يمكن أن تذكِّر القرطاجيين بماضيهم العظيم، والحياة على اليابسة تضمن أمناً أكثر، والسيادة على البحر الآن تعود لروما.

لقد حاول السفراء القرطاجيون عبثاً أن يقنعوا الرومان بأنَّ تدمير مدينة سلَّمت إلى أعدائها رهائن من أهلها وجميع أسلحتها ومن غير قتال، غدر وخيانة لا نظير لهما في التاريخ كلِّه. وكان الرومان يدركون تماماً أن قرطاجة لن تنفِّذ هذا المطلب؛ فقد كانت قادرة على البقاء على البحر فحسب، ويعني الانتقال إلى داخل البلاد قلب تقاليد عمرها مئات من السنيين. يضاف إلى ذلك التخلِّي عن معابد الآلهة وقبور الأجداد والبيوت[١].

وهكذا صار احتلال قرطاجة أمراً لا مفرَّ منه، وصار واضحاً أنَّك تحارب ضدَّ خصم غير شريف. فلست أدري ما معنى أن تهدم مدينة عريقة بذلك المجد الحضاريِّ التليد، وتقضَّ حجارتها حجراً حجراً، ويصبَّ الملح على ترابها، ويلعن كلُّ من يحاول أو يرغب في إعادة بنائها. إنَّ حجم مكتسبات روما من كلِّ حرب بونيَّة يشرح لنا رغبة روما في مسح اسم قرطاجة من الخارطة، حيث اكتسبت روما صقلية في أعقاب الحرب البونيَّة الأولى، وإسبانيا في أعقاب الحرب البونيَّة الثانية، وشمال أفريقيا بعد تدمير قرطاجة في أعقاب الحرب البونيَّة الثالثة. لكنَّ المجازفات في الشرق الهلينيِّ تأخَّرت في إعطاء ثمارها، فقد تدخَّلت روما في اليونان منذ سنة ٢١٢ ق.م، وهزمت فيها الجيش المقدونيَّ شرَّ هزيمة في سنة ١٩٧ ق.م، وقضت عليه نهائيَّاً في سنة ١٦٨ ق.م، ولم تنتعش ولاية مقدونيا الرومانيَّة رغم كلِّ ذلك، إلاَّ في سنة ١٤٨ ق.م. ولا حاجة بنا إلى أن نقدِّم أمثلة كثيرة، بل يكفينا أن نستشهد بمثل مصر

[١]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة، مصدر سابق، ص٢٠٥ - ٢٠٦.

الفريد، فقد بسطت روما حمايتها على مصر البطلميَّة عمليَّاً منذ سنة ١٦٨ ق.م على الأقلِّ، وأخذت تتغلغل في البلاد يوماً بعد يوم كما يتَّضح من تدخُّل الجيوش الرومانيَّة في منازعات البلاد الداخليَّة، ولكن ذلك لم يحُل دون احتفاظ الملكيَّة البطلميَّة باستقلالها النظريِّ[١].

لقد اتَّبع الرُّومان سياسة «فرِّق تسُدْ»، فإذا ثار أمير أو شعب على سلطانه الشرعيِّ منحوا الثائر في الحين لقب حليف الشعب الرومانيِّ، وأضفُوا عليه حصانة تامَّة، فأصبح كلُّ ملك مهما عَلا شأنه، يخشى أن يخرج عليه بعض شعبه، وربما بعض أو أحد أفراد أسرته. ومع أنَّ لقب حليف يعني في الحقيقة الخضوع والانقياد لروما، لم يتردَّد أحد في بذل أقصى جهده للحصول عليه، حتى أرياراط ملك كبادوكيا قد سجد للآلهة شكراً لها على فوزه باللقب. وذلك أنَّ حليف الرومان لا يلحقه ضيم إلاَّ من الرومان، والظنُّ أنَّ ذلك أخفُّ من إهانة غيرهم. وللحصول على ذلك اللَّقب كان كلُّ شعب وكل ملك مستعدَّاً للقيام بأيَّة خدمة يطلبها الرومان مهما كانت مشينة. وحتى يظلَّ كبار الأمراء في حالة وهن وافتقار حرَّموا عليهم التحالف مع من حالف روما، كما حدث مع أنطوخيوس. وبما أنَّهم كانوا يحالفون كلَّ من جاور أميراً قويَّاً، فهذا الشرط وحده، المثبت في عقد الصلح، يترك الأمير يتيماً بلا سند[٢].

ثامناً: استراتيجيَّة الدمج التدريجي (الرَّوْمَنة)

لقد كان من سياسة الرومان الاستعماريَّة أنَّهم كانوا يمهلون الناس حتى يتعوَّدوا على الانقياد، بصفتهم حلفاء أحرار، قبل أن يعاملوهم كأتباع مآلهم الإدماج التدريجيِّ في الجمهوريَّة[٣]، لقد حالف الرومان اللاَّتين على أساس قدم المساواة سنة ٤٩٣ ق.م، إلاَّ أنَّهم استأثروا بمكتسبات هذا التحالف لأنفسهم، وجعلوا من اللاَّتين درعاً بشريَّاً لحمايتها من الشعوب البربريَّة مثل الأيكوي Aequi والفولسكي Volsci في جبال الأبنين[٤]. وعندما ضمَّت روما أراضي الفولسكي احتفظت لنفسها بأفضل الأماكن فيها حيث التربة الخصبة

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريَّتها، مصدر سابق، ص١٠٥.

[٢]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٧ - ٦٨

[٣]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧٥

[٤]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص٣١.

والموقع الاستراتيجيِّ، ومن ناحية أخرى أخذت تتَّجه للسيطرة التامَّة على علاقات العصبة مع جيرانها، فتحالفت مع السمنيين الذين كانوا يقطنون إلى الشرق من إقليم اللاَّتيوم، بحجَّة أنَّ التحالف موجَّه ضدَّ الغال، وفي سنة ٣٤٨ ق.م تفاوضت باسم العصبة مع قرطاجة، ووقَّعت معها معاهدة تعهَّدت فيها الأخيرة ألاَّ تتعرَّض للمدن اللاَّتينية ما دامت على ولائها لروما. لكن منذ أن بدأ اللاَّتين بالمطالبة بحقوقهم التي تنصُّ عليها بنود التحالف، ومن هذه الحقوق حقُّ انتخاب الموظَّفين الرومان، وحقُّ الترشُّح للوظائف الرومانيَّة، رفضت روما مطالب حلفائها الذي بلغ تذمُّرهم غايته سنة ٣٤٠ ق.م، حيث اندلعت ثورة عارمة ضدَّ روما، فقمعتها بالحديد والنار سنة ٣٣٨ ق.م في معركة جبل فيزوف Vesuvius، وألزمت مدن العصبة -كلُّ مدينة على انفراد- بقبول شروطها، وحرمت المدن اللاَّتينيَّة ممَّا كانت تتمتَّع به من حقوق خاصَّة؛ حقُّ التعامل، وحقُّ الزواج[١].

لم يختلف الموقف كثيراً مع الإيطاليين عنه مع اللاَّتين، فقد تعامل الرومان بمنتهى الأنانيَّة مع حلفائهم الإيطاليين، رفضوا مطالب اقترح جايوس جراكوس Gaius Gracchus بمنح حقِّ الجنسيَّة وحقِّ المواطنة الرومانيَّة لهم، حيث لم يصوِّت عليه العوامُّ بالموافقة، بل تآمر العوامُّ مع مجلس الشيوخ في هذا الأمر ووقفوا في وجه هذا المشروع، الذي سيسفر عن قيام حرب الحلفاء؛ والتي استمرت عشر سنوات حيث انتهت سنة ٨٨ ق.م، راح ضحيَّتها آلاف القتلى والجرحى من الطرفين، ولم تنته إلاَّ بمنحهم ذلك الحقَّ المصادر[٢].

هذا ما حدث في شبه الجزيرة الإيطاليَّة، أمَّا في خارجها لم يكن للممالك رأي أو سيادة أمام إرهاب الدولة الرومانيَّة، لقد اكتفى الرومان بأن أوفدوا فلامينوس Q. Flamininus إلى بروسياس سنة ١٨٣ ق.م، للاحتجاج على منحه الأمان لهانيبال وطالبوا بتسليمه، حتى أذعن بروسياس لإرادة الرومان وهمَّ بالغدر بضيفه وتسليمه لهم[٣]. وهكذا لم يهدف الرومان إلى تتبُّع الشعوب التي خضعت لنظامهم وتنظيماتهم، لقد كان القاسم المشترك الوحيد بين هذه

[١]- محمد عطيَّة الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٤٩، وص٦٣.

[٢]- عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة بين بومبي وقيصر وانعكاساتها على مملكة نوميديا، رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، الجزائر، جامعة الجزائر الثانية ٢٠١٤م، ص٢١.

[٣]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة، مصدر سابق، ص١٩٣.

الشعوب هو الخضوع لروما، كان السكان روماناً من دون أن يكونوا مواطنين[١].

نلفت في هذا السياق إلى أنَّ روما استمرَّت في إقامة وتوطيد علاقاتها مع الملوك التابعين لها طوال تاريخها، وهناك العديد من هذه الممالك تحوَّل إلى ولايات تابعة لروما، وذلك في عدد من الحالات، مثل شعورها بالحاجة إلى السيطرة على حالة عدم التوازن أو القلق داخل المملكة التابعة، كما في حالة فشل الملك التابع في ضبط الأمور أو اختيار وليِّ العهد، أو وجود مشكلات تخصُّ ولاية العهد، أو عند نهاية الأسرة، أو تغيُّر الظروف الداخليَّة، أو عندما يفقد الملك التابع دوره وينتهي الهدف الذي كان يخدم روما من أجله[٢]. أحياناً كانوا يتقلَّدون السلطة نتيجة إرث لهذا الملك أو ذلك الأمير التابع، حيث آلت ملكيَّة آسيا لهم بوصيَّة من أتالوس، وبثينا بوصيَّة من نيكوماد (٩١- ٧٤ ق.م)، وليبيا من ملكها بطليموس أبيون (١١٦- ٩٦ ق.م)، كما استولوا على مصر بوصيَّة من أمير قورينة[٣]. وكانت الممالك التابعة عادة ما تقع على حدود السيطرة الرومانيَّة، أو في منطقة يجد الرومان فيها صعوبات أو معوقات لإدارتها بشكل مباشر. وقد كانت هذه الممالك التابعة عبارة عن احتياطيٍّ مهمٍّ للغاية من الرجال، والموارد، والمعلومات؛ عن تحرُّكات الممالك المجاورة المضادَّة للرُّومان، أو ممَّن تتوجَّس منهم روما الخوف، أي أنَّها كانت بمثابة عيون لهم تنقل كلَّ شيء لهم، وتلبِّي كلَّ طلباتهم وقتما شاؤوا[٤].

ولكي يستأثر الرومان بالقوَّة، حظَّروا اللُّجوء إليها حتى على حلفائهم، بمجرَّد أن ينشب نزاع في أيِّ مكان، تسارع روما وترسل مبعوثاً عنها يرغم الخصمين على المصالحة، ويكفي أن نذكر كيف انتهت حروب أتالوس وبروسياس، ملك بثينا الذي توفيٍّ سنة ١٥٤ ق.م[٥].

وكلَّما طرأ نزاع في دولة ما سارع الرومان وأعلنوا موقفهم على الفور، وهكذا يغضب عليهم أحد الفريقين فقط؛ من قضوا ضدَّه[٦]، فعندما تورَّط الحلف الآخيُّ في سنة ١٤٦ ق.م

[١]- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧٦

[٢]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص١٠٧.

[٣]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٨.

[٤]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص١٠٧.

[٥]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٩.

[٦]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧١.

بخلاف مع إسبارطة، ناشدت هذه الأخيرة روما، فتدخل الرومان من أجل تسوية الوضع، غير أنَّهم لم يكونوا صادقين في تهدئة الأمور ببلاد اليونان، بل عمدوا إلى إثارة الأمور أكثر، فغضب الحلف لتدخُّلهم، ولم يستجب للحلول والمقترحات التي وضعتها روما. وتهوَّر الحلف الآخيُ، ووقف ليقاوم جيشاً رومانيَّاً بقيادة لوكيوس موميوس Lucius Mummius، فترتَّبت على ذلك نتائج خطيرة إذ انهزمت في الحال قوَّاته العسكريَّة، ودمِّرت مدينة كورنثه عن آخرها، وهي زعيمة هذا الحلف، وقتل معظم رجالها، أمَّا النساء والأطفال فقد تمَّ بيعهم في الأسواق كعبيد، كما نهبت كنوزها. وينمُّ هذا الإجراء عن وحشيَّة متعمَّدة هزَّت مشاعر العالم اليونانيِّ، وخضعت معظم المدن اليونانيَّة لنفوذ حاكم مقدونيا الرومانيِّ، وتمَّ إعادة تنظيمها سنة ١٢٧ ق.م باسم مقاطعة أخائيا، عدا المدن التي كانت تربطها بروما معاهدات منفردة، لكن من دون أن يكون لها أيُّ أهميَّة سياسيَّة[١]. أمَّا إذا تنافس على العرش أميران من البيت الحاكم نفسه اعترفوا بحقِّ الاثنين، إن كان أحدهما دون البلوغ انتصروا له وانتصبوا أوصياء عليه بصفتهم حماة الأرض كلها، تماماً كما فعلوا في سورية، فلكي يهدموها ويستولوا عليها انتصروا في سنة ١٦٤ ق.م للطفل ابن أنطيوخس الرابع ضدَّ دمتريوس (ابن سلوقس الرابع) الذي كان رهينة عندهم، فوجهة نظر الرومان أنَّ طفلاً على العرش السوريِّ وبلاط متفسِّخ يحكمه وصيٌّ مثل لوسياس، لهو أفضل من ملك شاب حتى ولو كان صديقاً لروما، رغم أنَّه ظلَّ يطالبهم بإنصافه صارخاً أنَّ روما هي أمه والشيوخ آباؤه. لقد ترسَّخ هذا الادِّعاء في عقول الناس، إلى حدٍّ أنَّ سائر الشعوب والملوك أصبحوا رعايا روما من دون أن يعرفوا بأيِّ موجب، كما لو كان يكفي المرء أن يسمع بها ليُدين لها بالولاء[٢].

تاسعاً: روما وبلاد فارس

لم يكفر بهذا القاعدة، وهذا الولاء أحد سوى الفرس، ومثراداتيس Mithradates السادس ملك بونتوس Pontus الذي خلف والده مثراداتيس الخامس على العرش. كان الوالد على علاقات مقبولة مع روما، واكتفى ببسط نفوذه على جيرانه من المدن الصغيرة. بينما ضاق الإبن ذرعاً بالرومان وتدخُّلاتهم في بلاده، وكان أشدَّ طموحاً من والده، فأعلن

[١]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني، مصدر سابق، ص١٥٨- ١٥٩.

[٢]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧١.

الحرب على روما، مستغلاًّ فرصة انشغال روما بحرب الحلفاء، وهاجم آسيا في سنة ٨٨ ق.م، واصطدم بنيكوميديس حاكم بثينيا، واجتاح مقاطعة آسيا (مملكة برغام سابقاً)، ودمَّر القوَّات الرومانيَّة، وحرَّض أهالي المنطقة على التجَّار الرومان؛ فقاموا بقتل ما يقارب الألف مواطن رومانيٍّ في يوم واحد، وصودرت أملاكهم لصالح الخزانة، وهكذا ضمَّ مثراداتيس أجزاء واسعة من الساحل الشماليِّ للبحر الأسود والتي كانت تتمتَّع بمقدار واسع من الثراء، وبذلك أصبح يسيطر على مملكة قويَّة في الشرق بعد تدهور سورية. وهو لم يكتفِ بآسيا الصغرى بل حرَّض بلاد اليونان على التحرُّر من الاستغلال الرومانيِّ، والثورة التي سرعان ما امتدَّت حتى شملت العاصمة أثينا، وأخذ أسطوله يجوب بحر إيجه من دون أيِّ عائق[١].

بيد أنَّه عندما هاجم سولا مثراداتيس تمكَّن من طرده من بلاد اليونان وتتبَّعه في آسيا، وأجبره على أن يتخلَّى عن جميع الأقاليم التي كسبها، كما أجبره على دفع غرامة حربيَّة كبيرة لروما كتعويض عن جهدها الحربيِّ، وأجبره كذلك على عقد سلام معها، ورضي بأن تعود العلاقات إلى سابق عهدها. في الواقع، كان بوسع سولا أن يقضي عليه نهائيَّاً لولا أن وصلته الأخبار عن تأزُّم الوضع الداخليِّ في روما، فترك إقليم البونت له وقرَّر العودة إليها، وتناسى دماء الألف مواطن رومانيٍّ الذين ذُبِحوا في يوم واحد[٢].

لقد أجَّل الرومان صدامهم مع مثراداتيس السادس إلى حين، بحكم أنَّهم كانوا منشغلين بحربهم الأهليَّة، مثلما أجَّلوا من قبل صدامهم مع فيليب الخامس بحكم أنَّهم كانوا منشغلين بحرب هانيبال، وما إن استقرَّت الأمور حتى أبحر بومبي لحرب هذا الملك الطموح، وعمل منذ اللَّحظة الأولى على الوصول إلى نتيجة حاسمة عن طريق سياسة «فرِّق تسُدْ»؛ فتحالف مع ملك فرثية، ودخل في مفاوضات مع مثراداتيس السادس لشلِّ حركته وإيقاف نشاطه، لكنَّ هذه المفاوضات وصلت إلى طريق مسدود بعدما قدَّم بومبي شروطاً مجحفة، فدارت رحى القتال سنة ٦٦ ق.م، وانتصر بومبي، واضطرَّ مثراداتيس إلى الفرار نحو أرمينيا؛ ثمَّ ما لبث أن هرب إلى المدن الإغريقيَّة في القرم، بينما التقى بومبي بملك أرمينيا (تيجرانس) الذي استسلم له من دون قيد أو شرط؛ فأبقاه بومبي على عرشه كحليف لروما.

---

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٧.

[٢]- المصدر نفسه، ص١٨٩.

وفي ربيع ٦٤ ق.م وضع بومبي تسوية مؤقَّتة لأوضاع آسيا الصغرى، واستقبل في بونتس وفداً من مثراداتيس الذي كان قد استردَّ أملاكه الشماليَّة حول البحر الأسود، وطلب الوفد استرداد بونتس مقابل الاعتراف بالسيادة الرومانيَّة، لكن هذه المفاوضات فشلت، فطلب بومبي من أسطوله تشديد الحصار على مثراداتيس، بينما أقلع هو نحو سورية وعرشها المترنِّح؛ حيث قرَّر ضمَّها نهائيَّاً إلى أملاك روما، أمَّا مثراداتيس فقد لقي حتفه على يد جنوده الذين ثاروا عليه بقيادة ابنه نارناكيس وقتلوه في سنة ٦٣ ق.م، وهكذا انتهت متاعب الدولة الرومانيَّة مع هذا الملك الطموح[١].

في المقابل، أذاق الفرس روما هزيمة قاسية، ومرَّغوا أنفها في التراب، ولم يسمحوا لها بأن تتوسَّع أبعد من نهر الفرات، وهي لم تتوقَّف راضية عند هذا الحدِّ، فذكرى مجد الإسكندر المزعوم ظلَّت تُراود مخيَّلة معظم ضباط جيشها وقادته، وروما لا تجهل خصب بلاد الرافدين ووفرة تجارتها، حيث تنتهي إليها معظم طرق تجارة الشرق الأقصى، أضف إلى ذلك أنَّ تجربتها قد أتاحت لها تقدير الخطر الذي تمثِّله فارس على ممتلكاتها في سورية.

لقد قامت روما بمحاولات عدَّة لاستعادة إرث الدولة السلوقيَّة منذ عهد باكر، فكان بومبي بصيراً، واكتفى بالمساومات، بينما كان **كراسوس** (أحد أعضاء الحكومة الثلاثيَّة الأولى) مغامراً قاد أربعاً من الفرق العسكريَّة إلى المجزرة[٢]. فبعدما أعلن الحرب على الفرس من سورية، كان يطمح إلى تحقيق انتصارات عسكريَّة لا تقلُّ شأناً عن انتصارات زميليه (بومبي وقيصر)، وهكذا أشعل الحرب على الفرثيين بحجَّة أنَّ فارس تهدِّد الولايات الرومانيَّة المتاخمة لها في الشرق، وخاض معهم معركة كراهاي Crahae (قرب الرها في شمال سورية) سنة ٥٣ ق.م، وجرَّ على نفسه قتالاً كان هو بغنى عنه، ولمَّا أحسَّ بقوَّة الأعداء انسحب من أرض المعركة بانتظام، إلاَّ أنَّ قائد الفرثيين دعاه إلى الاجتماع فلمَّا اجتمع به قتله، ثم قطع رأسه، وأرسله إلى بلاط ملكه، وظلَّ الجيش بلا قيادة فانحلَّت عُراه وتشتَّت شمله[٣].

[١]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، المرحلة الثالثة، الصراع بين بومبي وقيصر حتى الحرب الأهليَّة ٧٩- ٥٠ ق.م، مجلَّة «عالم الفكر»، مج ١٢، العدد ٣، الكويت، ص١٠١، ١٠٢.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريتها، مصدر سابق، ص١٠٤.

[٣]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، مجلَّة «المعرفة» الصادرة عن وزارة الثقافة، العدد ٦٧١، دمشق ٢٠١٩م، ص١٦٩.

تجدر الإشارة إلى أنَّ معركة كرهاي كانت من الهزائم الكبرى التي مُنِي بها الرومان، إلاَّ أنَّها لم تحدث دويّاً كبيراً أو ذعراً شديداً في روما، ولعلَّ ذلك يرجع إلى أنَّ الحملة على فارس كانت مغامرة شخصيَّة فلم يرَ الرومان في إخفاقها خطراً مباشراً يهدِّد كيانهم، وقد بلغ من تفاقم الفوضى وتراخي الحكومة الرومانيَّة وقتئذٍ أنَّها لم ترسل الإمدادات إلى الشرق على وجه السرعة، وهكذا أصيبت هيبة روما هناك بضربة قاسمة، وهذا ما جعل ولاياتها تحت رحمة الفرس طوال القرون الثلاثة التالية[١].

عاشراً: من ليس معنا فهو ضدُّنا، وفي التفرقة السيادة

لقد كان من حقِّ روما أن تكبر وتتوسَّع في العالم القديم، أمَّ الآخرون فهم إمَّا أتباع أو أعداء، على قاعدة «من ليس معنا فهو ضدنا». فقد سخَّر الرومان يومنس ومسينيسا لقهر فيليب وأنطيوخس، تماماً كما استخدموا اللاَّتين والهرتك لقمع الفولسكيين والتوسكان، وتسلَّموا سفن قرطاجة وملوك آسيا تماماً كما أخذوا أجفان انتيوم (مدينة شاطئيَّة جنوب روما تسمَّى اليوم انزيو). كذلك فسخوا الروابط المدنيَّة والسياسيَّة التي كانت تجمع بين أجزاء مقدونيا الأربعة، تماماً كما حطَّموا من قبل اتِّحاد المدن الإيطاليَّة الصغيرة.

وطبَّق الرومان في سياستهم مبدأ «فرِّقْ تسُدْ»، فقد كانت جمهوريَّة أخيا عبارة عن اتِّحاد مبرم بين مدن حرَّة فقرَّر شيوخ روما أنَّ كلَّ مدينة تستقلُّ مستقبلاً بشؤونها من دون اعتبار لأيَّة سلطة جماعيَّة. وكانت جمهوريَّة بيوتيا أيضاً عبارة عن جامعة بين مدن عديدة، لكن أثناء الحرب ضدَّ بيرسيوس انحاز بعض هذه المدن إلى جانبه، فيما ساندت الأخرى الرومان. وبعد انتهاء الحرب صفحت روما عن المذنبين شرط أن يُحلَّ الاتِّحاد. كانوا أحياناً يستغلُّون التباس بعض الألفاظ في لغتهم لخداع الخصوم. فهم تصالحوا مع قرطاجة على أن تبقى قائمة، ثمَّ خرَّبوها بالكامل متذرِّعين بأنَّهم تعهَّدوا بالحفاظ عليها كهيئة ونظام لا كمجمع سكنيٍّ. ومعلوم ما جرى للأيتوليين في هذا الباب إذ استسلموا للرومان عن أمان، فغدر بهم هؤلاء بدعوى أنَّ العبارة (عن أمان) تعني في اللُّغة اللاَّتينيَّة التنازل عن كلِّ شيء، عن الأرواح والأرض والمدن والمعابد وحتى المقابر. بل ذهبوا إلى تأويل العهود بحسب هواهم، فعندما

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربيَّة، بيروت ١٩٨٨م، ص٢١٦- ٢١٧.

أرادوا إذلال سكان جزيرة رودس قالوا إنَّهم وهبوهم منطقة ليقيا لا كهديَّة بل كإمارة صديقة وحليفة[١].

إلى ذلك، لم ينقطع الرومان عن توزيع المكافآت على الأتباع وضرب الخصوم بعضهم ببعض، وإثارة الفتن بينهم. ففي سنة ٣٤ ق.م قام أنطونيوس بإطلاق لقب ملكة الملوك على كليوبترا، وتنازل لها عن كامل جوف سورية؛ بما في ذلك فينيقية وبلاد الأنباط. وهذا ما أثار غضب مالك الأول (٥٩ - ٣٠ ق.م) الذي أعلن صراحة أنَّه لن يدفع الجزية لكليوبترا، فأوعز أنطونيوس إلى هيرودوس اليهوديِّ تابعه في فلسطين، بشنِّ حرب على الأنباط، فأُجبر مالك في نهايتها على دفع الجزية للرومان[٢].

لقد تمَّ الانتقام وفقاً لكيفيَّات مختلفة، كان أبسطها الغنيمة التي يعود بها القادة ويدفعونها إلى الخزانة العامَّة، بعد عرض موكب النصر، الذي يستغرق وقتاً طويلاً[٣]. وكانت شهرة كلِّ قائد عسكريٍّ بمقدار ما يعرض من ذهب وفضَّة أثناء هذا الموكب الذي يُقام على شرفه بعد عودته من ساحة القتال. لذا كان يحرص على سلب عدوِّه الصريع كلَّ ما يمتلك. من هنا، بدأت ثروة روما تنمو باستمرار إذ إنَّ كلَّ حرب لا تنتهي إلاَّ وتمدُّها بما تجهِّز به حرباً جديدة[٤]. ونلفت هنا إلى أنَّ مواكب النصر التي تلت الحملات الآسيويَّة على الملك السلوقي والغلاطيين والحملات الإسبانيَّة وعلى إيطالية الشماليَّة، درَّت عليها أموالاً طائلة، فالحملات التي شنَّتها بين سنة ١٩٤- ١٦٦ ق.م على بلاد اليونان عادت عليها بذهب مسكوك، أو فضَّة مسكوكة، أو ذهب وفضة قابلين للسكِّ فوراً بقيمة تناهز السبعين مليون درهم. أمَّا الغنيمة التي غنمها القائد الرومانيُّ بولس إميليانوس الذي قضى في بيدنا قيمته تناهز الـ ٥٢ مليون درهم. وإذا أضيفت إلى الغنيمة التعويضات المفروضة على المغلوب لاستيفاء نفقات الحرب التي تحمَّلها المنتصر، وكانت هذه التعويضات تشمل عادة مبلغاً يُدفع حين يعقد الصلح من الممكن أن يحتلَّ مركزه في الغنيمة الظافرة، وعدداً مختلفاً من

[١]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧٠- ٧١.

[٢]- عبد الله السليمان، سورية في عهد الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ص١٧٠.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريتها، مصدر سابق، ص١٦٩.

[٤]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧٣.

الأقساط السنويَّة، ونذكر على سبيل المثال: ١٢٠٠ مليون ومائتي ألف درهم دفعتها قرطاجة كلَّ سنة طيلة خمسين سنة بعد معركة زاما، و٦ ملايين درهم دفعتها المملكة السلوقيَّة سنويَّاً طيلة اثنتي عشرة سنة بعد سنة ١٨٨ ق.م[١].

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ هذه الأعراف التي كيَّفت سلوك الرومان لم تنشأ صدفة من حوادث عابرة، بل هي ثوابت في تصرُّفاتهم. فالمبادئ والقواعد التي استندوا إليها عند مواجهة أكبر الممالك هي ذاتها التي استظهروا بها في بداية أمرهم، وكانوا ينافسون بها المدن الصغيرة المحيطة بهم. والأسوأ من كلِّ ما تقدَّم أنَّهم لم يراعوا عهودهم ومواثيقهم؛ فإذا صالح أحد قادة جيشهم العدو إنقاذاً لجيشه من هلاك محقَّق، كان مجلس الشيوخ يرفض المصادقة على ما أُبرِم، ويستفيد من فترة السلم لاستئناف الحرب. فعندما حاصر الزعيم النوميدي يوغورتا Iugurtha جيشاً رومانيَّاً ثمَّ أخلى سبيله بشروط مثبتة في وثيقة، حاربته روما بأولئك الجنود الذين لولا عفوه عنهم لهلكوا عن آخرهم. ولمَّا أرغم سكان نومانثيا عشرين ألف مقاتل على التماس الصلح بعدما كادوا يموتون جوعاً، نقض هذا المجلس الصلح الذي أنقذ هذا القدر الهائل من الرومان، وتستَّروا على خيانتهم بعزل القنصل الذي وقَّع المعاهدة.

وفي بعض الحالات كان الرومان يفاوضون العدوَّ على أساس شروط معتدلة، ثم بعد استيفائها يشفعونها بشروط أخرى مجحفة تجبر العدو على استئناف القتال، وكما ذكرنا فعلوا ذلك مع يوغورتا إذ طلبوا منه أوَّلاً أن يسلِّم لهم الفيلة والخيل والزينة، ومن لجأ إليه من رومان وحلفائهم، وبعدما أوفى بذلك كلِّه طلبوا منه أن يسلِّم نفسه وهذا قمة العار بالنسبة إلى أمير، ولا يعتبر أبداً شرط مصالحة. والغريب في الأمر أنَّ الأموال التي أنفقت للحفاظ على ودِّ روما، وتعزيزاً لأواصر الصداقة معها، كانت طائلة حتى أنَّ الشعوب الصديقة والحليفة كانت دائماً على حافَّة الإفلاس بسبب ما تقدِّمه لها من هدايا فاخرة. ومع أنَّ نصف الأموال المبذولة لكسب رضاها كان يكفي لكسر جبروتها، لم يجرؤ أحد على تحدِّيها، ألَلَّهم باستثناء الفرس.

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، روما وأمبراطوريتها، مصدر سابق، ص١٦٩.

من هنا يمكن القول أنَّ ما خدم روما أكثر من أيِّ شيء آخر هو الرُّعب والإرهاب الذي زرعوه في قلوب البشر، فلم يتورَّعوا عن قتل ستة آلاف إنسان (عبد) وقعوا في أسرهم في أعقاب ثورة سبارتاكوس Spartacus، حيث صلبوهم وعلَّقوا جثثهم على طول طريق أبيان Appian الواصل بين روما وكابو، وتركت للتعفُّن، وكان الهدف من هذا العمل هو تحذير سافر لباقي العبيد الموجودين في مدينة كابو من أنَّ «هذا هو مصيركم في حال تمرَّدتم».

ويجدر القول أنَّ هذا الإرهاب الذي أشاعه الرومان في العالم، أفحم سكان إيطاليا قبل أن يفحم ويرعب ملوك العالم، ليجعل منهم أغبياء عاجزين عن التمييز، أكبر همِّهم لم يعد مجال سلطانهم بل مآل شخصهم. فقد أيقنوا أنَّ إشهار الحرب على روما مخاطرة قد تنتهي بالسجن أو الموت أو مهانة العِرض مكبَّلاً في موكب النصر. لذا، كان الملوك المعتادون على حياة رغيدة ناعمة، وبذخ وترف، يتحاشون حتى التحديق في عيون الرومان بفعل حالة الضعف والانكسار، فيصبر المرء منهم على كلِّ مذلَّة، ويرتكب كلَّ دنيئة، كسباً لمهلة ولو قصيرة تؤجِّل الأهوال التي تتهدَّده[١].

[١]- مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٧٢- ٧٣- ٧٤.

خلاصة المبحث الثالث

نخلص من هذا المبحث إلى نتائج عدَّة يمكن تفصيلها على الشكل التالي:

أوَّلاً: شكَّلت حركة الاستعمار الرومانيِّ والأساليب التي انتهجتها في إذلال الشعوب، وقهرها، وظلمها، وقتلها، ونهبها، وسلبها، واستغلالها، واغتصاب حقوقها، وهتك حرماتها، وإرهابها، واستعبادها، من أبشع أشكال الاستعمار على مرِّ التاريخ، وأقبحها ممارسة.

ثانياً: كان أعضاء مجلس الشيوخ أو الدائرة الضيِّقة المسيطرة عليه هم من يرسمون السياسة الخارجيَّة العدوانيَّة الاستعماريَّة الرومانيَّة، لتحقيق جملة من الأهداف الداخليَّة والخارجيَّة.

ثالثاً: كانت حروب الرومان تُشنُّ تحت حجَّة واهية وهي الدفاع عن النفس، في حين أنَّها كانت في الواقع سلسلة متَّصلة من الحروب العدوانيَّة على الآخرين.

رابعاً: شكَّلت عوامل ومكتسبات الاستعمار الرومانيِّ دافعاً قويَّاً للمضيِّ في هذا الطغيان والاستمرار في العدوان.

خامساً: صنَّفت روما العالم في فئتين: فئة تابعة ذليلة لا حَول لها ولا طَول أمام جبروت آلتها العسكريَّة، وفئة مارقة لم تذعن لها، لذا لا بدَّ من إخضاعها بالحديد والنار.

سادساً: لم تكن روما طوال تاريخها خصماً شريفاً، بل اتَّبعت أدنى وأرخص الأساليب في إثارة الفتن، وضرب الآخرين بعضهم ببعض، والغدر بهم، والاستفراد بالخصوم واحداً تلو الآخر، وإثارة الشكوك في ما بينهم، واللَّعب بالمصطلحات كي تتناسب مع مصالحها.

سابعاً: لم تسمح روما لأحد بأن ينأى بنفسه، فإمَّا أن يدخل في خدمتها وتُفرض عليه الإتاوات، وإمَّا أن تجابهه فتجتاح بلاده وتستعبد شعبه.

ثامناً: تمثِّل حروب الجمهوريَّة الرومانيَّة وحركة الاستعمار الرومانيِّ النموذج الأمثل لإرهاب الدولة المنظَّم.

لائحة المصادر والمراجع

العربية:

١. ابتهال الطائي، تاريخ الإغريق منذ فجر بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، دار الفكر، عمان ٢٠١٤م.

٢. إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، منشورات الجامعة الليبيَّة كليَّة الآداب، طرابلس ١٩٧٣م.

٣. أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، سلسلة أقرأ ١٦٩، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤. أحمد عتمان، الأدب اللاَّتيني ودوره الحضاريُّ، مجلَّة «عالم المعرفة» الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٤١، الكويت ١٩٨٩م.

٥. أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مجلَّة «عالم الفكر»، مج ١٦، عدد ٢، الكويت ١٩٨٥م.

٦. أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى في بلاد الرومان دراسة تاريخيَّة، رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بغداد ٢٠١٥م.

٧. أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيَّة، دمشق ١٩٩٧م.

٨. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وأمبراطوريَّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م.

٩. بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م.

١٠. بيتي راديس، فتح بلاد الغال يوليوس قيصر، ط٢، ترجمة؛ علي زيتون، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠٧.

١١. حسن بلعيد، حنبعل والحرب البونيَّة الثانية (٢١٨- ٢٠١ ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر ٢٠١٣م.

١٢. الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر رجل كل العصور، حياة أسطوريَّة ونهاية مأساويَّة، دار الكتاب العربي، دمشق -القاهرة ٢٠١٢م.

١٣. رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني بين الدفاع والهجوم والتوسُّع والاستعمار حتى نهاية العصر الجمهوريِّ، مطبعة دار الروضة، القاهرة ٢٠١٠م.

١٤. سالي-آن أشتون، كليوبترا ملكة مصر، ترجمة زينب عاطف، مؤسسة هنداوي، المملكة المتَّحدة ٢٠١٧م.

١٥. عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربيَّة، بيروت ١٩٨٨م.

١٦. عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة للنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م.

١٧. عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة من التأسيس حتى السقوط سنة ١٤٦ ق.م، منشورات الهيئة العامَّة السوريَّة للكتاب، دمشق ٢٠١٥م.

١٨. عبد الله السليمان، سورية في عهد الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، مجلَّة المعرفة، عدد ٦٧١، سنة ٥٨، دمشق ٢٠١٩م.

١٩. علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة خلال العهد الجمهوري (١٣٣- ٢٧ ق.م)، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بنغازي، ليبيا ٢٠١٢م

٢٠. عمر بوصبيع، الحرب الأهليَّة بين بومبي وقيصر وانعكاساتها على مملكة نوميديا، رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، الجزائر، جامعة الجزائر الثانية ٢٠١٤م.

٢١. فرجيل، الإنياذة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٥م.

٢٢. فوزي رشيد، سرجون الأكادي؛ أول أمبراطور في العالم، الموسوعة الذهبيَّة، ط١، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٩٠م.

٢٣. فينفريد إلليغر، قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ترجمة عبيد مرعي، دمشق ٢٠٠٨م.

٢٤. محمد الزين، محمد محفل، دراسات في تاريخ الرومان، ج٢، ط٨، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

٢٥. محمد السيد محمد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، ج١، منذ نشأة روما حتى عام ١٣٣ ق.م، المكتب الجامعي الحديث، جامعة الإسكندريَّة ٢٠٠٦م.

٢٦. محمد بيومي مهران، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة ١٩٩٩م.

٢٧. محمد عطيَّة الدرسي، أسباب سقوط النظام الجمهوريِّ وقيام النظام الأمبراطوريِّ في روما (السياسيَّة، الاقتصاديَّة، الاجتماعيَّة)، رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بنغازي ٢٠١٧م.

٢٨. محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، المرحلة الثالثة، الصراع بين بومبي وقيصر حتى الحرب الأهليَّة ٧٩- ٥٠ ق.م، مجلَّة «عالم الفكر»، مج ١٢، العدد ٣، الكويت، د.ت.

٢٩. محمد محفل، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسة تاريخ الرومان ١، دار غندور، بيروت ١٩٧٤م.

٣٠. مراد محمد إسماعيل، عصر أنطيوخس الرابع (١٧٥- ١٦٣ ق.م)، دراسة سياسيَّة حضاريَّة، أطروحة معدَّة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ القديم، جامعة دمشق ٢٠١٥م.

٣١. مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت د.ت.

٣٢. مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، دراسة في التاريخ السياسيِّ والحضاريِّ الباكر والكلاسيكيِّ، ج٢، ط٤، منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٢م.

٣٣. مونتسكيو، تأمُّلات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م.

٣٤. نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م.

٣٥. نور قطرميز، المرأة الرومانيَّة في العصر الأمبراطوريِّ من ٣١ ق.م إلى ٣٣٠م، رسالة معدَّة لنيل درجة الماجستير في تاريخ الشرق القديم، جامعة دمشق، دمشق ٢٠١٤م.

٣٦. هشام الصفدي، تاريخ الرومان، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٧م.

٣٧. ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، بيروت، ١٩٨٨م.

الأجنبية:

1. Hannah Szapary., Playing Offense: A Deeper Look into the Motivations and Significance of Sulla's March on Rome., Brown University., Classics and Applied Math – Biology., Class of 2019.
2. Kathleen D Toohey., On the Rise of Gaius Marius., ResearchGate 24 March 2016.
3. Kennedy, J., Women's Rights in Ancient Rome: From Republic to Empire.
4. MacLachlan, B., Women in Ancient Rome., Bloomsbury Academic., London - New York., 2013.
5. Zager, I., The political role of women of the Roman elite, With Particular Attention to the Autonomy and Influence of the JULIO-CLAUDIAN woman (44 BCE to CE 68)., submitted in accordance with the requirements for the degree of Master of arts in the subject Classical Studies at the University of South Africa, June 2014.

الدستور الروماني

(دراسة نقديَّة للقواعد والمؤسَّسات الدستوريَّة في الجمهوريَّة الرومانيَّة)

عمار محمد النهار[١]

مقدّمة

يُعدُّ الدستور الوثيقة الأهمَّ في الدولة لأنَّه يعمل على تنظيم عمل مؤسَّساتها، وحفظ حقوق الناس، وتحديد شروط المواطنة، وتعيين وكلاء (المسؤولين) للسَّهر على مصالح الناس وإدارة البلاد، وإعادة توزيع الثروات، لذلك تحرص معظم كلِّيَّات الحقوق في مختلف الجامعات على تدريس القانون الدستوريِّ، كما أنَّ كثيراً من الأبحاث القانونيَّة تناقش مبدأ فصل السلطات وطرق الانتخاب، واستقلاليَّة السلطة القضائيَّة، وجميع النُّظم السياسيَّة الحديثة تُعنى بهذه المعايير، ونحن سنعالج الدستور الرومانيَّ من هذا الباب.

إن نظره عامَّة إلى هذا الدستور توحي بأنَّه دستور مثاليٌّ يرقى إلى مرتبة الدساتير الحديثة، ولاسيَّما من خلال مبدأ فصل السلطات، واعتماد مبدأ الانتخاب لملء مناصب السلطة التنفيذيَّة، ولعلَّ مردُّ هذا الانطباع يعود إلى الدعاية المزيَّفة التي نالها هذا الدستور من قبل أشهر مؤرِّخ في عصر الجمهوريَّة الرومانية، وهو بوليبيوس، ووطَّدها شيشرون أشهر سياسي في ذلك العصر عندما تبنَّى وجهة نظره.

ولمَّا كان الدستور الروماني دستورًا غير مكتوب، قلَّت المصادر الكلاسيكيَّة التي تطرَّقت إليه، ومن الصعوبة البالغة بمكان استقصاء معلومات مفصَّلة عنه على مدى ٥٠٠ سنة، لأنَّ هناك تطوُّرات وتبدُّلات أصابته، وخلال القرن الذي سبق انهيار الجمهوريَّة الرومانيَّة كانت الدولة في حالة أزمة دائمة، والمصادر التي تتحدَّث عنه تتحدث عن القرنين الثالث والثاني

---

[١]- عُينَّ حديثاً خلال إعداده لهذا البحث، رئيساً لقسم التاريخ-جامعة دمشق.

قبل الميلاد، عندما كان النظام السياسيُّ لا يزال مستقرًّا بشكل نسبيٍّ[١].

ومن متابعة أحداث التاريخ الرومانيِّ وقياسها بالقواعد الدستوريَّة، والبحث عن سبب تشريعها، وتحديد حجم الخروقات التي أصابتها، يحدَّد لنا حجم الزيف والدعاية التي حصل عليها هذا الدستور. ثمَّ إن استمراره لسنوات هو الذي أقنعنا بأنَّه دستور حسن، وإلَّا لما استمرَّ كلَّ هذه المدة الزمنيَّة. ولنا هنا أن نسأل:هل استمر هذا الدستور لسنوات من دون تعديل لأنَّه مقدَّس؟ أم لأنَّه جامد؟ أم لأنَّه عادل؟ أم لأنَّه يخدم فئة قليلة؟ وهل استمر في مظهره وتبدَّل في جوهره وخضع لمئات التعديلات؟

تمهيد

نظرًا لأهميَّة هذا الموضوع ومدى تشابك الأفكار حوله، يُفضَّل التمهيد ببعض الأفكار الرئيسة عن الدستور الرومانيِّ قبل الخوض في عمل مؤسَّساته ودراستها بشكل تفصيليٍّ، ممَّا سيساعد القارئ على إدراك بعض المفاهيم الغامضة وعدد من القضايا المركَّبة.

أولًا: يؤرَّخ عصر الجمهوريَّة الرومانيَّة ما بين سنة ٥٠٩ ق.م وسنة ٢٧ ق.م.

ثانيًا: كان لهذه الجمهوريَّة دستور غير مكتوب سيطر على نظامها السياسيّ.

ثالثًا: كان هذا الدستور يقوم على مجموعة من المؤسَّسات الحكوميَّة كمجلس الشيوخ، والقنصليَّة، والقضاء، والمجالس الشعبيَّة.

رابعًا: تطوَّر هذا الدستور بالمعنى الفنيِّ للكلمة وليس بالمعنى العلميِّ، خلال خمسمئة سنة متَّصلة، رغم أنَّ هناك درجة مقبولة من الاستمرارية، إلَّا أنَّه خضع لتعديلات معمَّقة بما ينسجم مع المستجدَّات الخطيرة، مع محافظته على الإطار الخارجيِّ له من خلال سلطاته الثلاث الرئيسة: سلطة المراقبة والاستشارة (مجلس الشيوخ)، والسلطة التشريعيَّة (المجالس الشعبيَّة)، والسلطة التنفيذيَّة (القنصليَّة).

من المفيد القول أنَّ معظم المعلومات الشائعة عن الدستور الرومانيِّ هي معلومات وصفيَّة

[١]- أنظر رؤية باتريك لورو في كتابه: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ترجمة: جورج كتوره، دار الكتاب الجديدة، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٩ وما بعد. ورؤية تشارلز ورث في كتابه: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ترجمة: رمزي جرجس، مراجعة: محمد خفاجة، مكتبة الأسرة، القاهرة، ص١٨ – ٣٧.

تاريخيَّة خبريَّة بشكل أساسيٍّ، لكنَّنا سنسعى لتقديم دراسة نقديَّة لمعايير هذا الدستور. فقد اختلف المؤرِّخون حول هذه المعايير، منهم من قال إنَّها كانت إيجابيَّة؛ وحجَّتهم استقرار الجمهوريَّة الرومانيَّة طوال خمسة قرون بالنظام السياسيِّ نفسه. ومنهم من قال إنَّها كانت سلبيَّة؛ وحجَّتهم أنَّ تلك المعايير أسهمت في انهيار هذه الجمهوريَّة.

في المقابل، اتَّفق المؤرِّخون على أنَّ معايير الدستور الروماني وُضِعت لهدفين اثنين: الأول هو توزيع السلطة التنفيذيَّة بين مجموعة من المكاتب، تفاديًا لعودة النظام الملكيِّ الذي كان موجودًا في القرن السادس قبل الميلاد، والثاني هو تركيز السلطة الحقيقيَّة في يد مجلس الشيوخ وسلبها من يد المجالس الشعبيَّة، ضمن إطار صراع مرير ما بين العوامِّ والنُّبلاء[١].

أوَّلًا: السلطة التنفيذيَّة

إنَّ الميزة الأكثر وضوحًا في الدستور الرومانيِّ هي توزيع السلطات التنفيذيَّة على عدد كبير من المكاتب، تحاشيًا لتوضُّعها في يد شخص واحد. فالهدف الأساسيُّ كان عدم تكرار تجربة الحكم الملكيِّ، فمنذ طرد الملك تاركينيوسسوبربوسTarquinusSuperbus (٥٣٤- ٥٠٩ ق.م) وإلغاء النظام الملكيِّ، سعى الرومان لتصوير الملك على أنَّه شخص مُضطهِد، ظالم، متعجرف، طاغية، مستبد، وأصبح ذكرى أليمة في ذاكرة الشعب الرومانيِّ، ومن أجل تعزيز هذا الفهم ربطوا صورة هذا النظام بحادثة اغتصاب لوكريشياLucrece من قبل سكستوسSextus ابن هذا الملك.

وليس من المبالغة القول بأنَّ هذه الصورة استمرَّت في المورث الثقافيِّ الأوروبيِّ في الموسيقى والفنِّ والأدب حتى العصر الحديث، وكان آخرها ما كتبه شكسبير من مسرحيَّات[٢]. وبالتالي أثَّرت سلبًا في مفهوم المؤرِّخين المعاصرين عن النظام الملكيِّ، وأسبغت على النظام الجمهوريِّ الرومانيِّ ودستوره الكثير من المجد والعظمة بصفته دستورًا ديمقراطيًّا شعبيًّا، حفظ للشعب كرامته.

---

[1]- Posner, A. E; The Constitution of the Roman Republic: A Political Economy Perspective, John M. Olin Program in Law and Economics Working Paper No. 540, 2010, p.2

[2]- Domingo, R; Constitutional Background of Roman Law, Article in SSRN Electronic Journal, January2018, p.4

وتجدر الإشارة إلى أنَّ جميع مناصب السلطة التنفيذيَّة كانت تُشغل بالانتخاب، ووفقًا لقواعد صارمة تقوم على مبدأ الأهليَّة والخبرة، فمعظم الدول في الماضي ـ وكذلك حتى اليوم ـ تعتمد مفهوم التسلسل الضروريِّ في الوظائف العامَّة، استنادًا إلى التجربة وإلى الرأي القائل بأنَّ الخبرة المكتسبة في أدنى الوظائف تبدو مفيدة في أعلاها، وقد اتَّخذ الرومان هذا المبدأ؛ وأطلقوا عليه اسم تسلسل الأمجاد Cursus honorum الذي نظَّم بكلِّ عناية، ومعنى تسلسل الأمجاد هو نظام مراتب مختلف المناصب التي يمكن أن يشغلها مواطن رومانيٌّ ما خلال حياته السياسيَّة، وكان على مختلف الموظَّفين الحكَّام أن يتدرَّجوا في سلَّم إداريٍّ تتزايد فيه سلطات الحكَّام المنتخبين من درجة إلى أخرى، ويبدأ الحاكم سيرته بالوظائف الماليَّة والبلديَّة، تلك المناصب التي تشكِّل قاعدة الهرم الإداريِّ، ثم يتدرَّج على مراحل متفاوتة إلى قمَّة الهرم حيث بإمكانه عندئذٍ شغل مناصب القضاء والقنصليَّة وعضويَّة مجلس الشيوخ[١].

وقد أضفى مبدأ الانتخابات مزيدًا من المجد على الدستور الرومانيِّ، إذ أعطاه الحلَّة الديمقراطيَّة. إلَّا أن التفاصيل التي وضعها هذا الدستور للمرَّشحين للمناصب تُظهر لنا أن تلك الشروط لن تتوفر إلَّا في أفراد الطبقة النبيلة. ورغم أنَّه قد أخضع السلطة التنفيذيَّة لعمليَّات المراقبة والرصد المستمرَّة، بواسطة مجلس الشيوخ؛ لكنَّ تلك الرقابة على الأفراد ـ الذين يشكِّلون جهاز الدولة والحكم ـ كانت أمرًا ممكنًا خلال القرون الأولى من عصر الجمهوريَّة الرومانيَّة، بحكم أنَّ عدد السكَّان قليل، ومتجانس نسبيًّا، ومنذ أن بدأ السكان الأجانب بالوفود على مدينة روما، وأصبح عددهم كبيراً، وكانوا غير متجانسين في ما بينهم، كما أنَّ الثروات التي تدفَّقت في أعقاب حروب التوسُّع والاستعمار انتهت إلى جيوب النخب الحاكمة، لا إلى عامَّة الشعب العاديين، كلُّ ذلك أدَّى إلى انحراف المصالح بين الطبقات العليا والطبقات الشعبيَّة أو الدنيا، وهكذا تجلَّت السمة الثالثة من سمات الدستور الرومانيِّ، وهي أنَّه دستور وُضع لخدمة فئة أرستقراطيَّة من دون الاكتراث لعامَّة الشعب، وهكذا تعثَّرت عجلة الحكم، وصار الدستور عائقًا على الجمهوريَّة وسببًا في انهيارها[٢].

ونقدِّم الآن دراسة تفصيلية لمناصب السلطة التنفيذيَّة كما يأتي:

[١]- محمد محفل: تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان ١، دار غندور، لبنان، ١٩٧٤م، ص٢٧٤.

[2]- Posner, A. E, Op. Cit, 2010, p.3.

١. القنصل

نقل النظام الجمهوريُّ الجديد _ الذي أعلنه الرومان بعد طردهم لآخر ملك أتروسكي _ جميع سلطات الملوك وصلاحيَّاتهم إلى شخصين (القنصلين Consuls)؛ يتمُّ انتخابهما من قبل الجمعيَّة المئويَّة بموافقة مجلس الشيوخ وتحت إشرافه، وأصبحا يمثِّلان السلطة التنفيذيَّة لمدَّة سنة واحدة غير قابلة للتجديد، ولا يجوز إعادة انتخاب أحدهما إلَّا بعد مرور عشر سنوات، وكانت الجمعيَّة المئويَّة تعقد اجتماعًا سنويًّا من أجل اختيار القنصل، الذي كان يحضر الاجتماع مرتديًا ثوب الترشيح وهو ثوب أبيض بسيط يدلُّ على بساطة حياته، وإذا ما مثل أمام الجمعيَّة المئويَّة كان يكشف أمام أعضائها الندوب وآثار الجروح في جسده والتي أصيب بها أثناء الحروب؛ تعبيرًا عن تاريخه النضاليِّ، فإذا نجح في المقابلة باشر عمله في ١٥ آذار، لكن بعد سنة ١٥٣ ق.م أصبح القنصلان يباشران عمليهما بدءًا من أول يناير/ كانون الثاني. وأول من تقلَّد منصب القنصليَّة هما: جونيوس بروتوس وسبوريوسلوكريتيوس[١].

وقدأُطلق على القنصلين لقب القاضيين (برايتورPraetores) بمعنى الرئيسين، ويمارس كل منهما السلطة خلال هذه السنة بأكملها، مراقبًا فيها الثاني أعمال الأول إذ يستطيع إلغاء وإيقاف مشاريع زميله، والتصرُّفات التي لا تعجبه، وفقًا لحقِّ الاعتراض Intercessio [٢]، فكلُّ قنصل مُنح حقِّ الاعتراض على أعمال زميله، ويكفي هذا الاعتراض وحده لشلِّ حركة هذا الزميل، لأنَّ كلَّ تدابيره تغدو ملغاة قانونيًّا، لكن القنصلين فضَّلا التعاون في ما بينهما لتجنُّب ذلك التضارب[٣].

وكان القنصلان يتناوبان على القيام بجدول الأعمال الموكل إليهما بمقتضى الدستور بحلول الشهر، حيث تصدر القرارات والمراسيم باسم أحدهما بعد موافقة الآخر عليها. وقد

---

[١]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص٤٧. شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠١٤، ٢٠١٥، ص٢٥، ٢٦.

[٢]- محمد عطية الدرسي: أسباب سقوط النظام الجمهوري وقيام النظام الأمبراطوري في روما (السياسيَّة، الاقتصاديَّة، الاجتماعيَّة)، رسالة معدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بنغازي، ليبيا، ٢٠١٧م، ص٢٢.

[٣]- نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل: موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق، ١٩٦٥م، ص٥٢٤.

جلب تناوبهما على السلطة بشكل يوميٍّ في ميدان القتال بعض الكوارث العسكريَّة على الجيش الرومانيّ[١].

وفي سنة ٣٦٧ ق.م تمَّ تغيير التسمية من الرئيسين إلى القنصلين؛ بمعنى الزميلين، وكان القنصل هو الشخص الأهمَّ في السلطة التنفيذيَّة، ويعادل منصب رئيس البلاد في أنظمة الحكم الحديثة. وتجب الإشارة إلى التفريق بين منصب البريتور (القنصل فيما بعد)، ومنصب القاضي (البريتور)، الذي أنشأ في ما بعد لتوليِّ أمور القضاء وفض المنازعات بين السكان[٢].

وكان القنصل مسؤولاً أمام الشعب الرومانيِّ _ بعد انتهاء سنة ولايته _ عن نشاطاته وأعماله خلالها، وفي حال وفاة قنصل قبل نهاية سنة حكمه، كان على زميله تنظيم انتخابات لاختيار من يملأ المنصب، ويسمَّى القنصل الجديد (البديل Suffectus)، وفي حال وفاة القنصلين معًا أو تركهما المنصب لأيِّ سبب من الأسباب، كان الأمر يعود مرَّة أخرى إلى مجلس الشيوخ الروماني، الذي كان يختار أحد أعضائه من القناصل السابقين ليحكم مؤقَّتًا (خمسة أيام فقط) بدلاً من القنصلين المتوفَّيين. وكان التأريخ في الجمهوريَّة الرومانية يتمُّ بسنوات القناصل[٣].

وإمعانًا في خصخصة الدولة الرومانيَّة للنبلاء منذ مطلع العصر الجمهوريِّ، كان هذا المنصب حكرًا عليهم، أمَّا العوامُّ (الشعب الروماني) فهم محرومون من ممارسة حقوقهم السياسيَّة، لذلك قرنوا مطالبهم الاجتماعيَّة (السماح بالزواج المختلط بين الطبقات) بنضالهم السياسي، وأخذوا يطالبون بإفساح المجال لممثِّليهم ليشغلوا منصب القنصليَّة. ولمَّا كان القنصلان يُنتخبان من بين أفراد طبقة الخواصِّ فحسب، لذلك عارضوا ذلك المطلب معارضة شديدة، وفضَّلوا أن تزول القنصليَّة إلى أن يشغل ممثِّل العوام أحد مركزيها، وأنشأوا عوضًا عن هذا المنصب نظام المحاماة العسكريَّة ذا الصلاحيَّات القنصليَّة، وكان عدد هؤلاء

[1]- Posner, A. E:Op. Cit, 2010, p.7.

عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٤٨.

[٢]- إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الروماني، الشركة العالميَّة للكتاب، لبنان ١٩٩٦م، ص٥١. شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٢٦.

[٣]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٤٨.

المحامين في البدء ثلاثين محاميًّا ثمَّ أصبح أربعة سنة ٤٢٨ ق.م، قبل أن يرتفع إلى ستة محامين عسكريين سنة ٤٠٥ ق.م من جرَّاء ازدياد الفرق العسكريّة وتكاثر الحروب التي خاضتها روما ضدَّ أعدائها.

ولم يقبل ممثِّلو النبلاء أن يصبح بعض ممثِّلي العوامِّ في عداد المحامين العسكريين، إلَّا لحاجتهم الماسَّة إليهم؛ عندما كانت المعارك دائرة ضدَّ المدينة الأتروسكيَّة فيي Veii على أشدِّها. ولم يعد الرومان إلى نظام القنصليَّة إلَّا بعد الغارات الغاليَّة، وإلحاح العوامِّ على تسلُّم أحد المنصبين[١].

ورغم أنَّ القانون الليكينيlex LiciniaSextia سنة ٣٦٧ ق.م قد سمح للعوامِّ بأحد منصبَي القنصليَّة، فإنَّ الإحصاءات لم تسجِّل أكثر من خمسة عشر قنصلاً منهم طوال المدَّة من منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، حتى منتصف القرن الأول قبل الميلاد[٢].

ولقد تمتَّع القناصل بسلطات أوسع خارج روما ولاسيَّما عند قيادة الحملات وإدارة الولايات، ومردُّ إعطائهم سلطات أوسع خارج روما يعود إلى أنَّ خطرهم أقلُّ على النُّظم الدستوريَّة وعلى المواطنين الرومان (ما عدا الجنود والمسافرين والمدراء[٣]).

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّه كان للقنصليَّة وجهٌ مرعب خارج أسوار روما، حيث يتمتَّع القنصل بصلاحيَّة إنزال مختلف العقوبات، من دون محاكمة، بحقِّ أيِّ مخالف من الضبَّاط أو الجنود الخاضعين لسلطانه بعد مغادرة الجيش للمدينة، بل كان يحقُّ له أيضًا إصدار حكم الإعدام على أيِّ جنديٍّ مخالف مهما علت رتبته، إذ إنَّ الرومانيَّ، خارج أسوار روما، يفقد بعض الضمانات الدستوريَّة التي تحميه كمواطن، ولا ينظر إليه إلَّا كجنديٍّ كُتب عليه تنفيذ أوامر رؤسائه من دون أيِّ أخذ أو رد، ومن دون أيِّ مخالفة قد تُعرِّضه لشتَّى العقوبات[٤].

وكان على القنصل _ قبل أن يترك المدينة لقيادة الجيش وبعد العودة إليها _ القيام ببعض الوظائف المدنيَّة، إذ كان يشرف على تطبيق القانون في الدولة، ومراقبة الأجانب، وإخماد

[١]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٧٠.

[٢]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٥.

[3]- Posner, A. E:Op. Cit, 2010, p.23

[٤]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٥.

القلاقل، وقمع الفتن الداخليَّة، وتنظيم لوائح الضرائب المفروضة على المواطنين بهدف تغطية نفقات الحرب. فرغم أنَّ مجلس الشيوخ هو الذي يدير وينظِّم شؤون الخزينة العامَّة، لم يكن وكلاء الشؤون الماليَّة يتصرَّفون إلَّا بمشورة القنصلين، حيث يتمُّ تلقِّي التعليمات منهما[١].

وكان القنصل يشرف على إجراء الانتخابات للمسؤولين الآخرين، مثل الرقباء، ومن صلاحيَّاته دعوة مجلس الشيوخ للاجتماع، وهو الذي يترأَّس جلسات المجلس، ويطرح بعض القضايا للنقاش عليهم، ويقترح تشريعًا ما، وهو الذي يترأَّس بعض المحاكمات كقاضٍ، كما كان يقوم بتعيين الديكتاتور، وإن كان يظهر أنَّ هذه الصلاحيَّة كانت تمارَس من قبل مجلس الشيوخ.

كذلك كان القنصل يدعو المجالس المئويَّة[٢] (التي ينبثق منها الجيش الرومانيُّ) للاجتماع ويترأَّس جلساتها، كما يدعو المجالس القبليَّة comitia tributa صاحبة حقِّ التشريع للاجتماع ويترأَّس جلساتها.

ولكن، منذ سنة ٨١ ق.م؛ عندما قام سولا بإجراء تعديلات على الدستور الرومانيِّ، وعدَّل من صلاحيَّات القناصل، بقي هؤلاء في روما، وتفرَّغوا لواجباتهم المدنيَّة، وكان يتمُّ إرسال بعض القادة للقيام بالحملات العسكريَّة[٣].

وفي محاولة لتوضيح تطوُّر الدستور الرومانيِّ يؤكِّد المؤرِّخون موضوعين مهمَّين هما: خوف الرومان من تموضُع السلطة التنفيذيَّة في يد فرد واحد، والنزاع الدائر ما بين الأرستقراطيين والعوامِّ. وتخوُّفهم من عودة النظام الملكيِّ دفعهم إلى تشديد الرقابة على مناصب السلطة التنفيذية وتوزيع هذه السلطة على موظَّفين كثر، وهذا يُفسِّر لماذا كان يوجد أكثر من موظَّف في المكتب نفسه وفي الوقت ذاته.

في الواقع، لقد ولدت الجمهوريَّة الرومانيَّة من رحم التمرُّد على النظام الملكيِّ، وهذا ما

[١]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٤٨.

[٢]- أنظر عنها شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٧٢ - ٧٨.

[3]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.7.

شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٢٦ - ٣٠.

يفسِّر لنا التشدُّد في منع أسباب عودة نظام حكم الفرد، لذلك أُسِّس الدستور الرومانيُّ على مبدأ المدير التنفيذيِّ الضعيف، فالقنصلان اشتركا بالسلطة في الوقت نفسه، ومع القضاة الآخرين الذين كانوا يمتلكون قدرًا أقلَّ من القوّة[١].

ومن المهمِّ تبيان المدى الحقيقيِّ لتعدُّد الشاغلين، فعلى نقيض المدن اليونانيَّة حيث يعقد القضاة الاجتماعات عادة، ويتَّخذون مقرَّراتهم بالأكثريَّة، نرى أن احترام روما للسلطة المستقلَّة التي ينعم بها كلٌّ منهم، أعظم من أن تنزع عن أعمالهم الطابع الفرديَّ، لكن هذا الاستقلال الخدَّاع يحدُّ من حرِّيتهم في العمل، ولا يسهم قطُّ في زيادتها، فهناك حقُّ النقض الذي لا يعود إلى الحاكم الأعلى بالنسبة إلى قرار من هو أدنى منه فحسب، بل يعود أيضًا إلى حكام متساوين بحيث يكفي تشبُّث الواحد منهم برأيه لإبطال رأي زميله[٢].

وحتى لو اتَّفق القنصلان فإنَّهما لا يستطيعان تشريع القوانين من دون موافقة شعبيَّة وموافقة أرستقراطيَّة[٣]. فمشروع أيِّ قانون إذا نجا من اعتراض القنصل الثاني، ومن نقباء العوامِّ العشرة، ومن اعتراض مجلس الشيوخ عليه، لا يصبح قانونًا شرعيًّا حتى يتمَّ التصويت عليه في الجمعيَّة القبليَّة.

هكذا حقَّق الرومان مبدأ الرقابة على السلطة التنفيذيَّة من خلال إيجاد أكثر من موظَّف في المنصب الواحد في الوقت نفسه، لكن هذه الرقابة كانت عنصر ضعف لا عنصر قوَّة، لأنَّها سلبت المتربِّع على عرش السلطة التنفيذيَّة القدرة على القيام بمهامه وواجباته، أمَّا القضاة فلا يستطيعون معاقبة المخالفين من دون ضمان موافقة هيئة المحلَّفين[٤].

وقد منعت مدَّة السنة الواحدة القصيرة جميع موظَّفي السلطة التنفيذيَّة، بمن فيهم القناصل، من أخذ الفرصة الكافية لإثبات جدارتهم، فإذا استطاع بريكليس بطريقة شرعيَّة جدًّا أن ينتخب قائدًا في أثينا طيلة خمس عشرة سنة متواصلة، فإنَّه قد فُرض في روما منذ

---

[1]- Posner, A. E, Op. Cit, 2010, p.15.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وأمبراطوريتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٣١.

[3]- Posner, A. E:Op. Cit, 2010, p.15.

[4]- Posner, A. E:Op. Cit, 2010, p.22.

أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، فاصل العشر سنوات لإعادة الانتخاب للقنصليَّة، وهو المنصب الوحيد المغري لدوام التربُّع عليه، وكان ذلك طبعًا إلى أن ارتأى الأخوان جراكوس أنَّ منصب نقيب العوام مغرٍ أيضًا، ويَحُول قانون صدر في أوساط القرن الثاني قبل الميلاد دون قنصليَّة ثانية، ولم يُجزها مجدَّدًا سوى سولا، مع إعادة فرض فاصل العشر سنوات[١].

فوق هذا وذلك، ظلَّ القناصل تحت إشراف ورقابة دائمة من قبل مجلس الشيوخ، وتأثير الشخصيَّات الدينيَّة، وهذه الرقابة الدستوريَّة المشدَّدة على السلطة التنفيذيَّة، كانت سببًا مباشرًا في انهيار مؤسَّسات النظام الجمهوريِّ، واستبدالها بنظام حكم الفرد الواحد في نهاية القرن الأول قبل الميلاد[٢].

٢. القاضي (البروتور)

لمَّا اتَّسعت واجبات القنصل والمهام الملقاة على عاتقه، تمَّ استحداث منصب القاضي للنظر في الخصومات وفضِّ المنازعات بين الناس، وكان القاضي يُنتخب لمدَّة سنة واحدة، وكان أقل سلطة من القنصل، ورغم أنَّه تمتَّع بالأمبريوم (السلطان)، فلم تكن جميع الصلاحيَّات التي يتمتَّع بها القنصل يتمتَّع بها القاضي؛ فمثلاً لم يكن يحقُّ للقاضي تعيين الديكتاتور، فمهمَّته الرئيسيَّة هي ترؤّس المحاكمات المدنيَّة والجزائيَّة، وقد منحته هذه المهمَّة سلطات واسعة في تقدير الأحكام، ولو أنَّ محاكمهم كانت مقيَّدة بهيئات المحلَّفين[٣].

لقد كان في روما قاضٍ واحد حتى سنة ٢٤٢ ق.م، ثم أُحدث بعدها منصب قاضي الغرباء إثر ازدياد العلاقات بينها وبين غيرها من المناطق المحتلَّة، وكان قاضي الغرباء موكلاً في النظر بالقضايا التي تقع بين الأجانب أنفسهم، أو في القضايا التي يكون أحد أطرافها أجنبيًّا[٤].

---

[١]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٩٠. وانظر: أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٣١. أحمد حافظ غانم: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، ٢٠٠٧م، ص٢٧ وما بعد.

[2]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.15.

[3]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.8.

[٤]- شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، ط٧، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص٥٧.

وفي سنة ٨١ ق.م زيد العدد إلى ثمانية قضاة من قبل سولا، ومع قرب نهاية العصر الجمهوريِّ تمَّ زيادة العدد إلى ١٦ قاضياً[١].

فهل حفظ الدستور الرومانيُّ للسلطة القضائيَّة استقلالاً أعظم؟ الواقع يقول إنَّ القاضي كان مرغمًا على احترام القوانين، التي جعلته _ مادام يحترمها _ في مأمن من العزل ورفع الدعوى عليه، فإنّ هذه الحصانة تزول حين تنتهي سنة خدمته، ويصبح مواطنًا عاديًّا، وبالتالي هو معرَّض خلال ذلك لأن تستهدفه دعاوى خطيرة، وذات مفعول رجعيٍّ، لأنّ المدَّعين الجسورين كثيرون، وعليه أيضًا أن يضع في حسبانه العرف والرأي العام، فبينما يتمتَّع القاضي المدنيُّ بحقٍّ نظريٍّ يتيح له نشر بيانه حين تسلُّمه العمل، وأن يقلب رأسًا على عقب القوانين والقواعد المرعيَّة في الدعاوى التي سيبتُّ بها، فإنَّه لا يحدث شيئًا إلاَّ بحكمة، ويقتصر عمله في أغلب الأحيان على إعادة بيان سلفه، ولا يستطيع القاضي بنوع خاصٍّ الاستغناء عن العمل برأي مجلس الشيوخ الذي تفوق سلطته المعنويَّة والعمليَّة سلطة القاضي إلى حدٍّ بعيد[٢].

ولمَّا كان القضاة يعملون كحكَّام للولايات الرومانيَّة، وكملحق عسكريٍّ للقناصل، أو قادة عسكريون من خلال المدَّة الوسيطة والمتأخِّرة من تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة، ولمَّا كان القضاة أدنى مرتبة من القناصل؛ كان عليهم التنحِّي متى لم تُرضِ أساليبهم وسياستهم القناصل[٣].

٣. الديكتاتور

مع مرور الزمن، وبسبب الحروب الكبرى التي خاضتها روما في ما بعد، اضطرَّ الرومان إلى التفكير في جعل السلطة كاملة لشخص واحد ولمدَّة محدَّدة، وبناء على ذلك تشاور القنصلان مع مجلس الشيوخ، واتَّفقا على أن يتنازلا عن سلطتهما لشخص في أوقات

---

[1]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.8.

[٢]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٩١. وانظر: أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٣١.

[3]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.8.

الطوارئ يمارس سلطة مطلقة بمفرده لمدَّة ستة أشهر[١].

لقد عُرف هذا الحاكم في بداية الأمر بـ(حاكم الشعبMagiter populi)، ثمَّ تغيَّر لقبه إلى (الدكتاتورDictator)، وكان هذا المنصب حالة استثنائيَّة في الدستور الرومانيِّ[٢]، فعلى خلاف المناصب الأخرى، كان هذا المنصب مؤقَّتًا، ولحالات الطوارئ والأخطار المحدقة فحسب، ولمدَّة ستة أشهر غير قابلة للتمديد، وكان القنصل هو الذي يعيِّن الديكتاتور بموافقة مجلس الشيوخ[٣].

وبعد تعيينه يستولي الديكتاتور على كلِّ السلطات، ويخضع له كلُّ القضاة والموظَّفين، وكان بإمكانه إصدار حكم في حقِّ أيِّ مواطن من دون سابق إنذار، ومثلما كان الملوك القدامى فقد كان له هو أيضًا رئيس أو قائد الفرسان[٤] الذي يستطيع اختياره هو بنفسه لقيادة الفرسان، بينما يقود هو أيضًا المشاة، فيما يسبقه أربعة وعشرون ضابطًا مسلَّحون، وكان يوجد بين عامَّة الناس ليبدو كجنرال أو رئيس لهم. ويعدُّ الديكتاتور قاضيًا استثنائيًّا لايخضع لأيِّ رقابة أونقض، له سلطة مطلقة على القضاة والمواطنين على السَّواء، تمَّ تعيينه لمواجهة الأخطار القصوى كتهديد أجنبيٍّ مداهم أو فتنة خطيرة، وقد عيِّن البعض منهم بعد ذلك، وكلِّفوا بالقيام في غياب المكلَّف بأداء الطقوس الدينيَّة بالقيام بهذه الوظيفة[٥].

والديكتاتور شخص يتمتَّع بثقة الجميع، وكان يحلُّ محلَّ القنصلين، ويتحمَّل مسؤوليَّة المهمَّة الموكلة إليه بالقضاء على الخطر الذي يتهدَّد الدولة ونظامها السياسيّ. ومنحت له ضمانات من مجلس الشيوخ، منها أنَّه غير مسؤول عن أعماله وتصرُّفاته أثناء مدَّة دكتاتوريَّته، وبالتالي لن يحاسب عليها بعد انتهاء هذه المدَّة، والسبب في ذلك أن الديكتاتور غالبًا ما كان يعيَّن للدفاع عن مصالح الطبقة الأرستقراطيَّة[٦].

---

[١]- شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٣٠.

[2]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.12.

[3]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.9.

شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٣٠، ٣١.

[٤]- أنظر عنهم شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٣٥ - ٣٧.

[٥]- شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٣١.

[٦]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٠.

كان اختيار الديكتاتور ـ في الغالب ـ يتمُّ من بين أقدم القناصل في الدولة، ويقوم هو بتعيين مساعد له يسمَّى قائد الفرسان Magister Equitum[١]، وكان لاركيوس T. Larcius أول من تسلَّم هذا المنصب سنة ٥٠٠ ق.م[٢].

وأشار الدكتور محمد محفل إلى أن القنصل يعيِّن الديكتاتور بناء على دعوة مجلس الشيوخ، الذي يكون قد أعلن حالة الطوارئ في البلاد لمواجهة الأخطار القصوى، وأحيانًا كان يتمُّ انتخابه بشكل شعبيٍّ[٣]، كما حدث خلال الحرب البونيَّة على قرطاجة؛ حيث جرى انتخابه من قبل الشعب الرومانيِّ مباشرة[٤].

ورغم أنَّ القنصل هو الذي يعيِّنه، فالديكتاتور لا يستمدُّ سلطته منه وإنما من الإله جوبتير[٥]، وهذا أمر منطقيٌّ لأنَّ صلاحيَّات القنصل محدودة، وفاقد الشيء لا يعطيه. وقد مُنِح الديكتاتور ـ بموجب الدستور الرومانيِّ ـ صلاحيَّات استثنائيَّة؛ في سبيل مواجهة أخطار تهدِّد أمن الدولة ونظامها السياسيَّ، فهل كانت سلطاته مطلَقة حقًّا؟ أم مقيَّدة بعض الشيء؟

عند إعلان حالة الطوارئ يتوقَّف جميع الحكَّام المنتخبين عن ممارسة صلاحياتهم، باستثناء نقباء العوامِّ، إلَّا أنَّهم يفقدون حقَّهم باستخدام النقض (الفيتو) والاعتراض على أعمال الديكتاتور[٦]. ولمَّا كان هناك خطر من منح هذه السلطات المطلقة لموظَّف واحد، وخشيةً من عودة الحكم الفرديِّ، ومنعًا لأيِّ احتمال من هذا القبيل: كان على الديكتاتور أن يلتزم بالتشارك في السلطة مع شخص ثانٍ، هو أشبه بقائد أعلى للقوَّات الرومانيَّة يسمَّى بقائد الفرسان[٧]، ويعادل منصب رئيس هيئة الأركان في الجيوش الحديثة. وبشكل واضح كان الديكتاتور هو السيد الأعلى.

لكن هاجس الرومان من عودة الحكم الفرديِّ دفعهم إلى الاستغناء عن الديكتاتوريَّة

[1]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.12.

[٢]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٠.

[٣]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٧٦.

[٤]- شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٥١.

[٥]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٧٦.

[6]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.9.

[٧]- نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، مصدر سابق، ص٥٢٥.

بعد نهاية الحرب البونيَّة الثانية سنة ٢٠١ ق.م، حيث انتهت من عالم السياسة الرومانيَّة، واستعاض عنها الرومان بتوسعة صلاحيَّات القنصل، واستمرَّ هذا الاستغناء حتى عهد سولا سنة ٨١ ق.م، وخلال هذه المدَّة استعمل مجلس الشيوخ أدوات أخرى لتخويل القناصل باتخاذ إجراء استثنائيٍّ ضدَّ التهديدات التي تمسُّ بأمنهم[١]. أمَا ديكتاتوريَّة سولا سنة ٨١ ق.م، وديكتاتوريَّة قيصر سنة ٤٨ ق.م، فليس يجمع بينهما وبين الديكتاتوريَّة الدستوريَّة القديمة سوى الاسم فحسب، فهي تصديق شرعيٌّ لاستبداد بقوة السلاح، مناقض لكلِّ أُسُس الدستور الرومانيّ[٢].

وتجدر الإشارة إلى اختلاف مفهوم الديكتاتوريَّة في بلاد اليونان عن مفهومها في روما، فهي في روما كانت دستوريَّة بالمعنى القانونيِّ للكلمة، في حين كان حكم الطغاة في بلاد اليونان غير دستوريٍّ. ومع كونها في روما دستوريَّة، وفي بلاد اليونان غير دستوريَّة، يجب ألَّا يغيب عن بالنا محتواها الطبقيُّ في العالمين اليونانيِّ والرومانيِّ، إذ رأينا أنَّ تعيين الديكتاتور في روما لا يتمُّ إلَّا بعد أن يعلن مجلس الشيوخ حالة الطوارئ في البلاد، وصحيحٌ تلك الحالة قد تعلن لمجابهة خطر خارجيٍّ، ولكن كم من مرَّة أعلنها المجلس لمجابهة الاحتجاجات الداخليَّة، والمطالب الشعبيَّة بالعدالة والمساواة؛ نتيجة احتدام الصراع الطبقيِّ. وكما نعلم، فإنَّ المجلس يمثِّل مصالح مختلف الفئات المحافظة في المجتمع الرومانيِّ، التي لا يزيد تعدادها عن ٧ ٪ من مجموع الشعب، لذلك يمكننا القول بأنَّ الديكتاتوريَّة في روما، مع أنَها كانت دستورية نظريًّا، إلَّا أنَّها لم تكن تمثِّل مصالح السواد الأعظم من أفراد هذا المجتمع[٣].

وبما أنَّ الدستور قد أقرَّ بأنَّه لا يحقُّ للديكتاتور أن يبقى في منصبه أكثر من ستة أشهر، كما أسلفنا، وإذا زال الخطر الذي عُيِّن من أجله فعليه أن يستقبل فورًا. إلَّا أنَّ توالي الحروب والتوسُّعات العسكريَّة في العصر الجمهوريِّ قد أدخل على الجيش تغييرًا أساسيًّا استدعته طبيعة الأمور، التي أوجبت أن يكون هناك جيش متطوِّع دائم، فكان لا بدَّ من تأليفه من المرتزقة بالدرجة الأولى، بعدما كان قاصرًا على المجنَّدين المؤقَّتين، وكان من نتيجة هذا

[1]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.9.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٣٣. وانظر مصطفى العبادي: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، النظام الأمبراطوريُّ ومصر الرومانيَّة، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، ١٩٩٩، ص٦٣ – ٦٨.

[٣]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٧٩.

التغيير في تكوين بنية الجيش، أن صار أفراده مرتبطين شخصيًّا برئيسهم، ومندفعين معه في تحقيق مطامعه، التي كثيراً ما دفعتهم إلى الخروج عن الدستور، والسطو على السلطة بصورة غير قانونيَّة[١].

وإن كان هذا الوصف ينطبق على ديكتاتوريَّة سولا، إلَّا أنَّ البدايات كانت مع ماريوس، إذ كانت أول الأعمال التي قام بها أن فتح باب التطوُّع في الجيش أمام المفلسين؛ الذين لم يكونوا يملكون النصاب الماليَّ القانونيَّ للانتساب إلى صفوف الجيش، مخالفًا بذلك قانون الخدمة العسكريَّة الرومانيَّة، فكانت نتائج هذا الأمر خطيرة للغاية على الدولة ودستورها، ولعلَّها كانت من أهمِّ الأسباب التي أدَّت إلى سقوط النظام الجمهوريِّ في روما.

ومن المهمِّ القول أنَّ النتائج السياسيَّة والدستوريَّة التي ترتَّبت على ما قام به ماريوس كانت بالغة الخطورة؛ لأنَّ الخدمة في الجيش كانت تمكِّن المواطن الرومانيَّ من أن يكون مواطنًا حرًّا متمتِّعًا بكامل الحقوق المدنيَّة والسياسيَّة بعدما ينهي خدمته العسكريَّة ويعود إلى روما. ولما كان استمرار الحروب قد اضطرَّ هؤلاء الجنود الجدد إلى بقائهم مددًا طويلة في ميادين المعارك بعيدًا عن روما، فقد تمتَّنت الروابط بينهم وبين قادتهم، فاشتدَّ ولاؤهم لهؤلاء القادة، وصار الجنديُّ يقسم على الولاء لقائده، بعدما كان من قبل يقسم على الولاء للدولة.

وهكذا فتح ماريوس الباب على مصراعيه _ بعد الإصلاحات التي أدخلها على النظام العسكريِّ _ لذوي الطموحات لاستغلالها مهدِّدين بقوة الجيش بين من يحول بينهم وبين تحقيق تلك الطموحات، وهذا ما دفع المؤرِّخين إلى عدِّ إصلاحاته الأشد خطرًا على دستور الجمهوريَّة الرومانيَّة ونظامها السياسيِّ؛ لأنَّها وضعت الدعائم للحكم العسكريِّ الفرديِّ الجديد[٢].

ولم يكتف ماريوس بتغيير بنية الجيش، ووضع الدعائم للحكم الفرديِّ العسكريِّ، بل تعدَّاه إلى استغلال منصبه والإنجازات العسكريَّة التي أحرزها في أفريقيا؛ لأن يرشِّح نفسه

[١]- شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٥١.

[٢]- نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، مصدر سابق، ص٥٤٥.

للقنصليَّة مرة ثانية مباشرة بعد انتهاء سنة قنصليَّته الأولى، وهذا يخالف الدستور الذي كان ينصُّ على مضيِّ عشر سنوات كحدٍّ أدنى، بين ولايتَيْ القنصليَّتين، لأيِّ شخص كان، مهما كانت الخدمات الجليلة التي قدَّمها للدولة. أمَّا المخالفة الدستوريَّة الثانية فهي أنَّه رشَّح نفسه للقنصليَّة مرة ثانية، وهو لا يزال في أفريقيا أي خارج أسوار روما.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ مسلسل انتهاكات الدستور لم يقف عند هذا الحدِّ، بل امتدَّ لانتخاب ماريوس في منصب القنصليَّة خمس سنوات متتالية، تحت ضغط قبائل الغال في الشمال، فكانت مخالفاته الدستوريَّة، سببًا في فتح الباب للديكتاتوريَّة العسكريَّة للسيطرة على الدولة في عهد سولا أوَّلًا، ثمَّ في عهد قيصر ثانيًا، وفي عهد أوكتافيوس الذي أعلن عن ميلاد الأمبراطوريَّة الرومانيَّة سنة ٢٧ ق.م عندما جعل الدولة كلَّها في يد فرد واحد.

ففي عهد سولا وبموجب السلطات الممنوحة له كديكتاتور، أصدر جملة من القوانين ألغى بها كثيراً من امتيازات نقيب العوامِّ، وعمل على تكريس سلطة مجلس الشيوخ على الدولة[١]، إذ كان يرى أنَّ ذلك المجلس هو الضمان الحقيقيُّ للدولة وللدستور الرومانيِّ، وإنَّ الجمعيَات الشعبيَّة قاصرة لا تجربة لديها، بل عاجزة عن تصريف أمور الدولة وشؤونها العامَّة، مخالفًا أبسط مبادئ الديمقراطيَّة في أنَّ الشعب هو مصدر السلطة.

ولمَّا كان سولا يدرك أنَّ مجلس الشيوخ هو مؤسَّسة تركَّزت في يدها مقاليد الحكم من الناحية العمليَّة منذ القِدَم بمقتضى دستور غير مكتوب، فقد رأى أنَّه من الواجب أن يحكم هذا المجلس بموجب قانون مكتوب، لذلك أصدر قانون الخيانة العظمى Maiestas وهو الأول في الشرائع الرومانيَة، ليجعل من المستحيل ـ تقريبًا ـ على أيِّ مواطن أن يمتلك القدرة على مواجهة مجلس الشيوخ، من دون أن يتعرَّض للفشل في الحياة السياسيَّة. وهكذا، ليس هناك في التاريخ مثال أوضح من سولا للتدليل على أنَّ الإصلاحات الدستوريَة تتوقَّف على الروح التي تصدر عنها، فسولا قد أقبل على عمله بروح تنمُّ عن عدم اغتباطه به، أو اكتراثه بالشعب الذي يشرِّع له، وقد حقَّق فعلاً ما تطلَّبته الظروف، لكنه نفَّذه بالقسوة المستترة تحت قناع دستوريٍّ، لذلك لم يبتهج أحد من عقلاء الرومان بعمله، ولم يشعر الشعب عمومًا بأيِّ

[١]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٠.

ولاء نحوه[١].

وعليه، بعدما كان القنصل وكذلك الديكتاتور يُعيَّنان بالانتخاب من قبل الشعب، تبعًا لقواعد ودستور النظام الجمهوريِّ، فقد فرض أحدهم نفسه بقوَّة الجيش، واستأثر بالحكم، وأعلن نفسه أمبراطورًا على الدولة[٢]، إمَّا بصورة فرديَّة، أو ضمن إطار حكومة ثلاثيَّة ذات نكهة ديكتاتوريَّة، لا تحمل أيَّ صفة دستوريَّة. فبعد مشاورات مهمَّة في مؤتمر لوكا سنة ٥٦ ق.م، بين القوى المتنازعة على السلطة في الدولة الرومانيَّة، تمَّ الاتفاق على تقاسم الأدوار بين بومبي وكراسوس وقيصر، رغم المعارضة الشديدة من قبل كاتو، وأعضاء مجلس الشيوخ، والمؤمنين بالجمهوريَّة وقيمها الدستوريَّة.

وقد أجبر أعضاء الحكومة الثلاثيَّة كلَّ المرشَّحين لقنصليَّة سنة ٥٥ ق.م، على سحب ترشيحهم بما لديهم من قوة عسكريَّة، ليفوز بها كلٌّ من بومبي وكراسوس. وعن طريق نقيب العوامِّ تريبونيوسTrebonius تمَّ تحديد الولايات المخصَّصة للقنصلين اللذين ستنتهي ولايتهما وفق ما اتَّفق عليه المؤتمرون في لوكا، بينما استصدر القنصلان الجديدان قرارًا يجدِّد سلطان قيصر في بلاد الغال لمدَّة خمس سنوات أخرى، واشترطا عدم دراسة تعيين خليفة لقيصر على تلك البلاد قبل شهر آذار لسنة ٥٠ ق.م. ولم تُجدِ المعارضة الدستوريَّة نفعًا، حتى شيشرون أيَّد الاتفاق عرفانًا بجميل بومبي عليه، ولأنَّه سعيد بتعيين شقيقه وكيلاً لقيصر[٣].

٤. ولاة الإحصاء/ الرقباء، أو الكنسورCensors

اعتُمد هذا المنصب سنة ٤٤٣ ق.م، وقد تزامن مع إنشاء وظيفة التربونية، وكانت مهمَّته تمثَّل في عمليَّة إحصاء المواطنين الرومان وممتلكاتهم[٤].

---

[١]- عبد اللطيف علي أحمد: التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربيَّة، بيروت، ١٩٨٨م، ص٨٣، ٨٤. وانظر أحمد حافظ غانم: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة من النشأة إلى الانهيار، مصدر سابق، ص٣٠ - ٤٠.

[٢]- شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٥٢.

[٣]- مصطفى العبادي: مذكَّرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت د.ت، ص١٠٠.

[٤]- شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٣٢.

لقد كانت شروط تعيين القائمين على هذا المنصب (الرقيبين) تختلف من مدَّة إلى أخرى خلال تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة. وفي القرنين الأخيرين من تاريخها، كان المواطنون الرومان في مجالسهم المئويَّة ينتخبون كلَّ خمس سنوات من بين القناصل القدماء Proconsul مراقبين اثنين يعهد إليهما خلال ثمانية عشر شهرًا، بإحصاء المواطنين والممتلكات، وبتوزيع المواطنين على مختلف الفئات السكانيَّة بحسب ثرواتهم، ويحدِّد المراقبان قيمة الضرائب والنفقات العامّة للسنوات الخمس القادمة[١].

وامتدَّت صلاحيَّات الرقباء إلى محاسبة المتخلِّفين عن الالتحاق بأرض المعركة، أو المواطنين الذين لم يزرعوا أرضهم، أو ارتكبوا بعض الجرائم، أو المخالفات الأخلاقيَّة. في هذه الحالة بوسع الرقباء أن يحرموهم من الانتساب إلى مجلس الشيوخ، أو إشغال مناصب مهمَّة في الدولة، كما وقَّعوا العقود العامَّة نيابة عن الحكومة الرومانيَّة، وأشرفوا على الأشغال العامَّة[٢].

وكانت عمليَّة الإحصاء توجب على رئيس كلِّ أسرة أن يعلن لولاة الإحصاء بعد تأديته اليمين: عدد أعضاء أسرته، وما تتألَّف منه أموالهم، مع بيان اسم ربِّ الأسرة، وعمره ووضعه العسكريِّ. وكان لهؤلاء الولاة أن يتَّخذوا العقوبات التي يرونها مناسبة، تجاه من تثبت عليه تهمة أنَّه قد أدلى ببيانات كاذبة، فقد تكون العقوبة بإزالة اسم المعاقب من سجل الموظَّفين، وبطرده من القبائل، وبذلك يفقد كلَّ حقوقه المدنيَّة والسياسيَّة. ومن أهمل تسجيل اسمه قد يعاقب بتجريده من الحريَّة وعدُّه رقيقًا[٣].

وبالإضافة إلى عملهم الإحصائيِّ هذا، كان المراقبان _ بصفتهما ناظِريْ الأخلاق العامَّة _ يقومان بوضع لوائح بأسماء أعضاء مجلس الشيوخ، ويحقُّ لهما إقصاء أولئك الذين يبدو لهم سلوكهم، حتى الخاص، موضع انتقاد وشبهة. وكان يحقُّ للمراقبين توجيه إرشادات وتوصيات أدبيَّة وأخلاقيَّة لأيِّ مواطن[٤].

---

[1]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.9.

محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٣. شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٣٢.

[2]- Posner, A. E, Op. Cit, 2010, p.9

[٣]- شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسساتها، مصدر سابق، ص٥٦.

[٤]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٣. شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٣٢، ٣٣.

ولمَّا كان عمل هؤلاء الرقباء يستمرُّ ١٨ شهرًا، ومدَّة ولايتهم خمس سنوات، أي أنَّه لم يتم انتخاب غيرهم إلَّا بعد مضيِّ خمس سنوات، فمعنى ذلك أن هذا عيب في الدستور الرومانيِّ، لأنَّنا أمام حقبة مدَّتها ثلاث سنوات ونصف سنة تعيشها الدولة من دون رقابة[١]. وكانت هذه الوظائف بالعموم من جملة الوظائف التي يقوم بها القنصلان، ولكن لكثرة المسؤوليَّات الملقاة عليهم، استُحدث لها موظَّفان مخصوصان سنة ٤٤٣ ق.م[٢]. ومع أنَّ عددًا من المؤرِّخين قد أشار إلى أنَّ هذه المؤسَّسة أحدثت فعلاً في سنة ٤٤٣ ق.م، إلَّا أنَّ أسماء المراقبين الذين يرد ذكرهم قبل سنة ٤٠٣ ق.م مشكوك بها[٣].

وقد سعى النبلاء للاستئثار بهذا المنصب لأنفسهم، وظلَّ هذا حكرًا عليهم حتى سنة ٣٥١ ق.م عندما نُصِّب غايوس روتليوس ليكون أوَّل رقيب رومانيٍّ من العوامِّ، وفي سنة ٣٣٩ ق.م صدر قانون ينصُ على أن يكون أحد الرقيبين من هذه الطبقة، وحصل أنَّه في سنة ١٣١ ق.م كان كلا الرقيبين منها[٤].

٥. الأيدل/ نُظَّار الشؤون البلديَّة

أُحدِث منصب شعبيٌّ جديد سنة ٣٦٧ ق.م أُطلق على صاحبه لقب الأيدلAedilis بمعنى الحاكم الإداريِّ، إذ تطلَّب اتِساع المدينة وتزايد عبء الإدارة البلديَّة فيها، وجود موظَّفين متفرِّغين فيها، مهمَّتهم الأساسيَّة الإشراف على أعمال الأمن، والمحافظة على حسن سلوك الناس، ومراعاة الأخلاق والنظام العام في الشوارع والساحات والأسواق، والإشراف على الملاعب، والملاهي، والمهرجانات الشعبيَّة، ومعاقبة المخالفين[٥].

وكان هناك اثنان من أزواج الأيدل (الأوَّل يُعرف باسم نُظَّار العوامِّ plebeian aediles) يتمُ انتخابهما من قبل جمعيَّات العوامِّ، ثم أُضيف إليهما بدءًا من سنة ٣٦٦ ق.م ناظران

---

[1]- Domingo, R, Op. Cit, 2018, p.12.

[٢]- شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَساتها، مصدر سابق، ص٥٦.

[٣]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٣.

[٤]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٨.

[٥]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٨. شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٣٣، ٣٤.

آخران كانا يعرفان باسم (curuleaediles) يتمُّ انتخابهما من قبل المجالس القبليَّة من بين النبلاء، وكان لدى جميع النُظَّار وظائف متماثلة، كالإشراف على الأبنية العامَّة وحراستها؛ مثل المعابد والساحات والحمامات العامَّة، والإشراف على الشوارع وصيانتها، وإمداد المدينة بالمياه، وتنظيم الألعاب العامَّة، كما عملوا كمدَّعين في المحاكمات بوصفهم من يمثِّل الحقَّ العامّ[١].

وأُوكل إليهم مراقبة الموادِّ الاستهلاكيَّة في الأسواق، وتأمين المؤن الضروريَّة من الحبوب وغيرها من المواد الغذائيَّة لسكَّان العاصمة. وما كانت مهام أولئك النُظَّار الأربعة لترتدي أهميَّة تذكر لو لم يضف إليها تنظيم الألعاب في مواسم الأعياد الدينيَّة: فاستطاعوا بذلك _ حتى ولو كان تصدُّع ثروتهم الشخصيَّة _ اكتساب شعبيَّة تؤمِّن انتخابهم لمناصب القضاء العليا[٢]. وكان معظم الذين شغلوا هذا المنصب من الشباب اليافعين، الذين يسعون للتدرُّج إلى الأعلى في سلَّم الوظائف الشرفيَّة، فتوليِّ منصب الأيدل كان شهادة لصاحبه على أنَّه يهتمُّ بأحوال الشعب وحاجاته[٣].

٦. الخازن، ولاة المال والمظالم/ الكويستور

ويأتي ولاة المال والمظالم في أدنى مرتبة في هرم الإدارة والحكم، وخدم هؤلاء الموظَّفون لمدَّة سنة واحدة[٤]، وقد استحدثت وظيفتهم منذ أوائل قيام الجمهوريَّة، بهدف إيجاد مساعد دائم للقنصل على إدارة الشؤون الماليَّة[٥]، والتحقيق في قضايا الاختلاس، كما كان عليهم متابعة الضرائب والالتزامات الماليَّة الأخرى، وكان على القنصل والكويستور إدارة نفقات الجيش[٦].

وعندما أُنشئت خزانة الدولة، التي أودعت في معبد الإله ساتورنوسSaturnus، أُنيط

[1]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.9.

[٢]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٨. وانظر: أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٣٤.

[٣]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٨.

[٤]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٩.

[٥]- شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٥٦.

[6]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.9.

أمر الإشراف عليها إلى خازنين، وكانا يُعيَّنان في البدء من قبل القناصل، لكن أعطي حقُّ انتخابهما إلى الشعب الرومانيِّ بدءًا من سنة ٤٥٠ ق.م.ومنذ سنة ٤٢١ ق.م أصبح الخازنان أربعة، إذ أخذ العوامُّ يشغلون بالتساوي مع النبلاء منصب حراسة الخزينة (ولاة المال والمظالم)، وكان يمكث اثنان منهم في روما للإشراف على إدارة شؤونها الماليَّة، بينما كان يرافق الاثنان الآخران القنصلين في حروبهما خارج روما من أجل دفع رواتب الجنود وتوفير المؤن للقطعات[١].

وفي سنة ٣٦٦ ق.م أصبح اختصاص الكويستور في روما مقصورًا على الشؤون الماليَّة من دون القضائيَّة، وفي ما بعد يصبحون حكَّام ولايات، ليمارسوا أعمالاً لا تمتُّ إلى الشؤون الماليَّة بصلة[٢].

وفي سنة ٢٦٤ ق.م أصبح عدد الخُزَّان ثمانية، وقد ارتفع عددهم في ما بعد حتى وصل زمن سولا إلى عشرين خازنًا، ثمَّ إلى أربعين خازنًا في عهد يوليوس قيصر[٣].

٧. الكهنة

بالإضافة إلى الوظائف الكبرى التي عرفها النظام الإداريُّ الرومانيُّ، عرف وظائف أخرى أقلَّ شأنًا منها، مثل الأحبار التسعة الذين انحصرت وظيفتهم في الإشراف على الأضاحي والاحتفالات الدينيَّة[٤].

وكان رئيس الكهنة يسمَّى الحبر الأعظم، ويتمُّ انتخابه لسنة واحدة، وكان من يشغل هذا المنصب في الغالب من رجال السياسة، كما هو الحال مع يوليوس قيصر على سبيل المثال، وكانت له سيطرة على الساحات المقدَّسة، والطقوس الدينيَّة، وعلى مفردات القانون العائليِّ، إلاَّ أنَّ أهمَّ صلاحيَّاته هو تحديد التقويم[٥]، فهو الذي يحدِّد سنويًّا أيام الأعياد العامَّة، سواء دينيَّة أم غير دينيَّة، ويعلن كلَّ شهر الأيام التي يجوز مباشرة العمل الرسميِّ

[١]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٧.

[٢]- إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٠.

[٣]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٩.

[٤]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٨.

[5]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.10.

فيها، وتواريخ الأيام التي يحظَّر العمل فيها. وكان بإمكانه تعطيل أيِّ إجراء عامٍّ، بالإعلان عن وقوع نذر سيِّىء في الموعد الذي كان محدَّدًا لاتِّخاذ هذا الإجراء[١]، ولا شكَّ في أنَّ سلطات هذا المنصب يمكن أن تمتد حتى تطال شؤون السياسة والحكم، كأن يقوم بتعديل التقويم لتطول مدَّة حكم القنصل[٢].

عمومًا، لقد كان للكهنة دور كبير منذ بداية العصر الجمهوريِّ، لأنَّهم حرَّاس القانون الدينيِّ، الذي يسري تطبيقه في عقوبة جرائم كثيرة كانت تُعدُّ ذنوبًا ضدَّ الآلهة، ورجال الدين هؤلاء هم وحدهم الذين يعرفون هذا القانون والصيغ المتَّبعة في جميع أنواع التعاقد حتى يكون العقد صحيحًا من الناحية القانونيَّة[٣].

وعلى خلاف أكثر الأنظمة الحديثة، كان لدى جميع المسؤولين السياسيين الرومان مناصب دينيَّة في أغلب الأحيان، إذ كان يتمُّ استثمار الدين في السياسة، فامتلك رجال الدين (السياسيون) القوَّة لتأخير عمل الجمعيَّات والوظائف الرسميَّة الأخرى لأغراض دينيَّة، حيث يتوجَّب قبل دعوة الجمعيَّات الشعبيَّة للانعقاد، أن يطلب القناصل استشارة المتنبِّئين، الذين يفحصون حركات الطيور، وأحشاء الأضاحي من الحيوانات، وإشارات أخرى يستدلُّون بها على رضى الآلهة من عدمه، وبالتالي كان من الممكن أن يؤخِّر المتنبِّئون أو يبطلوا الإجراءات السياسيَّة إذا ما كانت الطوالع مبشرة، وهكذا كان السياسيون ممَّن يشغلون هذه المناصب الدينيَّة ويستغلُّونها في سبيل تحقيق أهدافهم السياسيَّة[٤]. ولا شكَّ في أنَّ في هذا العمل تحايل على القانون وتعطيل للدستور في سبيل أهداف شخصيَّة، والأشنع من هذا وذلك أنَّها تتمُّ تحت ستار الدين.

٨. الاستحقاق والانتخاب

تجدر الإشارة إلى أنَّ جميع مناصب الدستور الرومانيِّ التي تحدَّثنا عنها تمَّ استيعابها بالانتخاب، باستثناء الديكتاتوريَّة التي كان من يشغلها يعيَّن بها تعيينًا من قبل القنصل

[١]- إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٥٣.

[2]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.10.

[٣]- إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٥٣.

[4]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.10.

أومجلس الشيوخ، وقد انتُخب الأيدل بطرق مختلفة، فالزوج الأول يتمُّ انتخابه من قبل الجمعيَّة الشعبيَّة (مجلس العوامِّ)، التي كان يترأَّسها نقيب العوامِّ، بينما انتُخب النوع الثاني من قبل الجمعيَّة القبليَّة التي يترأَّسها القنصل، وحتى الكاهن الأعظم كان يُنتخب على الأغلب من قبل الجمعيَّة الشعبيَّة، وفي أوقات أخرى عُيِّن من قبل هيئة الكهنة.

وتنبغي الإشارة إلى أنَّ أغلب المناصب كانت مفتوحة للعوامِّ والأرستقراطيين، ولكن وفي وقت سابق من تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة كانت العديد من هذه المناصب ممنوعة على العوامِّ، لكن هذا المنع أزيل بمرور الوقت؛ فمع الوقت صارت مناصب نقيب العوامِّ وأحد القنصلين وأحد الرقباء للعوامِّ، لكن المعضلة الأكبر أنَّ أعضاء مجلس الشيوخ لم يُنتخبوا، بل كان يتمُّ اختيارهم من قبل المسؤولين المنتخبين مثل القناصل والرقباء وأحياناً من قبل الديكتاتور، تمامًا كما فعل سولا وقيصر عندما اختار أعضاء المجلس، وهكذا أثَّرت الانتخابات الشعبية على تكوينه لكن بطريقة غير مباشرة[١].

كما لم يكن هناك شرط أساسيٌّ في الدستور الرومانيِّ كنصاب ملكيَّة رسميٍّ لمن يرغب بأن يشغل منصبًا في السلطة التنفيذيَّة أو في مجلس الشيوخ، لكنَّ المواطنين الأغنياء فحسب هم من يمكن أن يتحمَّلوا القيام بواجبات هذا المناصب، فجميع أعضاء المجلس والمسؤولين في جهاز السلطة التنفيذيَّة، لم يتقاضوا رواتب على عملهم، لا بل إنَّ البعض منهم كان عليه أن يموِّل مهامَّه العامَّة من جيبه الخاص، فكان _ على سبيل المثال _ على الأيدل أن يموِّل الألعاب، وكان على المرشحين للمناصب العامَّة أن يبذلوا الكثير من الأموال على الحملات الانتخابيَّة من جيوبهم[٢].

لقد كان الشيوخ أوسع المواطنين ثروة وأعظمهم أملاكًا عقاريَّة، وكان لديهم أتباع عديدون سيطروا من خلالهم على الناخبين، وثمَّة مصاهرات كثيرة متبادلة قد جمعت بين عائلاتهم، وكان أبناؤهم يدخلون مراتب الأمجاد، وحدهم تقريبًا، أمَّا نبلاء مجلس الشيوخ فكانوا بمثابة طبقة، ومناصب الحكام في الدولة وقف عليهم، وهذا القول تثبته الإحصائيَّات، وسنكتفي ببعض الأرقام التي لا تحتاج بلاغتها إلى أيِّ تعليق، فمن السنة ٢٣٣ إلى السنة

[1]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.11.

[2]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.6.

١٣٣ ق.م، أي خلال مئة سنة من تاريخ روما، تعاقب على القنصلية مئتا قنصل، ينتسبون إلى ٥٨ عائلة فقط، لا بل حدث أكثر من ذلك؛ فقد قدَّمت ست وعشرون عائلة ١٥٩ قنصلاً، بينما قدَّمت عشر عائلات أخرى ٩٩ قنصلاً. فكيف لا يتحقَّق الاتفاق للإبقاء على هذا الوضع واستثماره[١].

ومنذ وقت انتخاب القضاة في روما وتسلُّمهم لمقاليد الحكم، فإنَّهم يصيرون فوق الشعب، وكانوا يؤدُّون دورًا كبيرًا بجانب مجلس الشيوخ في إدارة أمور الدولة، وعندما يقول المؤرخ بوليبيوس إنَّنا «لو نظرنا إلى قوَّة الشعب لبدا الدستور الروماني ديمقراطيًّا من دون ريب»، فإننا نقبل قول هذا المؤرِّخ (بدا) بمعنى (ظهر) فحسب، إذ إنَّ سلطات القناصل، ومن دون أن نأخذ بالاعتبار نفوذ مجلس الشيوخ، كانت متفوِّقة على سلطات مختلف الجمعيَّات الشعبيَّة بما فيها المجالس المئويَّة والقبليَّة ومجالس الجماعات[٢].

وهكذا نجد أن الدستور الرومانيَّ عجز عن تحقيق التكافؤ في الفرص والحقوق السياسيَّة بين المواطنين، فبينما حرم عامَّة الشعب من أبسط حقوقهم السياسيَّة، زاد من نفوذ طبقة النبلاء والأشراف[٣]، وترك جميع السلطات بيدهم[٤].

ثانياً: السلطة الرقابيَّة

يمثِّل مجلس الشيوخ في العصر الملكيِّ صفوة الأرستقراطيَّة، وكان أعضاؤه يجتمعون بدعوة من الملك، الذي كان يعينهم بموجب «تقاليد الأجداد mos maiorum»، وقد ازداد عدد أعضاء المجلس بشكل تدريجيٍّ حتى وصل إلى ٣٠٠ عضو في نهاية العصر الملكيِّ سنة ٥٠٩ ق.م[٥].

وبدا واضحاً أنَّ المجلس سيؤدِّي دوراً مهمَّاً في الحياة السياسيَّة في روما منذ تأسيسه، إذ اتَّسعت سلطاته وصلاحيَّاته في عهد الملوك الذين خلفوا رومولوس، بحكم أنَّ العادات

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٥٠، ١٥١.

[٢]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٩٣.

[٣]- أنظر عنهم شهرة خالد: التشريع الرومانيُّ في العصر الجمهوريِّ، مصدر سابق، ص١٨ - ٢١.

[٤]- محمد عطية الدرسي: أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٦٨.

[5]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.3.

والتقاليد الرومانيَّة أخذت صفةً قانونيَّةً، كما تصدَّر المرتبة السياسيَّة الثانية في الدولة بعد الملك[١]، فبعد موته كان صلاحيَّاته تنتقل إلى أعضاء مجلس الشيوخ، حتى يتمَّ انتخاب ملك جديد، حيث يُصوِّت أعضاء المجلس لاختيار أحدهم ليقوم بأعباء الملك مؤقَّتاً ويسمَّى «الملك المؤقَّت Interrex»، ولا يحقُّ له أن يبقى في منصبه أكثر من خمسة أيام[٢]، لا بل إنَّ صلاحيَّات مجلس الشيوخ وصلت إلى درجة خوَّلته أن يشير على «مجلس الجماعات» بالشخص المختار من قبل الآلهة ليتولَّى منصب الملك، والذي يكون في الغالب أحد أعضائه[٣].

ولكن، ما إن يجلس الملك على العرش حتى كانت السلطة الحقيقيَّة تتركَّز في يده، وتتحدَّث المصادر الرومانيَّة عن الملك تاركينيوس سوبربوسTarquinusSuperbus (٥٣٤- ٥٠٩ ق.م) أي المتعجرف، آخر ملوك روما بأنَّه كان قاسيًا متكبرًّا، كما قام ابنه سكستوسSextus، باغتصاب إحدى قريباته، ما دفعها إلى الانتحار خجلاً، ودفع زوجها وصديق زوجها المدعو بروتوس Lucius Junius Brutus إلى تنظيم الثورة وإسقاط النظام الملكيِّ. ولما كان للأرستقراطيين دور كبير في إسقاط الملكيَّة وقيام النظام الجمهوريِّ كان من الطبيعيِّ أن تكون لهم اليد العليا في الجمهوريَّة الرومانيَّة[٤].

ومع أن مجلس الشيوخ قد فقد سلطته الانتخابيَّة في العصر الجمهوريِّ التي كانت له في العصر الملكيِّ؛ إذ كان ينتخب الملك، فأصبحت المجالس المئويَّة هي صاحبة الحقِّ في انتخاب القنصل[٥]، إلاَّ أنَّه استمرَّ في العصر الجمهوريِّ مجلسًا استشاريًّا، ذا سلطات رسميَّة محدودة، ولم يكن هيئة تشريعيَّة؛ إذ لم يكن من حقِّه التشريع، أو إصدار القوانين، أو تعيين الحكَّام وموظَّفي السلطة التنفيذيَّة، بل كان من واجباته كمؤسَّسة استشاريَّة: استقبال الوفود الأجنبيَّة، والاستماع إليهم، وإعداد التقارير للقنصل، ومناقشة السياسة العامَّة للدولة، وإصدار

[١]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٣٦.

[2]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.3.

[٣]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٣٧.

[4]- Domingo, R, Op. Cit, 2018, p.3.

[٥]- شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٧٠.

التوصيات التي لم تكن ملزِمة من الناحية القانونيَّة، هذا من الناحية الدستوريَّة النظريَّة[١].

أمَّا من الناحية العمليَّة فسرعان ما زحف المجلس بصورة ديكتاتوريَّة إلى صلاحيَّات المجالس الشعبيَّة، وانتزع منها حقَّ تعيين الموظَّفين الكبار، كما مارس سلطة تشريعيَّة لم تكن له من قبل من صلاحيَّاته، في ما يسمَّى بآراء أو توصيات مجلس الشيوخ[٢]، لا بل إنَّ كلَّ السلطة الحقيقيَّة كانت بيد مجلس الشيوخ، فخلال أربعة قرون كان الهيئة الحاكمة الأكثر أهميَّة في السياسة الخارجيَّة، ومارس سيطرة عليا على كلِّ الأمور الإداريَّة في الدولة، ورغم أنَّ توصيات المجلس ما كانت لها قوَّة قانونيَّة رسميَّة إلزاميَّة، ما لم تعرض تلك التوصيات على الجمعيّة العموميَّة وتنال الموافقة، بحكم أنَّ الجمعيَّة القبليَّة كانت هي الهيئة التشريعيَّة الرئيسيَّة في الدولة وفق الدستور الرومانيِّ، فإنَّ القناصل وجميع أفراد السلطة التنفيذيَّة كانوا بحاجة إلى دعم أعضاء مجلس الشيوخ بحكم أنَّهم من الرجال المجرَّبين وأدُّوا دورًا مهمًّا في استمراريَّة الحكومة، لأنَّ أكثر موظَّفي السلطة التنفيذيَّة كان عندهم شرط السنة الواحدة، بينما كان أعضاء مجلس الشيوخ مستمرِّين في منصبهم مدى الحياة[٣].

لقد كان اختيار أعضاء مجلس الشيوخ، في مطلع العصر الجمهوريِّ، يتمُّ من قبل القنصل أو الحكام العسكريين، الذين حشوا المجلس بأصدقائهم، ولكن وبعد صدور القرار الأوقيني Lex Ovinia سنة ٣١٨ ق.م أصبح هذا محصورًا بمراقبي الإحصاء وحدهم[٤]، حيث صار يتمُّ اختيارهم من بين القناصل السابقين، ورؤساء الأسر النبيلة فحسب، وهكذا تمكَّن بعض أعيان العوامِّ من التسرُّب إلى عضويَّة مجلس الشيوخ بموجب هذا القانون، الذي نصَّ على تعيين الحكَّام القدماء أعضاء فيه، لكنَّ عددهم ظلَّ محدوداً، إذ إنَّ الأغلبيَّة الساحقة من الحكَّام المنتخبين كانوا من طبقة النبلاء.

وكان يطلق على أعضاء مجلس الشيوخ من طبقة النبلاء اسم الآباءPatres، بينما أطلق على أبنائهم وأحفادهم اسم «البطارقة» Patricians وذلك لتميُّزهم عن الشيوخ العوامِّ، حيث

[1]- Posner, A. E, Op. Cit, 2010, p.6.

[٢]- شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٧٠.

[3]- Posner, A. E, Op. Cit, 2010, p.6.

[٤]- إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٥٤.

أخذ القناصل يعيِّنون بعض العوامِّ في عضويَّة المجلس[١].

ورغم دخول العوام إليه، إلاَّ أن المجلس بقي الحصن الحصين للنبلاء الرومان، ويمثِّل الظاهرة الأرستقراطيَّة في الدستور[٢]، لأنَّ العضو من طبقة العوامِّ لم يمارس من سلطاته إلاَّ الصفة الاستشاريَّة[٣]، وعلاوة على أنَّ تلك الفئة لم تكن تمثِّل مصالح جماهير الشعب تمثيلاً صحيحًا، بحكم وضعها الماليِّ، فإنها لم تتمكَّن بأفرادها ذوي العدد اليسير من التأثير الناجح في سياسة هذا الجهاز الحاكم الذي ظلَّ يُعدُّ المكان الحصين للفئات المحافظة في المجتمع الرومانيِّ لأزمان طويلة[٤].

ورغم أن اختيار أعضاء مجلس الشيوخ لم يكن خاضعًا لمؤهَّل الملكيَّة الرسميِّ، إلاَّ أنَّه كان من الواجب أن يكون العضو من أصحاب الأملاك الكبيرة، حتى يتفرَّغ لمنصبه أولاً، ويقيت نفسه وأسرته ثانيًا، لاسيَّما أنه حُرِّم عليهم العمل في التجارة، وعملوا كأعضاء في هذا المجلس من دون مرتَّبات، لا بل إنهم كانوا بحاجة إلى أموال طائلة حتى يتمكَّنوا من الفوز في الحملات الانتخابيَّة لشغل الوظائف التي تؤهِّلهم إلى الارتقاء في السلَّم الشرفيِّ، الذي يفتح لهم الباب أمام عضويَّة المجلس. فعلى سبيل المثال توقَّع الأيدل تمويل الألعاب في مواسم الاحتفالات الدينيَّة[٥].

ورغم أنَّ سلطات مجلس الشيوخ على الجمعيَّات الشعبيَّة والمسؤولين في جهاز السلطة التنفيذيَّة ما كانت دستوريَّة، ولكنها كانت مستندة إلى التقاليد الرومانيَّة المتراكمة على مدى قرون. وهكذا أحكم قبضته على الشؤون الخارجيَّة؛ إذ عيَّن المبعوثين للمهمات في الخارج، وكان عليهم إدارة المفاوضات بتوجيهاته[٦]. وله فوق ذلك وظائف إداريَّة؛ إذ كان يتَّخذ الإجراءات الرادعة ضدَّ موظَّفي السلطة التنفيذيَّة الذين أخلُّوا بالأمانة وانتهكوا حرمة

[١]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٧٠. عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٢.

[٢]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٧٠.

[٣]- شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٧٠.

[٤]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصد سابق، ص٢٧٠.

[5]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.6.

[6]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.15.

منصبهم. كما أدار الماليَّة العامَّة للدولة، لأنَّه أصبح يحدِّد طرق استعمال أموال الخزانة[١]، وفرض الضرائب على المواطنين، وقام بتحديد المبالغ التي يجب أن تدفعها الولايات التابعة لروما، وكان عليه جمع ماليَّة الجيش، والقيام بالمشروعات العمرانيَّة، والإشراف على الأشغال العامَّة، والألعاب العامَّة. كذلك سيطر على الحياة الدينيَّة الرسميَّة[٢]. وكان له أيضًا سلطات أدبيَّة على الدولة؛ فإذا ما أحرز قائد عسكريٌّ نصرًا فمن حقِّ المجلس تقرير ما إذا كان يستحقُّ أن يحصل على موكب النصر من عدمه[٣].

ومع أنَّ القرار النهائيَّ للإعلان عن الحرب والسلام، وتوقيع المعاهدات الختاميَّة، تُرك للجمعيَّات الشعبيَّة، لكن رأي المجلس كان في الواقع هو الحاسم بهذا الخصوص[٤].

ولمَّا كان معظم أعضائه من أصحاب الجاه والثروة، ويمتلكون قوَّة التأثير، كان موظَّفو السلطة التنفيذيَّة يرغبون بالمحافظة على علاقات طيِّبة معهم[٥]، بل إنَّ إصدار أيِّ قرار كان يتطلَّب اقتراحه من قبل القنصل على المجلس ليأخذ النصح منه، أو بمعنى آخر حتى يتجنَّب الصدام معه، بحكم أن أعضاءه يخدمون مدى الحياة. وكان القنصل الطائش وغير المتعقِّل هو الذي يطرح قضايا كهذه على الجمعيَّات الشعبيَّة مباشرة من دون أخذ رأي المجلس واستشارته. وبعد موافقته عليها كان يمكن للقنصل أن يعرضها على الشعب ليقرَّها ويوافق عليها[٦].

صحيح أنَّ القنصل هو الذي يستدعي أعضاء مجلس الشيوخ للاجتماعات ويحدِّد لهم جدول أعمالهم، إلَّا أنَّه متى قدَّم لهم اقتراحه وسألهم النصح، كان على الأعضاء مناقشة القضيَّة، وكانت المماطلات السياسيَّة تؤدِّي دورًا مهمًّا لأنَّ الجلسة يجب أن تنتهي في المساء، وفي النهاية يدعو القنصل الذي يترأَّس الجلسة إلى التصويت على اقتراحه كإصدار مشروع مرسوم مثلاً، وعلى أعضاء المجلس أن يصوِّتوا لصالح المشروع أو ضدَّه، كما أنَّ

[1]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.27.

[2]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.15.

[3]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.27.

[4]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.15.

[5]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.27.

[6]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.15.

المرسوم يمكن أن يُنقض من قبل نقيب العوامِّ باستخدام حقِّ النقض (الفيتو)، أو من القنصل الثاني، فإذا نجا من النقض، يجب تسجيله وتكليف عدد من أعضاء المجلس بصياغة عباراته. وقد تفاوت عدد أعضاء مجلس الشيوخ الحضور من حيث العدد، لكنهم دائمًا كانوا فوق المئة، لأن باقي الأعضاء كانوا غائبين في أغلب الأحيان، إذ كان يمكن للاجتماع أن ينعقد بعدد منخفض[١].

تجدر الإشارة إلى أنَّ المجلس كان يمارس ديكتاتوريَّة مبطَّنة على البلاد في حالات التوتُّر الخطيرة، حيث كان من حقّه إعلان حالة الطوارئ في البلاد، ويطلب من القناصل الدفاع عن الجمهوريَّة الرومانيَّة ويخوِّلهم الصلاحيَّة لتطبيق إجراءات استثنائيَّة، من ضمن ذلك التعليق المؤقَّت لبعض المؤسَّسات الدستوريَّة[٢].

من المهمِّ القول أنَّ ديكتاتوريَّة مجلس الشيوخ تجلَّت في ما يسمَّى بسلطة الآباء Patrumauctoritas، التي تبدَّلت في العهد الجمهوريِّ من استشاريَّة إلى تشريعيَّة[٣]، وتكريسًا لهذه السلطة الشموليَّة تمَّ استبدال تسميتها اعتبارًا من سنة ٣٩٩ ق.م بالمشورة Consultum حيث كان يحقُّ للمجلس تعديل أو إلغاء قرارات المجالس المئويَّة والقبليَّة. وكانت صيغة المشورة في ظاهرها وجهة نظر غير ملزمة، إلاَّ أنَّها تتضمَّن دائمًا التعبير المقيَّد؛ فصيغة «إذا ارتأى» التي تحفظ في ظاهرها حريَّة القنصل أو موظَّفي السلطة التنفيذيَّة في التقرير، كانت بمعنى الإلزام، وكان القناصل وغيرهم يعملون بها كما لو أنَّها أوامر قطعيَّة[٤].

من جانب آخر، كان للحروب البونيَّة نتائج بالغة الأهميَّة على الدستور الرومانيِّ، فقد تسبَّب إخفاق بعض القادة العسكريين المنتخبين من طبقة العوامِّ _ الذين سبق لهم أن حاربوا نفوذ مجلس الشيوخ _ في قيادة معارك تلك الحرب الضروس إلى استرداد النبلاء لنفوذهم، فازداد نفوذ المجلس، فبعد تلك الهزائم الكبرى (تراسمين وكاناي) أجمع الشعب الرومانيُّ على ضرورة نهوض النبلاء بأعباء القتال وتولِّي الأمور، ولمَّا استطاع القادة

[1]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.6.

[2]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.15.

[٣]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٤.

[٤]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٣١١.

المحسوبون على المجلس تحقيق الانتصارات المتتالية[١]، ولمَّا تعدَّدت الجبهات الحربيَّة، وتغيَّب عظام القادة، وعدد كبير من المواطنين المجنَّدين تغيُّبًا مستمرًّا عن الدولة، طيلة خمس عشرة سنة تقريبًا، نهض مجلس الشيوخ بأعباء الحكم وحده تقريبًا[٢]، مماَّ كان سببًا في ازدياد نفوذه، حتى صار القناصل أداة طيِّعة بيده، لا عمل لهم سوى تنفيذ رغباته. ولم يتمكَّن أحد من الصمود في وجهه سوى نقابة العوامِّ، فما كان من أعضائه إلَّا أن طوَّعوا هذه النقابة ببعض التدابير التي مكَّنتهم من كسب نقباء العوامِّ إلى جانبهم، وذلك بإسباغهم شيئًا من الاعتبار على هذا المنصب، بإعلان جعله الخطوة الأولى في سلك المناصب الرومانيَّة العامَّة، الأمر الذي أدَّى إلى شلِّ حركة من شغلوا هذا المنصب، فارتموا في أحضان أعضاء مجلس الشيوخ[٣].

لقد اضطرَّت ظروف هذه الحرب الحكومة الرومانيَّة إلى مخالفة الأُسس والقواعد الدستوريَّة التي وضعوها لتولِّي المناصب المهمَّة، ولاسيَّما القنصليَّة، ووجد مجلس الشيوخ نفسه مضطرًّا إلى توحيد القيادة العسكريَّة العليا وإسنادها إلى قائد واحد متناسيًا ومتساهلاً بالقيود الزمنيَّة (القيد السنويِّ) التي كانت مفروضة على تولِّي تلك المناصب، وما كان منها ذا طابع عسكريٍّ. والواضح أنَّ المجلس كان ميَّالاً دائمًا إلى جعل القيادة العسكريَّة بأيدي قادة عديدين يتولَّون مهامَّ الجيش والقتال، إلَّا أنَّ الحرب البونيَّة اضطرَّته إلى توحيد تلك القيادة، شريطة أن تبقى تحت إشرافه. ولمَّا فشل القادة من طبقة العوامِّ في تحقيق النصر، ونجح القادة من طبقة الأشراف في تحقيقه، مع رغبة أعضاء المجلس في استرداد ما كان لهم سابقًا من نفوذ، كل ذلك كان بمثابة مرحلة تمهيديَّة لقيام الديكتاتوريَّة العسكريَّة بأعباء الحكم[٤].

ولعلَّ أوضح مثال لخرق الأعراف والتقاليد الدستوريَّة في ما يتعلَّق بسِنِّ ومدَّة القيادة، ما وصل إليه القائد الرومانيُّ سيبو الأفريقيُّ الذي أحرز نصرًا مؤزَّرًا على القرطاجيين في معركة

[١]- نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، مصدر سابق، ص٥٣٧.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٥٠.

[٣]- نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، مصدر سابق، ص٥٣٧.

[٤]- المصدر نفسه، ص٥٣٨.

زاما سنة ٢٠٢ ق.م، فقد سما لأهمِّ المناصب وهو لا يزال حدثًا صغير السن، كما استمرَّ متوليًا قيادة الحرب في أفريقيا سنين عديدة، ووصل في آخر الأمر إلى أهمِّ مناصب روما غير مكترث أبدًا بالقوانين المرعيَّة، وضاربًا بالمساواة بالحقوق المدنيَّة عرض الحائط، وفي كلِّ ذلك خلاف صريح وخرق للتقاليد الرومانيَّة التي كان الرومان يحرصون أشدَّ الحرص على التمسُّك بها[١].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف تمكَّن مجلس الشيوخ من القيام بهذه المهمَّة المعقَّدة بنجاح؟ وكيف استطاع أن يستولي على السلطة كاملة أمام أنظار الجميع؟

لو أخذنا في الواقع بعين الاعتبار النفوذين الأدبيِّ والسياسيِّ اللَّذين يدين بهما للتقليد، ولانتخابه، وللخدمات التي يؤدِّيها للمدينة، فلسنا ندرك مثل هذا الانقياد إذا لم نفكِّر بكلِّ ما يرتبط به في حياة الرجل السياسيِّ في روما. فمن حيث أن الشيوخ ينعمون بالتأثير الاجتماعيِّ الذي يوفِّره النسب والثروة، فهم يستخدمونه استخدامًا مجديًا إبَّان الانتخابات، أي انتخابات مختلف القضاة لمناصبهم. وإذا ما نظرنا إليه كهيئة نجد في صلاحيَّاته المعتادة أكثر من إمكان لجعل مهمَّة القنصل سهلة ومجدية أحيانًا، أو إقامة العراقيل في طريقه أحيانًا أخرى، أقلُّها بتشجيع معارضة أحد زملائه أو أحد نقباء العوامِّ، والحكم عليه بأن يبقى مغمورًا. وهكذا تُطبَّق على القنصل دائرة لا يستطيع النجاة منها إلَّا بواسطة صراع سافر، فهو يدفع بمجاملاته رضى الأكثريَّة في مجلس الشيوخ[٢].

وبالعودة إلى ديكتاتوريَّة المجلس وسلطة الآباء، يبدو أنَّ الوضع قد تغيَّر في سنة ١٢١ ق.م نحو قبضة أصلب له، حين أُقرَّت في حمى الصراع ضد جايوس جراكوس Gaius Gracchus، «المشورة القصوى Consultum ultimum» أو القرار الأخير الذي يلزم القناصل بالحرص على «ألَّا تصاب الدولة بأيِّ سوء». وقد اعتمدت هذه الصيغة إبَّان الأزمات اللَّاحقة، لكنَّها بقيت مبهمة، على أنَّ الأكثريَّة الساحقة في المجلس قد فهمتها على أنَّها الإقدام، من دون أيِّ محاكمة، على إعدام مئات من أنصار جايوس جراكوس في سنة ١٢١ ق.م. وستتكرَّر هذه الحادثة في سنة ١٠٠ ق.م كما حدث مع ساتورنينوسوغلوشبا،

[١]- نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، مصدر سابق، ص٥٣٨.

[٢]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٣١١.

وفي سنة ٦٣ ق.م حين تمَّ إعدام شركاء كتالينا بأمر من القنصل شيشرون من دون محاكمة.

فهي إذًا تمنح الحكام سلطات ديكتاتوريَّة مطلقة وتوقف مفعول كلِّ الضمانات القانونيَّة والدستوريَّة، كحصانة نقباء العوامِّ على عامَّة الشعب، وحقِّ رفع الدعوى أمام الجمعيَّة الشعبيَّة. وهذا حقٌّ جديد يدَّعي به المجلس من دون استناد إلى سابقة. ولكن، حين ثار خصومه على اللاَّشرعيَّة لجأوا هم أيضًا إلى المشورة القصوى في سنة ٨٣ ق.م، حين توجَّب عليهم الدفاع عن أنفسهم ضدَّ سولا، ورأوا أنفسهم أسياد المجلس إلى حين، وبالتالي نحن لسنا أمام تجديد دستوريٍّ، بل أمام تدبير قوَّة، فلقد كان النظام في الواقع يتخبَّط في أزمة ولا يعبأ بالقواعد الدستوريَّة والقانونيَّة[١].

لم يفقد مجلس الشيوخ تلك السلطات الواسعة إلاَّ في المئة سنة الأخيرة من عمر الجمهوريَّة، لصالح القادة العسكريين الذين تسلَّطوا على الدستور والدولة والتقاليد الرومانية[٢]. فقد استمرَّ الآمر الناهي طوال أربعة قرون (٥٠٩- ١٠٧ ق.م)؛ أي من سنة ميلاد الجمهوريَّة، حتى السنة التي ظفر فيها ماريوس بمنصب القنصليَّة.

إنَّ خروج المجلس عن القواعد الدستوريَّة، التي تعدُّ جوهر كيانه وأساس بقائه، ومنحه صلاحيَّات زائدة للقادة العسكريين، ولجوءه إلى العنف في أكثر من مناسبة، وإراقته للدماء، كان سببًا في إفقاده هيبته بين المواطنين، وفتح الباب لهؤلاء القادة العسكريين ليستفردوا به بعدما قضوا على أعدائه المؤقَّتين.

فمن أعظم الأخطاء الدستوريَّة التي ارتكبها مجلس الشيوخ بهذا الخصوص كان قبوله المساعدة من بومبي الذي لم يكن عضوًا فيه ولا تولَّى منصبًا عامًّا من قبل، حيث أصدر القرار الأخير وخوَّله بقيادة الجيش للقضاء على تمرُّد ليبدوس، وبالفعل تمكَّن من هزيمة قوات خصمه في سنة ٧٧ ق.م[٣].

---

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٤٨. وانظر أحمد حافظ غانم: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة من النشأة إلى الانهيار، مصدر سابق، ص٢٨ - ٣٠.

[2]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.6

[٣]- محمد عواد حسين: الثورة الرومانيَّة، المرحلة الثالثة، الصراع بين بومبي وقيصر حتى الحرب الأهليَّة ٧٩- ٥٠ ق.م، مجلَّة «عالم الفكر»، مج ١٢، العدد ٣، الكويت د.ت، ص٩٣، ٩٤.

لكن بومبي عندما أنهى أمر جنود ليبيدوس رفض أن يسرِّح جنوده وطلب إيفاده إلى إسبانيا لمساعدة القوَّات الرومانيَّة العاملة هناك ضدَّ ثورة سرتريوس أحد أقطاب الحزب الشعبيِّ، وذلك رغم أنَّه لم يكن قد بلغ السنَّ التي تؤهِّله لذلك، ولم يتدرَّج في سلك الوظائف العامَّة. وأمام رفض القنصلين لقيادة تلك الحملة وافتقار مجلس الشيوخ للقادة الأكفاء، وافق على منح بومبي سلطة الأمبريوم البرقنصليَّة ليتولَّى بمقتضاها قيادة الجيش مرتكبًا بذلك مخالفة دستوريَّة أعظم[١]. وحين تساءل أحد أعضائه عما إذا كان من الضروريِّ منحه كلَّ هذه السلطات، قيل له إنه ذاهب للقيام بعمل القنصلين معًا لا بعمل قنصل واحد[٢].

والأنكى من ذلك أنَّ بومبي عاد إلى روما ليتولَّى القنصليَّة مع كراسوس، وقد نجحا على رغم أنَّ بومبي الشاب لم يكن قد استوفى شروط الترشُّح للقنصليَّة، إذ لم يكن قد شغل منصب الكويستور أو البيرتور، وما زال بحاجة إلى ست سنوات حتى يحقِّق شرط السنِّ اللاَّزم لتوليِّ منصب القنصل[٣]، حيث صدر قانون في روما سنة ١٨٠ ق.م وبينَّ أنَّ على المرشَّح أن يشغل منصب الكويستر quaestorship قبل أن يصبح قاضيًا، وعليه أن يشغل منصب القضاء praetorship قبل أن يصبح قنصلاً. وتجدر الإشارة إلى أنَّ المرشَّح لا يمكن أن يترشَّح للمناصب مباشرة، بل هناك فروق سنوات لا بدَّ من أن تمضي بين المنصب والآخر، كما كان هناك متطلِّب العمر، فلا بد من أن يبلغ المرء سنَّ الثلاثين قبل أن يترشَّح لمنصب الكويستر، وعليه أن يبلغ سنَّ ٣٦ قبل أن يترشَّح لمنصب الأيدل، وسنَّ ٣٩ قبل أن يترشَّح لمنصب قاضي، وسنَّ ٤٢ قبل أن يترشَّح لمنصب قنصل. بينما لم يكن هناك سنٌّ معيَّنة للرَّاغبين بالترشُّح لمنصب نقيب العوامِّ، لأنَّ هذا المنصب كان مقصورًا على العوام[٤]. وهكذا يكون بومبي بتولِّيه القنصليَّة قد ضرب بجميع أعراف وقواعد الدستور الرومانيِّ عرض الحائط.

كما نجح كراسوس رغم معارضة مجلس الشيوخ له لأنَّه كان قد تولَّى منصب البيرتور

---

[١]- عبد اللطيف علي أحمد: التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٠٧.

[٢]- محمد عواد حسين: الثورة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٩٤.

[٣]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٢

[4]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.10.

سنة ٧٢ ق.م، وبالتالي لا يجوز له أن يشغل منصب القنصل سنة ٦٩ ق.م، وهذه مخالفة دستوريَّة جديدة، كما أنَّها تدخُّل أرعن من قبل الجيش في شؤون السياسة[١].

ولمَّا حاول المجلس جاهدًا القضاء على بومبي، وعلى كلِّ من تُسوِّل له نفسه أن يطمح لما هو خارج عن الدستور (قيصر وكراسوس)، ذلك الدستور الذي خرقه أعضاؤه بأنفسهم في الأمس القريب عندما شعروا بالخطر يُحدِق بهم، أسهمت محاولتهم الفاشلة في اتِّحاد جميع هؤلاء الأفراد الطامعين بالسلطة في مؤتمر لوكا سنة ٥٦ ق.م، الذي تمخَّض عنه ميلاد الحكومة الثلاثيَّة، وبالتالي لم يعد لمجلس الشيوخ من دور دستوريٍّ في روما، لا بل إنَّه راح يسعى جاهدًا لبثِّ نار العداوة ما بين قيصر وبومبي، مما تسبَّب في نشوب الحرب الأهليَّة، وسقوط النظام الجمهوريّ.

غنيٌّ عن القول أنَّ موضُوعَيْ خوف النبلاء من تمركز السلطة بيد حاكم فرد، ومحاولة إقصاء العوامِّ عن السلطة، كانا سمة أساسيَّة من سمات التاريخ الرومانيِّ، فقد خافوا أن يصل الديماغوجيون الشعبيون إلى السلطة، فعملوا بشتَّى السبل لإقصائهم عن السلطة، مع استرضائهم بوعود إعادة توزيع الثروة عليهم، وبدا واضحًا أنَّ ذلك الخوف كان سببًا في وضع العديد من المعايير الدستوريَّة المنافية للمنطق السليم، ولو أنَّ تلك المعايير الرقابيَّة احترُمت من قبل النُّخب التي وضعتها، لكان من المستحيل أن يتمكَّن جنرال طموح أو ديماغوجيٌّ مؤثِّر من تأسيس ديكتاتوريَّة ناجحة، ولن يكون قنصلاً لأكثر من سنة، وحتى في تلك السنة، عليه أن يشترك بالسلطة مع الآخرين، وحتى لو وصل إلى عضويَّة مجلس الشيوخ، فلن يكون له أكثر من صوت واحد، وهلُمَّ جرًّا. لكن المشكلة ظهرت لأنَّ تلك التقاليد الدستوريَّة لم تكن قويَّة بما فيه الكفاية لمنع حدوث ذلك، فكثير من الجنرالات العسكريين حصلوا على القوَّة بالوسائل الدستوريَّة، أو بتعبير أدقَّ من خلال خرق القواعد الدستوريَّة، من قبل حرَّاس الدستور (أعضاء مجلس الشيوخ)، وبالاعتماد على الجنود والمؤيِّدين، وبالتهديد بالعنف، وهذا ما حدث في النهاية، بدءًا بماريوس ثمَّ سولا، وبلغ ذروته مع بومبي ثمَّ قيصر[٢].

---

[١]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٩٢.

[2]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.18.

ثالثاً: السلطة الشعبيَّة

وتشتمل على نقباء العوامِّ والجمعيَّات الشعبيَّة، كما يأتي:

١. نقباء العوامِّ (الترابنة)

بعدما ضاق العوامُّ ذرعًا بالظلم الواقع عليهم، قرَّروا التمرُّد ورفضوا دخول روما إثر عودتهم من إحدى الحملات العسكريَّة في سنة ٤٩٤ ق.م، فعبروا نهر التيبر Tiber إلى جبل مجاور يسمَّى الجانيكلولوم Janiculum، ضمن منطقة يرتادها التجَّار الإغريق (ذوي الأفكار الديمقراطيَّة) واعتصموا بها، وهددوا بإنشاء مدينة جديدة. وكان هذا يعني فراغ روما من اليد العاملة والموارد البشريَّة التي كانت أساس القوَّة العسكريَّة، في الوقت الذي كانت فيه الدولة بحاجة متزايدة إلى المال والجنود نتيجة سياساتها القائمة على التوسُّع الخارجيِّ، وتهديدات جيرانها اللاَّتين لها بالاحتلال. في ضوء هذا التحرُّك، اضطرَّ النبلاء إلى مفاوضة العوامِّ، ورأوا أنَّ من الحكمة إعطاءهم بعضاً من حقوقهم، وتمخَّضت المفاوضات عن اتِّفاق عُرف باسم: «اتفاق الجبل المقدَّس[١]».

لقد حصل العوامُّ نتيجة هذا الاتِّفاق الذي تمَّ سنة ٤٩٤ ق.م على حقِّ إنشاء مؤسَّسة تضمُّ أربعة أشخاص، عُرفوا باسم نقباء أو محامي العوامِّ/ تريبون Tribune، وصاروا يتولَّون حمايتهم والدفاع عنهم، وعلى خلاف القضاة والقناصل كان هذا المنصب حكرًا على العوامِّ من دون غيرهم، وكان هؤلاء ينتخبون نقباءهم في جمعيَّاتهم الخاصَّة بهم لسنة واحدة فقط، وكان عدد النقباء أربعة في البدء قبل أن يرتفع إلى عشرة اعتبارًا من سنة ٤٧١ ق.م، بعدما تكاثر عدد القبائل وازدادت أهميَّة العوامِّ في المجتمع الرومانيِّ.

وجُعل هؤلاء النقباء مقدَّسين بأشخاصهم ولا يجوز لأيِّ إنسان أن يمسَّهم بأذى، ومن يتجرَّأ عليهم يصبح خارج القانون ويحكم عليه بالإعدام. ولقد امتدَّ التقديس إلى بيوتهم حيث لا يجوز لأيِّ إنسان مهما علا شأنه أن ينتهك حرمتها، وكان يحقُّ لأيِّ فرد من العوامِّ إذا عدَّ نفسه مضطهدًا أو مطاردًا أن يعتصم بها، وهذا ما يطلق عليه اسم حقِّ المساعدة Jus auxilii؛ فيتدخَّل عندئذٍ النقيب بما يتمتَّع به من حقِّ النقض (الفيتو)، ويوقف أيَّ قرار من

[١]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٩، ٦٠.

قرارات مجلس الشيوخ، أو يمنع تنفيذ أيِّ إجراء إداريٍّ صادر عن أيِّ حاكم أو موظَّف مهما علت رتبته.

ومثلما كان الديكتاتور يتمتَّع بسلطة تنفيذيَّة لا حدود لها، كان نقيب العوامِّ يتمتَّع بسلطة مطلقة في معارضة ورفض أيِّ إجراء يمسُّ بمصالح طبقته، أي أنَّ صلاحياته لم تكن كلُّها إيجابيَّة بل كان بعضها سلبيًّا هدَّامًا تتمُّ من خلاله عرقلة عمل المؤسَّسات الدستوريَّة[١].

ومنذ سنة ٣٠٠ ق.م، صار يحق لنقباء العوامِّ تقديم أيِّ قنصل سابق للمحاكمة أمام الجمعيَّة القبليَّة، ما جعلهم رقباء على المصلحة العليا للدولة، لكن هذا ظلَّ نظريًّا[٢]، لأنَّ تلك الجمعيَّة كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة النبلاء.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ لهذا المنصب سلبيَّات أخرى، فالنُّبلاء سعوا لتقييد صلاحيَّاته في الظروف الاستثنائيَّة، فعند إعلان حالة الطوارئ لا يحقُّ لنقيب العوامِّ أن يعترض على تصرُّفات الديكتاتور، الذي ربما يكون قد عُيِّن لقمع انتفاضة شعبيَّة تطالب بالعدالة والمساواة. هذا من جانب، أمَّا من الجانب المقابل فإذا كان الخطر الذي يهدِّد البلاد خارجيًّا وتمَّ تسيير الجيش إلى خارج روما، فإنَّ النقيب يفقد حقَّه في حماية العوامِّ، لأنَّ الدستور ينصُّ على أنَّ هذه الصلاحيَّات كانت فعَّالة داخل روما فحسب، لكنَّها كانت تتعطَّل خارج أسوارها، فالنقيب يغدو مواطنًا عاديًّا إذا ما ابتعد مسافة ميل (١٤٧٩م) عن إطارها، وهذا يعني أن لا سلطة له على الجيش، بمعنى أنَّ النبلاء فرَّغوا هذا المنصب المخصَّص للعوامِّ من سلطته[٣].

أمَّا السلبيَّة القاصمة فهي أنَّ بعض قرارات النقيب لا تصبح نافذة إلَّا إذا صوَّت عليها النقباء العشرة بالإجماع، إذ يكفي أن يخالف أحد هؤلاء العشرة رأي زملائه، ليصبح قرارهم باطلًا[٤].

ولعلَّ أبرز مثال يمكن أن نقدِّمه هنا، هو مشروع قرار تيبيروس جراكوس الهادف إلى توزيع الأراضي على الفلَّاحين لتعمير الريف بالأصحَّاء منهم، والذي نجح باستصداره من

[١]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٢.

[٢]- إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٦.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٣٥.

[٤]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٣.

الجمعيَّة القبليَّة، بعدما اقتنعت بأهميَّته، ولمَّا كان النبلاء يسعون بكلِّ طاقتهم في سبيل تعطيل هذا القرار المضرِّ بمصالحهم، فإنهم نجحوا باستمالة أوكتافيوس_ أحد نقباء العوامِّ _ الذي اعترض على المشروع وكاد يلغيه لولا أن اتخذ تيبيروس خطوة ثوريَّة في تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة، وقام بسحب الثقة منه وعزله بعدما خيَّب ثقة العوامِّ الذين انتخبوه حتى يدافع عن قضاياهم. ويُعدُّ هذا القرار سابقة غير دستوريَّة كونها الأولى من نوعها[١]، فعلى حدِّ وصف بلوتارخ: «كان تيبيريوس بعمله هذا أوَّل من تسبَّب بانتهاك حرمة منصب نقيب العوامِّ عندما عزل أوكتافيوس بتلك الطريقة المهينة، وقد بقيت حتى ذلك اليوم مصونة مقدَّسة أبدًا، وإن كان قد حاول في خطبه أن يبرِّر ما قام به[٢]».

لقد انتهت السنة التي انتخب فيها تيبيروس نقيبًا للعوام، ولم تكن أهداف مهمَّته قد تحقَّقت بعد، حيث لم يكن قد انتهى بعد من توزيع أراضي الدولة على المواطنين الفقراء من سكَّان روما، فما كان منه إلَّا أن أقدم على ترشيح نفسه لمنصب نقيب العوامِّ مرَّة ثانية لتطبيق هذا القانون، والأهمُّ أنَّه كان يطمع في البقاء في هذا المنصب، إذ كان يخشى على نفسه أن يفقد تلك الحصانة التي منحها إيَّاه ذلك المنصب، وفي ترشيح نفسه مرَّة ثانية على التوالي خَرقٌ للعُرف والتقاليد الرومانيَّة؛إذ كان أمرًا محظورًا بمقتضى قانون فيلليوس الصادر سنة ١٨٠ ق.م، ومع أنَّه ليس من المؤكَد أنَ هذا القانون كان ينطبق على نقابة العوامِّ لعدم اعتبارها _ من الناحية العلميَّة _ منصبًا حكوميًّا، إلَّا أنَّه لم يحدث أن تكرِّر ترشيح أحد للمنصب عينه مرَّتين متتاليتين، منذ الصراع القديم بين طبقتَيْ النبلاء والعوامِّ.

وقد أقدم تيبيريوس على هذا الأمر بحجَّة أنَّه لا يتعارض مع الدستور الرومانيِّ، إلَّا أنَّه كان مجافيًا لروحه لما فيه من خروج على القاعدة العرفيَّة المستقرَّة منذ القرن الثالث قبل الميلاد[٣]. فثار بعض أنصار مجلس الشيوخ، وقبضوا عليه واغتالوه في يوم الانتخابات، وكانت هذه

[١]- هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيَّة الجمهوريَّة الأمبراطوريَّة حتى عهد الأمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م، ص٢١٦.

[٢]- بلوتارخ: تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج٣، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَة للموسوعات، بيروت، ٢٠١٠م، ص١٥٢٢.

[٣]- عبد اللطيف علي أحمد: التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١٢.

الحادثة بداية إسالة الدماء في صراع روما السياسيِّ الذي لن يتوقَّف قبل ١٠٠ سنة[١].

وخلال هذا الصراع فقد المجلس هيبته وكبرياءه عندما لجأ إلى القوَّة ليفرض وجهة نظره، وبذلك تخلَّى عن الوسائل الدستوريَّة التي تعدُّ جوهر كيانه وأساس بقائه، كما أنَّ تحدِّي مجلس الشيوخ صار سابقة سيقتبسها السياسيون المقبلون في معاملتهم لمجلس الشيوخ في ما بعد[٢].

ولمَّا كان هذا المنصب حكرًا على العوامِّ، فقد أوجد النبلاء فتوى قانونيَّة للاستيلاء عليه، إذ كان بالإمكان أن يصير أحد الأرستقراطيين نقيبًا للعوامِّ، شريطة أن ينسب نفسه لإحدى عائلات العوامِّ، تمامًا كما فعل كلاوديوس Clodius العدوُّ السياسيُّ اللَّدود لشيشرون ـ سنة ٥٩ ق.م، عندما انتسب إلى إحدى تلك العائلات، واستطاع أن ينجح في انتخابات نقابة العوامِّ لسنة ٥٨ ق.م، وهكذا نجد أنَّه رغم طابع هذا المنصب الشعبيِّ، ومهمَّته الأساسيَّة في الدفاع عن مصالح الشعب، إلَّا أنَّ الأرستقراطيين استطاعوا أن يستوعبوا النقباء ويسيطروا عليهم[٣].

٢. الجمعيَّات الشعبيَّة

إنَّ وجهة النظر التقليديَّة ترى في النزاع الذي اندلع بين النُّخب والجماهير (النبلاء والعوام) أنَّه كان يسير باتجاه مصلحة العوامِّ، ففي البداية تكتَّل الأرستقراطيون مع الأغنياء منهم، وأرادوا أن يُبقوا الوضع الراهن على ما هو عليه، أمَّا العوامُّ العاديون، أو بتعبير آخر، السواد الأعظم من الشعب الرومانيِّ، والذين تحالفوا مع بعض أفراد من الطبقة الأرستقراطيَّة (جراكوس)، ليقود لهم هؤلاء الأفراد نضالهم الشعبيِّ، فقد أرادوا إعادة توزيع الثروة وإعطاء الجماهير حقَّها منها. وقد عُرفت المجموعة الأولى باسم optimates، بينما عُرفت المجموعة الثانية باسم الشعبيين populares.

ولمَّا كان القناصل والقضاة خاضعين لسلطة مجلس الشيوخ، في القرون الأولى من

[١]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٧٨.

[٢]- هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٢٥.

[3]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.14

تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة، الذي سيطرت عليه النخب، وأكثر المناصب كانت مفتوحة لأبناء الطبقة الأرستقراطيَّة، ولمَّا كانت النُّخب بحاجة إلى دعم الناس العاديين (الشعب)، الذين كانوا العنصر الأساسيَّ للقوَّة البشريَّة التي كانت عماد قوة الجيش، كما كانت مصدر عدم استقرار للدولة وقوة ضغط داخليَّة، ولضمان حصول هذه النخب على دعم الطبقة الشعبيَّة، وكفِّ شرِّها في الوقت ذاته، بدأ الأرستقراطيون رويدًا رويدًا بمنح العوامِّ بعضًا من حقوقهم على مدد زمنيَّة متقطِّعة، وبنهاية عصر الجمهوريَّة أصبحت بعض المناصب محجوزة لهم، مثل منصب نقيب العوامَّ، بينما كانت أكثر المناصب مفتوحة للأعضاء من كلتا الطبقتين، لا بل كان بوسع الجمعيَّة القبليَّة أن تقرَّ القوانين التي تطبَّق على جميع السكان[1].

لقد كان الصراع الطبقيُّ عاملاً محوريًّا في السياسة الرومانيَّة، والمصادر الكلاسيكيَّة تردِّد وجهة النظر التقليديَّة هذه، وتتحدَّث عن أنَّ الأمور كانت تسير لمصلحة العوام بمرور الزمن، لكن هذا الوصف لم يكن دقيقًا، فالطبقة الدنيا كانت موضع استغلال النبلاء بصورة أكبر، وعلاقات التبعيَّة استمرَّت طوال العصر الجمهوريِّ، واعتمد الناس العاديون على السيد النبيل الذي كانوا يتبعون له في الإعانات الماليَّة، وفي النصيحة، والعلاقات العامَّة، والمنافع الأخرى، وبالتالي لم يكونوا قادرين على ممارسة استقلالهم السياسيِّ، لاسيَّما أنَّ هذا الاستقلال كان يتطلَّب الكثير من الثروة من أجل القيام بالحملات الانتخابيَّة (التي كانت تتضمَّن الرشوة) وتحمُّل أعباء المنصب الماليَّة. فعلاوة على أنَّ المنصب لا راتب منه، كان يُتوقَّع من شاغله أن يقدِّم أمواله الخاصَّة للصَّالح العامِّ في سبيل إنجاح مهمَّته، وبالتالي فإنَّ عددًا قليلاً من العوائل الرومانيَّة النبيلة سيطرت على الحكم لزمن طويل، ونجحت في إبقاء السلطة بيدها أطول مدَّة ممكنة بفضل التحالفات التي عقدتها في ما بينها، وكان الزواج السياسيُّ بين أفرادها يدعم هذه التحالفات، كما أنَّها سيطرت على الحياة الدينيَّة في الدولة، والتي كان لها التأثير الكبير على الحياة السياسيَّة.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ العوامَّ الأغنياء الذين كانوا يمتلكون قدرًا من المال يؤهِّلهم للفوز بمنصب ما، كان عندهم وجهة النظر الأرستقراطيَّة المحافظة ذاتها في غالب الأحيان، وهذا الموضوع تحدَّث عنه شيشرون وبيَّن أنَّ منصب نقيب العوام وجميع المناصب الأخرى

[1]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.16

التي كان الأولويَّة فيها للعوامِّ، لم تؤثِّر على سياسة الدولة الرومانيَة، لقد كان الشعب سعيدًا بما حقَّقه من مكاسب ضمن الهيكليَّة الدستوريَّة للسلطة السياسيَّة، والتي يمكن أن تسبِّب إزعاجًا للنبلاء، لكنها لن تؤثِّر على النتائج السياسيَّة الحقيقيَّة على نحو كبير[١].

وحتى لا تبقى الدراسة في إطار نظريَّات فلسفة التاريخ، سنقدِّم دراسة تفصيليَّة للحالة الحقيقيَّة للسلطة الشعبيَّة التي يُرثى لها في روما؛ ففي مقابل مناصب النبلاء كانت هناك الجمعيَّات الشعبيَّة، وفي مطلع العصر الجمهوريِّ كانت هناك جمعيَّتان شعبيَّتان هما: جمعيَّة الأحياء comitia curiata، والجمعيَّة المئويَّةcomitia centuriata.

وقد شكَّل العوامُّ في الجمهوريَّة الباكرة غالبيَّة السكان، وكانوا الأفقر بالمجمل والأقلَّ تأثيراً في برنامجها السياسيِّ والاجتماعيِّ. وكان وجود الجمعيَّتين المذكورتين آنفًا استمرارًا من العصر الملكيِّ، لكن جمعيَّة الأحياء فقدت كثيراً من أهميَّتها وأصبحت قاصرة على منح القناصل المنتخبين في الجمعيَّة المئويَّة سلطة الأمبريوم، وبالمقابل ازدادت صلاحيَّات الجمعيَّة المئويَّة التي كان ينبثق منها الجيش، كما أُسندت إليها مهمَّة انتخاب الموظَّفين الأعلى في الدولة (القناصل، القضاة، الرقباء)، والتصويت على مشاريع القوانين بنعم أو لا، كما كانت بمثابة محكمة استئناف لأحكام الإعدام الصادرة بحقِّ المواطنين، لكنَّ أهمَّ صلاحيَّاتها على الإطلاق هي إعلان حالة الحرب في البلاد.

وكانت الجمعيَّة المئويَّة تعقد اجتماعها في ساحة الإله مارس خارج المدينة برئاسة القنصل، ورغم وجود العنصر الشعبيِّ في هذه الجمعيَّة إلَّا أنَّ النبلاء استمرُّوا مهيمنين عليها وعلى قراراتها، إذ كان يشارك في عضويَتها كلُّ مواطن رومانيٍّ ذكر بالغ.

وبسبب تسلُّط النبلاء على الجمعيَّة المئويَّة، سعى العوام منذ القرن الخامس قبل الميلاد لإيجاد كيان سياسيٍّ مستقلٍّ يمثِّل طبقتهم، وأثمرت جهودهم أخيراً تكوين مجلس العوامِّ Concilium Plebis الذي تشكَّل من ممثِّلي القبائل، وكانت قرارات هذا المجلس أول الأمر لا تُطبَّق إلَّا على العوام، ولم يلبث أن أصبح الجمعيَّة القبليَّة comitia Tributa سنة ٤٩٤ ق.م، والتي غدت هيئة دستوريَّة معترف بها، وصارت تعقد اجتماعاتها في السوق العامَّة، أو

[1]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.16.

فوق تلِّ الكابيتول، أو في ساحة الإله مارس، أو في أماكن أخرى داخل المدينة وخارجها، على ألَّا يبعد مكان انعقادها أكثر من ميل واحد خارج المدينة، ثمَّ صدر قرار بعد ذلك سنة ٣٥٦ ق.م يمنع اجتماعها كليًّا خارج أسوار روما[١].

لقد ضمَّت الجمعيَّة القبليَّة في صفوفها جميع المواطنين الرومان (الأرستقراطيين والعوام)، على السواء حسب توزُّع المناطق الإقليميَّة المختلفة، أربع قبائل مدنيَّة، وباقي القبائل ريفيَّة، وإذا كانت القبائل المدنيَّة قد حافظت على عددها، فإنَّ تعداد القبائل الريفيَّة ارتفع سنة ٢٤١ ق.م إلى إحدى وثلاثين قبيلة، وبالتالي سيطر مُلَّاك الأراضي من الأرستقراطيين الأكثر قوَّة على هذه الجمعيَّة، وكان يقع على عاتق الجمعيَّة القبليَّة انتخاب حكَّام الصفِّ الثاني، وتشريع القوانين، وفرض الغرامات لانتهاك القوانين، ومتى ترأَّس نقيب العوامِّ أو الأيدل جلسة مجلس القبائل، يسمَّى الاجتماع مجلس العوام conciliaplebis وقراراته تلزم العوامَّ فحسب[٢]، بحجَّة عدم قدرتهم على استطلاع رأي الآلهة، وبالتالي لا تكون هذه القرارات قانونيَّة وملزمة لجميع المواطنين إلَّا بتصديق مجلس الشيوخ أو الجمعيَّة المئويَّة عليها، وكلاهما تحت سيطرة النبلاء، وبالتالي لم يكن النبلاء ملزمين بهذه القرارات ما لم يوافقوا هم عليها. وقد أصدرت الجمعيَّة المئوية سنة ٤٤٩ ق.م قانون فاليريوسهوراتيوس الذي ينصُّ على رفع قرارات الجمعيَّة القبليَّة إلى الدرجة القانونيَّة، لكن النبلاء قطعوا الطريق، وفرَّغوا هذا القرار من محتواه عندما ألزموا نقباء العوامِّ بالحصول على موافقة للمشاريع التي يعزمون على عرضها أمام الجمعيَّة القبليَّة، لا بل وصل الأمر إلى ترؤّس النبلاء لهذه الجمعيَّة بصورة رسميَّة منذ سنة ٣٥٦ ق.م، وهذا ما أفقد الدستور الرومانيَّ توازنه السياسيَّ والاجتماعيّ[٣].

وهكذا صارت المجالس الشعبيَّة (القبليَّة والمئويَّة) تلتئم برئاسة القنصل، الذي يوجِّه الدعوات إلى أعضائها، ويقرُّ وحده جدول الأعمال، ويوجِّه سير المناقشات، ولا يمتلك الشعب أيَّ وسيلة لفرض إرادته في تقرير الاجتماع، ولم يكن له أيُّ حقٍّ في المبادرة أو في تعديل مشروع القانون الذي يفرض عليه. وإذا كان الموضوع موضوع انتخابات فلا أحد

[١]- محمد عطيَّة الدرسي: أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٣٣.

[2]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.8.

[٣]- محمد عطيَّة الدرسي: أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٣١.

يستطيع إرغام الرئيس على أن يقدِّم له جميع أسماء المرشحين ولا اعتبار إلَّا للأصوات التي تنالها أسماء يريدها، وإذا كان الموضوع مشروع قانون فيحقُّ للرئيس تحويره أو استرداده.

وكون الجمعيَّات المئويَّة هي الجيش، وتجتمع بالتالي خارج أسوار روما، فلا ينعم بحقِّ توجيه الدعوة لالتئامها سوى قاضي مُنح سلطان استطلاع الطيور في كبد السماء (سلطة الأمبريوم)، فلا تعوزه الحجج الدينية لحلِّ الجمعيَّة عندما يطيب له ذلك، لا بل إنَّ الواجب يقي عليه حتى لا يقع في خطأ شكليٍّ للُّجوء إلى هذا الحلِّ في بعض الحالات، كحالة نوبة الصرع التي يصاب بها أحد الحاضرين، ونوبة الصرع هذه بالذَّات كانت (مرض الجمعيَّات)، أو حالتي البرق والرعد، بحيث أنَّهم انتهوا أحيانًا، بغية تجنُّب عرقلة سير الأعمال، إلى حصر حقِّ (ملاحظة السماء) في بعض الأشخاص فقط، أو إلى إبطاله كليًّا.

وحقُّ استشارة الطالع كان على نوعين: حق استطلاع الطالع الأكبر، وحق استطلاع الطالع الأصغر، وكان الحقُّ الأول للقناصل ومراقبي الإحصاء والقضاة العدليين وللديكتاتور، وجميع هؤلاء باستثناء مراقبي الإحصاء كانوا يتمتَّعون بسلطان الأمبريوم، بينما كان الحقُّ الثاني من نصيب نُظَّار الشؤون البلديَّة ووكلاء الشؤون الماليَّة، وكان بإمكان أولئك الذين يمتلكون حقَّ استشارة الطالع الأكبر استطلاع رغبات الآلهة في روما وخارجها، بينما لم يكن ممنوحًا للفئة الثانية خارج أسوار روما[١].

وأثناء انعقاد الجلسات كان الرئيس (القنصل) يعطي حقَّ الكلام لمن يريد، وقد يستغرق قانون واحد الكثير من النقاش على جلسات عدَّة، ويحرص الرئيس على أن يكون هو المتكلِّم الأخير، وتُكرَّس الجلسة الأخيرة للتصويت فقط بالإجابة «بنعم» أو «لا» على «سؤال» الرئيس حول مجمل النصِّ، وحول نصوص عدَّة متكاملة أحيانًا، وتتوقَّف عمليَّات الاقتراع منذ بلوغ الأكثريَّة، ولا يصبح القرار نهائيًّا وأخيراً إلَّا إذا رضي الرئيس بإعلانه، وهكذا، فإنَّ القضاة رغم تعيينهم عن طريق الانتخاب يعدون رسميًّا «خلائق الرئيس[٢]».

لقد استخدمت الطريقة الشفويَّة لوقت طويل من تاريخ الجمهوريَّة في عمليَّة التصويت

[١]- محمد محفل: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٣٠٤، ٣٠٥.

[٢]- المصدر نفسه، ص٣٠٦.

داخل الجمعيَّة القبليَّة، وهي بالتهليل ورفع الصوت، حتى تمَّ إلغاء هذه الطريقة سنة ١٣٩ ق.م حسب قانون جابينيوس، واستخدموا طريقة الاقتراع السريِّ سنة ١٣٧ ق.م إذ صارت الدولة تعدُّ ألواحًا مكتوبًا عليها أسماء المرشحين باختصار، ويتمُّ وضع هذه الألواح في صناديق خاصَّة بالقبائل، تحت إشراف الموظَّفين الذين يقومون بفرز الأصوات وإعطاء النتائج لرئيس اللَّجنة الذي له الحقُّ وحده في إعلان النتائج[١].

إنَّ الأعداد الغفيرة لم تفد العوامَّ في شيء، فجزء منهم فحسب كان يقطن في مدينة روما، وكانوا جدًّا فقراء، وقد احتاج الأرستقراطيون إليهم في تجهيز الجيش في سبيل الدفاع عن مجد روما، التي ما كانوا يمتلكون فيها شبر أرض يدفنون به. وإن كثيراً من الأرستقراطيين وأثرياء العوامِّ وصلوا إلى السلطة من خلال اللَّعب على الوتر الحسَّاس، من خلال طرحهم لمشاريع تتماشى مع مصالح العوامِّ، وأهمُّ تلك المشاريع هي توزيع القمح المجانيِّ في العاصمة، ومشاريع الاستصلاح الزراعيِّ، وتمويل بعض المشاريع العامَّة من المال الخاصِّ، حتى أنَّ الأرستقراطيين كانوا على استعداد للمغامرة بجميع أموالهم وربما الإفلاس في سبيل كسب السلطة، وبالتالي يمكننا أن نُقيِّم الجمهوريَّة الرومانيَّة بأنَّها لم تكن جمهوريَّة ديمقراطيَّة، بل حكم أقليَّة متسلِّطة على الدولة بستار ديمقراطيٍّ[٢].

إنَّ طريقة الاقتراع في روما تفضح لنا ذلك النظام وتكشف عنه ذلك الستار؛ إذ فضَّل النبلاء الاقتراع على كلِّ المواضيع في الجمعيَّة القبليَّة على الاقتراع عليها في الجمعيَّة المئويَّة، وذلك بسبب السهولة الكبيرة التي كانوا يلاقونها في دعوتها للاجتماع، ومراقبة الجلسة، والاقتراع؛ فـ ٣٥ صوتًا أفضل لهم من ١٩٣ أو ٣٧٣ صوتًا[٣]، رغم أنَّ التصويت على القرارات في الجمعيَّة كان مضمونًا للنبلاء أيضًا، فعند بدء الاقتراع يبدأ مئات الفرسان بالإدلاء بأصواتهم أولاً، ثم يليهم مئات الفئة الأولى، فمئات الفئة الثانية، إلى أن تتكوَّن غالبية مطلقة لصالح المشروع المعروض أو ضدَّه، أو المرشحين لشغل المناصب العامَّة، وبمجرَّد الوصول إلى

[١]- محمد عطيَّة الدرسي: أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص٣٣.

[2]- Posner, A. E: Op. Cit, 2010, p.18.

ويوضح هذا الأمر صورة الصراع بين العامَّة والأرستقراطيين. أنظر تفاصيله وأسبابه وتطوُّراته عند شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص٣٧ - ٤٢.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٤٠.

غالبيَّة مطلقة كانت تتوقَّف عمليَّة التصويت. وبناء عليه، كانت المئات الدنيا نادرًا ما تدلى بأصواتها، لاسيَّما عندما تُجمع مئات الفرسان ومئات الفئة الأولى على رأي واحد، إذ كان مجموع أصوات الفرسان ١٨ صوتًا، وأصوات الفئة الأولى ٨٠ صوتًا، وبالتالي صار مجموع أصواتهم ٩٨ صوتًا، وهو ما يزيد على نصف المجموع الكلِّي للأصوات في جمعيَّة المئات، وهو يخدم مصالح الفريقين أصحاب الثروة في المجتمع[١].

ولذلك نستغرب حديث المستغربين عن الديمقراطيَّة في روما! فأيُّ ديمقراطية تمنع الزواج بين العوامِّ والأرستقراطيين حتى سنة ٤٤٥ ق.م، إذ سمح لهم قانون lex Canuleia بذلك؟ وهل هي ديمقراطيَّة تلك التي حرمت العوامَّ من شغل منصب القضاة العدليين ومناصب الكهانة في جميع عهود الجمهوريَّة الرومانيَّة[٢].

إنَّ هذا التعسُّف البغيض بحقِّ الشعب الرومانيِّ، جعل أعدادًا كبيرة منه تئنُّ تحت وطأة الاستغلال والتهميش والفقر والفوائد الباهظة، فما كان من العوامِّ إلَّا أن قاموا بمواصلة نضالهم، حين أقدمت بعض عناصرهم _ التي عجزت عن سداد ديونها _ على هجر مدينة روما، وبالفعل بنى المهاجرون سنة ٢٨٧ ق.م معسكرًا لأنفسهم خارجها، وكادت تعصف الحرب الأهليَّة بينهم وبين نبلاء روما، لولا أنَّ قرر النبلاء استرضاء العوامِّ حيث كلَّفوا هورتنسيوسHortensia ديكتاتورًا، وطلبوا منه إيجاد حلٍّ لهذه الأزمة، فما كان من هذا الديكتاتور إلَّا أن قام بتخفيف الدين وتوزيع أراضي الدولة عليهم، ومنح الجمعيَّة القبليَّة السلطة التشريعيَّة التامَّة، إذ غدت قراراتها قوانين تسري على جميع المواطنين من دون استثناء، ومن دون أن يحقَّ لمجلس الشيوخ الاعتراض عليها[٣].

وقد عدَّ كثير من المؤرِّخين قانون هورتنسيوس من أخطر القوانين التي صدرت في تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة، فاعتبار القرارات التي تصدرها الجمعيَّة القبليَّة قوانين ملزمة للجميع، من دون أن تُعرض على مجلس الشيوخ، كان يعني منحها السيادة العامَّة على الدولة، وهذا يدفعنا إلى القول: أنَّ الدستور الرومانيَّ من الناحية النظريَّة والدستوريَّة قد أصبح ديمقراطيًّا،

[١]- إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٦٥، ٦٦.

[2]- Domingo, R: Op. Cit, 2018, p.5.

[٣]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٢.

إذ سمح للعوامِّ على قدم المساواة مع الأشراف بتوليِّ جميع مناصب الدولة، وسلطة إصدار القوانين، ولكن من الناحية العمليَّة بقي الحكم في روما أرستقراطيًّا، لأنَّ النبلاء استمرُّوا في السيطرة على الجمعيَّة القبليَّة، ولأنَّ المجلس استمرَّ يمارس سلطة فعليَّة أكثر من ذي قبل، ولعلَّ ذلك راجع إلى مقوِّماته وإلى بعض الظروف العامَّة، وبحكم تكوينه من أقوى أفراد الأمَّة خبرة، وتجربته في الدولة التي كان لها تأثير أدبيٌّ لا يقاوَم. وإذا اضفنا إلى ذلك أنَّ القانون حفظ للمجلس حقَّ اتِّخاذ القرار الأخير وهو سلطة تعيين الديكتاتور في حالة الأزمات، فقد ظلَّ هذا السلطان سيفًا مسلَّطًا على العوامِّ[١].

ويرى كلٌّ من بوليبيوسPolubios وشيشرونCicero (شيشرون كرَّر وجهة نظر بوليبيوس) أنَّ دستور الجمهوريَّة الرومانيَّة (٥٠٩ - ٢٧ ق.م) هو دستور مختلط، سعى واضعوه للاستفادة من حسنات الأنظمة الملكيَّة (القنصليَّة) والأرستقراطيَّة (مجلس الشيوخ) والديمقراطيَّة (الشعب)، فهو يقتبس بعض العناصر من كلٍّ من هذه الأنظمة الثلاثة، يُعدَّل الواحد منها بالآخر، فيتجنَّب بذلك سيئاتها ويتجاوز تجاوزاتها. وإننا لا ننكر التقدير الذي حصلت عليه روما نتيجة هذا الدستور، إذ وصلت درجة إعجاب المؤرِّخ اليونانيِّ بوليبيوس (صاحب مؤلَّف «التاريخ العام») بالدستور الرومانيِّ حدًّا صرَّح فيه بالقول: «إنَّ مؤسَّسات الحكم والإدارة في روما تكاد تحقِّق دستور المجتمع المثاليِّ». لكن علينا التريُّث قليلاً قبل تبنِّي هذا الخطاب، فلا شكَّ في أنَّ هذا الرأي يحمل تملُّقًا واضحًا للشعب الرومانيِّ وللعائلات الأرستقراطيَّة التي عاش بوليبيوس رهينة عندهم طوال عمره، فرغم أنَّ دستور الجمهوريَّة الرومانيَّة يستند نظريًّا إلى التوازن بين ثلاث سلطات سياسيَّة تراقب بعضها البعض تبادلاً، ونعني بها السلطة التنفيذيَّة (ممثَّلةً بالقناصل) والسلطة التشريعيَّة (ممثَّلةً بالمجالس الشعبيَّة) وسلطة المراقبة والاستشارة (ممثَّلةً بمجلس الشيوخ). ومع هذا التوازن المموَّه، كانت السلطة الفعليَّة طوال العهد الجمهوريِّ بيد مجلس الشيوخ الذي ضمَّ بين صفوفه كبار رجال الدولة وممثِّلي العائلات الرومانيَّة النبيلة[٢]، التي لم يكن يزيد عددها عماً

[١]- مصطفى العبادي: مذكرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٣٦.

[٢]- عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص؟؟؟؟؟؟

بين ٧ إلى ٨٪ من مجموع السكان[١].

إنَّ الفارق ما بين الجمعيَّات الشعبيَّة في بلاد اليونان، وأيضًا في روما، قضيَّة رمزيَّة بسيطة لكنها ذات دلالات عميقة، ففي اليونان يجلس أعضاء الجمعيَّات الشعبيَّة على مقاعد حجريَّة، بينما في روما يقفون في أرض منبسطة، أمام الرئيس الجالس على منصَّة هي المنبر.

وبديهيٌّ أنَّ مدَّة الجلسات تتأثَّر هنا وهناك بهذا التناقض المادِّيِّ، ولكن هذا التناقض بنوع خاص يثبت وجود فوارق عميقة في فهم العلاقة المتبادلة بين مجموع المواطنين والقاضي الذي يترأَّس اجتماعهم، فإنَّ الشعب المجتمع بقوم بواجب ويستخدم حقًّا، في كلتا الحالتين. بيد أنَّ هناك خلافًا في العقليَّة؛ فهو يترفَّه في بلاد اليونان، ويبدو كنظير على الأقلِّ، بينما يبدو طبيعيًّا للرومان أن يكون في وضع المرؤوس، وهو يرضى بذلك. وهناك فارق آخر ليس بأقلَّ مغزى؛ ففي داخل الجمعيَّة الشعبيَّة في المدن اليونانية كافَّة تُحصى الأصوات على أساس الأفراد لا على أساس الكتل، أمَّا في روما فالقاعدة المعتمدة هي دائمًا على نقيض ذلك، إذ إنَّ لكلِّ كتلة صوت واحد يعبرِّ عن رأي أكثريَّتها الداخليَّة، ويعني ذلك أنَّ للطريقة المتَّبعة في توزيع المواطنين على الكتل تأثير حاسم في تشكيل الأكثريَّة الرسميَّة في الجمعيَّة، وقد تكون هذه الأكثريَّة الرسميَّة مختلفة جدًّا عن الأكثريَّة الفعليَّة، لأنَّه قد يقوم أكبر تفاوت عمليٍّ بين مواطنين متساوين قانونيًّا بحسب تعبيرهم عن رأيهم الشخصيِّ داخل كتل يكون عدد أعضائها مرتفعًا جدًّا أو متدنيًّا جدًّا. ولنضف إلى ذلك حتى لا نشير إلَّا إلى نتيجة ثانويَّة بين نتائج كثيرة غيرها، أن تجنُّب المواطن لضروب الضغط الخارجيِّ، حين يقترع في إطار كتلة محدودة بالضرورة، أضعف منه حين يضمُّ اقتراحه إلى كلِّ اقتراحات أعضاء الجمعيَّة، فقد يؤدِّي هذا النظام إلى أكثر النتائج منافاة للديمقراطيَّة، وقد أدَّى إليه فعلاً كما سنرى ذلك. ولا بدَّ من القول أنَّ هذا الدستور وهذا النظام يضربان بالمساواة بين المواطنين عرض الحائط أولاً، وصارت الدولة أقلَّ اهتمامًا بالمواطن ثانيًا، إذ إنَّها لا تريد معرفة رأيه ولا تجيز له الإسهام في تكوين الإرادة الجماعيَّة إلَّا بواسطة الكتل التي يمكنه الانضمام إليها[٢].

إن الحكومة في الحكومات الديمقراطيَّة موكلة بإدارة مصالح الشعب، والشعب هو

[١]- إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٥٨.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٣٩.

مصدر السلطة، ومصلحته فوق كلِّ اعتبار، والمفترض أن تكون الحكومة وكيلة عنه في رعاية مصالحه، وغالبية الشعب الرومانيِّ كانت من العوامِّ، وأغلب العوام كانوا فقراء وغير متعلِّمين وعبيدًا ونساء وأشخاصًا لم تمنحهم الدولة حقَّ المواطنة، فهل هؤلاء كانوا سيسيطرون على سياسة الدولة التي كانت تديرها فئة ثريَّة ومتعلِّمة؟ وهل الحكومة في روما حقًّا هي وكيل هذا الشعب؟ لقد ساد فيها تركيب طبقيٌّ معقَّد، فرغم أنَّ الأرستقراطيين شكَّلوا الصف الأعلى، إلَّا أنهم كانوا محرومين من الاشتغال في التجارة، لذلك فقدوا التأثير على التجَّار والمزارعين الذين كانوا يجمعون الثروة، ودخل هؤلاء في صنف مُحدَثي النعمة الذين كان عندهم بعض الامتيازات السياسيَّة، فشخص مثل شيشرون كان يمكن أن يحصل على منزلة نصف أرستقراطيَّة قبل أن يصبح قنصلاً، بينما كان العبيد يعانون الأمرَّين، وإن كان بعضهم استطاع شراء حريَّته، بينما حصل الآخرون حصلوا عليها منحة من أسيادهم. وأخيراً، لم يكن سكَّان المحافظات الإيطاليَّة يُعدُّون مواطنين رومان، وبالتالي لنا أن نسأل: الحكومة الرومانيَّة وكيلة عمَّن في رعاية مصالح مَن[١]؟.

في الواقع، لم تكن الحكومة منبثقة من الشعب، بل كانت حكومة أقليَّة أرستقراطيَّة، وقد عملت كوكيل لمصالح فئة قليلة من السكان، وهي النخبة التي ضمَّت الأرستقراطيين وأثرياء العوامِّ ومُحدَثي النعمة، أو ربما بعض العوائل من الأرستقراطيين من دون غيرهم. وهذا الانطباع عن الحكومة يمكن أن نستشفَّه من خلال حديث شيشرون الذي يصف العوامَّ في أكثر من مناسبة كما لو أنَّهم أعداء الدولة، ويدعو إلى استرضائهم من أجل كفِّ شرِّهم ولمصلحة طبقة النبلاء[٢].

ولعلَّ أبرز تلك الخطابات الخطاب الذي ألقاه سنة ٦٣ ق.م في مجلس الشيوخ، والذي صوَّر فيه العوامَّ بأنهم خطر على السلام في روما، ويجب استرضاؤهم، بينما صوَّر طبقة الفرسان بأنَّها الدعامة الحقيقيَّة للمجلس[٣].

[1]- Posner, A. E, Op. Cit, 2010, p.18.

[2]- Posner, A. E, Op. Cit, 2010, p.18.

وانظر رؤية باتريك لورو: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٩ وما بعد، وص٢٨ وما بعد. ورؤية تشارلز ورث: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص١٨ – ٣٧.

[3]- Earley, C, L, popular political participation in the late roman Republic, A thesis submitted to the Victoria University of Wellington in fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in Classics, Victoria University of Wellington 2009, p.22

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ الحكومة الرومانيَّة لم تكلِّف نفسها حماية مواطن على أراضيها، لا بل إنَّها لم تحفظ كرامته أمام تعسُّف الحكَّام، ويكفي أن نذكِّر باعتراض بوبليوسغافيوس المؤثِّر عندما صرخ بأعلى صوته: «أنا مواطن روماني Civisromanus sum» أثناء ضربه بالعصيِّ وموته بعقوبة الصلب المخزية الخاصَّة بالعبيد، تنفيذًا لأمر فيربس الرومانيِّ والي صقلية[١].

وهناك أمثلة كثيرة أخرى لا مجال لاستعراضها جميعها الآن، منها أنَّ شيشرون أزهق أرواح مواطنين رومان من دون محاكمة مخترقًا الدستور أثناء مؤامرة كتالينا، وتلك الحادثة تنمُّ عن مدى الضعف الذي وصل إليه النظام الجمهوريُّ، والفوضى التي رافقت عهد الصراع بين مجلس الشيوخ والقادة العسكريين في مدَّة وجيزة[٢]. كما أنَّ الدستور لم يحفظ للمواطن الرومانيِّ حقَّ المواطنة، إذ سنَّ قيصر قانون شديدًا على معارضيه (بعدما سمَّاهم مثيري الشغب)، ينصُّ على تجريد المواطن من حقوق مواطنته الرومانيَّة التي أقرَّها له الدستور[٣].

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٣٢.

[٢]- هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ج١، مصدر سابق، ص٢٧٦.

[٣]- محمد عطيَّة الدرسي: أسباب سقوط النظام الجمهوري، مصدر سابق، ص١٠٥.

خاتمة

بناءً على تفاصيل ما سبق، نستطيع القول أنَّ السلطة الشعبيَّة في الدستور الرومانيِّ لم تكن سلطة حقيقيَّة، وأنَّ الشعب الرومانيَّ لم يكن مصدرًا لسلطة، بل مصدرًا لأعداد الجنود والفلاحين الغفيرة، أولئك الذين كانوا يموتون في سبيل مجد روما، وهم لا يمتلكون شبر أرض فيها، وأنَّ هذا الدستور لم يكن دستورًا مختلطًا كما رُوِّج له، ولم يكن دستورًا ديمقراطيًّا كما ادَّعى الكثير من الباحثين، فبعد هذه الدراسة المستفيضة تبيَّن أنَّه لم يكن إلَّا دستورًا لحكومة أقلِّيَّة أرستقراطيَّة، جعلت من مجلس الشيوخ حصنها الحصين، وأدارت البلاد عن طريق سلسلة من مكاتب السلطة التنفيذيَّة التي لم تكن تسمح لأيِّ موظَّف منها بأن يستمرَّ في منصبه لأكثر من عام واحد.

كذلك تبيَّن أنَّ مختلف فقرات الدستور الرومانيِّ وُضِعت في سبيل توطيد سلطة النبلاء على العوامِّ، وهيمنة الأغنياء على الفقراء. حتى محدَثو النعمة من أفراد طبقة العوامِّ الذين أصابوا ثراءً كبيرًا من التجارة، وتزاوجوا مع النبلاء، ودخلوا مجلس الشيوخ، سرعان ما صاروا في خدمة القواعد الدستوريَّة التي كانت قيودًا وُضِعت في معصم الشعب، ولعلَّ شيشرون أبرز أفراد هذه الفئة.

وهكذا يظهر العجز العظيم الذي كان يعاني منه الدستور الرومانيُّ، وهذا العجز تضخَّم مع اتِّساع الدولة، وظهر بصورة جليَّة عندما قام النبلاء _ وهم حرَّاس الدستور _ بخرقه مرَّات ومرَّات لأغراض غير دستوريَّة، وهذا ما فتح الباب أمام القادة العسكريين لتقويضه وهدم أركان الجمهوريَّة الرومانيَّة واستبدالها بنظام الحكم الفرد.

والغريب في الأمر هو قصور نظر طبقة النبلاء عن العيوب التي كان يعاني منها الدستور الرومانيُّ، من دون إبداء محاولة جديَّة منهم لإصلاحه، لا بل إنَّ جميع التعديلات التي قاموا بها، وكان هدفها استرضاء العوام، سرعان ما تمَّ تفريغها من مضمونها، لذلك كان أفضل حلٍّ لهذا الدستور هو هدمه من جذوره، وهذا ما قام به أوكتافيوس بعدما وضع السلطة في يده بصورة نهائيَّة في سنة ٢٧ ق.م ليصدر مجموعة من التعديلات كانت بمثابة نعيٍّ رسميٍّ للدستور والنظام الجمهوريِّ الرومانيِّ، وهكذا أمست الجمهوريَّة مملكة غير معلنة، وأمسى الأمبراطور ملكًا من من دون تاج.

لائحة المصادر والمراجع

١. إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الروماني، الشركة العالميَّة للكتاب، لبنان ١٩٩٦م.

٢. أحمد حافظ غانم: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، ٢٠٠٧م.

٣. أندريه إيمار، جانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وأمبراطوريَّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس، بيروت، ١٩٨٦م.

٤. باتريك لورو: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ترجمة: جورج كتوره، دار الكتاب الجديدة، بيروت، ٢٠٠٥م.

٥. تشارلز ورث: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ترجمة: رمزي جرجس، مراجعة: محمد خفاجة، مكتبة الأسرة، القاهرة.

٦. شفيق الجراح: دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، ط٧، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٥م.

٧. شهرة خالد: التشريع الروماني في العصر الجمهوري، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠١٤، ٢٠١٥.

٨. عبد الله السليمان: تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي، ٢٠٢٠م.

٩. عبد اللطيف علي أحمد: التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربيَّة، بيروت، ١٩٨٨م.

١٠. محمد محفل: تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الزومان ١، دار غندور، لبنان، ١٩٧٤م.

١١. محمد عطية الدرسي: أسباب سقوط النظام الجمهوري وقيام النظام الأمبراطوري في روما (السياسيَّة، الاقتصاديَّة، الاجتماعيَّة)، رسالة معدَّة لنيل درجة الماجستير في

التاريخ القديم، جامعة بنغازي، ليبيا، ٢٠١٧م.

١٢. محمد عواد حسين: الثورة الرومانيَّة، المرحلة الثالثة، الصراع بين بومبي وقيصر حتى الحرب الأهليَّة ٧٩- ٥٠ ق.م، مجلة عالم الفكر، مج ١٢، العدد ٣، الكويت د.ت.

١٣. مصطفى العبادي: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، النظام الأمبراطوري ومصر الرومانيَّة، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، ١٩٩٩.

١٤. مصطفى العبادي: مذكرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت د.ت.

١٥. هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيَّة الجمهوريَّة الأمبراطوريَّة حتى عهد الأمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٧م.

١٦. نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل: موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق، ١٩٦٥م.

17. Domingo, R., Constitutional Background of Roman Law., Article in SSRN Electronic Journal., January2018 Domingo, R., Constitutional Background of Roman Law., Article in SSRN Electronic Journal., January2018.

18. Earley, C, L., popular political participation in the late roman Republic., A thesis submitted to the Victoria University of Wellington in fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in Classics., Victoria University of Wellington 2009.

19. Posner, A. E., The Constitution of the Roman Republic: A Political Economy Perspective., John M. Olin Program in Law and Economics Working Paper No. 540, 2010.

القانون عند الرومان
من البدايات حتى نهاية العصر الجمهوري

محمد يوسف السليمان[١]

مقدّمة

تدرس معظم كليَّات الحقوق في مختلف جامعات العالم القانون الرومانيَّ بوصفه مادَّة أساسيَّة في الخطَّة الدرسيَّة، ويرجع السبب في ذلك إلى أنَّ العودة إلى الأصول تساهم في كثير من الأحيان في فهم الواقع الحاضر. وتجدر الإشارة إلى أنَّ كثيراً من المعجبين بالحضارة الغربيَّة يؤكِّدون أنَّ لهذا القانون أثره ووجوده في القوانين الغربيَّة حتى يومنا هذا، وأنَّه ابتكار روما، في مقابل عبقريَّة الشرق الحضاريَّة، وفلسفة اليونان. فهل كان قانوناً شاملاً متكاملاً مضبوطاً بحيث صان الحقوق والحريَّات؟ أم كان قانوناً اعتباطيَّاً قاسياً مبهماً متحيِّزاً؟

في الواقع، إنَّ الظروف التي أسهمت في ولادة القانون الرومانيِّ تشرح لنا حقيقته، وهذه الحقيقة سنترك للقارئ الكريم تبيُّنها من خلال هذا البحث، الذي يأتي ضمن سلسة أبحاث تاريخيَّة تستهدف نقد أصول الفكر الغربيِّ بأسلوب علميٍّ وواقعيٍّ معمَّق، بعيداً عن الوصف والإطناب في المديح كما جرت عليه العادة في أكثر الدوائر الثقافيَّة الغربيَّة أو التابعة للغرب، وذلك مع توخِّي الأمانة العلميَّة. لذلك، سنقوم بمعالجة هذا البحث منذ بدايات نشأة هذا القانون، في الوقت الذي كان فيه فتاوى دينيَّة وتشريعات كهنوتيَّة وعادات عائليَّة وقبليَّة متَّفقاً عليها، حتى نهاية العصر الجمهوريِّ. ولا شكَّ في أنَّ هذه الفترة ليست بقصيرة، خضع خلالها القانون لتبدُّلات عميقة، وهي إن لم تكن ثوريَّة بالمعنى العلميِّ للكلمة، فقد كانت تسعى لمواكبة التطوُّرات السياسيَّة والاقتصاديَّة التي أخذت تمرُّ فيها الدولة الرومانيَّة. لذا، سنجد أنَّ مصطلح «القانون الرومانيِّ» هو مصطلح شموليٌّ وفضفاض، وفي بعض الأحيان قد لا يوافق المبدأ الأساسيَّ للقانون؛ ألا وهو إحقاق الحقِّ وتطبيق العدالة، بل سنجده

---

[١]- ماجستير في القانون الجزائي. جامعة درعا (سوريا).

على النقيض من ذلك تماماً، مجموعة من القواعد والنُّظُم التي سعى مشرِّعوها لتكريس سلطة القويِّ على الضعيف، وسلطة النبلاء على العوامِّ أو عامَّة الشعب. وعند فهم هذه الأُسس سيسهل علينا فهم الظروف التي تطوُّر فيها القانون الرومانيُّ، حتى أنَّ كثيراً من أساتذة التاريخ وأساتذة القانون يرون أنَّ تاريخ هذا القانون ما هو إلاَّ سلسلة حلقات طويلة من الصراع بين النبلاء والعوام، حيث كان النبلاء يسعون لتكريس سلطتهم، بينما كان العوامُّ يسعون لبعض الضمانات القانونيَّة ليؤمِّنوا بها على حياتهم ووجودهم.

أوَّلاً: القانون في العصر الملكيّ

١. القوانين الملكيَّة ما بين العرف والتشريع

يذكر الأساتذة المختصُّون في ما يتعلَّق بمصادر الحقوق الرومانيَّة لهذا العصر، وهو عصر نشأة هذه الحقوق؛ أنَّها ترجع إلى مصدرين أساسيَّين لا ثالث لهما، وهما العادة أوَّلاً، والقانون ثانياً. والجدير بالذكر أن العادة هي أقدم مصادر الحقوق لدى جميع الشعوب، وكذلك الأمر لدى الرومان في هذا العصر، فقد كانت مصدراً أساسيَّاً لحقوق روما لا شكَّ فيه. والعادة هي مجموعة الأعراف والعادات العائليَّة والقبليَّة المستعملة من قبل الأجداد والمنقولة في ما بين الناس شفهيَّاً في عصر كانت فيه الكتابة غير موجودة أو غير منتشرة. والعادة تولد نتيجة ظروف خاصَّة تقتضيها، أو تغيرٌّ في الأوضاع الاقتصاديَّة، أو اتصال بجماعات أخرى من الشعوب، ولا تكتسب سلطة إلزاميَّة إلاَّ في الوقت الذي تأمر بها أو تعترف بها هيئة اجتماعيَّة معروفة[١]. وقد لعب رجال الدين/ هيئة الكهنة Pontifex دوراً كبيراً في تكوين العرف وتفسيره في العصر الملكيِّ، فهم الذين احتكروا علم القانون في هذا العصر، حيث كانت الرسميَّة والشكليَّة تحيط بالتصرُّفات الدينيَّة، وكان رجال الدين هم الذين يعرفون أيام التقاضي، ويمنحون صِيَغ هذه التصرُّفات والدعاوى للأفراد حتى لا يتعرَّضوا لخطر ضياع حقوقهم[٢].

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الملوك وكهنة روما قد لعبوا دوراً كبيراً في تكوين العادات الحقوقيَّة،

[١]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، ط٥، مكتبة الشرق ومطبعتها، حلب ١٩٦٣م، ص١٩٦ - ١٩٨.

[٢]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري (٥٠٩- ٢٧) قبل الميلاد، رسالة معدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة الجزائر الثانية، بوزريعة ٢٠١٥م، ص١٢٩ - ٩٧.

وهم الذين أعطوها هذه الصفة الإلزاميَّة بما أسبغوا عليها من صفة دينيَّة، وذلك منذ اتَّخذوا هذه الأعراف المستعملة أساساً لأحكامهم القضائيَّة في الوقائع الحقوقيَّة المحدَثة، ومنذ وقفوا ما بين هذه الأعراف المستعملة وبين التطوُّرات الاجتماعيَّة[١].

إذاً، لقد كانت العادات والتقاليد العائليَّة والقبليَّة المصدر الأساسيَّ للقانون في بداية العصر الملكيِّ، لكن إلى جانب ذلك بدأت تتكوَّن تقاليد ملكيَّة نابعة من سلطان ملوك روما، وذلك مع تزايد أهميَّة السلطة الملكيَّة الرومانيَّة، وتوطُّدها على حساب نفوذ العائلات النبيلة[٢]، ما أسهم في مولد القانون والتشريع.

والقانون يختلف عن العادة، ويمكن تعريفه بمجموعة القواعد الحقوقية المعلنة في تاريخ محدود من قبل السلطة؛ التي تتمتَّع بالصلاحيَّات التشريعيَّة في الدولة أو في المدينة، وقد كانت القوانين في أقدم عهودها تصدر عن رئيس المدينة الذي كان يتمتَّع في آن واحد بسلطات دينيَّة وسياسيَّة وتشريعيَّة، وكان يعتبر ذلك الرئيس وسيطاً ما بين الشعب والآلهة. ولم يكن للقوانين المستوحاة من إرادة الشعب أن تصدر عن مجالس منظَّمة لذلك الغرض بصورة أساسيَّة إلاَّ في عهد متأخِّر عن ذاك العصر الأقدم[٣]. حيث كان يحقُّ لمجلس الجماعات (الجمعيَّة الشعبيَّة) الاجتماع برئاسة الملك والتصويت على بعض المشاريع القانونيَّة المتعلِّقة بشؤون الأحوال المدنيَّة والأمور القضائيَّة، وإصدارها على شكل قوانين بعد التصويت عليها، وكان ذلك يتمُّ بناء على مبادهة ملكيَّة[٤].

إنَّ مقارنة العرف أو العادة أو تقاليد الأجداد mos maiorum بالقانون Lex يدفعنا إلى القول أنَّ العرف قد امتاز بأنَّه أكثر مرونة من القانون التشريعيِّ؛ لأنَّ قواعده لا تُصاغ في نصوص دقيقة محدَّدة، ولأنَّه يتغيَّر حسب الأحوال والظروف وطبقاً لاحتياجات المجتمع بسهولة أكثر من تغيُّر القاعدة التشريعيَّة. لكن التجربة أثبتت أنَّ القانون أقدر من العرف في ملاءمته لحاجات المجتمع، فالعرف يميل بطبيعته إلى الاستقرار والجمود مما يصعب معه

[١]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانية وتاريخها، مصدر سابق، ص١٩٨.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان ١، دار غندور لبنان ١٩٧٤م، ص٢٤٩.

[٣]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانية وتاريخها، م.س، ص١٩٩.

[٤]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٤٩.

تغيُّره أو تعديله، كما أنَّ العرف استمدَّ سلطته وقوَّته من موافقة المواطنين عليه، وما ميَّزه عن القانون أنَّه كان يمثِّل فكرة القانون ويجيب عن متطلِّبات الزمن كما أنَّه يتغيَّر حسب هذه المتطلِّبات، لكنَّ هذا التغيير كان سبباً في انحطاط القانون العرفيِّ، فقد سُلب ثباته، وسَلَّم فكرة القانون بشكل اعتباطيٍّ للقضاة، وقد مسَّت هذه المساوئ الشعب الرومانيَّ، فدفعته في اتجاه تثبيت قواعد حقوقيَّة مكرَّسة، وكتابتها على شكل قانون ثابت، وبهذا الإجراء الروحيِّ كان ينبغي للقانون العرفيِّ أن يمرَّ أمام أعينهم كمظهر قضائيٍّ للدولة، وإن كان ذا نتائج خطيرة وأثر كبير في قضيَّة الحريَّة والمساواة أمام القانون[١].

٢. قانون بابيريوس

يذكر الرُّواة أنَّ الفقيه/ الكاهن سكستوس بابيريوس Sextus Papirius قد نظَّم في نهاية العصر الملكيِّ مجموعة قوانين ملكيَّة اشتهرت في ما بعد باسمه[٢]، وهي عبارة عن قواعد ذات طابع دينيٍّ أصدرها الملوك باعتبارهم رؤساء الديانة الرسميَّة وحفظها الكهنة في سجلاَّتهم[٣]. ولقد أورد بعض المؤرِّخين والإخباريين اليونان واللاَّتين في كتاباتهم موادَّ بعض تلك «القوانين الملكيَّة» ممَّا يسمح لنا بتكوين فكرة عن خطوطها العامَّة، وتنسب الرواية تلك القوانين الملكيَّة إلى الملك المؤسِّس روميلوس Romolus، وإلى الملك المشرِّع نوما بومبيليوسNuma Pompilius. ومن الملاحظ أنَّ تلك القوانين تتعلَّق بطقوس الذبائح والقرابين وكذلك بمختلف عناصر القانون الخاص (الطلاق، والزواج، الحياة الزوجيَّة، حقوق الأب على أولاده، إلخ)، ويلاحظ أنَّ العقوبات كانت ذات طابع دينيٍّ[٤].

وهكذا يتَّضح أنَّه قد وجد في العصر الملكيِّ بعض القوانين، وعلى ما يظهر أنَّها مراسيم دينيَّة صادرة عن الملوك أو الكهنة، وأنَّ محتواها يدلُّنا على ذلك، فإنَّها عندما تتكلَّم عن مؤيِّدات لهذه الواجبات، فإنها لا تستخدم إلاَّ الشكل الدينيَّ فحسب[٥]، حيث كان يوجد بين

[١]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٩٤.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٤٩.

[٣]- عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، دار النهضة العربيَّة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠م، ص٧٠.

[٤]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٤٩.

[٥]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٠٠.

الأسياد Patrons في روما وبين من وضعوا تحت حمايتهم من الموالي أو الأتباع Clients واجبات تلزم بالمعونة القضائيَّة والاقتصاديَّة؛ فيجب على المولى مثلاً أن يؤدِّي فدية السيِّد، وأن يساعده عند تزويج ابنته.. إلخ، وأمَّا العقوبة أو المؤيِّد لهذه الواجبات؛ فقد كانت عقوبة دينيَّة، حيث يشير النصُّ القانونيُّ إلى أنَّه أيّاً يكُن، من السيد، أو التابع، يخلُّ بتعهُّداته، فإنَّه يصبح منذوراً لآلهة النار ويُحكم عليه بالموت. وهناك نصٌّ آخر ينزل العقاب نفسه بالأبناء أو بالكنَّات عندما يتجرَّأ أحدهم برفع يده على ربِّ الأسرة Pater familias. ولقد ظلَّ حقُّ رئيس الأسرة بقتل أفراد أسرته أو الحكم عليهم بالموت، ونذرهم لآلهة النار قائماً في ما بعد[١].

٣. تقويم القوانين الملكيَّة

لكن، كيف تنظر المدرسة التاريخيَّة المعاصرة إلى ما جاء في روايات الإخباريين القدماء عن القوانين الملكيَّة، وعن تطوُّر الشرائع المدنيَّة والجزائيَّة في العصر الملكي؟

في الواقع، إنَّ الحقوق التي نبحث عن مصادرها في هذا العصر هي حقوق روما في أول نشأتها وتكوينها، ويُفهم من ذلك أنَّ الحقوق المبحوث عنها في هذا العصر هي تلك الحقوق القديمة جدَّاً، التي نشأت في روما من دون أن تتأثَّر تقريباً بأيِّ مؤثِّر أجنبيٍّ، ومن الواجب أن نعتبر حقوق هذا العصر حقوقاً بدائيَّة، ولم تتمكَّن من التخلُّص من هذه الصفة الأساسيَّة وتسير في طريق التكامل إلاَّ بعدما أخذ الرومان يطَّلعون على حقوق الأمم الأخرى التي تقدَّمتهم في المدنيَّة كالحقوق اليونانيَّة وحقوق الشرقيين، وبعدما تلطَّفت طباعهم وأخلاقهم، وبعدما خرجوا من عزلتهم الاقتصاديَّة واتَّصلوا في تجارتهم بأمم البحر المتوسِّط[٢].

هذا بالعموم، أمَّا بالخصوص، واعتماداً على مختلف الدراسات المقارنة، فيمكننا الجزم بما يلي:

-**أولاً:** رغم أنَّه كان يحقُّ نظريَّاً لمجلس الجماعات أن يناقش أحياناً مشاريع القوانين،

[١]- شفيق الجراح، دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، ط٧، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص٧٩.

[٢]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص١٩٥.

ويصدرها على شكل قوانين بعد التصويت عليها، فمن المؤكَّد أنَّ ذلك لم يحدث إلاَّ نادراً في العصر الملكيِّ، لا بل إنَّ هذه المجالس لم تستطع حتى في العصر الجمهوريِّ أن تمارس سلطة تشريعيَّة.

- **ثانياً:** إذا اتَّفق والتأم مجلس الجماعات وناقش بعض الأمور الحقوقيَّة، فمن المستبعد أن تكون تلك المؤسَّسة قد أصدرت قراراتها مدوَّنة بشكل جليٍّ وواضح، لتحديد حقوق وواجبات أفراد المجتمع، وهذا الأمر سيكون من المطالب الأساسيَّة لطبقة العوامِّ في ما بعد، ومعنى هذا أنَّ هذه السنّة لم يكن معمولاً بها طوال العصر الملكيِّ. وبالتالي، فإنَّ القوانين الملكيَّة المفترَضة لم تكن قوانين بكلِّ معنى الكلمة، بل يمكننا القول أنَّها لم تكن قواعد حقوقيَّة مدوَّنة[١]. من هنا، لا أهميَّة لها في تطوُّر القانون الرومانيِّ خلال الفترة التالية. ونظراً لاحتوائها على تقاليد عرفيَّة وعادات وأنظمة من العصر الملكيِّ، فإنَّ قيمتها تنحصر في ما تلقيه من أضواء على المجتمع الرومانيِّ في ذلك العصر[٢].

تجدر الإشارة إلى أنَّ بعض الدراسات الحديثة ذهبت إلى أنَّ القوانين التي ينسب وضعها إلى الفقيه الرومانيِّ بابيريوس Papirius ما هي إلاَّ من تصنيف فيلسوف فيثاغورثيٍّ، وضعها بين سنتي (٤٦- ٣٧ ق.م)، إذ إنَّ بعض قواعد «قوانين الملكيَّة» كالنهي عن أطعمة معيَّنة، والنفور من الدم، وقدسيَّة الزواج، تتوافق مع ما جاء في المذهب الفيثاغورثيِّ. وقد يكون هذا الرأي مبالغاً فيه، ولكن هذا لا يعني مطلقاً أنَّ ما جاء في كتابات الإخباريين القدماء مقبول بتمامه، فالقوانين الملكيَّة لم تكن سوى التعبير عن عادات قديمة (قبليَّة وعائليَّة وكهنوتيَّة) شاعت في العصر الملكيِّ، وساهمت إلى درجة كبيرة في تكوين الهيكل الحقوقيِّ لروما الملكيَّة، وبذلك نسبها الإخباريون والرواة لملوك روما، وأطلقوا عليها اسم القوانين الملكيَّة[٣].

أمَّا عن علاقة الدين بالقانون في العصر الملكيِّ فيمكننا القول: أنَّ الديانة الرومانيَّة كانت مصدراً هامَّاً للقانون الرومانيِّ القديم. بل كانت التنبُّؤات الدينيَّة هي التي تفرض

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٥٠.

[٢]- عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٠.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٥٠.

عقد المجالس التشريعيَّة أو تبطلها. كما أنَّ رجال الدين يُعتبرون من الأوائل في تفسير القانون -كما أسلفنا- بل كانوا يحتكرون تفسيره ومعرفته، ويرجع سبب ذلك إلى الصلة الوثيقة بين القواعد الدينيَّة والقواعد القانونيَّة، كما كان الأفراد يلجأون إلى الأحبار للحصول على صيغ الدعاوى ولمساعدتهم في إبرام التصرُّفاتت القانونيَّة، فهم وحدهم الذين يعرفون أيام التقاضي والنماذج التي تفرغ فيها هذه التصرُّفات، وأي تصرُّف قانونيٍّ لا يكون صحيحاً ومنتجاً لآثاره إلاَّ إذا أُفرِغ في قالب معيَّن، ولا تُقبل الدعوى إلاَّ إذا رُفِعت في خلال أيام محدَّدة، وقام الشخص بإجراءات محدَّدة وتلفَّظ بعبارات متَّفق عليها، وكانت معرفة كلِّ تلك الأشياء حكراً على رجال الدين. كما كان الأفراد يلجأون إلى رجال الدين أيضاً لاستشارتهم في المسائل القانونيَّة، لأنَّ معرفة القانون كانت حكراً عليهم أيضاً ممَّا جعلهم يتأثَّرون بتفسير القانون والعمل على تطويره ليتلاءم مع الحاجات اليوميَّة المتجدِّدة في المجتمع الرومانيِّ وتطبيقه على الحالات الفرديَّة. وقد احتفظ الكهنة بكلِّ هذه الأعمال سرَّاً في صدورهم، ودوَّنوها في سجلاَّت لا يطَّلع عليها غيرهم[١].

من كلِّ ما تقدَّم، يمكننا القول: أنَّنا أمام حقوق بالية تعسُّفية في نصوصها، أي أنَّنا أمام أحكام دينيَّة، أو أمام حقوق تتعلَّق بالدين، وما يسمح به الدين، أكثر من تعلُّقها بالحقوق ومقتضيات العدالة[٢].

ثانياً: قانون الألواح الاثني عشر

١. المخاض الذي أسهم في ميلاد قانون الألواح الاثني عشر

اعتُبر العصر الجمهوريُّ مبتدأ للحقوق الرومانيَّة، وقد تزامن هذا العصر مع ميلاد الجمهوريَّة الرومانيَّة وانهيار الملكيَّة؛ في أعقاب ثورة عامَّة تركت أثراً كبيراً في تنظيمها، ومؤسَّساتها، وقانونها، وقواعد دستورها، وتقنين حقوقها بصورة مكتوبة، ممَّا جعل ذلك العصر بحقٍّ فاتحة لعصر جديد في الحقوق الرومانيَّة، عصر جديد في القوالب والتنظيم، من دون أن يكون انقلاباً جذريَّاً على القواعد الحقوقيَّة القديمة المتعارَف عليها، إذ إنَّه نظَّم

[١]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٠٢.

[٢]- شفيق الجراح، دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٨٠.

العادات غير المكتوبة، وأثبتها تقريباً كما هي في اثني عشر لوحاً؛ هو بالجملة لم يكن انقلاباً على الأوضاع الحقوقيَّة العرفيَّة القديمة، واستمرَّ العمل بهذه الأعراف والعادات والقواعد الحقوقية القديمة حتى عهد الأخوان جراكوس سنة ١٢١ ق.م طبعاً مع بعض التطوير، لذلك سمِّي هذا العصر (٥٠٩- ١٢١ ق.م) بعهد الحقوق القديمة، رغم ما لحق به من تجديد[١].

قبل الخوض في حقوق العهد الجمهوريِّ القديم، تجدر الإشارة إلى أنَّ مفردات هذه القوانين وتطوُّرها؛ تتمحور حول الصراع الطبقيِّ بين طبقتَي الأشراف والعوامِّ؛ لذلك وجدت من الأفضل أن نعالج المشكلة من جذورها، بالعودة إلى مولد الصراع، والدوافع الكامنة وراء صدور كلِّ تشريع أو قانون رومانيٍّ، سواء على صعيد القانون العامِّ (القانون الإداريِّ والدستوريِّ ...)، أو الخاصِّ (المنظِّم لعلاقات الأفراد في ما بينهم)، وهكذا سيتسنَّى للقارئ الكريم أن يفهم تطوُّر القانون ونشأة المؤسَّسة الحقوقيَّة في روما.

إنَّ بداية الصراع كانت في العصر الملكيِّ عندما تحالف الملوك الرومان الأتروسكيون مع العوامِّ في سبيل مواجهة النفوذ المتزايد للأشراف، حيث كان الملك لوكيوس تاركوينيوس Tarquinus Lucius (٦١٦ - ٥٧٨ ق.م)، وهو أول ملك أتروسكي يحكم روما، وأول ملك ألقى خطبة طلب فيها دعم العوامّ[٢]. ورغم أن العوامَّ كانوا مدينين لملوك روما بتحسين أوضاعهم الدستوريَّة والقانونيَّة، إلاَّ أنَّهم قلبوا ظهر المجن للملكيَّة، ووقفوا موقف المتفرِّج من انهيارها، ولم يحرِّكوا ساكناً، وهم يشاهدون ثورة أرستقراطيَّة تطيح بالنظام الملكيِّ، من دون أن يهبُّوا للدفاع عنها بالوقوف في وجه الأشراف.

إنَّ هذا الموقف المعقَّد والغريب لا يمكن لنا أن نعلِّله إلاَّ بتفتُّح أعين العوامِّ، بعدما وقفوا على كُنْهِ وجوهر إصلاح سرفيوس تلليوس Servius Tullius (٥٧٨- ٥٣٤ ق.م)، وأدركوا أنَّهم لم يحصلوا إلاَّ على أرباح لا تعادل جزءاً يسيراً ممَّا فرض عليهم من واجبات، لاسيَّما بعدما أفقدتهم الحرب التي كانت لا تتوقَّف خيرة شبابهم وكهولهم، وبعدما أثقلت الأعباء الماليَّة كواهلهم. لذلك كلِّه، تناسوا الفوائد التي حصلوا عليها وخذلوا الملكيَّة، وتركوا الأشراف يقضون عليها من دون أن يُبدو حراكاً. لكنَّ العوامَّ ما لبثوا أن دفعوا

[١]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٥٠.

[٢]- ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج١، مج٣، ترجمة محمد بدران، بيروت، ١٩٨٨م، ص٣١.

ثمن سكوتهم غالياً، ذلك أنَّ الأشراف الذين أزاحوا الملوك من طريقهم عادوا في عهد جمهوريَّتهم الأرستقراطيَّة يفتئتون على حقوقهم وينكِّلون بهم تنكيلاً أليماً[١]. وهكذا كانت طبقة الأشراف كاملة الحقوق، بينما كانت طبقة العوامِّ محرومة من حقوقها، فأخذت هذه الفئة الثانية منذ وقت مبكِّر من تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة تعمل على أن تنال حقوقها كاملة، ولمَّا قاومها الأشراف واستمرُّوا في حرمانها من المساواة معهم أمام القانون، حدث صراع بين الجانبين استمرَّ نحو قرنين من الزمن لم يكن مجرَّد ثورة وإنما هو صراع طويل من أجل تحقيق المساواة المطلقة أمام القانون.

في هذا السياق، يرى الدكتور مصطفى العبادي- مستنداً إلى الدراسات الاقتصاديَّة في شرح التاريخ - أنَّ العوامَّ لم يطالبوا بأكثر من بعض الضمانات التي تحقِّق لهم نوعاً من الاطمئنان على حقوقهم وأشخاصهم من طغيان الأشراف. وأنَّ الذي بدأ النضال لم يكن مجموع العوامِّ وإنما ابتدأه مجموعة تجَّار روما الذين أضرَّت الحرب بمصالحهم فساءت أحوالهم وتعرَّضوا لاضطهاد الأشراف. وقد انضمَّ العوامُّ إلى هؤلاء التجَّار بعدما وجدوا أنَّ الأشراف يسيطرون على أكثر الأراضي، ويمارسون تقاليد قانونيَّة غاية في الظلم، وهو أنَّه إذا ما اقترض أحد العوامِّ مالاً من شريف وعجز عن ردِّه، فمن حقِّ هذا الشريف أن يسترقَّه، وإذا حدث أنَّه اقترض مالاً من شريفين وعجز عن ردِّ الدين لهما، فمن حقِّهما أن يقتسماه؛ بشطره إلى قسمين، فالإرهاب والتخويف هو القاعدة وليس الحقّ[٢].

ففي بداية العصر الجمهوريِّ كان القانون وتفسيره والتشريع كلُّه تحت سيطرة رجال الدين، وكانوا من الأشراف، يتحكَّمون بالتقويم القضائيِّ، ويعرفون صِيَغ القانون، ويفسِّرون القانون حسب مصالحهم، فهم المستشارون القانونيَّون، وكانت القوانين تسجَّل في كتبهم يحتفظون بها بعيداً عن العوامّ[٣].

في هذه الظروف اتَّفق العوامُّ والتجَّار على الوقوف في وجه الأشراف والمطالبة ببعض

[١]- نور الدين حاطوم، أحمد طربين، صلاح مدني، نبيه العاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١ـ حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص٥٢٢.

[٢]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الرومانيِّ، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت، د.ت، ص٣١.

[٣]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٢٩- ١٣٠.

الضمانات، وهكذا بدأت المرحلة الأولى من الصراع في سنة ٤٩٥ ق.م حين ثار العوامُّ على هذه المظالم[١]. وتذكر الروايات القديمة أنَّهم قرَّروا التمرُّد ورفضوا دخول روما إثر عودتهم من إحدى الحملات العسكريَّة في سنة ٤٩٤ ق.م، وعبرَوا نهر التيبر Tiber إلى جبل مجاور يسمَّى الجانيكولوم Janiculum (الجبل المقدَّس)، على بعد ثلاثة أميال من المدينة، ضمن منطقة يرتادها التجَّار الإغريق (ذوو الأفكار الديمقراطيَّة)، واعتصموا بها ورفضوا العودة، وأعلنوا أنَّهم لن يعملوا أو يحاربوا من أجل روما ما لم تُجاب مطالبهم، وهدَّدوا بإنشاء مدينة جديدة، وكان يعني هذا فراغ روما من اليد العاملة والقوة العسكريَّة، في الوقت الذي كانت فيه الدولة بحاجة متزايدة إلى المَّال والجنود نتيجة سياساتها القائمة على التوسُّع الخارجيِّ، وتهديدات جيرانها اللاَّتين لها بالاحتلال.

في تلك المرحلة، لجأ مجلس الشيوخ إلى جميع الحيل السياسيَّة أو الدينيَّة لإغراء العامَّة بالرُّجوع إلى روما، فلمَّا أصرَّ العوامُّ على مطالبهم رأى النبلاء أنَّ من الحكمة إعطاءهم بعضاً من حقوقهم[٢]. وهكذا لجأ الأشراف إلى المساومة وأنصاف الحلول التي لا ترضي كلَّ الرِّضا ولكنها تؤجِّل اتِّخاذ موقف حاسم واستمرَّ الحال حتى سنة ٤٧١ ق.م حين أجبر العوامَّ الأشراف على أن يقبلوا بإنشاء نقابة لهم[٣].

لقد اضطرَّ النبلاء للسَّماح للعوامِّ بانتخاب أربعة ممثِّلين عنهم عُرفوا باسم نقباء أو محامي العوامِّ تريبون Tribune أنيط بهم أمر الدفاع عن مصالح العوامِّ داخل مدينة روما، امتدَّت سلطتهم في ما بعد لتشمل الأرياف. كان يتمُّ انتخاب النقباء لمدة سنة واحدة، ويتمتَّعون بحقِّ الاعتراض Veto على الأحكام الجائرة وقوانين الدين القاسية وعلى القوانين التعسُّفية بصورة عامَّة، وعلى جور بعض الموظَّفين الذين يحاولون تطبيق هذه القوانين. حيث كان نقيب العوامُّ يجلس عند مدخل مجلس الشيوخ، حتى ينقل للشعب ما يدور فيه، فإذا لم يرضَ عن اقتراح مقدَّم للمناقشة، يكفيه أن يصيح بأعلى صوته: «فيتو»، حتى يتمَّ إيقاف النقاش في الموضوع. ويتمتَّع النقيب بالحصانة التامَّة أثناء ممارسته لمنصبه؛ فلا يحقُّ لأحد

[١]- مصطفى العبادي، مذكرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٣١.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص٥٩- ٦٠.

[٣]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٣٢.

عرقلة أعماله في الدفاع عن الشعب، ويهدر دم من يعتدي عليه وتلعنه الآلهة. وتوجَّب على النقيب أن يترك باب منزله مفتوحاً طوال مرحلة تولِّيه لمنصبه في الليل والنهار حتى يلجأ إليه أيُّ فرد من العوامِّ يطلب حقَّ الحماية المقدَّسة، كما توجب عليه أن يضمن لكل متَّهم محاكمة عادلة، وأن يسعى إلى استصدار عفو عن المحكوم عليه إن أمكن[١].

٢. المطالبة بوضع قانون الألواح الاثني عشر

ولمَّا كانت إدارة الدولة بمختلف مؤسَّساتها التشريعيَّة والتنفيذيَّة بيد الأشراف، فممَّا لا ريب فيه أنَّه ما من عائلة من عائلات الأشراف إلاَّ وكان لها من يمثِّلها في إدارة الدولة. وعليه، فإنَّ معرفة القانون والثقافة القانونيَّة أمر لابدَّ منه، وأنَّها كانت أمراً مألوفاً في أوساط هؤلاء الأشراف وعائلاتهم، أمَّا العوامُّ المنهمكون في حِرَفهم الزراعيَّة والصناعيَّة فلم يكن هناك من يدلُّهم على هذه القوانين وتفصيلاتها، مما كان يعرِّضهم للوقوع في الأخطاء والتعرُّض للعقوبات في أحيان عديدة، من جرَّاء جهلهم بالقوانين الذي لم يكن يعفيهم من العقاب أو يكون داعياً لتخفيف العقوبة عنهم[٢].

كان العوام قد ازدادوا ثقة وقوَّة بفضل قيادة نقباء العوامِّ لهم، فأخذوا يطالبون بتغيير هامٍّ جدَّاً في الدولة وهو تسجيل القوانين وإشهارها، ليتمَّ إلزام الجميع بها، لأنَّه حتى ذلك الوقت لم تكن القوانين مسجَّلة -كما أسلفنا- وإنَّما محفوظة في صدور الأشراف من الكهنة ورجال الدين والقضاة، وكانت هذه القواعد القانونيَّة غامضة بالنسبة إلى العوامِّ، وكان من حقِّ الأشراف فحسب تفسير القانون وتطبيقه وإصدار الأحكام، لذلك كان في استطاعتهم عند القضاء أن يستبدُّوا ويظلموا[٣]. ولمَّا كان القانون في روما في بادئ الأمر من اختصاص رجال الدين وكانت هيئة الأحبار هي التي تفسِّر مختلف الأصول والقواعد الحقوقيَّة، ولمَّا كان القضاة والمشرِّعون في بداية العصر الجمهوريِّ من طبقة الأشراف حصراً، ولمَّا كان الرومان يفتقرون في بدايتهم الأولى إلى قوانين وقواعد حقوقيَّة تنظِّم مجتمعهم، بل يستندون إلى

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦٠.

[٢]- محمد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، ج١ من نشأة روما حتى عام ١٣٣ ق.م، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندريَّة ٢٠٠٦م، ص٢٠٧.

[٣]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٣٢.

تقاليد الأجداد، وهذه المصطلح يعني مجموعة العادات القبليَّة ومراسيم الملكيَّة ووصايا الكهنة، وكان القضاة يفسِّرونها حسب أهوائهم، كلُّ ذلك ضاعف تعسُّفهم في تطبيق العدالة لصالحهم على حساب العوامِّ[١].

وبسبب تسلُّط هذه الفئة القليلة في تفسير وتطبيق القواعد القانونيَّة حسب مصالحهم، لاسيما إذا تعلَّق الأمر بملكيَّة الأراضي العامَّة[٢]، وافتقار العوامِّ إلى الأمان في ممارسة حياتهم اليوميَّة، والخشية من تعرُّضهم للعقاب الصارم في أيَّة لحظة من دون ذنب أو جريرة، كان هذا دافعاً قويَّاً لهم للمطالبة بالمزيد من الحماية عن طريق تسجيل القوانين[٣]. فقد جاءت المطالبة بهذا القانون تعبيراً عن عدم رضاهم عن إدارة العدل والقضايا القانونيَّة، من هنا تعالت الشكاوى من طرفهم تطالب بوضع قانون يجمع القواعد العرفيَّة ليزول معه الشكُّ والغموض، وينهي احتكار رجال الدين من الأشراف لحفظ القانون وتطبيقه[٤]. وفي ذلك مكسب مزدوج: أوَّلاً: الحدُّ من سلطة الأشراف، ثانياً: الحصول على مكتسبات أخرى في المستقبل، لأنَّ تدوين القوانين ومعرفتها سيمكِّنهم من المطالبة بتعديلها مستقبلاً. وبعد الكثير من الأحداث استجاب الأشراف لمطلبهم، فكان ذلك أول تدوين لتشريع رومانيٍّ رسميٍّ[٥].

٣. قصَّة تدوين قانون الألواح الاثني عشر

أمَّا قصَّة وضع هذا القانون فترويها لنا كتب التاريخ والقانون بأنَّه قد جاء اقتراح وضع القوانين الاثني عشر من قبل غايوس ترنتيليوس آرسا Gaius terentilius arssa وهو أحد نقباء العوامِّ لسنة ٤٦٢ ق.م، والذي اقترح تأليف لجنة من خمسة أعضاء تُعهَد إليها سلطات القنصلين وتُحدَّد صلاحياتها، ولوضع مجموعة شاملة تُدوَّن فيها على وجه الدقَّة جميع القواعد العرفيَّة والأحكام القانونيَّة المعمول بها، وعلى القناصل احترامه، وفي الوقت نفسه

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٤٨.

[٢]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣٠.

[٣]- محمد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٢٠٧.

[٤]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣٠.

[٥]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٣٢.

كان الهدف منه تحقيق المساواة بين الأشراف والعوامِّ أمام القانون داخل مدينة روما. وقد لاقى هذا الاقتراح تأييداً قويّاً من العوامِّ، لكنَّه قوبل بمعارضة شديدة من قبل الأشراف ومجلس الشيوخ، لذلك لم يتمَّ تبنِّيه، ولم يجد له مكاناً في الواقع، من هنا بدأ العوامُّ يطالبون بتدوين القانون حتى يسهل تطبيقه بين الجميع[١]، وأصرُّوا على مطالبهم خلال بضع سنوات؛ فكانوا يجدِّدون في كلِّ سنة انتخاب النقباء أنفسهم الذين كانوا يمثِّلونهم، فاضطرَّ المجلس إلى الموافقة على مشروع آخر[٢]، وتوصَّلت الأطراف المعنية إلى حل وسط في سنة ٤٥٤ ق.م؛ تمثَّل في إيفاد ثلاثة مبعوثين إلى بلاد اليونان (وربما أن المراد من بلاد اليونان فيما يظهر هو جنوب إيطاليا) لدراسة النظّم القانونية الأجنبية وإيجاد بعض القواعد الحقوقيَّة، لتكون مشتركة بين الطبقتين، وعند عودتهم تقرَّر تعليق العمل بالدستور القائم، وتشكيل الحكومة التنفيذيَّة من عشرة مفوَّضين جميعهم من الأشراف، ذوي صلاحيَّات واسعة وليس من حقِّ أحد الاعتراض عليهم، أو الاستئناف ضدَّ قراراتهم[٣]. وعلى ذلك فقد تقرَّر في سنة ٤٥١ ق.م (تاريخ عودة اللَّجنة الثلاثيَّة) أن يوقف مؤقَّتاً انتخاب القناصل والنقباء، ويُصار إلى تعيين لجنة عشريَّة مكانهم يُعهد إليها وضع هذه القوانين[٤].

إنَّ الباحث في القانون الرومانيِّ القديم، الذي كان سائداً في تلك الفترة بالذات، سواء أكان هذا القانون عامَّاً أم خاصَّاً؛ سيجده يمتاز بأمرين مهمَّين هما:

-**أوَّلاً**: أنَّه كان سريَّاً، وغير مؤكَّد، ولا يعرف تفسيره إلاَّ الأشراف ورجال الدين فحسب.

-**ثانياً**: أنَّه لم يكن عادلاً بين الطبقتين، بل كان يُطبَّق بصيغة تكون دائماً لصالح الأشراف.

وبناءً على ذلك، أراد العوامُّ الحصول على شيئين مهمَّين هما: إشهار القوانين حتى يعلمها كلُّ الناس سواء كانوا أشرافاً أم عواماً، والمساواة في تطبيقها في ما بينهم. وبالفعل جرى تشكيل لجنة مفوَّضين Decemviri من عشرة رجال في سنة ٤٥١ ق.م، انتُخبوا في المجالس المئويَّة؛ لوضع قانون يتمُّ تدوينه، وعرضه على عامَّة الشعب. وكانت اللَّجنة

[١]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، ص١٣١.

[٢]- شفيق الجراح، دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٨١.

[٣]- محمد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٢٠٨.

[٤]- شفيق الجراح، دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٨١.

تقتصر على الأشراف وحدهم، لكن كان لابدَّ من أن يتمَّ عرض عملهم على عامَّة الشعب لإبداء الرأي فيه قبل البدء في تنفيذه، وكلِّفوا بأخذ نسخة من قوانين صولون Solon اليونانيِّ ودراستها، والاستعلام عن دستور وقوانين المدن اليونانيَّة الأخرى، كما كلِّفت هذه اللَّجنة بإدارة شؤون الحكم خلال مدَّة سنة (سنة ٤٥١ ق.م)، بالإضافة إلى مهمَّتها الأصليَّة المتمثِّلة في وضع القانون، وجرى تحديد المدَّة التي يتمُّ فيها تجميع القوانين والأعراف القديمة. وقد انتهت المدَّة (السنة)، واللَّجنة لم تضع إلاَّ بعض القواعد والأحكام القانونيَّة التي عُرضت على المجلس المئويِّ، فوافق عليها، ونُقِشت على عشرة ألواح، وبعد مرور سنة بدا أنَّ التشريع لم يكن تامَّاً، فجرى تشكيل لجنة أخرى مختلطة من الأشراف والعوامِّ لمتابعة العمل[١].

لقد كان من بين أعضاء اللَّجنة الجديدة مفوَّض من أمجد العائلات النبيلة هو آبيوس كلاوديوس Appius Claudius، الذي كان له تأثير راجح في العمل، فأنجز اللَّوحين الآخرين، غير أنَّهما لم يُجيزا زواج العوامِّ من الأشراف، بينما كان العوامُّ يطالبون بذلك الأمر بشدَّة، ولذلك استاؤوا وتهيّأ جوٌّ خطير بالنسبة إلى المفوَّضين وحاولوا الاستبداد بالشعب والبقاء في الحكم سنة ثانية، فثار الشعب وأزالهم عن مناصبهم[٢]. ومن المؤرِّخين من يرى أنَّ النصوص القانونيَّة التي انتهت اللَّجنة إلى وضعها لم ترضِ طبقة الأشراف، فقامت بتحريض من مجلس الشيوخ بثورة في الجيش أطاحت باللَّجنة[٣]. وأيّاً تكن الفئة التي كانت تقف وراء الثورة؛ الأشراف أو العوامُّ، فإنَّ الخطيب الرومانيَّ شيشرون يصف القوانين الرومانيَّة في اللَّوحين الأخيرين بالظالمة، ويروي أنَّ زعيم اللَّجنة العشريَّة الثانية آبيوس كلوديوس قد بدأ يتَّجه نحو الطغيان والاستبداد، ورفض التنازل عن الحكم، ويروي عنه أنه استغلَّ غياب زملائه في اللَّجنة في مهامَّ عسكريَّة ولعب دور الطاغية، وأنَّ تصرفاته كانت هي العامل الأخير الذي أثار الشعب الرومانيَّ، حيث وقعت حادثتان أنذرتا بقرب سقوط هذا النظام، وهما: اغتيال أحد نقباء العوامِّ السابقين ويدعى سيكينيوس دينتاتوس، ثمَّ ذبح عذراء تُدعى

[١]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣١- ١٣٢.

[٢]- شفيق الجراح، دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص٨٢.

[٣]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣٢.

فرجينيا Vergina من قبل والدها حتى لا تتعرَّض للاغتصاب من آبيوس نفسه[١].

هذه العذراء هي ابنة أحد رؤساء المجالس المئويَّة، أعجب بها آبيوس وحاول السيطرة عليها، وحكم بتسليمها مؤقَّتاً لأحد مواليه الذي زعم أنَّها أَمَةٌ لديه، رغم أنَّها كانت من النساء الأحرار. وهنا ثار الدم في رأس والدها، ولم يتحمَّل أن يراها تقاد رغماً عنها وعنه إلى ما يدنِّس شرفها وشرفه، لذلك سارع إلى دكان جزار فأخذ منها سكيناً وتقدَّم فقتلها في الفورم Form، ثمَّ لحق بالجيش فأثاره حتى هاجم روما وأسقط حكومة المفوَّضين، وأعاد إلى روما نظام القناصل السابق مع مساعدة مجلس الشيوخ[٢]، بينما أُلقي القبض على آبيوس لكنَّه انتحر قبل مثوله أمام المحكمة.

لا شكَّ في أن هذه القصة تشبه قصة لوكريشيا Lucretia التي تسبَّب اغتصابها في سقوط النظام الملكيِّ، وبالتالي فإنّها تندرج في أطار قصص الملاحم البطوليَّة التي كان يسعى الرومان من خلالها لتكريس مفاهيم ومبادئ اتَّفقوا عليها[٣].

وأيّاً يكن الأمر، فالرومان لن يطيقوا الحكم الفرديَّ، حيث تمّ حلُّ اللَّجنة العشريَّة، والعودة إلى العمل بالضمانات التقليديَّة ومنها حقوق نقيب العوامِّ في حماية أفراد طبقته[٤]، كما تمَّت العودة إلى النظام القنصليِّ، وتمَّ اختيار قنصلين هما: فالريوس Valerius وهوراتيوس Horatius وعُهِد إليهما بصياغة القوانين ونشرها بين الناس، فصاغوا القانون الرومانيّ الأول، وسجَّلوه على اثني عشر لوحاً أقيمت في الأماكن الهامَّة من المدينة، كما كانت العادة قديماً، أي في السوق العامَّة وعند مداخل المعابد حيث يتجمَّع الناس[٥]. وكانت هذه الألواح الاثنا عشر Lex Duodecim Tabularum مصنوعة من الخشب، وربما من البرونز، وربما من العاج، وقال بعضهم إنَّها صُنِعت من النُّحاس، غير أنَّها حطِّمت بعد ستين سنة من نشرها، وذلك حين دخل الغال إلى روما وهدموها سنة ٣٩٠ ق.م. ولكن الألواح أعيدت مرَّة ثانية

[١]- محمد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٢٠٨.

[٢]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٣٢.

[٣]- محمد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٢٠٩.

[٤]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٥٣.

[٥]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٣٣.

مع بعض التجديد في لغتها. ويقول شيشرون، وهو من مواليد سنة ١٠٦ ق.م، إنَّ الشبيبة في أيامه كانوا يستظهرون في المدارس الألواح الاثني عشر عن ظهر قلب، وهذا ما يدلُّ على أنَّها كانت معروفة لدى الجميع في عهده[١].

٤. ملاحظات على قصَّة الألواح

تلك هي رواية الإخباريين اليونان واللاَّتين عن نشأة قانون الألواح، ولقد اتَّخذ المؤرِّخون المعاصرون مواقف جدَّاً متفاوتة منها، لا بل إنَّ المؤرِّخ الإيطاليَّ فيكو في القرن الثامن عشر اعترض عليها جملة وتفصيلاً، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ تلك المشكلة قد أثارت وما زالت تثير أشدَّ النقاش بين مختلف المدارس التاريخيَّة المهتمَّة بالتاريخ الرومانيِّ. ولقد تناولت أبحاث النقَّاد جوانب مختلفة من الرواية (كتاريخ تدوين القانون، ومختلف الحوادث التي اعترضت تشكيل اللَّجنة، والتطوُّرات التي رافقت أعمالها، وفحوى القانون ومختلف موادِّه)، فأكد كلٌّ من المؤرِّخ الإيطاليِّ ايتوري بايس Ettore Pais، والمؤرِّخ الفرنسيِّ أدوار لامبير Edouard Lambert ، أنَّ جميع ما جاء في كتابات الإخباريين القدماء عن قانون الألواح ليس إلاَّ أساطير بأساطير، وأنَّ ما انتهى إلينا من موادّ الألواح لا يطابق النصَّ الأصليَّ[٢]، وأنكر كلٌّ منهما القيمة التاريخيَّة للقصَّة المتعلِّقة بالألواح الاثني عشر. واعتبر هذان العالمَّان أنّ حكومة المفوَّضين العشرة التشريعيَّة ليس لها وجود تاريخيٌّ، وأنَّ المؤرِّخين الرومان قد استندوا في الماضي القديم إلى بعض الوقائع التي حدثت في القرن الخامس أو السادس من بناء روما. وعلى هذا، فقد صرَّحوا بأنَّ قانون الألواح الاثني عشر لم يكن من صنع المفوَّضين العشرة، وأنَّه على ما يظهر مجموعة خاصَّة وليست رسميَّة من العادات والأعراف والحكم، جمعها شخص اسمه فلافيوس Flavius وهو المؤتمن (أمين سر) لدى آبيوس كلوديوس نحو سنة ٣٠٠ ق.م، بل إنَّه من المحتمل أن تكون هذه المجموعة قد وِّضعت بعد ذلك بكثير من قبل سيكستوس إيليوس بيتوس Aelius Paelus الذي أصبح قنصلاً سنة ١٩٨ ق.م واعتبرته القصص التقليديَّة من أقدم الشراح للألواح الاثني عشر[٣].

---

[١]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٣١ - ٢٣٢.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٥٣.

[٣]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٣٣ - ٢٣٤.

لقد تركت هذه النظرية دويّاً كبيراً في الأوساط العلميَّة، واصطدمت بكثير من المقاومة، كان من بينها اعتراضات العالم الفرنسيِّ جيرارد P. F. Girard والإيطاليِّ فرزا Frezza وغيرهما من المؤرِّخين. ولاتِّخاذ موقف من الخلاف الناشئ حول هذه المشكلة علينا قبل كلِّ شيء أن نبيِّن الأُسُس التي تعتمد عليها معرفتنا لـقانون الألواح، ثمَّ تحديد العناصر المقبولة في رواية الإخباريين، لنتطرَّق بعد ذلك إلى الظروف التاريخيَّة التي رافقت تدوين موادِّ الألواح الاثني عشر[١]:

أولاً: لا يزال الشكُّ قائماً في ما يتعلَّق بالبعثة المرسلة سواء إلى اليونان القارية أم إلى بلاد اليونان الكبرى (جنوب إيطاليا)[٢]، فمن المؤرِّخين من جزم أنَّ قانون الألواح الاثني عشر متحدِّرٌ من أصلٍ رومانيٍّ بحت، وأنَّه عبارة عن عرف وعادات رومانيَّة قديمة وأنَّه لم يأخذ عن الحقوق اليونانيَّة إلاَّ الأحكام المتعلّقة بمراسم دفن الأموات. في الواقع، إنَّ قانون الألواح الاثني عشر هو قانون روماني الأصل بصورة إجماليَّة، وأنَّ ما أخذه هذا القانون مباشرةً عن القوانين اليونانيَّة طفيفٌ وثانويٌّ[٣]، فجلُّ ما هناك أنَّ أحكام الألواح الاثني عشر تتكلَّم عن قواعد ناظمة لمجتمع زراعيٍّ متقوقع، وضيِّق؛ لا يتجاوز نهر التيبر في حدوده، ويتَّصف بأخلاق جلفة، ويتعامل بحقوق عتيقة، حيث لا يستعمل النقود إلاَّ قليلاً، ممَّا يتَّفق تمام الاتِّفاق مع ما عرفناه عن حياة روما البدائيَّة في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، وإذ بها تتناول بعض الأحكام الحديثة التي تتناقض تماماً مع الأوضاع الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة لذلك القرن[٤].

ثانياً: من المعروف أنّ الغال قد اجتاحوا منطقة اللاَّتيوم واحتلُّوا مدينة روما سنة ٣٩٠ ق.م، وأعملوا فيها التخريب والتدمير، ولو أنّنا افترضنا بأنَّ ما جاء في رواية نشر الألواح في الفورم سنة ٤٥٠ ق.م هو صحيح. فممّا لا شكَّ فيه أنَّ النصَّ الذي انتهى إلينا ليس بالنصِّ الأصليِّ، بل إنَّه لاحق لسنة ٣٩٠ ق.م حيث أنَّ الألواح الأصليَّة قد زالت نتيجة للتدمير

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٥٤.

[٢]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٣٤.

[٣]- محمد محسن البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيَّة، مؤسَّسة هنداوي، المملكة المتَّحدة ٢٠١٨م، ص٢٧.

[٤]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانية وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٣٤.

الغاليّ. ومن المرجَّح أنَّ الرومان قد أعادوا نقش ألواح جديدة، محافظين بشكل عامٍّ على جوهر القانون، ولكن من المؤكَّد، كما أظهرت الدراسات اللُّغويَّة المقارنة، أنَّ نصَّ الألواح الجديدة، من ناحية الصياغة اللُّغويَّة، كان مختلفاً عن نصِّ الألواح القديمة. كما أنَّ موادَّ مختلفة قد عُدِّلت بصورة تُجاري التطوُّر العامّ الذي خضع له المجتمع الرومانيُّ خلال عشرات السنوات[١].

لقد برهنت الدراسات اللُّغويَّة للنصوص الباقية من قانون الألواح، والمستشهد بها؛ أنَّها لم تكن مكتوبة بلغة القرن الخامس قبل الميلاد، وإنَّما بلغة أحدث من ذلك، مع كثير من التحريف الذي أدخلته عليها الأجيال المتتابعة وخصوصاً الولاة والحكَّام الذين ظلُّوا بعد خراب روما يحاولون جمع نصوص الألواح الاثني عشر من محفوظات الناس. وقد خصَّص كثير من الفقهاء الرومان القدماء بعض الدراسات لقانون الألواح وكانوا يسمُّونه أحياناً بقانون المفوَّضين العشرة. وهكذا عمد منذ القرن الثاني قبل الميلاد كلٌّ من سيكستوس إيليوس Sextus Aelius ولوسيوس آسيليوس Lucius Acilius لشرح هذا القانون. ثم جاء غايوس Gaius في مؤلَّفه حول هذه الألواح في ستة أجزاء. وفي العصور الحديثة اهتمَّ كثير من العلماء بجمع البقايا من النصوص المبعثرة وتصنيفها، غير أنَّ هذا الجمع والتصنيف ظلَّ يحمل طابعاً كيفيَّاً في ما يتعلَّق بتوزيع الأحكام على كلِّ لوح من الألواح[٢].

وبالتالي، يمكننا الاستنتاج استناداً إلى دلائل ساطعة عدَّة (السيرة الإخباريَّة الرومانيَّة، لغة النصِّ، منطوق النصِّ الحقوقي)، على أنَّ موادَّ قانون الألواح كما انتهت إلينا تعود بتاريخها كحدٍّ أدنى إلى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، فعديدة هي الموادُّ الحقوقيَّة في قانون الألواح التي تعكس لنا الشروط الموضوعيَّة والصراع الطبقيِّ والتطوُّرات والحوادث التاريخيَّة للمجتمع الرومانيِّ في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، كالصراع على الأراضي العامَّة (الأميريَّة) بين طبقتي النبلاء والعوامّ. وفشل الإصلاح الزراعيُّ رغم المحاولات المتكرِّرة لممثَّلي طبقة العوامّ. والإجراءات المقترحة لقمع مختلف أنواع المخالفات الجنائيَّة؛

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٥٤.

[٢]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٣٧.

العقوبات الاقتصاديَّة؛ تحديد الربا؛ إلخ[١].

٥. مضمون قوانين الألواح الاثني عشر

إنَّ عناصر ومكوِّنات تلك القوانين تحتوي على خليط غريب من المبادئ العامَّة الفضفاضة والتفاصيل الأقلِّ أهميَّة، ومن القانون العامِّ والخاصِّ، ومن عدد من القواعد التي تتعلَّق بالصحَّة العامَّة والسلامة الشخصيَّة[٢]، فمعظم الأحكام التي تضمَّنها هذا القانون متعلِّقة بالحقوق الخاصَّة. أمَّا ما كان منها له صلة بالحقوق العامَّة فقليلٌ ومقتصرٌ على الأمور الجزائيَّة[٣].

ويجدر القول أنَّ محتويات الألواح تشمل أصول المرافعات الأولى (من اللَّوح الأول حتى الثالث)؛ حيث تتحدَّث عن الدعاوى القانونيَّة، وتتناول فيها بصورة خاصَّة أصول المرافعات القديمة البالية التي سمِّيت في ما بعد «الدعاوى القانونيَّة Legis actiones» والتي كانت جميعها شفهيَّة قائمة على المراسم والأشكال. وتشمل هذه الأصول على أربعة أنواع هي: أوَّلاً: طريقة القسم. ثانياً: طريقة القبض على رهن. ثالثاً: طريقة القبض على الشخص. رابعاً: طريقة الطلب إلى الحاكم الإداريِّ بتعيين قاضٍ للمدَّعي. بينما يشمل اللَّوحان الرابع والخامس الكلام عن الأحكام المتعلِّقة بسلطات ربِّ الأسرة الرومانيَّة، وعن الأحكام المتعلِّقة بالوصيِّ والإرث والوصايا. ويتحدَّث اللَّوح السادس عن الأعمال الحقوقيَّة؛ أي الأعمال التي تنتج نتائج حقوقيَّة مثل البيع بطريقة التنازل أمام ولاة القضاء، أو بطريقة القبض باليد بحضور وزَّان وخمسة شهود بالغين. ويتحدَّث اللَّوح السابع عن الأحكام المتعلِّقة بغلَّة الأراضي وحدَّدوها. ويتحدَّث باقي الألواح (من الثامن إلى الثاني عشر) عن أحكام متعلِّقة بالأصول الجزائيَّة جلُّها تبحث في العقوبات المتعلِّقة بالجنايات مثل القتل والجرائم الواقعة على السلامة العامَّة مثل الحرق، وكذلك عن أحكام الجرائم الخاصَّة، أي التي يترك أمر تعقُّبها للمجني عليهم؛ كالسرقة مثلاً. وهناك من الأحكام المتعلِّقة بالجرائم الزراعيَّة[٤].

---

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٥٥.

[٢]- محمد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٢١٠.

[٣]- محمد محسن البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٢٨.

[٤]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٣٩ - ٢٤٠.

ويتبيَّن للمدقِّق في قانون الألواح الاثني عشر أنَّ بحثه في حقوق العائلة مختصر؛ وذلك لأنَّ الأسر والقبائل في روما كانت في ذلك العهد تحيا حياة مستقلَّة عن الدولة. في حين أنَّه بحث بحثاً مطوَّلاً في حقوق الأشياء، ولاسيَّما في الملكيَّة العقاريَّة، وطرائق انتقال الأموال أثناء الحياة، وبعد الموت. في حين أنَّه لم يعنَ العناية المطلوبة بالوجائب؛ والسبب في ذلك هو حياة روما الزراعيَّة التي كانت تحياها في ذلك الحين[١].

عموماً، لقد كانت قوانين الألواح الاثني عشر فاتحة لمرحلة جديدة في تطوُّر القانون الرومانيِّ، وكان تدوينها إيذاناً باستقلال القانون عن الدين، وقد اعتبره الرومان منبعاً للقانون كلِّه العامِّ والخاصِّ، ومع أنَّه لا يتعرَّض لأحكام القانون العام إلاَّ في القليل النادر، كما أسلفنا، فهو يتضمَّن التقاليد الموروثة والقواعد العرفيَّة الداخلة في نطاق القانون الخاصِّ، والتي كانت غامضة أو مثار نزاع بين العوامِّ والأشراف، كما مهَّد السبيل لتحطيم سيطرة الأشراف على توزيع العدالة، واحتكار تفسير القواعد القانونيَّة، بحيث صار العوامُّ يعرفون مالهم وما عليهم[٢].

٦. كيف وصلتنا قوانين الألواح الاثني عشر

كان قانون الألواح الاثني عشر المحاولة الأولى التي قام بها الرومان لجمع القانون، ولم تصلنا هذه الألواح كاملة، حيث لم نتلقَّ سوى جزء منها[٣]، بواسطة عدد من المؤلِّفين اللاَّتين الذين كانوا يستشهدون ببعض نصوصه، أو يشرحون بعض أحكامه. وكان علماء قواعد اللُّغة اللاَّتينيَّة هم أكثر الذين كانوا يستشهدون ببعض نصوص هذا القانون، وذلك عندما كانوا يدرسون أقدم الأشكال البالية من اللُّغة اللاَّتينيَّة[٤]. ومماَّ لا شكَّ فيه أنَّ ما وصلنا من كتابات هؤلاء المؤلِّفين والفقهاء اللاَّتين أمثال شيشرون Cicero، ولابو Labeo، وغالليوس Gellius A.، وغايوس Gaius، وغيرهم، سمح لأساتذة التاريخ الرومانيِّ بترتيب نصِّ الألواح على وجه التقريب. وتجدر الإشارة إلى أنَّ تصنيف مختلف الموادِّ وتوزيعها بعد ترقيمها على اثني عشر

[١]- محمد محسن البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٢٨.

[٢]- عبد اللَّطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧١.

[٣]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣٣.

[٤]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٣٦.

لوحاً ليس إلاَّ عمليَّة افتراضيَّة، إذ لا يشير أيُّ نصٍّ قديم إلى ذلك، ويعود الفضل في التصنيف المقبول حتى الآن بإجماع الباحثين إلى العالم دريكسين Driksen، وما زال العمل بهذا التصنيف الذي يرجع تاريخه إلى سنة ١٨٢٤م، ساري المفعول لأسباب علميَّة لا أكثر ولا أقلّ[١].

٧. سمات قوانين الألواح الاثني عشر

إنَّ دراسة قوانين الألواح التي وصلتنا تكشف لنا سمتين بارزتين هما بساطتها وقسوتها، فمثلاً مُنِح ربُّ الأسرة سلطاناً مطلقاً على أسرته إلى درجة القتل، حيث يستطيع الزوج أن يقتل زوجته أو أحد أبنائه إن أراد[٢]. كما كان من حقِّ الأب جلد أبنائه أو بيعهم بيع الأرقَّاء أو نفيهم من البلاد أو قتلهم[٣]. ووفق ما جاء في اللَّوح الرابع «أنَّه إذا ولد الطفل مشوَّهاً فلا جناح ولا مسؤوليَّة على الأب إن لم يتولَّ أمره[٤]». كما منح هذا القانون القاسي للزوج سلطاناً مطلقاً على زوجته، ولم يكن يحفظ لها أيَّ صفة قانونيَّة، ولذلك لم يكن يتاح لها أن تقوم بأيِّ عمل من الأعمال العامَّة، ولم يكن يحقُّ لها التوظُّف، ولا أن تظهر في دار المحكمة من أجل أن تدلي بشهادتها، ولا أن توقِّع على وصيَّة، ولم يكن لها أن تعقد عقداً ولا أن ترث أرضاً ولا عقاراً من زوجها إن أراد أن يحرمها من ذلك[٥]. كما أشاع هذا القانون جوَّاً من الإرهاب والقمع الفكريِّ، حيث سمح للسلطات السياسيَّة بفرض رقابة مشدَّدة على الفكر والإبداع الأدبيِّ، وعاقب بالجَلد كلَّ من يكتب شيئاً يشوِّه السمعة، فالصيغة الرومانيَّة للإدانة؛ عندما يفعل أحدهم شيئاً سيِّئاً للدولة، كانت الغضَّ من مهابة الجمهوريَّة، وكان العقاب ينزل سريعاً على الكاتب، حتى أنَّ أحد معاصري بلاوتوس سُجن ثمَّ نفي، وهي عقوبة أقلُّ رعباً من عقوبة الإعدام في تلك الأيام، لأنَّه كتب مسرحيَّة فيها تلميح قليل الاحتشام للمقامات الرفيعة[٦].

---

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٥٥.

[٢]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٣٣.

[٣]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، سلسلة أقرأ ١٦٩، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٣٢.

[٤]- محمد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٢١١.

[٥]- أحمد الشنتناوي، المرجع السابق، ص١٣٣- ١٣٤.

[٦]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيَّة، دمشق ١٩٩٧م، ص٢٧.

ومن مجمل قوانين الألواح الاثني عشر يقول الدواليبي نقلاً عن مونييه R. Monier: إنَّنا نجد أنفسنا أمام قانون بربريٍّ يبرهن لنا في قضايا المدينين العاجزين عن الوفاء بديونهم؛ عن قسوة لا رحمة فيها. وتتَّضح هذه القسوة والوحشيَّة إذا ما عرفنا أنَّ أحكامه كانت تقضي باسترقاق المدين العاجز عن الوفاء بالتزاماته وديونه الماليَّة من قبل الدائن، وتعطي لهذا الأخير حقَّ بيعه مدينه أو قتله، وإذا تعدَّد الدائنون فلهم جميعاً الحقُّ في تقطيع جسم المدين إرباً إرباً وهو حيٌّ!. ويقول مونييه: لو قارنَّا قانون الألواح الاثني عشر مع شريعة حمورابي التي صدرت قبل ألفي سنة قبل الميلاد، لوجدنا فروقاً أساسيَّة، لأنَّ التشريع الرومانيَّ، من الناحية الاقتصاديَّة يظهر منحطَّاً جدَّاً عن قانون حمورابي؛ فالأول مشرَّع لجماعة من الملاَّكين الفلاَّحين ولا يتطرَّق إلى أحكام العقود والالتزامات، أمَّا قانون حمورابي فهو على العكس منه؛ حيث يحتوي على مجموعة أحكام قانونيَّة لمجتمع تجاريٍّ، وقد خصِّصت الأحكام المطوَّلة للعقود والالتزامات[١].

كما اتَّسمت أحكام الألواح بالشكليَّة والرسميَّة على عكس المدوَّنات الإغريقيَّة؛ وذلك يرجع إلى أنَّ المجتمع الرومانيَّ كان مجتمعاً زراعيَّاً قليل المعاملات التجاريَّة. ولم يعمد واضعو القانون إلى تدوين كل القواعد القانونيَّة اللاَّزمة لحكم المجتمع الرومانيِّ، بل اقتصروا على تجميع التقاليد والقواعد العرفيَّة التي كانت غامضة أو محلَّ شكٍّ أو مثار نزاع بين العوامِّ والأشراف مع إدخال بعض التعديلات.

وقد تعرَّضت قوانين الألواح الاثني عشر بشيء من التفصيل لنُظم العقوبات وإجراءات التقاضي، وهو ما كان يطمح إليه العوام حتى تتبيَّن لهم كيفيَّة تطبيق القانون والاستفادة من الحقوق[٢]. وبالجملة، فإنَّ قانون الألواح الاثني عشر كان مؤلَّفاً من سلسلة من الأحكام الموجزة، بل المقتضبة، المخصَّصة للحكم في المسائل المتناقَش فيها بين طبقتَيْ العوامِّ والأشراف، وقد دُوِّنت بصيغة مختصرة جدَّاً ليسهل حفظها، وهي تشبه الأمثال وتذكِّر بالقواعد العرفيَّة المسلَّم بها[٣]. ولمَّا كان هذا القانون قد صدر لتحقيق العدالة والمساواة بين

[١]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٤٠ - ٢٤١.

[٢]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣٣- ١٣٤.

[٣]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٣٦.

الأشراف والعوامِّ، تجدر الإشارة إلى أنَّه لم ينجح في تحقيق ذلك، فقد بقيت الفوارق في بعض المجالات، فتكفَّلت بها التشريعات اللاَّحقة مثل الزواج بين الأشراف والعوامِّ وتوزيع الأراضي على العامَّة، والقضاء على احتكار الكهنة لتفسير القانون وشؤون الحكم[١].

وبناء على هذا فإن قانون الألواح الاثني عشر ليس بقانون جامع لجميع الأحكام والقواعد الحقوقية السائدة في روما في وقتها[٢]، ولا يمكننا أن نعتبر قانون الألواح دستوراً بالمعنى الحرفي للكلمة، وخصوصاً من الناحية التشريعيَّة ليس هذا فحسب، بل لا يمكننا أيضاً أن نعتبره قانوناً بالمعنى الحديث للكلمة، إذ إنَّ الألواح الاثني عشر بمختلف موادِّها، لم تكن مجموعة كاملة لكلِّ الأحكام والوصايا السارية المفعول، والأمر لا يتعدَّى في واقع الحال سوى تعيين وتحديد أهمِّ العادات المتعارَف عليها، بشكل لا يقبل أيَّ إبهام أو التباس من أيِّ طرف كان، إذ إنَّ النبلاء كانوا يسيئون معاملة العوامِّ، كما أنَّ أبناء هذه الطبقة أخذوا يتمرَّدون حيناً بعد حين على امتيازات طبقة النبلاء، مطالبين بتغيير الأوضاع بشكل تُصان فيها مصالح العوامِّ بصورة أفضل[٣].

عموماً، لقد كان من أهمِّ ملامح هذا القانون أنَّ عباراته صِيغت بأسلوب شعريٍّ موجز، حيث تنتهي فقراته بصورة متشابهة، وأنَّه لم يخلُ تماماً من الأحكام الدينيَّة من بينها منع النساء من لطم وجوههنَّ في الجنازات، وتناول هذا القانون قضايا الأسرة كشكليَّات انعقاد الزواج ،وحصول الطلاق، والأولاد الشرعيين، والوصاية والإرث. وتناول أيضاً الحقوق العينيَّة كالملكيَّة العقاريَّة وانتقال الملكيَّة والالتزامات، وعالج الجرائم التي يغلب عليها طابع الحقِّ العامِّ (القتل - التسبُّب بالحريق - الشهادة الكاذبة) وتلك التي يغلب عليها طابع الحقِّ الخاصِّ (السرقة - الاعتداء على الغير)، وسهَّل للمواطنين الرومان المثول أمام القضاء، وأقرَّ لهم ببعض الحقوق العائليَّة، وحدَّد الجرائم الرئيسية[٤]. وبهذا المعنى أيضاً، فإنَّ قانون الألواح لم يكن فكرة قانونيَّة مبتكرة، فكثيراً ما نعثر في مختلف موادِّه على قواعد

[١]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣٤.

[٢]- محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، مصدر سابق، ص٢٣٦.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٥٥.

[٤]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣٤.

ومبادئ حقوقيَّة ترتقي بأصولها إلى العصرين الملكيِّ والأتروسكيِّ، وأحياناً إلى فترات تاريخيَّة تقادَم عهدها. ولكن بجانب تلك العناصر القديمة نجد مُحدَثات حقوقيَّة مُدرَجة في مختلف الموادِّ كنتيجة منطقيَّة للتطوُّرات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة التي شهدها المجتمع الرومانيُّ خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد[١].

ثالثاً: نشر سرِّيَّة الأحكام الحقوقيَّة

رغم إذاعة الحقوق الرومانيَّة، وتثبيتها في نصوص مدوَّنة، بواسطة قانون الألواح الاثني عشر، إلاَّ أنَّ الأمور لم تنتهِ عند العوامِّ بالوصول إلى علنيَّة هذه الأحكام وتصديرها في القانون. فصدور هذا القانون بشكله الموجز وأحكامه المقتضبة؛ قد أبقى أمر تفاصيل أحكامه وشرحها لتطبيقها ضمن المراسم الدينيَّة المطلوبة، في أيدي الكهنة، لأنَّهم كانوا المرجع الوحيد المساعد للقضاة في إدارة شؤون القضاء، وبقوا المرجع الوحيد في الاستفتاء حول القضايا المعروضة عليهم في تلك القوانين[٢]. وقد ظلَّ الناس بحاجة إلى من يوضح لهم أحكام القانون، ويهديهم سواء السبيل باتِّباع الأصول والمراسم للوصول إلى حقوقهم أو للدفاع عنها؛ ذلك لأنَّ نصوص القانون كانت مختصرة، ولأنَّ أصول المحاكمات والحقوق بصورة إجماليَّة كانت قائمة على الأشكال والمراسم والحركات التمثيليَّة، وهذه أمور لم تتناولها الألواح بالتفصيل، ولم يكن يعرفها إلاَّ الكهنة، وهذا ما جعل للتفسير مكانة عظيمة في ذلك العصر.

ولعلَّ ما كان يساعد الكهنة على الانفراد بهذا المصدر الحقوقيِّ هو احتفاظهم بسريَّة الأحكام الحقوقيَّة في روما، واحتفاظهم بتقويم الأيام أو المفكِّرة الدينيَّة (الروزنامة) المتضمِّن وحده بيان الأيام الجائز فيها التقاضي، وهذه لم يكن يعرفها إلاَّ هم. فلئن زال في هذا العصر احتكارهم لمعرفة الحقوق نفسها؛ بفضل صدور قانون الاثني عشر لوحاً، فقد ظلوا محتكرين حقبة من الزمن لتفسير القانون ومعرفة طرائق إعماله، وبقي الأمر كذلك حتى سنة ٤٥٠ رومانيَّة/ ٣٠٤ ق.م[٣]. فما الذي حدث؟

---

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٥٦.

[٢]- شفيق الجراح، دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانية ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص١٢١.

[٣]- محمد محسن البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٣٣.

لقد ظلَّ العوامُّ يحاولون دوماً الخروج من حالة القضاء الكيفيِّ، الذي يستند على أحكام يحتفظ بسريَّتها رجال الدين من طبقة الأشراف، ولم يتسنَّ لهم تحقيق ذلك إلاَّ بفضل أحد فقهاء القانون الرومان؛ حيث تذكر لنا كتب تاريخ القانون الرواية التي تشرح الكيفيَّة التي تمَّ بها كشف سريَّة الحقوق الرومانيَّة، وهذه الرواية تفيد بأنَّ آبيوس كلوديوس نقيب العوامِّ قد سمحت له الظروف بأن يطَّلع بنفسه على وثائق الكهنوت الحقوقيَّة، فسجَّل خلاصة عنها في مجموعة تتناول أشكال ومراسم الدعاوى القانونيَّة، ومن ثم جاء كاتبه (فلافيوس Flavianum) وكان أحد أبناء معتقيه، فنشر تلك المجموعة بغير علم سيِّده في سنة ٣٠٤ ق.م، وفي رواية أخرى نشرها بعلم سيِّده غير أنَّها سمِّيت منذ ذلك الحين بقانون فلافيوس Flavianum Jus . وهكذا، فقد تمَّ وضع قسم كبير من أسرار الكهنة الحقوقيَّة ولأول مرَّة تحت تصرُّف الجميع، فبادر الشعب إلى شكر فلافيوس على هذه المبادرة الطيِّبة من الشعب، بأن نشر أيضاً المفكرة الدينيَّة التي من خلالها تمكَّن الشعب من معرفة الأيام التي يجوز فيها التقاضي، والأيام التي لا يجوز فيها ذلك. لكن نشر هذه الحقوق السرِّيَّة والوثائق الكهنوتيَّة لم يكن لوحده كافياً؛ ليصبح على الفور من يشاء من الناس مرجعاً للفتوى والتفسير. لذلك، فقد ظلَّ الكهنة بعد ذلك مدَّة طويلة؛ محتفظين بمقامهم الحقوقيِّ، إلى أن جاء منتصف القرن السادس من بناء روما ولم يعد الفقه الحقوقيُّ قاصراً على رجال الدين ووقفاً عليهم، فكثر عدد الفقهاء الذين ينتمون إلى سلك الكهنة[١].

رابعاً: قوانين متمّمة لقانون الألواح الاثني عشر

١. تشريع هوراتيوس

صدر هذا التشريع في قنصليَّة فالريوس Valerius وهوراتيوس Horatius في سنة ٤٩٩ ق.م، حيث تمَّ الاتفاق على أنَّ قرارات الجمعيَّة القبليَّة صار لها قوَّة القوانين الملزمة لجميع المواطنين، بعد موافقة مجلس الشيوخ عليها، وقد كان الهدف من هذا القانون جعل الأحكام المصوَّت عليها من طرف العوامِّ إلزاميَّة للجميع؛ بما فيها الأشراف، ويعتبر هذا التشريع من التشريعات التي كانت في صالحهم، فقد كانت التشريعات التي تصدر عن مجالسهم لا

[١]- شفيق الجراح، دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانية ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص١٢٢.

تلزمهم إلاَّ هم، ولا تعني الأشراف في شيء، لكنَّ تشريعات مجالس الأشراف تلزم الجميع .من هنا، رأى العوامُّ أنَّ هذا التشريع الجديد قد يحقِّق نوعاً من المساواة والعدالة بين الطبقتين، فاعتبر انتصاراً لهم في صراعهم مع الأشراف.

وقد قام أيضاً القنصلان فاليريوس وهوراتيوس بتمرير قانون لفائدة نقيب العوامِّ تقرَّر فيه ألاَّ يتم إنشاء هيئات قضائيَّة جديدة تكون لها القوَّة والسيادة على الشعب، ولا يمكن الطعن فيها أو الاستئناف على قراراتها، وبأنه لا بدَّ من إعدام كلِّ من يأتي بمثل هذه البِدع، وكان ذلك تكريساً لقوَّة النقيب وللمنتخبين ولممثِّلي السلطة بالنسبة إلى العوامِّ، وتمَّ الإعلان كذلك أنَّه إذا ما مسَّ أيٌّ كان بشخص النقيب فإنَّه سيتعرَّض إلى عقوبة الإعدام وتصادر أملاكه لفائدة المعبد، وهذا التشريع الجديد أيضاً يمنح محامي العامَّة حصانة ويزيد صلاحيَّاته وشأنه أمام العوامّ[١] .

٢. قانون كانوليوس الخاصّ بالزواج

صدر قانون كانوليوس Canuleius الخاص بالزواج سنة ٤٤٥ ق.م، بعدما طالب العوامُّ بإلغاء القانون المنصوص عليه في الألواح الاثني عشر، والذي ينصُّ على منع الزواج بين الأشراف والعوامِّ. في الواقع، إنَّ أول من طالب بإجراء هذا التعديل لم يكن عامَّة الشعب، وإنما أفراد كانوا في عداد العوامِّ بحكم نسبهم وأسرهم، لكنهم كوَّنوا ثروة لا بأس بها عن طريق الاشتغال بالتجارة. وارتفع مستواهم المادِّيُّ وأرادوا أن يدخلوا دوائر الأشراف، وأن ينالوا نصيباً في الحياة السياسيَّة في الدولة، ونظراً إلى أنَّ المناصب كانت مغلقة أمام العوام، وجدوا أنَّ خير سبيل أمامهم هو أن يدخلوا دوائر الأشراف عن طريق الزواج منهم، ممَّا يؤدِّي إلى اتِّصالهم بنسب شريف يسمح لهم بالترشُّح للمناصب. وروَّجوا لهذه الفكرة لدى العوامِّ على أنَّها خطوة أساسيَّة في سبيل تحقيق المساواة[٢].

في تلك الأثناء، تقدَّم نقيب العوامِّ كانوليوس بعريضة تتضمَّن مشروع قانون يشرِّع الزواج بين الطبقتين، في عهد قنصلية أوغيرنوس وفيليو، وقد قام هذان القنصلان بشغل الناس

[١]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣٦.

[٢]- مصطفى العبادي، مذكرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٣٤.

عن هذا القانون حتى لا يتمَّ قبوله، لكن العوامَّ رفضوا الانضمام إلى الجيش ما لم يتمَّ قبول هذا الاقتراح، ولن يكون هناك جيش لروما، وأثار هذا الاقتراح جدلاً حادّاً في وقت كانت فيه الحرب وشيكة الوقوع ضدَّ أقوام الفولسك volsque والفينس veins، ووجب اتخاذ موقف حاسم، إلاَّ أنَّ صراعاً حادّاً قد وقع بين الخطباء، سواء في مجلس الشيوخ أم داخل الهيئات التشريعيَّة الأخرى، حيث وصف الأشراف هذا الاقتراح بأنَّه عار ومناقض للأصول والأسس الرومانيَّة، أمَّا النقيب كانوليوس فقد دافع عن هذا الاقتراح، وأظهر للعوامِّ احتقار الأشراف لهم، وبعدما كان يدافع عن اقتراحه، صار يدافع عن مطالب أخرى، وبعد نقاشات شاقَّة وطويلة تمَّ التصويت لصالح هذا الاقتراح، ووضع حدٌّ مؤقَّت للصراع بين الطبقتين بسنِّ تشريع يبيح الزواج بين الأشراف والعوامِّ. وقد صدر هذا التشريع سنة ٤٤٥ ق.م. ومع صدوره تمَّ إنشاء سلطة جديدة تتناسب مع الظروف السائدة باسم «المحامي العسكريِّ»، لكن هذا التنازل لم يدم طويلاً، فبعد مرور العاصفة أعيد الشكل القديم، وتمَّ منح القنصلين بابيروس ماجيلانوس وسامبرنيوس أتراتينوس السلطة القنصلية[١].

٣. قانون سكستيوس وليكينيوس

سعى العوام من خلال قانون سكستيوس Sextius وليكنيوس Licinius لتحقيق المساواة التامَّة بينهم وبين الأشراف، والأمر الذي أثار المشكلة هذه المرة كان الأرض العامَّة Ager puplicus أو ما يعرف بالأرض الأميريَّة وهي الأراضي التي استولت عليها روما نتيجة حرب التوسُّع والعدوان، وبدل أن توزَّع هذه الأراضي على كلِّ أفراد الشعب الرومانيِّ، وجد العوامُّ أنَّ النبلاء والأشراف قد استأثروا بها وراحوا يستغلُّونها على نحوٍ أشبه باستغلال الفرد لملكيَّته الشخصيَّة، فتوارثوها، وبعد ذلك كانوا يبيعونها أو يشترونها من بعضهم بعضاً، وهذا ما أدَّى إلى زيادة حدَّة الصراع الطبقيِّ، حيث شعر العوامُّ أن جميع الحقوق التي حصلوا عليها لا قيمة عمليَّة لها، إلاَّ إذا أتيحت لهم فرصة المشاركة في السياسة والحكم مثل الأشراف. لذلك تقدَّم اثنان من نقبائهم، وهما سكستيوس وليكنيوس، بمجموعة من القوانين تحقِّق المساواة، ورغم أنَّ هذه القوانين قُدِّمت إلى الجمعيَّة القبليَّة سنة ٣٧٦ ق.م إلاَّ أنَّ الأشراف ومجلس الشيوخ قاوموها بكلِّ وسيلة ممكنة. وحتى لا يؤدِّي الانقسام بين الأشراف والعوامِّ

[١]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣٧.

إلى حرب أهليَّة اضطرَّ مجلس الشيوخ إلى إقرار هذه القوانين بعد تسع سنوات، أي في سنة ٣٦٧ ق.م. وقد أباحت هذه القوانين للعوام توليِّ جميع مناصب الدولة[١]، بما فيها منصب القنصليَّة، إلاَّ أنَّ الإحصاءات لم تسجِّل أكثر من خمسة عشر قنصلاً من العوامِّ، طوال الفترة الممتدَّة من منتصف القرن الرابع قبل الميلاد إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد[٢].

٤. تشريع هورتنسيا سنة ٢٨٦ ق.م

يذكر غايوس أنَّ القانون هو ما يأمر به الشعب ويؤسِّس له، والاستفتاء هو ما يصدر عن العوامِّ ويؤسِّس له، وتختلف قراراتهم عن قرارات الشعب، والمقصود بالشعب populous مجموع المواطنين الرومان بما فيهم الأشراف، أمَّا العوام فهم طبقة تختلف عن الأشراف، لذلك نجد قديماً أنَّ الأشراف لم يكونوا يشاركون في استفتاءات العوامِّ التي كانت تتمُّ من دون تدخّلهم[٣]. وفي وقت اشتدَّت فيه الأخطار المحدقة بروما، والتي دخلت في حرب مع جيرانها السمنيين، تمرَّد العوامُّ وقاموا بثورة من الداخل، فتقرَّر تعيين دكتاتور ووقع الاختيار على هورتنسيا Hortensia لمواجهة الموقف، فوجد أنَّه من الأفضل أن يجيب العوام إلى مطالبهم، فأصدر قانونه المشهور lex hortensia، الذي ينصُّ على «اعتبار القرارات التي تصدرها الجمعيَّة القبليَّة قوانين ملزمة للدولة، من دون أن تعرض على مجلس الشيوخ»، وهذا القانون منح الجمعيَّة القبليَّة والعوام السيادة السياسيَّة الكاملة[٤].

خامساً: القضاء والقانون

١. القضاة العدليُّون

كان الحكام المزوَّدون بالسلطة العليا (أو السلطة الولائيَّة) المعروفة باسم الإمبريوم Imperium، يتمتَّعون بحقِّ إصدار المنشورات القضائيَّة Ius edicendi، ففي سنة ٣٦٧ ق.م عندما اتَّضح أنَّ القنصلين (رئيسي الجمهوريَّة) لم يعد في وسعهما النهوض بكلِّ الأعباء المُلقاة على عاتقيهما، نظراً لاتِّساع الدولة الرومانيَّة، أنشئ منصب البريتور Praetor (أي

[١]- مصطفى العبادي، مذكرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٣٤.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٦.

[٣]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٣٩.

[٤]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٣٦.

الحاكم القضائيّ) لكي يضطلع بمهمَّة تصريف العدالة[١]. والبريتور Praetor من الفعل اللاَّتيني Praeeo (بمعنى تقدَّم أو سبق غيره، أصدر التعليمات). وعلينا أن نميِّز بين القاضي الأعظم Praetor maximus الذي حكم روما بمساعدة القنصلين بعد زوال الملكيَّة، وكانت مرتبته أرفع من هذين القنصلين، وبين القاضي العدليِّ أو الحاكم القضائيِّ Praetor الذي نصَّ عليه القانون الليكينيُّ سنة ٣٦٧ ق.م. وأُسند إليه الإشراف على أمور القضاء المدنيِّ في مدينة روما، وكان ينظر في الدعاوى بين المواطنين، وفي حال غياب القنصلين عن المدينة، يمارس هذا القاضي صلاحيَّاتهما[٢]. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هؤلاء ليسوا بقضاة Judges على نسَق ما نعلمه اليوم من وظيفة القاضي الذي ينظر في الدعوى وينطق بالحكم، وإنَّما هم ولاة حكم Magistrats تعود إليهم بصورة عامَّة شؤون القضاء، وطرق تنظيمه، وإدارته، لأنَّهم كانوا يسمعون الشكوى بأنفسهم، ثم ينظِّمون أصول المرافعة، ويحيلون القضيَّة بعد ذلك إلى قاضي أو حاكم للنَّظر والبتِّ فيها، ضمن الأصول التي حدَّدها وُلاة القضاء بأنفسهم[٣].

لقد جرت العادة أن يعلن الحاكم القضائيُّ برنامجه عند تولِّيه منصبه في أول العام، فيصدر منشوراً دائماً Edictum perpetum مدوَّناً على لوح من الخشب مطليٍّ باللَّون الأبيض، يعلن فيه المبادئ القانونيَّة التي ينوي الحاكم العمل بها، والحكم بمقتضاها بين الناس، كما يتضمَّن قواعد الدعوى القانونيَّة التي يجب الالتزام بها، وتنفيذها في دائرة اختصاصه طوال مدَّة ولايته. ولمَّا كانت هذه القواعد تتكرَّر في كلِّ سنة بتعاقب الحكَّام القضائيين، فقد جرت العادة أن يستبقي الحاكم القضائيُّ الجديد ما يراه صالحاً من منشور سلفه، ومن ثمَّ سمِّي ذلك بالمنشور المتناقل. وكانت المنشورات تتناول أحكام القانون الرومانيِّ بالتعديل بطريقة ملتوية وغير مباشرة، ومع أنَّها لا تُعتبر تشريعات —لأنَّ التشريع ليس من اختصاص الحاكم القضائيِّ— ولا تلزم سوى القاضي الذي يعيِّنه هذا الحاكم القضائيُّ، وأنَّها ليست ملزمة إلاَّ في دائرة اختصاصه وخلال مدَّة ولايته (سنة واحدة)، ومع هذا ونظراً لأنَّ كثيرين من الحكَّام القضائيين كانوا يتناقلون أحكامها التي تثبت فائدتها، فقد أصبح لهذه المنشورات تأثير بالغ

[١]- عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٤.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٨٧.

[٣]- شفيق الجراح، دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، ص٥٧.

الأهميَّة في تطوُّر القانون الرومانيِّ (الخاصِّ) أي في إصلاحه وتجديده بتكملة النقص فيه أو تعديله أو منع تطبيق غير الصالح منه[١].

لقد كانت الحقوق المتشكِّلة من مجموع البرامج أو الخطط تسمَّى بالحقوق البريتوريَّة نسبةً إلى البريتور الذي كانت خطَّته أعظم الخطط خطراً، ومن هنا يظهر لنا أنَّ أوامر الحاكم القضائيِّ واجتهاداته كان مصدراً من مصادر التشريع خلال عصر الجمهوريَّة الرومانيَّة. وكانت تلك القوانين تسمَّى أيضاً بحقوق الشرفيَّة jus honorarum لأنَّ الحكَّام مُصدِري الخطط كانوا يتمتَّعون بامتيازات شرفيَّة، ولتميُّزها عن القانون المدنيِّ. وكان هذا القانون يستوحي قوَّته من العرف، ولم يختلط بالقانون المدنيِّ رغم أنَّه كان يحمل في طيَّاته بعض الأحيان تعديلات وتجديدات عليه . لكن خطط القضاة لم تؤلِّف مصدرًا حقوقيًّا؛ إلاَّ منذ صدور قانون إيبوتيا سنة ١٣٠ ق.م الذي نصَّ على المرافعات الكتابيَّة وحرَّر الأفراد من الشكليَّات التي نصَّ عليها نظام الدعوى سابقاً، فقد أصبح الحاكم القضائيُّ هو الذي يضع برنامج الدعوى في وثيقة كتابيَّة ويحرِّرها، ويثبت فيه ادِّعاء الطرفين بعد الاستماع إليهما من دون التمسُّك بالإشارات والعبارات الشكليَّة الرسميَّة[٢]، فوجودهم كان يكسب محاورات ومرافعات الطرفين، بحسب الأشكال والمراسم، صفة قانونيَّة، ويسمح للحاكم القضائيِّ بإحالتها إلى القاضي المحلَّف. في حين أنَّهم بمقتضى أسلوب المحاكمات الجديد أحرزوا صلاحيات تمكِّنهم من إصلاح الحقوق وتجديدها، كحقِّهم في إنشاء الصكِّ الذي تُلخَّص فيه ادِّعاءات الطرفين، والذي يتوقَّف عليه نجاح أو إخفاق الدعوى؛ لأنَّ الحاكم يبيِّن فيه الحكم القضائيُّ وينير به رأي القاضي المحلَّف. وبفضل ذلك كان الحاكم القضائيُّ- المتمتّع بصلاحيَّة بيان الحقوق - أي الإدلاء بالقواعد الحقوقيَّة - يؤيِّد بعض الحقوق التي لم ينصَّ عليها القانون ولم تؤيِّدها بصورة عامَّة الحقوق القانونيَّة الرومانيَّة، حينما يتراءى له أنَّ الإنصاف أو المنفعة العامَّة أو مبدأ حسن النيَّة مثلاً يقضي بتأييدها، أو يرفض تأييد حقٍّ- بامتناعه عن إنشاء صكٍّ ملائم - إذ يتبيَّن له مخالفته للاعتبارات التي ذكرناها، رغم موافقته للقانون[٣].

[١]- عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٤- ٧٥.

[٢]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٠٧.

[٣]- محمد محسن البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيَّة، مصدر سابق، ص٣٧.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا هو: هل حفظ الدستور الرومانيُّ للسلطة القضائيَّة استقلالها الحقيقيّ؟ في الواقع لقد كان القاضي مرغماً على احترام القوانين، وإذا ما جعلته في مأمن من العزل ورفع الدعوى عليه، فإنَّ هذه الحصانة تزول حين يصبح مواطناً عاديّاً، فهو معرَّض عندئذ لأن تستهدفه دعاوى خطيرة ذات مفعول رجعيٍّ، لأنَّ المدَّعين الجسورين كُثر، وعليه أيضاً أن يحسب للعرف والرأي العامِّ حسابهما، فبينما يتمتَّع القاضي (المدني) بحقٍّ نظريٍّ يتيح له نشر بيانه حين تسلُّمه العمل؛ أن يقلب رأساً على عقب القوانين والقواعد المرعيَّة في الدعاوى التي سيبتُّ بها، فإنَّه لا يحدِث شيئاً إلاَّ بحكمة ويقتصر عمليّاً في أكثر الأحيان على إعادة بيان سلفه، ولا يستطيع القاضي بنوع خاصٍّ الاستغناء عن العمل برأي مجلس الشيوخ، الذي تفوق سلطته المعنويَّة والعمليَّة سلطة القاضي إلى حدٍّ بعيد[١].

٢. قاضي الأجانب وقانون الشعوب

كانت طائفة القوانين والتقاليد العرفيَّة الخاصَّة بروما والمواطنين الرومان تُعرف باسم القانون المدنيِّ Ius civile نسبة إلى مواطني روما، ولمَّا كان هذا القانون قد وضع أصلاً للمواطنين الرومان ولا يسري على غيرهم، كان الأجانب مجرَّدين من حماية القانون ولا حقَّ لهم في التقاضي (ما لم توجد معاهدة تنصُّ على ذلك). وقد أدَّى التوسُّع في الحروب، واحتلال أراضي الغير[٢]، واتِّساع نطاق العلاقات التجاريَّة والاقتصاديَّة، وزيادة الاتصال بالأجانب، ونظراً لعدم اعتراف الرومان بالقوانين الأجنبيَّة من جهة، وعدم قبولهم بتطبيق أحكام قانونهم المدنيِّ (الخاصِّ) على الأجانب من جهة أخرى، تحتَّم إيجاد قواعد قانونيَّة جديدة تحكم هذه المجالات[٣]، وبالتالي ظهور قانون الشعوب، وتمَّ إنشاء منصب قضائيٍّ جديد سنة ٢٤١ ق.م، عُرف باسم قاضي الأجانب Praetor peregrinus؛ وذلك للنَّظر في المنازعات التي تقع بين الأجانب، أو يكون الأجانب طرفاً فيها. بينما اقتصر عمل الحاكم القضائيِّ المدنيِّ في روما Praetor urbranus على ممارسة اختصاصه القديم: المتمثِّل

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٩١.

[٢]- عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٥.

[٣]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٢٧.

بالنَّظر في ادِّعاءات المتنازعين الرومان طبقاً للقانون المدنيّ[١].

وقد تميَّز قانون الأجانب بميزتين هما: الحريَّة وخلوِّ التصرُّفات التي يتضمَّنها من الشكليَّات، فبينما كان الحاكم القضائيُّ في المدينة مقيَّداً بقواعد القانون الخاص وملزماً باتِّباعه، كان قاضي الأجانب حرّاً في صياغة القاعدة القانونيَّة، يستوحيها من مبادئ العدالة والقانون الطبيعيِّ؛ أي من مبادئ العدالة العامَّة والإنسانيَّة، والتقاليد والأعراف والعادات والشرائع السائدة التي شاع التعامل بها بين الأجانب، والشعوب الإيطاليَّة القاطنة بوسط شبه الجزيرة وجنوبها. فحريَّته في صياغة القواعد واختيار صيغ الدعوى جعلت قانون الشعوب قانوناً مرناً يتماشى مع الوضع الاقتصاديِّ وتطوُّره[٢]. ومن ثمَّ جاءت أحكامه خالية من الشكليَّات والإجراءات المعقَّدة، ومتماشية مع روح العدالة، ومنها تكوَّن ما يُعرف باسم قانون الشعوب Ius gentium. وبمضيِّ الزمن تأثَّر القانون المدنيُّ بقانون الشعوب الخاضعة (ولاسيَّما الإغريق) ودخلت بعض نُظمه كالعقود الرضائيَّة القائمة على حسن النيَّة[٣]. وهذا ما ساهم في تطوُّر ميادين كثيرة خصوصاً التجاريَّة منها، لأنَّ الشكليَّات رغم ما تحمله من ضمانات، فهي تعرقل التطوُّر الذي يحتاج إلى السرعة والائتمان[٤]. ولمَّا كان الحاكم القضائيُّ، عند إصداره المنشور الدائم، يستوحي أحياناً قانون الشعوب، فإنَّ القانون الأخير يمكن اعتباره هو الآخر مصدراً من مصادر القانون الرومانيِّ في ذلك العصر[٥].

٣. القانون الخاص والعام

يشمل القانون الرومانيُّ مجموعة أقسام يمكن أن نجملها بما يلي:

أولاً: القانون الخاص: يشتمل القانون الخاصُّ على المبادئ التي تنظِّم العلاقات بين المواطنين، وكان يطبَّق على المواطنين الرومان اللاَّتين داخل مدينة روما. وقد استطاع الرومان أن يستخلصوا لأنفسهم قانوناً ينظِّم علاقاتهم بعضهم ببعض. والملاحظ على

[١]- عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٥.

[٢]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٢٧.

[٣]- عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٦.

[٤]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٢٧.

[٥]- عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٧٦.

القانون الرومانيِّ الخاص في هذه المرحلة أنَّه تأثَّر كثيراً بالعرف والعادات، مع عدم توفُّر الدقَّة في هذه القواعد القانونيَّة (المبنيَّة على العرف)، ما زاد من ارتجاليَّة القضاة المكلَّفين بتطبيق العدالة، وتطبيق العقوبات.

ثانياً: القانون العام: يتمثَّل القانون العامُّ في مجموعة الأحكام المتعلِّقة بالدستور وإدارة الدولة بمعنى أنه مجموع القواعد القانونيَّة التي تنظِّم العلاقات بين الأشخاص والدولة في المجتمع، وبين الدولة وغيرها من الدول والمنظَّمات الدوليَّة بوصفها صاحبة السيادة والسلطة العامَّة، وقد دخلت روما في حروب مع جيرانها، لم تنته إلاَّ بعدما استولت عليها روما وسيطرت على أقاليمها، لذلك لم يكن مهمَّاً لها أن تقيم معها اتفاقيَّات أو قوانين لتنظيم العلاقة مع هذه الدول[١].

٤. حقُّ القسر، وحقُّ العودة إلى الشعب

لقد كان في عداد الصلاحيَّات؛ التي كان يمارسها الحاكم بموجب سلطان الإمبريوم الممنوح له، حقُّ القسر coercion بمعنى أنَّ للحاكم القضائيِّ في أن يجبر المواطنين على تنفيذ أمر ما أو منعهم من ذلك، وقد يتَّسع حقُّ القسر إلى درجة تسمح للحاكم بسجن أحد المواطنين بصورة إداريَّة. وعندئذٍ يحقُّ للمواطن «العودة إلى الشعب»؛ فحقُّ العودة إلى الشعب Provocatio ad populum من الحقوق التي ترجع إلى العصر الملكيِّ، حسب روايات الإخباريين اللاَّتين، مع أنَّ المؤكَّد أنَّه لم يُؤخذ به إلاَّ في الفترة الجمهوريَّة، وهو يوحي بالمزيد من الاعتزاز للرومان الذين يرون فيه (سور) و (حصن) حريَّتهم الفرديَّة، وبمقتضى هذا الحقِّ، كان يحقُّ للمواطن أن يحتكم إلى المجالس المئويَّة (في حالة الحكم بالإعدام)، وإلى المجالس القبليَّة (في الحلات الأخرى). وللمجالس عندئذٍ أن تؤكِّد أو تنقض الحكم الصادر بحقِّ المواطن الرومانيِّ، فلا يبقى أمام القاضي في هذه الحالة سوى فرض الغرامة الماليَّة ضمن حدود معيَّنة. طبعاً هذا من الناحية النظريَّة إذ أن مجلس الشيوخ وبعض الحكَّام قد انتهكوا مراراً هذا الحقَّ، لاسيَّما إذا كان المستأنف من طبقة العوامِّ، وكان للأمر صلة بالأوضاع السياسيَّة[٢]، ويكفي أن نذكِّر باعتراض بوبليوس غافيوس المؤثِّر عندما صرخ «أنا مواطن رومانيٌّ Civis

[١]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، مصدر سابق، ص١٢٦.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٩١.

romanus sum» أثناء ضربه بالعصيِّ وموته بعقوبة الصليب المخزية الخاصَّة بالعبيد، تنفيذاً لأمر فيريس قاضي صقلية. وفي التاريخ الرومانيِّ أمثلة كثيرة أخرى، دون هذا المثل شهرة، لأنَّه أعوزها فنُّ شيشرون ومحاماته لإبرازها، لكن ليست دونه تعبيراً[١].

سادساً: التشريعات الرومانيَّة في المرحلة الأخيرة من الجمهوريَّة الرومانيَّة

ظلَّت الأوضاع السائدة في روما - داخلها وخارجها - خلال القرن الأخير من الجمهوريَّة؛ تختلف تماماً عمَّا كانت عليه منذ بداية العصر الجمهوريِّ، وكان الدستور الرومانيُّ الذي عاشت روما في ظلِّه حتى سنة ١٣٣ ق.م كان دستوراً قديماً قد مضى عليه ما يقارب الأربعة قرون، وقد وُضِع أصلاً لمدينة صغيرة ذات طابع قبليٍّ، بيد أنَّ هذه المدينة الصغيرة تحوَّلت إلى دولة عالميَّة تشمل شبه الجزيرة الإيطاليَّة كلَّها، وقسماً من بلاد غالة، وإسبانيا، وشمال أفريقيا، وصقلية، وبلاد اليونان، وآسيا الصغرى، وكان من الطبيعيِّ أن تثبت الأحداث عجز الدستور الرومانيِّ البدائيِّ البسيط عن التحكُّم بسياسة هذه الدولة العالميَّة الكبرى وما نجم عن تكوينها من مفارقات ومتناقضات في المجتمع، وأصبحت الضغوط الاقتصاديَّة والمصالح الماديَّة أقوى من القانون، ولهذا كلِّه سنجد نمط الحياة السياسيَّة وأسلوبها في المرحلة الأخيرة من الجمهوريَّة (القرن الأخير من العصر الجمهوريِّ)، مختلفاً كلَّ الاختلاف عمَّا حدث في مرحلة الصراع بين الطبقات في بداية الجمهوريَّة. ففي المرحلة الأولى كان الصراع يهدف إلى تعديل قانون، أو إصدار قانون، أو اكتساب حقٍّ في منصب أو هيئة تشريعيَّة، وكانت المصالح المرتبطة بالأفراد والطبقات لا تزال محدودة، ولذلك أمكن الوصول دائماً إلى التوفيق بين المصالح المختلفة وتحقيق الإصلاح عن طريق التشريع. أمَّا في المرحلة التالية خلال القرن الأخير من الجمهوريَّة، فنجد المصالح أشدَّ تنافراً، والصراع أكثر عنفاً، والقانون عاجزاً عن مواجهة الواقع، فتوالت الأحداث، وظهرت شخصيَّات على مسرح السياسة كان لها الأثر البالغ في محاولة احتواء الأزمات[٢]. ولعلَّ أهمَّ هذه التشريعات قوانين الملكيَّة الزراعيَّة.

---

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وأمبراطوريَّتها، ط٢، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، باريس- بيروت ١٩٨٦م، ص١٣٢.

[٢]- خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوري، م.س، ص١٤٠.

الأخوان غراكوس وقصَّة القوانين الزراعيَّة في روما

كان الأخوان غراكوس خطيبين شهيرين في روما، وكان أحدهما يدعى تيبيروس والآخر يدعى غايوس، ولقد قُتل الأول سنة ١٣٣ ق.م، والثاني سنة ١٢١ ق.م، ويبدو أنَّ سبب قتلهما هو محاولتهما اقتراح قوانين تتعلَّق بالزراعة والإصلاح والزراعيِّ سُمِّيت «القوانين الزراعيَّة»، وتمَّ اقتراحها في محاولة لوضع حدٍّ لأطماع الطبقة الأرستقراطيَّة الرومانيَّة، التي كانت قد استولت على معظم أراضي البلدان التي احتلَّها الرومان في إيطاليا وخارجها، ومن أجل أن يحصل العوام على حصَّة أكبر عند إعادة توزيع الأملاك العامَّة. ولمَّا كان الأشراف يحتكرون الاستيلاء على الأراضي العامَّة بكاملها تقريباً، فأحدث تطبيق هذا القانون اضطرابات خطيرة.

أوَّل هذه القوانين قُدِّم من قبل سبيريوس كاسيوس Spirius Casius، واقترح فيه توزيع جزء من الأراضي العامَّة على الفقراء، وجرى التصويت عليه، غير أنَّ تحالف الأشراف مع الأغنياء من طبقة العوامِّ، قد منع تنفيذه. ولقد اتَّهم كاسيوس بأنه يطمع بالاستيلاء على الدولة وتحويلها إلى مملكة، فحكم عليه بالموت في سنة ٤٨٥ ق.م. وفي سنة ٣٧٦ ق.م قدم اقتراح قانون جديد من قبل نقيب العوام لسينيوس Licinius وقد تضمّن هذا القانون منع أي شخص من أن يمتلك أكثر من ٥٠٠ أربان من الأملاك العامة، وفي سنة ١٣٣ ق.م تقدم تيبيروس جراكوس بقانون تم إعداده لتوسيع تطبيق قانون لسينيوس وتعميم آثاره، فبعد أن اتّسعت الفتوحات ازداد تضخم الأملاك الواسعة الكبرى. وأمام هذا التضخّم المستمرّ كان لا بد من أن يتقدم تيبيروس بقانونه. وهكذا كلِّف مع أخيه غايوس ووالد زوجته ابيوس كلوديوس بوضع القانون موضع التنفيذ. ولكن تيبيروس كان قد اغتيل في وسط الفورم إثر حركة رجعية، كما لقي غايوس ذات المصير بعد اثني عشر عاما من مقتل أخيه، لأن غايوس ثابر على تبني مشروع أخيه السابق[١].

[١]- شفيق الجراح، دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، مصدر سابق، ص١٢٣.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة المستفيضة، يمكن أن نخلص إلى مجموعة من النتائج:

أوَّلاً: كان القانون الروماني قانوناً كباقي القوانين الأخرى التي سنَّتها الشعوب القديمة، وهدفت من خلاله إلى تنظيم مجتمعاتها. ولمَّا كان المجتمع الرومانيُّ يركِّز على مبدأ أن كلَّ شيء للنبلاء، فقد جاء هذا القانون ليكرِّس سلطتهم على الضعفاء من عامَّة الناس.

ثانياً: لم يسهم إصدار قانون الألواح الاثني عشر في تبدُّلات عميقة من الناحية القانونيَّة للشعب الرومانيِّ، لجملة من الأسباب، أهمُّها الإبهام والغموض في موادِّ هذا القانون، وترك تفسيرها بيد الكهنة من دون غيرهم، وترك معرفة الأيام التي يحقُّ فيها التقاضي سرَّاً بيد الكهنة، وقسوة هذه الموادِّ التي أباحت للمدين أن يستعبد الدائن، أو يقتله إن شاء. كذلك حرَّمت الزواج بين الأشراف والنبلاء، وفرضت القيود والرقابة على الفكر والإبداع، وكرَّست مبادئ وعادات وتقاليد بالية، كترك حقِّ الحياة والموت، الذي اعتبره الإسلام حقَّاً مقدَّساً لا تفاوض عليه، وانتهاكه يعادل الشِّرك بالله عزَّ وجلَّ، تركه بيد ربِّ الأسرة، فمن حقِّه أن يقتل من شاء من أولاده، ومن حقِّه ألاَّ يتكفَّل بالابن المشوَّه، وبالتالي تركه عرضة للموت المحتَّم. هذا من دون أن ننسى إلغاء القانون الرومانيِّ لشخصيَّة المرأة وتركها تحت وصاية أبيها مادامت عزباء، ونقل هذه الوصاية إلى زوجها بعد الاقتران به، بينما أعطى الإسلام للمرأة شخصيَّتها الاعتباريَّة الكاملة، فلها حقُّ البيع والشراء والوصيَّة والتعلُّم، لا بل وحقُّ الجهاد في سبيل الله.

ثالثاً: إنَّ مقارنة بسيطة بين القانون الرومانيِّ وقانون حمورابي الذي سبقه بألف وخمسمئة سنة، ستوضح لنا أنَّ الأول متخلّف عن الثاني بآلاف المرات، فالرومان سنُّوا قانونهم لمجتمع زراعيٍّ ضيِّق ومغلق، بينما أتى حمورابي بقانون متكامل يغطِّي مختلف القضايا الاقتصاديَّة والمدنيَة والحقوقيَّة. ولمَّا كان القانون مرآة المجتمع وصورته الواقعيَّة، فبالتالي سيسهل علينا فهم تلك الفروق.

رابعاً: هذه الدراسة خلصت إلى نتيجة مهمَّة ولعلَّها أهمُّ نتائج البحث، وهي عدم وجود أيِّ علاقة بين القانون الرومانيِّ والتشريع الإسلاميِّ، فكثيراً ما كنَّا نسمع عن تلك العلاقة،

لكن لم أجد في موادِّ القانون الرومانيِّ مادَّة واحدة، أو فكرة واحدة، قال بها الإسلام، أو أخذ بها، أو اقتبسها من ذلك القانون. بل وجدت النقيض من ذلك تماماً، فبينما كرَّست قواعد القانون الرومانيِّ سلطة الأقوياء على الضعفاء كان الإسلام يدعو إلى الرَّحمة والعدالة والمساواة بين الناس، فكلُّكم لآدم وآدم من تراب. وقابلت قسوة القانون الرومانيِّ تشريعات إسلاميَّة في منتهى الرَّحمة تدعو إلى الزَّكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومساعدة المشوَّهين والأيتام والضعفاء والعطف عليهم.

لائحة المراجع المعتَمدة

١-أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، سلسلة أقرأ ١٦٩، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م.

٢-أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيَّة، دمشق ١٩٩٧م.

٣-أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وأمبراطوريتها، ط٢، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، باريس- بيروت ١٩٨٦م.

٤-خالد شهرة، التشريع الروماني في العصر الجمهوريِّ (٥٠٩- ٢٧) قبل الميلاد، رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة الجزائر الثانية، بوزريعة ٢٠١٥م.

٥-شفيق الجراح، دراسة في تطوُّر الحقوق الرومانيَّة ومؤسَّساتها، ط٧، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.

٦-عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م.

٧-عبد اللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ الروماني، دار النهضة العربيَّة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠م.

٨-محمد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانية، ج١ من نشأة روما حتى عام ١٣٣ ق.م، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندريَّة ٢٠٠٦م.

٩-محمد محفل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان ١، دار غندور، لبنان ١٩٧٤م.

١٠-محمد محسن البرازي، محاضرات في الحقوق الرومانيَّة، مؤسَّسة هنداوي، المملكة المتَّحدة ٢٠١٨م.

١١-محمد معروف الدواليبي، الوجيز في الحقوق الرومانيَّة وتاريخها، ط٥، مكتبة

الشرق ومطبعتها، حلب ١٩٦٣م.

١٢-مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت، د.ت.

١٣-نور الدين حاطوم، أحمد طربين، صلاح مدني، نبيه العاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١ـ حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م.

١٤-ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، قيصر والمسيح، ج١، مج٣، ترجمة محمد بدران، بيروت، ١٩٨٨م.

السياسة والأخلاق
عند الرُّومان خلال العصر الجمهوريّ

عبد الله السليمان[١]

مقدِّمة

تشير الأبحاث الصادرة عن مراكز الدراسات أنَّ معظم السياسيين «الناجحين» في التاريخ بشكل عامٍّ هم أولئك الذين تجرَّدوا من أخلاقهم. وقد تجلَّى هذا الأمر في التاريخ الرومانيِّ وما زال قائماً في السياسات الأوروبيَّة الحديثة التي تعتبر نفسها امتداداً لهذا الإرث الثقافيِّ ومن قبله الإرث الثقافيّ اليونانيّ.

وبما أنَّنا في صدد دراسة ونقد السياسة والأخلاق عند الرومان، فمن الطبيعيِّ ألاَّ يُعنى هذا البحث بالبنية السياسيَّة للدولة ودستورها وأنظمة الحكم فيها، ومدى تأثير القيم الأخلاقيَّة عليها. لذا ركَّزنا على القيم الأخلاقيَّة السلبيَّة من فساد سياسيٍّ طال جميع مؤسَّسات الدولة، وانعدام روح المواطنة عند القادة العسكريين، وانتهاج سياسة الحرب والعدوان من دون مبرِّرات منطقيَّة، وشيوع الأنانيَّة والانتهازيَّة وسياسة المؤامرات والأحلاف على حساب سلطة الدولة وهيبتها، والرشوة، والفساد، والمحسوبيَّات، وشراء أصوات الناخبين وذمم القضاة والمحامين، وأخيراً فشل فادح في إدارة المناطق المحتلَّة. والحقيقة أنَّ معالجة هذه النقاط تفتح الباب لفهم العلاقة الجدليَّة بين السياسة والأخلاق في هذه الدولة، حتى سقوط النظام الجمهوريِّ فيها سنة ٢٧ ق.م.

أوَّلاً: النظام السياسيُّ في الجمهوريَّة الرومانيَّة

منذ سقوط النظام الملكيِّ في روما سنة ٥٠٩ ق.م، ترسَّخ في الموروث الثقافيِّ الرومانيِّ أنَّ هذا النظام كريه ومقيت، وغالباً ما صارت الملكيَّة أو الميل إليها تهمة تُنسب إلى القادة العسكريين الطموحين الذي حصلوا على شعبيَّة عارمة، أمثال مانليوس كابيتولينوس .M

[١]- مدرِّس التاريخ القديم في جامعة دمشق.

Manlius Capitolinus ويوليوس قيصر Julius Caesar، الذي تجنَّب قبول لقب الملك rex رغم أنَّه مارس الديكتاتورية طوال حياته. مع ذلك، ثمَّة الكثير من التأثيرات الملكيَّة استمرَّت في العصر الجمهوريِّ، وتظهر بشكل خاصٍّ في عدد من المناصب كمنصب ملك المناسك المقدَّسة rex sacrorum، والملك المؤقَّت interrex الذي كان من مهامِّه أن ينظِّم إجراء الانتخابات في حال موت القنصلين أثناء شغل منصبيهما. ولم تقتصر مخلَّفات النظام الملكيِّ في العصر الجمهوريِّ على هذه المنصب، بل كانت هناك مظاهر أخرى مثل شارات القضاء؛ فأس السلطة fasces، الكرسيِّ العاجيِّ curule، والسراج curulis، بالإضافة إلى اللباس والأمتعة الشخصيَّة التي تظهر في احتفالات موكب النصر للقادة العسكريين؛ كالثوب الأرجوانيِّ، وعربة النصر، والتاج الذهبيِّ، والصولجان العاجيِّ[١].

يتبيَّن من ذلك أنَّ الرومان لم يلغوا المنصب الملكيَّ لكنهم جرَّدوا شاغله من جميع سلطاته القديمة، غير تاركين له سوى الناحية الدينيَّة، ثم عمدوا في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد إلى تقسيم السلطات الدينيَّة نفسها بين موظَّفَين، هما: الأول هو الملك الذي لم يعد لمنصبه سوى أهمية رمزيَّة بحيث صار يدعى ملك القرابين والتضحيات Rex sacrorum، والثاني هو رئيس أعلى يشرف على طقوس العبادة ودعوه **الكاهن الأعظم** Pontifex Maximus، وكان كلاهما من النبلاء في فترة الجمهوريَّة المبكرة. ويدلُّ احتفاظهم بالمنصب الملكيِّ، حتى بعد تجريده من جميع سلطاته، على مدى تمسُّكهم بعاداتهم وتقاليدهم القديمة[٢].

ويمكننا أن نبدأ الآن بالحديث عن أهمِّ مؤسَّسات الدولة الرومانيَّة حتى يتسنَّى لنا بعدها تبيان مثالبها.

١. القنصل

نقل النظام الجمهوريُّ الجديد، بعد إسقاط النظام الملكيِّ، جميع سلطات الملوك وصلاحيَّاتهم إلى **القناصل** (consul). في البدء كان القناصل ثلاثة؛ واحد يقوم بالمهام

[1]- (Dillon, M., & Garland, L., The Ancient Romans; History and Society from the Early Republic to the Death of Augustus., published by Routledge., New York 2021, p.7.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص٤٧.

الدينيَّة، ويقيم في قصر الملك، ولم يكن له من الأمر سوى الشؤون الدينيَّة التي ستسلبه إيَّاها فيما بعد هيئة الكهنة. أمَّا القنصلان الآخران فتوزَّعا فيما بينهما السلطات العسكريَّة والقضائيَّة، ومارسا مجتمعَين السلطة التنفيذيَّة، وكانا يُنتخبان من قبل الجمعيَّة المئوية، بموافقة مجلس الشيوخ وتحت إشرافه، لمدة سنة واحدة غير قابلة للتجديد، ولا يجوز إعادة انتخاب أحدهما إلاَّ بعد مرور ١٠ سنوات، وبصورة تقليديَّة يصير عضواً في مجلس الشيوخ مدى الحياة بعد أن تنتهي سنة قنصليَّته. وكان هذا المنصب محصوراً بأبناء طبقة النبلاء حتى سنة ٣٧٦ ق.م، وبعد هذا التاريخ سُمح لأبناء العوامِّ بالترشُّح له[١].

كانت الجمعيَّة المئويَّة تعقد اجتماعاً سنويَّاً من أجل اختيار القنصل، الذي كان يحضر الاجتماع مرتدياً ثوب الترشيح؛ وهو ثوب أبيض بسيط يغطِّي الخصر يُعرف بإسم toga. وقد فسَّر المؤرِّخون الحكمة من لباس هذا الثوب بأن المرشَّح لن يتمكَّن من إخفاء النقود تحت ثيابه، حيث ستصبح عادة شراء الأصوات شائعة في روما خلال القرنين الأخيرين من العصر الجمهوريِّ، أو ربما ليعرض الجراح والندوب التي أصيب بها أثناء خدمته العسكريَّة تعبيراً عن تاريخه النضاليِّ، ومن أجل كسب أصوات الناخبين. ومهما يكن من أمر، فإنَّ ذلك الثوب الأبيض البسيط لا يعبرِّ في الحقيقة إلاَّ عن تذلُّل المرشَّحين أمام مجلس الشيوخ، ولا صحَّة لما ادَّعاه كاتو بأن طريقة ارتدائه تعبرِّ عن تقاليد الأجداد mos maiorum[٢]، فإذا نجح في المقابلة باشر عمله في ١٥ آذار، لكن بعد سنة ١٥٣ ق.م أصبح القنصلان يباشران عمليهما اعتباراً من أول كانون الثاني[٣].

لقد كان الهدف من وجود قنصلين اثنين في السلطة، لمدة سنة واحدة غير قابلة للتجديد، هو منع أحد من الاستئثار بالسلطة، وبالتالي عودة النظام الملكيِّ من جديد. أمَّا أهمُّ المهامِّ المسنَدة إلى القنصل هي إدارة السياسيَّة الخارجيَّة، والإشراف على تطبيق القانون في الدولة، وإنزال العقوبات بالمواطنين المتقاعسين عن تنفيذ المراسيم والقرارات، ودعوة مجلس الشيوخ والجمعيَّات الشعبيَّة (المجالس المئويَّة والقبليَّة) للاجتماع، واقتراح القوانين

---

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص٤٧، ٤٨.

[2]- (Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.56

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٤٧، ٤٨.

والمشاريع التي تصبح قوانين ملزمة للمواطنين كافَّة بمجرَّد التصويت عليها بالموافقة من قبل أعضاء المجالس المختصَّة، واقتراح أسماء المرشَّحين للانتخابات. كما كان من مهامِّهم مراقبة الأجانب، وإخماد القلاقل، وقمع الفتن الداخليَّة، وتنظيم لوائح الضرائب المفروضة على المواطنين بهدف تغطية المجهود الحربيّ. بينما كانت المهمَّة الأخطر هي قيادة الجيوش في الحرب، فعندما تُسند إليهما تلك المهمَّة يتمتَّعان بالسلطة العليا imperium. وأثناء المسير، أي بعد مغادرة روما كان يحقُّ للقنصل إنزال مختلف العقوبات من دون محاكمة بحقِّ أيِّ مخالف من الضبَّاط والجنود الخاضعين لسلطته، بما في ذلك عقوبة الإعدام. ورغم أنَّ مجلس الشيوخ هو الذي يدير وينظِّم شؤون الخزينة العامَّة، فإنَّ وكلاء الشؤون الماليَّة لا يتصرَّفون إلاَّ بمشورة القنصلين، ويتلقُّون التعليمات منهما.

وكان القنصل مسؤولاً أمام الشعب الروماني بعد انتهاء سنة ولايته عن نشاطاته وأعماله خلالها. وفي حال وفاته قبل نهاية سنة حكمه، كان على زميله تنظيم انتخابات لاختيار من يملأ المنصب، ويسمَّى القنصل الجديد «البديل» Suffectus، وفي حال وفاة القنصلين أو تركهما المنصب لأيِّ سبب من الأسباب يعود مرَّة أخرى إلى مجلس الشيوخ الذي يختار أحد أعضائه من القناصل السابقين ليحكم مؤقتاً (خمسة أيام فقط) بدلاً من القنصلين المتوفَّيين باسم الملك المؤقَّت interrex، وكان التأريخ في الجمهوريَّة الرومانيَّة يتمُّ بسنوات القناصل.

في الواقع، كانت السلطة التنفيذية التي يمثِّلها القنصلان تدعو إلى الدهشة في تركيبتها، حيث يتناوب كلاهما على الحكم شهريَّاً داخل المدينة، وتصدر القرارات والمراسيم باسم أحدهما بعد موافقة الآخر عليها، وكلاهما يتمتَّع بحقِّ النقض الـفيتو Veto؛ أي حقَّ الاعتراض على تصرُّفات زميله، إذا لم يكن راضياً عنها، -ونادراً ما كان يحدث هذا- وعند ذلك يلزم وقف تنفيذ قرارات هذا القنصل الآخر. لكن في ميدان القتال، رغم صعوبة الموقف، كانا يتناوبان على السلطة بشكل يوميٍّ، مما جلب بعض الكوارث العسكريَّة على الجيش الروماني[١].

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٤٨، ٤٩.

٢. الديكتاتور

لم يغفل المشرِّع الرومانيُّ عن خطورة التناوب على السلطة في الأيام الصعبة من عمر الدولة كهجوم مفاجئ على المدينة أو ثورة داخليَّة، لذلك أوجد تشريعاً يقضي بتعيين شخص بصلاحيَّات استثنائيَّة وسلطان مطلق على الدولة يسمَّى **الديكتاتور** Dictator لمدَّة ٦ أشهر غير قابلة للتمديد (مفهوم الديكتاتور عند الرومان مختلف عن مفهومه عند الإغريق)، ويُجمع المؤرِّخون على أن لاركيوس T. Larcius أول من تسلَّم هذا المنصب سنة ٥٠٠ ق.م. ويحق للديكتاتور أن يختار شخصاً ليساعده يسمَّى قائد الفرسان Magister Equitum. أما البروتوكول الخاص بتكليفه فيقضي أن يسند أحد القنصلين الحاكمين هذه المهمة الصعبة إلى الشخص المناسب بعد استشارة مجلس الشيوخ، الذي يكون قد أعلن حالة الطوارئ في البلاد، لكن، هو في الغالب شخص يتمتَّع بثقة الجميع[١]. واعتباراً من سنة ٣٢٠ ق.م جرى تقليد بتعيين الديكتاتور من بين القناصل القدماء، ورغم أن القنصل هو الذي يعيِّنه، إلاَّ أنه لا يستمدُّ سلطانه منه، بل يحل محلَّ القنصلين، ويستمد سلطانه من الإله جوبتير Jupiter، وبذلك كان يتمتَّع بسلطة لا حدود لها. وعند إعلان حالة الديكتاتوريَّة يتوقَّف جميع الحكَّام عن ممارسة صلاحيَّاتهم، حتى نقباء العوام المستَثنين من ذلك الإجراء كانوا يتوقَّفون عن ممارسة حقِّ النقض الفيتو على أيِّ إجراء يقوم به الديكتاتور[٢].

لقد كان على الديكتاتور أن يتحمَّل مسؤوليَّة المهمة الموكلة إليه بالقضاء على الخطر الذي يتهدَّد المدينة والدولة. والضمانات التي مُنحت له من مجلس الشيوخ كانت واسعة جداً حتى أنَّه كان غير مسؤولٍ عن أعماله وتصرُّفاته أثناء فترة مهمَّته، وبالتالي لن يحاسب عليها بعد انتهاء هذه الفترة. والسبب في ذلك أنَّه غالباً ما كان يعيَّن للدفاع عن مصالح الطبقة الأرستقراطيَّة ضدَّ القوى الشعبيَّة في الصراع الطبقيِّ الداخليِّ، لذلك لا بدَّ من حمايته مستقبلاً من خطر ملاحقته قضائيَّاً، وربما تُعدُّ هذه النقطة من أسوأ مثالب هذا المنصب[٣].

---

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، ص٥٠.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان، مطبعة غندور، بيروت ١٩٧٤م، ص٢٧٧.

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٠.

مهما يكن من أمر، فعلى الديكتاتور أن يعتزل منصبه بعد انقضاء الشهور الستة، وقد يعتزل منصبه قبل انتهاء هذه الأشهر الستة، إذا ما قدَّر أنَّ الخطر الذي استدعى تعيينه قد زال[١]. ويُعدُّ لوتشيوس Lucius Quinctius الأكثر استقامة من بين جميع الذين تسلَّموا هذا المنصب في تاريخ الجمهورية الرومانيَة، فقد اعتزل منصبه بعد ١٦ يوماً فقط في سنة ٤٥٨ ق.م، بعدما حمى المدينة ودرأ عنها خطر القبائل البربريَّة (قبائل الأيكوي Aequi)، وأنقذ الفرق الرومانيَّة المحاصرة من الفناء، وهذا ما دفع مجلس الشيوخ إلى إسناد هذه المهمة إليه مرة ثانية في سنة ٤٣٩ ق.م[٢]. لكن في سنة ٢١٦ ق.م استعاض المجلس عن منصب الديكتاتور بتوسيع الصلاحيَّات الممنوحة للقنصل، فكان سولا Sulla الذي تولَّى القنصليَّة سنة ٨٨ ق.م أول ديكتاتور بعد ذلك التاريخ[٣]. وتجدر الإشارة إلى أنَّه ويوليوس قيصر عندما شغلا منصب الديكتاتورية في القرن الأول قبل الميلاد، لم يعينهما أحد فيه، بل هما من عيَّنا نفسيهما، وتسلَّما الديكتاتوريَّة لفترات غير محدودة، على نقيض التقاليد المرعيَّة، لوضع برامج تشريعيَّة إلى حين عودة الحياة الدستوريَّة[٤].

٣. القاضي

لقد كان الهدف من إيجاد منصب القاضي العدلي (البريتور Praetor) هو رغبة مجلس الشيوخ في الحدِّ من صلاحيَّات القنصل، حيث امتلك القضاة الحقوق الفخريَّة ذاتها التي امتلكها القناصل (الفأس، والكرسي العاجي، وثوب التوغا). فبعدما خشي أعضاء المجلس من ازدياد نفوذ القناصل واستئثارهم بالسلطة، أخذوا بنزع صلاحيَّات القنصلين وتوزيعها على عدد من الموظَّفين، بحجَّة تخفيف العبء عن كاهلهما، وبحجَّة أنه لم يمكنهما تصريف الشؤون العسكريَّة والشؤون القضائيَّة في الوقت نفسه، فعُيِّن قاضيان مدنيان لتصريف أمور العدالة داخل العاصمة[٥].

لقد عيِّن القاضي الأول، لأول مرة في سنة ٣٦٧ ق.م، وكان يُعرف بـ praetor urbanus،

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٧٧.

[2]- (Galito, M. S., Ancient Roman Politic - Julius Caesar., Working Paper CEsA CSG 168. 2018, p.33

[٣]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٠.

[4]- (Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.10

[٥]- نور الدين حاطوم وآخرون، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص٥٢٧.

وكُلِّف بالنظر في قضايا المواطنين الرومان، بينما عُيِّن القاضي الثاني لأول مرة في سنة ٢٤٢ ق.م وكان يُعرف بـ praetor peregrinus، وكُلِّف بالنظر في قضايا الأجانب المستوطنين. وازداد عدد القضاة مع مرور الأيام، حيث عُيِّن قاضيان جديدان سنة ٢٢٧ ق.م لإدارة شؤون الولايات الجديدة (صقلية وسردينيا)، ثمَّ عُيِّن قاضيان جديدان أيضاً في سنة ١٩٧ ق.م لإدارة ولايات إسبانيا، وفي سنة ٨١ رَفَعَ سولا عدد القضاة إلى ثمانية، بينما رَفَعَ قيصر عددهم إلى عشرة في سنة ٤٧ ق.م. وكان القاضي الذي يحصل على أكبر عدد من الأصوات في الانتخابات يشغل منصب القاضي في روما بـ praetor urbanus المكلَّف بالنظر في قضايا المواطنين الرومان لأنَّه كان أهمَّها[١]. وقد امتدت سلطة القاضي في ما بعد للإشراف على تطبيق القضاء داخل المقاطعات والولايات وخارجها بواسطة وكلاء، ولأنَّه جزء من وظائف القنصليَّة فقد مُنح حقَّ السلطة المطلقة والنيابة عن القنصل في عمله أثناء غيابه، وكان يُنتخب سنويًّا[٢].

٤. مجلس الشيوخ

مقابل سلطة القناصل التنفيذيَّة، أمست سلطة **مجلس الشيوخ** الرقابيَّة أعلى سلطة في الدولة. وقد كان أعضاؤه في العصر الملكيِّ من علِّية القوم ومن شيوخ القبائل التي تألَّف منها الشعب الرومانيُّ، والتي سكنت تلال روما السبع، وكان من الطبيعيِّ أن يشعر الشعب أنَّ هؤلاء الأعضاء شرعيون في مجلسهم بحكم ثرائهم وجاههم وخبرتهم، تسليماً بالأمر الواقع، وعندما يشغر كرسيُّ عضو بسبب وفاة صاحبه، فإن الملك يختار من يملأه استناداً إلى المعايير السابقة (الجاه والمال والخبرة). ولكن مع تطوُّر الحياة السياسيَّة في روما، وسقوط النظام الملكي فيها وقيام النظام الجمهوري سنة ٥٠٩ ق.م، أخذ القنصلان دور الملك في تعيين أعضاء مجلس الشيوخ من أسر النبلاء وفق المعايير السابقة ذاتها. ومع صدور قرار Ovinia في سنة ٣١٨ ق.م، أسندت مهمة اختيار الأعضاء إلى «مراقبي الإحصاء والأخلاق العامَّة» Censor، وهكذا منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد أخذ هؤلاء المراقبون يضعون كلَّ خمس سنوات لائحة بأسماء الشيوخ.

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.12

[٢]- الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، حياة أسطوريَّة ونهاية مأساويَّة، دار الكتاب العربي، القاهرة ٢٠١٢م، ص٥٦.

إلى ذلك، كان أعضاء مجلس الشيوخ في العصر الجمهوريِّ، كما في العصر الملكيِّ، يحتفظون بعضويَّتهم مدى الحياة، وإن كان يحقُّ -نظريَّاً- لمراقبي الإحصاء والأخلاق العامة إقصاء من يريدون إقصاءه من أعضاء المجلس، عندما يجرون الإحصاء العام كل خمس سنوات، إلا أنهم لم يلجأوا إلى هذا التدبير الصارم إلاَّ في الحالات النادرة لاعتبارات أخلاقيَّة. وقد جرت العادة أن يبدأ مراقبو الإحصاء والأخلاق العامَّة أثناء عمليَّة الإحصاء الخمسيَّة بالتسجيل على لائحة مجلس الشيوخ أسماء الحكام القدماء من قناصل وقضاة عدليين ونظار الشؤون البلديَّة. وكانوا يضعون في رأس اللائحة أسماء مراقبي الإحصاء والأخلاق العامَّة القدماء. وبموجب قانون Ovinia الذي نصَّ على تعيين الحكام القدماء أعضاءً في مجلس الشيوخ، تمكَّن بعض ممثِّلي طبقة العوامِّ المنتخبين لمختلف مناصب القضاء من التسرُّب إلى داخل المجلس، لكنَّ عددهم ظلَّ محدوداً إذ إنَّ الأغلبيَّة الساحقة من الحكَّام المنتخبين كانت من طبقة النُّبلاء.

وكان مجلس الشيوخ في العهد الجمهوري يجتمع بدعوة من الحاكم (القنصل) أو من الحكام إذا كانوا يقومون بعملهم متضامنين (القنصلين أو القضاة العدليون). ويعقد المجلس جلسته عادة في قاعة Curia Hosltilia، وقد يجتمع داخل معبد الكونكورد Concordia، أو معبد الإله جوبتير الكائن على جبل كافو Cavo، وهو من أعلى الجبال الأبنيين، ولا تغلق الأبواب طيلة الاجتماع، رغم أنَّ الجلسات لم تكن علنيَّة، ويجلس كلُّ عضو في مجلسه المخصَّص له، على مقعد من الحجر المنحوت، وما يميِّز الأعضاء لباسهم الموحَّد المؤلَّف من القميص الرومانيِّ الفضفاض المزيَّن بشرائط حمراء على أطرافه والمسمَّى (التوغا)، وانتعالهم أحذية حمراء تزيِّنها بكلة فضيَّة على شكل هلال. ويترأس الاجتماع عادة الحاكم أو الحكَام الذين دعوا المجلس إلى الاجتماع، ولا يعطي المجلس مبدئيَّاً سوى المشورات Senatusconsulta وعندما يطلب الحاكم رأي أحد الأعضاء فإن له حقَّ الكلام من دون أن يقاطعه أحد حتى لو تكلَّم ساعات طوالاً، كما له الحقُّ في أن يثير قضايا لم يتعرَّض لها الحاكم، وأن يقترح ما يشاء من تعديلات على قرارات «مجلس الجماعات»، والمطالبة بأن تخصَّص له جلسة كاملة، عندها يصوِّت المجلس على طلبه فإذا حصل على الأغلبيَّة فله

ذلك، وعندها يوافق الحاكم على عقد هذه الجلسة من دون أدنى شكٍّ[١].

لقد كانت أهم **واجبات مجلس الشيوخ** في بداية العهد الجمهوريِّ هي تقديم المشورة للقنصلين، لكن هذا كان نظريّاً لأنَّ السلطة الفعليَّة كانت بيد أعضائه، نظراً لأنه السلطة الدائمة في الدولة، أما القناصل فيتحوَّلون، بمجرَّد انتهاء سنة ولايتهم، إلى مواطنين عاديين، أو إلى أعضاء في المجلس، وفي حال وفاة أحد القنصلين أو إقالته له الحقُّ في تعيين حاكم بالوكالة، كما يشرف على إجراء الانتخابات لاختيار القنصل الجديد، لذلك كان من البديهيِّ أن يكون للمجلس نفوذ كبير على القنصلين.

ولا بدَّ من القول أنَّ مجلس الشيوخ في العصر الجمهوريِّ كان يمثِّل السلطة التشريعيَّة في الدولة الرومانيَّة، وعصب الحياة السياسيَّة الدستوريَّة فيها، وكان المهيمن الحقيقيَّ على القرار السياسيِّ، فهو الذي يرسم السياسيَّة الخارجيَّة للدولة، ويستقبل السفراء والمندوبين ويجيب على أسئلتهم، ويملي عليهم موقف الدولة، كما يعيِّن السفراء الرومان ويزوِّدهم بالتعليمات اللاَّزمة، ويرسل البعثات الدبلوماسيَّة إلى الخارج، ويتدخَّل في توزيع القيادات العسكريَّة، ويحدِّد أهميَّة القوى العسكرية أو البحرية والمبالغ التي توضع تحت تصرُّف كلِّ ضابط في قيادة الجيش، وأثناء العمليَّات الحربيَّة يتلقى تقاريرهم ويبلغهم مقرَّراته. كما كان المجلس يدير المفاوضات مع أعداء وأصدقاء روما، ويناقش مشاريع المعاهدات ويُقرُّها، ويوفد مفوَّضين منه يشتركون مع القائد المنتصر في تطبيقها[٢]، وينظِّم شؤون الخزينة العامَّة، وله الحقُّ في إصدار العملة الذهبيَّة والفضيَّة، وكانت هذه العملة تحمل شعار مجلس الشيوخ «S C» أي أنَّها صدرت بقرار منه. كذلك شملت سلطاته الإشراف على الاحتفالات والطقوس الدينيَّة، وإجازة عباد الآلهة الجدد، وإقرار الأعياد وتحديد ميزانيتها. وكان للخطب التي يلقيها أعضاؤه في المناسبات السياسيَّة المتنوِّعة أثر كبير في إثراء الفكر السياسيِّ الرومانيِّ والأدب اللاَّتيني في وقت واحد.

---

[١]- عبد الله السليمان، مجلس الشيوخ الروماني، مجلَّة «المعرفة» الصادرة عن وزارة الثقافة السوريَّة، العدد ٦٥٣، دمشق ٢٠١٨م، ص١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وأمبراطوريتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م، ص١٠٧.

إلى ذلك، كان من حقِّ مجلس الشيوخ وحده إعلان الحرب أو السلام؛ فلا حرب من دون رأيه ولا صلح من دون موافقته، وهو الذي يعدُّ العدَّة والعتاد للجيش الرومانيِّ في البرِّ والبحرِّ، ويؤمِّن ما تتطلَّبه الحرب من نفقات ماليَّة، وفي أكثر من مناسبة تكفَّل أعضاؤه ترميم الأسطول أو إعادة بنائه من أموالهم الخاصَّة. كما أنَّ المجلس وحده الذي يمنح موكب النصر للقائد المنتصر، وله وحده حقُّ الفصل في الخلافات التي تقع بين القنصلين، ومن حقه أيضاً منح أيِّ شخصيَّة رومانيَّة، سواء عسكريَّة أم مدنيَّة، صلاحيات استثنائيَّة تماماً كما حدث في سنة ٥٧ ق.م عندما مُنح بومبي Pompeius سلطة الأمبريوم Imperium كنائب قنصل لمدَّة خمس سنوات.

وكان من حقِّ مجلس الشيوخ مكافأة من يشاء، ومعاقبة من يشاء، تماماً كما فعل في سنة ٤٥ ق.م عندما أعلن أنَّ يوليوس قيصر عدوُّ الوطن. ومن حقِّه أيضاً تعديل أو إلغاء قرارات المجالس المئويَّة والقبليَّة، بموجب سلطة الآباء Patrum auctoritas التي تبدَّلت في العصر الجمهوريِّ من استشاريَّة إلى تشريعيَّة. وبعد الحرب البونيَّة زاد نفوذه حيث كان قادة الأقاليم وحكام الولايات يرفعون تقاريرهم إليه، وإليه تُرفع الشكوى والمظالم الكبرى، ومن حقِّه وحده وضع نظام لإدارة الممتلكات الرومانيَّة في الولايات والإشراف عليها وعلى أراضيها[١].

٥. الجمعيات الشعبيَّة

بعد سقوط المُلكيَّة بزمن قليل فقدت **جمعيَّة الأحياء** comitia curiata جميع حقوقها وجُرِّدت من جميع صلاحياتها، وأصبحت قاصرة على منح القناصل المنتخبين في الجمعيَّة المئويَّة سلطة الأمبريوم، وإن استمرَّت بالاجتماع من حين إلى آخر حتى أواخر العصر الجمهوريِّ، من أجل بعض الأمور الدينيَّة أو القانونيَّة، مثل تنصيب بعض الكهنة، أو تبنِّي وريث[٢]، بينما آلت حقوقها السياسيَّة إلى **الجمعيَّة المئويَّة** comitia centuriata أو ما يُعرف بمجلس المئة، وهي كانت استمراراً للعصر الملكيِّ مثلها مثل جمعيَّة الأحياء، حيث تمَّ إحداثها في عهد الملك سرفيوس توليوس Servius Tullius سادس ملوك روما،

[١]- عبد الله السليمان، مجلس الشيوخ الروماني، مصدر سابق، ص١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦.

[2]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.13

وقد استندت في تكوينها إلى وحدات الجيش، حيث كان الجنود يجتمعون في جماعات تتألَّف كلُّ واحدة من مئة جنديٍّ، وتقسم إلى خمس فئات. أمَّا المهامُّ الموكلة إلى المجالس المئويَّة فكانت انتخاب القناصل والقضاة وبعض موظَّفي الدولة الآخرين، بالإضافة إلى النظر في المشاريع والقوانين التي يعرضها عليها الموظَّفون أو مجلس الشيوخ، فتجيزها أو ترفضها بالتصويت علَّها بـ (نعم) أو (لا)، كما كانت تنظر في ما يُرفع إليها من استئناف الأحكام التي يصدرها كبار الحكَّام، وتنظر في جميع قضايا الإعدام إذا كان المتَّهمون فيها مواطنين، حيث كانت بمثابة محكمة استئناف عليا لأحكام الإعدام الصادرة بحقهم. ورغم أنَّ إقرار حالة الحرب كان بيد مجلس الشيوخ، إلاَّ أنَّ إعلان تلك الحالة في البلاد كان من صلاحيَّاتها، حيث كانت تعقد اجتماعها في ساحة الإله مارس خارج المدينة برئاسة القنصل. إلى ذلك، كانت هذه الجمعيَّة هي الأساس العام للجيش الرومانيِّ، ولكن سلطانها مع ذلك ظلَّ محصوراً في أضيق الحدود، ورغم وجود العنصر الشعبيِّ في هذه الجمعيَّة إلاَّ أنَّ النبلاء استمرُّوا مهيمنين عليها وعلى قراراتها[١].

وبسبب تسلُّط النبلاء عليها، سعى العوام منذ القرن الخامس قبل الميلاد لإيجاد كيان سياسيٍّ مستقل يمثِّل طبقتهم، وأثمرت جهودهم أخيراً عن تكوين مجلس العوامِّ Concilium Plebis الذي تشكَّل من ممثِّلي القبائل، وينتخب أبناء هذه الطبقة ممثِّلين عن قبائلهم يُسمُّون الترابنة أو نقباء العوام Tribuni Plebis، وكان نقيب كلِّ قبيلة بمثابة زعيمها، يحصي أملاك قبيلته، ويحدِّد الضرائب المترتِّبة على أفرادها، ويتَّخذ مجلس العوام القرارات الشعبيَّة Pebiscitca. وكانت قرارات هذا المجلس أول الأمر لا تُطبَّق إلاَّ على العوامّ. ولم يلبث هذا المجلس أن صار **الجمعيَّة القبليَّة** comitia Tributa نحو سنة ٤٩٤ ق.م، والتي غدت هيئة دستوريَّة معترف بها، وبدأت تمارس حقوقاً تشريعيَّة منذ سنة ٣٥٧ ق.م، وكان أعضاء هذه الجمعيَّة القبليَّة ينظَّمون حسب قبائلهم التي صُنِّفوا فيها منذ الإحصاء الذي أجراه سرفيوس (سادس ملوك روما)، وكان الأغنياء والفقراء فيها سواء، حيث كان لكلِّ قبيلة صوت واحد، ورغم أنَّ صلاحيَّاتها كانت قليلة حيث لا تعرض عليها المشاريع إلاَّ بعد عرضها على الجمعيَّة المئويَّة، إلاَّ أنَّ تلك الصلاحيَّات أخذت بالازدياد منذ سنة ٢٨٧ ق.م،

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٥، ٥٦.

وما أن أتت سنة ٢٠٠ ق.م حتى أصبحت مصدراً تشريعيَّاً في روما، رغم أنَّ التصويت فيها على المشاريع ظلَّ بـ (نعم) أو (لا).

ثانياً: أضواء نقديَّة على بنية النظام السياسيِّ الرومانيّ

كان مجلس الشيوخ الرومانيِّ هو الهيئة التي تتفرَّد بإدارة السياسة الخارجيَّة للدولة، فالجمعيَّة الشعبيَّة لم يكن لها أيُّ دور في رسم تلك السياسة، وإن كانت استشارتها أمراً واجباً لإعلان الحرب وفقاً لأنظمة الدولة، فإنَّ رأيها يبقى صوريَّاً، أو تحصيل حاصل، لأنَّ بوسع الحكَّام الالتفاف على رأيها إذا لم يتوافق مع رغباتهم، فحين رفض الشعب بعد نهاية الحرب البونيَّة الثانية (٢١٨ - ٢٠١ ق.م) شنَّ حرب على الملك فيليب المقدونيِّ الخامس (٢٢١ – ١٧٩ ق.م)، تمَّت إحالة القضيَّة للمناقشة مرَّة أخرى، وحصل هذه المرة على أكثريَّة في الأصوات، وليس هذا كلَّ شيء: فبعد الاقتراع على إعلان الحرب وجدت الجمعيَّة نفسها محرومة من الصلاحيَّات حتى اليوم الذي دُعيت فيه للموافقة من دون مناقشة على معاهدة الصلح، التي وضعت بنودها من دون معرفة منها، ولم يكن للشعب أيُّ وسائل أو أساليب للاحتجاج على مثل هذا التصرُّف، للإعراب عن امتعاضه، غير الوسائل اللاَّمباشرة، وهي غير حاسمة على العموم، كانتخاب القضاة الجدد مثلاً، في حين أنَّ الجمعية الشعبيَّة لا قرارات حقيقيَّة لها، أمام طغمة مارقة استبداديَّة وهم أعضاء مجلس الشيوخ الذين لا يمثِّلون أكثر من ٧ ٪ من مجموع المواطنين، إذ كان مجلس الشيوخ هيئة مختصرة وانتخابها أبعد ما يتَّصف بالديمقراطية، ورغم ذلك كان أعضاؤها ينسجون الخيوط الدقيقة للسياسة الرومانيَّة، وهكذا يظهر لنا أنَّ هذه البنية السياسيَّة في نظام الحكم الرومانيِّ تعبرِّ عن انعدام الديمقراطيَّة، وأنَّ الشعب كان مسلوب الإرادة السياسيَّة[١]، وبالتالي فلا عجب أنَّ هذه الأغلبيَّة المغلوبة على أمرها لم تلبث أن اصطدمت مع الأقليَّة الجائرة.

في السياق عينه ينبغي القول أنَّ منصب الديكتاتور كان منصباً دستوريَّاً في روما -على عكس بلاد اليونان- إلاَّ أنَّ دستوريَّته لا تحجب عنَّا محتواه الطبقيَّ في العالمين اليونانيِّ والرومانيِّ، أمَّا النقد الذي يوجَّه لهذا المنصب الاستثنائيِّ فهو أنه لا يتم تعيين أحد فيه إلاَّ

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٠٧.

بعد إعلان حالة الطوارئ في البلاد. صحيح أنَّ تلك الحالة قد تعلن لمجابهة خطر خارجيٍّ، ولكن كم من مرة أعلن مجلس الشيوخ حالة الطوارئ من أجل مجابهة الأخطار الداخليَّة نتيجة احتدام الصراع الطبقيّ. وبما أنَّه يمثِّل مصالح الطبقات المحافظة في الدولة كما نعلم، فبالتالي يمكننا القول بأنَّ الديكتاتوريَّة في روما، مع أنَّها كانت دستوريَّة نظريَّاً، إلاَّ أنَّها لم تكن تمثِّل مصالح السواد الأعظم من أفراد المجتمع الرومانيّ[١].

إنَّ مصادر الدولة الرومانيَّة الواسعة والقانون والدين، كلُّ تلك المقدَّسات استعملت لصالح أعضاء مجلس الشيوخ الخاصَّة، حيث كان يسيطر على المحكمة العليا واللِّجان القضائيَّة سيطرة تامَّة، وبدل أن يوظِّف تلك السلطة في صالح الشأن العامِّ، لم يقم بذلك، بل كان أساس كلِّ فعل فاسد في الدولة، وقد مكَّنت تلك السيطرة أعضاءه من الإفلات من المحاسبة القانونيَّة[٢]. وإذا قلنا إنَّ الحُكم والسلطة كانا في يده، فيجب ألاَّ تغرب عن البال حقائق هامَّة عديدة، وهي أنَّ أعضاءه لم يكونوا جميعاً متساوين في النفوذ والمرتبة، وأنَّ إدارة دفَّته كانت في قبضة نفر قليل منهم، وهم النبلاء بأدقِّ معنى للكلمة، وأنَّه لا يتمتَّع بسِمة النبالة إلاَّ من تولَّى هو أو أحد أسلافه وظيفة القنصليَّة، وأن شرف توليِّ القنصليَّة كان مقصوراً على دائرة ضيِّقة من الأسر النبيلة، وأنَّه لم ينجح في اقتحام سبيله إليها من خارج هذه الدائرة (الساحرة) إلاَّ عدد قليل من الأفراد، وعند نجاح أحدهم في ذلك يدعى رجلاً جديداً Novus homo، وإذا كان في وسع عدد غير قليل ممَّن لم ينتموا إلى هذه الدائرة (الساحرة) أن يتولَّوا وظائف عامَّة أدنى مرتبة من وظيفة القنصليَّة، وبذلك يكسبون حقَّ عضويَّة مجلس الشيوخ، فإنه **لم يكن في وسعهم التمتُّع بنفوذ كبير في هذا المجلس**، لأنَّه بمقتضى التقاليد كان أكبر أعضائه مقاماً هم الذين تولَّوا أرفع وظائف الدولة، هم الذين يسيطرون عليه ويوجِّهون سياسته. ولما كانت حوالي عشرين أسرة نبيلة هي التي تنفرد بتزويد الدولة بكبار حكامها وقواد جيوشها وحكام ولاياتها، فإنَّه تبعاً لذلك، كانت هذه الأسر هي التي تنفرد بتوجيه

---

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٧٩.

[2]- Rotaru, C., A review of corruption based on the social and economic evolution of Ancient Greece and Ancient Rome., Theoretical and Applied Economics Volume XXIII (2016), No. 2(607), Summer, p.244.

سياسة المجلس ومن ثمَّ بتوجيه سياسة الدولة، مثلما كانت تنفرد بإدارة الحكم فيها[١].

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ الحياة السياسيَّة في روما لم تكن ناضجة بما فيه الكفاية، حيث شكَّلت الطغمة المارقة الاستبداديَّة ممثَّلة بصفوة مجلس الشيوخ دائرة ضيقة فرضت رقابتها الصارمة على كامل الدولة، **فغيَّبت حريَّة الكلمة، وعانى الشعب من الكبت والاضطهاد.** ولقد كان الأدباء الرومان يريدون حقاً إنتاج أدب حقيقيٍّ ناقد، ولكن أول مسرحيَّة حكم على صاحبها بالموت، وبعد الوساطات الكثيرة والشفاعات والوجاهات، خفِّف حكم الإعدام إلى النفي، فألقوا به في شمال أفريقيا، فمات قهراً، مع أنَّ كلَّ ما ورد في مسرحيَّته مجرَّد سخرية من إحدى الأسر الثريَّة، أي من محدَثي النعمة المتبطِّرين، فأظهرهم بمظهر مضحك، ولكنه اقترف بذلك عملاً خطيراً، حيث خالف البنود الاثني عشر التي تنصُّ صراحة على أنَّه لا يجوز لأحد التعرُّض لا من قريب ولا من بعيد للدولة أو القادة أو الأغنياء أو الأسر المتنفِّذة أو مؤسّسات الدولة. وقد كان أول ضحية لهذا القانون درساً قاسياً لكلِّ أدباء روما ومثقَّفيها، فبعد تلك الحادثة لم يجرؤ أحد منهم على أن يكتب مسرحيَّة رومانيَّة، بل كانوا يعمدون إلى المسرحيَّات اليونانيَّة فيقتبسون منها ويغيِّرون فيها بما يحقِّق أهدافهم،ودائماً كانت الكلمة التمهيديَّة للمسرحيَّة (حدث هذا في أثينا)، وكان الكاتب يؤكِّد ويكرِّر أنه أخذ كلَّ شيء من الكاتب الفلانيِّ اليونانيِّ، وأنَّ أحداث مسرحيته وقعت في اليونان، وكل كتَّاب روما فعلوا ذلك بمن فيهم بلاوتوس وتيرنس[٢].

إلى ذلك، لم تعرف روما **الحركات والأحزاب السياسيَّة ذات البرامج والأهداف والشعارات الواضحة**، ومعظم التكتُّلات السياسيَّة كانت تقوم على مبدأ الصداقة Amicitia وهو مصطلح استخدم للتعبير عن الأصدقاء السياسيين amici (مقابل الصداقة الشخصيَّة التي كانت تعرف بمصطلح familiares). وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الصداقات كانت عاملاً ضروريَّاً في السياسة الرومانيَّة لأنها نابت عن الأحزاب السياسيَّة فيها، فكان الأصدقاء السياسيون amici يدعمون بعضهم بعضاً في الوصول إلى المناصب، لاسيَّما منصب القنصليَّة والكنسوريَّة،

[١]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني ١٣٣- ٤٤ ق.م، ج٢، منشورات الجامعة الليبيَّة كلية الآداب، طرابلس ١٩٧٣م، ص٩.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيَّة، دمشق ١٩٩٧م، ص١٠.

وفي الانتخابات، وفي قضايا المحاكم، وفي المنافسات الفئويَّة. وهذه الصداقة، التي كانت في الغالب، تأخذ شكل تحالف سياسيٍّ amicitiae يمكن أن تكون وراثيَّة، ويمكن أن توجد بين العوائل أو حتى بين الأفراد، ولم تكن هناك قواعد ناظمة لها، وبالتالي يمكن أن تتبدَّل بحسب تبدُّل الظروف والمصالح، رغم أنَّ هناك حالات عرفت الصداقة فيها التزامات رسميَّة حيث تمَّ توقيع اتِّفاقات تنصُّ على تبادل المساعدات والاشتراك في النظرة السياسيَّة[١].

لا شيء يمكن أن يؤثر على الصداقة في عالم السياسة مثال الجنس والشرف والمجد العام أو الطموح الشخصيِّ، لذلك ظهرت العداوات بين أقرب المقرَّبين في عالم السياسة نتيجة تلك الأمور[٢]، ومقابل مصطلح الصداقة السياسيَّة amici ظهر مصطلح العداوة السياسيَّة inimici، وربما تكون هذه العداوة وراثيَّة أيضاً. وتجدر الإشارة أن مصطلح الصداقة السياسية قد ينساق على الأسر النبيلة والأسر التابعة لها، خصوصاً الجاليَّات الإيطاليَّة في داخل مدينة روما أو في خارجها، والتي كانت تربطها علاقات صداقة سياسيَّة متينة مع بعض الأسر الرومانيَّة النبيلة، لا بل إنَّ المدن الإيطاليَّة التي تربطها علاقات التحالف مع روما كانت تُدعى باسم amici، والأهمُّ من ذلك أنَّ بعض حكام الشعوب المتحالفين مع روما يمكن تسميتهم بأصدقاء الشعب الرومانيِّ كجائزة لهم على ولائهم لروما[٣].

ولما كان الوصول إلى **المناصب العليا** عن طرق السلك الشرفيِّ Curus Honorum أصبح كثير الكلفة، ولا يخلو من رشوة وفساد، وكثر الطامحون له، ذلك أنَّ الأفراد الذين وصلوا إلى المناصب العليا في الدولة مثل القنصليَّة أو البريتورية، كثيراً ما عُهد إليهم بقيادة الجيوش أو حكم الولايات الخارجيَّة، ممَّا عاد عليهم بالثروات الطائلة. من أجل هذا ازدادت المنافسة على هذه المناصب، وصاحَبَ تلك المنافسة فساد أخلاقيٌّ صارخ[٤]. وفي سبيل إصلاح هذه الحالة وافق مجلس الشيوخ في سنة ١٨٠ ق.م على إصدار قانون يعرف باسم قانون فيليوس Lex Villia Annalis وقد نصَّ هذا القانون على وجوب التدرُّج في شغل

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.60.

[2]- Lisa Hill., Conceptions of Political Corruption in Antiquity., History of political thought., Vol. XXXIV. No. 4. Winter 2013, p.576.

[3]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.60.

[٤]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت د.ت، ص٦٣.

المناصب، فعلى المرشَّح للقنصليَّة أن يكون قد شغل منصب الكويستور quaestorship أولاً ثمَّ البرايتوريَّة praetorship، وبعدها يحق له الترشُّح للقنصليَّة consulate، وقد حدَّد القانون وجوب مرور سنتين كمدَّة فاصلة بين توليِّ منصب وآخر، وتمَّ تحديد الحدِّ الأدنى لعمر المرشَّح؛ لأدنى وظائف السلك الشرفيِّ (الكويستور) بـ ٢٨ سنة. ولم تكن وظيفة الأيدل مطلوبة للتدرج في السلك الشرفي، إلاَّ أنَّ معظم المرشَّحين حرصوا على تولِّيها قبل توليِّ منصب الكويستور، لأنها كانت تتيح لشاغلها الإشراف على الألعاب والاحتفالات والمهرجانات، وبالتالي كانت تعطيه فرصة واسعة للتملُّق للناس، وبالتالي توفِّر له شعبيَّة كبيرة[١].

ورغم صدور هذا القانون، فقد عرف النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد أمثلة عدَّة للصراع الانتخابيِّ بين الجماعات النبيلة المتنافسة، ويبدو أنَّه في سنة ١٣٣ ق.م عندما بدأ النبلاء ينقسمون إلى فريقين، هما فريق النبلاء الذين قبضوا على زمام الحكم، واستمسكوا بالحفاظ على الأوضاع القائمة، ووقفوا حجر عثرة في سبيل أيِّ مشروع تقدَّم به الفريق الآخر، مما حدا بهذا الفريق إلى مناشدة الشعب والانحياز إلى جانبه.

لقد عرف فريق المحافظين باسم (الأخيار Optimates) وفريق التقدُّميين باسم (الشعبيين Populares) وهو الاسم الذي أطلقه عليه خصومهم[٢]، وفي الوسط بين الجبهتين وجدت طائفة ثالثة عمادها طبقة الفرسان Equites وهم من العناصر التي لا تنتمي إلى الأشراف، ولم يتسنَّ لهم أن يتولَّوا المناصب الكبرى، ولكنهم كوَّنوا ثروات كبيرة عن طريق العمل بالتجارة مع المستعمرات، فقد كان طريق الثراء أمامهم سهلاً، وبعدما صدر قانون كلوديوس Lex Claudia الذي منع أعضاء مجلس الشيوخ الرومانيِّ من الاشتغال بالأعمال التجاريَّة والماليَّة، وذلك للإبقاء عليهم داخل إيطاليا في أعقاب الحرب البونيَّة الثانية، فحوَّلوا عنايتهم نحو ملكيَّة الأرض، ما أفسح المجال أمام طبقة الفرسان لاستغلال تجارة المستعمرات[٣].

حريٌّ القول أنَّ السياسة الرومانيَّة كانت مترهِّلة، وانتشر **الفساد في الجمهوريَّة** في القرن

[1]- oak, A, E, R., Book of A History of Rome to 565 A. D., New York 1921, p.127.

[٢]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص١٠.

[٣]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٦٦.

الأخير من عمرها مثلما ينتشر الطاعون في منطقة موبوءة، فالرشوة موجودة هنا وهناك وفي كلِّ مكان، ولا توجد دائرة واحدة مُستثناة، حيث طال الفساد جميع مؤسَّسات الدولة السياسيَّة وأنظمتها الحاكمة، بما فيها أعلى مؤسَّساتها السياسيَّة؛ ألا وهو مجلس الشيوخ.

إنَّ تحليل كلِّ العوامل السياسيَّة والاقتصاديَّة كان يؤشِّر على الفساد فيها، حتى وصل الأمر في نهاية المطاف إلى بيع حقوق المواطنة الرومانيَّة؛ تماماً كما فعل مارك أنطونيوس M. Antonius عندما باعها لسكان صقلية، وفتح طريق الارتقاء في المناصب السياسيَّة للقادرين والأقوياء. حتى وظائف الدولة أصبحت وراثيَّة، وتحوَّل مجلس الشيوخ الذي كان يقود الدولة إلى أداة في أيدي قادة القوى المتناحرة[١].

ولم تفلح محاولات شيشرون Cicerone في إنقاذ الموقف وتجنيب الدولة شرَّ هذا الصراع الطبقيِّ، من خلال سياسته التي اقترحها تحت شعار التوفيق بين الطبقات Concoedia Ordinum والتي كان يهدف من خلالها إلى وضع السلطة التنفيذيَّة في يد العناصر الطيِّبة من طبقتي الشيوخ والفرسان[٢]. عموماً يمكننا الإشارة إلى تعبير دارج في اللُّغة اللاَّتينيَّة وهو Corrumpere بمعنى يفسد أو فاسد أو فساد أو رشوة، وإن كان قد ترافق هذا المصطلح القانونيُّ الرومانيُّ في الغالب بفتنة القرارات القضائيَّة غير العادلة المتعلِّقة بالرشوة.

لقد استعمل شيشرون هذا التعبير واشتقاقاته في ما يتعلق برشوة القضاة والمحلَّفين، واستخدمت عبارة الفساد هنا بتعبير ثلاثي الأبعاد: الفساد الماليُّ (الرشوة)، والفساد السياسيُّ، والفساد الجنسيُّ؛ بمعنى إفساد عذراء[٣].

وإذا بدأنا بالفساد السياسيِّ؛ فإنَّ العمل بالسياسة في روما صار عملاً لجلب المال، وصارت الأصوات تُباع وتُشترى، وكذلك القضاة[٤]. إنَّ محاولة يوليوس قيصر في السنوات الأخيرة من عمر الجمهوريَّة تطهير مجلس الشيوخ من أعضائه الفاسدين وإعادة تنظيمه، تشير إلى حجم ذلك الفساد المستشري في البلاد، حيث كان أبرز من طردوا من مجلس

[1]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016., p.244.

[٢]- مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٩٤.

[3]- Lisa Hill., Op. Cit., 2013, p.568.

[٤]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص٦٩.

الشيوخ هم أولئك الذين افتُضح أمرهم بممارسة الفساد أو الابتزاز، استبدالهم قيصر بالضبَّاط البارزين والمستحقِّين من الجيش الروماني، كما أنَّ قيصر أشرك في عضويَّة مجلس الشيوخ أعداداً من المواطنين المؤهَّلين والقادرين من مختلف أنحاء الجمهوريَّة الرومانيَّة، أي من الولايات التي دخلت حديثاً في نطاق الدولة، ولاسيَّما من الغالة، وهذا ما يفسِّر لنا زيادة أعضاء مجلس الشيوخ إلى ٩٠٠ عضو على زمانه، كما أسهم انتخاب قيصر دكتاتوراً لمدَّة عشر سنوات Praefectus Morum في الحدِّ من ترف وتبذير الأرستقراطيين الرومان الذي كانوا من رجال السياسة والحكم. وقد حاول قيصر أن يحوِّل تلك الأموال التي كان ينهبها أعضاء مجلس الشيوخ من الدولة لمساعدة الناس واستئصال الفساد[١]، إلاَّ أنَّ القدر لم يمهله للقيام بذلك فديكتاتوريته لم تدم أكثر من شهرين، حيث تمَّ وضع حدٍّ لها باغتياله في ١٥ آذار ٤٤ ق.م[٢].

لم تكن محاولة قيصر هي المحاولة الأولى لإصلاح النظام السياسيِّ في روما ومكافحة الفساد المستشري فيه، فقد سبقتها محاولات عدَّة، صيغت على شكل قوانين منها قانون صدر ضمن تشريعات سولا في سنة ٨١ ق.م، نص على عقوبة وإبعاد كلٍّ من وصل إلى منصب بالطُّرق غير المشروعة؛ بإبعاده من ذلك المنصب، ومنعه من الترشح له مرة ثانية مدَّة زمنيَّة تصل إلى عشر سنوات. كما صدرت تسع قوانين أخرى في السنوات الممتدَّة بين سنتَي ٧٠ - ٥٢ ق.م؛ كان هدفها مكافحة الرشوة في أجهزة الدولة، وكان أهمُّها قانون كالبورنيا lex Acilia Calpurnia الصادر في سنة ٦٧ ق.م، ومن أهمِّ نتائج هذا القانون على عمليَّة مكافحة الفساد في النظام السياسيِّ في روما؛ هو عزل القنصلين الفائزين بمنصب القنصليَّة في سنة ٦٥ ق.م بواسطة الرشوة، وطردهما من عضوية مجلس الشيخ عقوبة لهما. بينما كان قانون بومبي الصادر في سنة ٥٢ ق.م قد اعتمد عقوبة النفي مدى الحياة لكلٍّ من وصل إلى منصب عن طريق الرشوة، وأهمُّ ما في هذا القانون أن له أثراً رجعيَّاً، ورغم ذلك، كان من المستحيل تطهير الدولة من الذين تسلَّقوا مناصبها بواسطة الرشوة، لأنَّها كانت قد أمست

[1]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.245.

[2]- Galito, M. S., Op. Cit., 2018, p.33.

حالة طبيعيَّة من واقع الانتخابات، لا بل في واقع الدولة ككلٍّ[١].

لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ كلَّ مرشَّح في روما كان يعلم علم اليقين أنَّ هناك طريقاً واحداً مضموناً لأن يُنتخب أو ويحصل على أكبر قدر من الأصوات، ولا أحد يهتم فالغاية تبرِّر الوسيلة، ولقد وصلت الوقاحة عند رجال السياسة إلى ذروتها عندما أمسى الوطن يُباع ويُشترى، في حادثة جرت على عهد شيشرون، عندما اتَّفق مجلس الشيوخ مع مرشَّحين اثنين من أجل انتخابهما كقنصلين مقابل مبلغ ماليٍّ كبير تمَّ الاتفاق عليه في حال انتخابهما، ولكنَّهما فشلا في الحصول على الدوائر عندما انتهى الاتفاق، وكانت الأيمان الكاذبة تُتلى على الاتِّفاق لا من قبل المدراء فحسب، بل من قبل القنصلين السابقين أيضاً[٢].

ولعلَّ حجم الفساد السياسيِّ يظهر بصورة جليَّة في مؤامرة كتالينا Conjuratio Catilinae، فبعدما عجز عن الوصول إلى مرتبة القنصلية بواسطة أمواله سعى للوصول إليها بالقوة. والواقع أنَّ مبادئه كانت فاسدة، أمَّا أهدافه فكانت إجراميَّة تتمثَّل في قتل منافسيه في القنصليَّة، بمن فيهم شيشرون نفسه، وإحراق روما، وأخيراً السيطرة عليها بالقوَّة. لقد تمَّ الكشف عن المؤامرة واضطر كتالينا إلى قتال الجيش الرومانيِّ الذي أرسل لمجابهته، وفقد حياته في المعركة التي جرت قرب Pistoia في أتروريا سنة ٦٢ ق.م[٣].

من المهمِّ القول أنَّه كان من الصعب معالجة الفساد المستشري في النظام السياسيِّ الرومانيِّ لجملة من الأسباب، أهمُّها تغلغل ذلك الفساد في بنية هذا النظام، وهو ما تجلَّى في أن **آليَّة انتخاب المسؤولين كانت فاسدة**، فالانتخابات لم تكن نزيهة. ولقد اعتمد الرومان مصطلحاً محدَّداً هو Ambitus للتعبير عن استعمال طرق غير مشروعة للفوز في الانتخابات، وهذا التعبير أو المصطلح بمعناه الدقيق أو الحرفيِّ هو: «التماس أصوات غير شرعيَّة من أجل الوصول إلى منصب عام»، سواء بالرشوة أو بالتأثير أو حتى بغيرها من طرق، وإن كان في الغالب مقترناً باستخدام المال كرشوة في الانتخابات[٤].

---

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.57.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص٦٩.

[3]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.245.

[4]- Lisa Hill., Op. Cit., 2013, p.568.

لقد اتَّخذت عمليَّة شراء الأصوات في الانتخابات أشكالاً مختلفة؛ فبالإضافة إلى دفع الأموال، كان هناك أسلوب الهدايا، وإقامة الولائم الضخمة للقبائل والأتباع، فعلى سبيل المثال كانت المأدبة التي أقامها ماركوس كراسوس M. Crassus كبيرة جداً حتى أنَّها ضمت عشرة آلاف منضدة. ومثل وجبات العشاء هذه كان هناك المعارض القتاليَّة لأفراد العائلة الميتينز والظاهر أنَّ القوانين الرومانيَّة لم تعتبر تلك الولائم تندرج في إطار الرشوة لذلك لم تحظرها، ومع ذلك كان يتمّ خلالها توزيع مبالغ ماليَّة لشراء أصوات الناخبين، وكان المرشَّحون يقدِّمون الأموال والهدايا للناخبين عن طريق وكلاء، مدَّعين أنَّ ما يقدِّمونه هو شكل من أشكال الكرم والتسامح في إنفاق الأموال، ولا علاقة له بالرشوة[١]. أما أكثر أشكال الدعاية الانتخابيَّة وضاعة فكانت هي عروض المصارعين، حيث كان المرشَّح يدفع ثمن حضورها لجميع الناخبين كعمل كان الهدف منه كسب أصوات الطبقات الفقيرة، وهكذا كانت الثروة طريقاً للوصول إلى المناصب السياسيَّة، وكل ما كان يدفعه المرشَّح للظَّفَر بمنصب سياسيٍّ، كان يحصل عليه من نهب مال الدولة العامّ[٢].

إنَّ مشكلة الانتخابات وشراء الأصوات كانت عادة خطيرة وسيِّئة جداً في الجمهوريَّة الرومانيَّة، سمحت بوصول شخصيَّات غير جديرة بالمسؤوليَّة إلى أعلى المناصب في الدولة، فعلى سبيل المثال، فاز يوليوس قيصر بمنصب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus رغم حداثة سنِّه ورغم ألاَّ علاقة له بالتديُّن، ورغم أنَّ منافسيه كانوا قنصلين سابقين، وذلك بواسطة الرشوة التي دفعها له حليفه كراسوس، علماً أنَّ هذا المنصب الدينيَّ كان أكبر منصب في السلك الكهنوتيِّ، إذ كان لا يشغله من قبل سوى ملوك روما القدامى، حتى كاتو Cato نجح في الانتخابات بفضِّ الرشاوى التي قدمها زوج ابنته بيبولوس Bibulus وكان لذلك الأرستقراطيِّ المتطرِّف دور كبير وخاص في إشعال الحرب الأهليَّة التي قوَّضت دعائم الجمهوريَّة[٣]. ويحدِّثنا بلوتارخ أنَّ جايوس ماريوس Gaius Marius (١٥٧- ٨٦ ق.م) عندما وجد صعوبة في الظَّفَر بالقنصليَّة السادسة سنة ١٠٠ ق.م، اشتراها بالمال:

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.57

[2]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.244.

[3]- Lisa Hill., Op. Cit., 2013, p.572

«لم يفز بقنصليَّة السنة السادسة إلاَّ بعد توزيعه مبالغ ماليَّة طائلة على القبائل، فتمَّ له إسقاط غريمه ومنافسه ميتللوس Metellus بهذه الرشوة، وسعى لانتخاب فلاكوس ليكون أداة بيده لا زميلاً له[١]».

عموماً، تُعدُّ الرشوة من أسوأ أشكال الفساد الأخلاقيِّ والسياسيِّ، والأكثر استشراء في بنية النظام السياسيِّ في روما، حتى أنَّها أصبحت السِّمة البارزة للانتخابات الرومانيَّة، وقد ظهرت نتائجها القبيحة خلال الخمسينيَّات والستينيَّات من القرن الأول قبل الميلاد، إذ خلقت عدم استقرار ماليٍّ في المجتمع، وعدم استقرار سياسيٍّ في الدولة، كما أسهمت في انهيار الدستور، وتباعاً أسهمت في اندلاع الحرب الأهليَّة[٢].

بالإضافة إلى قضايا الفساد المالي في الانتخابات، استخدم المرشَّحون النِّفاق السياسيَّ كذلك، حيث سعوا إلى كسب دعم النقابات والصداقات السياسيَّة، وبالطبع فإنَّ نجاح المرشَّح في حرب خارجيَّة يعطيه سمعة أقوى، كما كان على المرشَّحين الترويج لبرامجهم السياسيَّة[٣]. كما كان على المرشَّح إقامة المهرجانات والخطب، والاعتماد على مهارته في الاقناع، لا الاعتماد على سمعة أجداده وإرثهم. والواقع أنَّ المرشَّحين يتقرَّبون من الناخبين، ويستمعون إلى مشاكلهم، ويعدونهم بتقديم الدعم والعون لهم متى نجحوا في الانتخابات، حيث يعطي المرشَّح للناس انطباعاً بأنَّ كلَّ طاقاته ستكون مكرَّسة لخدمتهم، ومصالحهم[٤]، حتى أنَّهم كانوا مستعدِّين لأن يقبِّلوا الأيدي في سبيل الوصول إلى المناصب السياسيَّة، لكنَّهم لا يسمحون لأحد بأنَّ يمس بطرف بنانهم متى تربَّعوا على كرسيِّ السلطة[٥]. ويقدم لنا بلوتارخ مثالاً جيِّداً عندما يتحدَّث عن أساليب ماريوس في سبيل الحصول على القنصليَّة السادسة، حيث يقول: «أخذ يخطب ودَّ العوامِّ بالتزلُّف إليهم، مستخدماً كلَّ نوع متصوَّر من الوعود والتنازلات، ولم يكتفِ بإهانة وظيفته الرسميَّة، والحطِّ من مكانة سلطانه الرفيع

[١]- بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج٢، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م، ص٨٤٠.

[2]- Lisa Hill., Op. Cit., 2013, p.579

[3]- Abbott, F. F., Op. Cit., 1911, p.170

[4]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.58

[5]- Lisa Hill., Op. Cit., 2013, p.572

بهذا السلوك، وإنما ابتذل شخصيَّته بمحاولته الظهور بالمظهر الشعبيِّ المتواضع[١]». وكان للحملة الانتخابيَّة طريق معاكس، فسمعة المنافسين يجب أن تقوَّض، وأن يتمَّ التشهير بهم، وأن تُطلق ضدَّهم التعليقات المخزية، وتُثار ضدَّهم شبهات الرغبة والرشوة والأعمال الإجراميَّة[٢].

وإذا تركنا قضيَّة الانتخابات غير النزيهة وشراء الأصوات، وتحدَّثنا عن **الرشوة** بمفهومها العام، سنجد أنَّها كانت تقليداً معروفاً في مؤسَّسات الدولة الرومانيَّة، فجملة القوانين الصادرة لمكافحتها تبيَّن مدى استشرائها. فلقد حظَّر قانون Cincia de Donis لسنة ٢٠٤ ق.م على نقباء العوامِّ والقضاة أيَّ نوع من الهدايا تُعرض عليهم، وصرف تعويض لهم، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدلُّ على عادة كانت شائعة في الدولة الرومانيَّة، وكان الهدف من سنِّ هذا القانون هو علاجها، فهل نجح ذلك القانون في علاجها؟

في الواقع، لم يحدث ذلك أبداً، والدليل على ذلك أنَّ هذا القانون تمَّ تجديده في مطلع العصر الأمبراطوريِّ في عهد أوغسطس، بمعنى أنَّ فساد الرشوة مازال مستشرياً في بنية الجمهوريَّة حتى آخر يوم من عمرها. وتجدر الإشارة إلى أنَّه لم يكن القانون الوحيد الذي كان الهدف منه محاربة فساد أجهزة الحكم والدولة في العصر الجمهوريِّ، فمن تلك القوانين قانون كالبورنيوس Calpurnia سنة ١٤٩ ق.م[٣]، وقد نصَّ على إنشاء محكمة لمحاربة الفاسدين من موظَّفي الدولة، من خمسين عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانيِّ برئاسة قاضٍ. لكن هذا القانون كان عديم الفائدة، ولم يأت بأيِّ نتيجة من النتائج المرجوَّة منه، ولعلَّ أهمَّ الأسباب التي أدَّت إلى فشله هو عدم نزاهة اللَّجنة المكلَّفة بمحاسبة الفاسدين، والنفقات الباهظة لإجراءات رفع الدعوى في روما، وصعوبة الحصول على الأدلَّة اللاَّزمة لإدانة المتَّهم، وفقدان الأمل في كسب الحكم، لأنَّ معظم الفاسدين كانوا من أقرباء أو أصدقاء المحلَّفين في المحكمة، وحتى لو تمَّ كسب القضيَّة فالحكم لا ينصُّ إلاَّ على

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٣٩.

[2]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.58

[3]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.245.

التعويض، وأخيراً كان هناك الخوف من الانتقام[١]. وهكذا يظهر بجلاء الحالة المتردِّية التي وصلت إليها الدولة الرومانيَّة. أمَّا قانون Acilia ١٢٣ ق.م فهو استمرار تشريعيٌّ لسابقه، كان الهدف منه وضع حدٍّ لفساد أعضاء مجلس الشيوخ، بحرمانهم من توليِّ القضاء في المحاكم، واسناد أمره إلى طبقة الفرسان، لكن هذا التغيير لم يأتِ بنتيجة لأنَّ أفراد طبقة الفرسان -وجلُّهم من مُحدَثي النعمة- أثبتوا جشعاً أكبر للمال والرشوة والفساد[٢]. ولم يتوقَّف إصدار القوانين عند هذا الحدِّ، بل صدر قانون سرفيليا Servilia سنة ١١٠ ق.م، وقانون كورنليا Cornelia سنة ٨١ ق.م، قانون Yulia Repetundarum سنة ٥٩ ق.م[٣].

إضافة إلى ما سبق، كانت **المحسوبيَّات ومحاباة الأقارب** شكلاً من أشكال فساد النظام السياسيِّ في روما، فبدل أن تكون المساواة أمام القانون هي المعيار الأساسيَّ، كانت المحاباة هي الشائعة. ورغم أن السجلاَّت الرومانيَّة مليئة بالأمثلة حول الكيفيَّة التي يجب أن تحكم بها النخب، لكن الواقع كان مخالفاً لها، حيث كان رجال السياسة يسعون لتحقيق طموحاتهم ومصالحهم الشخصيَّة عن طريق شبكات الأصدقاء والأقارب، والموالين لهم، ورعاياهم المقرَّبين منهم، كما كانوا يسعون نحو الثروة والمكانة والمجد. وكان الحكَّام يقدِّمون لهؤلاء الأقارب ولأولئك المقرَّبين الأموال، وهذا الفعل معروف باللُّغة اللاَّتينيَّة باسم غراتيا Gratia الذي كان يعني شيئاً مثل الاحسان، ويمكن أن تشمل الهدايا والعطايا والمنح التي يمكن أن يغدقها السيد الاجتماعيِّ على اتباعه. لكنها في الواقع أخذت منحى مختلفاً، حيث صارت شكلاً من أشكال السرقة من الناس من أجل إطعام الأقرباء والمقربين على حدِّ وصف شيشرون. وقد أمسى هذا الشكل من المحاباة المستشرية في أجهزة الدولة أمراً مرفوضاً، ويثير الامتعاض بين النخب السياسيَّة، ووُصف بأنَّه أبعد ما يكون عن الواجب الأخلاقيِّ، لذلك لقي معارضة شديدة من شيشرون، رغم أنَّ هذا الأمر كان شائعاً عند الرومان لدرجة أنه صار مؤلِّفاً بينهم[٤].

[1]- Boak, A, E, R., Op. Cit., 1921, p.134

[2]- Ibid, p.152.

[3]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.245.

[4]- Lisa Hill., Op. Cit., 2013, p.573

ولم يتوقف الأمر عند فساد أجهزة الدولة والرشوة والاختلاس والمحاباة والمحسوبيات، بل تعدَّاها **إلى سوء التقدير وسياسة الأمور**. فقد لمست الأرستقراطيَّة الرومانيَّة -ممثَّلة بمجلس الشيوخ- طموح القادة العسكريين منذ وقت مبكر من العصر الجمهوريِّ، تحديداً منذ الحرب البونيَّة الثانية، لكنَّها عجزت عن وضع حدٍّ لهذا الطموح أو تحجيمه بحكم تعلُّق الجماهير المتحمِّسة بهم، لا بل إنَّها هي نفسها كانت بحاجة إلى أولئك القادة الطموحين، حيث لم تتوانَ عن اللجوء إليهم في ساعات الشدائد، وكل ما دعت الحاجة إلى ذلك، حتى ولو تطلَّب الأمر الخروج عن القواعد والأصول الدستوريَّة[١]. لقد وجد المجلس نفسه مضطرّاً -أكثر من مرَّة- إلى توحيد القيادة العليا وإسنادها إلى قائد واحد، متناسياً ومتساهلاً بالقيود الزمنيَّة التي كانت مفروضة على توليِّ المناصب الهامَّة، وخصوصاً ما كان منها ذا طابع عسكريٍّ كالقيد السنويِّ، وإن كان ميَّالاً بطبعه إلى تولية أكثر من ضباط عسكريٍّ مهامَّ القيادة، فإنَّ الحرب البونيَّة اضطرَّته، نظراً لكثرة معاركها التي كان تدور في ميادين بعيدة، إلى توحيد تلك القيادة، شرط بقاء القائد الأعلى تحت إشراف المجلس مباشرة. من هنا، فإنَّ إخفاق قادة العوام في المعارك الأولى من هذه الحرب، ونجاح القادة الأرستقراطيين في ميادين القتال، ورغبة أعضاء مجلس الشيوخ في استعادة ما كان لمجلسهم سابقاً من نفوذ، كلَّ ذلك كان بمثابة مرحلة تمهيديَّة لقيام الدكتاتوريَّة العسكريَّة بأعباء الحكم. ولعلَّ أوضح مثال على خرق الأعراف والتقاليد والقواعد والأصول الدستوريَّة في ما يتعلَّق بسنِّ ومدَّة القيادة؛ ما وصل إليه سيبيو الأفريقي Scipio Africanus صاحب نصر معركة زاما Zama سنة ٢٠٢ ق.م. فرغم صغر سنِّه ترقَّى في أهمِّ المناصب، كما استمرَّ متولِّياً قيادة الحرب في أفريقيا سنين عديدة، وقد وصل في آخر الأمر إلى أهمِّ مناصب روما غير مكترث أبداً بالقوانين المرعيَّة، وضارباً بالمساواة بالحقوق المدنيَّة عرض الحائط، وفي كلِّ ذلك مخالفة للأعراف والتقاليد والقواعد والأصول الدستوريَّة التي كان الرومان يحرصون أشدَّ الحرص على التمسُّك بها[٢].

لم يكن سيبيو الوحيد الذي خالف الدستور والأعراف، فقد حفظ لنا تاريخ الجمهوريَّة

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١١٢.

[٢]- نور الدين حاطوم وآخرون، ص٥٣٧، ٥٣٨.

الرومانيَّة أكثر مثال على ذلك، فعلى سبيل المثال تمَّت مخالفة القواعد الدستوريَّة وانتخاب جايوس ماريوس Gaius Marius (١٥٧- ٨٦ ق.م) في سنة ١٠٦ ق.م رغم أنَّ المرشح كان غائباً عن روما، على رأس الجيش الروماني في أفريقيا، ولم تكتفِ الدولة بتلك المخالفة بل سمحت بإعادة انتخابه للمنصب ذاته مرة ثانية مباشرة -مهما كانت مواهبه- ما يُعدُّ مخالفة دستوريَّة كبيرة، حيث نصَّ القانون الرومانيُّ على عدم جواز إعادة انتخاب القنصل مرة ثانية إلاَّ بعد مرور عشر سنوات على انتهاء سنة قنصليَّته الأولى[١]. أمَّا المخالفة الدستوريَّة الأكبر من الأولى والثانية فكانت إعادة انتخابه خمس سنوات متَّصلة[٢]، وهذا ما فتح الباب على مصراعيه لطموحات القادة العسكريين إلى المجد والشهرة، وهو الباب الذي ستهبُّ منه رياح تقويض دعائم الجمهوريَّة الرومانيَّة.

تجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أنَّ السياسة الوحيدة التي اتَّبعتها الأرستقراطيَّة الرومانيَّة في سبيل مواجهة القادة الطموحين كانت زرع بذور التنافس والعداء بينهم، لا بل إنَّها -عند الحاجة- كانت تعمد إلى إيجاد منافس بغية رفعه إلى مصاف غيره لتحقيق التوازن، فهي التي أوجدت في سنة ١٩٩ ق.م كوينكتوس فلامينيوس Quintus Flaminus الذي لم يزد عمره في وقتها عن ٣٠ سنة، لإدارة الحرب ضدَّ الملك المقدونيِّ فليب الخامس، وأبقته في بلاد اليونان حتى سنة ١٩٤ ق.م، استجابة منها –من دون شك- للرَّغبة في إيجاد منافس مجيد لسيبيو المنتصر على هانيبال في معركة زاما سنة ٢٠٢ ق.م. إلاَّ أنَّ هذه السياسة تعبِّر عن سوء تقدير خطير لمجرى الأمور، لأن مثل هذه المنافسات لا مخرج لها سوى الحرب الأهليَّة، وهذا ما سيتجلَّى في الحروب التي حدثت في ما بعد بين ماريوس وسلا، وبين بومبي وقيصر، وبين أنطونيوس وأوكتافيوس، ولم تنتهِ إلاَّ بسقوط النظام الجمهوريِّ لصالح الحكم الأمبراطوريِّ وسيطرة الفرد الواحد على كلِّ أركان الدولة[٣].

وسرعان ما **وصل الفساد إلى الجيش وانتشر بسرعة في صفوفه**؛ بحكم أنَّ معظم القادة السياسيين أُسندت إليهم مهمَّات عسكريَّة، وكانت أبرز صور ذلك فساد سرقة مكافآت

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص٨٢٥.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٣.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١١٢.

الجنود من قبل جنرالاتهم. فالدولة كانت تدفع لهؤلاء الجنود أجوراً زهيدة، لكنها في المقابل، كانت تمنح الجيش فرصة وضع اليد على أملاك البلاد والأقاليم المحتلَّة، وكانت هذه الأموال توزَّع عليهم لقاء خدمتهم في الجيش كمكافآت، لكن هذه الأموال لم تصل إليهم في أكثر من مناسبة[١]، فجميعنا يعلم ما كان من أمر الديكتاتور الشهير كاميللوس F. Camillus الذي دمَّر مدينة فييى Veii الإتروسكيَّة سنة ٣٩٦ ق.م، والذي يُروى عنه أنَّه استأثر بجزء كبير من غنائم الحرب لنفسه، وحين افتُضح أمره تمَّ نفيه في إحدى المدن اللاَّتينيَّة لبعض الوقت جرَّاء تصرُّفه هذا[٢]. أمَّا الحادثة الأكثر شهرة في التاريخ الرومانيِّ فهي قصة الضابطين Roucillus و Egus اللَّذين كانا يخدمان في جيش يوليوس قيصر، وكانا من الضباط الذين نالوا حظوة عنده لما أبدياه من الشجاعة وفنون القتال، فعهد إليهما بتوزيع الأموال التي غنمها على جنوده، فما كان منهما إلاَّ أن جيَّرا تلك الأموال لصالحهما الخاص، واستأثرا بها، وعندما وصلت شكوى الجنود إلى قيصر، لم يأمر بمعاقبتهما بل اكتفى بأن أمرهما بإعادة تلك الأموال، فما كان من الضابطين إلاَّ أن هربا بها. هذه القصة يمكن أن تتكرَّر مرَّات ومرات من دون أن يكون لها حل[٣].

والأخطر من الفساد الماليِّ الذي أصاب صفوف الجيش الروماني، كان **الفساد العقائديُّ**، فمنذ الإصلاحات التي قام بها ماريوس في تركيبة الجيش وأساليب تجنيده لم يعد الولاء للدولة، بل أصبح الولاء للقائد، فاستمرار الحروب اضطرَّ هؤلاء الجنود الجدد إلى بقائهم فترات طويلة في جبهات القتال، حيث توثقت العلاقة بينهم وبين قادتهم، واشتدَّ إخلاصهم لهم، وصار الجنديُّ يقسم على الولاء لقائده، بعدما كان مقاتلو الرومان من قبل يقسمون على الولاء للدولة نفسها[٤]. وبعدما كان هذا الجيش الحصن الحصين للدولة الرومانية، أصبح أداة في حلِّ منازعاتها السياسيَّة، منذ أن زحف به سولا على العاصمة روما وأخضعها لسيطرته[٥].

---

[1]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.245.

[٢]- محمد السيد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، ج١، جامعة الإسكندريَّة ٢٠٠٦م، ص١٥٤.

[3]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.245.

[٤]- نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، مصدر سابق، ص٥٤٥.

[٥]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٨٣.

وقد وصل الانهيار العقائديُّ في صفوف الجيش الرومانيِّ إلى درجة خطيرة عندما عامل المواطنين في إيطاليا بالمكيال ذاته الذي يعامل به سكان المناطق المغلوبة. فالجيش الذي كان بقيادة شيشرون وأنطونيوس وقضى على كتالينا، سَكَنَ في بيوت سكَّان ولايات إيطاليا من المدنيين، وارتكب بحقِّهم انتهاكات يتحمَّل مسؤوليَّتها ضباط الجيش، تماماً كما يتحمَّل مسؤوليَّتها رجال السياسة وأعضاء مجلس الشيوخ. والجدير بالانتباه أنَّ هذه الأساليب كانت مخصَّصة للمناطق الأجنبيَّة الخاضعة بحدِّ السيف لسلطة الدولة الرومانيَّة، فالجيش الذي حارب من قبل في آسيا بقيادة سولا سنة ٨٥ ق.م سَكَنَ جنوده في بيوت القرويين الذين تعرضوا لشتَّى أنواع الابتزاز والسرقة ودفع الضرائب الباهظة، حتى أنه كان من الواجب عليهم أن يدفعوا للجنديِّ الذي سَكَنَ في بيتهم أجراً يوميَّاً قدره ١٤ درهم، وكان هذا الأجر يفوق بكثير ما كانت تدفعه الدولة لجنديِّها أجرة يومه لقاء خدمته[١].

ومثلما وصل الفساد إلى رأس هرم السياسة الرومانيَّة، وصل كذلك إلى **رأس هرم القيادة العسكريَّة** العليا، وقد تجلَّى ذلك الفساد بالأطماع الفرديَّة للضباط. في الظروف الطبيعيَّة وقبل استشراء الفساد، كان مجلس الشيوخ يكافئ القائد المنتصر نصراً حاسماً -من وجهة نظر المجلس- بإقامة موكب نصر له، وهو احتفال موروث عن الإتروسكيين، وعند نهايته يبرهن القائد المنتصر على خضوعه للأنظمة الرومانيَّة الجماعيَّة، ويعود إلى صفوف أمثاله متحلِّياً بسمعة خادم الدولة الأمين. بيد أنَّ الإمكانات التي توافرت لدى القادة الماهرين وترافقها مع ضعف سلطة مجلس الشيوخ وفسادها واختلال النظام السياسيِّ، أسهمت في ظهور قادة سعوا بكلِّ طاقتهم في سبيل المجد والثروة، وذلك المسعى كان يسحر الجماهير، فالمجد والثروة يفتحانن المجال أمام القائد الطموح ليشتري أعداداً غفيرة من الموالين، الذين يتعلَّقون به، ويخدمون جنوداً بإمرته، ويرون فيه حبيب الألوهيَّة، ويقرُّون له موكب النصر قبل أن يبدي مجلس الشيوخ رأيه، ويتخذون المبادرة ويعلنونه أمبراطوراً في ساحة الوغى، ويعود أول مثال أكيد على ذلك لسنة ٢٠٩ ق.م. ثمَّ يصبح هؤلاء الجنود مستعدِّين بعد انقضاء قرن من الزمان؛ لأن يسيروا وراءه حتى في الحروب الأهليَّة، ولن يتوانوا عن احتلال العاصمة.

[1]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.245.

لقد أسهم التوسُّع العسكريُّ والحروب المستمرَّة في ترسيخ الظروف المادِّيَّة والأدبيَّة للفوضى الداخليَّة، وقد دفعت هذه الفوضى بدورها في عمليَّة التوسُّع العسكري واستمرار الحرب، حتى أنَّ بعض الحروب أعلنت من دون التقيُّد بالأصول الدستوريَّة، سعياً وراء النصر، واتَّسعت الدولة سعياً من القائد وراء ربط اسمه بإخضاع أقاليم جديدة[١].

ومثلما انحطَّت أخلاق رجال السياسية والجيش انحطَّت **الأخلاق العامَّة** كذلك، حيث شاع التسرِّي، والعزوف عن الزواج، ومعاقرة الخمرة والنساء، والفساد الأخلاقيُّ في المجتمع الرومانيِّ، وكان هذا بدوره جزءاً من التدهور العام الذي أصاب المُثُل والقيم العليا عامَّة، نتيجة لحروب روما في سبيل التوسُّع والاستعمار. إن تدفق الثروات على روما نتيجة لأعمال السلب والنهب التي صاحبت الحروب، وكذلك تدفُّق الأموال عليها من الضرائب التي كانت تُفرض على الأقاليم التي أدخلها الرومان في نطاق سيطرتهم، وانتشار الرقِّ بعد كلِّ عمليَّة توسُّع، كلُّ ذلك أدَّى إلى خلق طبقة من الرومان العاطلين عن العمل ترعرعت في أحضان الرفاهية والكسل والعزوف عن الزواج والبحث عن الملذَّات الآنيَّة، بينما أخذت النساء بمظاهر الاستقلال، والاعتداد بالنفس، والميل إلى التسلُّط والسيادة، وأمام تردِّي هذا الواقع أخذ بعض رجال روما في السعي الجاد لوقف هذا الانهيار الأخلاقيِّ، حيث ناشد متيلوس ماسيدو نيكوس مراقب الإحصاء والأخلاق العامَّة في روما في سنة ١٣١ ق.م أبناء روما إلى «أن يقبلوا على الزواج حفاظاً على الدولة من الانهيار[٢]». كذلك حاول يوليوس قيصر في أواخر عصر الجمهوريَّة أن يشجِّع الشباب على الزواج عن طريق منح المكافآت الماليَّة، وحاول أن يشجِّع النساء على الزواج ويحدَّ من عزوبتهنَّ عن طريق حرمان غير المتزوجات من بعض الحقوق التي تتعلَّق بصورة خاصة بالمظهر والزينة، ومنها القانون القاضي بحرمان المرأة التي تبلغ ٤٥ سنة من دون أن تكون متزوجة أو لها أبناء من ارتداء اللون الأرجوانيِّ وتقلُّد الجواهر واللآلئ، واستخدام الكرسيِّ المحمول[٣].

وغنيٌّ عن القول أنَّ أخلاق المجتمع الرومانيِّ بلغت أدنى درجاتها في شخصيَّة كتالينا

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١١١.

[٢]- أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، سلسلة إقرأ ١٦٩، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٥١- ١٥٣.

[٣]- محمود سلام زناتي، المرأة عند الرومان، دار الجامعات المصريَّة للطباعة والنشر، الإسكندريَّة ١٩٥٨م، ص٩٦، ٩٧.

صاحب السيرة القذرة، والذي وصل الأمر به إلى إفساد بكارة ابنته، وقتله لأخيه، وخوفاً من تبعات هذه الجريمة وفي سبيل إخفائها ذهب إلى سولا، وكان من أنصاره المتملِّقين الانتهازيين، وطلب منه أن يدرج اسم شقيقه المغدور به في قائمة الذين سينفَّذ بهم حكم الإعدام، كما لو أن شقيقه ما زال على قيد الحياة، لأنَّ كلَّ من يعدم بقوائم سولا كانت تهدر حقوقه المدنيَّة[١]. إن رجل سياسة من طراز كتالينا يرتكب هذه الجرائم والجنايات بحق أهل بيته، يتوقع منه في عالم السياسة أن يفعل كل شيء، لذلك لم يكن من المستغرب المخطَّط الذي وضعه ليعيث فساداً في روما قبل أن يقتل قناصلها ويفرض سيطرته عليها.

المثال الثاني على فساد المجتمع الرومانيِّ كان بيبيلوس كلوديوس Publius Clodius الذي أشيع عنه أنَّه كان على علاقة محرَّمة مع أخته كلوديا، التي هام بها شاعر الغزل الأشهر كاتوللوس وتحدث عنها تحت اسم مستعار هو ليسبيا[٢]. أمَّا فضيحته الشهيرة فكانت مع بومبيا Pompeia زوجة يوليوس قيصر، فقد ابتدأت القصة في مهرجان الربَّة الطيبة Bona Deq وهو احتفال هام جدَّاً تشارك فيه النساء فحسب، ولا يستطيع ذكر أن يدخل البيت الذي يقام فيه، ورب البيت يجب أن يجد بيتاً آخر، فحتى صور الرجال وتماثيلهم كانت ترفع من البيت، وكان قيصر حَبراً شهيراً فاختير بيته للطقس المقدَّس، وقد ناسب ذلك كلوديوس جدَّاً، فقضيته مع بومبيا لم تكن قد نجحت بفضل التدبير الدقيق لحماتها، وهنا جاءت الفرصة المناسبة حيث تتراخى رقابة حماتها المتيقِّظة، وقد ناسبه جماله الصبيانيُّ الناعم أن يرتدي ثياب امرأة، فاتَّفق مع بومبيا أن يذهب إلى البيت متنكِّراً بزيِّ فتاة مغنِّية حيث تتلقَّاه على المدخل خادمتها. لا شك في أنَّ هذه المغامرة الشريرة الجريئة قد حرَّضت فيه ميوله، وكانت الخادمة في مكانها عندما دخل فخبَّأته وطلبت منه أن ينتظر بعيداً عن الأنظار حتى تجد سيِّدتها، ولكنها تأخرت في المجيء إليه، ولم يكن كلوديوس من الصنف الصبور، فبدأ يبحث عن سيِّدته بنفسه، وما إنَّ طاف في البيت حتى ركضت خادمتها عليه وطلبت منه يلعب معها لعبة في المهرجان، وعندما انسحب سألته عن سبب اعتذاره، وبفعل حماقته وغروره وأنانيته ردَّ عليها وفضحه صوته، فصاحت رجل، رجل، وصبَّت الوقود على النار.

---

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص١٥٨٦.

[٢]- أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مجلَّة «عالم الفكر»، مج ١٦، عدد ٢، الكويت ١٩٨٥م، ص١١٤.

ولا شكَّ في أنَّ ما حصل كان عظيماً، فقد فُضِحت الأشياء السريَّة، وأُعلِن عن إلغاء الشعائر المقدَّسة وإبطالها، واضطرب البيت، ومن دون هدف هرَّبته خادمة بومبيا، وكما يحدث عادة فقد امتلأت المدينة صباح اليوم التالي بالفضيحة المرعبة[١].

وقبل ختم الحديث عن فساد السياسة الداخليَّة وتردِّي الأخلاق في روما، والانتقال للحديث عن السياسة الخارجيَّة، نود الإشارة إلى حجم **الدور الذي لعبته النساء في مسار السياسة الرومانيَّة**، فقد كنَّ مبعدات ومحرومات من ممارسة هذا الحقِّ، لما فيه من خير لهنَّ وللدولة على السواء، بحكم أنَّهن عاطفيات، وتقدِّم لنا إحدى القصص الأدبيَّة التي حفظتها كتب التاريخ هذا المضمون، فقد رافق صبيٌّ أباه إلى مجلس الشيوخ فلمَّا عاد سألته الأم بدافع الفضول عمَّا كان الآباء (أي الشيوخ) يتناقشون فيه. فأجابها الولد بأنَّه محظور عليه أن يتكلَّم بتاتاً، ممَّا ألهب فضولها وجعلها تلحُّ عليه أن يتكلم. وعندئذٍ اختلق الغلام أكذوبة يصفها كاتو بالفطنة واللَّباقة. قال لها إن المجلس كان يتناقش فيما إذا كان من الأفضل للدولة أن يتزوج الرجل امرأتين أو المرأة رجلين، فاستولى الذعر على الأم وانطلقت إلى ربات البيوت الأخريات لتقصَّ عليهنَّ الخبر، ولم يأتِ الصبح حتى كنَّ قد احتشدن أمام دار السيناتور، وأخذن يبكين ملتمسات أن يكون من حقِّ المرأة أن تتزوج رجلين، لا أن يتزوج الرجل امرأتين. واستولت الدهشة على الشيوخ إلى أن بدَّدها الغلام الذي وقف وسط القاعة وروى قصته. ومنذ ذلك الحين لم يسمح لأيِّ صبي بحضور مناقشات مجلس الشيوخ سوى هذا الصبي الذي كوفئ على أمانته ولباقته[٢]. ولا شكَّ في أنَّ هذه القصة خرافية لكنها تعبرِّ بصوة واضحة عن حجم إبعاد النساء -نصف المجتمع- عن ممارسة حقهنَّ في السياسة.

في الواقع، لقد تبدَّلت الظروف في أعقاب الحروب البونيَّة الثانية مع قرطاجة والتي تسبَّبت في قتل أعداد غفيرة من شباب روما، وهذا ما دفع النسوة إلى ممارسة مختلف أنواع النشاط الاجتماعيِّ والاقتصاديِّ، فبعدما كانت المرأة الرومانية تنظر إلى حياتها باعتبارها تكملة لحياة زوجها، وإلى شخصيَّتها باعتبارها مجرَّد امتداد لشخصيَّته، تحرَّرت من هذه

[١]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص٦٩. وانظر: بلوتارخ، ج٣، ص١٣٣١.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري والديني والسياسي والعسكري، تقديم وتحقيق حسان حلاق، دار النهضة العربيَّة، بيروت ٢٠١١م، ص٢٠٨.

السلطة إلى حدٍّ كبير واكتسبت قدراً كبيراً من الاستقلال، وأضحت ترى لنفسها حياة خاصة ولشخصها كياناً مستقلاًّ، حيث لم تعد تخضع لسلطان زوجها المطلق Sine manu، لذلك لم تعد تقنع بأن تكون ربَّة منزل، بل صارت ترغب في أن تكون سيدة مجتمع، وأخذت النساء يملأن فراغ أوقاتهنَّ بمختلف أنواع النشاطات، وكان من الطبيعيِّ أن من نسوة روما من استهوتها السياسة ومسائلها[١].

لكن في الحقيقة، ساهم ولوج النساء عالم السياسة إلى نتائج كارثيَّة على الدولة والنظام السياسيِّ في روما، فيكفي أن نعلم أنَّ سيدة واحدة كانت تضع كلَّ مجلس الشيوخ في جيبها، وهي أم بروتوس التي لم تكن قاصرة في ذلك المجال، فبعد حادثة اغتيال قيصر بقليل، حضر شيشرون لقاء في بيت ريفيٍّ لثلاث سيدات هن سرفيليا وترتولا وبورتيا، أم بروتوس واخته وزوجته، ولقد تحدَّثن عن الوضع الذي آلت إليه الأمور بعد مقتل قيصر، والإهانة التي لحقت بكل من بروتس وكاسيوس (أشهر قتلة قيصر) عندما استلما من مجلس الشيوخ أوامر للقيام بمهمَّات هزيلة، فقد عيِّن كاسيوس لشراء القمح من صقلية، وأثناء النقاش الدائر بينهنَّ دخل كاسيوس بعينين ملتهبتين، وأعلن أنَّه لن يذهب إلى صقلية، وعندئذٍ وعدت سرفيليا Servilia بأنَّها ستهتم بالقضيَّة بنفسها، وأكَّدت له أنَّها ستسحب قرار مجلس الشيوخ القاضي بتكليفه بالعمل على تموين روما بالقمح من صقلية، فمن الواضح أنَّها كانت تعرف أنها تضع المجلس في جيبها. طبعاً هذا مثال عن تلك الشخصيات المحيرَّة في عالم السياسة الروماني[٢].

ثالثاً: أضواء نقديَّة على السياسة الخارجيَّة للدولة الرومانيَّة

إنَّ أهمَّ ميزة من ميزات السياسة الخارجيَّة الرومانيَّة أنَّها كانت **سياسة حرب وعدوان**، حيث اتَّبعت منهجاً علنياً في شنِّ حروب متَّصلة على الجميع، ربما لا تكون هذه السياسة حالة نادرة، فقد أعطتنا المدن اليونانيَّة أكثر من مثال على ذلك، لكن جمهوريَّة تكرِّس كلَّ حياتها وطاقاتها في سبيل الحرب والعدوان وقضم أراضي الغير، بهذا الاستمرار وهذا الجلد، رافضة التنازل عن أيِّ مكاسب حقَّقتها، ونجاحها في تحقيق الانتصارات المستمرَّة،

[١]- محمود سلام زناتي، المرأة عند الرومان، مصدر سابق، ص١١٣، ١١٤.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص٩١.

[باستثناء الهزيمة النكراء التي منيت بها على يد الفرس الفرثيين في معركة كراهاي Crahae (أو حران) سنة ٥٣ ق.م]؛ هو شذوذ تاريخيٌّ أقرب ما يكون إلى المغالطة السياسيَّة[١]. وما يلفت الانتباه هو أنَّ روما لم تكن مدفوعة في شنِّ حروبها بأفكار عقائديَّة أو أيديولوجيَّة، فهي لم تفرض يوماً على الشعوب المقهورة تنظيماتها ولا ديانتها، فما هي الأسباب التي كانت تحرِّضها وتعمل كمحرِّك أساسيٍّ لآلة الحرب والعدوان عند الرومان؟

يرى بعض المؤرِّخين أنَّ تلك السياسة بدأت بالطمع؛ فالشعب وهو من الفلاحين، طمع بأرض جيرانه، لاسيَّما في تلك الأراضي الأكثر خصوبة أو الأفضل استثماراً، ومن حيث أنَّه استوطن إقليماً تمرُّ به بعض الطرق، وقد صمَّم أيضاً على الحصول بسهولة على بعض الموادِّ الخام. ولكن هذا التفسير السطحيَّ المعتمد على المحرِّك الاقتصاديِّ وحده لأحداث التاريخ؛ يجافي الحقيقة، ولا يعالج المشكلة من جذورها. في الواقع، إنَّ أهمَّ الأسباب التي دفعت روما لشنِّ حروبها هو الرغبة في العدوان، من أجل تحقيق سلام طويل الأمد وتام، كحروب استباقيَّة - دفاعيَّة عن وجودها، وصدق من قال إنَّها احتلَّت العالم دفاعاً عن النفس. إن عمليَّة تصنيف المحيط وافتراض الآخرين على أنهم أعداء، ومن ثمَّ شنّ سلسلة حروب متَّصلة ضدَّهم؛ هي سياسة رومانيَّة خالصة وبامتياز، ستقوم الولايات المتَّحدة الأميركيَّة بانتهاجها بحذافيرها في جميع حروبها؛ سواء أثناء الحرب الباردة مع الاتحاد والسوفياتي سابقا، أم خلال حربها على أفغانستان، أو حتى في الحرب التي شنَّتها على العراق، حيث ظهر مصطلح الضربة الاستباقيَّة بصوة صريحة.

بالعودة إلى روما، فإن َّحرصها الشديد على استقلالها كان يدعوها إلى القضاء على استقلال غيرها وتقويضه، وبالتالي شن الحروب عليهم، ومن ثمَّ التوسُّع واحتلال أرضهم والسيطرة على مواردهم، وهذه الحروب عبارة عن حلقة مفرغة من العدوان؛ لأن توسيع رقعة السيطرة والاحتلال يضاعف الواجبات الدفاعيَّة وظروف الصراع، فيجد الاستعمار الرومانيُّ في مكاسبه نفسها مبرِّرات لا تقهر لنقل مطامعه باطِّراد إلى آفاق أبعد، بحيث لا يكون له حدود سوى حدود الأرض المأهولة[٢].

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر .دسابق، ص١٠٧.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٠٩.

لقد أسهمت هذه السياسة العدوانيَّة في **قلب المفاهيم المتَّفق عليها سابقاً**، فبعدما احتلَّت روما العالم القديم وتحكَّمت فيه، صار المعبد في وسط المدينة لا على سفح جبل بعيد، طبعاً صار إلى جانب قصر الحاكم وفي خدمته، وعبارة «اعرف نفسك بنفسك»، صارت «اعرف خصمك»، ولا تتطرَّف، صارت غامر حتى تفوز، وشعار الصلاح مستحيل، صار الصلاح يفرض فرضاً بمشيئتك ما دمت قوياً، والتفوُّق صار تفوُّقاً في الحرب. وتحوَّل الحقُّ إلى سلطة، والجمال إلى منفعة، والخير إلى استيلاء، بل لم يعد أحد يرى الخير إلاَّ في التوسُّع العسكريِّ والحروب والاحتلال والاستيلاء وإخضاع الغير[١]، ولم يعد البشر سواسية أمام الآلهة، فلا شكَّفي أنَّ الشعب الرومانيَّ اعتقد بأنه الشعب المختار، حيث كان يرى في نفسه الشعب الأكثر قوة وعدلاً فضيلة، وكلها امتيازات تبرِّر في نظره الهبات التي تغدقها عليه الآلهة.

إنَّ هذه المفاهيم المقلوبة كانت كلُّها دوافع لإقناعه بأنَّ أي شعب آخر لا يستطيع -ولا يجب- أن يقف في وجهه، وهكذا أصبحت روما بالذات المدينة التي ألقيت على عاتقها رسالة إخضاع العالم، عليها أن تخضعه بالاقتصاص من دون شفقه على العُصاة، وبممارسة حقِّ المنتصر لم تتوانَ عن هدم قرطاجة وكورنثا في السنة ذاتها؛ نحو ١٤٦ ق.م، ولم تتوانَ عن ممارسة ذلك الحق في إسبانيا عندما قرَّرت هدم نومانس Numantia في سنة ١٣٣ ق.م[٢].

وحتى يتسنَّى لنا فهم هذه السياسة العدوانيَّة، وتلك المفاهيم المقلوبة، علينا **أن نفهم جذور المشكلة**. في الواقع، يمثِّل الساسة الرومان في العصر الجمهوريِّ ولاسيَّما بعد الحرب البونيَّة الثانية، محدثي النعمة في أوج قوَّتهم، لذلك مالوا إلى التطرُّف في كلِّ شيء، وبالغوا في كلِّ شيء، وأطلقوا عقال الوحوش النائمة في أعماقهم، قصورهم فخمة، وقبورهم فخمة، وحروبهم مدمرَّة، وأعمدتهم شاهقة تستولي على الاعجاب، حتى أنَّ الدكتورة أديث هاملتون تصفهم بأنَّهم فلاسفة في حداثة النعمة[٣]، عندما ادَّعى كاتو القديم أنَّه يسعى لمحاربة الفساد

[١]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص٨.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١١٠.

[٣]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص٨.

الأخلاقيِّ المتفشِّي في الدولة، وتحرُّر زعماء الجيش واختلاسهم، لم يسطع أن يصل إلى نتيجة، لأنَّ أعماله العسكريَّة والدبلوماسيَّة في إسبانيا وبلاد اليونان على السواء، وإصراره على محو قرطاجة من الوجود، يبرهنان بما فيه الكفاية، عن أنه لا يذهب من المعلول إلى العلَّة لإقناع مواطنية بالاعتدال، وحين ذرف سيبو إميليانوس سنة ١٤٦ ق.م الدموع السخيَّة أمام أطلال قرطاجة المحترقة لم يحمله ذلك قطُّ على كبح غضبه وإرهابه، إذ برهن بعد ثلاث عشرة سنة عن عزم مماثل لا يعرف معنى الشفقة ولا الرحمة أثناء حصار وهدم نومانس Numantia في إسبانيا[١].

إن مُحدَثي النعمة الذين يعقَّبون كلِّ حرب، يطرحون عادة شعاراتهم الجديدة المغرية التي تستثير أحطَّ الغرائز الحيوانيَّة[٢]. إنَّ الشهوة إلى الذهب والسلطة قد زادهما -أو أوجدهما- التوسُّع العسكريُّ الذي قلب الاقتصاد والمجتمع، فرجال الأعمال الجشعون، وغالبيَّتهم من طبقة الفرسان وأعضاء مجلس الشيوخ، كانوا يرغبون في استثمار نطاقات جديدة، والجنود غالباً ما يبتغون حروباً جديدة تؤمِّن لهم الغنائم والمكافآت. وبالفعل مصادرة ثروات الشعوب المقهورة، وتعويضات الحرب المفروضة على المغلوبين، وأعطيات الحلفاء المتملِّقين إلى القوة، والجزية السنويَّة التي تدفعها المقاطعات، بلغت أرباح الاستعمار معها درجة كبيرة، حصلت معها عامَّة الشعب على قسطها من سخاء الدولة، وساندت بحماسة سياسة تؤمِّن لها مثل هذا الكسب. وإن كان بعض رجال الدولة من ذوي الشأن قد تجاوزوا هذه الأنانيَّة، إلاَّ أنهم أرتأوا أحياناً أن الحرب والتوسُّع العسكريَّ قد يساعدان على معالجة الصعوبات الداخليَّة؛ إمَّا بإلهاء الشعب عن قضاياه الجوهريَّة، وإما بزيادة الموارد الماليَّة[٣].

لكن تلك الحروب فضحت فساد الأخلاق الرومانيَّة قبل أن تفضح فساد سياسة الدولة الخارجيَّة، ولعلَّ الحرب على يوغورتا Jugurtha ملك نوميديا الذي اشتهر بطموحه وجرأته، تُعدُّ أبرز مثال على حجم هذا الفساد المقرون بالرشوة. لقد عذَّب يوغورتا ابن عمه حتى الموت، وحاول إسقاط حقِّ ابن عمه الثاني من وراثة العرش، فما كان من هذا الأخير إلاَّ أن

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١١١.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص٧.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١١٠.

هرب إلى روما، وطلب المساعدة من مجلس الشيوخ الرومانيِّ، لكنَّ يوغورتا سبق ابن عمه في اتخاذ الإجراءات الناجعة، بأن أرسل أعوانه إلى روما ليعرضوا قضيته أمام مجلس الشيوخ بعدما ملأ جيوبهم بالمال، وهو كان على خبرة واسعة بطبائع الرومان وأخلاقهم منذ أن خدم في القوات النوميديَّة في إسبانيا إلى جانبهم، وبالفعل كان للمال تأثيره المتوقَّع على مجلس الشيوخ الذي أرسل في سنة ١١٦ ق.م لجنة لدراسة الموضوع، فما كان من يوغورتا إلاَّ أن رشى أفرادها، فخرجت قراراتها لصالحه، وعند تقسيم الملكة بينه وبين ابن عمه، نال القسم الغربيَّ الأكثر ازدهاراً وثراء، وعندما أحسَّ بضعف الرومان نتيجة فسادهم زحف على القسم المخصِّص لابن عمه، واحتلَّ عاصمته سنة ١١٣ ق.م، وقد سقط عدد من التجار الإيطاليين والرعايا الرومان أثناء اقتحام المدينة، ما دفع مجلس الشيوخ الروماني إلى إعلان الحرب عليه، وأرسل جيشاً بقيادة القنصل بستيا لغزو نوميديا وتحويلها إلى مقاطعة رومانيَّة، إلاَّ أنَّ يوغورتا لجأ إلى وسائله الناجحة في خداع القنصل ورشوته، فاشترى رجال الدولة للدفاع عن نفسه وعن جرائمه في مجلس الشيوخ، فما كان من هذا القنصل إلاَّ أن عقد الصلح معه، وعمَّت النقمة في روما[١].

لقد أخذ جايوس ميموس Gaius Memmius يحرِّض الشعب الرومانيَّ على الانتقام، وعدم التفريط في بلادهم، وكان خطيباً محنَّكاً، يكره الأرستقراطيين ويمقتهم، وقد بيَّن أنَّ تلك الحالة المزرية ما هي إلاَّ نتيجة أفعال الأرستقراطيين المتغطرسة والقاسية، لقد فعل ذلك في اجتماع شعبيٍّ بينما كان مجلس الشيوخ عاجزاً عن اتخاذ القرار، ومن خطابه نقتبس بضع فقرات تبيِّن لنا الحالة المزرية التي أمست بها الدولة الرومانيَّة بعد تسلُّط رجال السياسة الفاسدين عليها. فممَّا جاء في خطابه «إنني في الحقيقة أخجل أن أقول بعض الأشياء، إذ كيف أصبحتم خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة مثاراً للسخرية من فئة متعجرفة قليلة، وكيف يهلك المدافعون عنكم من دون انتقام لهم، وكيف فسدت نفوسكم بسبب ضعفكم وجبنكم». وأردف قائلاً: «في السنوات الماضية شعرتهم بالسخط الشديد عندما كنتم تشاهدون المال العام يهدر، والملوك والشعوب الأحرار يدفعون ضريبة الخضوع لقلَّة

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيَّ، الجمهوريَّة، الأمبراطوريَّة حتى عهد الإمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م، ص٢٢٨، ٢٢٩.

من النبلاء، ويحقِّق هؤلاء المجد والثراء الفاحش، ومع ذلك لا يكفيهم إفلاتهم من العقوبة بعد ارتكابهم هذه الجريمة البشعة، وهكذا في النهاية، فإنَّ القوانين وعظمتكم وجميع الأشياء الإلهيَّة والبشريَّة سُلِّمت للأعداء». وتابع متحدثاً: «وهؤلاء الذين فعلوا كلَّ ذلك لا يخجلون ولا يندمون لكنهم يمشون بفخر أمام أعينكم؛ زهواً بمناصبهم الكهنوتية أو القنصلية، وآخرين بانتصاراتهم وكأنَّهم اكتسبوها بشرف ولم يسرقوها». ثم قال: «من هؤلاء الذين سيطروا على دولتنا أناس مجرمون بأيدٍ ملطَّخة بالدم ونفوس جشعة، ومذنبون وفي الوقت نفسه فخورون جدَّاً، فهم قد نالوا الثقة والمجد والقداسة، باختصار كل شيء شريف وغير شريف يمكن إحرازه[١]».

أمام هذا الاحتقان الشعبيِّ استدعى مجلس الشيوخ يوغورتا إلى روما -بعد ضمان سلامته- ليدلي بشهادته في التحقيق الجاريِّ مع قادة الحملة، ووصل به الأمر إلى أن اجتمع بأعضاء المجلس في روما نفسها، وقدم لهم الرشاوى[٢]، كما استطاع أن يكسب إلى صفِّه نقيب العوام جايوس بايبوس Gaius Baebius برشوة كبيرة، لكي يحميه بحكم وظيفته من ملاحقة القانون أو من أيِّ هجوم شخصيٍّ ضدَّه[٣]. ولم تصل اللَّجنة إلى قرار يدين المتَّهمين بالنظر إلى أنَّ المحامين أخذوا يقاطعونه أثناء الإدلاء بالشهادة، ومنعوه من الكلام وفقاً لخطَّة اتُّفق عليها مُقدَّماً.

لقد بالغ يوغورتا في ثقته بنفسه وبقدرته على رشوة كلِّ مسؤول في روما، فعمد خلال إقامته فيها على اغتيال منافس له، هو قريبه الأمير النوميدي ماسيفا Massiva الذي قام بالاتفاق مع القنصل سبوريوس البينوس Spurius Albinus بالمطالبة بعرش بلاده. وهذا الفساد المتفشِّي في روما سمح له أن يعود سالماً إلى مملكته في سنة ١١١ ق.م[٤]، حيث أمره مجلس الشيوخ بمغادرة البلاد، وأثناء خروجه من روما، كان يسير وينظر خلفه من دون أن يهمس بحرف، وعندما وصل إلى أبواها وقف وقال عبارته المشهورة «هنا مدينة للبيع

[١]- سالوست، الحروب اليوغراطيَّة، ترجمة محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا ٢٠٠٧م، ص٤٦- ٤٨.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٢٩.

[٣]- سالوست، الحروب اليوغراطية، مصدر سابق، ص٥٢.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٢٢٩.

توشك أن تزول بسرعة إذا وجدت من يشتريها Urbem venalem et mature pevituram sit cmptorem invenerit»[١].

لقد اغضب استخفاف يوغورتا مجلس الشيوخ الذي أرسل له جيشاً رومانياً، لكنَّه تمكن من هزيمته في سنة ١٠٩ ق.م، ونجمت هزيمة الجيش عن خيانة بعض ضباطه، حيث لعبت الرشوة دورها في الوصول إلى هذا الظفر، وكان من بين المرتشين قائد المائة الأساسيَّة في الفرقة الثالثة في الجيش، الذي أتاح لجنود يوغورتا التسلُّل إلى داخل المعسكر من خلال النقطة التي كان يحرسها، ولم يقبل يوغورتا بإطلاق سراح الأسرى الرومان إلاَّ بعد الاعتراف به، وعبور الجيش الروماني تحت النير قبل مغادرة نوميديا، فعمد مجلس الشيوخ إلى رفض هذه الاتفاقية وأحال المرتشين للمحاكمة فأدين منهم عدد من القناصل السابقين وكان على رأسهم القنصل أوبيميوس[٢].

لقد كان الفساد والرشوة وانعدام الأخلاق عند رجال السياسة الرومان، سبباً في حرمان ولاية أفريقيَّة من الاستقرار طوال ست سنوات (١١١ - ١٠٦ ق.م)[٣]. وتُعدُّ الحرب على يوغورتا المثال الأسواء في تاريخ الفساد المقرون بالرشوة، رغم أنه لم يكن مثالاً فريداً. لكن يجب علينا أن نشير إلى أن الرشوة لم تكن الشكل الوحيد للفساد السياسيِّ، الذي ارتبط بسوء استخدام المنصب العام عند الرومان، لا بل تعدَّى قبول الرشوة ليشمل الاختلاس وابتزاز الرعايا[٤]، فما أنْ كانت المناطق تخضع لسيطرة الجيوش الرومانية، وتلحق بالدولة، حتى كانت تتعرَّض لأبشع أنواع **الاستغلال والنهب**، ويمكننا أن نصنِّف هذا الاستغلال إلى نوعين: أحدهما رسميٌّ يتمُّ بإشراف الدولة، والثاني فرديٌّ يتولىَّ أمره رجال السياسة الفاسدون ممَّن سيسند إليهم مهمة إدارة هذه الأقاليم. لنبدأ بالاستغلال الرسمي الذي كان يبدأ مباشرة بعد إعلان هزيمة الشعوب المغلوبة أمام جحافل الجيش الرومانيِّ، حيث يتحوَّل الأسرى إلى عبيد، هذا ناهيك بالغنائم والغرامات الحربيَّة، واعتبار أراضي المهزومين من

[١]- سالوست، الحروب اليوغراطيَّة، مصدر سابق، ص٥٥.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، م.س، ص٢٢٩.

[3]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.245.

[4]- Lisa Hill., Op. Cit., 2013, p.572

أراضي الدولة الرومانيَّة بموجب حقِّ النصر؛ حيث كانت أرضهم تُوزَّع على الرومان أو تترك للأهالي Ager Publicus مقابل أداء إتاوة، يختلف اسمها وشكلها من إقليم إلى آخر، وكانت هذه الإتاوة تدفع إما عيناً أو نقداً، ويضاف إليها ضريبة أخرى مباشرة وهي ضريبة الرؤوس Tributum Capitis وتؤدَّى على السكان أنفسهم، وهناك ضرائب غير مباشرة مثل المكوس والضرائب على إعتاق الرقيق وضريبة العبد، وبالإضافة إلى ما سبق كانت بعض الولايات ملزمة بالمساهمة في تموين روما بالقمح، كما كانت روما تلزم كل ولاية بتموين الحامية العسكريَّة المستقرَّة فيها، ومن ذلك مثلاً ما فعله سولا في ولاية آسيا سنة ٨٥ ق.م عند فرض تموين جيشه على حساب مدن هذه الولاية، ولم تكتف روما بكلِّ هذه الأشكال الاستغلاليَّة وإنما فرضت أشكالاً أخرى من التدخُّل السافر في الاقتصاد فمنعت بعض الولايات من زراعة بعض أنواع الأشجار حماية لإنتاج إيطاليا منها[١].

إنَّ **ابتزاز الرعايا** الذي كان يقوم به من تسند إليهم إدارة الولاية، كان أشدَّ بشاعة من استغلال الدولة، فمثلما استفحل الفساد في جميع مؤسَّسات وهيئات ورجال الدولة، انعكس في سياستها الخارجيَّة في التعامل مع الشعوب والبلدان المحتلَّة وإدارتها، وكان هذا نتيجة طبيعيَّة ومتوقَّعة؛ فمعظم الشخصيَّات التي كانت تدير روما من قناصل وبراترة، وتعيث في البلاد فساداً؛ أسندت إليهم مهمَّات سياسيَّة في الخارج، فوجدوها فرصة مناسبة للابتزاز والاختلاس وقبول الرشاوى والهدايا لاسيَّما أنَّ تلك المهام كانت شرفيَّة؛ أي أنَّ المكلَّف بها لا يتقاضى عليها أجراً من الدولة، لذلك عاثوا فساداً في الولايات التي أوكلت إدارتها إليهم، فكل ولاية من ولايات الجمهوريَّة الرومانيَّة صارت بمثابة مزرعة خاصَّة لمن يتولَّى إدارتها، ولم يكن هذا الوالي يتوانى لحظة واحدة عن انتهاك الصلاحيَّات والسلطات الممنوحة له، من أجل جمع أكبر قد ممكن من الثروة، بينما كان يكتفي بإرسال جزء صغير من مداخيلها إلى روما، وفي سياق تلك السياسة الانتهازيَّة كان سكان الولاية يتعرَّضون لأبشع أنواع الابتزاز من أجل دفع الضرائب المفروضة عليهم[٢].

[١]- وفاء الساعدي، النتائج السياسية للتوسُّع الروماني في شرق البحر المتوسط ١٤٦- ٢٧ ق.م، مجلَّة «بحوث الشرق الأوسط»، العدد الثامن والثلاثون، ص٣٤٠.

[2]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.244.

لقد تعدَّدت الأسماء التي أثيرت ضدَّها قضايا الفساد من هذا القبيل، لكن قلَّة قليلة منهم وقفت أمام المحكمة، فعلى سبيل المثال كان منهم ميميوس C. Memmius الذي اشتهر بالابتزاز والفساد عندما كان والياً على بثينا Bithynia[١]، وأميليوس سكوروس Aemilius Scaurus الذي قام بابتزاز الأهالي عندما كان حاكم ساردينيا وكورسيكا[٢]، ومتى كان قيصر في الثالثة والعشرين من عمره حاكم دولابيلا Dolabella قائد أسطول سولا خلال سنوات ٨٣ و ٨٢ ق.م والقنصل في سنة ٨١ ق.م، للابتزاز أهالي ولاية مقدونيا، لكن دولابيلا بُرِّئ بعدما دافع عنه اثنان من المحامين المخضرمين وهما هورتالوس Hortalus وجوتا Cotta، فلم يقنع قيصر بنتائج تلك المحاكمة، وجعل على رأس جدول أعماله السياسيِّ جميع أصدقاء سولا والمقرَّبين منه، حيث حاكم هيبريدا Hybrida متهماً إيَّاه بممارسة الابتزاز في ولايته، والقائمة تطول[٣].

لقد كانت جميع نتائج السياسة الرومانيَّة على الشعوب المغلوبة، نتائج سلبيَّة، لا بل كارثيَّة، فحتى نهاية العصر الجمهوريِّ -باستثناء إيطاليا- كانت روما تهدم من دون أن تبني شيئاً جديداً متيناً يتناسب مع ما تستولي عليه، وتقتل أو أقلَّه تخنق حضارات من دون أن تهتمَّ بإقامة حضارات أخرى مكانها، تستهلك وتُفقر وتستثمر دونما اعتبار إلى أنها تعرض طاقات ممتلكات صارت لها للإخطار. وتقطع من دون تعقل من مال أمسى مالها، فتستنزفه وتعرِّض مستقبلها نفسه للخطر[٤].

ولعل أبرز الأمثلة على فساد سياسة الدولة الرومانيَّة في إدارة الولايا، كان **التوالي جايوس فيروس** Gaius Verres الذي كان والياً على صقلية، في القرن الأول قبل الميلاد، والذي سرق الجزيرة وابتزَّ سكَّانها بصورة وحشيَّة وصلت إلى حدِّ ارتكاب الجرائم بحقِّهم[٥]، حيث زيف السجلات، وضايق النساء والأطفال، وأهمل واجباته العسكريَّة، وعذَّب الصقليين بالجَلد،

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.62

[2]- Lisa Hill., Op. Cit., 2013, p.576

[3]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.68

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص١٠٠.

[5]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.244.

وأمر بشنق بعضهم، وأهان نُخبهم[١]، وأساء معاملة المزارعين فسلبهم مزارعهم ومنتجاتها، ما أدَّى إلى هروب شبه جماعيٍّ من الأراضي التي فرضت عليها الضرائب، فأمست مهجورة، حتى أنَّ أكثر من ٥٠ ٪ من الأراضي الصالحة للزراعة أصبحت جرداء، وتوقف فيها الإنتاج، كلُّ ذلك بسبب ممارسات فيروس الجائرة، وبكلِّ وقاحة تطاول على السكان الآمنين فسلبهم أموالهم وكنوزهم الشخصيَّة، ولم يميز بذلك بين السكان الصقليين أو غيرهم، ولا حتى بين الآلهة التي نهب معابدها[٢]. لقد بقيت قصته مشهورة بسبب توليِّ شيشرون أمر الدفاع عن سكان صقلية في وجه هذا الوالي الفاسد، والذي بيَّن في معرض هجومه عليه أنَّ ثلاث سنوات كانت كفيلة بجلب مغانم هائلة له، فمكاسب السنة الأولى كانت تكفيه، بينما كانت مكاسب السنة الثانية من نصيب أصدقائه، أمَّا السنة الثالثة فإنها كانت كافية لدفع الرشاوى للقضاة وللمحامين، وهذا دليل واضح من شيشرون على شيوع الرشوة والفساد في إدارة الدولة الرومانيَّة وأجهزة المحاسبة والرقابة[٣]. طبعاً، لقد كسب سكان صقلية الدعوة بفضل فصاحة شيشرون، رغم كثرة المدافعين عن فيروس ولجوئه إلى شتَّى الأساليب لتخليص نفسه.

لم يكن فيروس المثال الوحيد على سوء السياسة الرومانيَّة في إدارة الولايات، كانت **ولاية كليكيا** Cilicia في حالة أسوأ تحت سلطة الرومان، حتى أنَّ شيشرون عندما زارها خلال سنة ٥١ - ٥٠ ق.م كتب عنها أنَّها في وضع يُرثى له وبأنَّها مخرَّبة بشكل كلِّيٍّ، فحاكمها أبيوس كلوديوس بولشر Appius Claudius Pulcher بين سنوات ٥٣ - ٥١ ق.م وشقيقه كلوديوس Clodius كانا مشهورين بطمعهما الذي استزف القرويين وأرهقهم، حتى أنَّ شيشرون يصف الحالة المخزية للولاية عند زيارته لها للمرة الأولى؛ بأنَّه لا يسمع فيها إلاَّ من يئن ويرثي لحاله من سكانها، حداً وصل بالقرويين فيها إلى أنَّهم ملوا من الحياة، إذ كان عليهم أن يبيعوا كامل محصولهم حتى يتمكَّنوا من دفع الضريبة النقديَّة الابتزازيَّة التي فرضها أبيوس عليهم، وإلاَّ كانوا سيتعرَّضون للاستعباد.

[1]- Arno, C. I., How Romans Became “Roman”: Creating Identity in an Expanding World., A dissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy (Greek and Roman History) in The University of Michigan 2012, p.27.

[2]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.244

[3]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.244.

لقد تعرض أبيوس للمحاكمة على سوء تصرُّفاته من قبل دولابيلا Dolabella (صهر شيشرون). لكن بدعم من هورتولوس Hortalus وبومبي Pompey وبروتوس Brutus أصبح الوالي مراقباً للإحصاء والأخلاق العامَّة Censor في روما في سنة ٥٠ ق.م، بمعنى أنَّ عديم الأخلاق في الخارج أصبح رقيباً على الأخلاق العامَّة في العاصمة. في الواقع، لم يكن هناك أيُّ ضوابط في السياسة الرومانيَّة لابتزاز الولاة للولايات التي كُلِّفوا بإدارتها، ما عدا في الحالات الشنيعة جداً التي افتضح أمرها، وما كان يشجعه أنَّ ذلك الابتزاز ما كان ليؤثِّر سلباً على مستقبلهم السياسيّ[١]، عموماً، لقد صار الابتزاز والاختلاس أمراً مألوفاً في الموروث الثقافيِّ الرومانيِّ منذ سنة ٥٤ ق.م[٢].

وقد أخذ **الفاسدون من رجال السياسة يعملون بالتجارة**، كما أخذوا يعملون بالربا،، ومنحوا القروض في كلِّ مكان بفوائد عالية جداً، ولم يتأخَّروا عن تسليط جنود الجيش على المتأخِّرين عن الدفع، وأفضل مثال يمكن أن نتحدث عنه هنا هو بروتوس M. Junius Brutus صديق شيشرون وقاتل قيصر (في ما بعد) فقد رافق عمه كاتو إلى جزيرة قبرص في سنة ٥٨ ق.م عندما كُلِف الأخير بضم الجزيرة إلى الدولة الرومانيَّة وترتيب أوضاعها، بعد هذا في سنة ٥٦ ق.م أقرض بروتوس مبلغاً ماليَّاً كبيراً إلى مدينة سلاميس Salamis بفائدة كبيرة تصل إلى نسبة ٤٨ ٪ رغم أنَّ ذلك العمل مخالف للسياسة والقانون الرومانيِّ (قانون جابينيا lex Gabinia) الذي منع إقراض المال إلى القرويين في الولايات التابعة لروما بفائدة تزيد عن الحدِّ المعروف، لكن مجلس الشيوخ منح استثناء بالسماح للقرض لكي يصادق عليه رغم أنَّ سعر الفائدة الطبيعيِّ في العالم القديم كان لا يتعدَّى ١٢ ٪ سنويا؛ أي ١ ٪ في الشهر. لقد كان بروتوس يستخدم في سنة ٥١ ق.م اثنين من الوكلاء هما سكابيتوس Scaptius وماتينيوس Matinius ليتمكَّن من ابتزاز سكان سلاميس. وكان سكابتيوس قد رُفِّع إلى مرتبة قائد سلاح الفرسان من قبل أبيوس، لتمكينه من الاستقواء في سبيل ابتزاز المال من الناس لصالح بروتوس، وقد استخدم سكابيتوس مع سكان سلاميس مختلف الأساليب البشعة والترهيبيَّة لإجبارهم على الدفع، حتى أنَّه أمر قوَّاته بحبس أعضاء مجلس شيوخ

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.246.

[2]- Lisa Hill., Op. Cit., 2013, p.576

هذه المدينة في مقرِّ مجلسهم ليجبرهم على الدفع، ما تسبَّب في موت خمسة منهم جوعاً. والأسوأ من ذلك، أنَّ شيشرون عندما سأل بروتوس عن حقيقة الأموال التي أقرضها للناس بتلك الأرباح الفاحشة، كذب عليه وقال له إنَّها أموال أصدقائه استدانها منهم وأقرضها لسكان سلاميس، وعندما اكتشف شيشرون كذبه، بعدما اطَّلع على إحدى الرسائل المرسلة منه إلى سكابيتوس، قام على الفور بعزل سكابيتوس من منصبه كقائد لسلاح الفرسان، لكنه لم يتَّخذ أيَّ إجراء لمحاسبة بروتوس، ورغم تعاطفه الواضح مع سكان الولاية إلاَّ أنَّه لم يقم بأكثر من أن جعل قيمة الفائدة ١٢ [١]٪.

في الواقع، كانت سياسة الدولة الرومانيَّة تجاه الولايات التابعة لها قائمة أساساً على مبدأ نهبها بلا رحمة، وقد تجلَّى هذا المبدأ في أخذ غلال تلك الولايات من دون دفع الثمن، فعلى سبيل المثال ضجَّ سكان إسبانيا بالشكوى ضدَّ فساد أجهزة الدولة الرومانيَّة في بلادهم، بسبب التقديرات الاعتباطيَّة للأجور وأسعار الحبوب من قبل الوالي الرومانيِّ، ما دفع مجلس الشيوخ إلى إصدار مرسوم يحرِّم ذلك، كما منع ذلك المرسوم سكَّان اسبانيا من دفع غرامة قدرها ٥ ٪ من قيمة الأجور إلى الوالي. وإسبانيا لم تكن الولاية الوحيدة التي احتجَّت، فليس بعيداً عنها في جهة الشمال، كان الجنود الرومان يتسلُّمون الغلال من البريطانيين في مناطق بعيدة عن مزارعهم وحقولهم، بالسعر الذي يحدِّدونه بأنفسهم، ثم يلزمونهم بدفع مبالغ كبيرة ثمن الأمان الذي وفَّروه لهم على طول طريق نقل غلالهم[٢].

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.246.

[2]- Rotaru, C., Op. Cit., 2016, p.245.

خاتمة

بعد هذه الدراسة المستفيضة للسياسة والأخلاق الرومانيَّة الفاسدة، نخلص إلى مجموعة من النتائج، نفصِّلها على الشكل التالي:

- **النتيجة الأولى:** كان نظام الحكم الرومانيُّ نظاماً طبقيّاً يعبِّر عن مصالح فئة قليلة من السكان، تتحكَّم بمقدرات البلاد، وترسم سياستها من دون النظر إلى حاجات أفراد المجتمع من مختلف الطبقات، بينما لم تكن الجمعيَّة الشعبيَّة إلاَّ المظهر الزائف للديمقراطيَّة عند الرومان.

- **النتيجة الثانية:** هي أنَّ الكبت الذي مارسه أفراد هذه الطغمة المارقة التحريفيَّة على أفراد المجتمع، ساهم في جمود العقليَّة الرومانيَّة، وبالتالي تأخُّر الأدب والشعر والمسرح في روما، وهذا التأخُّر في الحقل الفكريِّ أسهم في حرمان الشعب من قوة الخيال، الأمر الذي أنتج سياسة ملتوية.

- **النتيجة الثالثة:** اتَّسمت السياسة الرومانيَّة الخارجية بالعدوان، فكان العنف يولِّد عنفاً، والحرب تقود إلى حرب انقياداً وراء أوهام لا أساس لها من الصحة. فالجميع بنظرهم متآمرون على روما ولتحقيق سلامها يجب شنُّ الحرب عليه وضربهم بشكل مسبق.

- **النتيجة الرابعة:** وهي استشراء الفساد وشيوع الرشوة والابتزاز والاختلاس والسرقة في جميع أجهزة الدولة، من دون خجل، لا بل إن هذا الفساد وصل إلى مجلس الشيوخ الذي كان يمثِّل رأس هرم السلطة في روما.

- **النتيجة الخامسة:** وصل الفساد إلى المؤسَّسة العسكريَّة، حيث سرق الضباط مكافآت جنودهم، وخانوا جيوشهم، وقبلوا الرشوة على حساب مصلحة الوطن العليا.

- **النتيجة السادسة:** وصل الفساد إلى رجال السياسة المكلَّفين بإدارة الولايات التابعة للدولة الرومانيَّة، حيث عانى السكَّان الأمرَّين تحت سلطتهم، بعدما ابتزوهم وفرضوا عليهم الضرائب والإتاوات من دون رحمة.

- **النتيجة السابعة:** فشل جميع محاولات إصلاح جهاز الحكم والإدارة في الدولة،

والدليل على ذلك هو سلسلة القوانين والقرارات التي كانت تصدر من دون فائدة، فلو أنَّ الفساد توقَّف لما كان هناك داعٍ لاستمرار صدور هذه القرارات.

- **النتيجة الثامنة:** درجة الانحطاط الأخلاقي التي وصل إليها الرومان، كانعكاس للانحطاط السياسيِّ الذي أخذت تعاني منه الجمهوريَّة في القرنين الأخيرين من حكمها.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع العربيَّة

١) إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني ١٣٣- ٤٤ ق.م، ج٢، منشورات الجامعة الليبيَّة- كليَّة الآداب، طرابلس ١٩٧٣م.

٢) أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيَّة، دمشق ١٩٩٧م.

٣) أحمد الشنتناوي، عادات الزواج وشعائره، سلسلة أقرأ ١٦٩، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤) أحمد عتمان، يوليوس قيصر السعي وراء السلطة، مجلة عالم الفكر، مج ١٦، عدد ٢، الكويت ١٩٨٥م.

٥) أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وأمبراطوريَّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م

٦) بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج٢، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م.

٧) الحسيني معدِّي، يوليوس قيصر، حياة أسطوريَّة ونهاية مأساويَّة، دار الكتاب العربي، القاهرة ٢٠١٢م.

٨) سالوست، الحروب اليوغراطيَّة، ترجمة محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا ٢٠٠٧م.

٩) عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م.

١٠) عبد الله السليمان، مجلس الشيوخ الروماني، مجلَّة «المعرفة» الصادرة عن وزارة الثقافة السوريَّة، العدد ٦٥٣، دمشق ٢٠١٨م

١١) عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري

والديني والسياسي والعسكري، تقديم وتحقيق حسان حلاق، دار النهضة العربيَّة، بيروت ٢٠١١م.

١٢) محمد السيد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، ج١، جامعة الإسكندريَّة ٢٠٠٦م.

١٣) محمد محفل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان، مطبعة غندور، بيروت ١٩٧٤م.

١٤) محمود سلام زناتي، المرأة عند الرومان، دار الجامعات المصريَّة للطباعة والنشر، الإسكندريَّة ١٩٥٨م.

١٥) مصطفى العبادي، مذكَّرات في التاريخ الروماني، جامعة بيروت العربيَّة، بيروت د.ت.

١٦) نور الدين حاطوم وآخرون، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م.

١٧) وفاء الساعدي، النتائج السياسيَّة للتوسُّع الروماني في شرق البحر المتوسِّط ١٤٦- ٢٧ ق.م، مجلَّة «بحوث الشرق الأوسط»، العدد الثامن والثلاثون.

١٨) هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيَّة، الجمهوريَّة، الأمبراطوريَّة حتى عهد الأمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م.

المراجع الأجنبيَّة:

1. Arno, C. I., How Romans Became “Roman”: Creating Identity in an Expanding World., A dissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy (Greek and Roman History) in The University of Michigan 2012.

2. Boak, A, E, R., Book of A History of Rome to 565 A. D., New York 1921.

3. Dillon, M., & Garland, L., The Ancient Romans; History and Society

from the Early Republic to the Death of Augustus., published by Routledge., New York 2021.

4. Galito, M. S., Ancient Roman Politic - Julius Caesar., Working Paper CEsA CSG 168. 2018

5. Lisa Hill., Conceptions of Political Corruption in Antiquity., History of political thought., Vol. XXXIV. No. 4. Winter 2013.

6. Rotaru, C., A review of corruption based on the social and economic evolution of Ancient Greece and Ancient Rome., Theoretical and Applied Economics Volume XXIII, No. 2(607), Summer 2016.

العبيد وثوراتهم في العصر الروماني

سبارتاكوس أنموذجًا

محمد مرتضى[١]

مقدّمة

تُعتَبر ظاهرة القمع الدمويِّ من المظاهر المزمنة في التاريخ الرومانيِّ، فالرومان لم يعرفوا الرحمة ولا الاعتدال في التعامل مع الأمور، ولم يشفِ غليلهم من قرطاجة إلاَّ إحراقها، وهدم بيوتها، وصبُّ الملح على ترابها، ولعنة كلَّ من يريد إعادة إعمارها. لكن تلك اللَّعنات سرعان ما حلَّت عليهم حينما ثار ضدَّهم آلاف العبيد الذين سِيقوا إلى روما في أعقاب الحروب البونيَّة.

في البدء، كان هؤلاء العبيد قوَّة الإنتاج الحقيقيَّة في مختلف النشاطات الاقتصاديَّة، ولاسيَّما الزراعة، من دون أن تكون لهم أدنى حقوق. وتمَّ استرقاقهم بطريقة بشعة رغم أنَّهم كانوا سادة أقوامهم وأشرافهم، قبل أن تسوقهم الكتائب الرومانيَّة أسرى إلى معسكرات الاستعباد. لكنْ، ما هي إلاَّ سنوات حتى ثاروا وتكرَّرت ثوراتهم، وأشهرها ثورة سبارتاكوس التي هزمت روما مرارًا وتكرارًا، قبل أن تُقمع بقبضة من حديد. وقد سمَّاها الرومان «ثورة العبيد»، بينما سمَّاها العالم «ثورة الأحرار»، وكانت في حقيقة الأمر ثورة المستضعفين للحصول على حريَّتهم، ضدَّ دولة تقوم على استعباد الناس. ولا ريب في أنَّ هذه الثورة التي ضمَّت في صفوفها مختلف الأقوام والأعراق، صارت رمزًا في التاريخ القديم، بينما بقيت آلة الحرب والعدوان الرومانيَّة رمزًا للظُّلم، والجبروت، والاستكبار، والعدوان، واستغلال الآخرين، ونهب ثرواتهم.

---

[١]- باحث وأكاديمي لبناني.

أوَّلًا: الواقع المأساويُّ لعبيد روما: الأسباب البعيدة للثورة

رغم الخدمات الجليلة التي كان يقدِّمها العبيد للأسَر الرومانيَّة، سواء منها الريفيَّة أم المدنيَّة، إلَّا أنها لم تعتبرهم جزءًا من مجتمعها، بكلِّ ما لهذه الكلمة من معنى، فوفقًا لأحكام القانون ووجهة النظر الشائعة بين الرومان، لم يكن للعبيد شخصيَّة معنويَّة لأنَّهم لا يُعتبرون أشخاصًا وإنَّما متاعًا؛ كلُّ أمرهم رهنٌ بمن يملكهم. وكان أعداد كبيرة منهم تعيش في الريف؛ لاستثمار أرض الأسياد من كبار مُلَّاك الأراضي. وقد ظلُّوا يؤلِّفون الغالبيَّة العظمى من اليد العاملة في الريف حتى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، لكن بالمجمل يمكن اعتبار القرن الثاني قبل الميلاد هو القرن الأسوأ لحياتهم في تاريخ الجمهوريَّة الرومانيَّة، حيث كان كاتو الكبير(Cato) لا يزال على قيد الحياة، ويرى أنَّ إرهاق العبيد في العمل حتى إبادتهم وشراء غيرهم هو أفضل من الترفُّق بهم[١].

في الواقع، لم تكن حياة العبيد في الزراعة والأعمال الأخرى، أرقى من حياة البهائم، لقد كانوا يُكوَون بمياسم مُحمَّاة بالنار، فيبقى الوسم علامة أبديَّة يُعرَفون من خلالها. وكان سادتهم يضعونهم ليلاً في ثكنات أشبه ما تكون بإصطبلات الحيوانات، وفي النهار يُساقون إلى الحقل كدواب الحمل ليعملوا فيها، لذلك عملوا في ظروف صعبة وسيئة[٢]. هذا في الريف، أمَّا في المدينة فقد اكتظت مدن الجمهورية بالعبيد؛ حتى أنَّ روما لوحدها كان يقطنها ربع مليون عبد، ولم يكن عملهم في المدن مقصورًا على أداء الخدمات المنزليَّة الوضيعة؛ مثل التنظيف، وغسل الملابس، وطهي الطعام، وخدمة الموائد، فمنهم من كانوا يُستخدمون رسلاً أو رفاقًا في السفر، والمتعلِّمون كانوا يُستخدمون أمناء سر، ونسَّاخًا، وكتَّابًا، وأمناء مكتبات، ومعلِّمين، وأطبَّاء لأبناء الأسرة. وكان الأثرياء الذين يملكون قصورًا فسيحة يستخدمونهم في إنتاج أكثر حاجاتهم ليكونوا إلى حدٍّ كبير في غنى عن شراء لوازمهم، وكان بعض الرأسماليين يستخدمون عبيدهم في مصانع لعمل الآجر أو الأواني الفخَّاريَّة أو الأدوات المعدنيَّة أو غير ذلك. وفي ظلِّ هذا الوضع كانت فرصة عبيد الريف لشراء حريَّتهم

[١]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني ١٣٣- ٤٤ ق.م، ج٢، منشورات الجامعة الليبيَّة كليَّة الآداب، طرابلس ١٩٧٣م، ص٧٤٦.

[٢]- عبد المجيد حمدان، العبيد عند الرومان خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، مجلَّة «دراسات تاريخيَّة» العددان ١١٧- ١١٨، دمشق ٢٠١٢م، ص٦٦، ٦٧.

نادرة، بل كادت تكون معدومة، بينما كانت فرص عبيد المدينة أفضل من ذلك بكثير[١].

كان عبيد روما، على ضخامة أعدادهم، من دون أهميَّة إنسانيَّة، فعُوملوا معاملة سيِّئة وذُبحوا بكل الأشكال المعتادة، من التعذيب الجسديِّ حتى الموت العنيف، ولم يفكِّر أحد من مثقَّفيها في ظروفهم أو وضعهم[٢]. ويمكننا أن نلمس سوء المعاملة إذا علمنا أنَّ أحد سادة الرومان كان يصرُّ على أن يقف خدمُه حول المائدة صامتين، حتَّى أنَّه كان يعاقب كلَّ من يعطس منهم بالجَلْد[٣]. وجلْد العبد في روما كان يتمُّ بـ«السوط المخيف»، وهو سوط أضيفت إليه قطع من الحديد. كذلك كانت هناك طرق أخرى للتعذيب، منها أنَّ عبدًا صُلِب لأنَّه سرق لقمة طعام أراد أن يسدَّ بها جوعه[٤].

ثانيًا: المجالدون: الأسباب القريبة للثَّورة

كانت عروض المصارعة في روما تُقام أصلاً في مناسبة تشييع جنازة أحد العظماء، وأول مباراة أقيمت فيها كانت، بحسب الوثائق التاريخيَّة، سنة ٢٤٦ ق.م، عندما تنافس ستة مجالدين، أي ثلاثة أزواج من المصارعين. بيد أنَّه على مرِّ الزمان لم تعُد إقامة مباريات المجالدين مقصورة على مناسبات تشييع الجنازات، وأصبحت أمرًا مألوفًا أن يشترك فيها مئة زوج من المجالدين، بل إنَّه في حفل الألعاب الذي أقامه يوليوس قيصر Julius Caesar في روما، الذي كان الأيديل Aedilis بمعنى **الحاكم الإداريِّ** في سنة ٦٥ ق.م، اشترك ٣٢٠ زوجًا من المجالدين، ممَّا يدلُّ على مدى ما وصل إليه شغف الرومان بهذا الَّلون من ألوان الترفيه، ومثل هذا الاستمتاع بمشاهدة مبارزين يشوِّهون ويقتلون بعضهم بعضًا، وهو يعرض لنا جانبًا خطير العواقب من جوانب التعفُّن الأخلاقيِّ الذي تفشَّى بين الرومان[٥].

«قل لي ما هوايتك أقُل لك من أنت»، هي عبارة من المأثور الثقافيِّ للرومان، وهي خير ما يمكن أن يعبرِّ عن ثقافتهم، حيث تظهر وحشيَّتهم في الكتابات الكثيرة جدًّا عن التسالي

[١]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٧٤٧.

[٢]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيَّة، دمشق ١٩٩٧م، ص١٦٥.

[٣]- عبد المجيد حمدان، العبيد عند الرومان مصدر سابق، ص٦٦، ٦٧.

[٤]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص١٦٥.

[٥]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٣.

المحبَّبة لهم في روما، ومنها صيد الوحوش البريَّة، حيث كان الصيد يتمُّ في المُجتَلد (المكان المخصَّص للصِّراع حتى الموت)، والمعارك البحريَّة التي كان إخراجها يعني أن يغرق السيرك عن طريق الأقنية الخفيَّة في المسرح، لكن أعظم ما كان يحبه الرومان هم المجالدون الذين يتصارعون حتى الموت، ولشدة دمويتهم كان يمتلئ المسرح بالمتفرجين[١]، الذين يتهافتون لمشاهدة المصارعة الوحشية بين مجالدين بكامل عتادهم الحربي، وكلُّ مبارز يرتدي خوذة ذات حافة أماميَّة، ويحمل درعًا وسيفًا قصيراً، وفي حالات أخرى كان يحمل درعًا مستديرًا وسيفًا وقوسًا، وفي حالات غيرها كانت عدَّته لا تزيد عن شبكة ورمح ذي ثلاث شعب[٢].

وتشير الوثائق التاريخيَّة إلى أنَّ سكَّان روما كانوا يهرعون إلى هناك لمشاهدة الكائنات البشريَّة بالعشرات والمئات يقتل واحدهم الآخر[٣]، حيث كان مصير المنهزم عادة هو أن يقتله قاهرُه، وكان ينجو بحياته أحيانًا من أجاد النزال،، واكتسب إعجاب جمهور الحاضرين فلوَّحوا بمناديلهم إظهارًا لعطفهم عليه[٤]. لكن في الغالب، كان هؤلاء يرفعون للمنتصر إشارة الموت، ويراقبون بكلِّ متعة الخنجر المرفوع وهو يهوي على جسد المنهزم الهامد بلا مقاومة، فينبجس الدم فورًا. وتلك كانت أعظم مسرَّة على قلب روما، وتلك كانت مساهمتها الوحيدة في الرياضة العالميَّة[٥].

وليس غريبًا أنَّ الجماهير الرومانيَّة التي كانت تشاهد العرض لم تكن تبدي أيَّ شفقة على من يسقط صريعًا، لا بل كانت تشعر باستحقار للمجالد الذي طلب الرحمة، أو أبدى الألم، أو جفل من ضربة السيف النهائيَّة، فهذه المثُل الوحشيَّة كانت حصيلة تدريب وممارسة وعادة[٦]. وما من حساب يقدِّر عدد الكائنات البشريَّة التي لاقت حتفها بهذه الطريقة، فالمخزون من أسرى الحرب لا يفي بمطالب التسلية، والرجال الذين حُكِموا

[١]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص١٧٢.

[٢]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٤.

[٣]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص١٧٢.

[٤]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٤.

[٥]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص١٧٢.

[6]- Dillon, M., & Garland, L., The Ancient Romans; History and Society from the Early Republic to the Death of Augustus., published by Routledge., New York 2021, p.81

بالإعدام يرسلون لملء مدارس المجالدين، وكان الأسياد يبيعون عبيدهم لهذه المدارس، لا بل كان هناك متطوعون رومان أيضًا طمعًا بالمال. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ العبقريَّة الرومانيَّة في ابتكاراها طرقًا جديدة مختلفة للذبح، قد استهلكت -أخيراً- كلَّ ما بقي لديها في سبيل أرضاء المشاهدين وذلك بزيادة عدد المذبوحين فقط.

إذا انتقلنا من التأمُّل في الأسلوب الذي اتَّخذه الرومان للتسلية، إلى التفكير بما فعلوه حقًّا بالعالم، سنجد واقعًا مروِّعًا أيضًا، فهم سحقوا كلَّ الأمم بظلم لا يعرف الشفقة، وقتلوا وذبحوا كثيراً برغبة وحشيَّة جارفة لإراقة الدماء[١]. لا بل إن هذا الأسلوب الدمويَّ انعكس على الواقع الداخليِّ لروما؛ فكان من شأن موافقة أعداد كبيرة من الرومان على هذه الأعمال الإجراميَّة وتعوُّدهم على رؤيتها، أن امتدَّ ارتكاب مثل هذه الأعمال من المُجتلَد إلى الحياة العامَّة، وأصبح أمرًا مألوفًا كلَّما احتدم الصراع السياسيُّ على نحو ما سنرى[٢].

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ هؤلاء المجالدين -بحكم اتقانهم لفنون القتال- استُخدِموا في تشكيل عصابات خارجة عن القانون، من قبل السياسيين الطامحين، وتمَّ توظيفهم في حرب الشوارع أيام الاضطرابات العامَّة في الدولة، لاسيَّما في الحرب الأهليَّة. فعلى سبيل المثال، دعم بومبي Pompey التريبون تيتيوس آنيوس ميلو Annius Milo، وكان مشهوراً بالعنف، وقام بتكوين عصابات من المجالدين لتكون في خدمة أغراضه السياسيَّة[٣]، وعندما تأزَّم الوضع السياسيُّ في روما واحتقن بين قيصر وبومبي، وقع اشتباك دمويٌّ عنيف على طريق أبيان Appian سنة ٥٢ ق.م، بين عصابات ميلو وعصابات كلوديوس Clodius المسلَّحة[٤]، وكان برفقة الأول عبيدٌ مسلَّحون، بينما كان الثاني برفقة المجالدين، وكان من بينهم مجالدان مشهوران هما إيداموس Eudamus وبيريا Birria. وقد قُتل كلوديوس الذي كان مرشَّح الحزب الشعبيِّ للقنصليَّة في هذا الاشتباك الأمر الذي أدَّى إلى حدوث

[١]- أديث هاملتون، الأسلوب الروماني، مصدر سابق، ص١٧٣، ١٧٤.

[٢]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٤.

[٣]- أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى في بلاد الرومان دراسة تاريخيَّة، رسالة معدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بغداد ٢٠١٥م، ص٨٨.

[٤]- محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، المرحلة الثالثة، الصراع بين بومبي وقيصر حتى الحرب الأهليَّة ٧٩- ٥٠ ق.م، مجلَّة «عالم الفكر»، مج ١٢، العدد ٣، الكويت ص١٢٧.

اضطرابات شعبيَّة في المدينة. عمومًا، كان مجلس الشيوخ ينظر إلى المجالدين على أنَّهم خطر يهدِّد الاستقرار السياسيَّ، حتى أنَّ مجلس الشيوخ أمر خلال مؤامرة كتالينا Catiline بإبعاد جميع المجالدين من روما إلى مدينة كابو[١].

ثالثًا: ثورات العبيد التي سبقت ثورة سبارتاكوس: البيئة الحاضنة

كان عبيد الحروب يُسخَّرون في أعمال المناجم والمقالع، وفي استصلاح الأراضي الزراعيَّة واستثمارها وما أشبه ذلك من الأعمال الشاقة، وكانوا يُسامون سوء العذاب، ويلقون كثيراً من الظلم والهوان[٢]. وبسبب هذا الظلم، والوحشيَّة التي عومل بها العبيد، تحوَّل التاريخ الرومانيُّ إلى مسرح لثورات داميَّة وانتفاضات اندلعت في أنحاء مختلفة من إيطاليا مع بداية القرن الثاني قبل الميلاد، مطالبة بالحريَّة الاجتماعيَّة، واشترك فيها آلاف العبيد بحركة اتَّخذت طابع التمرُّد المحليِّ. ويمكن ذكر أبرزها على الشكل التالي:

- الانتفاضة الأولى اندلعت سنة ١٩٨ ق.م في مستعمرة سيتيا Setia باللاَّتيوم، وكانت هذه المستعمرة الرومانيَّة مركزاً للأسرى القرطاجيين من الأُسر النبيلة والحاكمة، وكان الرومان يسومونهم فيها سوء العذاب حيث يحجزونهم ليلاً في ثكنات أشبه ما تكون بإصطبلات، وفي النهار يسوقونهم إلى الحقل كدواب الحمل، ليعملوا فيها، لذلك حاولوا الثورة والتمرُّد، لكن محاولتهم باءت بالفشل بسبب الخونة الذين وشوا بهم إلى سلطات العاصمة.

- الانتفاضة الثانية كانت أضخم من الأولى، وحصلت في سنة ١٩٦ ق.م في إقليم أتروريا Etruria شمال إيطاليا، وكان سببها تسلُّط أحد المُلاَّك الكبار في الريف، واضطهاده لعبيده، وقد ولَّد هذا الظلم لديهم شعوراً بالحقد عليه، فثاروا ضدَّه، ونجحوا في تشكيل جيش حقيقيٍّ، إلاَّ أنَّ القادة الرومان نجحوا في هزيمتهم في معركة نظاميَّة، فقتلوا أغلبهم، وصلبوا قادتهم، وسجنوا آخرين، بينما أُعيد البعض الآخر إلى سيِّدهم بشروط أسوأ[٣].

- الانتفاضة الثالثة هي انتفاضة رعاة أبوليا Apulia التي حدثت في سنة ١٨٥ ق.م،

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.81.

[٢]- عبد السلام الترمانيني، الرقُّ ماضيه وحاضره، مجلَّة «»عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٢٣، الكويت ١٩٧٩م، ص٦٧.

[٣]- عبد المجيد حمدان، العبيد عند الرومان، مصدر سابق، ص٦٧، ٦٨.

وأخذت طابع الصعلكة، حيث كان روَّادها يهاجمون الطرقات والمراعي، لكن الحاكم الرومانيَّ نجح في القضاء على انتفاضتهم، وأعدم بوستوميوس L. Postumius منهم نحو ٧٠٠٠ راعٍ متمرد، وهرب بعضهم، بينما قتل الآخرون في التعذيب.

- حرب العبيد الأولى في صقلية بدأت في سنة ١٣١ ق.م عندما انتهزوا انشغال الجيوش الرومانية بصدِّ هجمات القبائل، فثاروا واحتلُّوا أكثر مدن الجزيرة، وانضم إليهم الفقراء والصعاليك، فأرسلت الدولة أربعة جيوش لقمع ثورتهم فدمَّروها واحدًا تلو آخر، وظلَّت صقلية في أيديهم بضع سنين،، ولكن روما تمكَّنت بعد ذلك من التغلُّب عليهم، فقمعت ثورتهم، وقتلت منهم عشرين ألفا[١]. ومن المهمِّ القول أنَّ ثورات العبيد، في بداية القرن الثاني قبل الميلاد، أثَّرت على أقاليم عدَّة في إيطاليا، لكنَّها أصبحت منذ النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد أكثر جرأة وتلازماً، ورغم محافظتها على طابعها المحليِّ، إلَّا أنَّها صارت تشمل ولايات بكاملها كما في صقلية. وإن كانت روما قد نجحت في قمع جميع هذه الثورات، إلَّا أنَّ ازدياد عدد العبيد باطِّراد، واستمرار وضعهم السيِّىء، وخصوصًا العبيد الذين يعملون بالزراعة، كان عاملاً محرِّضًا على استمرار نشوب هذه الثورات في مناطق مختلفة من الدولة الرومانيَّة، وإن كان العبيد الرعاة في صقلية أشدَّ خطرًا من غيرهم بحكم طبيعة عملهم التي منحتهم حريَّة التنقُّل من مكان إلى آخر، ممَّا كان يجعل الرقابة عليهم أكثر صعوبة منها على غيرهم. لذلك كانت لديهم أفضل الفرص لتدبير الثورات[٢].

- أمَّا الثورة الأهمُّ من بين جميع هذه الثورات على الإطلاق فكانت **ثورة سبارتاكوس Spartacus** حيث كان لها أصداؤها العلميَّة والشعبيَّة، وذلك لكثرة عدد المشتركين فيها، وغالبيَّتهم من المجالدين، ولفظاعة عمليَّات الصلب الجماعيَّة الرهيبة التي لقوها بعد القضاء على ثورتهم، والاهتمامات التي أثارتها تلك الثورة عند المؤرِّخين الماركسيين، حيث عالجوها بعمق عند معالجتهم للعبوديَّة القديمة[٣].

---

[١]- عبد السلام الترمانيني، الرقُّ ماضيه وحاضره، مصدر سابق، ص٦٧، ٦٨.

[٢]- عبد المجيد حمدان، العبيد عند الرومان، مصدر سابق، ص٦٧، ٦٨.

[3]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.278.

رابعًا: ثورة سبارتاكوس: الوقائع

بما أن العبيد جميعًا كانوا معرَّضين للتعذيب، وحياتهم صعبة جدًا، ومصيرهم هو الهلاك موتًا، إمَّا عاجلاً أو آجلاً، ولم يكن لهم أمل في الخلاص من وضعهم هذا إلَّا بالثورة، لذا كانت كفكرة مقبولة جدًّا بالنسبة إليهم، ولم يكن ينقصهم إلَّا زعيم يشكل لهم جيشًا منهم ويقودهم[١]. وسرعان ما انطلقت الثورة من مدينة كابو. فقد كان لهذه المدينة خصوصيَّتها؛ حيث كانت توجد فيها مدارس لتدريب المجالدين Ecoles des gladiateurs على ألعاب المجالدة ومصارعة الوحوش، على أيدي مدرِّبين محترفين، كانوا إما أصحاب هذه المدارس، أو يعملون لحساب الحكومة أو بعض الأفراد، وكانت مدرستها من أشهر مدارس المجالدين في الدولة الرومانيَّة[٢]. في تلك المدرسة برز مدرب اسمه لنتولوس باتياتوس Lentulus Batiatus، كان يملك عددًا كبيراً من هؤلاء المجالدين؛ معظمهم من الغاليين Gaul والتراقيين Thrace، وقد امتاز بطبعه القاسي لدرجة أنَّه كان يضع عبيده في ما يشبه السجن الانفراديِّ، من دون ذنب أو جريرة ارتكبوها، ويخرجهم لقتال بعضهم بعضًا في عروض المصارعة كسبًا للمال[٣]. وهو كان ينشر عملاءه في أرجاء العالم ليشتروا له العبيد المميزين، والذين يتمرَّدون على سادتهم، ومن المرجَّح أنَّه بهذه الطريقة قد اشترى كلًّا من سبارتاكوس (١١١- ٧١ ق.م)، وتراقي آخر يدعى جانيكوس، أتى بهما العملاء وهما ملتحيان وتغطِّي القروح وآثار السياط جسديهما من القدم إلى الرأس.

لقد كان باتياتوس يمتلك مجتلدًا صغيراً لإقامة عرض صغير أو لقتال بين زوج من المصارعين، ومسرح كبير فيه مدرَّجات حجريَّة وصلت تكلفته إلى مليون ستريتون[٤]. وإزاء هذا الواقع، ضجر هؤلاء الأرقَّاء المجالدون، وبرموا بحياتهم التي يتربَّص بها موت مرير محتوم[٥]، فقرَّروا أن يخوضوا الخطر في سبيل الحريَّة، معتبرين أنَّ ذلك خير لهم من

[١]- عبد المجيد حمدان، العبيد عند الرومان، مصدر سابق، ص٦٨.

[٢]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٤.

[٣]- بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج٢، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م، ص١٠٤٧.

[٤]- علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة خلال العهد الجمهوريِّ (١٣٣ – ٢٧ ق.م) رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بنغازي، ليبيا ٢٠١٢م، ص٧٨، ٧٩.

[٥]- عبد السلام الترمانيني، الرقُّ ماضيه وحاضره، مصدر سابق، ص٦٨.

أن يخسروها في العروض الجنائزيَّة والمسابقات القتاليَّة أمام الجمهور الرومانيِّ من أجل تسليته[١].

ذات يوم من أيام تلك السنة، اجتمع سبعون مجالدًا وهم مسلَّحون بالسيوف والخناجر التي كانت تُستعمل لتدريبهم، واقتحموا أبواب المدرسة، وتمكَّنوا من الفرار[٢]، والتجأوا إلى سفوح جبل فيزوف Vesuvius القريب من المدينة، وهناك انتخبوا ثلاثة لقيادتهم، هما الغاليَّان جالوس كريكسوس Crixus وأوينماوس Oenomaus، وأقاموا على رأسهما سبارتاكوس الذي كان رجلاً حرًّا من تراقيا يعود أصله إلى قبيلة مايدي البدويَّة، تحوَّل إلى حياة العبوديَّة بعدما هرب من الخدمة في الوحدات المساعدة، فقُبض عليه وبِيْع إلى مدرسة المجالدين في كابو -مركز المجالدين الرئيسي في إيطاليا- بعد تجريده من حريَّته[٣].

حرَّضت هذه الثورة عبيد صقلية ورعاة ماشيتها على الانضمام إليها، وانضمَّ أيضًا عبيد هاربون من أنحاء مختلفة ومتفرِّقة، بعدما ضاقوا ذرعًا بحياتهم في الأماكن التي كانوا يعملون فيها، حتى بلغ عددهم سبعين ألفًا. وقد استطاع سبارتاكوس بشجاعة نادرة أن يدحر الجيش الرومانيَّ الذي حُشِد على عجل وأُرسِل للقضاء على الثورة قبل أن يستفحل أمرها، حيث هزم الحملة الأولى التي كانت بقيادة فارينيوس كلابر Varinius Glabar الذي قام بمحاصرته وأنصاره في جبل فيزوف في منطقة شديدة المنحدرات، وسدَّ الطريق الوحيد أمامهم بقوته البالغة ثلاثة آلاف جنديٍّ، على أمل إجبارهم على الاستسلام، فما كان من الثوار إلَّا أن استفادوا من أشجار الكرمة المنتشرة على الجبل، وصنعوا لأنفسهم حبالاً نزلوا بها، وقاموا بالالتفاف على قوات كلابر وإبادتها. أما الحملة الثانية فكانت بقيادة البرايتور بوليبيوس فارينيوس Publius Varinius [٤] وقد تمكَّن سبارتاكوس من هزيمة قائدها أيضًا، واغتنام حصانه، وقتل كلِّ ملازمي جيشه، بعدما فرَّ باقي عناصر الجيش كي لا يقعوا في الأسر[٥].

---

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.278.

[٢]- عبد السلام الترمانيني، الرقُّ ماضيه وحاضره، مصدر سابق، ص٦٨.

[3]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.278.

[٤]- بلوتارخ، ج٢، ص١٠٤٨.

[5]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.278.

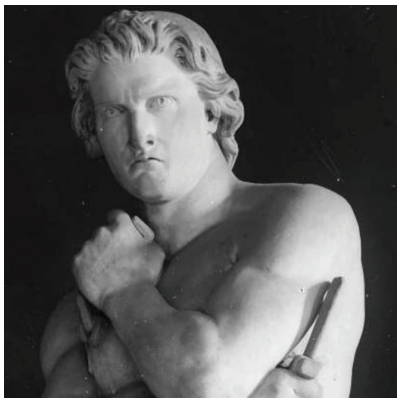

سبارتاكوس

بعد هذه الانتصارات السريعة وأعداد الثوار المتزايدة، بدأ سبارتاكوس بالتوسُّع على حساب الدولة الرومانيَّة، حيث استولى على كامبانيا Campania ولوكانيا Lucania ومعظم أقاليم جنوب إيطاليا، وكانت المدن تسقط بيده مدينة تلو مدينة[١]. إزاء ذلك، لم تعد المسألة بالنسبة إلى مجلس الشيوخ مسألة كرامة أو إهانة، أو حتى مسألة عبيد خرجوا عن القانون، وإنما نظر إلى ما حدث نظرة حافلة بالقلق، واعتبره خطبًا جللاً قد يؤدِّي إلى كارثة، ولذلك قرَّر أن يقوم القنصلان معًا بمعالجة الموقف، وهو قرار لا يتَّخذ إلَّا في حالات الخطر الشديد، أو في حرب عظيمة عسيرة[٢].

ما إن أطلَّت سنة ٧٢ ق.م حتى بلغت الثورة أوج قوَّتها وصار عدد الثوار يتراوح ما بين ٤٠ و ١٢٠ ألف عبد، واستطاع سبارتاكوس الذي كان يخدم في الجيش الرومانيِّ ويعلم أساليبه، أن يجعل من ثوَّاره قوَّة عسكريَّة منافسة لهذا الجيش[٣]. أمَّا الصعوبة الأكبر التي كانت تواجهه فهي كيفيَّة تنظيم ثوَّاره، ولاسيَّما من كانوا من الغال والجرمان، فـهو أدرك جيِّدًا أنَّه ليس بوسع قوَّة -كان أفرادها مستعبَدين حتى وقت قريب- أن تحتفظ طويلاً بسيطرتها على جنوب إيطاليا، لذلك قرَّر الزحف بهم نحو الشمال، قبل أن تلتقط الحكومة الرومانيَّة أنفاسها، وتسيِّر الجيوش الجرارة لمحاربتهم، إلَّا أن كريكسوس وفريقًا من الغال والجرمان

[١]- عبد السلام الترمانيني، الرقُّ ماضيه وحاضره، مصدر سابق، ص٦٨.

[٢]- بلوتارخ، ج٢، ص١٠٤٩.

[3]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.278

رفضوا مغادرة إيطاليا، حيث شرعوا بأعمال السلب والنهب، وأمعنوا في الانتقام من السادة، فعدل عن فكرته مؤقتًا تحت إلحاحهم[١].

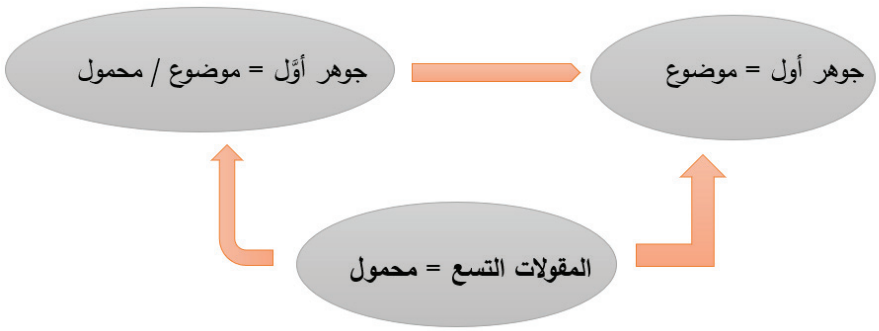

وزَّع سبارتاكوس قوَّاته لملاقاة القنصلين الجديدين اللذين تولَّيا القيادة ضدَّهم في سنة ٧٢ ق.م، وهما جليوس بوبليقولا Gellius Publicola وكورنيليوس لنتولوس كلوديانوس. وقد اصطدم بوبليقولا بـ كريكسوس الذي كان تحت إمرته حوالي ٣٠ ألف مقاتل من العبيد، فمُني الأخير بهزيمة نكراء خلال معركة جرت في إقليم أبوليا بالقرب من جبل جرجانوس Garganus، وخسر حوالي ٢٠ ألف عبد من مقالتيه، كما لقي حتفه.

أمام هذا الواقع الجديد، عاد سبارتاكوس إلى فكرة الزحف نحو الشمال، وأراد أن يجتاز جبال الألب مع ثواره، سعيًا نحو تراقيا، وربمَّا كان يقصد تشتيت زملائه فيهرب كلٌّ منهم إلى موطنه الأصليّ[٢]، فمعظمهم من شمال غرب أوروبا، على عكس عبيد صقليَّة الذين فضَّلوا الاتِّجاه شرقًا بحكم أصولهم الشرقيَّة. وهكذا يظهر جليًّا أنَّ هدف ثورة سبارتاكوس كان الخلاص الفرديَّ، ولم يكن لهم أيُّ نوايا ملكيَّة كما هو الحال في ثورة عبيد صقلية. كما أنَّ ثورته لم تكن بروليتاريَّة تهدف إلى تأسيس نظام جديد، رغم أنَّ المؤرِّخين الماركسيين يؤكِّدون أنَّ هذه الثورة كانت انتفاضة بروليتاريَّة. ومع احترامنا لوجهات نظر جميع المؤرِّخين، ومهما كانت دوافع تلك الثورة، فإنَّها ارتكبت خطأ عظيمًا برفض ثوَّارها الزحف إلى روما، وهو خطأ

[١]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٥.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربيَّة، بيروت ١٩٨٨م، ص١١٦.

وقع فيه هانيبال من قبلهم، فقد كان في العاصمة روما عددًا قليلاً من الجنود، بينما كانت القوات الرومانية الرئيسيَّة تحت قيادة أشهر جنرالات روما تقاتل في إسبانيا ومقدونيا[١].

عندما توجه سبارتكوس إلى الشمال وصولاً إلى قمم جبال الأبنين Apennines تبعه قنصلا روما، وحاولا الإطباق عليه، لكنَّه دحرهما الواحد بعد الآخر، ثم دحرهما مجتمعين[٢]، وألحق بهم هزيمة نكراء في بيسينوم Picenum، واستولى على أثقال جيشهم، وقتل منهم ٣٠٠ أسير فداء لروح كريسكوس. ثمَّ استأنف سعيه نحو جبال الألب Alps، فاعترضه جايوس كاسيوس Cassius الذي كان بروتورا على ولاية غالة القريبة Cisalpine Gaul (الواقعة على نهر البو)، وهاجمه بعشرة آلاف جنديٍّ، فهزمه سبارتاكوس هزيمة نكراء عند موتينا، وكاد يلقي القبض عليه، ولم يستطع أن يخلص نفسه إلَّا بصعوبة بالغة، بعدما خسر عددًا كبيرًا من رجاله[٣]. ورغم أنَّ الطريق صار مفتوحًا أمامهم إلى بلاد الغال، لم يُقدِم الثوار على ذلك، بل عادوا أدراجهم جنوبًا، ولعلَّ النجاح الذي صادفهم قد ساعدهم على إقناع سبارتاكوس بالذهاب إلى صقلية، حيث يوجد آلاف العبيد المتذمِّرين، الذين كانوا على أتمِّ استعداد للانضمام إليهم، وبذلك يتحرَّر هؤلاء العبيد، ويتوافر للثوار من الثروة والموارد ما يمكِّنهم من الاحتفاظ بصقلية والاستمتاع بخيراتها[٤].

هكذا عاد العبيد الثوَّار إلى الجنوب مخرِّبين في طريقهم كل الأراضي التي مرُّوا بها، ولما كان سبارتاكوس لا يجرؤ على مهاجمة روما، بحجَّة أنَّ قوَّاته ما كانت مسلَّحة بشكل جيِّد، فقد عاد هو أيضًا إلى الجنوب، وتمكَّن رغم ذلك من تهديد روما وتحدِّي قنصليها، واحتلال الجبال المحيطة بمدينة ثوري Thuri، ثم احتل المدينة نفسها في أواخر سنة ٧٢ ق.م، وقام بغارات عدَّة، وهزم الرومان في أكثر من اشتباك، وغنم منهم الكثير من الغنائم والسلاح[٥].

لمَّا بلغت أنباء هذه الهزائم مجلس الشيوخ الرومانيَّ، ثار ساخطًا على القنصلين، وأصدر

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.278

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١١٦.

[٣]- بلوتارخ، ج٢، ص١٠٤٩.

[٤]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٥، ٣٩٦.

[٥]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١١٦.

قراراه الأخير proconsular imperium لهما بعدم التدخُّل في الأمر، وتمَّ اختيار ماركوس كراسوس Marcus Crassus للقيادة العامَّة، وتطوَّع كثير من الأشراف لمرافقته إلى الحرب، بعضهم رعاية للصداقة التي تربطهم به، وبعضهم طلبًا للمجد والشهرة[١]، وهو كان أحد ضبَّاط سولا القدامى، وتمَّ منحه بصفة استثنائيَّة سلطةً بروقنصليَّة للقضاء على الثورة، وهكذا اقتضت الظروف وجود قنصل بديل يتولَّى قيادة جيش في إيطاليا نفسها، وهو ما كان سولا يسعى لتلافيه بأيِّ ثمن[٢].

وقف كراسوس على رأس ست فرق عسكريَّة رومانيَّة، وضمَّ إليه فلول أربع فرق عسكريَّة هي قوَّات القنصلين السابقين، وقام بخطوات عاجلة لمنع تقدُّم قوات سبارتاكوس نحو الجنوب[٣]، حيث اتَّخذ لجيشه مواقع على حدود بيكنوم Picenum، متوقِّعًا قدوم سبارتاكوس من هذا السبيل، وجرَّد فرقتين بقيادة مساعده موميوس للقيام بحركة التفاف واسعة الغرض منها رصد تحرُّكات العدو ومراقبته، وأوصاه بتحاشي الاشتباك معه في معركة أو مناوشته إلَّا أنَّ موميوس ألقى بالأمر والتحذير جانبًا، واشتبك مع سبارتاكوس في أول فرصة سنحت له، فاندحر، ووقع عدد كبير من القتلى في صفوفه، وتعذَّر على البقية النجاة إلَّا بإلقاء أسلحتهم. في ضوء ذلك، نال موميوس من رئيسه تأنيبًا شديدًا، ثمَّ صرف لرجاله أسلحة جديدة عوض تلك التي تركوها، وجعلهم يؤمِّنون ضمانًا ماليًّا على أسلحتهم الجديدة، لئلَّا تسوِّل لهم أنفسهم أن يتركوها مرة أخرى، وبعد هذا جاء بالخمسمائة الذين كانوا أول الهاربين، وأجرى القرعة بين كل عشرة، فأخرج واحدًا نفَّذ فيه حكم الإعدام، وبذلك أحيا العقوبة الرومانيَّة القديمة التي تُعرف بالتعشير، وفيها يلقى المحكوم ألوانًا من الخزي والعار، وما يحفُّ بها من إجراءات رهيبة أمام الجيش كلِّه، وعلى مرأى من أفراده الذين يؤمرون بالتجمع لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام[٤].

ولما كان سبارتاكوس بحاجة إلى السفن لتنقله إلى صقلية، فقد راودته فكرة أن يستأجر

---

[١]- بلوتارخ، ج٢، ص١٠٤٩.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١١٧.

[٣]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٦.

[٤]- بلوتارخ، ج٢، ص١٠٤٩.

بعض سفن القراصنة من كليكيا[١]، ووضع خطة للانتقال مع ألفين من رجاله إليها ليبعث الحياة مجدَّدًا في حرب العبيد التي خبت نارها مؤخَّرًا، ولكن القراصنة غدروا به بعدما تقاضوا أجرهم، حيث أبحروا تاركينه لمصيره، فلم يكن من مجال أمامه إلَّا الابتعاد عن البحر، واتخاذ مواضع لجيشه في شبه جزيرة ريجيوم Rhegium في أقصى جنوب غرب إيطاليا، فسعى إليه كراسوس سعيًا حثيثًا، وما إن استطلع الموقع حتى أوحى إليه بفكرة، وهي بناء جدار مستعرض يسدُّ عنق البرزخ الذي تحصَّن عليه سبارتاكوس، ويمنع خصمه من القيام بغاراته الخاطفة وعمليَّات السلب، ويضع في أيدي جنوده ما يشغلهم ويسدُّ أوقات فراغهم. وقد أتمَّ إنجاز هذا العمل الشاقِّ في وقت قصير لن يتوقَّعه أحد، إذ حفر أوَّلًا خندقًا من البحر إلى البحر على طول عنق الأراضي فكان طوله ثلاثمئة فيرلونغ (حوالي ٦٠ كم)، وعرضه خمس عشرة قدمًا، ومثله عمقًا، وبعد ذلك بنى جدارًا عجيبًا بمكانته وارتفاعه يشرف مباشرة على الخندق، ويمتدُّ على طوله. في البداية، استهان سبارتاكوس بالعمل كله واستخف به، ثمَّ أدرك خطره بعدما ضاق عليه الخناق، وبدأت قوَّاته تتضاءل، ووجد الجدار يقف في وجهه سدًّا منيعًا، فقرَّر خرق الحصار المضروب عليه، وفي ليلة عاصفة ثلجيَّة ملأ جزءًا من الخندق بالتراب وأغصان الشجر، وأفلح في إمرار ثلث جيشه من فوق الجدار[٢]، واستطاع أن يصل إلى ميناء برنديزي Brundisium مع قوَّاته التي كانت تقدَّر بنحو ٤٠ ألف مقاتل على أمل أن يستطيعوا الإبحار منها[٣].

في تلك الأثناء، كان ماركوس لوكولوس Marcus Lucullus قائد القوَّات الرومانيَّة في مقدونيا، قد وصل إلى برنديزي بعدما هزم ميثريديتس، عائدًا من تراقيا لمساعدة كراسوس، فهاجم الثوَّار، ودفع بهم إلى الوراء، وعندئذٍ وجد سبارتاكوس أنَّه لا مناص من أن يشقَّ طريقه ثانية نحو الشمال، فحاول أن يخترق صفوف جيش كراسوس في لوكانيا، ولكنه هُزم في ثلاثة اشتباكات بسبب انقسام قوَّاته، وظلَّ يدافع ببطولة خارقة حتى كان آخر من سقط قتيلًا في المعركة[٤]، ولم يستطع أحد أن يعثر على جثَّته لأنَّها تمزَّقت لكثرة الطعن فيها،

[١]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١١٧.

[٢]- بلوتارخ، ج٢، ص١٠٥٠.

[3]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.279.

[٤]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١١٧.

ووقع ستة آلاف من أتباعه في الأسر، وصلبوا وعلِّقت جثثهم على طول طريق أبيان Appian الواصل بين روما وكابو، وتركت حتى تعفَّنت، وكان الهدف من هذا العمل البشع هو تحذير سافر لباقي العبيد الموجودين في مدينة كابو، أن هذا هو مصيركم في حال تمرَّدتم.

ورغم أنَّ كراسوس كان قد أحكم سيطرته على الموقف بعد هذه المعركة، وشتَّت صفوف قوَّات سبارتاكوس بعدما أسر من أسر وقتل من قتل، إلَّا أنَّ مجلس الشيوخ الرومانيَّ طلب من بومبي سنة ٧١ ق.م الاشتراك في قيادة الحرب ضدَّ ثورة العبيد، بالتزامن مع وصوله من إسبانيا، فرحَّب بقرار تكليفه. بيد أنَّ كراسوس كان حريصًا على إنهاء أمر سبارتاكوس قبل أن يصل أحد لمعاونته، لينال المجد gloria كله لوحده، لكن فلولاً من رجال سبارتاكوس فرُّوا بعد مقتله إلى الشمال، فاعترض بومبي سبيلهم، وقتل منهم خمسة آلاف عبد، وبعث بعد إبادتهم برسالة إلى مجلس الشيوخ يفتخر فيها بإنهاء حرب العبيد، وهكذا « بعدما هزم كراسوس المصارعين، استأصل بومبي ثورة العبيد[١]».

خامسًا: سبارتاكوس في الميزان

تبدو ثورة سبارتاكوس كمأساة مفجعة لأنَّ كفة الرومان كانت أرجح من كفَّته، وبالقياس إلى معاصريه كان رجلاً شغوفًا مرهف الإحساس، كما كان قديرًا بارعًا، فقد أنشأ جيشًا ودرَّبه وسلَّحه من مقوِّمات تكاد لا تُذكر، وهزم به جيشين تحت أمرة قنصلين، وهذا عمل عظيم، غير أنَّه لم يستطع أن يفرض سيطرته دائمًا على جنوده، إذ كانوا أحيانًا يتحوَّلون عنه إلى السلب والنهب والانتقام الهمجيِّ، وأحيانًا أخرى كانت الخلافات تثور بين مختلف قادتهم، لذا عجز عن تركيز القيادة الكاملة في يده. ويرسم المؤرِّخون الماركسيون لسبارتاكوس صورة مثاليَّة كبطل من أبطال الجماهير الثوريَّة أو الثورات الاجتماعيَّة[٢]، وإن كان بعض المؤرِّخين قد أشاروا إلى أنَّ ثورته كانت وليدة ظروف محليَّة.

في ظلِّ تضارب الآراء، ثمَّة حقيقة لا جدل فيها هي أنَّ هدف ثورة سبارتاكوس كانت الخلاص الفرديَّ كما أشرنا، فهو لم يقدِّم برنامجًا سياسيًّا يغري به عبيد المدن للانضمام إلى

[1]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.279.

[٢]- عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص١١٧، ١١٨.

الثورة، وبالفعل رفض هؤلاء الانضمام ما حرم الثورة من موردها البشريِّ الحقيقيِّ، فأعداد العبيد في القرن الثاني قبل الميلاد لم تكن قليلة، إذ بلغت في إيطاليا نحو ٢ مليون عبد، في وقت كان فيه عدد سكَّانها لا يزيد عن ٦ ملايين نسمة.

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ وجهة النَّظر الغربيَّة التقليديَّة القائلة بأنَّ ثوة سبارتاكوس ما هي إلَّا ثورة عاديَّة كانت وليدة أوضاع محليَّة، ودليلهم على ذلك أنَّها اقتصرت على عبيد الريف الذين اشتدَّت عليهم وطأة الذلِّ والمهانة فنهضوا ثائرين. ولم يكن سبارتاكوس نفسه صاحب فلسفة سياسيَّة يحارب من أجلها، ويجمع المريدين من حوله بها، وإنَّما كان رجلاً شجاعًا وضع دمه على كفِّه من أجل حريَّته التي أنكرتها عليه ظروف سيِّئة اكتنفت مكانه وزمانه. صحيح أنَّه سعى للخلاص والحريَّة، وإنَّه لم يمتلك برنامجًا سياسيًّا.

وهنا نقتبس رأي الدكتور إبراهيم نصحي في هذه الثورة للردِّ على هذه المثالب التي عُرِضت من وجهة النظر الغربيَّة، فهو يتساءل: «هل دقُّ أبواب الحريَّة الحمراء وطلبُها بإخلاص يحتاج إلى فلسفة سياسيَّة ليفوز الثوَّار بالتقدير الخليق بهم؟ أليس من يثور في سبيل الحريَّة من دون أن يكون له أيُّ إلمام بالنظريَّات السياسيَّة أولى وأحقَّ بالتقدير من غيره؟ ألا يكفي أنَّ عبدًا أبى الذلَّ والهوان فشجَّع رفاقه على أن يحطِّموا الأغلال التي كبَّلتهم لا من أجل السلب والنهب، ولا من أجل الوصول إلى مقاعد الحكم، وإنَّما لكي يتنَّسموا عبير الحرية، ويعيشوا كما وُلِدوا أحرارًا؟ ما ذنب سبارتاكوس إن كان عبيد المدن -الذين كانوا أحسن حالاً من عبيد الريف- لم يستجيبوا لنداء الحريَّة، وآثروا البقاء على حالهم، لا لأنَّهم راضون بما لهم، وإنَّما لخوفهم من مغبَّة العواقب؟. لا جدال في أنَّ سبارتاكوس يستحقُّ الإجلال والتقدير من أجل هبَّته للحريَّة، وشجاعته في القتال من أجل الفوز بها، وبراعته في التنظيم، وقدرته على أن يكوِّن جيشًا استطاع أن ينزل هزائم متعدِّدة بالجيوش الرومانيَّة، إلى أن فقد حياته قربانًا للحرية الحمراء[١].

سادسًا: ثورة سبارتاكوس: النتائج

إنَّ هذه الثورة على قلَّة أهميَّتها الذاتيَّة، تمخَّضت عنها نتائج مهمَّة، فهي من ناحية

[١]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٧.

خربت جنوب إيطاليا تخريبًا كان له تأثيره على الحياة الاقتصاديَّة في تلك البلاد. ومن ناحية ثانية دقَّت ناقوس الخطر من جديد، ممَّا حفَّز عددًا كبيراً من كبار مُلَّاك الأراضي على أن يفتحوا صفحة جديدة، من حيث تحسين أسلوب معاملة عبيدهم، والاتِّجاه نحو استبدال الأجراء الأحرار بالعبيد حتى لا تنشب ثورة أخرى بين العبيد بمثل خطورة هذه الثورة[١] .كما تسبَّبت هذه الأحداث بمقتل نحو ٦٠ ألف عبد، ماتوا خلال سنوات الثورة، وكان أغلب هؤلاء هاربين من المزارع التي كانوا يعملون بها، ما أدَّى إلى نقص في اليد العاملة وتراجع الزراعة[٢].

في السياق عينه، أسهمت تلك الثورة في لفت الأنظار إلى الأحوال السيِّئة التي كان العبيد يعيشونها، والمطالبة بتحسين أوضاعهم. كما أسهمت في تحسين أوضاع الطبقات العاملة والكادحة من الناحية الاجتماعيَّة، ومعاملتهم معاملة إنسانيَّة[٣].

ولعلَّ **النتائج السياسيَّة** كانت أهمَّ نتائج هذه الثورة، ذلك أنَّ انتصار كراسوس أدَّى إلى انطباع عامٍّ أنَّه قائد عسكريٌّ يتمتَّع بمواهب عظيمة الشأن. إلَّا أنَّ مشاركة بومبي له في النصر النهائيِّ حرمه الفضل كلَّ الفضل في شرف إنهاء الحرب، ما بثَّ فيه نحو بومبي كرهًا شديدًا، سرعان ما أصبح متبادلاً، وكان لهذا الكره نتائجه على الدولة الرومانيَّة. ومن النتائج المهمَّة أيضًا أنَّ مجلس الشيوخ الرومانيَّ وجد نفسه أمام قائدين منتصرين على رأس قوَّات كبيرة على أبواب روما[٤].

لقد دامت ثورة العبيد المصارعين ثمانية عشر شهرًا، وقضت على قناصل وقضاة من قادة الجيش الروماني. كما مكَّنت القادة الظافرين من التحكُّم بالدستور حيث اضطرَّ مجلس الشيوخ بعد انتهائها للاحتفاء بظفر كراسوس وبومبي الَّلذين وافقا على تسريح جيشهما مقابل ترشيحهما لقنصليَّة سنة ٧٠ ق.م رغم أنَّ الدستور لا يجيز لهما ذلك، لأنَّ كراسوس كان قاضيًا، ولم تمضِ على تركه لذلك المنصب إلَّا بضعة شهور، ولأنَّ بومبي لم يكن قاضيًا

[١]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٧.

[2]- Dillon, M., & Garland, L., Op. Cit., 2021, p.252.

[٣]- عبد المجيد حمدان، العبيد عند الرومان، مصدر سابق، ص٧٥.

[٤]- إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني، ج٢، مصدر سابق، ص٣٩٨.

في يوم من الأيام، كما لا يجوز لمن يتولىَّ هذا المنصب أن يصبح قنصلاً حسب قانون سلا.

لقد أدرك بومبي وكراسوس أنَّهما لن يتمكَّنا من الحكم بحريَّة، طالما أنَّ نظام مجلس الشيوخ الذي أنشأه سلا ما زال قائمًا، لذلك قرَّرا أن يطرحا مؤقَّتًا خلافاتهما جانبًا، وأن يتصادقا ويتحالفا، فانتخبهما الشعب وجعلهما قنصلين، كما كان ذلك سببًا في فتح باب السلطة الفرديَّة على مصراعيه أمام قادة الجيش متملِّقي الشعب[١].

[١]- عبد المجيد حمدان، العبيد عند الرومان، مصدر سابق، ص٧٦، ٧٧.

خاتمة

أوَّلًا: تُعدُّ ثورة سبارتاكوس شاهدًا على الدمويَّة وتفسُّخ الأخلاق الرومانيَّة، وهي دمويَّة كانت تتلذَّذ بعروض الصراع الهمجيِّ، لإنسان يقتل أخاه الإنسان، أو إنسان يقتل وحشًا برِّيًّا، والجمهور الروماني كله مبتهج ومنفعل مع العرض من دون أن يشعر بأدنى مشاعر الرَّحمة تجاه بني جلدتهم الذين يموتون بضربات السيوف وطعنات الخناجر، وكأنَّ الدم المنبجس من جسد المصارع المهزوم ليس بدمٍ وإنَّما ماء. إنَّ هذه الدمويَّة الرومانيَّة المفرطة ورغبة هؤلاء المصارعين بالظَّفر بحريَّتهم، كانت سببًا في ثورة سبارتاكوس أو ثورة الحريَّة، التي كان الرومان يسمُّونها ثورة العبيد.

ثانيًا: لقد أسهمت هذه الثورة في فضح ممارسات القمع الدمويَّة في قمع ثورة الحريَّة، حيث تمَّ صلب ستة آلاف أسير على طول الطريق الواصل بين روما وكابو، وجعلهم عبرة لباقي عبيد إيطاليا.

ثالثًا: أسهمت هذه الثورة في تخليد اسم سبارتاكوس الذي عُدَّ مناضلاً أمميًّا في سبيل الحريَّة، حيث اصطفَّ خلف قيادته جمع من الشعوب والأفراد الذين شعروا بالذلِّ.

رابعًا: كانت هذه الثورة سببًا في تخفيف حدَّة الظُّلم ووطأة الإجحاف على باقي العبيد في مختلف أنحاء الدولة الرومانيَّة، حيث صار الأسياد يخشون ثورة عبيدهم.

خامسًا: كانت هذه الثورة مسمارًا جديدًا يُدقُّ في نعش الجمهوريَّة الرومانيَّة، حيث فتحت الباب للقادة الذين قضوا عليها، للوصول إلى مناصب لم تكن من حقِّهم، وبالتالي بدأوا بالتَّلاعب بالدستور ما أدَّى في نهاية المطاف إلى اشتعال الحرب الأهليَّة، وسقوط النِّظام الجمهوريِّ في روما.

لائحة المصادر والمراجع

١. إبراهيم نصحي، التاريخ الروماني ١٣٣- ٤٤ ق.م، ج٢، منشورات الجامعة الليبيَّة كليَّة الآداب، طرابلس ١٩٧٣م.

٢. أحمد فيصل اللهيبي، الحكومة الثلاثيَّة الأولى في بلاد الرومان دراسة تاريخيَّة، رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بغداد ٢٠١٥م.

٣. أديث هاملتون، الأسلوب الروماني في الأدب والفن والحياة، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة- المعهد العالي للفنون المسرحيَّة، دمشق ١٩٩٧م.

٤. بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج٢، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م.

٥. عبد السلام الترمانيني، الرقُّ ماضيه وحاضره، مجلَّة «عالم المعرفة»، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٢٣، الكويت ١٩٧٩م.

٦. عبد اللطيف علي أحمد، التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبيريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربيَّة، بيروت ١٩٨٨م.

٧. عبد المجيد حمدان، العبيد عند الرومان خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، مجلَّة «دراسات تاريخيَّة» العددان ١١٧-١١٨، دمشق ٢٠١٢م.

٨. علي مؤمن إدريس مؤمن، الحياة الاجتماعيَّة الرومانيَّة خلال العهد الجمهوريِّ (١٣٣ – ٢٧ ق.م) رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة بنغازي، ليبيا ٢٠١٢م.

٩. محمد عواد حسين، الثورة الرومانيَّة، المرحلة الثالثة، الصراع بين بومبي وقيصر حتى الحرب الأهليَّة ٧٩- ٥٠ ق.م، مجلَّة «عالم الفكر»، مج ١٢، العدد ٣، الكويت.

10) Dillon, M., & Garland, L., The Ancient Romans; History and Society from the Early Republic to the Death of Augustus., published by Routledge., New York 2021.

الفلسفة السياسيّة في العصور الرومانيّة المبكرة

خنجر حميّة[١]

تمهيد: العبور إلى الهيللنستيَّة

لم يكن حدثاً عاديَّاً في تاريخ العالم القديم الانتقال من عالم يونانيٍّ، كانت فيه الدولة – المدينة هي التكوين السياسيَّ المهيمن، إلى عالم تعدَّدت فيه الدول المركزيَّة وانحسرت الأفكار الكلاسيكيَّة الكبرى حول الدولة ونظام الحكم. ومع حدث كهذا ستنحلُّ الفلسفات الكلاسيكيَّة الكبرى والأنساق النظريَّة الشاملة لمصلحة فلسفات انصبَّ اهتمامها بشكل شامل لا مردَّ له على ما هو عملي، وامتزجت فيها الأخلاق بالسياسة من جهة، وبأشكال مختلفة من اللاَّمبالاة تجاه الحياة العامَّة من جهة أخرى، وهي انتهضت كردَّة فعل على ما ولَّدته تجربة السياسيِّ من إخفاقات وعلى أشكال الحياة العامَّة وأساليبها المرسَّخة زمناً طويلاً بفعل التقاليد.

كانت أولى هذه الدول مملكة مقدونيا[٢] التي أخضعت في غمرة صعودها السريع بلاد اليونان، ثمَّ هزمت الأمبراطوريَّة الفارسيَّة الشاسعة عام ٣٢٧ق.م. وما لبثت أن أقصت الديموقراطيَّة، وقضت على آخر تقاليد دولة المدينة المهيمنة التي كان قد تقلَّص وجودها بالتدريج، لتنحصر آخر الأمر في أثينا. وبعد وفاة الإسكندر عام ٣٢٣م. ستترك الأمبراطوريَّة المقدونيَّة الموحَّدة الساحةَ لممالك وريثة ما لبثت أن احتوتها روما في نهاية المطاف بعدما هيمنت بشكل كامل على شرقيِّ البحر المتوسِّط منذ القرن الثاني[٣].

---

[١]- أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانيّة.

[٢]- تارن، الحضارة الهللنستيَّة، تج. عبد العزيز جاويد، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥ ص ٥٥، وبعدها.

[3]- Walbank. F. W. The Hellenistic world, London, 1981.

And: The Cambridge History of mediavel political thought, part1, C350, C. 450.

كان الإسكندر قد أقام مدناً في كلِّ أرجاء أمبراطوريَّته، راح يحكمها بعد وفاته ملوك كانوا يتحكَّمون بشبكة كبيرة من دول المدينة التي توسَّعت شيئاً فشيئاً، محافظة على مظهر لنشاط سياسيٍّ متَّصل تمثَّل في صراع على مناصب كانت قد فقدت الكثير من جاذبيَّتها بسبب انتقال شؤون العلاقات والحرب خارج المدن، وبسبب ارتفاع مكانة الكاريزما التي ارتبطت بالتكليفات العامَّة المتَّصلة بطقوس العبادة والألعاب الرياضيَّة والحياة الثقافيَّة والاجتماعيَّة، ارتفاعاً ولد اضطراب الحدود الفاصلة بين المناصب والتكليفات معزِّزاً الاتجاه الأوليغارشيِّ إلى أبعد حدود[١].

في هذه الممالك، أو المدن المهيمنة، كان المَلِك ملكاً مطلقاً يُحكم بواسطة دائرة محدَّدة من الموظَّفين، ينتقيهم من حاشيته الضيِّقة ومن خُلصائه أو ممثَّليه في المدن الواقعة تحت نطاق حكمه. ولقد كانت صورة هؤلاء، الذين كانوا يتجاوزون في الأعمِّ صلاحيَّاتهم، ويتقاضون أجورهم على شكل هبات أو منح أو ألقاب أو ملابس خاصَّة، أو وضعاً مميِّزاً في العلاقة بالملك، في أذهان الجماهير سلبيَّة للغاية، وكان عداؤهم لهم يرتكز إلى نظامهم القيميِّ الذي كان يعتبر أنَّ خدمة شخص لآخر هي نوع من العبوديَّة، خصوصاً إذا لم ترتبط بالظروف المادِّيَّة أو بالتهميش الاجتماعيِّ والسياسيِّ.

أمَّا الفلسفة السياسيَّة فقد كانت في عصورها الزاهية نتاجاً للعمل السياسيِّ النشط وللنِّقاش المفتوح حول قضايا المجتمع والحكم. ومع التطوُّرات المستجدَّة لم يعد لها تلك المكانة التي كانت تحتلُّها في ما مضى وتمَّ تهميشها، لكنها مع ذلك استمرَّت على شكل أفكار حول النظريَّة الدستوريَّة التقليديَّة في كتابات المشَّائين المتأخِّرين خصوصاً ثيوفراست، وحول القوانين والدستور الأسبرطيِّ كما عند الرواقيين خصوصاً كليانتس، وسيستمرُّ ذلك حتى بوليبيوس في منتصف القرن الثاني بلا توقُّف كما يبدو، لكن في العموم كان العصر هذا فترة إبداع خلاق في الفلسفة الأخلاقيَّة لا السياسيَّة[٢].

---

[١]- تارن، الحضارة الهللنستيّة، ص ٩.

[2]- Laks, A. and Scholield, M. justice and generosity studies in Hellenistic: social and political philosophy, Cambridge, 1995.

وقارن: تارن، الحضارة الهللنستيَّة، ص ٥.

وإذا لم يكن من الممكن فصل فلسفة الأخلاق عن فلسفة السياسة في العصور الكلاسيكيَّة، حيث كان الرجل الصالح هو المواطن الصالح، فإنَّ الفلسفة الأخلاقيَّة في العصور اللاَّحقة انطلقت من عقالها متجاوزة كلَّ المبادئ التي رسمتها فلسفة السياسة من مُثل في ما يخصُّ مجتمع المدينة، وراحت المدارس الكبرى - الرواقيَّة مثلاً والأبيقوريَّة - تركز على الفرد في سلوكه وفي غايات هذا السلوك، وهي غايات لم يعد يمكن البحث عنها في إطار دولة المدينة بل في العالم الأوسع، في المحيط الكونيِّ المتحرِّر من الحدود الضيِّقة للمجتمع التقليديِّ، ومن مفاهيم التصنيفات المختلفة للبشر. فالرواقيون مثلاً افترضوا أنَّ الضرورة أو المسؤوليَّة لدى كلِّ فرد ينبغي أن تجعلاه ينحاز إلى القوانين المقدَّسة للطبيعة التي تتحكَّم في الكون الأرحب... وعلى أساس ذلك راحوا يعيدون تعريف المفاهيم السياسيَّة التقليديَّة، كالمواطنة والحرِّيَّة والعبوديَّة، على أنَّها مصطلحات أخلاقيَّة موضوعة في إطار المجتمع الكونيِّ[١].

والمذاهب هذه لم تولد في العصر الهيللنستيِّ الذي تعاظم حضورها فيه، بل كانت نتاج العصر الكلاسيكيِّ نفسه، ذاك الذي أنتج الأعمال العظيمة في الفلسفة السياسيَّة الكلاسيكيَّة والذي كان قد انتشر فيه على نطاق واسع، في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، روح من التحرُّر من وهم النُّظم السياسيَّة القائمة، وبلغ ذروته عند الكلبيين الذين أداروا ظهورهم للمجتمع وللسياسة على حدٍّ سواء، وفي اتِّجاهات ناضلت من أجل قضيَّة اختيار شكل الحياة وما ينبغي على المرء أن يفعله تجاه النظام السياسيِّ بشكل عام أو تجاه الحاكم بشكل خاص.

ورغم تأثُّر هذه المذاهب أو الاتجاهات بهذه الروح فقد آثرت ألاَّ تنسحب كليَّة من الحياة العامَّة، وقصرت اهتمامها بالسياسة على البلاط لا على سوق المدينة، وقام بعض أقطابها بدور الناصح الموجِّه، كما هو الحال مع بيرسايوس تلميذ زينون أو مع كليانتس خليفته. ومن اعتزل الحياة من هؤلاء، كزينون وخريسبيوس، فهم لم يفعلوا ذلك عن مبدأ بل كخيار شخصيٍّ، فلقد كتب كليانتس أطروحة عن الملكيَّة، وأوصى خريسبيوس أنَّه على الرجل الحكيم أن يصبح ملكاً. وسيصبح الانخراط في السياسة محلَّ اهتمام الفلسفة السياسيَّة

[1]- Laks, A. and Scholield, p89 – 90.

الرومانيَّة منذ شيشرون حتى سينيكا وأبكتيتوس[١].

لقد كان العمل القياسيُّ في الفترة الهللنستيَّة - الرومانيَّة، في الفلسفة السياسيَّة، وضع أطروحات حول الملكيَّة، لكن ذلك لم يكن جديداً، فهناك تراث أقدم تمَّ البناء عليه، إذ تضمَّنت أعمال أكسينوفون أطروحات حول الملكيَّة، ووصفها أفلاطون في محاورة السياسيِّ بأنَّها أفضل أشكال الحكم بشرط كون الملك حكيماً، ثمَّ راجت الفكرة الرواقيَّة حول أنَّ الرجل الحكيم وحده هو الذي يصلح أن يكون ملكاً.

ولقد تواصل هذا التفكير في أعمال أريستياس في منتصف القرن الثاني ق.م. ثمَّ في أعمال سينيكا نحو (٥٥ - ٥٦ق.م)... وإذا ربطنا ذلك بظاهرة مديح الأباطرة التي راجت بقوَّة منذ العصور الكلاسيكيَة، تأكَّدنا من أنَّ الملكيَّة كانت نقطة محوريَّة في الفلسفة السياسيَّة وفي النقاش السياسيِّ على السواء[٢].

لكن الملكيَّة هذه لم تكن ملكيَّة الإغريق، ولا كانت الكتابات حولها مجرَّد أعمال تحليليَّة كما هو الحال مع أعمال أرسطو مثلاً التي صنَّف فيها أنواع الملكيَّات وقارنها بمنافسيها بغية بلوغ أفضل دستور ممكن. لقد افترضت كتابات كهذه من البداية أنَّ الملكيَّة هي الأفضل بداهة، ثمَّ انصرف اهتمامها إلى تحديد صفات الملك المثاليِّ- الذي هو مصدر الخير لرعيَّته والذي يضع مصالحهم نصب عينيه، المنقذ وصاحب الروح النبيلة- لا إلى مشكلة الملكيَّة[٣].

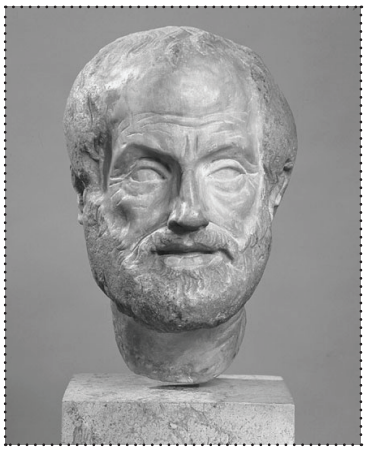

وإذا كان كتَّاب هذه المرحلة لم يجعلوا الملوك مقدَّسين، فإنَّ أفكارهم؛ حول أنَّ الملك يشبه الإله

[1]- Laks and Scholield, 1995.and: Diogenos laertius, lives of eminent philosophers, tans. by R.D. Hieks. M.A. London: william Heinemann, VII, pp. 32 – 33.

[2]- Finley, M. I. politics in the Ancient world, Cambridge, 1983. And: Brunt, D. A. studies in greek history and thought, oxford, 1993.

[3]- Finley, 1983.

ويمثِّله، وأنَّه تجسيد للكلمة المقدَّسة؛ كانت واسعة الانتشار حتى الفترة الأمبراطوريَّة المبكرة من حياة روما. وهي أفكار استفاد الملوك من دلالاتها الضمنيَّة لإسباغ القداسة على أفعالهم وادِّعاء السلطة المطلقة[١].

ولم يكن الجوُّ العام لمثل هذه الأفكار مقتصراً على الأطروحات حول الملكيَّة، بل تردَّد صداها عند أفلاطونيين متأخِّرين ليصبح الملك «كائناً يتَّسم بنظام أرقى من البشر العاديين»، أو «مخلوقاً من المادَّة نفسها التي خلق منها البشر، لكنَّه كان قد شكَّله كائن أبرع على شاكلة الإله نفسه»، كما يقول إيكافتتوس الفيثاغوريُّ المُحْدَث. والملك يقترب عند ديوجنيس من الألوهة، ذلك أنَّه «في الطبيعة هو في أعلى عليين، أمَّا على الأرض وبين البشر فهو يشغل هذا المنصب، وهو بحكمه الذي لا يقبل التعديل تجسيد للقانون كإله بين البشر».

مثل هذه الأيديولوجيَّة السياسيَّة وجدت في البيئة الهللنستيَّة ثمَّ الرومانيَّة فضاءً ملائماً للانتشار، رغم أنَّ وجهة النظر الرومانيَّة، خصوصاً زمن الأمبراطوريَّة، هي أنَّ الأمبراطور مواطن وليس مقدَّساً. ولقد نأى أغسطس، خليفة يوليوس قيصر، عن لقب الملك وعن مكانة الألوهة رغبة منه في السيطرة على الأرستقراطيَّة الرومانيَّة، لكنه كان قد مهَّد بنفسه الطريق لذلك حين قبل ضرباً من التكريم يحمل مضامين دينيَّة غداة اغتيال سلفه. وسوف يكون العالم اليونانيُّ سباقاً إلى إنشاء عبادة الأمبراطور رسميَّاً لأنَّه رأى فيه وريثاً للملوك الهللنستيين.

وكيف كان فلقد كانت روما في عهدها المبكر دولة مدنية تحت حكم أقلية، وهي كانت تشبه إلى حد بعيد دولة المدينة في الزمن الهللنستي. وأول الأباطرة كان ملكاً قضى على الأيديولوجيا السياسيَّة للجمهوريَّة التي ناوأت طويلاً حكم الملوك.

لقد كانت الجمهوريَّة ملكاً لفئة قليلة منتقاة من مواطنيها، الذين حافظوا على شكل من أشكال الحرية السياسية، ثم كانت كلما تقدمت تزايدت أعداد مواطنيها. لكن أقلية فقط من بينهم سيكون بوسعها المشاركة في السياسة، ذلك أنَّ النظام السياسيَّ الرومانيَّ لن يعطي

[١]- Laks and Scholield, justice, 1995. وتارن، ص ٥٧ -٦٣

المواطنين العاديين سوى فرصة ضئيلة للمشاركة في الوزارات السياسيَّة أو تقلُّد المناصب[١].

أوَّلاً: الرَّفض الجذريُّ للمدينة: العدميَّة، التطفُّل والعيش وفاقاً للطبيعة

١. الكلبيون، العدميَّة وتمجيد البداءة

حملت لفظة (Cynical) من (Cynic) في الدراسات الحديثة تصوُّراً غير دقيق عن الكلبيين باعتبارهم عبثيين (حتى أنَّها اعتبرت أنَّ ديوجينس نفسه مؤسِّس المذهب كان ذا سلوك أخرق لا يخلو من حماقة وغباء)، وأنَّهم بلا أخلاق- أو أن أخلاقهم سلبيَّة على الإطلاق – ممَّا أدَّى إلى إغفال إسهامهم في الفكر السياسيِّ القديم. ويعود ذلك في جزء منه، مع فقدان النصوص الكلبيَّة الأساسيَّة، إلى طبيعة النصوص الثانويَّة المتبقِّية حول طبيعة الحياة والفكر الكلبيَّين، سواء مجموعة الروايات والأقوال الكبيرة أم الشذرات النثريَّة والشعريَّة... أم الرسائل الكلبيَّة المحتوى التي لم يكتبها كلبيُّون... أم ما قرَّره فلاسفة متأخِّرون مثل خريستوم الفيلسوف السوفسطائيِّ المتأثِّر بالرواقيَّة، أو فيلوديموس الأبيقوريِّ (القرن الأول ق.م)، أو أبكتيتوس في عمله عن المذهب الكلبيِّ في أوائل القرن الثاني (ق.م)... فضلاً عمَّا يمكن اعتباره أفضل نصٍّ عن الكلبيين[٢]، وهو الجزء السادس من سير حياة الفلاسفة لديوجينس اللاَّيري (من القرن الثالث م.)، ثمَّ ما أورده سينيكا في ما بعد من إشارات أو ما ذكره لوكيانوس الساخر في القرن الثاني الميلاديِّ.

في داخل هذه المجموعة من النصوص[٣] تلفيقات كثيرة واختراع لأقوال وروايات. إنَّ أولئك الذين اقتدوا بمثاليَّة المذهب الكلبيِّ وأخلاقه جعلوا ديوجينس يبدو كسقراط وجعلوا الكلبيين أشبه بالرواقيين ومثالاً على الفضيلة الأولى وعلى العدالة والشدَّة ورفض رذائل المجتمع البشريِّ. أمَّا أولئك الذين ناصبوا الكلبيَّة العداء، فقد صوَّروا الكلبيين كمنافقين محتالين ومخادعين كما صنع فيلوديموس. لكن الصورة الأكثر ذيوعاً وانتشاراً هي تلك التي رسَّختها النصوص الأمبراطوريَّة من أنَّهم كانوا يمثِّلون تهديداً لاستقرار المجتمع والحياة

[1]- Scholield, M. «Sharing in the constriction» in: Review of metaphisics, V. 49, pp. 831 – 858.

[2]- Marie – odile, Goulet cazè, Le synisne, une philosophie antique, paris: vrin, 2017.

[3]- Goulet-Cazè, Cynicism and christianity in late Antiquity, U.K. Cambridge 2019. and: Étude sur la théorie stoicienne de l'action, paris: librairie philosophique, 2011.

السياسيَّة والاجتماعيَّة كما كتب لوكيانوس مثلاً. ولأجل ذلك، من غير الممكن تكوين تصوُّر واضح عن هذا المذهب من غير نقد لجملة هذه النصوص، أو إيجاد توليفة مقبولة بين تعارضاتها، من دون ادِّعاء بلوغ صورة صحيحة موثوقة عنه، خصوصاً إذا ما أخذت بعين الاعتبار حاجة نصوص هؤلاء نفسها إلى التفسير، ولن يقضي ذلك على الجدل الذي ما زال قائماً حول مغزى هذا المذهب ووجوده وقيمته وتأثيره، والاختلاف بين الكلبيين أنفسهم وفترات المذهب ومراحله.

لقد استُعمل مصطلح (Cynic) بمعنى الكلبيِّ منذ القرن الرابع قبل الميلاد، منسوباً إلى ديوجينس[١]، وقيل إنَّه اتَّخذه لقباً لنفسه، ثم أُطلق على أتباعه، ومنه اشتقَّ اللَّفظ الإنكليزيُّ (cynicism) أو cynism في بعض اللُّغات الحديثة المتأثِّرة باللَّفظ اليونانيِّ القديم.

ولد الرجل في (٤١٢ أو ٤٠٣ ق.م) في ميناء سينوب على البحر الأسود ثمَّ انتقل إلى اليونان. وهناك رُويت عنه روايات خياليَّة زادت من حدَّة التشويه العامِّ للكلبيَّة الذي رسَّخته المذاهب القديمة، وجعلت منه أسطورة خصبة ومتنوِّعة ولَّدت حولها ردود فعل متناقضة. لكن الخطوط العريضة لنشاطه في أثينا كانت واضحة، وهو ابتكر مع مرور الزمن أسلوباً في الحياة لا ينشد فيه غير الحدِّ الأدنى من الملكيَّة في الملبس والمأكل والمسكن، و رفضِ كلِّ الأعراف والتقاليد؛ بما فيها السياسة؛ وجميع العلاقات الاجتماعيَّة وما يتعلَّق بالمكانة والسمعة والسلطة والنفوذ وأنواع الفنون والآداب وأشكال التأمُّل الفكريِّ، وهو أسلوب سيتبنَّاه عدد لا حصر له من الكلبيين حتى القرن السادس الميلاديِّ.

الشيء الذي لا يُشكُّ فيه أنَّ ديوجينس تعلَّم تعليماً عالياً، وعلامة ذلك استشهاده المتكرِّر؛ في ما تبقى من نصوصه؛ بهوميروس وبشعراء التراجيديا الكبار، وألفته مع حياة الفلاسفة الأوائل وفكرهم، ومجادلاته الطويلة مع أفلاطون. فافتراض أنَّه كان مجرَّد مهرِّج مستعرض وأنَّه لا شيء جادٌّ في فكره وفي حياته، لا يصمد أمام نقاش.

---

[١]- ثمَّة جدال واسع قديم حول ما إذا كان ديوجينيس هو مؤسِّس المذهب أو أنتشينز (٤٤٥ - ٣٦٥) أحد تلامذة سقراط المقرَّبين بسبب وجود عناصر كلبيَّة في فكره، لكن الأمر مشكوك فيه بل مستبعد، لوجود عناصر غير كلبيَّة في فكره كذلك، ولأنَّ الصلة المباشرة بين ديوجينس وأنتشينز ينطوي على مشكلات زمنيَّة.

Galinielle giannantoni, la ricerca filosofica, lecher,1998. pp. 223- 233.)

بأيِّ حال، فإنَّ المذهب الكلبيَّ يعنى أولاً وآخراً بالطريقة التي يحيا بها الكلبيون ويتصرَّفون وفقها. وهو لم يكن ممارسة فلسفيَّة بالشكل المعروف ولا مدرسة لتعليم الطلاَّب كما كان شائعاً في العصور الذهبيَّة، لكن مع ذلك اعتبر معاصرو ديوجينس أنَّ الكلبيَّة مشروع فلسفيٌّ على وجه الدقَّة وإن لم يكن فلسفة مكتملة الأركان بالمعنى التقليديِّ للكلمة، وكان أفلاطون يصفه بسقراط المجنون مداعباً، وألمح إليه أرسطو وإلى آرائه في كتاب «السياسة»، وكذا فعل ثيوفراسطس[١].

لقد ادَّعى ديوجينس أنَّ غايته هي الفضيلة، وأخذ فلاسفة مرموقون هذا الادِّعاء على محمل الجدِّ، وأنَّه يرغب في حثِّ الناس على بلوغ الحكمة عبر اتِّباع طريقة محدَّدة في الحياة. الكلبيَّة إذن طريقة حياة أولاً وبالذَّات، وهي إذا ما لجأت إلى الفلسفة لتبرير قناعاتها عبر ادِّعاءات وأقوال، فإنَّ ذلك كلُّه يتأسَّس في الحقيقة على معيار تتقبَّله سائر الفلسفات القديمة بطريقة عمليَّة وهو الحياة وفاقاً للطبيعة، إذ القول بأنَّ الفضيلة تكمن في العيش وفاقاً للطبيعة البدائيَّة الأولى ينتمي إلى تراث طويل في الفكر يعكس رغبة إنسانيَّة مفهومة في أن يكون العالم مكاناً مثاليَّاً للخير، واعتقاداً راسخاً بأنَّ مشكلات الحياة وتعقيداتها تشويه للنظام الطبيعيِّ. لكن الكلبيَّة فسَّرت ذلك تفسيراً بدائيَّاً صرفاً يقوم على جعل الحيوانات أو البرابرة معايير للأخلاق وتجسيداً لطريقة الحياة الكلبيَّة في عصرها الذهبيِّ.

والكلبيون كبدائيين يقيمون حياتهم على مبدأ الاكتفاء الذاتيِّ والحريَّة واللاَّمبالاة بالألم. وهم حين يعتبرون أنفسهم مستغنين عن الملكيَّة الماديَّة للأشياء فهم يعنون أنَّ الأشياء شرٌّ، وأنَّها تحول دون بلوغ الفضيلة وإدراكها. ولأنَّ حياتهم طبيعيَّة فهم يصفونها بالبساطة. ولأنَّها معادية للتفكير فهي يسيرة. ولأنَّ لها متطلِّبات فيزيقيَّة فهي تتَّصف بالشقاء الذي يكابده الكلبيُّ بما هو قيمة أخلاقيَّة بالطبيعة، أقصد بما هو خير، لكن بلوغ هذا الشكل من الحياة كان يتطلَّب حسب الكلبيين تدريباً متَّصلاً وتجربة واعتياداً[٢].

ومذهبهم - رغم الانطباع الأول عنها – هو فلسفة تبشيريَّة لأنَّها تمدُّ البشر بنموذج يحتذون به، وتبرهن لهم من خلاله على فساد قيمهم التقليديَّة وكذبها، وعلى أنَّ صلة القرابة الحقيقيَّة

[1]- Hammond, N.G.L., sources for Alexander the creat, Cambridge, 1933. pp. 28 – 282.

[2]- Goulet-cazè, le synismes…..,pp. 217 –220.

إنما هي قرابة الحكمة (الحكيم صديق الحكيم)... وأنَّ الحكماء أصدقاء الآلهة يشاركونهم في ما يملكون، وأنَّ الكلبيَّ مرشد؛ مراقب؛ سيِّد؛ مبشِّر أو معلِّم، يهتمُّ بالبشر، ويحبُّ الناس جميعاً، ويجهد لحثِّ الآخرين على التحوُّل إلى حياة الفضيلة على الطريقة الكلبيَّة. وبذلك يكشف المذهب عن عناصر إيثار حقيقيَّة، ليست مستوحاة من النزعة الإنسانيَّة الشكليَّة عند كراتيس، بل من الطبيعة الجوهريَّة للحياة الكلبيَّة نفسها[١].

لا تترك مثل هذه الصورة للمذهب الكلبيِّ أيَّ محلٍّ للسياسة بمعناها التقليديِّ، ما دام الانسحاب من أنشطة الحياة العامَّة أحد أهمِّ ركائزها، وما دامت تدعو إلى فرديَّة خالصة تعنى، في الحدِّ الأقصى، بتدريب الفرد على بلوغ الفضيلة بما هي وفاق مع الطبيعة الأصيلة الأكثر بدائيَّة، وإلى رفض الأعراف والتقاليد والنُّظم والقوانين نفسها.

شيء واحد سيتبدَّى كمساهمة له في الفكر السياسيِّ هو فكرة المواطنة العالميَّة، التي ستقام على المبادئ نفسها التي رفضت لأجلها السياسة بمفهومها الكلاسيكيِّ. ويستند التفكير في المفهوم إلى نصَّين أوردهما ديوجينس اللاَيري[٢]، هما:

الأول: يسجَّل على لسان ديوجينس الكلبيِّ عندما سئل من أين جاء؟ فأجاب: أنا مواطن العالم.

والنص هذا إنَّما جاء في سياق تعبير أدبيٍّ في صورة رواية مختصرة تتضمَّن موعظة أو حكمة أو قولاً مأثوراً. وسواء اتَّصل الأمر بالأدب أم بالسياسة، فإنَّ مضمون النصِّ شيء يخصُّ ديوجينس نفسه باعتباره الشخص الذي لا وطن له.

ولا يقلِّل من خطورة ورود مثل هذا المصطلح على لسان ديوجينيس ندرة استخدام كلمة (Kosmopolites) بمعنى مواطن العالم في هذه المرحلة، وأنَّ ظهورها للمرة الأولى كان عند فيلون الإسكندريِّ في القرن الأول، ذلك أنَّ الكلبيين كانوا معروفين بابتكاراتهم اللفظيَّة في صياغة الكلمات والمعاني، ولا شكَّ في أنَّ فيلون قد عرف هذا المصطلح من مصادره

[1]- Moles. J.L. «le cosmopoliticisme cynique» in: Coulet-Cazè, 1993. And: Moles, J.L. «The Cynics and polities» in: Laks and Schofield, justice....., p. 130.

[2]- Schofeild, M. The stoic Idea of the City, cambridge, 1991. pp. 141 – 142. Moles, The Cynics, p. 130. Diogenos Laertius, lives of eminent philosophers, VI, 84, pp22.

الرواقيَّة المتأثِّرة بالكلبيين، وبالتالي فهو كما يبدو صياغة كلبيَّة خالصة، وابتكار لعلَّه بدأ مع مؤسِّس المذهب.

أمَّا **الثاني**[١] فهو نصٌّ على شكل قياسات جدليَّة، ولقد نقله اللاَّيري كالآتي:

١ - كلُّ الأشياء تنتمي إلى الآلهة،

والآلهة أصدقاء الحكماء،

والحصول على الأصدقاء صفة مشتركة بين الناس،

إذن، كلُّ الأشياء تنتمي إلى الحكماء.

٢ – من دون مدينة لا فائدة من وجود تحضُّر،

والمدينة متحضِّرة،

ومن دون القانون لا فائدة من وجود المدينة،

إذن، القانون (nomos) شيء متحضِّر.

٣ – وهو يتهكَّم من نبل المولد والشهرة والمجد قائلاً:

«إنها جميعاً زينة الرذائل».

٤ - «دولة المواطن الحقيقيَّة هي العالم (kosmos).

ولقد أثار القياس الثاني في النصِّ جدالاً واسعاً ترجع حقيقته إلى قياس كليانتس المعروف في تفسير قياس ديوجينس، وهو «إذا كانت المدينة بناء صالحاً للسكن يلجأ إليها الناس من أجل توزيع العدالة فهي مدينة متحضِّرة. ولكنَّ المدينة هي من هذا النوع الصالح للسكن. إذن، فالمدينة متحضِّرة[٢]».

هذان النصَّان، الأصل والتفسير، متعارضان في الحقيقة، إذ الأخير عندما يدافع عن المدينة والحضارة فهو لا يقصد تفسيراً بل دحضاً لقياس ديوجينس الذي يعطيها معنى

[1]- Moles, the cynics, p. 130. and: Schofeild, the stoic idea of the city, p. 142.

[2]- Moles, the cynics, pp. 138 – 58.

تحقيريّاً ويهاجم القانون والمدينة والتحضُّر بما هي أشياء تتداخل في ما بينها.

ويبدو أنَّ قياس ديوجينيس هذا بأكمله منتزع من كتابه المفقود «الجمهورية أو المدينة الفاضلة». ومحتواه يتناسب مع تركيز الكتاب العام على السياسة. أمَّا فقرات النصِّ فتتناسب في ما بينها تناسُباً منطقيّاً، ذلك أنَّه بعد النقد الجذريِّ للقيم الاجتماعيَّة والسياسيَّة في القياس الثاني على طريقة القياس المقلوب القيمة، وبعد التوهين الخاصِّ بالمكانة ونبل المولد، يأتي القياس الثالث ليقرر النظام السياسيِّ الصحيح[١].

ومثل هذا النمط من تتابع الأقيسة هو نمط من أنماط تقابُل المتناقضات الذي برع فيه الكلبيون، فبعد كثرة من القيم الكاذبة تأتي القيمة الصحيحة الوحيدة، كما هو الحال بين القانون والعادة، أو بين الأشياء الكاذبة والنظام الطبيعيِّ للكون، أو بين القيم السياسيَّة والاجتماعيَّة الفاسدة ودولة العالم. يكشف ذلك عن أسلوب كلبيٍّ في إعادة توظيف الخطابة من خلال التوحيد بين النظريَّة والتطبيق، بين ما هو خارجيٌّ وما هو داخليٌّ... في مواجهة أولئك الذين يسعون لتزيين الرذيلة.

وحيث يكون نبل المولد وسواه من وسائل تزيين الرذيلة يكون موطن الكلبيِّ هو العالم بأسره، في إشارة إلى فكرة المواطنة العالميَّة التي تنادي بأنَّ الكون بأسره هو وطن الجميع كما يصفه رائد الكلبيَّة القديم هيراقليطس[٢].

والمواطَنة العالميَّة هذه تتطلَّب عند ديوجينيس رفض المدينة بمعناها الكلاسيكيِّ، ورفض السياسة كذلك وقيمها ومفاهيمها ونُظُمها، وهو يعبِّر عن هذه الأمور بأسلوب تراجيديٍّ، رغم أنَّها موضع فخر الكلبيين، كوصفه لنفسه بأنَّه : «بلا وطن وبلا مدينة، محروم من الدولة، متسوِّل، متجوِّل يعيش حياته يوماً بيوم[٣]». وبالتالي، فرفض السياسة والمدينة والقيم التقليديَّة ليس سلبيّاً تماماً. ويجب النَّظر إلى موقف ديوجينس من التقاليد، المنعكسة في الأقوال المأثورة والحكم وحياة الفلاسفة إلخ... والذي يرفض المدينة والدولة... باعتباره موقفاً يحاول إعادة تقييم المفاهيم من أجل فكرة مثاليَّة تدعو إلى تدويل العالم. وطالما أنَّ

[1]- Schofield, the stoic, pp. 12 – 21.

[2]- Ibid, p. 134.

[3]- Diojenos. L. Lives of eminent…. VI, p. 85.

رفض المدينة يرتقي بمفهوم الحريَّة والفضيلة عن طريق إعادة تقييم جديد لمختلف العادات والتقاليد، فإن عبارات مثل: دولة، مدينة، جمهوريَّة، دستور، تعبرِّ في واقعها عن طريقة الكلبيين في الحياة، وبالتالي فإنَّ «الجمهوريَّة» عندهم أو الدولة ليست شيئاً آخر غير أنَّها دولة كلبيَّة، تكون ملموسة وأخلاقيَّة في الوقت نفسه. ولأجل ذلك، فهي دولة مساوية للعالم وذات علاقة إيجابيَّة معه ومع عناصره ومقوِّماته التي يتألَّف منها[١]. «جمهوريَّة ديوجينس» عمل فلسفيٌّ صوريٌّ جادٌّ للغاية، لكنَّ الرجل لم يكن يلعب من خلاله لعبة الفلسفة التقليديَّة أو يتوسَّل أساليبها، لأنَّه كان يطمح إلى هدم تقاليدهم المتوارثة خصوصاً في ميدان السياسة. وأهميَّة هذا العمل تكمن في أنَّه يبلور الفلسفة الكلبيَّة في نصٍّ مكتوب.

والكلبيُّ بما أنَّه ابن الطبيعة فهو يشعر على الدوام بصلة قرابة تربطه بعالم الحيوان الذي كان يمدُّه بنماذج يحتذيها في تحديد طريقته في الحياة، وتربطه بغيره من الحكماء أينما كانوا، وتسمح له بالعيش حياة طبيعيَّة في أيِّ مكان[٢].

ولأنَّه يرفض المدينة وكلَّ مؤسَّسة سياسيَّة بوصفها مضادَّة للطبيعة فهو يلتزم إذن بالفوضى السياسيَّة في غياب أيِّ سلطة أو حكم باعتبارهما شرّاً محضاً... لكنه لا يلجأ إلى العنف من أجل إزالتها حين توجد، بل يتوسَّل الإقناع، ويعتبر أنَّ قوَّته أخلاقيَّة- تتأتَّى من صلابة شخصيَّته- وليست ماديَّة[٣]. ورفض كهذا تتطلَّبه نزعة الكلبيِّ إلى الحرِّيَّة، لكنَّ الأخيرة في مفهومها ليست مؤسَّسة سياسيَّة تعطيه من الحقوق ما لا يريد وتفرض عليه من القيود ما يرفضه.

مثل هذا الموقف من المؤسَّسة والسلطة في جموحه سيؤدِّي بالكلبيين إلى مهاجمة الملوك وتقريعهم، لأنَّهم طغاة مخادعون مضلِّلون، ومهاجمة نُظُمهم وحكوماتهم، لأنَّها تتفانى في سبيل القيم الفاسدة ولأنَّها تنتهك بصفة مباشرة حريَّة الكلبيين الطبيعيَّة وتلحق الضرر بمن يحبُّونهم في الإنسانيَّة.

وإذا وصف الكلبيُّ نفسه بالملك أو الحاكم فهو لا يقصد الملك الدنيويَّ، الذي هو حالة

[1]- Molls, «Le cosmopolicism», pp. 268 – 269.

[2]- Goulet – Gazè, le cynicincs, p 820.

[3]- Diogenos, VI, p. 43, 50, 29.

خارجيَّة كاذبة وصورة من القانون الذي يرفضه الكلبيون، والموقف هذا يكشفه ردُّ ديوجينس على الإسكندر حين سأله عمَّا إذا كان يريد شيئاً فقال له: «أغرب عن وجهي حتى لا تحجب عنِّي نور الشمس[١]».

لكن هذه الرؤية السلبيَّة من المِلك ستعكس في ما بعد معادلة صعبة بين الفلسفة الكلبيَّة والملك الدنيويِّ... فلو أنكرنا هذا الجزء الجوهريَّ من رسالة الكلبيِّ الديوجينيِّ، فإنَّ مصطلحات الاستقامة والترفُّع عن الرفاهيَّة والترف والتكيُّف مع الألم يمكن أن تمتدَّ إلى عناصر من أيديولوجيَّة الحكم التقليديِّ. فلقد كتب أونسكريتوس أحد أتباع ديوجينيس عن تاريخ الإسكندر ووصفه بأنَّه فيلسوف بالقوَّة والمخلِّص الإلهيِّ وملك العالم بالنسبة إلى الدولة الكلبيَّة، وأنهى بيون البورستينيُّ، الذي تأثَّر بالكلبيَّة، حياته كأحد فلاسفة القصر عند الملك المقدونيِّ أنتيجونوس، وتكشف خطب خريسستوم إلى تراجان مدى التأثير الكلبيِّ في حياة العصر[٢].

ويمكن أن يتَّفق الكلبيون وملوك الإغريق والعصر الهنللستيِّ وأباطرة رومان على قيمة هيراقليطس كنموذج أخلاقيٍّ. والتأكيد الكلبيُّ على الألم والمعاناة كانت له بعض الأصداء في المواقف الرومانيَّة التقليديَّة. لكنَّ ذلك كلَّه لا يتناقض مع حقيقة أن نظريَّة الملكيَّة الديوجينيَّة على وجه الدقَّة تتطلَّب رفضاً تامَّاً للنظام الملكيِّ بمعناه الدنيويِّ.

لقد كان لهذه الفلسفة أثر لا مردَّ له على الفلسفة اليونانيَّة والرومانيَّة وعلى أيديولوجيا الحكم بوجه خاصٍّ.. أمَّا الموقف المتطرِّف من الملكيَّة المادِّيَّة والأخلاق الفرديَّة والسياسيَّة فقد ساهم في تعديل المواقف عند فلسفات أخرى. فالرواقيون مثلاً تأثَّروا في رؤيتهم للأخلاق بالكلبيَّة تأثُّراً بالغاً، وكان زينون تلميذاً لكراتيس الكلبيِّ تلميذ ديوجينيس، ثم حضر المذهب الكلبيُّ بقوَّة في الجدل الدائر بين الرواقيين أنفسهم، وتراوحت ردود الفعل تجاهه بين القبول التامِّ غير المشروط كما عند أريستون، أو القبول الجزئيِّ كما عند زينون وخريسبيوس، أو الرفض القاطع كما عند بانيتيوس، أو الرفض المتأرجح كما عند سينيكا، أو تعديل التعريف وإضافة صبغة مثاليَّة كما عند أبكتيتوس. حتى الأبيقوريَّة نفسها، رغم

[1]- Höistad, R. cynic Hero and cynicking, uppsala, 1918.

[2]- Moles, «the cynics…» pp. 154 – 50, 155 – 56.

وقوعها على طرف النقيض من الكلبيَّة، لم تكن بعيدة عن هذا التأثُّر، ونسب إلى أبيقور قوله: «إن الحكيم لا يكون كلبيّاً». وهو اعتراف ولو متردِّد بأنَّ القيم الأبيقوريَّة تبدو مرتبكة مثل الكلبيَّة المخفَّفة[١].

لقد تأثَّرت المذاهب القديمة بنظريَّة ديوجينيس في المواطنة العالميَّة، ورغم أنَّ الفكرة لم تكن مفهوماً جديداً فقد منحتها القدرة الكلبيَّة على ابتكار المعاني دلالات غير تقليديَّة. وبسبب تجاوزه تجربة أسلافه سقراط وأنستنيز في الإنسحاب الجزئيِّ من السياسة نحو شكل من أشكال الرفض الشامل وبناء طريقة خاصَّة في الحياة تقوم على شجاعة استثنائيَّة فقد أعطى ديوجينس لفكرة المواطنة هذه قوَّة إضافيَّة.

إنَّ الرواقيين كانوا أكبر من انخرط في الأجندة التي وضعها الكلبيون للمناقشة الفلسفيَّة لمفهوم المواطَنة العالميَّة، وهم لم يرثوا عن أسلافهم هؤلاء مفهوماً سلبيّاً تماماً في السياسة مترتِّباً على رفض المدينة، ثمَّ أضافوا إليه قيمة إيجابيَة، ذلك أنَّ مفهوماً كهذا كان يحمل بالفعل العناصر الأساسيَّة الإيجابيَّة التي ستحظى على يد الرواقيين فقط بالعرض الأشمل ليستكملوا بها مذهبهم في الطبيعة[٢]، وهي عناصر سنجدها بشكل شامل في جمهوريَّة زينون، وسيحتفظ بها خريسبيوس في جمهوريَّته كذلك بلا تحفُّظ. وسوف يقع تأكيد الكلبيين على مفهوم مواطنة عالميَّة، يرفض المدينة ويحوِّل تصوُّر المواطنة إلى مجرَّد استعارة عن الحياة الكلبيَّة وفقاً لطبيعة الكون، في سياق تقديم حافز نحو نظريَّة حاسمة في الفكر السياسيِّ القديم تقع بين النظريَّات المؤسَّسة على دولة المدينة وتلك المؤسَّسة على القانون الطبيعيِّ[٣]. ثمَّ يجب أن لا نغفل استخدام القيم الكلبيَّة في أيديولوجيا الحكم التقليديِّ عند أونسكريتوس وخريسستوم. وقصيدة مدح الأول منهما للإسكندر هي أوَّل عمل تنصهر فيه الفلسفة الكلبيَّة مع أيديولوجيا غزو العالم، ويضفي مزيداً من الفاعليَّة على الأسطورة التي تولَّدت حول شخصيَّته، ويؤثِّر في تصوُّرات بلوتارخس في ما بعد وفي الأيديولوجيَّة الأمبرياليَّة الرومانيَّة التي كان عليها أن تتكيَّف مع إنجازات الفاتح العظيم بل تتفوَّق عليه.

[1]- Dudley, D.Q. A history of cynicism, London, 1937. pp. 96 – 103, 127, 190 – 98.

[2]- Coulet- Gazè, un syllogisme stoicien sur la loi dans la doxograhpie de diogène le cynique à propos de diogène laërce, rheinisches, V. 125, 1982. pp. 214 – 285.

[3]- Moles, the cynics, …. pp. 142 – 143. And: Schofield, the stoic, ch1.

لقد وضع الكلبيون معياراً للكمال الأخلاقيِّ ذا مغزى من جهة، وغامضاً من جهة أخرى، لكنَّه معيار لم يكن من الممكن إنكاره سواء من الفلاسفة أم من السلطات التي كان قد رفضَها هؤلاء رفضاً مطلقاً[١].

٢. الأبيقوريَّة والرواقيَّة، التطفُّل والعيش وفاقاً للطبيعة

ظلَّت أثينا مركزاً للجذب الفلسفيِّ رغم تراجعها في النصف الثاني من القرن الثالث (ق.م.) لمصلحة الإسكندريَّة التي أصبحت مركزاً مرموقاً للثقافة بفضل البطالمة الذين أغدقوا العطاء للعلماء وشملوهم برعايتهم.

كان رواد مفكِّري الأكاديميَّة واللوكيون[٢] قد وجدوا تحدِّياً كبيراً من منافسين كان بقي تأثيرهم فعَّالاً رغم تبدُّل الظروف. فإلى جانب الكلبيين سنجد القورينيائيين (نسبة إلى قوريني في الشمال الأفريقيِّ؛ وهو مذهب في اللَّذَّة أسَسه أرسطفيون القورينيائي[٣]) أتباع أريستبوس (٤٣٥ – ٣٥٥ق.م. فيلسوف قورينيائي). وقبل هؤلاء وأولئك كان هناك الرواقيون والأبيقوريون الذين لم ترقَ أعمالهم إلى حدود المعرفة الموسوعيَّة التي تميَّز بها الأكاديميون واللوكيون، ذلك أنَّ السلطة السياسيَّة لمَّا انسحبت من دولة المدينة إلى قصور الملوك أصبحت غاية الفلسفة هي الفرد وسعادته، وأصبح همُّها التركيز على الجانب الأخلاقيِّ الذي حلَّ محلَ قضايا كانت قد شارفت على الأفول حول ما يتَّصل بأفضل نُظم الحكم بالنسبة إلى دولة المدينة الكلاسيكيَّة.

كانت السكينة وكمال العقل هي غاية هاتين المدرستين وذلك تطلَّب في جوهره شكلاً من أشكال الابتعاد عن صخب الحياة اليوميَّة ومتطلِّباتها، فكيف يتأتَّى إذن للحكيم العمل بالسياسة[٤]؟

---

[1]- Eriskine, A.W. the Hellenistic stoa, London, 1990. p.14.

[٢]- الأكاديميون أتباع أفلاطون، واللوكيون أتباع أرسطو.

[٣]- عبد جبريل المبروك، «أرسطفيوس وتأسيس مذهب اللذَّة في الفلسفة القورينيائيَّة» المجلَّة الليبيَّة العالميَّة، كليَّة التربيَّة- جامعة بنغازي، العدد ٣٠، أكتوبر ٢٠١٧م، ص ١ – ١٤.

[4]- Long. A.A. Hellenistic philosophy, Berkly, 1986. And: Long, A.A. and sedley, D.N. the Hellen philosophers, 2 V. Cambridge, 1987.

الإجابة كانت على طرفيَ نقيض في المدرستين هاتين، إذ بينما افترضت الأبيقوريَّة أنَّ الحكيم لا يعمل في السياسة ما لم تضطرّه الظروف إلى ذلك، رأى الرواقيون العكس ما لم تضطرّه الظروف إلى الانكفاء وترك المشاركة في الأمور العامَّة وشؤون الاجتماع.

لكن ليس ثمة ما يوحي في الإجابتين بسبب مثل هذا التعارض، لكنَّ جدالاً واسعاً كان قد نشب حول الإطار الفكريِّ لدولة المدينة الذي كان يسلِّم به الفلاسفة الإغريق بلا استثناءات ملحوظة...والذي سيكون القضيَّة الوحيدة التي ستناقشها هاتان المدرستان والتي تكشف عن طبيعة ردَّيهما المتعارضين. وفي السياق عينه، طوَّر الأبيقوريون فكرة مركَّبة حول أصول المجتمع والقانون استناداً إلى فكرة تحسين المنفعة المتبادلة التي يحقِّقها مفهوم الأمن. ورفضُ الأبيقوريين انخراط الحكيم في السياسة لا يقضي برفض وجود الدولة. إنَّ الحكومة ضرورة. والسياسة عمل جادٌّ يُعنى بشؤون الحياة والموت. والقوانين أساسيَّة ما دامت شرعيَّتها تثبت في قدرتها على تأمين المنافع المشتركة للبشر. أمَّا العدالة فتتطلَّب عقداً ينصُّ على عدم الاعتداء على الغير[١].

أمَّا الرواقيون فقد كتبوا الكثير عن الدولة منذ زينون وكليانتس وخريسبيوس، الذين وضعوا أعمالاً متعدِّدة تُعنى بالدولة وبالقضايا القانونيَّة وبعلاقة الحكام بالمحكومين، رغم أنَّ أيَّاً منهم لم يعمل في السياسة أو يتحمَّل مسؤوليَّات في الحياة العامَّة أو ينخرط عمليَّاً في حياة الاجتماع[٢].

ومعلوماتنا قليلة ومتفرِّقة حول هذه المؤلَّفات، لكننا مع ذلك نملك الكثير عن مدينة الحكماء الفاضلة كما يصفها زينون في كتابه (politea) أو النظام السياسيّ. وهو، شأنه شأن ديوجينس الكلبي، يتوسَّع في وصف مجتمع الفضيلة والحريَّة الذي يستبعد كلَّ المؤسَّسات السياسيَّة والدينيَّة التي انطوت عليها دولة المدينة، ويعتبر أنَّ ما يوحِّد المدينة كغاية مشتركة هو الحبُّ والصداقة.

---

[1]- Müller, R. «Rhetorique und politic in philodems rhetorica, in: Müller, polis und res publica weimar, 1987.

[2]- Joly, R. Le thème philosophiques des genres de vie dans l'antiquité, Brussels, 1956.
Alders. G.J.D. political thought in hellenistic times, Amesterdam, 1975.

وأفضل من تناول المشكلة التي انبثق في سياقها هذا الجدل شخصان، أبيقور من جهة وخريسبيوس الرئيس الثالث للرواقيَّة من جهة أخرى، حيث ناقشا تحت مفهوم «أشكال الحياة» الآراء البديلة للاختيار الصحيح في الحياة من قبل الحكيم.

والنمط هذا من التأليف يأتي تتويجاً لتقليد طويل كان قد تمَّ تطويره عند أفلاطون في محاورتيَْ جورجياس والجمهوريَّة ثم عند ثيوفراستوس وديكايورخوس من خلفاء أرسطو اللوكيين.

فما هي أشكال الحياة هذه كما رآها الأبيقوريون أولاً ثمَّ الرواقيون، وكيف طوَّروا مفاهميها؟

أ. الأبيقوريَّة [1]؛ التطفُّل والواقعيَّة السياسيَّة

لا بدَّ من القول أنَّ أهمَّ أعمال أبيقور على الإطلاق، مؤلَّفه «عن أشكال الحياة» في أربعة كتب، يدين في الأول منه العمل بالسياسة، ويدين في الثاني الحياة على الطريقة الكلبيَّة، أما الأخيران فيعرضان فلسفته الخاصَّة التي تقرِّر أنَّ أفضل أشكال الحياة إنَّما تقوم على السكينة عبر الانسحاب من كثير من أشكال الانخراط الاجتماعيِّ والسياسيِّ، والركون إلى الهدوء في صحبة من الأصدقاء. وهو لخَّص كلَّ فلسفته في جملة واحدة حين قال: «عش من دون أن يراك أحد». وهي جملة أثارت حولها الكثير من سوء الظنِّ والتُّهمة. هذا في العموم، أمَّا اختيارات الحياة العمليَّة الأكثر تحديداً فمن الصعب تكوين تصوُّر واضح عنها عند أبيقور، حتى أنَّ ديوجينس اللاَّيري يسرد مجموعة غير مرتَّبة من المعلومات حول مواقف أبيقوريَّة مختلفة في الزواج والسلوك على المائدة والموسيقى والشعر وتكوين الثروة إلخ. من غير أن يستخلص منها وحدة لرؤية موضوعيَّة.

ويبقى السؤال الجوهريُّ الملحُّ، في سياق بناء تصوُّر واضح للرواقيَّة حول أشكال الحياة الصحيحة، قائماً، إذ ما المنطق الذي تقوم عليه فكرة أنَّ الحكيم الحقيقيَّ هو الذي ينأى بنفسه عن السياسة؟. ثمَّة أقوال تمَّ جمعها في سلسلة المذاهب تسمح بالوقوف على السبب

[1]- Muler, R. Die epikureische Gesellschaftheorie, Berlin, 1972. And: Long, Hellemistic philosophy, 1986. Mitsis, p. epicuru's ethical theory, London, 1988.

في اختيارات أبيقور الفلسفيَّة في الاجتماع والسياسة، وهي تبدو كأنَّها تقوم بمجملها على فكرة الأمن[١] التي تتبدَّى بوضوح عند الرجل في استعمالاته المتعدِّدة للفعل المعادل لها وهو «أن تكون آمناً». ولكي نستوعب طريقة الإشارة إلى الأمن في النصوص ذات الصلة، يجب أن نبدأ بثلاث ملاحظات تغطِّي مجال اهتمام أبيقور بالمجتمع بصفة عامَّة.

الأولى عبارة لـ:«كولوتيس» أحد تلامذة أبيقور، يقتبسها بلوتارخ وهو يقول فيها: «إنَّ هؤلاء الذين وضعوا القوانين، وحدَّدوا الأعراف، وأسَّسوا النظام الملكيَّ والحكومات في دويلات المدن، جعلوا الحياة أكثر أمناً وطمأنينة، وقبضوا على أسباب الاضطراب والفوضى، وإذا تجرَّدنا من هذه الأشياء فسوف نعيش في غابة... وإذا قابل إنسان إنساناً فسوف يلتهمه».

لكن وجود كلِّ ذلك لن يكون كافياً في تحقيق الأمن إذا لم نتخطَّ الخوف والقلق، ولن يكون هناك فائدة حينئذٍ من تحقيق الأمن ما دامت ثمة أشياء حولنا لا حصر لها تسبِّب لنا كلَّ ذلك، وبالتالي يصبح تحرير الإنسان من هذين الأمرين أعظم خطراً من تحقيق الأمن لهم. وكثيراً ما كان أبيقور يربط الأمن الاجتماعيَّ بالمخاوف الإنسانيَّة، ذلك «أنَّ الحكم نفسه هو الذي يجعلنا أكثر أمناً بسبب أنَّه لا يوجد شيء مخيف يستمرُّ إلى الأبد، وهو الذي يجعلنا نشعر أيضاً باكتمال الأمن عن طريق الصداقة[٢]».

وإذا كانت أغلب عبارات أبيقور يرد فيها عبارة «الأمن للناس»، فثمَّة عبارات تحتوي على لفظ «الأمن من الناس»، أو الشعور «بالأمن والثقة مع الناس»، أو «حتى شعر بالأمن جيرانه». وهي كلمات توحي بأنَّ الخوف ليس على الناس من أحداث القدر التي تحيط بهم، ولا من الاضطراب الذي يعصف بحياتهم فحسب، بل كذلك من بعضهم البعض حين ينعدم النظام وتحلُّ الفوضى، وهي فكرة ستكون واضحة في ذهن كولوتيس عندما كان يمدح عمل المشرِّعين الحقيقيين. وستحلُّ هي نفسها في مكانة محوريَّة في أطول نصٍّ عن أصول الفكر السياسيِّ الأبيقوريِّ احتواه كتاب «ضدَّ أمبادوقليس» لخليفة أبيقور هيرمارخوس[٣].

[1]- Barigazi, A. «sul concetto epicureo della sicurezza esterna» in A A. V V. suzetesis: studi sull' epicuroeismo Greco romano offerti a Marcello cugante, Naples, 1983. pp. 73 – 92.

[2]- Longo Auricchio, F. Ermarco: Frammenti, la scuola di Epicuro 6, Naples, 1988. and: obbink, D. «Hermarchus Against Empedocles», classical Quarterly, V38, 1988. pp.428 – 435.

[3]- Longo, ibid.

ما يقدِّمه الرجل هو فكرة قديمة عن أصل القانون في سياق تطوُّر المجتمع الإنسانيِّ، حيث يجتمع الناس أوَّل الأمر بسبب شعورهم بأنَّ وجودهم على هذه الطريقة يمكن أن يضمن لهم الأمن ضدَّ تهديد جيرانهم أو توحُّش الطبيعة. مثل هذا الفعل عند الأبيقوريين استجابة طبيعيَّة من الإنسان نحو بيئته[1] وسلوك تلقائيٍّ تجاه الأخطار التي تحيط به. ثمَّ يبدأ الإنسان بعد ذلك بالاختلاط بالمجتمعات الأخرى فيقلُّ عنده الخوف من جيرانه وتقلُّ فرص أن يقع فريسة الطبيعة المتوحِّشة من حوله، فتنتفي أسباب الخوف والقلق لديه، وينسى الماضي القريب الذي كانت فيه حياة المستوطنات الأولى حياة صراع... لكنَّ كلَّ ذلك حسب هيرمارخوس لم يدفع الإنسان إلى الالتزام بالمنافع المجتمعية المتبادلة التزاماً تاماً، وبقي خوف الإنسان من الإنسان قائماً ولو بشكل ضمنيٍّ في دائرة الذاكرة التي كانت تستحضر الماضي وتتوجَّس منه، ولأجل ذلك، قامت النخب المفكِّرة في هذه المرحلة بتقييم مدروس لمصالح المجتمع من خلال التفكير في الدوافع الطبيعيَّة للخوف من جهة، وللعدوان من جهة أخرى، وهي نجحت في نقل مثل هذا التفكير إلى حدود دائرة المجتمع، في إشارة واضحة إلى اختراع القانون الذي ركَّز هيرماخوس عليه مصحوباً بنظام عقوبات يتمّ إيقاعها على من لا يستوعب المنافع المتبادلة داخل المجتمع، أو على من لا يتقيَّد بالقيود المفروضة على السلوك. ما تحقِّقه القوانين هو بديل صوريٌّ لإدراك المنفعة الذاتيَّة. والخوف من العقوبات إنما يعكس بديلاً فعَّالاً للخوف من ضياع المصلحة المشتركة. والقانون ومراقبته يشكِّلان نظاماً من الأمن الاجتماعيِّ مشابهاً للتحصُّن من الخوف الذي تقدِّسه فلسفة الفرد عند أبيقور.

والواضح أنَّ أبيقور، حسب ما ينقل هيرماخوس في فقرات أخرى، يربط بين القانون والعدالة، لأن الأخيرة تهدف إلى تحقيق منفعة متبادلة تدرك أساساً من خلال الاتفاق بين الأفراد على ألاَّ يلحق الواحد منهم الأذى بالآخر، وبذلك تكون عدالة الطبيعة رمزاً للمنفعة المتبادلة التي تضمن تحقيق مبدأ «لا ضرر ولا ضرار». والعدل في الأصل صفة القانون الذي يهدف إلى تحقيق منفعة متبادلة... وإذا كان ابتكار القانون عملاً لمن يملك فكراً فإنَّ قبوله ومراقبة تطبيقه تعتمدان على الاتفاق المتبادل بين الذي يقبلونه ويراقبون تطبيقه،

[1]- Diogenos, X. p 75.

ولأجل ذلك فكلٌّ من العدالة والقانون يقوم على قاعدة تعاقديَّة ستشكِّل حسب أبيقور مكمن العدالة[١].

وإذ يفترض أبيقور أنَّ هدف العدالة هو تحقيق المنفعة المتبادلة، فهو يؤكِّد على أنَّ ذلك هو هدفها على وجه الدقَّة، وأن ليس ثمة شيء آخر هو هدف العدالة. فمن فكَّر فيها إذن من الفلاسفة قبل ذلك بما هي شيء يطلب لذاته، كأفلاطون الذي اعتبرها مثالاً أبديَّاً مستقلاًّ، كانوا يتعلَّقون بالأوهام.

ومشكلة خرق القانون لا تكمن في انتهاك معيار مطلق ولا حتى في احتماليَّة توقع العقاب بل في الألم نفسه، الذي يعبر عنه أبيقور بالخوف وعدم الشعور بالأمان واضطراب الذِّهن. وبالتالي «من يخرق في السرِّ أيَّاً من بنوده الاتفاق الذي أبرمه الناس مع بعضهم لن يضمن أن يفلت من دون اكتشافه حتى إذا فعل ذلك آلاف المرَّات إلى أن يموت».

ومفهوم أبيقور حول العقد القائم على عدم الإضرار قريب الشبه بنظريَّة السوفسطائيين في جمهوريَّة أفلاطون[٢]. لكن بينما تجعل الأخيرة الإنسان عدوانيَّاً بطبعه يقبل العقد مضطرَّاً، تجعله الأبيقوريَّة يتَّجه نحو الأمن ومن ثمَّة نحو الترحيب بالعقد ترحيباً حاراً كوسيلة لتحقيق ذلك.

وتوفُّر العضويَّة في المجتمع الذي يحكمه القانون، الحماية ضدَّ مخاطر تهدِّد السعادة والحياة، ويقترح أبيقور طريقتين من أجل تدعيم الاحساس بالأمن، **الأولى:** انسحاب الإنسان من الكثير من شؤون الحياة، وهي قاعدة تقوم على فكرة مفادها أنه يجب علينا أن نعيش من دون أن يرانا أحد، وبالتالي من دون أن نعمل بالسياسة لأنَّه عمل خطير يتأسَّس على نظرة كاذبة حول كيفيَّة تحقيق الأمن وتوطيده[٣]. أمَّا **الثانية** - وهي تتمِّم الأولى – فهي أنَّ الحياة الخاصَّة التي نتوارى فيها عن عيون الناس ليست حياة عزلة ولا هي تخلٍّ تامٌّ عن

[1]- Long and Sedley, the Helenistic philosophers, V.1, P.134 – 135. And: Mitsis, epicuru's ethical theory. pp. 79 – 97.

[2]- Annas, J.E. the morality of happiness, oxford, 1993. pp. 293 – 302.

[3]- Diogenos, X. p 121. And: fowler. D.P. «eucretius and politics» in: Grriffin and Barnes, edd. philosophia togata: Essays on philosophy and roman society, oxford, 1993. pp. 126 – 30.

أيَّة علاقات اجتماعيَّة، ذلك أننا نحتاج إلى أصدقاء ليس من أجل ما يؤدُّونه إلينا من منافع فحسب، بل كذلك من أجل ضمان مساعدتهم، ولأنَّ تكوين الصداقات يعين المرء على احتمال مخاطر الحياة ومخاوفها، ومن دونها سوف لن يكون بمقدورنا أن نحقِّق سعادة في حياة مستمرَّة وآمنة.

وإذا كان ما يبرِّر مبدأ الصداقة في أساسه هو مفهوم الأمن، فإنَّ الصداقة لن تكون حقيقيَّة ما لم نحب أصدقاءنا كما نحبُّ أنفسنا، وما لم نتحمَّل الألم عنهم ونخاطر من أجلهم، وبالتالي تتطلَّب النفعيَّة ألاَّ نكون نفعيين[١].

مثل هذا التفسير لأبيقور كما يصوره هيرماخوس يرسخ نظرة متناقضة تشبه ما تقوم عليه الآن نظرية الاختيار العقلاني[٢]، وإذا صح ذلك فسيكون تفكيره أكثر تعقيداً من تفكير خلفائه الذين طوروا التفسير- القائم على المشاركة والتعاقد[٣]- للسبب الذي يجعلنا نحب أصدقاءنا من أجل أصدقائنا أنفسهم[٤].

ويلخِّص بلوتارخ الاعتراض الرئيسيَّ على الموقف الأبيقوريِّ بصفة عامَّة معتبراً أنَّ الحكيم الأبيقوريَّ يشارك في منافع الحياة في دولة المدينة لكنه لا يساهم بأي إنجاز، وهو اعتراض كان قد وجه إلى الكلبيين من قبل. وإذا كان الأبيقوريون يقيِّمون عالياً مفهوم الأمن الذي يتحقَّق من خلال القانون والنظام السياسيِّ والمناصب الحكوميَّة، فإنَّهم يرمون به إلى التهلكة بانسحابهم من النظام السياسيِّ مفترضين أنَّ أعظم المناصب الحكوميَّة والنُّظم لا تقارن براحة البال وصفاء الذهن اللذين يوفِّرهما الاعتزال، وأنَّه من الخطأ أن يكون المرء ملكاً.

وفي مواجهة اتِّهامهم بالتطفُّل على المجتمع يركِّز الأبيقوريون دفاعهم على الدعوة إلى حياة السكينة والطمأنينة، والتركيز على الواقعيَّة السياسيَّة التي تعرضها هذه الدعوة...

---

[1]- Bollack, J. «Les maximes de l'amitié», association Guillaume Budé, Acte de VIIIe congress, paris, 1969. pp. 211 – 236.

[2]- Mitsis, Epicuru's Etical theory, ch3.

[3]- Annas, the morality of Happiniss, pp.236 – 244.

[4]- Festugière, A. J. Epicurus and his gods, oxford, 1955. Ch.3.

ومع ذلك يسلِّمون بأنَّه سيكون هناك دائماً من يتطلَّع إلى السلطة والمجد مهما كان الثمن. ولذلك فما لم يكن ثمة انهيار في العمل العام أو تهديد للنظام السياسيِّ وللمجتمع، فلا ضرورة لدخول الحكيم معترك السياسة.

ب. الرواقيَّة، والعيش وفاقاً للطبيعة[1]

إنَّ أهمَّ وثيقة تؤسِّس للفكر السياسيِّ الرواقيِّ هي كتاب «نظام الحكم» أو «الجمهوريَّة» لزينون، وهي عمل يشترك في كثير من مبادئه ورؤاه مع الرفض الكلبيِّ للمدينة، كما هو الحال مع كتاب خريسبيوس" الجمهورية»، الذي وضعه دفاعاً عن زينون وتأكيداً لأفكاره[٢].

وما يؤسَف له أنَّه لم يبقَ من هذا الكتاب إلاَّ متفرِّقات. وسيكون مصدر معرفتنا بأفكار زينون السياسيَّة خصم لدود للرواقيين هو فيلوديموس الأبيقوري (المعاصر لشيشرون)، الذي اعتبر أن «جمهوريَّة» زينون ذات نزعة كلبيَّة واضحة، وكذلك ما تركه كاسيوس الشكاك من مناقشات للجمهوريَّة لخَّصها كالآتي[٣]:

يطرح زينون في بداية كتابه حول نظام الحكم برنامجاً للتربية والتعليم لا طائل من ورائه، وهو يعتبر أنَّ من ليسوا أخياراً فهم أعداء وعبيد، ثمَّ يباعد بينهم وبين بعض، الآباء عن الأبناء، والإخوة عن إخوتهم... إلخ. فيما يجعل الأخيار في الجمهوريَّة وحدهم المواطنين، والأصدقاء والأقارب والأحرار... وهو ينادي بشيوعيَّة النساء ويرفض بناء المعابد والمحاكم في المدن والتعامل بالعملة... إلخ.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ مثل هذه المبادئ لو صحَّت نسبتها إلى زينون - وهي صحيحة - تحوي أصداء واضحة للتعاليم الكلبيَّة، ولشيء من مبادئ أفلاطون. وأهمُّ العناصر المذكورة هنا هي التعليم ومسألة المواطنة وإعادة تحديد العلاقات الفرديَّة. يغيِّر أفلاطون صورة الأسرة عندما يجعلها مساوية في الامتداد لمجتمع الحرَّاس، ويقدِّم ذلك على أنَّه السبيل لتحقيق التناغم في المدينة، لكن زينون لا يعترف بالأسرة ولا بالقرابة النسبيَّة بل بالمجتمع كوحدة

[1]- Baldry, H.C. «Zeno's ideal state», jornal of Hellenic studies 1959, V79, pp 3 – 15. Dawsm, D. Citics of the gods, oxford, 1992. ch4. Griffin, M.T. Seneca, a philosophie in politics, oxford, 1976.

[2]- Diogenos, VI. p131, 188. And: VI, p 34.

[3]- Schofeild, The stoic idea of city, pp. 6 – 11.

متكاملة، وهو عنده يزيح العوائق التي تحول دون حصول التناغم. والصداقة وصلة القرابة الحقيقيَّة فضيلة أخلاقيَّة وهي شرط مسبق للحكمة، إذ وحدهم الحاصلون على الفضيلة قادرون على إقامة صداقات اجتماعيَّة سليمة[١].

ولقد وضع أفلاطون الحكمة في حرَّاسه، واعتقد أن تعليمهم يؤثِّر في الترابط الاجتماعيِّ، ولذلك كانت المؤسَّسات الاجتماعيَّة عنده ضرورة إلى جانب الفضيلة، وهو يتَّبع خطَّة محكمة في التقسيم الطبقيِّ في المدينة ككلٍّ تهدف إلى التوافق، لكن زينون يعتمد أكثر على الكمال الأخلاقيِّ للفرد. ومثل هذا الاختلاف ينعكس تلقائيَّاً على بنود نصَّيهما حول التعليم، حيث يدعو الأول إلى إصلاحات جذريَّة للنظام مع فرض رقابة على الشعر وإصلاحات للموسيقى والألعاب الرياضيَّة، بينما يرى زينون أنَّ التعليم الذي نحتاجه هو تعليم البساطة الأخلاقيَّة(أنت لا تحتاج إلى تعليم فلسفيٍّ تفصيليٍّ بل إلى الفضيلة) التي يقتضيها السلوك وفاقاً مع الطبيعة[٢]، والتي ترتقي بالمثُل السياسيَّة المتعلِّقة بالصداقة والتوافق والحريَّة، خلافاً للكلبيين، وبالحبِّ الذي يحقِّق كلَّ ذلك، قال: «الحب إله يعين على ترسيخ سلامة وأمن المدينة».

وما كان يدور في ذهن زينون هو تعديل عاطفة الشخص الناضج نحو الصغار، والتي تنعكس في الاهتمام بتنشئتهم تنشئة أخلاقيَّة حدَّدها أفلاطون في قواعد وأُسس في محاورتيَ المأدبة وفايدروس. والإنجاز المميَّز لزينون كان أنَّه لم يكشف في الحب عن هذا النحو عن ديناميَّة خاصَّة للتعليم الأخلاقيِّ للمواطنين فحسب، بل كشف فيه أيضاً عن ديناميَّة للصداقة والتوافق في المجتمع بأسره. وربما كانت فكرته أنَّه إذا كان اهتمام الحكيم بتنشئة محبوبه تنشئة صالحة يقابَل باهتمام مثله ويرتِّب ثماراً أخلاقيَّة، فإنَّ المحبوب سوف يبلغ الحكمة، وينال الفضيلة، ويملك الصداقة بما هي شيء لا يتحقَّق إلاَّ بين الحكماء الذين يوحِّد بينهم التوافق باعتباره إدراكاً للخير المشترك.

لقد ترك زينون أثراً في حوارييه وطلاَّبه، وها هو خريسبيوس خليفته يكرِّر في كتابه «الجمهوريَّة» الكثير من آرائه وأفكاره ومبادئه المأخوذة في العموم عن الكلبيين، لكنه في

[1]- Fraisse, J.C. philia; la nation d'amitié dans la philosophie antique, paris, 1974. pp. 348 – 373.

[2]- Dioginos, VI. P. 104.

دعوته إلى نظريَّة المدينة العالميَّة سيعكس تطوُّراً ملموساً لمفهوم زينون عن مجتمع الأخيار والحكماء، ثمَّ لا يلبث في كتابه «أنواع الحياة[١]» أن يؤكِّد بطريقة مختلفة تماماً هذه الفكرة مع تركيز واضح على معاداة الكلبيَّة في ما يتعلَّق بتنوُّع أدوار الحكيم في خضمِّ تجارب الحياة.

لقد خرج خريسبيوس عن المسار ليؤكِّد عمق انتمائه إلى العالم وانخراطه فيه. وهو اعتبر أنَّ الحكيم سواء اختار البلاط أم السياسة أو التعليم أو الخطابة فسوف يحقِّق من وراء ذلك ثروة ومجداً كما لو كانتا خيراً حقيقيَّاً.

لقد كان اهتمام خريسبيون بالحياة في البلاط الملكيِّ واعتقاده أنَّ السياسة التقليديَّة في دولة المدينة تنطوي على استغلال للمناصب المرموقة التي يشغلها الأصدقاء لتحقيق مزيد من الثروة، دليلاً على استجابته للمتغيِّرات السياسيَّة في عصره. وأكثر ما يميِّز تصوُّره عن الحياة السياسيَّة هو نزوعه نحو التقليد وتأثُّره بالرؤى الكلاسيكيَّة في الفلسفة السياسيَّة[٢].

إن عبارة زينون: «الحكماء وحدهم الملوك» يُقصد منها، حسب خريسبيوس، النظام الملَكيُّ المطلق الذي لا يحتاج إلى قانون، ذلك أنَّ الحاكم في المدينة إذا كان هو الحكيم فهو وحده من يعرف ماهيَّة الخير وماهيَّة الشرِّ، وبالتالي يصبح مؤهَّلاً وحده للحكم بشكل عامٍّ، وللحكم المطلق بشكل خاصٍّ[٣].

وأفضل المراتب بعد مرتبة الملِك أن يكون المرء مستشاراً في بلاطه أو في حملة عسكريَّة يقودها الملك، ويحسن ذلك خصوصاً عندما يُظهر الأخير ميلاً فطريَّاً نحو الفضيلة وشغفاً شديداً بالمعرفة. ولم يكن خريسبيوس استثناءً بين الرواقيين في ما خصَّ العمل مع الملِك، فلقد كان برسايوس أفضل تلامذة زينون مستشاراً للملك المقدونيِّ أنتيجونوس جوناثان وأصبح في نهاية الأمر قائداً من قادته. وعمل سفايروس (النصف الثاني من القرن الثالث) في بلاط الملك البطلميِّ فيلادلفوس في الإسكندريَّة، في الوقت الذي كان يعمل فيه لدى

[1]- Schofield, the ctoic Idea, pp. 17 – 20, 119 – 127.

[2]- Kindstrand, J.f. Bion of Borysthens, uppsola, 1976.

[3]- Diogenos, VII, p.122.

كليومينيس الثالث ملك إسبارطة، وهو ساعده في إصلاح النظام التقليديِّ عن طريق تنشئة الصبية تنشئة عسكريَّة[١].

إن تصوُّر خريسيبوس العام للبشر على أنَّهم حيوانات اجتماعيَّة، مخالفاً بذلك المفهوم التقليديِّ في الرواقيَّة المبكرة حول المشاركة في شؤون المدينة المتوقَّعة من المواطنين، سيترسَّخ كمبدأ من مبادئ الرواقيَّة في ما بعد. فها هو شيشرون يعتبر - معبِّراً عن رأي رواقي – أنَّه وفاقاً للطبيعة الإنسانيَّة يؤدِّي الناس واجباتهم العامَّة في الدولة، وافترض سوبايوس أنَّ الزواج وإنجاب الأطفال من الالتزامات الاجتماعيَّة والسياسيَّة التي تقع على عاتق الرجال بوصفها التزامات طبيعيَّة ومن ثمَّ يؤدُّونها طواعية بشرط أن يكون الحكم في الدولة معتدلاً. والحكيم يلعب في ما يتَّصل بالسياسة دوره الخاصَّ عندما يبدي النظام علامات على التقدُّم باتِّجاه أفضل حكم أو دستور. ما يعوقه عن هذا الدور هو أن ينتشر الفساد في الدولة إلى حدٍّ يمنعه من أن يقدِّم نفعاً أو أن يحثَّ على فضيلة وينهى عن رذيلة، وهما أساس السياسة وجوهرها.

وإذا كانت الحياة الفلسفيَّة صورة من صور الوجود، فقد رفض خريسبيوس معادلتها بحياة السياسة والطمأنينة الناتجة من اعتزال الحياة السياسيَّة والاجتماعيَّة. وهو انتقد اللذَّة المعهودة، التي نظَّر لها الأبيقوريون، ورأى أنَّ أفضل أنواع الحياة هي تلك التي رسَّخها السوفسطائيون حين احترفوا ممارسة مهنة التعليم، مفترضاً أنَّ الاتهامات التي وجَّهها أفلاطون إلى السوفسطائيين من أن الدافع الأساسيَّ وراء احترافهم التعلُّم كان دافعاً ماديِّاً، رغم اهتمامهم بالمعرفة والفضيلة، صحيحة، لكنها ليست شيئاً سلبيَّاً. واعتقاد أفلاطون بأنَّ الفيلسوف الحقيقيَّ لا يسعى نحو الثروة والمال ولا يقبل التجارة بالعلم موقف غير واقعيٍّ حسب خريسبيوس، إذ إنَّ المال، ولو لم يكن خيراً حقيقيَّاً، هو شيء مفضل، ومن الأمور المحايدة التي لا هي خير ولا هي شرٌّ في ما يتَّصل بالسعادة. ومثل هذا النمط من أنماط الحياة عند خريسبيوس يكشف عن أهميَّة أن يبحث المرءعن قوت يومه الذي يتطلَّب منه السعي والمكابدة، ليس في ما يتَّصل بالحياة الفلسفيَّة، بل بالحياة بصورة عامَّة. وعليه، فلا يضرُّ الحكيم أن يجمع ثروة من حياته في البلاط، أو من عمله في السياسة، أو من أصحابه الذين يشغلون مناصب عليا.

[1]- Diogenos, VII. P.6.

غاية ما يقصده خريسبيوس من هذا الجدال هو التأكيد على أنَّ الإنسان حيوان اجتماعيٌّ بالطبع، وهي فكرة عبر عنها الرواقيون من خلال مفهوم مميَّز هو [١](oikeioses) أو التعايش. وهو مصطلح تصعب ترجمته على وجه الدقَّة، لكن ليس من الصعب صياغة جوهر النظريَّة الرواقيَّة حول المجتمع السياسيِّ استناداً إليه.

ما يقصد من مصطلح كهذا هو أنَّ الإنسان لا يتحرَّك بفعل المصلحة الذاتيَّة حسب، بل لديه أيضاً دوافع طبيعيَّة للاندماج مع غيره من البشر، الذين يرتبط بهم ويرتبطون به، وإحساس عميق بالاهتمام. وإذا كانت بعض الحيوانات تعبرِّ عن سلوك إيثاريٍّ فمن الطبيعيِّ أن يمارس الإنسان مثل هذا السلوك بوصفه أكثر الحيوانات اجتماعيَّة وكتعبير واقعيٍّ عن طبيعته.

وقد لا يرتقي الكثيرون بالمصالح المتبادلة استناداً إلى دافع الإيثار، ويفشلون في تحقيق الانسجام مع غيرهم بسبب الفشل الذي يلحق بطبيعتهم بفعل البيئة الاجتماعيَّة. ولأجل ذلك، طوَّر الرواقيون فهماً معياريَّاً للطبيعة الإنسانيَّة وعبرَّوا عن أفكارهم حول الدافعيَّة إلى الاندماج بصورة «ما يجب أن يفعل» أو بصورة واجب أخلاقيٌّ.

من هنا، فإنَّ اللُّجوء إلى مفهوم الطبيعة من قبل خريسبيوس يهدف إلى تفسير أكثر الحقائق وضوحاً حول الوجود الإنسانيِّ، وهي أنَّ الناس حيوانات اجتماعيَّة (politika zoia) كما كان يقول أرسطو. لكن لم يوضح شيشرون - في ما بعد - في كتابه «عن حدود الخير والشر» كيف تتشكَّل الصورة الخاصَّة بالمخالطة عن طريق التعايش (oikeiosis)، أو كيف يتحقَّق التكيّف الطبيعيُّ والاندماج بوصفهما أصل العدالة، وستبقى هذه العلاقة غير مستقرَّة في النصوص الرواقيَّة. يكشف ذلك، بلا التباس، عن أنَّ زينون وخريسبيوس كليهما لم يكن واضحاً عندهما كيف يتأتَّى للتعايش أن يقود إلى اندماج من أجل الخير، وسيحاول رواقيون من القرن الثاني (ق.م) تقديم رؤية أكثر وضوحاً لمفهوم التعايش نفسه، وسيشتقُّ أنتيباتر[٢]

[1]- pemproke, S. «oikei⊠ses» in: long. A.A. problems in sotoicism, London 1971. pp. 114 – 49. Annas, The morality of happiness, pp. 262 – 76. Engberg – Pedersen, T. the stoic theory of oikei⊠ses, Aarhus 1990. and: striker, «following nature». Oxford studies in Ancient philosophy, V.10. 1991. pp. 35 – 61.

[2]- Schofeild, M. «Two stoic papproaches to justice» in: Laks and Schofeild, justice and Genorecity,

(Antipater) من مثل هذا المفهوم مبدأ «عدم إلحاق الأذى بالآخرين» مفسِّراً إيَّاه بعدم استخدام العنف ضدَّ الغير، وأنه إذا أخبرت الطبيعة كلَّ فرد بأنَّه يجب عليه أن يراعي مصالح غيره فإنَّ ذلك سيمنع انتهاك هذه المصالح. وسيسلك بانيتيوس (panaetius) مسلكاً مشابهاً مفترِضاً أنَّ الفضيلة مرتبطة بالتعايش والمخالطة الاجتماعيَّة الطبيعيَّة. ولذلك، فهي ترتكز على حماية العلاقات الإنسانيَّة والترابط. والعدالة التي تحدِّد واجبات كلِّ فرد، والتي تمنع إلحاق الضرر بأيِّ فرد، هي تطبيق خاصٌّ للالتزام الجوهريِّ العام بإقامة المجتمع الإنسانيّ.

لكن ما هو الحقُّ الشخصيُّ، وما المصلحة، وما هي حدود الملكيَّة الخاصَّة؟

كان انتيباتر يسعى لإبراز تماثل ما بين المصالح الفرديَّة والمصلحة العامَّة، لكنه لم يسر به إلى منتهاه، ونسب شيشرون إلى ديوجينس البابلي[١] في منتصف القرن الثاني افتراضه عدم وجود ما يُتحدَّث عنه ممَّا هو مستحقٌّ للفرد، وهو افتراض سيجعل مفهوم العدالة الرواقيِّ مفهوماً فارغاً، لكن شيشرون سيقترح معالجة في كتابه «حدود الخير والشر[٢]» مفادها أنَّ المدينة التي نعيش فيها ملكيَّة عامَّة مشتركة وجماعيَّة، لكن ذلك لا يلغي أنَّ كلَّ فرد فينا له حقٌّ في ملكيَّته الخاصَّة. وإذا كانت الأشياء مشتركة بالطبيعة، فإنَّه من الممكن أن تصبح ملكيَّة خاصَّة بطرق شرعيَّة بفضل احتلال طويل الأمد مثلاً أو غزو بالقوَّة أو من خلال تعاقد... إلخ. ومن لا يتكيَّف مع هذا الشيء فسوف يخترق «عدالة الرابطة الإنسانيَّة» بوصفها شيئاً طبيعيّاً.

يعزِّز مثل هذا التفكير دعوى خريسبيوس حول أنَّ العدالة طبيعيَّة وليست وضعيَّة، أي أنَّ ما هو عدل وظلم شيء موضوعيٌّ بصرف النظر عن القانون الوضعيِّ، وما يربط بين موضوعيَّة العدالة والطبيعة الكونيَّة هو العقل. وليس القانون الذي يحدِّد ما هو عادل وما هو ظالم إلاَّ العقل الصحيح الذي ينطبق على الغاية العمليَّة من الإقدام على الفعل الأخلاقيِّ أو الإحجام عنه. وهو يتحقَّق في الفرد في التناغم مع الطبيعة الإنسانيَّة ما دامت هي في ذاتها

pp. 195 – 205. Striker, Following nature, p. 35, 50, 59.

[١]- هو ممثِّل الرواقيَّة في السفارة الأثينيَّة إلى روما سنة ١٥٥ (ق.م).

[2]- Annas, J.E. «cicero on stoic moral philosophy and private property», in: Griffin and Barnes, philosophia togata, pp. 151 – 173. Ersking, the Hellenistic stoa, ch5. Schofield, «morality and the low: the case of Diogenes of Babylon» in: schofeild, saving the city, London, 1999.

عقلاً يرشد إلى أفضل نظام في الكون. فالعقل إذن مرشد، وهو عندما يدرك الفهم الصحيح سيضعنا في موقف ندرك فيه ما يجب أن نفعله وما لا يجب وفقاً لإرشاداته. وأحد الأسباب التي لأجلها يسمَّى العقل قانوناً هو أنَّ الدور الذي يلعبه في حياتنا، لمَّا كان في الأصل وظيفة داخليَّة ذاتيَّة، فهي لا تؤدَّى عادة إلاَّ وفقاً لقانون وضعيٍّ خارجيٍّ[١].

وإذا كانت نظريَّة التعايش (oikeiōsis) تبيِّن لنا أنَّ النزوع نحو العدالة إنَّما هو وظيفة من وظائف منظومة الدوافع عند الإنسان، فإنَّ الرجوع إلى الطبيعة الكونيَّة يمدُّنا بغاية أكثر أهميَّة وجوهريَّة، وهي تفسير الدور الذي تحقِّقه الأوامر الأخلاقيَّة في حركة الأشياء بأكملها. ومثل هذا التفسير يندرج ضمن النظريَّة الرواقيَّة في العناية، التي خصَّصت العالم ليكون سكناً ومدينة للآلهة والبشر، ككائنات تشترك في ما بينها بقانون طبيعيٍّ هو العقل.

فالمجتمع الذي يوحي به إذن الرواقيون هو المدينة العالميَّة[٢] أو مدينة الكون، وهي مدينة تعتمد على معيارين، الفضيلة والحكمة. والمدينة الوحيدة الحقيقيَّة، أو الجماعة أو التنظيم الأخلاقيُّ الذي يدير شؤونه بالقانون أو بالفعل الصحيح، هي جماعة الأخيار أو الحكماء التي تتَّفق في ما بينها على الاهتمام بالعقل الصحيح. لقد كان زينون (كما نسب إليه) يعتدُّ بمفهومَي التوافق والصداقة. وهما كانا يمثِّلان الدعامة الأساسيَّة لوحدة المدينة الفاضلة. وكان يدعو إلى دولة عالميَّة أو نظام سياسيٍّ يحوي البشر كافَّة[٣]. ولأجل ذلك ربط بلوتارخ بين جمهوريَّة زينون ومفاخر الإسكندر ملمِّحاً إلى أنَّ نجاح الأخير في السيطرة على الإغريق والبرابرة، عبر حدود مترامية الأطراف ومحاولاته للمزج الثقافيِّ بينهم، تعبِّر عن فلسفة رواقيَّة وضعت موضع التطبيق.

وعندما يستعمل خريسبيوس كلمات مثل «مدينة، قانون» في السياق، فهو يهدف إلى إحداث تحوُّل جذريٍّ في معانيها، وإلى تجريدها من أيِّ شيء عاديٍّ يمكن أن يكون معروفاً في محتواه السياسيِّ.

[1]- Striker, G. «origins of the concept of natural law», proccedings of the Boston Area colloquim in Ancient philosophy, V.2, 1987. pp 79 – 102.

[2]- Long, «Creek ethics after Macintyre and the stoic community of reason» in: Acient philosophy, V.3, 1983. pp. 184 – 99. And: Schofield, the stoic idea, ch. 3 and 4.

[3]- Schofield, «the disappearing philosopher king» in: Schofield, saring the city.

لقد تطوَّرت المدينة الفاضلة كما قرَّرها زينون وخريسبيوس، لتصبح مجتمعاً عالميَّاً يطلق على مواطنيه، كما قال ديوجينيس الكلبيُّ نفسه، مصطلح (Kosmopolital) مواطني العالم. وهي ليست عالميَّة لأنَّها تضمُّ كلَّ البشر بل لأنَّها مؤلَّفة من الآلهة والحكماء أينما وجدوا، هي ليست مجرَّد مجتمع واسع بل مجتمع من نوع مختلف تماماً.

لكنَّ مثل هذه الدعوة إلى المواطنة العالميَّة ستضعف في العصر الرومانيِّ الأمبراطوريِّ عند أقطاب الرواقيَّة منذ سينيكا، لمصلحة المجتمعات القائمة، التي نجد فيها أنفسنا حيث يلقي المنظور الكونيُّ بظلاله على أفضليَّة الحياة العاديَّة من غير استبدالها على الإطلاق بأنَّه حياة أخرى[١].

لقد كان الأستقراطيون الرومان في أواخر العصر الجمهوريِّ يستوعبون عمق الثقافة الفلسفيَّة اليونانيَّة، التي استمدُّوا منها لغة للحوار والجدل حول قضايا السياسة ولغة لصياغة الاختيارات التي يتعينَّ عليهم الإقدام عليها «ولقد كان استخدام مثل هذه اللُّغة يعكس أحياناً شكلاً من أشكال الالتزام العميق كان يتبدَّى في موقف شجاعة نادرة كما هو الحال في تحوُّل كاسيوس[٢] إلى الأبيقوريَّة واعتزال الحياة السياسيَّة بعد انتصار يوليوس قيصر في الحرب الأهليَّة».

لكن معظم الأعمال التي تتضمَّن النظريَّة السياسيَّة الرواقيَّة والأبيقوريَّة، والتي ترجع إلى الفترة الهللنستيَّة الأساسيَّة في ثقافة روما في عصرها الجمهوريِّ، ضاعت. ويذكر شيشرون مثلاً أن بانيتيوس الرواقيُّ الذي كان صديقاً مقرَّباً من رجل الدولة سكيبيو أفريكانوس كان يشارك بوليبيوس الاهتمام بنظريَّة نُظم الحكم وتطبيقها على نظام الحكم الرومانيِّ، لكنه لم يتبقَّ من أعماله كلمة واحدة. وما ينسبه ديوجينس اللاَّيري إلى الرواقيين، من أنَّ دستور ديكايارخوس الإسبرطيِّ المختلط هو أفضل نظم الحكم، غالباً ما يُنسب إليه.

---

[1]- Badian, E. «Elexander the creat and the unity of monakind» in: Historica, V.7, 1958. pp. 425 – 44. And: Scholied, the stoic idea of city, Ch4.

[٢]- كان سيناتوراً رومانيَّاً اشترك في مؤامرة اغتيال يوليوس قيصر، وخاض حرباً مع جيشه هُزم فيها ثمَّ انتحر.

Monigliano, A. «Epicureans in Revolt», in: journal of Roman studies, V31, 1941, pp. 151 – 157. And: Bront, p. A. «Cicero's officium in the civil war», Ibid, V.76, pp. 12 – 32.

مع الأبيقوريَّة سيتحسَّن الوضع قليلاً، وسنجد عملين يرجعان إلى نحو (٥٠ ق.م) وهما قصيدة لوكريتيوس عن طبيعة الأشياء، التي أهداها إلى عضو مجلس الشيوخ الرومانيِّ، (ميميوس)، وكتاب ألَّفه الفيلسوف اليونانيُّ فيلوديموس حول هوميروس وبقيت منه لنا شذرات[١].

أمَّا لوكريتيوس فقد خصَّص الجزء الأكبر من قصيدته لعرض المذهب الأبيقوريِّ في الطبيعة، وإثبات أنَّ الغاية القصوى من البحث فيها إنما هو التحرُّر من الخوف. لكنه مع ذلك سيستثمر قصيدته لأغراض أخلاقيَّة ووجوديَّة مفنِّداً مثلاً الفكرة الضحلة حول أنَّ الأمن يتحقَّق عن طريق الثروة أو عن طريق ممارسة السلطة السياسيَّة. وهو في الكتاب الخامس من قصيدته يقدِّم مناقشة لأصل الحياة وتطوُّرها أكثر تفصيلاً من نظريَّة هيرمارخوس حول التكوين الأول للمجتمعات ووضع القوانين. وفكرته تعكس بوضوح تاريخ روما من حكم الملوك الأوائل إلى أيامه. وهو افترض أنَّ المجتمعات الأولى بدأت على يد قادة بارزين في الفكر من ذوي العقول النيِّرة، وتحوَّلت إلى قلاع حصينة، وتولَّى فيها هؤلاء الحكم كملوك مكافأة لهم على قوَّتهم ورجاحة عقولهم. وبعد ذلك ابتُكرت الملكيَّة الخاصَّة، وكُدِّست الثروات، وراح الناس يستمتعون بها ممَّا أفسد الثروة الحقيقيَّة التي هي العيش في سكينة وسلام. وازدادت رغبة الناس في السلطة والمجد ممَّا أدَّى إلى قتل الملوك وتوليِّ الغوغاء السلطة. حدث ذلك عندما تعلَّم الناس وضع القوانين وتحديد المناصب بعدما أنهكهم العنف وأضعف قواهم.

أمَّا الأجزاء الباقية من كتاب فيلوديموس فهي تتعلَّق بصفة أساسيَّة بالدور الذي يقوم به الملك من أجل الارتقاء بمفهوم السلام أو التسامح والرفق، بما هي مقوِّمات أساسيَّة تقوم عليها أيديولوجيا الحكم في العصر الهللنستيِّ.

وهو قدَّم لنا نماذج لحكام ناجحين مثل «أوديسيوس» الذي قضى على الفوضى العامَّة في مهدها، ونستور الذي بذل قصارى جهده في فضِّ النزاع بين أخيليوس وأجامنون،

[1]- Bailey, C.T. lucreticari de Rorum Natura: Libri sex, ed with trans. And commentary, oxford, 1947. 3V. And: furley D.J. «Lucretius the epicurean: on the History of man» in: lucrèce Fondation Hardt, V.24, Geneva, 1978. pp. 1 – 37 and: Fouler, percretius and politics.

وكلاهما كانا بحسبه نموذجاً للحكمة المتحرِّرة من كلِّ انفعال[١].

ثانياً: الحكم الملكيُّ والنظريَّات الدستوريَّة

هيَّأت الظروف السياسيَّة في العصر الهللينستيِّ لتنقية التحليل الكلاسيكيِّ لأشكال الحكومات وتكييفه[٢]. وما شكَّل قاعدة لذلك هو صعود أنظمة حكم أوتوقراطيَّة. وبحلول القرن الثاني ق.م. تحوَّلت الملكيَّات التقليديَّة إلى ملكيَّات فرديَّة. لقد بقيت دولة المدينة لكنَّها أصبحت مجبرة على صياغة علاقات من نوع جديد مع ممالك توسُّعيَّة أمبراطوريَّة، وبالتالي فقد كان أمامها إما الرضوخ والرضا بحكم ذاتيٍّ منقوص في ظلِّ سلطة أحد الملوك، وإمَّا الانضمام إلى عصبة إقليميَّة مستقلَّة على شكل تجمُّع سياسيٍّ أو حلف، وهي أحلاف ستترك أثراً في الفكر الهللنستيِّ الرومانيِّ لا مردَّ له.

ولقد ظلَّت دولة المدينة الحرَّة كذلك - في أعقاب التطوُّرات- ديموقراطيَّة، لكن مع مكوِّن تنفيذيٍّ قويٍّ هيمنت عليه مجموعة ضيِّقة محدودة من العائلات الثريَّة القديمة[٣]، وبالتالي سيختفي التمييز الكلاسيكيُّ بين الديمقراطيَّة والأوليغارشيَّة في مدن كانت تعتبر نفسها ديمقراطيَّة رغم توجُّهها الأرستقراطيِّ، وأصبح التمييز الآن بين مدينة ذات درجة عالية من الحكم الذاتيِّ وأخرى يديرها ممثِّل لأحد الملوك تحت مظلَّة حامية عسكريَّة، وسيكون نظام الحكم الملكيُّ والنظريَّة الدستوريَّة في هذه الفترة موضع اهتمام معظم الفلاسفة و«مدارسهم» الذين لم يكتب لشيء من تراثهم البقاء رغم أنَّ ديوجينس اللاَّيري سيحفظ لنا القسم الأكبر من عناوين هذه الأعمال[٤] التي يبدو أنها كانت تناقش سمة وخصائص الملك

---

[1]- Schofield, M. «Le sage et la politique à l'epoque hellénistique» in: Brunschwig, J. and Lloyd, G.R. (ed.), Le savoir grec, Paris, 1996. pp. 218 – 26. And: Schofield, The disappearing philosopher king.

[2]- Sinclair, T.A., Aristotle, the politics, trans. by saunders, Harmonds worth 1962. pp.242 – 44. And:
Walbank. F.W. the hellenistic world, London, 1981. pp. 60 – 122, 141 – 158.

[3]- O'Neil, J.L. the origines and development of ancient creak Democracy, London, 1995. pp. 103 – 133.

[4]- Sinclair, Aristotle, The politics, pp. 248, 253. And: Aalders, political thought in Hellenistic times, pp. 5 – 16. And, walbank, Monarchies… pp 65 – 77.

المبتغى[١]، وهو تقليد استمرَّ على مدى العصور القديمة وصولاً حتى القرون الوسطى[٢]. بينما سيستمرُّ التراث الدستوريُّ على أساس كتابات أفلاطون وأرسطو في جزء معتدٍّ به منه، وفي مثل هذه الظروف المتغيِّرة سيحظى التنظيم الداخليُّ وتطويره باهتمام خاص، وسيناقش الرواقيون في القرن الثاني التنظيم الأمثل للمناصب العليا وأهمية إحداث توازن بين السلطات للحيلولة دون وجود حكومات ملكية مستبدة، ولأجل ذلك دافع ديكايارخوس عن دستور مختلط يجمع بين الملكيَّة والدستوريَّة، وهو احتذى في ذلك بالدستور الإسبارطيِّ[٣]. وهناك نصَّان من هذه المرحلة يتضمَّنان نصائح للملوك، ويبدو أنهما منحولان. الأول هو خطاب من أرسطو إلى الإسكندر، والثاني رسالة من أرسيناس إلى فيلوكراتس.

وهناك نصَّان آخران يستخدمان نظريَّات محدَّدة لوصف تاريخ سياسيٍّ محدَّد وتفسيره (بوليبيوس وثيودور الصقلي)، ويعودان إلى القرن الثاني قبل الميلاد، أو يعكسان فكر ذلك القرن. وكل واحد منهما يعالج القضايا السياسيَّة لواحدة أو أكثر من قوى أربع كبرى في ذلك الوقت هي: مقدونيا، البطالمة، الديموقراطيَّة الآخيَّة والجمهوريَّة الرومانيَّة. ورغم أنَّ اهتمامنا هنا منصبٌّ على روما المبكرة لكن النصوص هذه تكاد تكون مترابطة في مضامينها على تنوُّع وجهاتها...وتكشف عن دلالات عامَّة طبعت العصر هذا برمَّته، ولأنَّ روما المبكرة ستكون ميدان تطبيق مفاهيمها كما سيتَّضح من نصِّ بوليبيوس الفائق الأهميَّة حول الدستور الرومانيّ.

١. نظريَّات حول الملكيَّة، « رؤى يونانيَّة- بطلميَّة»

النصَّان الأوَّلان السابق ذكرهما، الموجَّهان إلى الملكيَّات المقدونيَّة والمصريَّة على التوالي، يقدِّمان النصح ظاهريَّاً لملك تاريخيٍّ حقيقيٍّ من وقت سابق انطلاقاً من ظروف سياسيَّة متأخِّرة ورؤية مختلفة للطبيعة البشريَّة، وإذا كان تعليم الملك هو مفتاح الحكم

[1]- Fraser, P.M. ptolemaic Alexandria, 3V. oxford, 1972. V1. P. 485. And: Walbank,F.W. «Monarchies and monarchic ideas», Cambridge Ancient history; Cambridge; 1984. V.7. pp. 62 – 100.

[2]- Hadot, p. «fürstenspiegel» in: Reallexikon für Antike und christentun, V.8. stuttgart, 1972. pp. 555 – 632. And: walbank, Monarchies… pp. 65 – 77.

[3]- Wehrli, F. Die schole des aristotles: texte und kommentar, V.1: Dikaiarchos basle, 1944. pp.2269-

الفعَّال فإنَّ كلا النصَّين يشكِّلان إسهاماً ظاهريَّاً في ذلك التعليم، وإذا كانا يختلفان في افتراضاتهما السياسيَّة فهما يتَّفقان في الكثير من العناصر المشتركة.

أمَّا النموذج المقدونيُّ فهو خطاب تخيُّليٌّ، من أرسطو إلى الإسكندر، كتب في فترة جد متأخِّرة من القرن الثاني، ومع هذا احتُفظ به ضمن مجموعة مؤلَّفات أرسطو كمقدمة بلاغية بعنوان: «خطاب إلى الإسكندر[١]»، وهو خطاب يحث الملك على دراسة البلاغة والمنطق، وكتب على شاكلة نصائح الملوك التي سبق أن كتبها كسينوفون، لكنه يستند إلى نظريَّة أكثر تنظيماً حول مهمَّة الملك وسلطانه، كانت طُوِّرت في المناخ السياسيِّ الإغريقيِّ - الهللينستيِّ.

ويقارن النصُّ هذا بين الحكم الديمقراطيِّ والملكيَّة مفترضاً أنَّه في نظام الحكم الأول يكون القانون هو المرجعيَّة في الحكم على أفعال الناس، بينما في الحكم الثاني فإنَّ المرجعيَّة تتمثَّل في الحوار العقلانيِّ (logos). لذلك فبينما يقود القانون العامُّ عادة المدن المتمتِّعة بالحكم الذاتيِّ إلى أفضل وضع ممكن فإنَّ الحوار العقلانيَّ يقود المدن الملكيَّة إلى وضع ملائم، لأنَّه في الحقيقة قانون يحدِّده اتفاق عامٌّ من جانب المدينة، يفصل فيه كيف ينبغي للشعب أن يتصرَّف في أوضاع بعينها.

وجدير القول أنَّ الملك يؤدِّي المهمَّة نفسها التي يؤدِّيها القانون بالعلاقة التي رسمها أناكسارخوس الفيلسوف حين اعتبر أنَّ الإسكندر هو «القانون وتعريف العدالة» بالنسبة إلى رعيَّته، وهو كان يحذو حذو أفلاطون وأرسطو في إعلائهما شأن الحاكم فوق القانون[٢].

ثمَّ إنَّ إقامة توازن بين أفعال الملك وبين القانون يفترض مسبقاً وجود الملك الفاضل

---

[1]- Fuhrmann. M, Anaximenis Ars Rhetorica, leipzig, 1966. And: RForster, E. S. «Aristotle: Rhetorica ad Alexandrum, trans. In: Ross. W. D. (ed). the works of Aristotle translated into English, Vol. IV. oxford, 1924. And: HEtt and Rhakham, Aristotle: problems II, Books XXII – XXXVIII, rheotorica ad Alexandrum, Cambridge, 1937.

[2]- Bosworth B. Elexancdre and the east: the tragedy of triumph, oxford, 1996. Ch.4. and: Billows, R.A. «Antigonos the one – eyed and the creation of the hellenistic state» in: hellenistic culture and Society, 1990, Berkley, V.4, pp. 155 – 160, 323 – 325 and: Wolbank, the Hellenistic state» in: Hellenistic culture and society, 1990. Berkley, V.4. pp.155- 160, 323- 325. And: Walbank, The Hellenistic world, pp. 55 – 57.

الحكيم. ومؤلِّف الخطاب يستخدم فرضيَّات نفسيَّة أفلاطونيَّة غامضة في دعوته إلى تطوير قدراته المنطقيَّة وتنمية فضائله معتبراً أنَّ البشر يختلفون عن الحيوانات في امتلاكهم العقل (logos) بالإضافة إلى الرغبة (epithumia) والعاطفة (thunros).

أمَّا العقل فهو هبة إلهيَّة تمكِّن البشر من تحقيق الفضيلة والخير والسعادة، ومثل هذا المفهوم الضمنيِّ للطبيعة البشريَّة يضع الأساس لنقاش يربط بين القيمة المعنويَّة للعقل وبين وظيفته النفعيَّة في كلِّ واحد من الاهتمامات الأربعة الأساسيَّة للملوك، وهي الوضع السياسيُّ، والجدارة الأخلاقيَّة، والحكم الفعَّال، والخير والرضا على المستوى الشخصيّ. «والأنبل للملك أنَّ ينعم بروح تتَّسم بصواب الرأي، وسيكون الأمر غريباً لو أنَّ شخصاً ذا مكانة مرموقة في مجال الفعل قد ظهر بمستوى أدنى من الناس العاديين في الحوار العقلانيِّ، الذي هو معيار الجدارة الأخلاقيَّة، وأساس المدح والذمِّ، وأكثر القدرات قدسيَّة، وأعظم شرف يسبغه الإله على المخلوقات الحيَّة».

وكلُّ واحدة من هذه الرؤى الأخلاقيَّة سترتبط بطرح نفعيٍّ، إذ الحوار العقلانيُّ يرشد به الملك رعيَّته إلى وضع ملائم، وهو وسيلة العدالة والخير المكوِّنين أساساً للحكم الملكيِّ وللأمن القوميِّ والشخصيِّ وللسعادة، والمؤلَّف ليصعِّد من المناشدات المنفعيَّة هذه يصوغها في مجازات عسكريَّة بما يثير في الملك المخاوف على سلامته الشخصيَّة، معتبراً «أنَّ البحث والتمحيص العقلانيَّ لما هو مفيد هو حصن الأمان»، «وأنَّ التعليم قد تأسس على أنَّه حامي الروح» «وكما أنَّ القائد هو منقذ الجيش وموجِّهه فكذلك العقل مع التعليم هو قائد الحياة».

وإذا كان الحوار العقلانيُّ والعقل المتعقِّل هما السبيل لتحقيق الغايات الأوليَّة للمَلِك، فإنَّ التدريب على الحوار يصبح عند ذلك أولويَّة قصوى. وقدرة الملك التي يكتسبها بالتعلم تجعله يعمل العقل كأساس كاف للنظام الاجتماعي مماثل للقانون في مجتمع ديموقراطي. وتعينه على إبداء الرأي السديد والتصرُّف بصورة مستقلَّة.

أمَّا النصُّ الثاني، وهو رسالة أرسيناس إلى فيلوكراتس[1] فهو تقرير متخيَّل عن الظروف المحيطة بترجمة العهد القديم إلى اليونانيَّة، وهو يصف سلسلة من سبع موائد، زاعماً أنَّ

[1]- Wendland, p. «Die schriftstellerie des anaximenes von lampsakos, III. anaximene's Rhetorik» in: Hermes, V. 39, 1904. pp. 499 – 542.

بطليموس الثاني فيلادلفوس قد مرَّ عليها وسأل كلَّ واحد من المترجمين الاثنين والسبعين سؤالاً يتعلَّق بالحياة وبحكم مملكة من الممالك[١]، وقد أجاب كلٌّ منهم بقول مأثور قد صيغ بطريقة تظهر أنَّ المبدأ الذي تقوم عليه الإجابة مستمدٌّ من الله. ثمَّ أقرَّ الملك إجابة كل واحد منهم وشكرهم على ما يقدِّمون من تعليم حول الملكيَّة[٢].

ولقد احتدم الجدل بين الباحثين حول الغرض من الخطاب ومن المأدبة الملكيَّة فيه، لكنَّهم اتَّفقوا على أنَّ نقاشاته السياسيَّة ذات الطابع الخياليِّ تشير إلى أهداف سياسيَّة، وفوق ذلك فإنَّ معرفة المؤلِّف الوثيقة بالممارسات الإداريَّة البطلميَّة في القرن الثاني ترجِّح أنَّه كان على علاقة وثيقة بالبلاط، وفي وضع يسمح له بالمساهمة في السياسة والنقاش حولها[٣]، لكنَّ طبيعة ما تسهم به هذه الوثيقة لا يتَّضح على وجه الدقَّة، والاثنان وسبعون سؤالاً لا تتراتب وفق تنظيم منهجيٍّ، هي تبدأ بالفضائل الأساسيَّة المكوِّنة للملكيَّة، وهي العدالة الملطَّفة بالرحمة والعناية الخيِّرة بصالح الرعيَّة[٤]. ثم يتعرَّج السؤال بعد ذلك عبر إطار واسع من الأمور العمليَّة وصولاً إلى السياسة العامَّة وتفاصيل الإدارة. ورغم أنَّ النصائح المقدَّمة عمليَّة بدرجة كبيرة، لكن ليس في النصِّ ما يكشف عن محاولة لإقناع الملك بجدوى الوصايا،لأنَّها تكتفي بأن تجد مبرِّرها من كونها ممنوحة من الربِّ. حتى الصفات الملكيَّة كالعدل والرحمة وفعل الخير، التي عادة ما تحظى بالتأييد في ضمان الحظوة عند الشعب، تذكر من منطلق أن الربَّ عادل ومتسامح ويقدِّم الخير لبني البشر. وأحياناً يعتبر الكاتب

ويلاحظ الترجمة الإنكليزية والفرنسية عند:

Hadas, M, Aristeas to philocrates (letter of aristas), new york, 1951. and: pelletier, A. la lettre d'aristée à philocrate, in: sources chretiennes, V.89. paris, 1962. and: Fraser, ptolematic Alexandria, V.1, pp. 696 – 703.

[1]- Zuntz, G. «Aristeas 1: «the seven banquets» in: journal of semitic studies, V.4, 1959. pp. 21 – 36. And: Murray, O. «aristeas and ptolemaic kingship» in: journal of theological studies, V.18, 1967. pp. 337 – 371.

[2]- Fraser, ptolemaic alexandria, V.2, p 970. And: Hadas, M. Aristeas to philoc.ates (lettre of Aristeas), pp. 3 – 54. schmidit, w. Untersuchungen zur fälschung historischer dokumente bei pseudo-Aristaios, haberlts dissertationsdrucke, in: Reihe klassis che philosogie, V.37, Bon, 1986. pp. 116 – 143.

[3]- Frazer, ptolematic, V.1, pp. 698 – 699.

[4]- Zuntz, Aristeas 1, pp. 24 – 31. and: Murray, Aristeas and ptolematic… p. 344, 353 – 61.

أن التصرُّف الفاضل للملك ورضا الشعب عنه إنما هما نتيجة تدخُّل إلهيٍّ وأنهما يتحقَّقان بالصلاة لا بالاختيار العقلانيّ. وإذا كانت الأمور التي تؤخذ عن الربِّ في الرسالة تبدو سطحيَّة إلاَّ أنَّها تحوِّل الجدال الأساسيَّ للنصيحة كليَّاً لتبدو معه أفكار أريستياس حول الملكيَّة خليطاً من نظريَّات هللنستيَّة- إغريقيَّة عن الملكيَّة... فصِّلت بتمامها وكُيِّفت وفق الظروف السياسيَّة للعصر[١].

والخلفيَّة اليونانيَّة البطلميَّة التي تشكِّل مرتكز أريستياس تتَّضح بشكل أبعد عند ثيودور الصقليِّ المؤرِّخ اليونانيِّ من القرن الأول (ق.م)، والذي يجسِّد وصفُه ذو الصبغة المثاليَّة، لطريقة حياة البطلميين، المفهوم نفسه عن المَلَكيَّة[٢].

والرؤية المتضمَّنة في هاتين الروايتين تختلف عن النظريَّة المقدونيَّة في نظرتها المتدنِّية للعقل البشريِّ وفي الأساس القانونيِّ التعويضيِّ للمِلْكيَّة، ذلك أنَّ البشر في النظريَّة المقدونيَّة يسعون بطبيعتهم إلى اللَّذَّة والمنفعة التنافسيَّة ممَّا يجعلهم عرضة لإطلاق العنان لرغباتهم ولعدوانيتهم فيقعون في الظلم. وإذا كان الناس يمتلكون قدرة إعمال العقل فإنَّ أغلبهم يستغلُّونها لتقديم ملذَّاتهم ومصالحهم الأنانيَّة على ما عداها، ثمَّ إذا ما أخذنا بالاعتبار الدوافع الكاسحة نحو اللَّذَّة والطمع والمجد، فسيكون من الضروريِّ أن يصبح ضبط النفس هو الشرط الضروريَّ للإعمال الصحيح للعقل. وفق هذا المنطق، يُنادى بالعقل كأكثر أشكال الحكم فعاليَّة وكجوهر تقوم عليه الملكيَّة. وإعمال العقل إنَّما يحقِّق غايته في التحكُّم بالعواطف بعد أن يسيطر الإنسان عليها ويمسك بزمامها، ويتحقَّق ذلك بتجنُّب الخداع والوفاء بالالتزامات، وبالتالي فضبط النفس الذي هو شرط للمِلكيَّة ولحياة الاجتماع إنما نصل إليه بالتمرين. والنظريَّة هذه تشترط كذلك ضرورة خضوع الملك للقوانين التي تنظِّم كلَّ أوجه حياته، وهو يدرَّب منذ شبابه المبكر على ألاَّ يقع ضحيَّة إغراءات المجد والثروة، وعلى ممارسة ضبط النفس والاعتدال والإنصات إلى وصايا الرجال الخيِّرين، لضمان تمتُّعه بأفضل المبادئ الأخلاقيَّة والإداريَّة ووضعها في اعتباره عند اتخاذ القرار.

[1]- Marray, «Hecataeus of abdera and paraonic kingship», in: journal of Egyption archaeology, V. 56, 1970. pp. 141 – 71.And: Murray, Aristeas and ptolemaic, pp. 346 – 349. zunty, Aristeas 1, pp. 31 – 36.

[2]- Zuntz, Aristeas 1, pp. 31 – 36. And: Marray, Aristears and ptolemaic, pp. 346 – 349.

أمَّا في الرؤية اليونانيَّة البطلميَّة فإنَّ حياة الملك وأفعاله الإداريَّة لا تستند إلى الاختيار العقلانيِّ وإنما إلى الأعراف والقوانين التي أجازها الإله وانتقلت عبر الحكماء من جيل إلى جيل. وهي بذلك تضيِّع فرصة تدريب القدرة الخاصَّة بأعمال العقل لدى الملك لصالح نوع مختلف من التدريب يتمثَّل في تنظيم عواطفه ومشاعره في ظلِّ توجيه من قانون قديم يتحكَّم تماماً في سلوكه. ثمة مراقب من الخارج هو ثيودور الصقلي يثني على النُّظم القديمة وينسب إليها فضل الرفاهية غير العاديَّة التي عاشتها المملكة البطلميَّة تحت حكم ملك فرد. ومؤلِّف رسالة إلى فيلوكراتس مراقب من الداخل وعضو في البلاط الملكيِّ، ولذلك فهو يبدي اهتماماً بتعزيز هذا التراث من خلال عمل جديد صيغ على غرار ما كان سائداً عن طرائق الفكر البطلميّ.

٢. بوليبيوس ودورة الدساتير

سيحاول رجل الدولة الآخيُّ[١] بوليبيوس في منتصف القرن الثاني (ق.م.) مواءمة النظريَّة الدستوريَّة الكلاسيكيَّة مع الممارسات الديموقراطيَّة التي عاصرها، ثم نشْرها بين زعماء الحلف الآخيِّ الديمقراطيِّ ولاحقاً بين قادة الجمهوريَّة الرومانيَّة. وهو كان طبق نظريَّته هذه على المدن والممالك اليونانيَّة ليستخرج رؤية قابلة للتطبيق على القوى الناشئة في الغرب خصوصاً روما[٢].

لقد كان الدستور من وجهة نظره هو ما يحدِّد شخصيَّة الأمَّة، واستناداً إليه تفسِّر قراراتها وتعلل ويفهم نجاحها وإخفاقها ارتفاعها وسقوطها. وهو كان يصبو من خلال بيان كيفيَّة تغيير الدساتير وتأثير ذلك في الأحداث، إلى شرح الماضي وتفسيره والتنبُّؤ بالأحداث المستقبليَّة للدولة وللمجتمع وبالتطوُّرات التي يندفعان نحوها.

---

[١]- بوليبيوس (polypuis) رجل سياسيٌّ ومؤرِّخ بارز، وُلد في جنوب اليونان، كان أبوه رجل سياسة وصديقاً لفيلوبويمين (philopeemin) ثمَّ خليفته في رئاسة الحلف الآخيِّ. بعد معركة مقدونيا التي هُزم فيها المقدونيون، سنة ١٦٦ ق.م. نقل مع كثير من الرهائن إلى روما، لكنَّه تلقى التقدير هناك لشرف أسرته... قضى سنوات لدرس أخلاق اليونان ونظمهم. أهم ما كتبه هو التاريخ العام من ٢٢٠ – ١٤٤(ق.م). والذي لم يبقَ لنا منه إلاَّ الكتب الخمسة الأولى وشذرات.

[٢]- حلف بين مدن متعدِّدة، نشأ بعد هزيمة مقدونيا في حربها الرابعة مع روما، وقد منحت المقاطعة شيئاً من الحكم الذاتي كما هو حال أثينا، ثم تمرَّدت على روما فهزمتها ودمِّرت عاصمتها كورنتوس، ثمَّ ضمَّ الرومان كامل البرِّ اليونانيِّ وجعلوا أخايا جزءاً من مقاطعة مقدونيا الرومانيَّة.

والظاهرة التي أثارت أقصى درجات انتباهه هي نجاح روما في إخضاع كلِّ العالم المسكون تقريباً لحكمها الأحاديِّ في أقلَّ من ثلاثة وخمسين عاماً، وهو وجد التفسير لذلك في دستورها الأرقى، ثمَّ كرَّس كتاباً بأكمله لمهمة شرح أصله وطبيعته وأساس قوَّته. لكن ما هدف ذلك في ما يتَّصل بحياة الأمم التي كان يعاصرها؟ لقد كان بوليبيوس يرنو إلى تزويد رجال الدولة بمعلومات تفيدهم في تحسين دساتيرهم وتطويرها ليستطيعوا اتخاذ قرارات سياسيَّة ذكيَّة ومستنيرة[١] ناسباً وجهة نظره إلى أفلاطون، لكنها في الحقيقة لم تكن كذلك، رغم أنَّ عناصرها الأساسيَّة لها نظائر في الأفلاطونيَّة[٢].

ولا يتَّضح لنا على وجه الحقيقة مصدرها الدقيق لكنها ربما نشأت في ظلِّ الأكاديميَّة، ثمَّ تخلَّقت في الدائرة السياسيَّة لبوليبيوس في أخايا على يد اثنين من رفاقه هما إيكديموس وديموفانيس[٣]اللَّذان درسا مع الفيلسوف (Arcesilaus) (أركيسيلاوس) في الأكاديميَّة، ثم لعبا بعد ذلك دوراً في تأسيس الحلف الآخيِّ على أُسس منظَّمة ديموقراطيَّاً.

وبوليبيوس يوفق بين نظريَّة في التفسير الدستوريِّ وبين تصنيف الأنماط الدستوريَّة وتقويمها، كما صنع أفلاطون وأرسطو، لكنه اعتبر أنَّ لا التدهور المنطقيَّ التخطيطيَّ عند أفلاطون في القسم الثامن من الجمهوريَّة ولا الجمع والتصنيف الشامل لأرسطو حول دوافع التغيير في الكتاب الخامس من السياسة قد أتاحا التنبُّؤ الذي يعوَّل عليه. ما قصده من توفيقيَّته هو نظريَّة تتركَّب من مجموعة من القوانين الصارمة عن التغيير الدستوريِّ أطلق عليها اسم (نمط شامل (kaltholik[٤]) في إشارة منه إلى أنَّ نظريَّته هي وصف كونيٌّ يغطِّي كلَّ حالات التغيير الدستوريِّ الفعليِّ[٥]. ولأنَّه كان رجل دولة فهو اعتبر كلَّ استقرار دستوريٍّ أساساً لقوَّة أيَّة أمَّة ونجاحها. وبلوغ ذلك يتطلَّب وضع تصوُّر علميٍّ قادر على تفسير التغييرات

[1]- Walbank, polybius, U.S.A. los Angelos, 1972. pp.101- 31. Pédechi, p. La méthode historique de polybe, paris, 1962. pp. 303 – 317.

[2]- Fritz, V., «The theory of the Mixed constitution in Antiquity: a critical Analysis of polybius», Politial Ideas, New York, 1954. pp. 44 – 95.

[3]- Cole, T. Democritus and the sources of Creek Anthropology, Gleveland, 1957. pp. 163 – 166.

[4]- Hahme, D.E., «polybius, applied political theory, in: Laks and Schofield, justice… pp. 7 – 47.

[5]- Hahme, Ibid, pp. 7 – 47.

الدستوريَّة الماضية والتنبُّؤ بأيِّ تغيير مستقبليٍّ. وهو رأى في الجملة أنَّ هناك ثلاثة أنماط دستوريَّة عموميَّة تتميَّز فيما بينها استناداً إلى عدد القائمين على الحكم، (فرد، مجموعة قليلة، كثرة من الناس). ثم قسم الأنماط هذه إلى نوعين محسَّن وغير محسَّن- أو منحرف – وافترض أنَّ كلَّ الأنماط هذه، محسَّنة أو غير محسَّنة، غير مستقرَّة. وأفضلها ثباتاً هو الذي يجمع فضائل الثلاثة المحسَّنة جميعاً.

ومثل هذا التصنيف للدساتير يختلف عن تصنيف سابقيه لجهة تأويله لطبيعة الحكم الرشيد الذي يقوم عنده على رضا المحكومين، والذي يكتسب بأسلوب في الحكم يقوم على الذكاء والفضيلة.

وهو تصنيف كذلك ينأى بنفسه عن النظريَّة الكلاسيكيَّة في الفلسفة السياسيَّة، لأنَّه يحاول التكيُّف مع الافتراض الأساس للديمقراطيَّة الهللنستيَّة كما تجسَّد في موطنه أخايا قبل هزيمتها عن طريق شكل من السيادة الشعبيَّة المقرونة بسلطة تنفيذيَّة يمثِّلها شاغلو المناصب العليا ذوو التوجُّه المدنيّ.

أ. نظريَّة الأنماط الدستوريَّة

يعدِّد بوليبيوس ستة تغييرات يؤدِّي كلٌّ واحد منها إلى ظهور نمط من الأنماط الدستوريَّة السابقة. يبدأ التسلسل بحكم الفرد، ثمَّ يتطوَّر من خلال مبادرة بشريَّة إلى حكم ملكيٍّ، ليتدنىَّ بعد ذلك إلى حكم الطغيان. ومن الأخير تنبثق الأستقراطيَّة ثم تنحدر إلى الأوليغارتشيَّة، لتظهر بعد ذلك الديموقراطيَّة، ثمَّ تتدهور إلى حكم الغوغاء تمهيداً لظهور الملكيَّة من جديد.

مثل هذه العمليَّة سيسمِّيها بوليبيوس «دورة الدساتير[١]». وهو كان على ثقة بأنَّ المرء يمكنه التنبُّؤ بأيِّ نمط منها سيطرأ من بعد، لأنَّها نموذج الطبيعة في مستوى الإدارة الذي بمقتضاه يتطوَّر البناء الدستوريُّ ويتغيرُّ ويعود ثانية إلى حالته الأصليَّة. مثل هذا التمثيل يوحي بأنَّ بوليبيوس يعتقد أنَّ المجتمع يسير وفق قانون طبيعيٍّ ويتبع سلسلة مقدَّرة سلفاً من التغيُّرات تتضمَّن ثلاث حالات يتحقَّق فيها تدهور من حالة جيِّدة إلى شكل منحرف عنها.

[1]- Hahme, ibid, pp. 14 – 16.

وبالتالي فالتغيرُّ يقوم على تسلسل دوريٍّ يمكِّننا من التنبُّؤ بأن يقوم المرء بتحديد موضع دستور ما في الدورة ثم يستقرئ التطوُّرات المستقبليَّة من النموذج.

لكن التنافر وعدم الاتِّساق الواضح بين دورة صارمة من الدساتير والتاريخ الفعليِّ كما تحقَّق عرَّض نظريَّته للنقد، فضلاً عمَّا في مطابقة تسلسل الدساتير مع النموذج الطبيعيِّ للنموِّ والازدهار من غموض[١]. وهذا ما رجَّح عنده تفسيراً آخر بديلاً، يكشف عن أنَّ المصطلحات البيولوجيَّة للنموِّ والازدهار هي مجرَّد استعارة لحقيقة كون التغيرُّ يتَّبع أنماطاً منتظمة متأصِّلة في الطبيعة البشريَّة، وبالتالي تصبح طبيعيَّة في ذاتها يمكن التنبُّؤ بها كالسلوك البشريِّ سواء بسواء.

وسيحذو بوليبيوس حذو توكيديديس في السعي وراء تفسيرات نفسيَّة للقرارات الفرديَّة والجماعيَّة التي رسمت مسار التاريخ، معتقداً أنَّ الطريقة التي بها تصدر العلاقات بين الأفراد تحدِّد كيف أنَّ الحالة النفسيَّة يمكن أن تشكل مثل هذه القرارات باعتبارها دستوراً. وإذا كان للطبيعة البشريَّة جانبان، حيوانيٌّ وقدرة على إعمال العقل، فإنَّ العلاقات الإنسانيَّة ومنها الدساتير ستكون محكومة بعمليَّتين متعارضتين، منافسة غير عقلانيَّة من أجل السلطة، ومحاولة عقلانيَّة لبناء نظام اجتماعيٍّ أفضل. ويشرح بوليبيوس تفصيلاً هاتين العمليَّتين من أجل أن يسلِّط الضوء على واحدة من التغييرات الدستوريَّة المتمثِّلة في الحكم الملكيِّ صعوداً أو هبوطاً. ولكي يتيح للسِّمات الأساسيَّة لهاتين العمليَّتين أن تبرز فهو يصوِّر أصول المجتمع البشريِّ على أنَّه تجمُّع طبيعيٌّ بسيط لأناس تحت سلطة أقوى الأفراد وأكثرهم عدوانيَّة، وهو تجمُّع يشكِّل الوظيفة الأكثر طبيعيَّة أو الوظيفة الأصليَّة للطبيعة، ذلك أنَّ الارتباط في صورة قطيع من جانب الأنواع الطبيعيَّة للدفاع عن نفسها ضدَّ إعداد طبيعيٍّ هو شيء مترسِّخ في الضعف الطبيعيِّ نفسه لهذه الأنواع ممَّا يفترض سمة فطريَّة لتعويض الضعف بالتعاون.

وإذا كان تفسيره يفترض عدوانيَّة فطريَّة، فهو يعي أن ذلك يعود إلى المنافسة الداخليَّة التي يتبعها على نحو الدوام كعمليَّة طبيعيَّة بدئيَّة إلى سيطرة الأقوى، وبذلك يتشكَّل حكم الملك.

[1]- Alders, political thought – pp. 109 – 10. And: Fritz, the theory of the mixed, pp.89- 95. Hahm, p. 16.

وإذا كانت فطرة العدوان تؤثِّر إلى هذا الحدِّ في السلوك البشريِّ، فإنَّ المنطق العقلانيَّ لا يقلُّ تأثيراً عن ذلك. فهو ساهم كذلك بتطوُّر حكم الفرد إلى نظام ملكيٍّ، ذلك أنَّ الحاكم الفرد حين يبدأ باستخدام تقديره العقلانيِّ تدريجيَّاً في اتخاذ القرار منسجماً في ذلك مع المفاهيم والأعراف والقيم المتَّبعة في ما يتَّصل بما هو عادل وجميل، فإنَّ أفراد رعيَّته الذين أطاعوه بدافع الخوف سيخضعون له طواعية عندما يعرفون عقلانيَّة تقديره، ثمَّ يدافعون عنه ضدّ التحدِّيات ويحافظون على حكمه. وبالتالي ينشأ الحكم الملكيُّ في ظلِّ شرطين، أن يحكم الحاكم الفرد وفقاً لمفاهيم أخلاقيَّة متَّفق عليها عموماً وأن يدرك الشعب الأساس العقلانيَّ لحكمه. وإذا كان الدستور الملكيُّ ينبع من النزعة التنافسيَّة الفطريَّة للسكَّان فإنَّ اختيار الصالح المشترك سيستند بالضرورة إلى شكل تطوُّر للمفاهيم الأخلاقيَّة المشتركة استناداً إلى العقلانيَّة فيصبح كلُّ تطوُّر دستوريٍّ حينئذٍ مبنيَّاً على نظريَّة في الأخلاق متجذِّرة في العقلانيَّة البشريَّة[١].

أمَّا تطوُّر المفاهيم الأخلاقيَّة فهو إنما يقوم من خلال التعامل بعقلانيَّة مع جدوى أنماط معيَّنة من السلوكات ومن خلال التأمُّل في جدوى الصالح العام والخير المشترك، وبالتالي يقوم المجتمع بتطوير مفاهيم مشتركة لما هو محبب وعادل ليصبح مؤهَّلاً لحكم ملكيٍّ بمجرَّد أن يجد الزعيم القويَّ الذي يتصرَّف وفق القيم المشتركة. وسيسهم بوليبيوس من خلال هذا التصوُّر في إرساء شكل من القيم الأخلاقيَّة النفعيَّة التي تقوم على المصلحة الذاتيَّة المستنيرة، المتناسبة مع الظروف. وهو شكل وثيق الصلة بالأخلاق الأبيقوريَّة رغم أنَّه لا يعتبر الالتزام الأخلاقيَّ نابعاً من دوافع المصلحة الذاتيَّة من خلال ميثاق يُبرم بين الأفراد. بل من الرغبة في تقرير التبادليَّة الفطرية في المنافع الخيرية التي تربط علاقة الأهل والأبناء داخل الأسرة[٢].

ما يقدِّمه الرجل هنا حول الملكيَّة لا يختلف كثيراً عن الملكيَّة المثاليَّة التي عرفها عصره، فالملك يحظى بالاعتراف والتقدير من خلال اهتمامه باحتياجات رعيَّته، وحكمه بالعدل، ودفاعه عن المدينة، وبذلك يحقِّق لها القوَّة والاتِّحاد والرفاهية الاقتصاديَّة.

[1]- Cole, Dimocritus… pp. 80 – 96.

[2]- Ibid, pp 80 – 130.

وإذا كان بوليبيوس يؤمن بأنَّ مثل هؤلاء الملوك وجدوا في الماضي عندما كان يختارهم الشعب أو يصدق عليهم، فإنَّ ذلك تغيَّر لاحقاً عندما انحدرت الديمقراطيَّة وبدأ الملوك يحكمون بالوراثة ويحصلون على أكثر من كفايتهم ويتَّبعون رغباتهم، فانحدر الحكم الملكيِّ إلى طغيان. وهو اعتقد أنَّ أحد أكثر أسباب هذا التدهور إنما هو شعور الملك بالأمان الذي يصاحب كلَّ حكم وراثيٍّ. ذلك أنَّ الالتزام بفعل الخير المتبادل وبالمفاهيم الأخلاقيَّة المشتركة حول العدالة والشرف النابعة من حسابات منفعيَّة، إنما تنشأ في شعب يعي أن الملك غير محصَّن ولديه نقطة ضعف يشعر بسببها بحاجته إلى شعبه. والجانب الوحيد هذا إنما يتمُّ ضمانه في مملكة آمنة مزدهرة على الأرجح من خلال انتخابه أو التصديق عليه من قبل مواطنيه. وهي ضمانة يقضى عليها من خلال وراثة الحكم. وإذا كان ثمَّة من يرى أنَّ التعلُّم يحسن فضائل الملوك فإن بوليبيوس ظلَّ ملتزماً بالرأي القائل إنَّ الملوك بالوراثة مقدَّر لهم أن يكونوا طغاة سواء بتعلُّم أم بغير تعلُّم. وإذا كانت هذه هي الكيفيَّة التي تنشأ فيها الملكيَّة في حكم الفرد ثمَّ تنحدر إلى طغيان فرواية بوليبيوس عن التغيُّرات الأخرى التي تؤدِّي إلى الأرستقراطيَّة والأوليغارشيَّة والديموقراطيَّة ثمَّ حكم الغوغاء لم تنل سوى تقدير ضئيل من التفكُّر والشرح، وهو في السياق يكتفي بإيضاح اختلافها عن الدساتير الملكيَّة التي حظيت بشرح مفصَّل. وكذلك يتجاهل بوليبيوس العمليَّة الخاصَّة بالتنافس على السلطة رغبة منه في التركيز على كيفيَّة تدنيِّ كلِّ نوع من الدساتير البسيطة إلى صورة منحرفة. مثل هذا التدنيِّ كان ذا أهميَّة قصوى بالنسبة إليه لأنه مفتاح الاستقرار الدستوريِّ الذي ينشده كأساس لكلِّ قوة وطنيَّة. ولأنَّه يتأتَّى من الإحساس بالأمان من قبل الحاكم ذي السلطة فإن السبيل الوحيد للحدِّ من التدهور هو الحدُّ من هذا الإحساس، لكن ذلك لا يمكن أن يتحقَّق على الدوام بواسطة دستور بسيط. وإذا كان وجود دستور مثاليٍّ يحتكم إليه أمراً مستحيلاً، فإنَّ أفضل دستور هو المختلط[١] الذي من شأنه أن يقيم شروطاً تحول دون الركون إلى الاطمئنان غير المبرَّر من قبل الحاكم، كما هو الحال في دستور إسبارطة مثلاً، الذي يعتمد على شرط مفاده أن لا يملك أحد مكوِّنات السلطة سيطرة مطلقة تجلب أماناً غير مبرَّر يفجِّر طاقة الحكم الاستبداديِّ.

[١]- الدستور المختلط هو الذي يجمع بين النُّظم الملكيَّة والأرستقراطيَّة والديمقراطيَّة ويختار منها أفضل العناصر ومزجها معاً.

ب. النظريَّة السياسيَّة كمدخل لفهم التاريخ

كان اهتمام بوليبيوس الأول بالنظريَّة السياسيَّة نابعاً من جدواها كأداة تساعد في تفسير التاريخ من جهة، وتقدِّم العون لرجال الدولة من أجل استباق أيِّ تحوُّل سياسيٍّ والتحكُّم به من جهة ثانية، ولأجل ذلك راح يطبِّقها لإلقاء الضوء على تغييرات دستوريَّة تدخل في نطاق فهمه للتاريخ في أمكنة ثلاثة: مقدونيا، وطنه الأم (أخايا) وإسبارطة.

وهو رأى في السلوك القاسي الصارم للملك المقدونيِّ فيليب الخامس سبباً لتحوُّل الحكم الملكيِّ إلى طغيان، بينما سيجد أنَّ العدل، الذي حفل به حكم فيليب الثاني والإسكندر وأنتيجونوس وقبول الرعيَّة به، سيدفع الملكيَّة إلى أوج ازدهارها.

لكن تفسيره لتحوُّل حكم فيليب الخامس خليفة أنيتجونوس، الذي كان لديه الخصائص الأساسيَّة للحكم وحظي بقبول رعيَّته، إلى حكم طغيان ينحرف عن النموذج النمطيِّ لنظريَّته، لكن بوليبيوسن يفترض أن دافع التغيير هذا إنما نشأ من الأمان غير المبرَّر الذي بدأ به فيليب هذا فترة حكمه وميوله نحو تعظيم الذَّات، وهو بالتالي شيء يشبه تجربة حكم ملك وراثيٍّ[١].

أمَّا في ما يتَّصل بالأمَّة الآخيَّة فهو وجد فيها قطاعين من نماذج التغيير الدستوريِّ. إذ بدأ الآخيون ملكيَّة لأجيال، ثمَّ انحدروا إلى الطغيان، ثمَّ تحوَّلت المدن إلى الديمقراطيَّة، ثمَّ إلى حكم الرعاع، لتعود إلى الحكم الملكيِّ مرَّة أخرى.

أمَّا الإسبارطيون فقد تحوَّلت مملكتهم إلى ملكيَّة فرديَّة مع ثورة كليومنتس لكنها لم تنحدر إلى حكم طغيان، ذلك أنَّ دستورها كان مختلطاً، وهو دستور ظهر إلى الوجود بفعل عمل مخطَّط من ملك فرد، ثمَّ تحسَّن بفعل آليَّة تحدث التوازن بين السلطات من أجل الحيلولة دون تدهورها، ثمَّ انتهى هذا الدستور المختلط. وبالتالي فليس هناك انحدار بل تحوُّل إلى دستور الأسلاف انتهى إلى طغيان من خلال فعل إراديٍّ لشخص واحد مثلما نشأ سواء بسواء.

وإذا كان بوليبيوس يختبر نظريَّته بتطبيقها على الماضي، فهو يختبرها عبر فعل تنبُّؤ عبر

[1]- Walbank, polybius, p.93. and: pédech, la metode historique de polybe, pp. 231 – 232.

استباق أحداث مستقبليَّة، من خلال الارتكاز على مفهومه في السلوك البشريِّ الذي وضع أساس نظريَّته في التغيير الدستوريِّ، وفي تفسير التاريخ، استناداً إليه[١].

لقد قصد بوليبيوس أن يصوغ نظريَّته صياغة محكمة لتصبح أساساً للتنبُّؤ ولوصف كلِّ تفسير دستوريٍّ، من خلال تعقُّب جملة أحداث لتحديد الشروط المؤدِّية إليه. وبنظره عندما بدأ الملوك، بعد تسلُّمهم مناصبهم بالوراثة، بالإحساس بالأمان والتزوُّد بوفرة من الموارد، انبثق حكم الطغيان من الحكم الملكيِّ، وعندما توافر من جانب الشعب المهمَّش قادة وصل بهم الغضب حدَّ الثورة سحقت الملكيَّة وحكم الفرد تماماً وبدأت الأرستقراطيَّة. ومثل هذه الشروط هي قوانين طبيعيَّة لتغيير سياسيٍّ اجتماعيٍّ[٢]، ضمن نمط شامل بعينه كالملكيَّة، يمكن التنبُّؤ بها.

وهناك تغييرات أخرى حسب بوليبيوس كالتغيير من نمط شامل إلى نمط شامل آخر، مثل ظهور الأرستقراطيَّة أو الديموقراطيَّة الذي يُستند في تفسيره إلى الناحية النفسيَّة، وهي تعتمد على عوامل طارئة وظروف زمنيَّة غير محسومة، وبالتالي يمكن التنبُّؤ بجوانب معيَّنة منها فحسب. ولأجل ذلك تبدو دائرة التغيير الدستوريِّ عند بوليبيوس سلسلة غير حتميَّة من القوانين المتفرِّدة تم اختيارها على سبيل الإيجاز.

ت. نظريَّة التغيير والدستور الرومانيّ

إنَّ أوسع تطبيق أنجزه بوليبيوس كان على الدستور الرومانيِّ... وفي السياق سينقلب الرجل على نظريَّته انقلاباً يكاد يكون تامَّاً، ليقيم أخرى قادرة على تفسير طبيعة هذا الدستور. والكتاب السادس من مؤلَّفه في التاريخ سيكرِّس لذلك، وهو كتاب جمع فيه الرجل الدستور وأخرجه ليحقِّق لروما الإنجاز الذي سبق لأرسطو وتلامذته أن قاموا به بالنسبة إلى أثينا ودول المدينة اليونانيَّة[٣].

ورغم فقدان هذا الجزء من العمل، فإنَّ لدينا ما يكفي لنعرف أن بوليبيوس افترض أنَّ

[1]- Hahme, polybius, pp. 32 – 37.

[2]- Hahme, Ibid, pp. 24 – 32.

[3]- Walbank, A historical commentary on polybius, V.1, pp. 663 – 73. And: Fritz the theory of the mixed, pp. 123 – 154.

تطوُّر هذا الدستور كان عمليَّة متدرِّجة في الزيادة في شكل تطوُّر طبيعيٍّ - وفي تناقض صريح مع الدستور الإسبارطيِّ المختلط الذي أُنشىء بشكل مصطنع وفوريٍّ وبفعل رجل واحد - في خضمِّ صراعات وأحداث كثيرة، اختار فيها الرومان بصورة متكرِّرة أفضل السبل التي وفَّرها لهم فهمهم المتجدِّد للأحداث الذي اكتسبوه في الشدائد والكوارث، ولأجل ذلك سيقترح بوليبيوس نمطاً ثانياً من الدستور المختلط وهو ذاك الذي يتطوَّر وفق سنَّة طبيعيَّة[١].

لقد تمكَّن دستور إسبارطة من الثبات من خلال مقدرة مجموعة واحدة من الأرستقراطيين الشيوخ على التحكُّم بالأطراف الأخرى المشاركة في السلطة لتضمن التوازن بينها، بينما الدستور الرومانيُّ أمكنه أن يثبت من واقع أن ليس هناك عنصر من العناصر الثلاثة، التي يتشكَّل منها كلُّ دستور مختلط، يمكن أن يؤدِّي دوره بمعزل عن موافقة العنصرين الآخرين. فالقنصل الممثل للملكيَّة أو حكم الفرد مسؤول عن قيادة الجيش وإدارة الحرب، ومجلس الشيوخ وهو العنصر الأرستقراطيُّ يختصُّ بتمويل الجيش وإعادة تعيين القنصل سنويَّاً، في حين يقوم الشعب وهو العنصر الديموقراطيُّ بالتصديق على معاهدات القنصل وأفعاله. ومن دون تعاون الشيوخ والشعب سيعجز القنصل عن أداء مهامِّه الملكيَّة، كما سيكون تعاونه ضروريَّاً للآخرين للقيام بمهامهم.

مثل هذا التساند هو أساس استقرار روما ونجاحها، وتشير فعاليَّته إلى ملمحين، الأول: أن بوسعه توحيد المجتمع وتعزيز مجهود أفراده، والثاني: أنه يصون نفسه ذاتيَّاً إذا ما بدأ أيُّ جزء فيه النموَّ والتمدُّد خارج إطار مستوى قوَّته الحقيقيَّة ليحاول الهيمنة على الآخرين. وبالتالي تمنع طبيعة الدستور من أن يهيمن طرف على طرف، وبذلك يتحقَّق الاستقرار بالاعتماد المتبادل.

وإذا كان الدستور المختلط الذي يتطوَّر طبيعيَّاً مثل دستور روما هو أكثر الدساتير استقراراً فذلك لا يمنعه من التدهور، لكن نمط التدهور الذي يتصوَّره بوليبيوس- متمِّماً به تحليله المبتكر حول أصل الدستور الرومانيِّ وازدهاره من خلال استقراء المرحلة المقبلة مستخدماً

[1]- Fritz, ibid, pp. 155 – 252. حول تحليل بوليبيوس للدستور الروماني.

نظريَّته نفسها التي سبق أن كيَّفها لشرح تاريخ روما حتى عصره- صيغ بما يتَّفق ونموذج التغيير الدستوريِّ البسيط. وعلى نقيض النمط الإسبارطيِّ في النشأة الفوريَّة المقصودة التي يعقبها إعادة تشكيل فوريٍّ متعمد لحكم طغيان، يتصوَّر بوليبيوس تحوُّلاً تدريجيَّاً طبيعيَّاً متطابقاً مع الأصل الطبيعيِّ المتدرِّج لأصل نشوء الدستور نفسه.

ومع أنَّ تحليله للأصل قد فُقد، يمكننا تخمين أنه على مدى فترة التطوُّر إلى دستور مختلط كان كلُّ جزء من الدستور يجرى تصويره على أنَّه يحذو حذو نمط نموذجيٍّ من نوعه، وحين وصل كلُّ جزء إلى ذروة منتهاه بشكل متزامن في أواخر القرن الثالث حقَّقت روما ذروة استقرارها الداخليِّ، ثمَّ بدأت الأجزاء الثلاثة المشكِّلة للدستور (نظام الحكم) بالتدهور تدريجيَّاً بشكل متزامن.

وهو لكي يصف صور التدهور المتَّصلة في ما بينها يقدم صياغة لاثنين من القوانين الجديدة للتغيُّر المجتمعيِّ مشتقة من النموذج الأصلي أو على غراره.

الأول: عندما تحقِّق دولة ما أماناً مطلقاً ورفاهية دائمة يصبح مستوى المعيشة في بذخ متصاعد، وتزيد حالة التنافس على المناصب والمكاسب بين المواطنين.

الثاني: عندما يعتقد الناس أنَّهم قد تعرَّضوا للظلم على أيدي القلَّة بدافع الطمع، وتملَّقَ هذه الأقليَّة آخرون من الأكثريَّة حبَّاً بالمنصب، فسينسحبون من المشاركة في الحكم مع العناصر الأخرى التي تشكَّل منها الدستور المختلط، وبذلك يعيدون تشكيل نظام الدولة في صورة حكم الغوغاء.

إنَّ ما تبدَّى على أنَّه استباق مميَّز في عمل بوليبيوس للثورة الرومانيَّة هو جزء من إنجازه، وتبقى أهميَّة دوره في أنَّه تمكَّن من الحفاظ على نظريَّة هللنستيَّة – يونانيَّة صيغت على شكل مجموعة قوانين شبه علميَّة للسلوك البشريِّ تتواءم مع مفهومه الخاص للسببيَّة التاريخيَّة، ثمَّ من تطبيقها على التاريخ الهللنستيِّ الرومانيِّ على شكل خلاصة.

لقد كان تطبيقها على التاريخ اليونانيِّ نسبيَّاً لأنَّها تطوَّرت من قبل على أساس الدساتير اليونانيَّة، لكن تطبيقها على تاريخ روما تطلَّب جمع تاريخ الدستور وتصنيفه ثمَّ تكييفه على النظريَّة لكي يستطيع تحليل دستور من نوع جديد وغير مألوف. وربما قد فات بوليبيوس

الكثير من جوانب النُّظم السياسيَّة للجمهوريَّة الرومانيَّة، لكنَّه نجح في إدراك أهميَّة وجود توازن بين الجماعات السياسية - الاجتماعية المختلفة، كانت روما قد تعلمته في سياق تجارب مؤلمة ألهمتها على الدوام البحث عن حلول وسطى من أجل إدارة فعالة لشؤون الاجتماع السياسي[١].

ثالثاً: شيشرون: المحافظة السياسيَّة، الجمهوريَّة والقانون

١. الخلفيَّة التاريخيَّة[2]

منذ زوال الحكم الملكيِّ في روما عام ٥١٠ق.م. تبدَّل شكل السلطة تبدُّلاً شبه شامل، فلقد حلَّ قنصلان محلَّ الملك كانا يشغلان منصبيهما لسنة واحدة، وحلَّ مجلس شيوخ محلَّ المجلس الذي كان يقدِّم النصح والمشورة للملك... وتأسَّست مجالس شعبيَّة تتألَّف من الذكور البالغين الأحرار كانت تؤدِّي أدواراً سياسيَّة محدودة. كان القنصل يملك سلطة التنفيذ، ويقود الجيش، ويشارك في مناقشات السناتوس (مجلس الشيوخ)، ويقترح التشريعات، يعاونه قاض تقع على عاتقه مسؤوليَّة إقرار العدالة.

ورغم أهميَّة الدور المُعطى للقناصل، فلقد كان الحاكم فعلاً هو مجلس الشيوخ الذي كانت تشكِّله الصفوة الأرستقراطيَّة، وهي مجموعة صغيرة من العائلات النبيلة التي احتكرت المناصب في العموم مع استثناءات كانت تسمح بوصول وافدين غير نبلاء إلى داخل المجلس أو إلى منصب قنصل[٣]، كما حصل مع شيشرون الذي انحدر من عائلة متواضعة من خارج روما. وكان دور هذه الأرستقراطيَّة يبدأ بمناقشات السياسات ويمتدُّ إلى تقديم النُّصح والمشورة لأصحاب المناصب التنفيذيَّة.

أمَّا المجالس الشعبيَّة فكان من واجباتها إصدار التشريعات التي يقترحها الحكَّام، وعقد المحاكمات، وانتخاب الحكَّام وكبار الموظَّفين، وإعلان الحرب، ومع ذلك كان العنصر الديمقراطيُّ في الدستور هزيلاً لأنَّ نظام التصويت كان يسمح للأثرياء بممارسة نفوذهم

[1]- Fritz, Ibid, pp. 306 – 352. And: Walbank, polybius, pp. 155 – 156.

[2]- Brunt, P.A. The fall of the Roman republic and related essays, oxford, 1988. ch1.

[3]- Hopkins, K. Death and renewal, Cambridge, 1983. ch2.

بدرجات متفاوتة، ولأنَّ من كان يشغل المناصب هم فقط أفراد الطبقات العليا، ولأنَّ العوامل الشخصيَّة كالقرابة والصداقة كان لها أكبر الأثر في صنع القرارات السياسيَّة.

لكن واقع السياسة في روما كان يخفي أشكالاً مختلفة من الصراعات التي ولَّدها تنافس القوى. ثمَّة من كان يدفع باتِّجاه دعم سلطة السناتوس الجماعيَّة بلا تردُّد، وكان شيشرون نفسه يعتبر أن ذلك وطنيَّة حقيقيَّة وأن من يفعل ذلك هم الأخيار، وثمَّة من السياسيين من كان يفضل وضع القوانين مباشرة من خلال مجلس الشعب في تفضيل واضح للأمور المتعلِّقة بالعامَّة، وكان ثمَّة في الدستور مجال للأفراد المرموقين كقادة الجيش مثلاً للعمل داخل حكومات أوليغارشيَّة، ممَّا ساهم بشيء من التوتُّر بينهم وبين مجلس الشيوخ تطوَّر إلى حالة من النزاع لا تطاق أيام شيشرون، تبدَّت في أوضح صورها في قضيَّة الأخوين جراكوس اللَّذين استغلاَّ المجالس الشعبيَّة للدفع نحو إقرار قوانين تحدُّ من ملكية الأثرياء للأراضي العامَّة، وانتهى بهما الأمر نهاية مأساويَّة... ليكون ذلك إيذاناً بخطر مُحدِق تتعرَّض له الجمهوريَّة.

وهناك عوامل أخرى ستساهم في ظهور اضطرابات عسكريَّة ودستوريَّة، فمنذ أوائل القرن الأول (ق.م.) تضخَّم نفوذ القادة العسكريين، مع توسُّع الدولة خارج روما، عبر تحالفات مع الحلفاء المهزومين- لم تعد الدولة تحكمها المناقشات داخل مجلس الشيوخ القابع في روما- ثم تزايد الصراع بين القادة العسكريين أنفسهم ليولد حرباً أهليَّة متقطِّعة عام ٨١ (ق.م.)، ومنذ ذلك الوقت أصبح الفرد الحاصل على موهبة استثنائيَّة يسبِّب حالات من الاضطراب والقلق في المناخ السياسيِّ برمَّته. إن بومبي مثلاً القائد العسكريَّ الذي أكسبته انتصاراته سلطات خاصة سيكون قنصلاً عام ٧٠(ق.م)، قبل أن يكون مؤهَّلاً لذلك، عن طريق التهديد باستخدام القوة، متجاوزاً بذلك القوانين الدستوريَّة منذراً بمنافسة أرستقراطيَّة غاية في الخطورة[١].

ولقد كانت الأرستقراطيَّة هذه تستند في بناء مكانتها إلى الأخلاق التي أظهرت قدراً من التواصل في أواخر القرن الثالث (ق.م) في المجتمع الرومانيِّ. ذلك أنَّ مكانة هؤلاء

[1]- Balsdon, «Auctoritas, dignitus, otium» in: classial quartely, V.10, 1960. pp. 43 – 50.

الناس كانت تتشكَّل بانخراطهم في الحرب والسياسة، وكانوا يفسِّرون نجاحهم من منطلق أخلاقيٍّ، بمعنى أنَّ لغتهم الأخلاقيَّة كانت في جوهرها لغة اجتماعيَّة سياسيَّة، مستخدمين مزيجاً من السوابق الأخلاقيَّة والدستوريَّة باعتبارها (أخلاق السلف). مثل هذا التراث كان يوفِّر لهؤلاء الحماية نتيجة ما كان يكنُّه المجتمع للماضي من احترام... ولذلك كان الأرستقراطيُّ يكسب المصداقيَّة التي تضمن الإنصات إليه باحترام وتقدير عن طريق تمسُّكه بالفضيلة التي تجسِّدها أخلاق السلف، وهي صفة (Vilus) للرجل (Vir) تدلُّ على رجولته وعلى معاني العدالة والأمانة والاستقامة والإخلاص والحكمة... وكان مما يزيد في المكانة النجاحان السياسيُّ والعسكريُّ ... لكن التوتُّر داخل النظام بين القيم التنافسيَّة التي تجسِّدها قيم الأرستقراطيَّة والقيم الاجتماعيَّة العامة صار واضحاً وضوحاً شديداً، وأسفر عن أزمات في القرن الأول ستشكِّل ضغوطاً لا حدود لها على لغة الأخلاق. ولم يكن المحافظون الذين يتمسَّكون بالماضي هم وحدهم من يتمسَّك بأخلاق السلف، فحتى أوغسطس، الذي ادَّعى أنه استعاد الجمهوريَّة، كان مقيَّداً بمثل هذه الأخلاق لكن مع إعادة صياغتها بشكل كامل. لقد زُيِّفت لغة الفضيلة والحكمة والخير... إلخ بالمُثُلِ التنافسيَّة للأرستقراطيين[١].

٢. الشخصيَّة، التجربة والدور[2]

ولد ماركوس توليوس شيشرون في أربينوم عام ١٠٦ (ق.م)، قَدِم روما ودرس فيها القانون والخطابة، ثمَّ زار اليونان ودرس الفلسفة هناك. قابل فيلون زعيم أكاديميَّة أفلاطون وتأثَّر به، واستمع إلى دروس الرواقيِّ بوسبيدونيوس والأكاديمي أنطوخيوس في أثينا. وبقي مخلصاً لأفلاطون والأكاديميَّة طوال حياته... وكان يتَّبع التفسير المعتدل للأفلاطونيَّة متأثِّراً بفيلون.. لكنه تأثَّر مضافاً إلى ذلك بالمبادئ الأخلاقيَّة للرواقيَّة وأيَّد دعوتها إلى العمل بالسياسة والمشاركة في العمل العام في مواجهة النزعة الأبيقوريَّة.

بدأ شيشرون حياته العمليَّة في عهد سلا (Sulla). وفي عام ٧٥ (ق.م) انتخب كويستور أو موظَّفاً إداريَّاً (in ancient Rome any of a number of officials who had charge of public revenue and expenditure) وخدم في صقلية، ثم انتخب قنصلاً رغم نسبه غير

[1]- Brunt, the fall of the Roman… ch6.

[2]- Rawson, E.Q, Cicero, a potrait, London, 1975.

النبيل وعائلته غير المعروفة... لكن الأمور لم تسر وفق ما كان يأمل... فنُفي بسبب مكيدة من عدوِّه اللَّدود كلوديوس في فترة تحالف بين بومبي (صديقه) وكراكوس ويوليوس قيصر عام ٥٨ (ق.م)... ثم عاد في العام التالي في الفترة التي بدأ فيها التحالف بين المتنافسين الثلاثة على السلطة بالتصدُّع، بسبب الطموحات التي راودت بومبي وقيصر نحو ترسيخ حكم الفرد أو الحكم الملكيّ. وكان تهديد الجيش الذي كان يسيطر عليه قيصر موجوداً دائماً في الخلفيَّة... وبدا أنَّ جوهر النظام الجمهوريِّ الحرِّ قد اختفى، وذهبت معه مناقشات مجلس الشيوخ والحريَّة التي كانت تُمارَس في المحاكم أدراج الرياح[١].

لقد تحسَّر شيشرون على ضياع الجمهوريَّة، لكنه كان براغماتيَّاً بما فيه الكفاية ليرفض قانون قيصر بشأن الأراضي، وهو الذي كان أقرَّه من قبل، وليكون مع بومبي وقيصر وضدَّهما، وكان مؤيِّداً للأرستقراطيين متَّفقاً معهم وساخطاً عليهم في الوقت نفسه. في مثل هذه الأوضاع المضطربة سيعتزل السياسة مؤقَّتاً متفرِّغاً للتأليف، فوضع مؤلَّفاً تعليميَّاً خصَّص منه ثلاثة أجزاء «للخطيب». وهو لم يكن يقصد منه مناقشة أساليب الخطابة بل تحديد أفضل الخطباء[٢] باعتباره رجل دولة مجال عمله المحاكم والمجالس والسناتوس، ويعمل من أجل أمان وسلامة الجمهوريَّة. وسيمهِّد هذا الكتاب لكتابيَْ «الجمهورية» و»القوانين» تمهيداً منطقيَّاً.

وخلال النصف الثاني من القرن الأول الذي انتشرت فيه الفوضى والحروب الأهليَّة سيعود شيشرون إلى العمل السياسيِّ معارضاً لسياسات يوليوس قيصر الديكتاتوريَّة، وبعد ذلك لسياسات ماركوس إنتونيوس في خضمِّ الصراع على السلطة، لتنتهي حياته اغتيالاً خلال حكم تريومفيراتوس الثاني في ٤٣ (ق.م.).

[1]- Mitchell, I.N. Cicero the ascending years, London, 1979. And: Mitchell, I.N. Cicero, the senior statesman, London, 1991.

[2]- Kumaniecki, F.F. M. Tulli ciceronis de oratore, lepzig, 1969.

٣. الجمهوريَّة وقوانينها[1]

كان شيشرون يطمح من خلال كتابيه «الجمهورية» و»القوانين» إلى أن يقدِّم للنظريَّة السياسيَّة الرومانيَّة ما كان قدَّمه أفلاطون للنظريَّة اليونانيَّة، ولأجل ذلك سيشكل أفلاطون وجمهوريَّته مصدراً أساسيَّاً عنده، سيقتدي به في مناقشته لمفاهيم العدالة وأصول المدينة وفي الاهتمام بالتربية والتعلُّم. لكنه رغم ذلك كان يرى أنَّ الفضيلة الرومانيَّة المميَّزة هي التي تستطيع أن تزوِّد النظريَّة اليونانيَّة بالحكمة العمليَّة.

إنَّ موضوع «الجمهوريَّة» هو «أفضل المدن والمواطنين»، ولأجل ذلك كان طبيعيَّاً أن تعالج كل الأمور المتَّصلة بذلك، كالحديث عن نقاط ضعف نظم الحكم الثلاثة، الديمقراطيَّة، والأرستقراطيَّة والملكيَّة، وكمناقشة مسألة أفضل الدساتير لإدارة المجتمع، وهو الدستور المختلط من أنواع الحكم الثلاثة هذه. ولقد وجد شيشرون أنَّ أفضل تجسيد لهذا الدستور كان دستور روما، الذي قدَّم نموذجاً عمليَّاً يستكمل به العقل النظري. إضافة إلى ذلك، يحتوي الكتاب هذا على عرض مفصل للأسس المطلوبة لازدهار الجمهوريَّة، مناقشاً قضايا العدالة والطبيعة الإنسانيَّة، ثم يعرض للمواطنين ولموضوعات تعليم رجل الدولة وتدريبه وما يجب عليه اتِّباعه من سلوك وقت الأزمات.

ولقد كان موضوع الدستور المختلط محوريَّاً في فترات سابقة. في محاورة القوانين سيعتبر أفلاطون أنَّ التوازن بين الحريَّة والحكمة مطلوب للحفاظ على المدينة، وأوصى أرسطو بدمج عناصر من أكثر من دستور أو نظام حكم من أجل ضمان أفضل تدبير. وهو شيء فصل الكلام فيه بوليبيوس في كتابه التواريخ، كما أسلفنا، وهو الأقرب إلى شيشرون زمانيَّاً ومكانيَّاً[٢]. في هذا السياق، يؤكِّد شيشرون أنَّ استمرار الدستور المختلط يتمُّ عن طريق الحفاظ على عنصر القيمة في كلِّ نظام من النُّظم الثلاثة، فالقناصل يمدُّون المدينة بعنصر ملكيٍّ ويمارسون السلطة التنفيذيَّة، ومجلس السناتوس يمدُّها بمجلس حكماء أرستقراطيٍّ

[١]- حول نصِّ كتاب «الجمهوريَّة» وتاريخه يُراجَع:

Lewis, C. S. The discarded image, Cambridge, 1964. Zetzel, Cicero: on the commonwealth and on the laws, Cambridge, 1995. pp. 16 – 17.

[2]- Fritz, the theory of Mixed, ch8.

يقدِّم المشورة في السياسة، والشعب الحرُّ كان يختار الحكام وكبار الموظَّفين ويصدر القوانين. لكن ثمَّة نقاط ضعف في كلِّ عنصر من هذه العناصر كانت تتمُّ معالجتها- حسب شيشرون- على ضوء الوقائع. فالنظام الملكيُّ كان يقصر الشورى على قلَّة قليلة للغاية، وكان النظام الأرستقراطيُّ يمنح الحريَّة عن الأغلبيَّة، بينما كان النظام الديموقراطيُّ يفتقر إلى درجات الكرامة التي كان يرغب الديموقراطيون في تحقيقها بطرق عمليَّة. لقد كانت الشورى إحدى أهم عناصر الحكم الجمهوريِّ، وهي تجسَّدت في مجلس الشيوخ الأقدر على رسم سياسة الدولة من الفرد الواحد، وهو مجلس منتخب استناداً إلى معايير الفضيلة والحكمة وإلى الخبرة المتراكمة لأفراده من الصفوة. أمَّا الحريَّة فهي التي كانت تتيح الحوار البنَّاء والمشترك، وهو رأي يبيِّن تأثُّر شيشرون بالأكاديميَّة لجهة اعتقاده أنَّ تقديم المشورة يتطلَّب خبرة بالخطابة وهو شيء رفضه أفلاطون.

ولقد كان شيشرون يأخذ في «الجمهوريَّة» الحريَّة الشعبيَّة مأخذ الجدِّ، لأنَّه كان يعرف جيِّداً مخاطر عدم الاستقرار الناشئ من غيابها، لكنه كان يفترض أنَّه لا بدَّ من أن تعبرِّ عن جوهر حقيقيٍّ من خلال السماح باعتلاء المناصب والوصول إلى الخدمة القضائيَّة من خلال حريَّة الاقتراع التي تضمن التكامل بين حريَّة الشعب وحكم الأقليَّة. ولأجل ذلك، سيعتبر أنَّ العنصر الديموقراطيَّ في الدستور المختلط عنصر أصليٌّ وحقيقيٌّ، وهو يسمح عبر الاقتراع بمنح الشرعيَّة لمداولات مجلس الشيوخ وللسلطة التنفيذيَّة وأصحاب المناصب[١].

ويدافع شيشرون عن النظام الملكيِّ لأنَّه، من بين أنواع الحكومات الثلاث، يسمح بممارسة السلطة بطريقة أكثر فعاليَّة، ولأنَّ الملكيَّة كانت جزءاً من الماضي السياسيِّ لروما فهي تشكِّل إرثاً لا ينبغي إغفاله. لكنَّه لا يغفل عن أنَّ هذا النظام يسهل أن ينقلب إلى طغيان، لذا افترض أنَّ تحديد مدَّة القنصل بعام واحد يمنع ذلك، وبالتالي يمكن لروما أن تتباهى بمزايا حكم الفلاسفة على طريقة أفلاطون في الوقت الذي تحدُّ فيه من مخاطر هذا الحكم[٢].

[1]- Schofield, cecero's diffinition, pp. 63 – 83. And: Miller, F.G. «the Political character of the classical roman republic, in: journal of roman studies, V.74, 1984. pp 1 -19.

[2]- Powll, J.G.F. «the rector rei publicae of cicero's de republica» in: scripta classic esraelica, V.13, 1994. pp. 19 – 29.

ولا يتحقَّق دستور مختلط متناغم من دون عدالة، بل لا يوجد نظام جمهوريٌّ على الإطلاق، وهي إمَّا طبقيَّة أو مدنيَّة، والأولى هي حقٌّ لكنَّها ليست محسوسة، وهذا هو مذهب الرواقيين من أنَّها فطريَّة وثابتة، أمَّا العدالة المدنيَّة فهي محسوسة ولكنها ليست حقَّاً.

أمَّا فكرة أفضل المواطنين الذي هو رجل الدولة فهي ترتبط عند شيشرون بالأخلاق السياسيَّة لا بالنُّظم. وهو إنمَا اهتمَّ بها لاعتقاده بتوقُّف كلِّ نظام سياسيٍّ عليها. ورجل الدولة يحافظ على المدينة من خلال قرارات حكيمة ومثال أخلاقيٍّ معاً. ويتعيَّن عليه أن يكون على دراية بمبادئ العدالة، لأنَّه ليس مجرَّد سياسيٍّ بل رجل يشغل وظيفة قانونيَّة، ولأجل ذلك توصف إدارة القانون بأنَّها (ملكيَّة[١]).

ويلخِّص شيشرون أفكاره الدستوريَّة آخذاً بعين الاعتبار مشكلات روما نفسها بما يتعلَّق بسلطة الشعب وحدودها، وقدرة النظام الملكيِّ على حلِّ مشكلاتها، وكيفيَّة إعادة الاستقرار إلى مدينة تعاني من الاضطراب والعنف، معتبراً أنَّ النقاش الحرَّ في مجلس الشيوخ (الشورى) أمر جوهريٌّ بالنسبة لحياة النظام الجمهوريِّ، مع الاهتمام بحماية قدر من الحريَّة الشعبيَّة، والدفاع عن إرادة الشعب عبر انتخابات حرَّة.

ولقد قدَّم الرجل صورة فلسفيَّة عن اللُّجوء الرومانيِّ الغريزيِّ[٢] نحو ممارسات وسلوكات موروثة عن السلف، لكنَّه استخدمها من أجل تحقيق توازن دستوريٍّ يزعم أنَّه نموذجيٌّ، وهو انتقى من التراث الأخلاقيِّ الرومانيِّ احترام المشورة السياسيَّة الحكيمة من دون غيرها من القيم، معتبراً أنَّ الأقليَّة تحكم بالشرف لا بالنبل ولا بالقوة ولا بالثراء، وهي أقلية الأخيار بما يعنيه ذلك من حكمة وفضيلة. وما يقدِّمه شيشرون من أجل استعادة المُثُل الوطنيَّة التي كانت تتمتَّع بها الطبقة الرومانيَّة الحاكمة في الجمهوريَّة الأولى علاج على الطريقة الأفلاطونيَّة، أعني أنَّه علاج أخلاقيٌّ لا دستوريٌّ.

لقد استغلَّ شيشرون تعليمه الفلسفيَّ لشرح أهميَّة عناصر النظام الجمهوريِّ نفسها التي تعرَّضت لتهديدات خطيرة بفعل الأحداث التي عصفت بعصره. وهو يخصِّص كتاب

[1]- Bükhner, K. M. Tullius Cicero, de Re publica, Heidelberg, 1984. p. 398, 401, 404 – 5.

[2]- Balsdon, «Aucteritas, dignitas, otium», pp. 43 – 50.

القوانين[١] للحديث عن مصدر العدالة وعن القوانين الدينيَّة التي تليق بأفضل المدن، ويصف فيه المناصب الحكوميَّة فيها وشيئاً ممَّا يتعلَّق بالمحاكم والتربية والتعليم.

وإذا كان تأثير أفلاطون واضحاً في الجمهوريَّة فإنَّ تأثير الرواقيَّة هنا أشدُّ وضوحاً، خصوصاً في الكتاب الأول الذي يعالج القوانين، والذي تتبدَّى فيه الأصول الرواقيَّة لنظريَّة القانون الطبيعيِّ عنده.

لكن شيشرون لن ينادي بمدينة الحكماء على طريقة زينون، ولا بالمجتمع الكونيِّ عند خريسبيوس، بل انصبَّ اهتمامه على القوانين الفعليَّة التي يمكن تطبيقها على مدينة واقعيَّة، وهو شيء كان يميِّز -بنظره- الفلسفة الرومانيَّة التي كانت توحِّد بين العقل والواقع. فقانون الطبيعة هنا يكتشف عن طريق استخدام المرء لعقله، أمَّا تطوير لائحة القوانين بما يتَّفق مع قانون الطبيعة نفسه فقد قامت أجيال من الساسة ورجال الدولة بإنجازه من خلال خبرات متراكمة على مدى أجيال، لأنَّ قانون الطبيعة، حسب هذه الفلسفة، هو أصل العدالة التي تتَّفق مع العقل.

وفي محاولة تأسيس وجود قانون الطبيعة يبدأ شيشرون بتعريف القانون الحقيقيِّ على أنَّه العقل الذي يوجد بالفطرة عند كلِّ البشر المتشابهين بالأخوَّة والاتِّحاد، والمخلوقين من أجل العدالة التي يحقِّقونها إذا ما تطوَّروا من دون فساد.

والقول بأنَّ العدالة توجد بالطبيعة يعني أنَّ الناس إذا تخلُّوا عن الفساد عدلوا، أو أنَّه يعني أنَّ طبيعة العدالة فيهم، وهي عقلهم الصحيح، ستكون متطابقة وهو ما يضع أُسس حياتهم المشتركة. ولأجل ذلك، فالطبيعة هي ملهمة العدالة وليس التهديد بتوقُّع العقاب كما قرَّر الأبيقوريون، لأنَّ الأخير لا يتحقَّق في قانون مكتوب قابل للتنفيذ، كما أنَّ اعتبارات المنفعة لا تؤسِّس لفضيلة حقيقيَّة تنشد لذاتها. وإذا كانت العدالة تنبع من اتِّساق العقل فهي واحدة لا تتعدَّد بتعدُّد المجتمعات، تتجسَّد في قانون الطبيعة ولا تنشأ من مجرَّد اتفاق معيَّن على اتِّباع سلوك. وقانون الطبيعة ثابت لا يتغيَّر مستقلٌّ عن أيِّ قانون مكتوب لكنَّه يطابق القانون

[1]- Girardet, K.M. Die ordnung der welt, wiesbaden, 1983. And: Ferrary, J.L. «the statesman and the law in the political philosophy of ceciro» in: Laks, justice and generosity, pp. 48 – 73.

الأخلاقيَّ الذي ينبغي أن تتَّفق معه القوانين الفعليَّة. لذلك، فالتشريع الحقيقيُّ يجب أن يتوافق مع قواعد القانون الطبيعيِّ ومبادئه.

وإذا كان القانون الطبيعيُّ ثابتاً لا يتغيَّر، شأنه شأن المدينة الفاضلة، فإنَّ التشريع يتطوَّر بشكل صحِّيٍّ لا ليتوافق مع الظروف المتغيِّرة بل ليقترب أكثر من قانون الطبيعة الكامل.

لكن الادِّعاء الذي يطغى على فكر شيشرون حول صلاحيَّة قانون روما الاستثنائيِّ سوف يثير أمامه صعوبات، ذلك أنَّه في مَواطن كثيرة من أعماله وفي تجربة حياته الشخصيَّة، سيسمح لرجل الدولة بتجاوز القوانين وقت الأزمات، معتبراً أنَّ سلامة الشعب هي القانون الأعلى، ولأنَّ الغرض من القانون سلامة الجمهوريَّة والحفاظ عليها، ولأنَّ أفعال رجل الدولة الحكيم تتَّفق مع العمل الصحيح أو العدالة الحقيقيَّة فلا تتناقض مع قوَّة محدِّدات القانون. لكن إذا كانت الإجراءات الخاصَّة بقانون الطبيعة يمكن أن تعلَّق في حالات الطوارئ، فلماذا لا تعلَّق في ظروف وحالات أقلَّ منها؟

٤. واجبات رجل الدولة

كتاب «الواجبات» هو آخر كتب شيشرون في الفلسفة السياسيَّة وهو بدأه حين عاد إلى العمل العام من جديد وأنهاه سنة ٤٤ ق.م.

والكتاب[١] في الواقع يلتصق التصاقاً أكيداً باهتمام شيشرون في هذه الفترة التي شهدت أزمته الشخصيَّة والسياسيَّة، ويعبرِّ عن الخطر الذي لاح في الأفق مهدِّداً المجتمع نتيجة التنافس على النفوذ والقوَّة.. وبالتالي كان من الضروريِّ بيان الفضائل الوطنيَّة لرجل الدولة التي يقوم عليها ازدهار الجمهوريَّة، لأنَّه على أساسها تتَّضح النوازع الشخصيَّة والطموحات التي تخلُّ بسلامة الدولة واستمرارها. ولقد تأثَّر شيشرون في اختيار عنوان الكتاب بتقليد رواقيٍّ، إذ ألَّف معظم فلاسفته تحت عنوان الواجب «Tokathekon»لكنه باستخدامه لفظ (officium) بصيغة الجمع أضفى عليها طابعاً رومانيَّاً، لأنَّ الأخيرة ترتبط ارتباطاً جوهريَّاً بدور أو علاقة مثل: (officium القنصل)، أي الواجب الذي يؤدِّيه القنصل وهكذا، فضلاً عن أنَّها تستوجب وجود منتفع. ولأجل ذلك كان من الأفضل ترجمتها بالالتزام لجهة أنَّها

[1]- Winterbottom, M. cecero de officis, oxford, 1994.

تستمدُّ معناها الأخلاقيَّ عن طريق شبكة كاملة من العلاقات الشخصيَّة والمؤسَّسيَّة التي تشكَّل على أساسها المجتمع الرومانيّ.

ويقع المؤلَّف في ثلاثة كتب، في الأول يطرح شيشرون فكرة السموِّ الأخلاقيِّ، وفي الثاني يحدِّد معنى المنفعة، وفي الثالث يناقش قضايا يتعارض فيها السموُّ الأخلاقيُّ مع المنفعة. ويبدو أنَّ الغاية من كتاب «الواجبات» هي ازدهار الجمهوريَّة بما هي غاية أخلاقيَّة، ولأجل ذلك يتمُّ تحليل الفضائل في سياق هذه الغاية، وهو يقتبس جملة أفكاره هنا من كتاب «الواجب» (Kathekon) لـبانيتيوس الرواقيِّ الذي مرَّ ذكره، كما يدين فيه لأفلاطون وللأكاديميين رغم غلبة النزعة الرواقيَّة عليه. ويخبرنا شيشرون في هذا السياق أنَّ النصيحة حول الواجب يقدِّمها فقط من يؤمن بأن السموَّ الأخلاقيَّ ينشد لذاته. وهو يفسِّر رأي الأكاديميين والمشَّائين، حول أنَّ هذا السموَّ هو أقصى درجات الخير، وأنَّ سواه من الخيرات تساهم بقدر في بلوغ السعادة، في إطار رواقيٍّ حيث الشيء لا يكون خيراً ما لم يكن سموّاً أخلاقيّاً، ولذلك افترض أنَّه لا شيء يمكن أن يكون سموّاً أخلاقيّاً ما لم يكن نافعاً، والعكس صحيح كذلك[١].

يتشكَّل السموُّ الأخلاقيُّ يتشكَّل عن طريق واجباتها الاجتماعيَّة، كما تتطوَّر العدالة مثلاً من رغبتنا الطبيعيَّة في العيش في جماعة خاصَّة لتتبدَّى في صورة وجوب الحفاظ على المجتمع. والواجبات هذه تختلف بحسب علاقاتنا قرباً وبُعداً، وبحسب روابطنا مع من يحيط بنا.

وإذا كانت الفضائل تتشكَّل عن طريق واجباتنا، أو من طريق التعايش المجتمعيِّ، فأولاها العدالة التي تتشكَّل مباشرة، ثم تتبعها الفضائل الأخرى بشكل غير مباشر، لأنَّ واجبات العدالة أكثر توافقاً مع الطبيعة من واجبات الحكمة مثلاً.

وتنقسم الفكرة العامَّة للعدالة إلى العدالة والحرِّيَّة، وهو شيء لا مثيل له في الفلسفة اليونانيَّة[٢]. لكن ما علاقة العدالة بالحرِّيَّة؟

[1]- Annas, ciceros, in: Griffen, philosophia togata, and: Schofield, saving the city, ch9.

[2]- Atkins, E.M. «Domina et Regina virtutum; justice and societas in De officiis» in: phronesis, V. 35, 1990. pp. 258 – 289.

تكمن الإجابة في الطبيعة الاجتماعيَّة والوظيفيَّة لتفكير شيشرون. وهو يصف الفضيلتين بأنَّهما: «العقل الذي يقيم مشاركة مجتمعيَّة بين الناس ويؤسِّس لحياة اجتماعيَّة»، وبالتالي فكلتاهما تساهمان في صنع روابط المجتمع وتوطيدها. ولذلك، فإنَّ تحليله للعدالة يتَّضح من خلال وظيفتها الاجتماعيَّة، وهو يضع أساسين لها هما: عدم الإضرار بالغير، وتحقيق الصالح العام. وللعدالة أُسُس أخرى أقلُّ أهميَّة لكنها ضروريَّة مثل الثقة والإخلاص، لأنَّ الأولى أساس متين للمجتمع المدنيِّ وشرط للروابط التي تحدِّد الحقوق والواجبات، والإخلاص مطلوب في من يشغلون المناصب العامَّة لأنَّ المواطن محتاج إلى إدارة تتمتَّع بالعدل والكفاءة.

ومن وظائف العدالة كذلك الدفاع عن الملكيَّة الخاصَّة، وشيشرون يفصل الكلام على أنواع الملكيَّة في سياق اعتراضه الواضح على الإجراءات السياسيَّة الشعبيَّة التي تطمح إلى تقليص ملكيَّة الأثرياء للأرض العامَّة.

هذا في ما يتَّصل بالعدالة الداخليَّة، أمَّا العدالة الخارجيَّة فالكتاب يقدِّم لها صورة تفصيليَّة في مجال واحد هو الحرب[١] مفترضاً أنَّه عند إعلان الحرب يجب اتِّباع القوانين، ويتعينَّ أن يكون هدفها السلام العادل.

وثالث الفضائل بعد العدالة والحريَّة هي الشجاعة، أو السموُّ الشخصيُّ، والتي كانت تؤدِّي بصفة اعتياديَّة إلى المجد، الذي كان موضع تبجيل في التراث الأخلاقيِّ للصفوة الرومانيَّة وإن ازدراه فلاسفة اليونان ومنهم أفلاطون. والسموُّ الشخصيُّ يظهر في أمرين: في ازدراء الأشياء الظاهريَّة والاقتناع بأنَّ الإنسان لا يجب أن يسعى إلَّا نحو الخير الأخلاقيِّ، وفي أداء أعمال عظيمة وخيرة. فإذا كان السموُّ النفسيُّ خالياً من العدالة ولا ينشد من خلاله خير المجتمع بل بلوغ المجد، صار رذيلة وظهر على أنَّه مجرَّد مجد زائف[٢].

أمَّا الفضيلة الرابعة، فهي مجموعة من الصفات الأخلاقيَّة بما فيها الاعتدال والتواضع واللَّباقة والانفعالات الهادئة... إلخ.

---

[1]- Barnes, J. «Cicéron et la guerre juste» in: Bulltion de la société française de philosophie, V. 80, 1986. pp 37 – 80.

[2]- Knoche, U. «Der römosche ruhmesgedanke» in: philologus, V.89, 1934. pp.102 – 124. And: Atkins, E.M. «The virtues of cicero's de officiis», cambridge, 1989. pp 102 – 109.

واهتمام شيشرون بالطبيعة المرئيَّة للأخلاق يلائم الصفوة الرومانيَّة بوصفها تتشكَّل في عيون العامَّة داخل المجتمع من خلال الحديث العامِّ والحياة العلنيَّة. ولذلك كان يهتمُّ بما ينتمي في طبيعته إلى المظهر كاللِّباس والكلام والانفعالات والحركات... إلخ، ويضيف شيئاً يقتبسه من بانيتيوس وهو أن على الإنسان أن يتصرَّف وفق الظروف والأوضاع السائدة.

في الجملة يستخدم شيشرون في كتاب «الواجبات» مصادره الفلسفيَّة من أجل صياغة استجابة أخلاقيَّة محافظة للثورة التي كان يعيشها في فكره وفي مزاجه. فهناك تذكير ذكيٌّ بأخلاق السلف وإعادة صياغة لمصطلحات الخير والواجب والشرف والكرامة والمجد بما يتناسب مع الظروف التي كانت تحيط به. لقد تشكَّل مضمون الفكر السياسيِّ لشيشرون من خلال تجاربه وخبراته، وتأصَّلت نظريَّته السياسيَّة في مجالات أربعة رئيسيَّة هي: تحليل التغيير السياسيِّ، ومركزيَّة النظام الجمهوريِّ، وطبيعة الجمهوريَّة، واعتبار روما أفضل الجمهوريَّات.

كانت أخلاق الجمهوريَّة الرومانيَّة تحتاج إلى مأوى دائم لها في صورة تغيير فلسفيٍّ شخصيٍّ، وهو ما أنجزه كتاب «الواجبات». والرجال الذين عرفوا القليل من الأهداف المحدَّدة لنظريَّة شيشرون يتعرفون هنا على موضوعات متصلة من الخدمة الوطنية، والشجاعة والطموح والخير... إلخ.

وهي الموضوعات التي تعلَّقت دائماً بالسياسة الأرستقراطيَّة والحرب. وشيشرون نفسه راح يصوِّر الطبقة الحاكمة في العصر الجمهوريِّ في روما من خلال هذه الموضوعات. وهو تحت ضغوط الأزمات التي عاصرها كان يعدل من تصوُّره لهم بما يتناسب مع رؤيته التي كان يحملها في خياله عن المستقبل.

خاتمة نقديَّة

لقد تبدَّل المظهر السِّياسيُّ لحوض البحر المتوسِّط بعد موت الإسكندر إلى غير رجعة، وزالت الحاضرة الإغريقيَّة كشكل سياسيٍّ ليبقى لها مجرَّد وجود مبهم ضمن استقلاليَّة وهميَّة على شكل جهاز إداريٍّ لم يعد قادرًا على أن يحقِّق نفسه كجهاز حيٍّ مستقلٍّ يعبرِّ عن القوى المادِّيَّة والرُّوحيَّة للمواطنين. وشاع في ممارسات خطباء الحواضر التَّزييف البلاغيُّ، واستعمال تراث الماضي للتَّعبير عن مشاعرهم تجاه الوقائع مدفوعين بالإخلاص لذاكرة الأجداد. لكنَّ اللَّغة الَّتي توسَّلوها كانت لغة ميتة لا حياة فيها ولا تلائم ما استجدَّ من أوضاع لا في شكلها ولا في مضمونها. وهي راحت تتشكَّل في مظهريَّة تقوم على المجاز والتَّورية والغموض. وتبدَّى في فترات طويلة من هذا التَّاريخ أنَّ ما كان تمَّ ترسيخه إنَّما هو ثقافة اليونانيين النَّازحين، الَّتي أصبحت ثقافة الطَّبقات المسيطرة، والَّتي ظهرت كشكل معرفة منقولة إلى أرض غريبة، مفرغة من مضامينها ومفصولة عن جذورها، تقتصر وظيفتها على ترسيخ التَّقاليد[١].

لقد كان استيعاب هذه الثَّقافة في المجتمعات الجديدة عملاً تكييفيَّاً في الظَّاهر، بدت فيه السِّياسة كنظام متهافت يقوم على ركيزة ثابتة لا تتغيَّر، ويهدف إلى إعادة تشكيل البشر كرعايا لا كمواطنين، كأفراد لا كأعضاءَ في عائلة سياسيَّة، ويقوم في جوهره على الخضوع والفرديَّة الأخلاقيَّة.

إنَّ تأمُّلات أفلاطون الَّذي كان مشغولاً بخلاص الحاضرة ستفقد معناها، وستكتسب قوَّة أخرى مختلفة عند قرَّاء عالميين لا يملكون فهمًا لطبيعة الرُّوح الوطنيَّة للمدينة الإغريقيَّة. ذلك أنَّه قد نما على أنقاض الحاضرة نزعة تدفع إلى الاعتقاد بأنَّ كلَّ شيء في الطَّبيعة يخضع للعقل الكلِّيِّ، وتقبل كلَّ مفاعيل القدر طواعيَّة وبتسليم، وتشكَّلت ممالك متراكمة كان لها فلسفتها الخاصَّة الَّتي راحت تغذِّي الأيديولوجيا السِّياسيَّة للملوك في روما الجمهوريَّة، وفي ما بين الأعيان زمن الأمبراطوريَّة. وطرح كلُّ ذلك على الفكر السِّياسيِّ مسألة العلاقة بين سكان مختلفي الأصول العرقيَّة والثَّقافيَّة وبين أقوام متباعدين.

[١]- جان توشار وآخرون، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة. علي مقلد، ط٢، بيروت: الدار العالميَّة، ١٩٨٣. ص ٤٥ وبعدها.

كان الإغريق يقسمون البشر إلى يونان وبرابرة، لكن الوضع كان قد تغيَّر كليَّاً واختلفت المعايير الَّتي يقوم عليها التَّمييز، لتتبدَّى كمعاييرَ ثقافيَّة تتمِّم الوحدة السِّياسيَّة للمجتمع. ثمَّة شيء كان مفقودًا وهو الاستقرار النِّسبيُّ الَّذي كانت تؤمِّنه الدَّولة الحاضرة، بما هي مجتمع ضيِّق يحتضن جميع أعضائه. وسيكون إذن على الفلسفة أن تملأ ذلك من خلال إعادة تكوين قيمٍ جديدة بدا الإنسان فيها فرداً في جماعة ذات أبعاد كونيَّة. ومن خلال الإعلان عن أنَّ حاضرةً الحكيم هي العالم، وأنَّ البشر العقلاء متساوون في ما بينهم في عالم يجعل منه العقل شيئاً متَّسقًا لا تحدُّه حدود ضيِّقة وطنيَّة أو سياسيَّة، أي لم يعد ثمَّة خصوصيَّة تتميَّز بها مجموعة محدَّدة من البشر ولا واجبات سياسيَّة أساساً. لقد بات الواجب الضَّروريُّ هو الخضوع لقانون كونيٍّ - وكان ما زال مبهمًا – لم تعد السِّياسة مربوطة بأرض أو نظام أو تقاليد. وستضمن الرواقيَّة في هذا المناخ من التَّطوُّرات تأكيد الفراغ المدنيِّ الَّذي نشأ في العالم الجديد، دافعة حواضر هامشيَّة إلى الانصهار من دون تردُّد داخل بوتقة كليَّة العالم.

شيئان سيقوم عليهما كلُّ تفكير في المرحلة هذه: اللُّغة الَّتي وفَّرها اليونانيِّون، والحكمة الأيديولوجيَّة الأكثر دواماً، تلك الَّتي حقَّقتها الرُّواقيَّة هادفة من خلالهما إلى تأكيد مضمون الحرِّيَّة في شمولها، الَّذي أدَّى إلى اللَّامبالاة تجاه الحريَّات السَّياسيَّة والاجتماعيَّة، حيث كان يكفي الحكيم أن يحتمي وراء استقلاله الذَّاتي في خضمِّ التَّحوُّلات. لكن الرُّواقيَّة م كانت تسعى مع ذلك لإبراز النِّظام، بما هو ممارسة للتدبير تتطابق مع نظام العالم. وبالتالي فالحكيم بعد أن يؤكِّد استقلاليَّته الذَّاتيَّة يعود إلى السِّياسة. وهي كانت تصوِّر العالم وكأنَّه خاضع لقانون ينقسم إلى فروع ذات مستويات مختلفة، يخضع له الحكيم عن معرفة ووعي، ولذلك كانت الرُّواقيَّة في الأغلب تعلِّم احترام الأنظمة القائمة وتحرِّض على احترام السُّلطة الملكيَّة، وتعدُّ أنَّ خير تصرُّف هو التَّصرُّف وفقًا للنِّظام الكونيِّ. ويتبدَّى عندها هذا النِّظام في ما يعتبر أنَّه انعكاس للإرادة الإلهيَّة على مستوى المجتمع، ويستطيع أن يكيِّف النَّظام السِّياسيَّ الفعليَّ وفقًا للنِّظام الكونيِّ الشَّامل.

وخير مهمَّة أمام الحكيم لبعث النِّظام ستكون في تحويل الملك القائم إلى حكيم، وهنا ستبرز الرُّواقيَّة المترفِّعة والمفتوحة على كلِّ المستويات وعلى جميع التَّغيُّرات كرواقيَّة متكيِّفة مع الملكيَّات، كما يبدو الأمر عند بانيتيوس (panitius) أو بوزيدونوس (posidonius)

اللَّذين كانا على استعداد لمنح الجمهوريَّة الرومانيَّة الأيديولوجيا الَّتي تنقصها ليجتمع التُّراثان الجمهوريُّ والملكيُّ في صورة أيديولوجيا أمبرياليَّة.

كان تاريخ روما الخاصِّ يندرج في تاريخها الخارجيِّ ويتأثَّر به. ففي غمرة اندفاعها للسَّيطرة على العالم واجهت مسائل تتعلَّق بالعلاقات مع شعوبها المغلوبة والمخضعة، وبالدَّساتير والتَّنظيم السِّياسيِّ اللَّذين كان يجب منحه إيَّاهما. وقد استولى عليها مشروعها الخاصُّ هذا إلى الحدِّ الَّذي بات عنده دور المذهب هزيلاً بالقياس إلى ما هو عمليٌّ ومباشر. ففي غمرة التَّوسُّع لم يكن ثمَّة مجال لإقامة مذاهب سياسيَّة، ولأنَّ نظرة الرُّومان إلى من يحيط بهم كانت تنبع من احتقار عميق، لم يجد هؤلاء معه ضرورة للتَّفكير في صياغة آرائهم حول الشُّعوب الأخرى على شكل مبادئ، واكتفوا عن وعي بإدارتها وتدبير شؤونها.

كان لكلِّ ذلك وقعه الدَّائم في صميم أعماق هذه الحاضرة، لقد تقدَّمت طبقة الفرسان وأحدثت تغييراً عميقاً في علاقات السُّلطة القائمة، وسيشوِّش ذلك لمدَّة طويلة صورة العظمة الرُّومانيَّة، ويحول دون إجراء تحليل واسع ومفتوح لمساراتها، ودون إقامة مذهب يهدف إلى أن يكون نسقاً يتمتَّع بالانسجام ويتلاءم مع القيم الأخلاقيَّة للمجتمع.

عبقريَّة روما إذن ستقوم خارج إطار الفكر المجرَّد. كان كلُّ توقُّف عن العمل يحرج الرُّومانيَّ. والاستراحة كان يجب أن تقابلها فعاليَّة مبرَّرة. إنَّ الرَّاحة الإغريقيَّة المتلبِّسة بالتَّفكير وبالمناقشات والدِّراسة كانت توحي للرُّومان بالحذر الغريزيِّ، وكان التَّفكير المنهجيُّ مضْيَعة للوقت. العمل يأتي أوَّلاً ثمَّ يأتي الفكر المجرَّد الَّذي بقي فترة طويلة مكان احتقار وتندُّر. وعدم تعاطف الرُّومان مع الإغريق لم يكن منشأه شهرةُ الأغارقة المبتذَلة والسَّاقطة، بل تكوينهم النَّظريُّ والتَّجريديُّ. إنَّ التَّراخي بالنِّسبة إلى العمل والانفتاح القائم على الشُّكوكيَّة، وعلى الثِّقة بالبراعة، وعلى الميل إلى الأعمال الَّتي يطغى عليها البحث عن الفعاليَّة الآنيَّة كانت محطَّ استياء الرُّومانيِّين حتى من تأثُّر منهم بالهللنستيَّة. وسيمضي وقت طويل قبل أن يتغيَّر مثل هذا الوضع عن الصورة التي كان قد استقرَّ عليها.

ما كان يشغل الرُّومان هو رهافات الفنِّ والبذخ، لا أساليب التَّفكير الإغريقيِّ. وهم عندما كانوا يخاطرون بشيء من هذا القبيل كانوا يفصلون المذاهب عن أشكال سلوكها السِّياسيِّ.

لم يكن يعنيهم في الأبيقوريَّة ذاك الجانب من فكرها الَّذي ينادي بالعزلة عن مجال العمل، ولا كذلك في الشُّكوكيَّة عند الأكاديميِّين نزعتهم الَّتي كانت تزعزع كلَّ القيم وتقضي على روح المغامرة. أمَّا الرُّواقيَّة فلقد عرف الرُّومان كيف يقتطعون منها ما يلائم روحهم، أعني كلَّ ما يُعنى بالآداب العمليَّة. وهكذا كان يجب أن ننتظر انتهاء الجمهوريَّة حتَّى تبزغ على صعيد الأنظمة السِّياسيَّة مذاهب مستوحاة في عمومها من التَّصوُّرات السِّياسيَّة الإغريقية في عصرها الذَّهبيِّ.

لم يكن مجال المساعي الأخلاقيَّة الرُّومانيَّة البحث عن الفضيلة بشكلها المثاليِّ ولا تكوين رؤى حول النُّظم وتفاوتاتها، بل ميدان الحقوق. والمجال الوحيد الَّذي يترفَّع فيه الرُّومانيُّ عن العمل إنَّما هو درس الوضع الحقوقيِّ للنَّاس وللأشياء. وهو المجال الوحيد المقبول في ميدان التَّجريد والنَّظر، لأنَّه الأكثر ارتباطاً بالعمل.

وإذا كان الإغريق يفكِّرون بلغة فكريَّة، فالرُّومان كانوا يفكِّرون بلغة الحقوق، وكانت تغلب على السِّياسة عندهم مفاهيم وصيغ ينتجها محلَّفون أو كتَّاب عدل، ولا نجد فيها إلَّا مناظرات حول أشكال المُلكيَّة ومسائل الاختلاف القضائيِّ وتحديد القوانين المدنيَّة. وستعمل الرُّوح الرُّومانيَّة على تكييف هذا الجهاز الحقوقيِّ لمواجهة صروف الدهر، وسيحل التَّشريع الواضح المدَّون محلَّ اللُّوغوس (logos) اليونانيِّ المرهف والمثاليِّ، وبالتالي لن تكون العقيدة السياسيَّة المجرَّدة هي أساس حلِّ كلِ المشاكل التي كانت تستعصي على السيف، بل التشريع، وسيكون القادة العسكريون والقضاة في الأعمِّ بناة المآثر الرومانيَّة. لكن توسُّع روما خارج إيطاليا سيضعف إحساس الرومان بعظمتهم، وسيقضي على الفضائل الجماعيَّة التي كانت تقوم عليها قوَّة الجماعة، والتي يحتلُّ فيها احترام الوفاء بالعقود مكانة سامية.

لقد أهينت المواثيق باستمرار في ظلِّ أحداث السيطرة والتوسُّع، وعملت المطامع المتوثِّبة على إفساد الأخلاق، ولم يعد الحسُّ الوطنيُّ هو الحاسم. لقد حصلت روما على حقوقها بفضائلها الجماعيَّة وبحسِّها الوطنيِّ كما يقول(Caton,) كاتون٢٣٤- ١٤٩ ق.م. ، الذي هاجم تأثير الأفكار اليونانيَّة معتبراً أنَّها عدوَّة الفضائل الرومانيَّة.

لكنَّ توليِّ حاضرةً ما الهيمنة على العالم ليس بالأمر الهيِّن. ولن يكون نموذج كاتون حول الفضائل الجمعيَّة كافياً، رغم الصدى الذي تركه في روما حتى زمن الأمبراطوريَّة، وستكشف الأوضاع عن محاولة لإحداث تمازج أيديولوجيٍّ ضروريٍّ، يعطي لروما أفضليَّة تتناسب مع اتِّساع فتوحاتها، كما صنع سيبيون إميليان(Scipion Emilien) وسيلعب في هذه الفترة مفكِّران هما بانتيوس وبوليبيوس دور مستشارين أو معاونين ساهما مساهمة جذريَّة في صنع الفكر السياسيِّ الجديد...وسيطلب سيبيون من الرواقيَّة نوعاً من رؤى الانضباط الأدبيِّ الضروريِّ واللاَّزم لقادة أمبرياليَّة منتصرة لا يضبطهم إلاَّ طموحاتهم ورغبتهم في السلطة ومصلحة الدولة، وهو بدا كأنَّه كان يبحث من خلال ذلك عن أساس إنسانيٍّ للسلطة وللحكم، وعن أدبيَّات يضبط بها الوطن الذي هو وطنه. [١]

سيجيب بانتيوس على هذه الدعوى بمحاولة عميقة لأنسنة الرواقيَّة وجعلها أكثر مرونة لتقبُّل الواقع، ولتطهيرها من كلِّ سفسطة فارغة، ومن كلِّ تيولوجيا أو تنظيم مسرف في الفرديَّة أو التنظير، ممجِّداً مع كلِّ ذلك النشاط المتحضِّر للإنسان. وسترسِّخ محاولة بانتيوس تحالف الرواقيَّة وروما، وستكون ذخيرة انبعاث الروح الرواقيَّة نفسها إلى أبعد الحدود. أمَّا بوليبيوس فقد راح ينادي برساليَّة الشعب الرومانيِّ وبضرورة التضامن بينه وبين الشعوب المغلوبة. وهو جعل من نفسه أوَّل منظِّر للدستور الرومانيِّ، لكنه سيكون في الحقيقة لسان حال مجلس الشيوخ، الراضي عن سلطاته، وما سيقدِّمه من عرض لوظائف السلطات الثلاث في الدستور الرومانيِّ المختلط مغرض، ذلك أنَّه كان يعرف معرفة تامَّة أنَّ المجلس ممسك بزمام الإدارة، وأن ليس للقنصل إلاَّ صلاحيَّة التنفيذ، بينما يكتفي الشعب بالمراقبة. وتحت مظاهر التقسيم العادل الذي يقترحه والذي يبرِّره بنظره المنطق والتاريخ، ثمَّة سيطرة كانت واضحة للشيوخ الأرستقراطيين، راح بوليبيوس يضعها على شكل عقيدة تتماشى مع أمبريالية توسُّعيَّة كذلك، وسيربط فيها مسألة الدستور بشرعيَّة الهيمنة، جاعلاً ارتباطهما أمراً ضروريَّاً، وبالتالي سيدلِّل، وهو يترجم مخاوف الشيوخ، على المخاطر التي تهدِّد الدستور الرومانيَّ الذي كان قد بلغ مُنتهاه، وكان يُخشى انهياره... وهو اعتبر أنَّ الحذر والتجربة

[١]- جان توشار، تاريخ الأفكار السياسيَّة، ترجمة. ناجي الدراوشة، ط١، دمشق: التكوين، ٢٠١٠. ج١، ص.٧٧. وما بعدها. وهو ترجمة أخرى للكتاب نفسه.

الرومانيين، اللَّذين شكَّلا أساس اجتماع السلطات، هما خير معين على استمراره، من غير أن يكشف لنا إلى متى يدوم ذلك، ومكتفياً بالإشارة إلى أنَّ كلَّ تطوُّر يجري إنَّما هو باتِّجاه الديموقراطيَّة أو الديماغوجيَّة، وهي إشارة تعبِّر بوضوح عن قناعات الشيوخ المستمدَّة من تجارب المحيط. ولأجل ذلك، راح يدعو إلى الحدِّ من التباهي بالثروة وتجنُّب الاسترسال مع مطامع الشعب الذي اعتبره مصدر كلِّ خطر داهم.

ستكون أطروحات بوليبيوس في الحقيقة نشيد انتصار يمجِّد الحيويَّة الرومانيَّة، لكن ذلك لن يستمرَّ طويلاً، ولم تحسب تنبُّؤاته حساب المتغيِّرات العميقة التي كانت تحصل مع كلِّ توسُّع. فمع انشغال الشيوخ بالفتوحات والثروة وتردِّي أوضاع الطبقات الوسطى، ستظهر دعوات إلى الثورة، تقودها بروليتاريا تنخرط في الأعمِّ في خدمة الزُّمر البطركيَّة الأبويَّة، أو تقوم باضطرابات بحثاً عن جديد، وستظهر طبقة جديدة أو متجدِّدة هي طبقة الفرسان جباة الضرائب الأثرياء، التي راحت تقيم سلطاتها في وجه الشيوخ وترسِّخ نفوذاً إلى جانبهم، وستتحوَّل الدعوة مع الأخوين غراس صهرَيْ سيبيون إميليان إلى اضطرابات ستنتهي بموتهما.

وإذا كان بوليبيوس يرى اللُّعبة هذه طبيعيَّة بين السلطات فإنَّ الأخوين غراس سينظران إلى المشاكل الأساسيَّة بصورة مختلفة. مصالح مقسَّمة بين فئة محتكرة أوليغارشيَّة، وطبقة قويَّة في الواقع غير مستقرَّة في حقوقها أمام القانون هي طبقة الفرسان، والعامَّة من الناس الذين يتبعهم الغوغاء والناقمون على السلطة. [١]

ولقد كان الخطاب الذي ألقاه أحد الأخوين غراس (غراشوس) صفعة قويَّة تكذِّب تفاؤل بوليبيوس. ليست روما المتَّحدة السعيدة كما صوَّرها الأخير هي من ستعرِّف العالم بدستورها، بل هي من سيُلقى عليها عبء الأمبراطوريَّة وما ولَّده ذلك من انقسامات جديدة. في ضوء هذا الواقع، سيبرز شيشرون (٤٣- ١٠٦) كآخر مفكِّر كبير في الجمهوريَّة، طارحاً محاولة مرنة براغماتيَّة تقوم على توفيق سطحيٍّ بين المتعارضات في الفكر وفي السياسة. فلقد حمل الرجل مشعل الجمهوريَّة ضدَّ كلِّ

[١]- جان توشار، تاريخ الأفكار السياسيَّة، ترجمة. ناجي الدراوشة، ط١، دمشق: التكوين، ٢٠١٠. ج١، ص.٧٧. وما بعدها. وهو ترجمة أخرى للكتاب نفسه.

محاولات الردَّة الأوليغارشيَّة والدكتاتوريَّة، وتسلَّح بحقِّ كلِّ الناس في أن يكون لهم مكان في الدولة، وأن يشتركوا جميعاً في الشؤون العامَّة. لكنَّه سيكون قاسياً ضدَّ العامَّة الذين اعتبرهم مفسدين، معدمين وبلا وثاق، أشراراً وأوغاداً. وهو حاول في مواجهة كلِّ نزعة شعبويَّة جمع الرجال الشرفاء عبر تحالف معرَّف أخلاقيَّاً لا سياسيَّاً: وهم رجال خير وطيبة، نخبة، راجحو رأي... الخ. وقد اعتبره تحالفاً مقدَّساً حول جمهوريَّة، ارتضاه كحزبِ وسطٍ مسالم منفتح، وعدوٍّ لكلِّ اضطراب وتجاوز.

ستندفع روما في نهاية القرن الأول قبل الميلاد نحو وضع الأمبراطوريَّة الجديدة بلا هوادة، وسيكشف لها الزمن التعقيدات التي يواجهها كلُّ وضع أمبراطوريٍّ، ولن تعود فضيلة الجماعة هنا ولا دورة الدساتير ولا التوازن الذي نظَّر له بوليبيوس بين السلطات كافياً لمواجهة وضع معقَّد إلى أبعد الحدود...بات المطلوب الآن إعادة التفكير في المصائر، وفي كيفيَّة إعادة تكوين السلطة في المركز والأطراف بغية ضمان شكل مستتبٍّ من أشكال التدبير لاجتماع متنوِّع معقَّد ومتناقض... وستكون وسطيَّة شيشرون والبراغماتيَّة الرواقيَّة المتأخِّرة أساساً لمشروع إعادة الاعتبار للفلسفة السياسيَّة بما هي نظرة لإعادة تكوين الشروط الضروريَّة لإقامة نظام.... وللمفاهيم الأخلاقيَّة التي يجب أن تنهض استناداً إليها أشكال الولاءات وطرائق الانتماء وطبيعة الحقوق والواجبات. وهو شيء سينتمي حتماً إلى مسار جديد مختلف ومعقَّد.

لائحة المصادر والمراجع

-العربيَّة:

١. تارن، الحضارة الهللنستيَّة، ترجمة. عبد العزيز جاويد، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥.

٢. جان توشار وآخرون، تاريخ الفكر السياسي،ط٢، بيروت: الدار العالميَّة، ١٩٨٣م.

٣. جان توشار، تاريخ الأفكار السياسيَّة،ط١، دمشق: التكوين، ٢٠١٠م.

٤. عبد جبريل المبروك، «أرسطفيوس وتأسيس مذهب اللَّذَّة في الفلسفة القورينيائيَّة»، المجلَّة الليبيَّة العالميَّة، كلِّيَّة التربية- جامعة بنغازي، العدد ٣٠، أكتور ٢٠١٧م، ص ١ – ١٤.

-الأجنبيَّة:

1. Alders. G.J.D. political thought in hellenistic times, Amesterdam, 1975.
2. Annas, J.E. the morality of happiness, oxford, 1993.
3. Walbank. F. W. The Hellenistic world, London, 1981.
4. The Cambridge History of mediavel political thought, part1, C350, C. 450.
5. Laks, A. and scholield, M. justice and generosity studies in Hellenistic: social and political philosophy, Cambridge, 1995.
6. Diogenos laertius, lives of eminent philosophers, tans. by R.D. Hieks. M.A. London: william Heinemann.
7. Finley, M. I. politics in the Ancient world, Cambridge, 1983.
8. Brunt, D. A. studies in greek history and thought, oxford, 1993.
9. Scholield, M. «Sharing in the constriction» in: Review of metaphisics, V. 49.

10. Marie – odile, Goulet cazè, Le synisne, une philosophie antique, paris: vrin, 2017.

11. Marie – odile, Goulet cazè, Cynicism and christianity in late Antiquity, U.K. Cambridge 2019.

12. Marie – odile, Goulet cazè, Étude sur la théorie stoicienne de l'action, paris: librairie philosophique, 2011.

13. Galinielle giannantoni, la ricerca filosofica, lecher,1998.

14. Hammond, N.G.L., sources for Alexander the creat, Cambridge, 1933,

15. Moles, J.L. «The Cynics and polities» in: Laks and schofield, 1995.

16. Schofeild, M. The stoic Idea of the City, cambridge, 1991.

17. Höistad, R. cynic Hero and cynicking, uppsala, 1918.

18. Dudley, D.Q. A history of cynicism, London, 1937.

19. Coulet- Gazè, un syllogisme stoicien sur la loi dans - la doxograhpie de diogène le cynique à propos de diogène laërce, rheinisches v. 125, 1982.

20. Eriskine, A.W. the Hellenistic stoa, London, 1990.

21. Long. A.A. Hellenistic philosophy, Berkly, 1986.

22. Long, A.A. and sedley, D.N. the Hellen philosophers, 2 V. Cambridge, 1987.

23. Müller, R. «Rhetorique und politic in philodems rhetorica, in: Müller, polis und res publica weimar, 1987.

24. Joly, R. Le thème philosophiques des genres de vie dans l'antiquité, Brussels, 1956.

25. Muler, R. Die epikureische Gesellschaftheorie, Berlin, 1972.

26. Long, Hellemistic philosophy, 1986. Mitsis, p. epicuru's ethical theory, London, 1988.

27. Barigazi, A. «sul concetto epicureo della sicurezza esterna» in A A. V V. suzetesis: studi sull' epicuroeismo Greco romano offerti a Marcello cugante, Naples, 1983.

28. Longo Auricchio, F. Ermarco: Frammenti, la scuola di Epicuro 6, Naples, 1988.

29. Obbink, D. «Hermarchus Against Empedocles», classical Quarterly, V38, 1988.

30. Long and sedley, the Helenistic philosophers, V1.

31. fowler. D.P. «eucretius and politics» in: Grriffin and Barnes, edd. philosophia togata: Essays on philosophy and roman society, oxford, 1993.

32. Bollack, J. «Les maximes de l'amitié», association Guillaume Budé, Acte de VIIIe congress, paris, 1969.

33. Festugière, A. J. Epicurus and his gods, oxford, 1955.

34. Baldry, H.C. «Zeno's ideal state», journal of Hellenic studies 1959, V. 79.

35. Dawsm, D. Citics of the gods, oxford, 1992

36. Griffin, M.T. Seneca, a philosophie in politics, oxford, 1976.

37. Fraisse, J.C. philia; la nation d'amitié dans la philosophie antique, paris, 1974.

38. Kindstrand, J.f. Bion of Borysthens, uppsola, 1976.

39. Pemproke, S. "oikei⊠ses" in: long. A.A. problems in sotoicism, London 1971.

40. Engberg – Pedersen, t. the stoic theory of oikei⊠ses, Aarhus, 1990.

41. Striker, «following nature». Oxford studies in Ancient philosophy, V.10. 1991.

42. Schofeild, M. «Two stoic papproaches to justice» in: taks and schofeild,1995.

43. Annas, J.E. «cicero on stoic moral philosophy and private property», in: Griffin and Barnes, philosophia togata, pp.

44. Schofield, «morality and the low: the case of Diogenes of Babylon» in: Schofeild, saving the city, London, 1999.

45. Striker, G. «origins of the concept of natural law», proccedings of the Boston Area colloquim in Ancient philosophy, V.2, 1987.

46. Long, «Creek ethics after Macintyre and the stoic community of reason» in: Acient philosophy, V.3, 1983. pp.

47. Schofield, «the disappearing philosopher king» in: schofield, saring the city.

48. Badian, E. «Elexander the creat and the unity of monakind» in: Historica, V.7, 1958.

49. Monigliano, A. «Epicureans in Revolt», in: journal of Roman studies, V31, 1941.

50. Bront, p. A. «Cicero's officium in the civil war», in: journal of Roman studies, V.7.

51. Bailey, C.T. lucreticari de Rorum Natura: Libri sex, ed with trans. And commentary, oxford, 1947.

52. furley D.J. «Lucretius the epicurean: on the History of man» in: lucrèce Fondation Hardt, V.24, Geneva, 1978.

53. Schofield, M. «Le sage et la politique à l'epoque hellénistique» in: Brunschwig, J. and Lloyd, G.R. (ed.), Le savoir grec, Paris, 1996.

54. Sinclair, T.A., Aristotle, the politics, trans. by saunders, Harmonds worth 1962.

55. Walbank. F.W. the hellenistic world, London, 1981.

56. O'Neil, J.L. the origines and development of ancient creak Democracy, London, 1995.

57. Fraser, P.M. ptolemaic Alexandria, 3V. oxford, 1972. V1.

58. Walbank,F.W. «Monarchies and monarchic ideas» Cambridge Ancient history; Cambridge; 1984. V7.

59. Hadot, p. «fürstenspiegel» in: Reallexikon für Antike und christentun. V.8. stuttgart, 1972.

60. Wehrli, F. Die schole des aristotles: texte und kommentar, V.1: Dikaiarchos basle, 1944.

61. Fuhrmann. M, Anaximenis Ars Rhetorica, leipzig, 1966.

62. Forster, E. S. «Aristotle: Rhetorica ad Alexandrum, trans. In: Ross. W. D. (ed). the works of Aristotle translated into English, Vol. IV. oxford, 1924.

63. HEtt and Rhakham, Aristotle: problems II, Books XXII – XXXVIII, rheotorica ad Alexandrum, Cambridge, 1937.

64. Bosworth B. Elexancdre and the east: the tragedy of triumph, oxford, 1996.

65. Billows, R.A. «Antigonos the one – eyed and the creation of the hellenistic state» in: hellenistic culture and Society, 1990, Berkley, V.

66. Walbank, the Hellenistic state" in: Hellenistic culture and society, 1990. Berkley, V.4.

67. Wendland, p. «Die schriftstellerie des anaximenes von lampsakos, III. anaximene's Rhetorik» in: Hermes, V. 39, 1904.

68. Hadas, M, Aristeas to philocrates (letter of aristas), New York, 1951.

69. Pelletier, A. la lettre d'aristée à philocrate, in: sources chretiennes, V.89. paris, 1962.

70. Zuntz, G. «Aristeas 1: «the seven banquets» in: journal of semitic studies, V.4, 1959.

71. Murray, O. «aristeas and ptolemaic kingship» in: journal of theological studies, V.18, 1967.

72. Schmidit, w. Untersuchungen zur fälschung historischer dokumente bei pseudo-Aristaios, haberlts dissertationsdrucke, in: Reihe klassis che philosogie, V.37, Bon, 1986.

73. Marray, «Hecataeus of abdera and paraonic kingship", in: journal of Egyption archaeology, V. 56, 1970.

74. Walbank, polybius, U.S.A. los Angelos, 1972.

75. Pédechi, p. La méthode historique de polybe, paris, 1962.

76. Fritz, V., «The theory of the Mixed constitution in Antiquity: a critical Analysis of polybius», Politial Ideas, New York, 1954.

77. Cole, T. Democritus and the sources of Creek Anthropology, Gleveland, 1957.

78. Hahme, D.E., «polybius, applied political theory, in: Laks and Schofield,1995.

79. Brunt, P.A. The fall of the Roman republic and related essays, oxford, 1988.

80. Hopkins, K. Death and renewal, Cambridge, 1983.

81. Balsdon, «Auctoritas, dignitus, otium» in: classial quartely, V.10, 1960.

82. Rawson, E.Q, Cicero, a potrait, London, 1975.

83. Mitchell, I.N. Cicero the ascending years, London, 1979.

84. Mitchell, I.N. Cicero, the senior statesman, London, 1991.

85. Kumaniecki, F.F. M. Tulli ciceronis de oratore, lepzig, 1969.

86. Lewis, C. S. The discarded image, Cambridge, 1964.

87. Zetzel, Cicero: on the commonwealth and on the laws, Cambridge, 1995.

88. Miller, F.G. «the Political character of the classical roman republic, in: journal of roman studies, V.74, 1984.

89. Powll, J.G.F. «the rector rei publicae of cicero's de republica» in: scripta classic esraelica, V.13, 1994. pp.

90. Bükhner, K. M. Tullius Cicero, de Re publica, Heidelberg, 1984.

91. Girardet, K.M. Die ordnung der welt, wiesbaden, 1983.

92. Ferrary, J.L. «the statesman and the law in the political philosophy of ceciro» in: Laks, justice and generosity.

93. Winterbottom, M. cecero de officis, oxford, 1994.

94. Annas, ciceros, in: Griffen, philosophia togata.

95. Atkins, E.M. «Domina et Regina virtutum; justice and societas in De officiis» in: phronesis, V. 35, 1990.

96. Barnes, J. «Cicéron et la guerre juste» in: Bulltion de la société française de philosophie, V. 80, 1986.

97. Knoche, U. «Der römosche ruhmesgedanke» in: philologus, V.89, 1934.

98. Atkins, E.M. «The virtues of cicero's de officiis», cambridge, 1989.

الحضارة الإتروسكيَّة

أحمد محسن الخضر[١]

مقدّمة

كما كانت الحضارة الموكينيَّة هي الحضارة المدخليَّة لبلاد اليونان، كذلك تُعدُّ الحضارة الإتروسكيَّة هي الحضارة المدخليَّة لشبه الجزيرة الإيطاليَّة. فلقد هاجر الإتروسكيُّون إلى إيطاليا في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، واستقروا في أتروريا (توسكانة) في الشمال، والتي كانت تُعرف باسم بلاد التيرينيين. وهكذا، فإنَّ أولى المعضلات التي تواجه الباحث هي الجهة التي وفد منها الإتروسكيون، وهذه المعضلة القديمة الحديثة لم تلقَ الحلَّ لا عند المؤرِّخين الأقدمين ولا عند المعاصرين منهم.

لم يُقدَّر للإتروسكيين أن يلعبوا دوراً حاسماً في تاريخ شبه الجزيرة الإيطاليَّة إلاَّ منذ القرن السابع قبل الميلاد، مع العلم أنَّ تلك الساحة كانت تعجُّ بالشعوب المقيمة والوافدة. وقد سعوا بما أوتوا من قوة في سبيل توحيدها تحت سلطتهم. لكنَّ الإغريق في جنوب إيطاليا، والرومان في وسطها؛ كانوا أهمَّ من سيقف في وجه هذا المسعى. بيد أنَّ الرومان نجحوا بما فشل به الإتروسكيون بعد قرون، بعدما تحرَّروا هم أنفسهم من سيطرتهم، حيث تجدر الإشارة إلى أنَّ ثلاثة من أصل سبعة ملوك حكموا روما كانوا من الإتروسكيين، بمعنى أنَّ سيِّدة اللاَّتيوم (روما) خضعت لهيمنتهم ردحاً من الزمن يصل إلى قرابة القرن، لا بل إن تأثيرهم امتدَّ خلال قرون عديدة حتى نهاية العصر الجمهوريِّ.

وإذا كانت السيطرة السياسيَّة الإتروسكيَّة قد بدأت تنحصر بشكل تدرُّجيٍّ من أرجاء شبه الجزيرة الإيطاليَّة اعتباراً من القرن الخامس قبل الميلاد، أمام منافسيهم الإغريق بصورة

---

[١]- رئيس قسم التاريخ بجامعة دمشق.

خاصَّة، والقرطاجيين في بعض الأحيان، فإنَّ هذه السيطرة زالت بشكل نهائيٍّ، وإلى الأبد، أمام زحف الجحافل الرومانيَّة. وتجدر الإشارة إلى أنَّ معلوماتنا عن الإتروسكيين ناقصة ومحدودة. فبعدما انتصر الرومان عليهم طمسوا تاريخهم، واستوطنوا أرضهم، وحاربوا ثقافتهم، وألغوا شخصيَّتهم، وأماتوا لغتهم، التي ما زلنا نجهل فكَّ رموزها حتى يومنا هذا. ورغم كل ما تقدَّم، فإنَّ تأثيرهم الحضاريَّ لم يندثر كليَّاً بعد سقوط مدنهم الواحدة تلو الأخرى بيد روما، سيدة إيطاليا الجديدة.

أوَّلاً: التسميات ودلالاتها

لا بدَّ من القول أنَّ المركز الحيويَّ للإتروسكيين Etruscans، ونقطة انطلاق توسُّعهم في إيطاليا، هو منطقة توسكانة Tuscany (إتروريا Etruria) في إيطاليا الشمالية. **وقد أطلقوا على أنفسهم** إسم (راسينا Rasenna) وهي لفظة إتروسكيَّة. أمَّا الإغريق وسكان إيطاليا القدماء، فقد سمُّوهم تيرينوي Tyrrhenoi، نسبة إلى تيرينوس ابن الملك أتيس ملك ليديا في آسيا الصغرى، الذي قاد قسماً من الشعب الليديِّ -حسب روايات بعض المؤرِّخين- إلى إيطاليا[١]. في الواقع، إنَّ تسمية الإتروسكيين منحوتة من الجذر (تورس Turs) الذي نجهل معناه الصحيح، وهذا الجذر يبرز في الكلمة تيرينوي Tyrrhenoi والتورسيني Tyrseni والترهيني Tyrrheni، وهذه الكلمة لا تزال حيَّة في الاصطلاح الجغرافيِّ المعروف (البحر التريانى Tyrrhenian[٢]). ولعل الاسم اليونانيَّ مأخوذ من لفظة Tyrant المشتقَّة من كلمة تِرها Tyrrha وهي اسم غابة في ليديا[٣]. أمَّا **الرومان** فكانوا يسمُّونهم توسكي وإتروسكي Etrusci، وهذا اللَّفظ مأخوذ من الجذر توسيك Tusic الذي اشتقَّ من اسم منطقة توسكانا Toscana موطن الحضارة الإتروسكيَّة[٤]. وأخيراً، تجدر الإشارة إلى أنَّ **إيطاليا** Italia قد اكتسبت اسمها من الكلمة الإتروسكيَّة القديمة Vitellio ومعناها «أرض العجول» كناية عن

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان، مطبعة غندور، بيروت ١٩٧٤م، ص١١٢.

[٢]- أندرية إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وأمبراطوريَّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م، ص٢٥.

[٣]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيَّة، ج١، مج٣، ترجمة محمد بدران، تونس- بيروت ١٩٨٨م، ص١٣.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٥.

الغنى في المراعي وتربية الماشيَّة. وقد أطلق الإغريق هذا الاسم في القرن الخامس قبل الميلاد على المنطقة الجنوبيَّة الغربيَّة من شبه الجزيرة الإيطاليَّة المجاور لجزيرة صقلية والشهيرة بغاباتها ومراعيها الجبليَّة، لكنَّ مدلول هذه التسمية اتَّسع حتى صار يدلُّ في القرن الأول قبل الميلاد على كامل شبه الجزيرة الإيطاليَّة من الجنوب حتى جبال الألب في الشمال[١].

ثانياً: الخريطة الإتروسكيَّة

في الواقع، كان الإتروسكيون أول من منح سكَّان إيطاليا القدماء فرصة الظهور كأمَّة قويَّة في حوض البحر المتوسِّط بعدما تزعَّموهم، تماماً كما حدث مع القرطاجيين الذين منحوا سكَّان المغرب القدماء فرصة الظهور كأمَّة قويَّة في المكان نفسه بعدما تزعَّموهم، ولكي نفهم كيف تمَّ ذلك ينبغي أن نلقي نظرة على خريطة وسط إيطاليا لأنَّها تمدُّنا بصورة واضحة لجغرافيا هذه المنطقة. يتبيَّن من دراسة هذه الخريطة أنَّها منطقة مناسبة للسَّكن بفضل خصوبة تربتها، وجريان نهر التيبر Tiber فيها والذي يعتبر النهر الوحيد ذا الأهميَّة التاريخيَّة فيها، فهو يقسم ساق إيطاليا الطويلة إلى قسمين عند منتصفها تقريباً، ويتكوَّن من روافد عدَّة تنحدر من وسط جبال الأبنين Apennines، لكنها تتجمع في نهر سريع، غير عريض المجرى، يندفع من تلك المنطقة الجبليَّة التي تبعد عن البحر حوالي ٤٠٥ كم، إلى سهل اللاَّتيوم Latium، ويدور حول الحافة الشماليَّة لهذه المنطقة المستوية نوعاً ما، إلى أن يصبَّ في البحر الترياني عند منتصف الساحل الغربيِّ

موقع إتروريا على الخريطة الإيطاليَّة وأشهر مدنها.

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م، ص١٢.

تقريباً لشبه الجزيرة، من دون أن ينشئ ميناء طبيعياً[١]. وبفضل هذا النهر ظهرت التجمُّعات السكَّانيَّة الأولى في وسط إيطاليا، بما فيها مدينة روما. وتجدر الإشارة إلى أنَّ اسمه من أصل إتروسكيٍّ وليس لاتينيَّاً[٢]. كما نشأت في شمال النهر وسهل واللاَّتيوم مدن عدَّة ترتوي منه، وكان يسكن فيها الإتروسكيون حيث يشغلون السهول الممتدَّة في المنطقة، بمعنى أنَّه كان يفصل بلاد الإتروسكيين (التيرينيين)، عن اللاَّتيوم ومناطق السابينيين، وبلاد أومبريكا[٣].

ثالثاً: إشكاليَّة أصل الإتروسكيين

ينسب بعض المؤرِّخين الإتروسكيين إلى شعوب شمالي أوروبا التي دخلت إيطاليا، عبر جبال الألب، بينما يرى بعضهم الآخر أنَّهم غزاة مستعمرون أتوا من الشرق القديم؛ وتحديداً من آسيا الصغرى، واستقرُّوا بعد تطواف في أرجاء شتَّى من البحر المتوسِّط، إلى أن حطُّوا رحالهم في إيطاليا، وذلك ربما في أواخر القرن الثالث عشر أو في مطلع الألف الأول قبل الميلاد. وبين هذين الرأيين ظهر رأيٌ توفيقيٌّ مفادُه أنَّهم من شعوب إيطاليا القديمة، وأنَّ ظهور المدنيَّة الإتروسكيَّة وازدهارها إنما هو حصيلة تطوُّر وتدرُّج حضاريٍّ بطيء، حصل نتيجة اتصالاتهم البحريَّة بأقوام البحر المتوسَّط الشرقيَّة، مستغلِّين ما تفيضه عليهم تربة أتروريا من خامات معدنيَّة كالحديد والنحاس. يتبيَّن من ذلك أنَّهم أصليُّون بقدر ما يمكن نعت شعوب إيطاليا قديماً بهذا الوصف، وليسوا غزاة طوارئ اغتصبوا البلاد في بداية التاريخ في شبه الجزيرة الإيطاليَّة والحقب التي تلتها[٤].

أمَّا نحن، ومع احترامنا الكامل لجميع وجهات النظر التي أدلى بها الأساتذة، فإنَّنا سندرس جميع آرائهم وفق القواعد والأصول المنهجيّة، سنبدأ أوَّلاً بالرواية الثانية التي يذهب أصحابها إلى أن أصل الإتروسكيين شرقيٌّ: حيث يروي لنا سترابون، بالاعتماد على مصادر أقدم منه، أنَّ مجاعة كبرى قد حدثت في مناطق آسيا الصغرى في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ممَّا حدا ببعض سكَّانها إلى النزوح عنها باتِّجاه الغرب، وهكذا هاجر قسم

[١]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري والديني والسياسي والعسكري، ط١، دار النهضة العربيَّة، بيروت ٢٠١١م، ص٤٢.

[٢]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٣.

[٣]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ٥، الفصل ٢، الفقرة ١. ترجمة حسان إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠١٧م.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٥.

من سكان ليديا Lydia في أيام الملك آتيس بن مانس من بلاده نحو الغرب، «ويروي الإغريق أنَّه عندما حلَّت المجاعة وقلَّ المحصول أجرى آتيس قرعة بين ولديه، ونتيجة للقرعة بقي ابنه ليد عنده، بينما أرسل ابنه الآخر تيرينوس مع العدد الأكبر من سكَّان مملكته إلى ما وراء البحار[١]»، وهكذا أبحر هؤلاء من ميناء سميرنة (أزمير اليوم)، وهاموا على وجوههم في البحار طويلاً قبل أن يصلوا إلى إيطاليا ويستقرُّوا في منطقة الأومبريين؛ وهي منطقة في وسط البلاد يرويها نهر التيبر[٢]. ولسنا نعرف على وجه التحديد المكان الذي رسوا فيه أول مرَّة، ولكننا نعرف أنهم شادوا، أو استولوا، أو وسَّعوا مدناً كثيرة في منطقة الأومبريين (أتروريا)، لا قرى من القشِّ والطين كما كانت الحال قبل مجيئهم إليها، كما بنوا بلاداً مسوَّرة ذات شوارع منظَّمة على قواعد هندسيَّة، وبيوتاً لم تعد مشيَّدة من اللُّبن فحسب، بل أيضاً مبنيةً من الآجر المحروق والحجارة[٣]، وكان من أشهر مدنها بروزيا Perusia (بروجيا Perugia) وأريتيوم Arretium (واسمها الإتروسكي هو أرزو Arrezzo) وفيي Veii.

لقد أسَّس الليديون (أي الإتروسكيين) في منطقة أتروريا اثنتي عشرة مدينة، وأبدلوا اسمهم القديم باسم جديد هو التيرينيين نسبة إلى رئيسهم وقائدهم تيرينوس بن آتيس[٤]، الذي عيَّنَ عليهم مدبِّراً اسمه تاركون Tarchon (الذي أسَّس مدينة تاركويني Tarquinii التي سمِّيت باسمه – حاليا مدينة كورنيتو Cornto)، وهو كان يتميَّز منذ طفولته بعقل راجح، حتى أنَّ الأساطير الإتروسكيَّة القديمة تروي أنَّه ولد أشيب الشعر[٥]. وقد اتَّحدت هذه المدن الاثنتي عشرة في ما بينها اتِّحاداً أشبه ما يكون فدراليَّاً، وكان الهدف منه هو الاشتراك في الأعياد الدينيَّة بصورة أساسيَّة[٦].

لا بدَّ من الغشارة إلى أنَّ الكتاب اليونان والرومان اعتمدوا هذه الرواية؛ لذلك يتراءى لنا الإتروسكيون في مؤلَّفات فرجيل Vergilius وأوفيدوس Ovidius وهوارتس Horatius

[١]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ٥، الفصل ٢، الفقرة ٢.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١١٣.

[٣]- ول ديورانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص١٢.

[٤]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١١٣.

[٥]- سترابون، الجغرافيا، الكتاب ٥، الفصل ٢، الفقرة ٢.

[٦]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٤.

متَّخذين اسم ليديين، ويقول المؤرِّخ تاكيتوس في حوليَّاته إنَّ سكان ليديا كانوا يعتبرون أنفسهم حتى فترة؛ كأخوة عرقيين للإتروسكيين، وكان الفيلسوف سينيكا Seneca (القرن الأول الميلادي) من مؤيِّدي هذه النظريَّة[١]. ولكن وُجد في عصر الأمبراطور أغسطس من رفض هذه الرواية (أنهم قدموا من ليديا) ونعني بذلك المؤرِّخ ديونسيوس الهاليكارناسي Dionysius of Halicarnassus، حيث رأى أنَّه لا يُعقَل أن يكون الإتروسكيون قد انحدروا من الليديين لأنَّ اللغة والحضارة الليديَّتان تختلفان -حسب رأيه- اختلافاً جذريَّاً عن اللُّغة والحضارة الإتروسكيَّتين. ويعتقد هذا المؤرخ أنَّ سكان توسكانية (أتروريا) يمثِّلون شعباً إيطاليَّاً محليَّاً موغلاً في القِدَم، وعراقة هذا الشعب وقِدَمه يفسِّران لنا انفراده بلغة وحضارة وبطباع خاصَّة به[٢].

في الواقع، لم يتمكَّن المؤرِّخون المعاصرون حتى اليوم من إعطاء جواب حاسم بالنسبة إلى أصل الإتروسكيين، لكن من البديهيِّ ألاَّ يكون بين أصحاب هذين الرأيين من يفترض فناءً جذريَّاً أو جلاء كاملاً للشعب أو الشعوب التي استباحوا ساحتها، إذ إنَّ غزواً يأتي من البحر لا يمكن أن يزحزح أو يقتلع أمامه سوى عدد محدود من السكان، إلاَّ أنَّه يبيح للغزاة -عندما يستقرُّ لهم الأمر- أن يفرضوا سلطتهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظامهم السياسي؛ على الشعوب المغلوب على أمرها[٣]. لكن المسألة ازدادت تعقيداً بظهور نظريَّة ثالثة وجد من يروِّج لها منذ القرن الثامن عشر الميلاديِّ. وقد ادَّعى أنصار هذه النظريَّة أنَّ الإتروسكيين يشكِّلون فرعاً من الأقوام الهندو-أوروبيَّة التي اجتاحت شبه الجزيرة الإيطاليَّة منذ عصر البرونز، وكان هدفهم إعطاء هذه الأقوام جذوراً حضاريَّة عرقيَّة لا تقلُّ عراقة عن حضارات الشرق القديم، ولكن الحجج والأدلَّة التي قدَّمها أنصار هذه النظريَّة ضعيفة وغير مقنعة سواء من الناحية اللُّغويَّة أم من الناحية الأثريَّة. ويمكننا القول بأنَّ النقاش العلميَّ ما زال محصوراً اليوم بشكل جدِّيٍّ بين أنصار النظريَّتين الأساسيَّتين هل الإتروسكيون مواطنون إيطاليون أصليون أم مهاجرون وافدون من الشرق القديم[٤]؟.

---

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١١٤.

[٢]- المصدر نفسه، وللمزيد انظر: Dionysius of Halicarnassus: Roman Antiquities at LacusCurtius

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٥.

[٤]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١١٤.

وأمام تعارض هذه الآراء، من الأفضل أن نقف إلى جانب الرأي الذي تدعمه الأدلَّة الأثريَّة والشواهد العلميَّة. وتجدر الإشارة إلى أنَّ جميع الشواهد والبراهين العلميَّة تؤيِّد المنبت الشرقيَّ للإتروسكيين، كما أنَّها تبدو أكثر انسجاماً من غيرها وأقلَّ عرضة للجرح من سواها[١]، فتمثيل الرسوم التي نراها على القبور لهؤلاء القوم في صورة بشر قصار القامات، ممتلئي الأجسام، كبار الرؤوس، لا يكاد يوجد فرق بين ملامحهم وملامح سكان آسيا الصغرى، وتلمح في وجوه بعض الرجال الرقَّة والنبل، وكانوا جميعاً رجالاً ونساء يطيلون شعر الرأس، وكان رجالهم يرسلون لحاهم على عادة سكان الشرق القديم[٢]. كما أن عدداً من الحجج اللُّغويَّة والأثريَّة تبدو مؤيِّدة للنظريَّة الأولى (المنبت الشرقي)، وتجعلها مقبولة لدى العديد من كبار المؤرِّخين؛ فالسمات الشرقيَّة للحضارة الإتروسكيَّة هي عديدة ومهمة، لدرجة أنَّها تنفي مجرَّد ظاهرة عرَضيَّة، فرغم أنَّ لغة الإتروسكيين ما زالت كما قلنا غامضة نسبياً، إلاَّ أنَّه تمَّ العثور خارج إيطاليا على كتابة وثيقة الصلة بها، ونعني بذلك نقش النَّصب الذي عُثِر عليه في جزيرة لمنوس؛ إحدى الجزر الشماليَّة في الأرخبيل الإيجي، وقد يكون هذا النقش دليلاً على أنَّ الإتروسكيين قد خرجوا من آسيا الصغرى، وأنَّ بعض سفنهم قد رست في تلك الجزيرة فترة من الزمن قبل أن يواصلوا إبحارهم غرباً. وقد تمَّ اكتشاف هذا النَّصب سنة ١٨٨٥م، وتمَّ تأريخ النقش بالقرن السابع قبل الميلاد. وهكذا، إذا صحَّ أنَّ الإتروسكيين قد خرجوا من ليديا -حسب الرواية الأولى- فمن الممكن أن يكونوا قد رسوا في جزيرة لمنوس لفترة من الزمن قبل أن يتابعوا مسيرتهم نحو الغرب، عندئذٍ يتحدَّد تاريخ هجرتهم، أو بالأحرى هجراتهم، اعتباراً من نهاية القرن الثامن قبل الميلاد وليس القرن الثالث عشر قبل الميلاد[٣]، أي قبل استعمار الإغريق لجنوب إيطاليا وصقلية بفترة غير طويلة. ومن المرجَّح أيضاً أنَّ الاستعمار الإتروسكيَّ لم يكن حركة غزو واسع النطاق بقدر ما كان حركة تسلُّل تدريجيٍّ، قامت بها جماعات صغيرة وفدت في أعقاب التجار الإتروسكيين الأوائل باحثةً عن مصادر غنيَّة بالحديد والنُّحاس[٤].

---

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٥.

[٢]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، مصدر سابق، ص١٤.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١١٤، ١١٥.

[٤]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٣.

ولعلَّ ما يؤيِّد نظريَّة المنبت الشرقيِّ -إضافة إلى الأدلَّة اللُّغويَّة والأثريَّة- هو الطابع الشرقيُّ الصارخ للحضارة الإتروسكيَّة، فالمرأة مثلاً تحتلُّ في العائلة وفي المجتمع مركزاً مرموقاً يذكِّرنا بعادات وأعراف كانت سائدة في المجتمع الكنعانيِّ والنبطيِّ والتدمريِّ. كما أنَّ معتقداتهم الدينيَّة اختلفت كثيراً عمَّا كان سائداً عند اليونان واللاَّتين، بل إنَّ هناك سمة شرقيَّة واضحة اتَّسمت بها ديانتهم، حيث اعتقدوا بدين مُنزَل دُوِّنت تعاليمه في كتاب مقدَّس، هذا بالإضافة إلى اعتقادهم بالعرافة والتنبُّؤ وفحص كبد الأضحية لمعرفة المستقبل، على نهج ما كان شائعاً في بلدان الشرق القديم. أمَّا آلهتهم فذات أمزجة غامضة ورهيبة، وَجَبَ على الكُهَّان أن يرجعوا إليها دائماً للاستفسار عن مشيئتها، وكذلك لتفسير بعض الرموز والإشارات الصادرة عنها، والتي لها صلة بمستقبل البشر على الأرض.

ومن المهمِّ الإشارة إلى أنَّ العرافة (معرفة الغيب) احتلَّت مركزاً مرموقاً لدى الإتروسكيين، وهذه الظاهرة كانت سائدة كما نعلم لدى العديد من شعوب الشرق القديم، فعادة فحص كبد الأضحية كانت رائجة في معتقداتهم[١]، هذا ناهيك بالبصمات الآشوريَّة الممثَّلة في قصصهم، والمناظر التي رسموها على أقنعتهم ولوحاتهم الفنيَّة[٢].

رابعاً: مؤامرة الصمت وتشويه الصورة

من المهمِّ القول أن نسيان الماضي الإتروسكي، وإسدال الستار على مآثر هذا الشعب، ناتجان من مؤامرة الصمت؛ تلك المؤامرة التي حدت بالرومان منذ مطلع العصر الأمبراطوريِّ إلى طمس دور الإتروسكيين ونكران أثرهم بالنسبة إلى إيطاليا القديمة وإلى روما بالذات، ضمن سياق السياسة الغربيَّة التي ما زالت باقية حتى يومنا هذا، متمثِّلة في إنكار أيِّ فضل للشرق على الغرب، ونكران جميل الشعوب الشرقيَّة التي استوطنت الحوض الغربيَّ للمتوسِّط كالقرطاجيين والإتروسكيين. وقد أشار إلى ذلك الأمبراطور الرومانيُّ كلوديوس (٤١- ٥٤م) في خطابه المدوَّن على (لوح ليون)، وهو المشهور بأبحاثه اللُّغويَّة والتاريخيَّة. وكما يفهم من سياق خطابه عن الإتروسكيين أنَّه حرَّر نفسه من الأساطير التي نسجها مؤرِّخو

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١١٥.

[٢]- مفتاح البركي، الصراع القرطاجي الإغريقي، من القرن السادس حتى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، مجلس الثقافة العام، طرابلس ٢٠٠٨م، ص١٢٩.

الحوليَّات الرومانيَّة، وتجرَّأ على قول الحقيقة عنهم، رغم أن ذلك الأمر لا يروق للكثيرين. ولكن بعد خطاب كلوديوس ساد الصمت المطبق من جديد، وما زاد الطين بلَّة أنَّنا لم نتمكَّن حتى اليوم من فكِّ رموز الكتابة الإتروسكيَّة، أو بالأحرى فهم مفردات هذه اللُّغة، إضافة إلى ذلك هو أنَّ الرومان قد دمَّروا لدى استيلائهم على المدن الإتروسكيَّة مناطق بأكملها وأزالوا معالمها الحضاريَّة[١].

لا بل إنَّ الرومان لم يقفوا عند هذا الحدِّ، حيث سعوا بكلِّ طاقتهم في سبيل تشويه صورة الإتروسكيين، مدَّعين أنَّ فتياتهم كان يسمح لهنَّ بالحصول على بائناتهن عن طريق الدعارة، شأنهنَّ في هذا شأن فتيات آسيا اليونانيَّة، والشاهد على ذلك أنَّنا نرى شخصيَّة في إحدى مسرحيَّات بلوتس Plautus تتَّهم فتاة تسعى للحصول على بائنة زواجها بامتهان جسدها على الطريقة الإتروسكيَّة. ولم يقف ذلك الأمر على الرومان وحدهم، بل أسهم الإغريق أيضاً في نصيب فيه، فقد ادَّعى المؤرخ اليوناني ثيوبمبس Theopempus أنَّ النساء في أتروريا كنَّ مُلكاً مشاعاً، ولكننا نجد في ما وصل إلينا من المعلومات ما يثبت عدم وجود هذه المشاعيَّة الأفلاطونيَّة، بل إنَّ كثيراً من الصور تمثِّل مناظر الروابط الزوجيَّة، والحياة العائليَّة، والأطفال يمرحون حوال والديهم[٢].

إلى ذلك، طعن اليونان بأخلاق الإتروسكيين، حيث ادَّعى بعض مؤرِّخيهم -حسب اعتقادهم طبعاً، ومن دون أن يستندوا إلى مصادر موثَّقة- أنَّ نساءهم مشاع، ويعتنين بأجسادهنَّ إلى درجة كبيرة، ويتدرَّبن عاريات، ومع الرجال غالباً، إذ ليس من العار لديهنَّ أن يظهرن كذلك، وألاَّ يجلسن على المائدة بالقرب من أزواجهن، بل بالقرب من أوائل القادمين من المدعوِّين، ولقد اشتهرن بجمالهنَّ الفاتن، وبشربهنَّ الخمر بكميَّات كبيرة. ووصل الطعن الإغريقي بالإتروسكيين إلى حدِّ أنَّ كُتَّابهم ادَّعوا أنَّهم يتعهَّدون جميع المواليد على السواء، ولا يعرفون في الواقع من هو والد المولود الجديد. أما بالنسبة إلى الجماع (الزنا) فلم يكن يُنظر إليه على أنَّه عمل شائن، ويزعم هؤلاء الكُتَّاب أنَّهم كانوا يمارسونه أحياناً علانية ومن

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١١١.

[٢]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص١٥.

دون خجل، ويضيفون بأنَّ اللواط كان شائعاً في المجتمع الإتروسكيّ[١].

في هذا المجال، يشير أستاذنا في جامعة دمشق الدكتور محفل رحمه الله إلى أنَّ المؤلِّفين اليونان والرومان قد شوَّهوا سمعة المرأة الإتروسكيَّة إمَّا عن قصد وعمد، وإمَّا عن جهل، ونقول عن قصد نتيجة للتنافس الذي كان قائماً بين الإتروسكيين من جهة وبين كلٍّ من اليونان واللاَّتين من جهة ثانية. وما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنَّ هذا الهجوم كان مقصوداً هو أنَّ اليونان والرومان لم يكتفوا بمهاجمة الإتروسكيين في مجال العادات والتقاليد الاجتماعيَّة فحسب، بل حاولوا أيضاً تشويه سمعتهم في مختلف الميادين.

ويتابع الدكتور محفل بالقول أنَّه قد يكون هناك بعض الكتَّاب من ذوي المقاصد الحسنة قد وقعوا فريسة للخطأ، إمَّا لنقص في معلوماتهم، أو نتيجة للمقارنة بين المكانة الرفيعة للمرأة الإتروسكيَّة، وبين الدور الهزيل والمحدود الذي لعبته النساء الأثينيَّات والرومانيَّات في الحياة الاجتماعيَّة.

أمَّا نحن فيجب ألاَّ نستغرب ذلك من القدماء، فكم نرى اليوم بعض الذين لا يفهمون تقاليد وعادات مجتمعات غير مجتمعهم، كم نراهم يصوِّرونها في أغلب الأحيان على غير حقيقتها، منطلقين في تفكيرهم من وجهة نظر متجاهلة نسبيَّة المكان والزمان[٢].

خامساً: بنية النظام السياسيِّ عند الإتروسكيين

نظَّم الإتروسكيون أنفسهم بعد سكناهم في إيطاليا متَّبعين نظام حكومة دولة المدينة[٣]، حيث كانت كلُّ مدينة مركزاً أو عاصمة لإمارة أو مملكة صغيرة. وقد اندمجت أقوى هذه المدن وعددها اثنتا عشرة مدينة، في ما يشبه العصبة بقصد الاحتفال المشترك بالأعياد الدينيَّة، وظلَّت كلُّ مدينة محتفظة باستقلالها السياسيِّ والإداريِّ[٤]، وهذا التحالف عرَّفه الأقدمون بـ (الدوديكابول) أي حلف الاثنتي عشرة مدينة الذي قام في مقاطعة أتروريا. غير

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، م.س، ص١٣٩.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٤٠.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملكيَّة الجمهوريَّة الأمبراطوريَّة حتى عهد الأمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م، ص٥٤.

[٤]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٤.

أنَّ القوائم العديدة التي جاءت على ذكر هذه المدن وتعدادها تختلف في ما بينها، وتتعارض فيها الأسماء وتتباين، ومثل هذا التباين يطبع كذلك قوائم اتِّحادات المدن الاثنتي عشرية التي قامت على شاكلة الحلف الأول في كلٍّ من مقاطعتي كامبانيا Campania على الشاطئ الغربيِّ من جنوب إيطاليا، أو في سهل البو في شمالها، بعدما سيطروا على معظم القسم الشرقي من مجرى هذا النهر، بما فيه ساحل البحر الأدرياتيكيّ[١].

لكن كيف تطوَّر النظام السياسيُّ عند الإتروسكيين حتى وصل إلى هذه البنية الفدراليَّة؟

يذهب عددٌ من المؤرِّخين للاعتقاد أنَّ الحكم قد بدأ في المدن الإتروسكيَّة كما بدأ في روما؛ أي بالنظام الملكيِّ[٢]، حيث كانت هذه المدن بمثابة العواصم الإقليمية لأتروريا، وكان يحكم كلاًّ منها في البدء ملك أُطلق عليه لقب لوكومون Lucumon (وكلمة لوكومون تعني شيخ قبيلة عند الإتروسكيين، أو كبير قضاة)، وكان يمارس السلطات المدنيَّة والسياسيَّة والعسكريَّة والدينيَّة[٣]، يعاونه مجلس من زعماء الأسر الأرستقراطيَّة[٤]. وليس بالإمكان الجزم في ما إذا كانت الملَكيَّة وراثيَّة أو انتخابيَّة لمدى الحياة أو لمدَّة معيَّنة، وقد يكون من المناسب أن نتصوَّر الأمور على مثل ما كان عليه الوضع الاجتماعيُّ في المدن اليونانيَّة التي طبع تطوُّرها تطوُّر الحكم والإدارة الإتروسكيَّة[٥].

وفي نهاية القرن السادس قبل الميلاد حدث تطوُّر في نظام الحكم حيث سقطت الملكيَّات وقامت على أنقاضها حكومات أرستقراطيَّة، (كما جرى في الوقت نفسه في بلاد اليونان)، وأصبحت جميع هذه (المدن - الدول) جمهوريَّات ما عدا مدينة فيي Veii التي حافظت على نظامها الملَكيّ. وكان يحكم هذه الجمهوريَّات ممثلو العائلات الأرستقراطية ذات الأملاك الكبيرة[٦]. ورغم أنَّ الإتروسكيين لم يكونوا يشكِّلون سوى أقليَّة صغيرة بين

[١]- أندرية إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٠.

[٢]- ول ديورانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص١٣.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٦، ١٢٧.

[٤]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٤.

[٥]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٠.

[٦]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٦، ١٢٧.

السكان في مدن أتروريا، فقد ظلُّوا هم الفئة الأرستقراطيَّة المسيطرة[١]. وكانوا يشكِّلون مجلساً ينتخب سنوياً من بين أعضائه رئيساً توكل إليه سلطات تنفيذ قرارات المجلس، وكان يُطلق عليه بالإتروسكيَّة لقب zilath purthne أي حاكم المدينة، الذي كانوا يبدِّلونه كلَّ سنة[٢]. وقد سارت الدولة الرومانيَّة بعدما سيطرت أتروريا على تعيين محافظ أو حاكم عام عليها، الذي ربما كان رمزاً لاستمرار رئيس الاتحاد[٣].

لقد احتفظت هذه (المدن – الدول) باستقلالها الذاتيِّ سياسيَّاً وإداريَّاً بصورة كاملة[٤]، ورغم أنَّ فكرتنا عن أنظمة الإتروسكيين الداخليَّة ما زالت غير واضحة تماماً؛ لكن من المعروف أنَّ مدن الاتحاد قد أقامت في ما بينها علاقات سياسيَّة، وكان ممثلو مختلف المدن يجتمعون سنويَّاً في مدينة Belzan (اسمها اللاَّتيني فوليسيني Volsinii) بالقرب من المعبد والمزار الوطنيِّ Voltumna المكرَّس للربَّة الوطنيَّة للإتروسكيين[٥]، والتي أطلق عليه الرومان في ما بعد اسم فيرتومنوس Vertumnus [٦]، وخلال اجتماعهم كانوا يناقشون مختلف الأمور التي تهمُّ مختلف المدن الإتروسكيَّة، وقبل البدء بأيِّ عمل كانوا يقيمون طقوساً دينيَّة ثمَّ يُعقد المجلس الأعلى الذي يناقش مختلف الأمور التي تمسُّ بمصالح الأمَّة الإتروسكيَّة[٧]. وقد سيطرت مدينة تاركويني على الاتحاد[٨]، وهي أشهر مدينة إتروسكيَّة في أتروريا الجنوبيَّة، والتي كانت تقع على ساحل البحر شمال مدينة روما ولا تبعد عنها أكثر من ١٢٩ كم. وفي أوج عظمة الإتروسكيين -أي في القرن السادس قبل الميلاد- كانوا ينتخبون حاكماً عامَّاً يمثِّل الاتحاد، ويبحثون في أمور السلم والحرب ويضعون الخطط الدفاعية والهجومية لمختلف المدن، بل وكانت هذه المدن تضع -أحياناً- جيوشها تحت

[١]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٤.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٦، ١٢٧.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٠.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٤.

[٥]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٧.

[٦]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيَّة لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، مجلَّة «عالم المعرفة»، العدد ١٧٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٣م، ص٦٩.

[٧]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٧.

[٨]- ول ديورانت، قصّة الحضارة، مصدر سابق، ص١٢.

إمرة قائد واحد في الساعات الحرجة التي هدَّدت كيان الشعب الإتروسكي، أي أنَّ الطبقات الارستقراطية كانت تشعر بمصالحها المشتركة وتحاول الدفاع عنها، إن هذا الوصف أكثر ما ينطبق على الحالة السياسيَّة العامَّة خلال القرن السادس قبل الميلاد[١]، وقد ظلَّت هذه المدن المتحالفة طوال القرن السادس قبل الميلاد أقوى سلطة سياسيَّة في إيطاليا[٢].

وتجدر الإشارة إلى أنَّ أجهزة الحكم الرومانيَّة قد تأثَّرت تأثُّراً كبيراً بما كان سائداً لدى الإتروسكيين، فلقب لوكومون الملكيِّ المشتقُّ من كلمة Lauchme الإتروسكيَّة، كان يُطلق على الشخص الذي ورث وظيفة الملك بعد سقوط النظام الملكيِّ في روما، ولكن مهام اللوكومون الرومانيِّ في العصر الجمهوريِّ ستقتصر على الجانب الدينيِّ، وهذا ما حدث تماماً مع الإتروسكيين من قبل؛ فبعد انتقالهم في حكومتهم من النظام الملكيِّ إلى النظام الجمهوريِّ، اقتصر منصب اللوكومون على النطاق الدينيِّ فحسب.

في الواقع، إنَّ كثيراً من بروتوكولات الإتروسكيين سواء في السياسة أم في أجهزة الحكم؛ اقتبسها الرومان عنهم كما هي، ومنها أنَّ مسيرة اللوكومون كان يفتتحها حرَّاس يحملون فؤوساً محزَّمة على أكتافهم، كانت تدلُّ على (السلطان) الممنوح للحاكم، وسيتَّخذ الرومان منها رمزاً لسلطان بعض الحكام؛ كالديكتاتور والقنصل وقائد الفرسان[٣]. وقد عثر المنقِّبون في مدينة فيتولونيا على أداة حديديَّة تمثِّل حزمة من القضبان يبرز من بينها فأسان، ويرى الأقدمون باتفاق الآراء أنَّ فكرة السلطة عند الإتروسكيين يمثِّلها حملة الفؤوس الذين عددهم يوازي عدد المدن الاثنتي عشرة المتحالفة، مما يدلُّ على أنَّ النظام الذي أوجدوه هو نظام اتحاديٌّ أكثر منه بلديٌّ[٤].

سادساً: الجيش والتوسُّعات العسكريَّة

نشأ من تنظيم الإتروسكيين السياسيِّ تكنيكٌ حربيٌّ متفوِّق، وكان لهم جيش حسَن التنظيم، يضمُّ فرقاً من الفرسان الذائعة الصِّيت، وأسطولاً بحريَّاً كان في وقت من الأوقات

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٧.

[٢]- ول ديورانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص١٢.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٩.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٠.

هو المسيطر على البحر الترياني، الذي لا يزال حتى اليوم يسمى البحر الترياني أو البحر الأتروري أو التوسكاني[١]. وقد استخدم الإتروسكيون في جيشهم الـلبسة المدرَّعة الثقيلة، والعربات الحربيَّة المصنوعة من معدن البرونز[٢]، وكان الفرسان يتقدَّمون مسيرة الجيش، خلفهم مشاة الصف الأول، يتبعهم مشاة مدجَّجون بسلاح أكثر ثقلاً من مشاة الصف الأول، ويظهر أنَّ سلاح الفرسان قد حلَّ تدريجيَّاً محلَّ سلاح العربات الحربيَّة الثقيلة؛ التي كان يمتطيها المحارب وسائق العربة. أمَّا لباس الجنديِّ فكان عبارة عن ثوب مخصَّر منحدر إلى الركبتين، وكانت تحمي رأسه ووجهه خوذة ذات عرفة تشبه ما كان مستعملاً لدى اليونان. أمَّا أسلحتهم فكانت الفأس ذات الحدَّين (التي أصبحت كما أسلفنا رمزاً لسلطان الحاكم) والسيف والمزراق والرمح، وكان الجندي يتلقَّى ضربات العدو بواسطة مجن مستدير الشكل[٣]. وقد استطاعوا بفضل هذا الجيش بسط نفوذهم -تحت زعامة ملوكهم- على المناطق المجاورة بشكل سريع وشامل[٤].

كان الإتروسكيون يخصون القائد المنتصر بعد عوته من ساحة المعركة بموكب نصر؛ له طابع الاحتفال الدينيِّ، ما يجعل هذا القائد المنتصر شبيهاً بآلهتهم، فيدهنون جسمه بمادَّة المنيوم Minium (أوكسيد الرصاص وهو أحمر اللون)، ثم يحيطون عنقه بسلسلة تتدلَّى منها ميداليَّة (وسام) ذهبيَّة لتحميه من الحسد ومن العين الشريرة، بينما يتوِّجون رأسه بإكليل ذهبيٍّ محدودب الشكل؛ يشبه الإكليل المصنوع من أغصان السنديان، وأخيراً يخلعون عليه سترة Tunica وحلة Toga حمراء اللون، ويخصُّونه بصولجان عاجيٍّ يعلوه نسر باسط الجناحين وكأنَّه يهمُّ بالانطلاق نحو أعلى السموات. وسنجد أصداء لجميع هذه المظاهر لدى الرومان عندما كانوا يخصُّون قادتهم وأباطرتهم في ما بعد بموكب النصر[٥]، الذي كان يتضمَّن الكرسيَّ المشيخيَّ، والشال الرومانيَّ الموشَّى بالأرجوان، والرداء الأرجوانيَّ الذي يتدثَّر به القائد المنتصر، ومظاهر احتفاليَّة أخرى كانت ترافق مواكب النصر الروماني

[١]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص١٢.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، م.س ص٥٤.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، م.س، ص١٢٩.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، م.س ص٥٤.

[٥]- محمد محفل، تاريخ الرومان، م.س، ص١٢٩.

وما يصحبه من مراسم التعظيم والتبجيل، وغير ذلك من الشارات التي تنمُّ عن السلطة العليا والمسؤوليَّة. ولاشكَّ في أنَّ النُّظم والأعراف التي سار عليها الرومان في ما بعد، كان للإتروسكيين فضل السبق إليها والعمل بها، وهم راحوا يقتبسونها ويطبِّقونها في بلادهم[١].

أمَّا التوسُّع العسكريُّ للإتروسكيين، فقد تمَّ في باكورة فجر التاريخ الإيطاليِ، لذا يتعذَّر على المؤرِّخين التعرُّف -بشكل مفصَّل- على خطواته وأساليبه[٢]، رغم أنَّ جميع الكشوفات الأثريَّة الحديثة تؤيِّده. وسبب ذلك الغموض هو أنَّ المؤرِّخين الأوائل لم يشيروا إليه إلاَّ بشكل عرَضي. وبالتالي، فإنَّ فقر المصادر حول هذا التوسُّع وقلَّة الحديث عنهم وعنها؛ يبعث في نفس المؤرِّخ الأسف الشديد، وإذا غضضنا الطرف عن كثير من التأويلات والآراء العارضة، فإنَّنا نقف أمام نظريَّتين متعارضتين، فإمَّا أن نردَّ هذا التوسُّع إلى مجموعات من المغامرين اقتفت أثر رائد مغامر حالفه الحظ، جرت وراءه تباعاً جاليات متتالية ثبَّتت نفوذ القوم ومكَّنتهم في البلاد. وإمَّا أن يكون وفقاً لإرادة مدبَّرة وخطَّة منظَّمة ومحكمة أعدَّتها حكومة مركزيَّة، تبيَّنت عن كثب وحدة إيطاليا الطبيعيَّة فراودتها فكرة تحقيق وحدتها السياسيَّة. طبعاً لكلٍّ من هاتين النظريتين ما يؤيِّدها أو يدفعها من الحجج والبراهين، وهذه الحجج سواء منها المؤيِّدة أم المعارضة تعكس لنا بجلاء حجم الغموض الذي تكتنفه العلاقات الرومانيَّة - الإتروسكيَّة في تطلُّع كلٍّ منهما إلى السيطرة والغلبة، كما

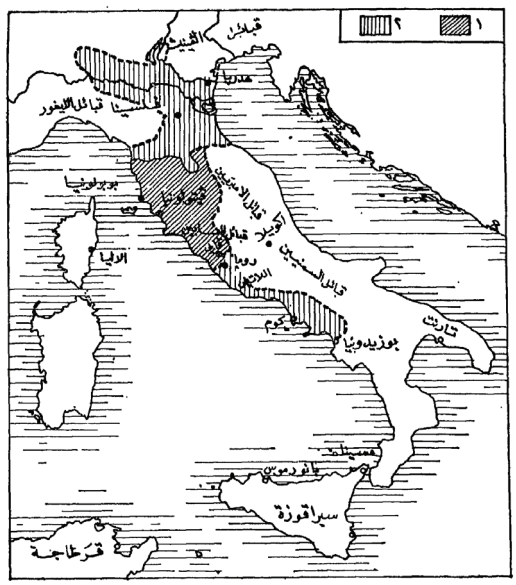

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣١.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٤.

يبدو لنا ذلك واضحاً من خلال القصص الأسطوريَّة عند الرومان[١].

خريطة انتشار الإتروسكيين: حيث تشير المناطق المخطَّطة بالخط المائل إلى مقاطعة أتروريا شمال إيطاليا؛ حيث موطنهم. بينما تشير المناطق المخطَّطة بالخطِّ العموديِّ إلى المناطق التي توسعوا فيها وسيطروا عليها في الشمال والجنوب، نقلاً عن موسوعة تاريخ الحضارات العام، ص٢٧.

مهما يكن من أمر، فإنَّ السياسة التي اتَّبعها الإتروسكيون في توسُّعهم، ودوافعه، يمكننا الإشارة إلى مجموعة من الحقاق التاريخيَّة الثابتة، أهمُّها أنَّ هذا التوسُّع قد تمَّ في شبه الجزيرة الإيطاليَّة ما بين القرن العاشر على الأبعد، والقرن السابع قبل الميلاد على الأقرب، فهذا هو المدى الأرحب والأوسع الذي تحدِّده النظريَّات الثلاث التي تتحدَّث عن أصلهم، وهي الفترة التي يضع فيها المؤرِّخون التوقيت الزمنيَّ الخاص بنشأة الحضارة الإتروسكيَّة وتوسُّعها[٢]. ثمَّ إنَّ أعداد الإتروسكيين لم تكن كبيرة، لكن حضارتهم كانت أرقى من حضارة السكان الوطنيين، كما كانوا متفوِّقين في السلاح والقوَّة العسكريَّة، ما ساعدهم في الاستيلاء على المراكز الحيويَّة القريبة من الساحل؛ وخصوصاً على مدينتي تاركوييني وكايري Caere، وفي التوغُّل بعد ذلك في شبه الجزيرة الإيطاليَّة، والسيطرة على مراكز عمرانيَّة أخرى كانت قائمة منذ فجر عصر الحديد، وقد ترتَّب على ذلك أن نشأت مدن إتروسكية عدَّة في المنطقة الواقعة بين نهري الأرنو والتيبر[٣]، إلاَّ أن مدن الجنوب الواقعة على شاطئ البحر مباشرة، كانت أكثر نشاطاً من تلك المدن التي شُيِّدت في داخل مقاطعة أتروريا الشماليَّة[٤].

وعند نهاية القرن السابع قبل الميلاد، عبر الإتروسكيون نهر التيبر واجتاحوا جانباً كبيراً من إقليم اللاَّتيوم، واحتلُّوا مدينة روما ومواقع أخرى هامَّة[٥]، هي ثغور نهر التيبر ومعابره، وبهذا أقاموا لهم رقبة جسر نحو سهل إيطاليا الجنوبيَّة. أمَّا في القرن السادس فنراهم قد

[١]- أندرية إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٨.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٦.

[٣]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٣.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٦.

[٥]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٤.

توسَّعوا في مقاطعة كامبانيا، حيث أسَّسوا مدينة كابو Capua المشهورة، التي صارت مركزاً رئيسيَّاً لهم، واستطاعوا أن يقيموا بينهم وبين فريق من الإغريق من سكان مدينة بوزيدونا حالة من التفاهم والتراضي، وكانت هذه المدينة التي تعرف اليوم بمدينة بيستروم مرفأ نشيطاً تؤمُّه السفن، كما كانت ملتقى للطرق البحريَّة التي ربطتها بخليج تارنت، عبر جبال البروتيوم، فكانت بوزيدونا هذه بمثابة البوابة الإغريقيَّة لمقاطعة كامبانيا الواقعة تحت الحكم الإتروسكيِّ[١].

لم يكتف الإتروسكيون بما سيطروا عليه من أرض، وعندما حاولوا توسيع دائرة نفوذهم في جنوب إيطاليا اصطدموا بالإغريق الذين كانوا قد مدُّوا نفوذهم على سواحل البحرين التريانيِّ والأدرياتيكيِّ، ما دفعهم إلى التحالف مع قرطاجة العدو التقليديِّ للإغريق في الحوض الغربيِّ للمتوسِّط.

في الواقع، لم تكن بداية معرفة الفينيقيين (أسلاف القرطاجيين) بالإتروسكيين قد جاءت بعد السيطرة القرطاجيَّة على جزيرة ساردينا، ولكنها تعود إلى أقدم من ذلك بكثير على ما يبدو، فقد ظهرت آثار للفينيقيين على الساحل الإتروسكيِّ نفسه، تدلُّ على عبادة الربَّة عشتار على الساحل الغربيِّ لأتروريا[٢]، ففي منطقة برسي Pyrsy عُثِرَ على ثلاث صفائح من الذهب اثنتان تحملان نقوشا باللُّغة الإتروسكيَّة، والثالثة كتب عليها باللُّغة البونيَّة، تُبيِّن ولاءهم للربَّة عشتار؛ ربة الفينيقيين والقرطاجيين[٣]، وهكذا يبدو أنَّ الاتصال الفينيقيِّ - الإتروسكيِّ كان قديماً قِدَم وصول الشعبين إلى منطقة الحوض الغربيِّ للبحر المتوسِّط[٤]، ولعل عداوة القرطاجيين والإتروسكيين المشتركة للإغريق هي التي وحَّدتهم[٥].

لقد بدأت أولى الصدامات بين قرطاجة والإتروسكيين من جهة، والإغريق من جهة

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٨.

[٢]- مفتاح البركي، الصراع القرطاجي الإغريقي، مصدر سابق، ص١٣٠.

[٣]- ناير مختار، التجارة البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط في العصور القديمة من الفينيقيين إلى عهد الاحتلال الروماني، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة أحمد بن بلة، وهران- الجزائر ٢٠١٨م، ص٨٨.

[٤]- مفتاح البركي، الصراع القرطاجي الإغريقي، مصدر سابق، ص١٣٠.

[٥]- ناير مختار، التجارة البحريَّة مصدر سابق، ص٨٨.

أخرى، عندما بدأ الفوكيون يمارسون القرصنة ضد سفن قرطاجة وأتروريا في عرض البحر[١]، والفوكيون هم من إغريق الساحل الشرقيِّ لبحر إيجة، نزحوا باتِّجاه الغرب في أعقاب اجتياح الجيش الفارسيِّ بقيادة قوروش لمنطقة أيونية في آسيا الصغرى، وأسَّس هؤلاء الإغريق النازحون (الآلية Alalia) مستعمرتهم الجديدة على الشاطئ الشرقي من جزيرة كورسيكا Corse (قرشقة) قبالة الساحل الإتروسكيِّ نحو سنة ٥٦٠ ق.م، وقد جاء هؤلاء بسفن حربيَّة، وأخذوا يقومون بأعمال القرصنة[٢]، وقطعوا الطرق بين قرطاجة وأتروريا، وسيطروا على البحر الترياني، فما كان من الإتروسكيين إلاَّ أن غيَّروا طرق مواصلاتهم البحريَّة، والتي صارت تمرُّ في غرب جزيرة صقلية ما عزَّز علاقاتهم أكثر مع القرطاجيين[٣]، وبعدما استمرت هذه الحال خمس سنوات شعر القرطاجيون والإتروسكيون بالأضرار الحقيقيَّة التي أصابت تجارتهم[٤]. لذلك بدأوا يعدُّون العدَّة لعمل عسكريٍّ حاسم حيث تحرَّك الجنرال القرطاجيُّ ماغو ليستثمر تحالف القرطاجيين مع الإتروسكيين، وكانت فاتحة حروبه سنة ٥٣٥ ق.م نصرٌ كبير حقَّقه الأسطول المتَّحد والمكوَّن من ١٢٠ سفينة، على أسطول الإغريق الفوكيين في معركة بحريَّة عُرِفت عند المؤرِّخين باسم المستعمرة الإغريقيَّة التي جرت قبالة سواحلها -معركة آلالية Alalia- على السواحل الجنوبيَّة لجزيرة كورسيكا، وأجلوهم عنها[٥].

لقد كان من نتائج المعركة اقتسام مناطق النفوذ بين القرطاجيين الذين مدُّوا نفوذهم إلى سردينيا وحلفائهم الإتروسكيين الذين استولوا على كورسيكا، كما عقدت قرطاجة معاهدة تجارية مع مساليا فتلاشت أطماع اليونان في التوسُّع نحو الغرب[٦]، وأُجبِرَ الفوكيون على الانسحاب من آلالية إلى شبه الجزيرة الإيطالية، حيث استقرَّ بعضهم في مستوطنة الفوكيين Phocaean في كالابريا Calabria، وأسّس آخرون مدينة فيليا Velia في مقاطعة كامبانيا،

[١]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة من التأسيس حتى السقوط سنة ١٤٦ ق.م، الهيئة العامَّة السوريَّة للكتاب، دمشق ٢٠١٥م، ص٢٥.

[٢]- محمد كامل عيّاد، تاريخ اليونان، ج١، ط٣، دار الفكر، دمشق ١٩٨٠م، ص٣٥٧.

[٣]- شيماء نصيرة، أسماء تلحيق، القرطاجيون في صقلية (٥٥٠ - ٢٤١ ق.م)، رسالة معدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحضارات القديمة، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي - الجزائر ٢٠١٩م، ص٥٧.

[٤]- محمد كامل عيّاد، تاريخ اليونان، مصدر سابق، ص٣٥٧.

[٥]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة، مصدر سابق، ص٢٦.

[٦]- محمد كامل عيّاد، تاريخ اليونان، مصدر سابق، ص٣٥٧.

وقتل العديد من الأسرى الفوكيين، واختفى التأثير اليونانيُّ في البحر الترياني، الذي طالما اعتبرته قرطاجة منطقة نفوذ لها ولحلفائها، وأدى هذا إلى تحالف قرطاجيٍّ - إتروسكيٍّ، سياسيٍّ- تجاريٍّ، استمرَّ لسنوات[١].

لم ييأس الإغريق من هذه الخسارة بل استمرُّوا يقاومون الإتروسكيين بضراوة في شبه الجزيرة الإيطاليَّة، ويعرقلون توسُّعهم نحو الجنوب؛ لاسيَّما في مناطق كامبانيا الغنيَّة، ولعلَّ هذه المقاومة كانت سبباً في فشل الإتروسكيين في توحيد كلِّ إيطاليا تحت حكمهم بعدما دان لهم القسم الأكبر من مناطقها الوسطى والشماليَّة، التي كان احتلالها ثمرة تحالفهم مع القرطاجيين[٢]. وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن المدِّ المقابل في الجهة المعاكسة، حيث توسَّعوا باتجاه الشمال من دون أدنى عائق، فعند نهاية القرن السادس قبل الميلاد، وبعدما اجتازوا سلسلة جبال الابنين ونزلوا في وادي البو حيث غزوا المنطقة الوسطى التي تقع بين موطن اليجوريين وموطن الفينيتيين Venetes على الشاطئ الشمالي للأدرياتيكيِّ حتى جبال الألب شمالاً، وكانت فلسينا Felsina القريبة من بولونيا الحديثة هي مدينتهم الرئيسيَّة في شمال الابنين، وبهذا أصبحت فلسينا قاعدتهم الكبرى للانطلاق منها إلى الشمال، ومنها بلغوا سهل نهر البو، وسيطروا على معظم القسم الشرقيِّ من مجرى هذا النهر. وقد اشتقَّ البحر الأدرياتيكي اسمه من اسم ميناء أدريا Adria الذي أسسه الإتروسكيون شمالي مصب نهر البو مباشرة في أرض الفينيتيين[٣]. عموماً، يمكننا اعتبار القرن السادس قبل الميلاد عصر سيطرة الإتروسكيين، عسكريَّاً وسياسيَّاً واقتصاديَّاً، إذ إنَّ نفوذهم كان يمتدُّ من جزيرة كورسيكا في الغرب حتى البحر الأدرياتيكيِّ في الشرق، ومن جبال الألب في الشمال، حتى جنوب إيطاليا[٤].

سابعاً: مكانة الإتروسكيين الحضاريَّة

تختلف الحضارة الإتروسكيَّة في كثير من مظاهرها المدنيَّة عمَّا كان سائداً لدى الشعوب

[١]- عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة، مصدر سابق، ص٢٦.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٥.

[٣]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٤، ٤٥.

[٤]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٤.

التي سكنت شبه الجزيرة الإيطاليَّة منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد، ومن الصعب علينا أن نعرفها كليَّاً ونحدِّد صفاتها بشكل حاسم بصفحات محدودة لغناها وأصالتها من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب ندرة الوثائق الكتابيَّة نتيجة لغموض اللُّغة الإتروسكيَّة، التي لم تحل رموزها تماماً حتى الآن، وكذلك بسبب فقدان كثير من الدلائل المادِّيَّة التي اندثرت وزالت نتيجة لعوامل عديدة. لكن يجب أن نضيف بأنَّ اكتشاف العديد من القبور منذ منتصف القرن التاسع عشر، ثمَّ دراسة محتوياتها من مختلف الجوانب، قد ألقى بعض الضوء على السمات الأساسيَّة لهذه الحضارة[١].

لا بدَّ من القول أنَّ من الخطأ الاعتقاد بأنَّ دور الإتروسكيين الحضاريِّ في إيطاليا قد اقتصر على الجانب السياسيِّ، في إدخالهم نظام حكم دولة-المدينة في معظم أرجاء ايطاليا الوسطى من جهة، وفي إجبار الشعوب المحليَّة على التلاحم والتماسك سعياً وراء الاحتفاظ باستقلالها، في فترة كانت فيها الشعوب الإيطاليَّة تعيش حياة زراعيَّة رعويَّة بحتة[٢]. ولدى تعرُّضنا للتنظيم السياسيِّ لديهم قلنا بأنهم قد أوجدوا شبه اتِّحاد من اثنتي عشرة مدينة، أي أنَّ المدينة كانت مركز مختلف النشاطات السياسيَّة والاقتصاديَّة والدينيَّة، وبتعبير آخر كانوا قد تخطُّوا التنظيم القبليَّ، وانتقلوا إلى مرحلة جديدة نتيجة لتطوُّر القوى المنتجة التي أثَرت بدورها على علاقات الإنتاج، وقد انعكس كلُّ ذلك على في نشوء تنظيم اجتماعيٍّ جديد[٣].

في الواقع، إنَّ المختصَّ بالتاريخ الإتروسكيين سيجد أنَّ دورهم الحضاريَّ كان أكثر عمقاً وأهميَّة في تاريخ إيطاليا عموماً، وفي تاريخ الشعب الرومانيِّ خصوصاً، حيث جلب الإتروسكيون الحضارة الشرقيَّة معهم إلى إيطاليا الوسطى بصفة عامَّة وإلى الرومان بصفة خاصَّة. وكان من نتائج ذلك أن استعار الرومان الأبجديَّة من الإتروسكيين التي اقتبسوها هم بدورهم عن الإغريق نحو ٧٠٠ ق.م[٤]. وقد بلغت الحضارة في ذلك العصر درجة متقدِّمة من الرقيِّ يشهد عليها ما عثر عليه المنقِّبون الأثريون في قبور الإتروسكيين من

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٣٥.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٧.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٣٥.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٧.

جسور للأسنان الصناعيَّة، وكان طب الاسنان قد انتقل إليهم، من بلاد مصر واليونان[١].

إلى ذلك، احتلَّ كل من الرقص والموسيقى حيِّزاً كبيراً في الحياة اليوميَّة للإتروسكيين، أما أشهر أدواتهم الموسيقيَّة فكانت القيثارة والناي المزدوج والصنج والصور والقرن والبوق، ويظهر أنَّهم قد اصطادوا بعض فصائل الحيوانات على أنغام الناي. وعدا عن كون الموسيقى وسيلة من وسائل الطرب، فإنها كانت تلعب دوراً كبيراً في المراسم والطقوس الدينيَّة والجنائزيَّة كما نشاهد اليوم في بعض المجتمعات، كما أنَّ مختلف الأنغام الموسيقيَّة كانت ترافق الأعياد الاستعراضات العسكريَّة والألعاب الموسيقيَّة وهي ترافق بأنغامها الخبَّازين والطهاة أثناء عملهم. وكذلك الرقص كان على أنواع، من الرقص المنفرد، إلى الرقص الجماعيِّ، بل نشاهد في الرسوم بعض الألعاب الرياضيَّة تنفَّذ وكأنَّها حركات راقصة. وقد احتلَّ أيضاً حيِّزاً كبيراً في الطقوس الدينيَّة والجنائزيَّة. وعرف الإتروسكيين الملاكمة ومختلف أنواع المصارعة التي انتشرت في ما بعد لدى الرومان وتركت آثاراً جلية في مجتمعهم، كما أنَّ ألعاب المصارعة في الميدان التي كانت ذائعة الصيت في روما هي في الواقع ذات أصل إتروسكي[٢].

ثامناً: بنية الحياة الاجتماعية عند الإتروسكيين

لقد كانت مقاطعة أتروريا مثوى لعدد كبير من الأسر الكبيرة، ترتبط في ما بينها بروابط الأنساب والتضافر التامِّ، ونلمس ذلك من خلال بعض المسمَّيات والكنى التي لم يكن ما يحاكيها في عالم البحر المتوسِّط. فمن العادات التي سار عليها الشرق والشرقيون أن يأتي الشخص متبوعاً باسم والده لتمييز الناس بعضهم عن بعض، بينما راح بعض الشعوب الآسيويَّة كالليكيين مثلاً ينسبون الأبناء إلى الأم، الأمر الذي حمل عدداً من المؤرِّخين على الاعتقاد بسيرهم على النظام الأموميِّ. وقد اتَّبع الإتروسكيون الطريقتين المذكورتين، واستعملوا معهما أسلوباً آخر أو اقتصروا عليه وحده. فإسم الشخص يصبح نعتاً أو وصفاً للكنية أو الشهرة. والجدير بالملاحظة هنا حرصهم على الأنساب والأصلاب، الأمر الذي ساعد على تكوين مشجرات عائليَّة معقَّدة. ولا بدَّ من أن يكون تطوُّر هذا المجتمع قد ساعد

[١]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، مصدر سابق، ص١٤.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٤١.

كثيراً على تركيز الطابع الأرستقراطيِّ الذي برز في تاريخ متأخِّر عندما شبَّت روما وترعرعت، وأخذت تؤثِّر بعيداً في ما حولها. والواقع أنَّ اتخاذ الاسم والكنية وقيام نظام قبليٍّ متماسك شبيه بما عُرف عند الرومان بنظام العشيرة Gents، وهذا النظام هو من الأعراف التي سارت عليها أمم إيطاليَّة عديدة، وفي كلِّ هذا يعود الفضل للإتروسكيين[١].

حريٌّ القول أنَّ جميع الدلائل والوثائق تشير إلى أنَّ المجتمع الطبقيَّ لدى الإتروسكيين كان قد تشكَّل منذ القرن السابع قبل الميلاد، وذلك بعد تطوُّر الاقتصاد، وظهور التخصُّص في مختلف فروع الصناعة والتجارة والزراعة. ويظهر ذلك جليَّاً في تشكُّل طبقة أرستقراطيَّة مكوَّنة من العسكريين والتجَّار ومالكي الأراضي، وكذلك من رجال الكهنوت، وكان يمثل هذه الطبقة -كما ذكرنا- الحاكم (اللوكومون)، وكان أفراد هذه الطبقة يعيشون في قصور محصَّنة على المرتفعات[٢]، ينعمون بحياة رغيدة، ويظهر ذلك جليَّاً في تصاوير ومشاهد المرح أثناء الشراب، وكانت تلك الجلسات في بعض الأحيان مقصورة على الرجال من دون النساء، يتحدَّثون فيها عن الخمر، وفي بعضها الآخر يختلط الرجال بالنساء، وهم جميعاً يرتدون أحسن الثياب، ويتكئون مثنى مثنى على أرائك وثيرة، يأكلون ويشربون ويقوم العبيد على خدمتهم، بينما تسلِّيهم الراقصات والمغنِّيات، وتزدان الوليمة أحياناً بمناظر يحتضن فيها الرجال زوجاتهم[٣].

في المقابل، كان أفراد الطبقة الوسطى (من حرفيين وصنَّاع وفلاَّحين) وكذلك العبيد، يسكنون في المدن والسهول[٤]، ومع أنَّ الإتروسكيين كان بوسعهم أن يفرضوا لغتهم على رعاياهم من الإيطاليين إلاَّ أنَّهم لم يفعلوا ذلك، رافضين الاندماج معهم، مفضِّلين اخضاعهم وتسخيرهم لتحقيق أهدافهم الخاصَّة[٥]. وبوسعنا أن نستدلَّ مماَّ على القبور من رسوم ملوَّنة ونقوش محفورة على أنَّ النظام الاجتماعيَّ عند الإتروسكيين كان نظاماً إقطاعيَّاً خالصاً يمتلك فيه الأعيان الأرض، ويستمتعون بما ينتجه الأقنان والأرقَّاء من الشعوب

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٩.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٣٠.

[٣]- ول ديورانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص١٥.

[٤]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٣٠.

[٥]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٤.

الأخرى المغلوب على أمرها بكدحهم من خيرات، بعد أن يتركوا لهم حاجاتهم منها[١]، وقد أُلزمت هذه الشعوب الخاضعة بدفع الضرائب وكذلك بتنفيذ مختلف أعمال السخرة، كبناء أسوار المدن والقصور المحصَّنة والقنوات وقبور الطبقة الأرستقراطيَّة. وإلى جانب طبقة المنتجين الأحرار (الحرفيين، وعمال المناجم، والفلاحين)، كان هناك طبقة الأرقَّاء، الذين كان عددهم مرتفعاً لدرجة أنَّهم شكَّلوا طبقة على حدة. وقد خضع العبيد لاستغلال أشدَّ قسوة وكانوا يعملون في المناجم والحقول، كما أنَّ بعضهم كان يخدم في قصور وبيوت الطبقة الأرستقراطيَّة الحاكمة.

ونلفت هنا إلى أنَّ معلوماتنا عن طبقة العبيد هي أفضل بكثير عن طبقة المنتجين الأحرار؛ إذ إنَّ الرسوم الجنائزيَّة التي اكتشفت في مختلف أنواع القبور الإتروسكيَّة تصوُّر العديد من هؤلاء الأرقَّاء من نساء ورجال في أوضاع مختلفة، وهم يقومون بخدمة أسيادهم في البيوت أو في القصور.

أما بالنسبة إلى طبقة المنتجين الأحرار فغيابهم الملحوظ عن هذه الرسوم إضافة إلى عدم العثور -حتى الآن- على قبور عائدة إليهم، تجعل دراسة حياتهم ونشاطاتهم في مختلف الوجوه، أمراً صعباً لا بل مستحيلاً[٢]. والظاهر أنَّ الإتروسكيين قد عرفوا هم أيضاً نظام الاتباع Clients الذي نهج عليه الرومان في ما بعد، ومن المفيد كثيراً تحديد تاريخ الأخذ بهذه الأنظمة. ومهما يكن من أمر، فمما لا ريب فيه أنَّ المجتمع الإتروسكي كان مجتمعاً أرستقراطيَّ الطابع، يشهد على ذلك ما نراه من مظاهر الغنى والبذخ التي تكشف عنها معالم قبور القوم ومدافنهم إذا ما قارنَّاها بالمقابر المتواضعة لجمهرة السواد[٣]. ويدل بذخ قبور أفراد الطبقة الأرستقراطيَّة على أنَّ هذه الطبقة قد بلغت منذ القرن السادس قبل الميلاد درجة كبيرة من الثراء[٤].

لقد كان الإتروسكيون مورَّدي البشرة وخصوصاً نساءهم، وإن كانت الأصباغ الحمراء

---

[١]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، مصدر سابق، ص١٣.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٣٧.

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٩.

[٤]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٣٠.

قديمة ومعروفة قدم الحضارة ذاتها، وعلى العموم اشتهرت نساؤهم بجمالهن، وكان للمرأة مكانة مرموقة وعالية في أتروريا، ويشهد على ذلك الرسوم والتصاوير التي تمثلهنَّ في مقام عال في جميع مناحي الحياة، كما لم يكن التعليم عندهم مقصوراً على الرجال، وشاهد ذلك أن تناكويل Tanaquil زوجة تارخون الأول Tarquin قد برعت في العلوم الرياضيَّة والطبِّ براعتها في تدبير الدسائس السياسيَّة[١]. عموماً، لقد كان وضع المرأة يختلف اخلافاً كبيراً وجذريَّاً عمَّا كان سائداً في المجتمعين الأثينيِّ والرومانيِّ، حيث كانت المرأة حبيسة المنزل وخصوصاً في المجتمع الأثينيِّ، وكان دورها هزيلاً ومحدوداً. لذلك، يجب علينا أن نحذر من الأقاويل الواردة في كتابات المؤلَّفين اليونان واللاَّتين، تلك الكتابات التي شوَّهت سمعة المرأة الإتروسكيَّة، وصوَّرت أخلاق المجتمع على غير حقيقتها[٢]، كجزء من التضليل الذي ينهجه الغرب ضدَّ الإتروسكيين والقرطاجيين، لا بل ضدَّ جميع الأقوام الشرقيَّة سواء التي هاجرت باتجاه الغرب أم تلك التي بقيت في شرقها المتحضِّر.

إنَّ استخلاص المعلومات من مختلف رسوم القبور المكتشفة يقدِّم لنا بيانات لا شكَّ بصحتها عن بعض ملامح الحياة الاجتماعيَّة، حيث اقترنت المرأة بالرجل برابط الزواج، وكان من الصعب على الطرفين أن يفصما روابط هذا القران. كما لعبت دوراً كبيراً ومهماً في حياة الأسرة؛ فهي التي تربيِّ الأولاد، وتدير شؤون المنزل، وترتبط بزوجها بحب وودٍّ متبادلين، وتشاركه بأفراحه وأتراحه، وإن جميع الرسوم والتماثيل المكتشفة في القبور تؤكِّد ذلك. ولكن، هذا لا ينفي أنَّها كانت تتمتَّع بحريَّة كبيرة، كما أنَّها كانت تحضر معه مختلف الحفلات، وتشارك في بعض النشاطات الاجتماعيَّة والألعاب، وقد يحدث ذلك برفقة زوجها أو بمفردها. ومن المرجَّح بل من المؤكَّد أنَّها كانت تساهم في إدارة الشؤون العامَّة للمدينة. من هنا يتبيَّن أنَّ الدور الهام الذي كانت تلعبه سواء على مستوى الأسرة أم على مستوى المجتمع هو الذي أعطاها مركزها المرموق[٣].

---

[١]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، مصدر سابق، ص١٥.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٣٨.

[٣]- المصدر نفسه، ص١٤٠.

تاسعاً: النشاط الاقتصاديُّ عند الإتروسكيين

كانت أولى الأعمال التي قام بها الإتروسكيون قد تركَّزت بنوع خاص في ميدان الزراعة حيث تمَّ استصلاح أرض أتروريا؛ بتجفيف مستنقعاتها (مستنقعات ماريم Maremme الساحلية)، وقطع غاباتها، كما عملوا على حماية تربتها من الانجراف؛ ببناء الأنفاق والسدود في المناطق المهدَّدة، وأنشأوا في قراهم التي عمَّروها نظاماً متطوِّراً للريِّ، وأوجدوا في مدنهم نظاماً مبتكراً للمجاري لم يُكشف -حتى الآن- عمَّا يماثله في بلاد اليونان في ذلك العصر نفسه. وأنشأ المهندسون الإتروسكيون مجاري تحت الأرض يجري فيها ما زاد من مياه البحيرات، وطرقاً في الصخور والتلال[١]. ولم تكن الملكيَّة الزراعيَّة الخاصَّة قد ظهرت عند الشعوب التي سبقتهم في إيطاليا، لكن منذ القرن السابع قبل الميلاد حدث تطوُّر في وسائل الإنتاج أدَّى إلى ظهور المُلكيَّة الخاصَّة، وبرزت هذه الظاهرة مع نشوء المجتمع الطبقيِّ وظهور طبقة الأرقَّاء. ويصف لنا المؤرخون اللاتين أرض أتروريا البركانية، بأنها خصبة منذ القديم؛ سواء لناحية الحبوب أم لناحية الأشجار والخضار، حتى أنَّه لم يكن بمقدور المرء أن يشاهد حقولاً غير مستثمرة. وقد اشتهرت أتروريا بتصدير فائض إنتاجها من الحبوب إلى روما خلال القرن الخامس قبل الميلاد؛ أي خلال سني القحط. كما اشتهرت بخمورها الذائعة الصيت التي وصلت شهرتها حتى بلاد اليونان. وتجدر الإشارة إلى أنَّ الإتروسكيين كانوا متقدِّمين على سكان اللاَّتيوم في مجال صناعة الخمور وزراعة الكرمة، وغرس أشجار الزيتون، كما اشتهروا بزراعة الكتَّان، وكان نسيج الكتان لديهم ذائع الصيت أيضاً، واهتموا بتربية الخيول. ويعلِّل اللاَّتين مهارة الإتروسكيين العالية في مجال الزراعة بعلاقاتهم مع الشرق القديم وقرطاجة، حيث قامت الزراعة عند القرطاجيين على أُسُس ومناهج علميَّة متطوِّرة[٢].

إلى ذلك، تفوَّق الإتروسكيون في حقل التعدين على جميع الشعوب الإيطاليَّة التي عاصرتهم، حيث اشتهروا في استخراج الخامات المعدنيَّة (الحديد والنحاس) التي كانت تفيض بها مقاطعة أتروريا؛ حيث رفلت من موارد الأرض وما تحت الأرض بما لم ترفل به

---

[١]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، مصدر سابق، ص١٣.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٣١.

مقاطعة أخرى من مقاطعات إيطاليا، وما من شعب انصرف عبر التاريخ القديم لاستغلال ثروات بلاده المعدنيَّة الكامنة فيها كما انصرف الإتروسكيون إليها، وعلى مثل هذا النطاق الواسع. ولكي يؤمنَّوا المزيد من الخامات المعدنية سيطروا على جزيرة إلبا Elbe؛ الأمر الذي زاد من طاقتهم على تأمين المزيد من الموارد التي كانوا بحاجة إليها. ويشهد التاريخ على أنه ليس هناك قوم في العصور القديمة صرفوا نشاطهم طوال حياتهم في سبيل استخراج الخامات المعدنية مثلما فعل سكان مدينتي بوبولونيا Populonia وفيتولونيا Vetulonia الواقعتين تجاه جزيرة البا، علماً أنَّ مدناً أخرى كانت تقوم بإعدادها وتوضيبها للتصنيع[١]. ومنذ القرن السابع قبل الميلاد ذاع صيت عدد كبير من المدن بالأدوات الفخاريَّة والخزفيَّات الثمينة، واشتهر البعض الآخر منها بمصنوعاتها الحديديَّة والذهبيَّة والفضيَّة[٢]، واكتسب مصنوعاتهم البرونزيَّة؛ وعلى الأخصِّ المرايا والشمعدانات شهرة واسعة في أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وكان الصنَّاع يصنعون من الذهب والفضة حليَّاً وأدوات للزينة بالغة الدقَّة تكشف عن مهارة فنيَّة فائقة[٣]. ولعلَّ كميَّات الحليِّ الذهبيَّة الكبيرة التي عُثر عليها في المدافن الإتروسكيَّة خير شاهد على ما بلغه هؤلاء من مهارة في الصياغة، وبالتالي ناطقاً بليغاً يفصح عن الازدهار الاقتصادي الذي بلغته الأرستقراطيَّة الإتروسكيَّة[٤].

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ هذه الصناعة المتقدمة فتحت باب التجارة الخارجيَّة على مصراعيه، حيث كان الإتروسكيون يبيعون الحديد المطاوع في جميع أنحاء إيطاليا، كما أنهم وجدوا أنفسهم منذ عهد مبكر وجهاً لوجه مع جزيرتي كورسيكا وسردينيا، حيث استخرجوا النحاس من كورسيكا، وليس هناك شكٌّ في أنهم غامروا برحلات تجاريَّة أخرى نحو الجنوب، وحتى إلى الشرق، رغم أنَّ القرطاجيين والإغريق كانوا قد سيطروا على معظم المرافق التجاريَّة وأمَّنوا الاتصال بها[٥]. وكان التجار يتاجرون مع جميع البلاد الواقعة على شاطئ البحر الترياني ويأتون بالكهرمان، والقصدير، والرصاص، والحديد من بلاد أوروبا

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٦.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٣٣.

[٣]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٧.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٨.

[٥]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٦.

الشماليَّة وينقلونها في نهري الراين والرون، وفوق جبال الألب، ويبيعون منتجاتهم في جميع موانئ البحر المتوسِّط[١]. وهم كانوا يستوردون من بلاد اليونان - من كورنثا أولاً ثم أثينا- مختلف أنواع الأواني الخزفيَّة ذات اللون الأحمر والأسود، والتي كانت تجد رواجاً عظيماً عند الإتروسكيين، حيث عثر على الآلاف من هذه القطع الفنية في القبور والأضرحة، وعموماً تؤرَّخ صناعتها بالقرنين السادس والخامس قبل الميلاد[٢]، وكان الجانب الأعظم -على ما يبدو- من هذه السلع التجاريَّة ينقل عبر المراكب، كما كانت تجارتهم مع المدن الإغريقيَّة في جنوب إيطاليا مزدهرة على نطاق واسع، حتى أنَّ جماعات من التجَّار الإغريق استقرَّت في الموانئ الإتروسكيَّة على ساحل البحر التريانى وساحل البحر الأدرياتيكيِّ.

وقد أسهم ازدياد حجم التجارة في دخول النقد والعملة في أواخر القرن السادس حيِّز التداول؛ حيث انصرفوا عن نظام المقايضة، وأخذوا يستعملون كتلاً من النحاس كوسيلة للتبادل. ثمَّ استعملوا نقود المدن الأيونيَّة الإغريقيَّة، وبعد سنة ٥٠٠ ق.م بدأت بعض المدن بإصدار عملات خاصَّة بها من الذهب والفضة والنحاس، وقد التزمت أو اتَّبعت في أول الأمر قاعدة نقديَّة مقتبسة من ليديا في آسيا الصغرى، لكنها ما لبثت أن تخلَّت عنها واتَّبعت قاعدة النقد الإغريقيَّة التي كانت شائعة في منطقة كامبانيا وجزيرة يوبويا Euboea في شمال بلاد اليونان[٣]. ومن الطريف بمكان أن توشح المدن الإتروسكيَّة نقودها بصورة شعار مقتبس من ليديا في آسيا الصغرى مما يدفع المؤرِّخين إلى الظنِّ بأن استعمال هذا الشعار يخفي وراءه موضع الوطن الأصليِّ الذي نشأ الإتروسكيون فيه، على أن الأطرف من ذلك أن تفوز عناصر الحضارة الإغريقيَّة المجاورة مرَّة أخرى عندما يتخلُّون عن هذا الشعار ليوشِّحوا نقودهم بشعار إغريقيٍّ كان شائعاً في منطقة كامبانيا وفي جزيرة يوبويا[٤].

عاشراً: الديانة الإتروسكيَّة

تنقسم آلهة الإتروسكيين إلى ثلاث مجموعات، فأولاً هناك مجموعة من الآلهة تحمل

[١]- ول ديورانت، قصَّة الحضارة، مصدر سابق، ص١٣.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٢٦.

[٣]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، مصدر سابق، ص٤٨.

[٤]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٨.

أسماء إتروسكيَّة خالصة ولا نعرف عنها إلاَّ القليل، أهمُّها Voltumna الربة الوطنية للشعب، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هناك علاقة وثيقة ما بين مركز المرأة المرموق في المجتمع وبين مركز الصدارة الذي تحتله الآلهة المؤنثة في مجمع الأرباب. ومن الآلهة الإتروسكيَّة الصرفة الإله تينا Tinia الذي يعادل الإله زيوس عند اليونان والإله جوبتير Jupiter عند الرومان[١]. عموماً، إن معظم هذه الآلهة التي توحَّدت مع آلهة إغريقيَّة أو رومانيَّة، غالباً ما كانت وظائفها متماثلة، وهكذا أصبح ينظر إلى الإله ستلانز Setlans على أنَّه قولكان، وتوحَّد الإله تُرمس Turms مع عطارد، والإله توران Turan مع الربة عشتار أو الزهرة. أمَّا المجموعة الثانية فقد استعاروها من جيرانهم الإيطاليين إذ يمكننا أن نتعرَّف على آلهة رومانيَّة مألوفة بين آلهتهم من أمثال آني Ani (وهو جانوس Janus) وأوني Uni (وهو جونو Juno)، ونيتونس Nehuns (وهو نبتون Neptune) ومينرفا Menrva (وهي مينيرفا Minrva). في الواقع، إنَّ هذه الآلهة إيطاليَّة الأصل أو المصدر، أو بالأحرى كيَّفها الإتروسكيون بعد اقتباسها[٢]، ومنذ القرن السابع قبل الميلاد ستصبح جميع المدن تحت حماية الثالوث الإلهيِّ المؤلَّف من تينا ومينرفا وجونو[٣].

أمَّا المجموعة الثالثة فقد جرى اقتباسها رأساً من إغريق المستعمرات اليونانيَّة في جنوب إيطاليا، ومنها الإله آيتي Aite وهو هاديس، وأبولو Aplu وهو الإله أبولون؛ وتمثاله في مدينة فيي آية من آيات الفن الإتروسكيِّ، أمَّا شقيقته أرتوم Artume (فهي ذاتها أرتميس التي عرفها الرومان باسم ديانا) لم يطرأ عليهما أيُّ تغيير أو تبديل لدى اقتباسهما، وشارون Charun ملك الموت عند الإتروسكيين (وهو ذاته خارون Charonملك الموت عند الإغريق)، وهرقل Hercle (هو ذاته هيراكليس Hercules) الذي له شأن أكبر عند الإتروسكيين منه عند اليونان[٤]. وإذا صحَّ القول أن تبني الإتروسكيين لآلهة إغريقيَّة وإيطاليَّة ضمُّوها إلى مجتمع آلهتهم المقدَّس، فهذا يعني بديهيَّاً أنَّ ذلك الأمر (أي تبنِّي الآلهة الإغريقيَّة) قد

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٥٧.

[٢]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيَّة لدى الشعوب، مصدر سابق، ص٦٩، ٧٠.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٥٨.

[٤]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيَّة لدى الشعوب، مصدر سابق، ص٦٩، ٧٠.

ترافق مع عمليَّة تبنِّي الكثير من الميثولوجيا التي تدور حولها[١]، وذلك لا يعبرِّ إلاَّ عن شطر واحد من الحقيقة؛ فمناقب هذه الآلهة، والصور المشبَّهة لها، والأساطير المتناقلة بشأنها، والأقاصيص المرويَّة عنها، بينها تبيان عظيم من قطر إلى آخر، ومن الخير والمفيد جدَّاً أن يقوم من يتصدَّى لشرح الوثائق التي تمتُّ إليها، ويحدَّد منها التاريخ الصحيح. فالمصادر التي نعوِّل عليها متأخِّرة جدَّاً وتشهد عالياً بعمليَّة الهَلْيَنة، والتأغرُق التي خضعت لها، وهي عملية تمَّت تدريجيَّاً على ضوء الصور والرسوم التي ألهمتها وأوحت بها ديانة اليونان وأساطيرهم[٢].

وفوق كل هذا وذلك، ظلت الميزات الشرقيَّة جليَّة في ديانة الإتروسكيين، ويمكننا أن نجملها بأنها ديانة موحى بها؛ وهذا الأمر وحده يجعلها مختلفة عن ديانات الشعوب القديمة التي سكنت شبه الجزيرة الإيطاليَّة اعتباراً من الألف قبل الميلاد، كما أنَّها تبدو فريدة من نوعها إذا ما قورنت بديانات الشعوب القديمة التي أهَّلت الحوضين الأوسط والغربيِّ للبحر المتوسط. ورغم أنَّه كان لكلِّ مدينة إتروسكيَّة عبادة خاصَّة، فلقد كان يجمع بين مختلف تلك العبادات معتقدات واحدة تمتُّ بأصولها إلى مبادئ شرقيَّة نجد نظيراً لها خصوصاً في ديانات سكان بلاد الرافدين وشعوب آسيا الصغرى، ونخصُّ منهم الحثِّيين، كما أنَّها تشترك مع جميع تلك الديانات ومنها الديانة المصريَّة بعقيدة الإيمان بوجود حياة ثانية بعد الموت وبخلود الروح الفرديَّة[٣]، حيث كان الانشغال بالحياة الأخرى سمة أساسيَّة للديانة الإتروسكيَّة، كما كانت تقام الألعاب الجنائزيَّة على شرف الموتى، ويقال إنَّها هي أصل عروض المجالدين Gladiator، وكانت القبور تؤثَّث تأثيثاً جيداً، وينظر إليها على أنَّها بيوت للموتى، وتبينِّ بعض اللَّوحات الجداريَّة العظيمة التي بقيت حتى الآن رحلة الموتى من هذه الدنيا إلى العالم السفليِّ تحت حراسة إلهيَّة مرعبة، في مشهد قريب من رحلة الموتى المصريَّة إلى العالم السفليِّ، وما يؤكِّد تلك المعتقدات عندهم هو حجم السيادة التي تمتَّعت بها آلهة العالم السفلي[٤].

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦١.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣١.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٥٥.

[٤]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيَّة لدى الشعوب، مصدر سابق، ص٧٠.

كما اعتقد الإتروسكيون بوجود الأبالسة والشياطين متأثِّرين بالأساطير الشرقيَّة[١]، وحسب معتقداتهم كان هؤلاء الشياطين والعفاريت واسطة بين الآلهة والبشر، والعفاريت إمَّا خيِّرة أو شرِّيرة، وتلعب هذه المخلوقات دوراً كبيراً في حياة البشر سواء في الحياة الدنيا أم في الحياة الآخرة، وهم كانوا يصوِّرونها في البدء على شكل ملائكة مجنَّحة، ولم يكن منظرها مخيفاً كما ظهر في ما بعد اعتباراً من القرن من الرابع قبل الميلاد، عندما راحت الأبالسة والشياطين الشرِّيرة والمرعبة تظهر في التصاوير لترعب الموتى، وكأنَّها تعكس روح التشاؤم من الحياة والموت على حدٍّ سواء، وقد تكون هذه المشاهد انعكاساً لتحطُّم النفوذ الإتروسكيِّ على يد قوى غاشمة لا تلين ولا ترحم[٢].

أمَّا أهمُّ الميزات الشرقيَّة التي تجلَّت في الديانة الإتروسكيَّة فهي عادة تقديم الأضاحي في أوقات معيَّنة من السنة، واستطلاع الغيب وإرادة الآلهة بطرق شتى، أهمُّها عن طريق كبد الضحية، حيث يستخدم الكبد لقراءة الغيب ومعرفة مشيئة الآلهة. وممَّا لا ريب فيه أنَّ عادة فحص كبد الحيوانات تعتبر دليلاً يربطهم بشعوب الشرق القديم[٣]. على العموم، كانت ضحية القربان تُذبح ويُشقُّ جسدها، ويُفحص الكبد لمعرفة العلامات أو الخصائص الأخرى، وكان الجانب الأيمن منه هو المنطقة التي تشير إلى الحظِّ السعيد، أمَّا الجانب الأيسر فيدلُّ على الحظِّ السيِّىء، وهناك كبد من البرونز لافت للنظر من منطقة بياشنسيا Piacenza مقسَّم إلى ما لا يقل عن أربعين منطقة يشار إلى كلٍّ منها باسم إله مختلف[٤].

وما يميِّز ديانة الإتروسكيين عن الأقوام الأخرى الغربيَّة المجاورة لهم؛ هو خضوعهم واستسلامهم المطلق لمشيئة قوى عُلويَّة تحرِّكها مقاصد خفيَّة، فالإنسان في ضعفه المتناهي لا سبيل له أمام هذه القوى الغامضة، ولكي تتمَّ له النجاة فلا سبيل له إلاَّ أن يستبين إرادتها، وأن يحاول الكشف عنها حتى لا يأتي عملاً لا تكون راضية عنه. وتروي أسطورة إتروسكيَّة أنَّ فلاَّحاً يدعى ترخون كان يحرث حقله عندما ظهر فجأة أمامه من باطن الأرض كائن قزم

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٤.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٥٨.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦١.

[٤]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيَّة لدى الشعوب، مصدر سابق، ص٧١.

غير مألوف الشكل، له شكل الطفل وحكمة الشيخ، وقد أخذ يتقدَّم نحو الفلاَّح المذعور، الذي أطلق صرخة رعب دوَّت في كلِّ أرجاء أتروريا. واجتمع الناس من كلِّ حدب وصوب، فطمأنهم هذا الكاهن الغريب وقال لهم إنَّ اسمه هو تاجس، وأنَّه مرسل ليلقِّنهم أسرار المعرفة، وأمرهم بأن يسجِّلوا جميع أقواله في كتاب مقدَّس. وبعد أن بلغ رسالته اختفى مجدَّداً في باطن الأرض.

وتضيف الرواية أنَّ المنطقة التي ظهر فيها الغلام العرَّاف هي المنطقة ذاتها التي بُنيت عليها في ما بعد مدينة تاركوني Tarchuna، واشتُقَّ اسمها من اسم الفلاَّح ترخون الذي اعتبر لاحقاً مؤسِّس جميع المدن الإتروسكيَّة[١].

عموماً، لقد اهتمَّ الإتروسكيون بالعرافة وكشف أسرار الغيب؛ فكلُّ الظواهر الخارجيَّة هي من حيث المبدأ إعلان عن أمر ما، وإيذان له، شرط أن نتبيَّنه وأن نحسن تفسيره وتأويله، فجميع ظاهرات هذا العالم ترتبط والحالة هذه في ما بينها، وتتماسك بقوة، ومدلول كلِّ ظاهرة لا بدَّ من أن يتعدَّى بكثير المسبِّبات، مهما بدت طبيعيَّة، ففي ردِّ الأسباب إلى أصولها الصحيحة، تعبير عن رغبة الآلهة في تحذير البشر منها وإنذارهم بشرها[٢]. وهذه الإنذارات كان العرَّافون يعلمونها من خلال الكتب المقدَّسة، وكان أهمُّها الكتاب المنسوب إلى الحورية Vegoe ، وكانت تعاليمها تقضي أن يراقب العرَّاف الصواعق والرعود أو أيَّ ظاهرة طبيعيَّة أخرى يغاير مظهرها النظام الطبيعيِّ للأشياء[٣]، كما أنَّ هناك علامات وإشارات لا يمكن أن يتبيَّنها الإنسان ويفقه معناها ومدلولها إلاَّ بعد جهد وعناء وبحث واستقصاء، وهذا البحث هو على نوعين: الأول زواجر الطير، كطيرانه من جهة معيَّنة من الجو، وفقاً لمواصفات دقيقة تلابس الاتجاه وتطبعه. والثاني هو فحص أحشاء الذبائح، ولاسيَّما الكبير منها[٤]، حيث تقضي تعاليم تاجس بالكشف عن أسرار المستقبل أن ينظر إلى كبد الحيوانات المقدَّمة إلى التضحية[٥].

---

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٥٦.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣١.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٥٧.

[٤]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٢.

[٥]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٥٦.

كلُّ هذه الأمور تفرض وجود علم بأصول، لا يحسنه إلاَّ الضالعون به المتمكِّنون من أسراره. وكشف الغيب اختصاص يقتضي التمرُّس الطويل بأحكام تقاليد العبادة والكتب الدينيَّة. فإذا ما روِّجت هذه الكتب في الوقت المناسب وُجد فيها من يحسن قراءتها وتفسيرها واستنطاق رموزها، الجواب الشافي عن كلِّ ما ترغب الآلهة فيه، كما يقف منها على الأساليب والطرق والأعمال التي يتوجَّب على الإنسان أن يتقيَّد بها بكلِّ دقة. ويكفيه أن يتمسَّك حرفيَّاً بهذه المراسم ويطبِّقها بنصِّها حتى يخامره الأمل بإمكان التأثير على هذه القوى العليا التي بيدها مصيره. ويرافق عمليَّة الكشف عن رغبة الآلهة ومقاصدها الخفيَّة والبعيدة عن إدراك البشر، القيام بعدد لا يُحصى من الأدعية والابتهالات[١]، وقد لُخِّصت أسرار العرافة الإتروسكيَّة في كتب جامعة؛ منها كتاب تاجس[٢]، وتكشف لنا مرآة منقوشة نقشاً جميلاً عن المتنبئ بالغيب وهو يمارس عمله. وقد استمرت شهرة المتنبئين الإتروسكيين قروناً بعد اختفاء الحضارة الإتروسكيَّة كقوة سياسيَّة، فعندما دُمِّر الكابيتول في الحرب الأهليَّة سنة ٦٩م، دعا الأمبراطور فسباسيان Vespasian المنجِّمين الإتروسكيين لإعادة بنائه، وظلَّ جوليان Julian يستشيرهم بعد ذلك بثلاثمئة سنة[٣].

ومن الكتب المقدَّسة لدى الإتروسكيين كتاب (بايغوه) الذي يعلِّم الناس طريقة تخطيط المدن، ويرد فيه تفصيل المراسم المقدَّسة التي يجب التقيُّد بها لدى إنشاء أو تأسيس مدينة، وكيف يجب أن تتَّجه الشوارع وأين تتقاطع. كما ترد فيه أيضاً المراسم المتعلِّقة بإنشاء المعابد[٤]. وتجدر الإشارة إلى أن روميلوس عندما قرر بناء مدينة روما في سنة ٧٥٣ ق.م بعث إلى أتروريا يطلب منها من يرشده إلى الطقوس الدينيَّة التي تقام عند بناء المدن، والأحكام الدينيَّة التي يجب اتِّباعها[٥].

وبالإضافة إلى جميع المراسم المتعلِّقة بتأسيس المدن والمعابد وتنصيب الملوك والحكَّام وإعلان حالات الحرب والسلم، كانت خصوصيَّات الحياة اليومية تجري وفقاً

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٢.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٥٦.

[٣]- جفري بارندر، المعتقدات الدينيَّة لدى الشعوب، مصدر سابق، ص٧١.

[٤]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٥٧.

[٥]- بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج١، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م، ص٧٨.

لمراسيم دينيَّة دقيقة، وكان على المؤمن أن يتَّبعها لينجو بنفسه من الشقاء والبؤس والعذاب في الحياة الدنيا والعالم الآخر[١].

وتجدر الإشارة إلى أنَّ كثيراً من المراسم والطقوس والاحتفالات الدينيَّة الإتروسكيَّة لا نعلم عنها شيئاً لولا أنَّها انتقلت بحذافيرها إلى روما في ما بعد، بعدما اقتبسها الرومان كما اقتبسوا الطلاسم والحيوانات المؤلَّهة التي كان يحملها قضاة روما، وهذه الاحتفالات الصاخبة التي كانت تقام في طول البلاد وعرضها بمناسبة النصر في الحروب، وحتى علوم الفأل والعصا المعقوفة التي كان يستعملها العرَّافون في كشف الطالع، وهذه العيافة؛ أي عادة فحص أمعاء الذبائح وأحشائها! وكذلك اقتبسوا عادة التسليم بالخوارق وكلَّ الطقوس والتوسُّلات التي يجب الاعتصام بها لإبعاد المصائب. والحقيقة، أنَّ الاحترام المقرون بالإعجاب الذي كان يكنُّه الإتروسكيون للنظام وللآلهة كان الباعث الأول على الاحتفاظ بعلوم الدين ونقلها إلى الغير[٢].

وأخيراً، تشتمل القبور الإتروسكيَّة على أجمل بقايا تخلد حضارة هذا الشعب، فقد بنيت على أنماط عديدة منها قبور التلال الاصطناعية التي تحتوي غرفة المدفن، أو القبور الدائرية الشكل المبنية من الحجارة، ذات السقوف المعقودة والتي توضعت على سفوح الهضاب والمرتفعات، كما هنالك القبور المصممة بشكل ممرات طويلة وتحتوي غرفا كثيرة حفرت في الصخر الأصم. وبالتالي كانت القبور تزود بالأعمال الفنية الرائعة كالنقوش المحفورة على جدران الصخر والأفاريز المصورة بالألوان، والتي نستمد منها أكبر مصدر لمعلوماتنا عن الحضارة الإتروسكية بعادات أهلها وتقاليدهم وملابسهم وشعائرهم. أمَّا المباني الدينيَّة والمدنيَّة فإنَّ عناصرها تفصح عن مزيج من الايحاءات الشرقيَّة والاقتباسات المحليَّة، فالمعابد بُنيت مزوَّدة بأعمدة صِيغت على النمط الإغريقيِّ، بينما رفع المعبد على مصطبة عالية، وأزيلت الأعمدة من جانبيه وخلفه ممَّا يشير إلى مخطَّط إتروسكيِّ المنشأ. وهذا يؤكِّد الحقيقة الراهنة في أنَّ الإتروسكيين لم يكونوا مجرَّد مقلِّدين أو مطبِّقين للقواعد الإغريقيَّة الفنيَّة أو المعماريَّة بل كان لهم مفاهيمهم الخاصَّة

[١]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٥٧.

[٢]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٢، ٣٣.

الأساسيَّة التي قد تقتبس الشكل ولكنها تترك لنفسها معالجة الموضوع وتطبيق التكنيك المناسب[١].

الحادي عشر: نهاية الإتروسكيين

بدأ انهيار الإتروسكيين من الداخل قبل أن يبدأ من الخارج، فالمعضلة الأساسيَّة التي وقعوا فيها هي أنَّ حكمهم لم يقم على أُسُس وطيدة؛ حيث عجزوا عن بناء نظام سياسيٍّ مستقرٍّ، ولم تكن مدنهم تعترف بأيِّ سلطة مركزيَّة، ولو أنَّها كانت تتبادل المساعدات في وقت الحرب[٢]، فنظامهم السياسيُّ كان يقوم على مبدأ دولة المدينة. وقد شكَّلت هذه الممالك في ما بينها اتِّحاداً شكليَّاً لتنظيم سياستها الخارجيَّة، بينما حافظت كلُّ دولة - مدينة على استقلالها الداخليِّ، وتدريجيَّاً بدأ التنافس يزداد بين تلك المدن الإتروسكيَة[٣]. وهكذا يبدو من الحوادث الطارئة أنَّ التضامن والوئام لم يكونا سائدين بشكل دائم في ما بينها، حتى في العصر الذي بلغت فيه هذه المدن أوج قوَّتها، وأنَّ روابط التحالف التي كانت تشدُّ هذه المدن بعضها إلى بعض ترهَّلت وأخذت بالتراخي والانحلال[٤]، مما أدَّى إلى انفصام عُرى اتِّحادهم الشكليِّ، الذي لم تكن أُسُسه متينة منذ البداية.

أمَّا على الصعيد الاجتماعيِّ، فقد ظهر أنَّ هذا الوئام لم يكن يطبع الحياة الداخليَّة في المدينة نفسها، إذ تركَّزت الثروة بيد قلَّة قليلة، وازدادت التناقضات، واتَّسعت الهوة بين الطبقات الاجتماعيَّة الفقيرة والمعدَمة المكوَّنة من السكَّان المحلِّيين وبين الطبقات الموسِرة الحاكمة المكوَّنة من الإتروسكيين[٥]. وقامت في تاريخ متأخِّر جدَّاً منافسات طبقيَّة، سياسيَّة واجتماعيَّة، بين الأرستقراطيين وطبقات الشعب، وذلك ربما بتأثير من روما في بدء عهدها الأول، أعقبتها تراكمات داخليَّة كبيرة من العسير تتبُّع خيوطه. ويظهر هذا الوضع بجلاء إبَّان الحقبة التي بلغ فيها الإتروسكيين عظمتهم، إذ كانت تبرز هذه الخصومات بمناسبة

---

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٦١.

[٢]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، م.س، ص٤٥.

[٣]- نعيم فرح، تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ، سياسيا اقتصاديا اجتماعيا ثقافيا، دمشق ١٩٧٥م، ص٣٢٢

[٤]- أندرية إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، م.س، ص٣٠.

[٥]- نعيم فرح، تاريخ حضارات العالم القديم، م.س، ص٣٢٢

انتخابات السلطة العامَّة وتعيين ممثِّليها في دوائر الحكم[١]. وهكذا لم يتمكَّن الإتروسكيين من التغلُّب على نعراتهم الإقليميَّة، وولائهم المباشر لمدنهم على حساب ولائهم للاتحاد العام، الذي كان يضمُّ جميع مدنهم، كما فشلوا في إزالة التناقضات بينهم على مختلف الصعد السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة[٢]. كما أنَّ معاملة الإتروسكيين القاسية للشعوب الإيطاليَّة المغلوبة قتل كلِّ أمل عند هذه الشعوب في التعلُّق بهؤلاء الأسياد الجدد، لا بل إنَّها أدَّت إلى انعدام روح الولاء ودفعتهم إلى خيانتهم والتمرُّد عليهم[٣]، في وقت اشتدَّت فيه الأخطار الخارجيَّة المحدِقة التي تعرَّضوا لها من قبل الغاليين في الشمال، ومن قبل اليونانيين في الجنوب، ومن قبل اللاَّتينيين والسابينين في الداخل، كلُّ هذه الأمور أدَّت إلى ضعف الإتروسكيين، وبالتالي تمكَّن اللاَّتين من طردهم من روما في سنة ٥٠٩ ق.م[٤].

لقد كان طرد الإتروسكيين من روما بداية النهاية، فقد ترافقت أزمة النظام الملكيِّ في روما مع نهاية سيطرتهم عليها، حيث وقعتا معاً؛ في وقت واحد تقريباً، أي في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، عندما ثار الرومان على الملك الإتروسكيِّ المتربِّع على عرش مملكتهم، وطردوه وألغوا النظام الملكيَّ نهائيَّاً في سنة ٥٠٩ ق.م[٥]. وقد أظهرت التنقيبات الأثرية في بقاع عديدة من روما أنَّ حريقاً كبيراً دمَّر أحياء بكاملها في الفترة المعاصرة للصراع بين الإتروسكيين من جهة واللاَّتين من جهة ثانية؛ ولا شكَّ في أنَّ ذلك كان نتيجة للمعارك الطاحنة، التي جرت بين الطرفين داخل مدينة روما بالذات. وإذا كان من صدف القدر أنَّ أثينا تخلَّصت من حكم الطغاة في السنة ذاتها التي تخلَّصت فيها روما من النظام الملكيِّ الإتروسكيِّ أي في سنة ٥٠٩ ق.م[٦]. وليس من باب المصادفة أبداً أنَّ طرد روما لملكها الإتروسكيِّ قد ترافق مع طرد ثلاث من المدن اللاَّتينية (أنتيوم، وأريكا، وتوسكولوم) في سهل اللاَّتيوم لملوكها الإتروسكيين نحو سنة ٥٠٤ ق.م.

---

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٠.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٨.

[٣]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٥.

[٤]- نعيم فرح، تاريخ حضارات العالم القديم، مصدر سابق، ص٣٢٢

[٥]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٦.

[٦]- محمد السيد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، ج١، جامعة الإسكندريَّة ٢٠٠٦م، ص١٢٠.

مهما يكن من أمر، فما إن استقلَّت روما سنة ٥٠٩ ق.م حتى تعرَّضت لهجوم اتِّحاد المدن الإتروسكيَّة بقيادة لارسا بورسنا Lars Porsena أمير مدينة كلوزيوم Clusium الإتروسكيَّة، حيث أعلن الحرب عليها تحت شعار واهٍ وهو إعادة الملك الإتروسكيِّ المخلوع إلى عرشه، وقد أيَّدته ثماني جماعات من اللاَّتيوم في ذلك، وقام أحد أقرباء البيت المالك بتدشين معبد دينيٍّ خاصٍّ بالتحالف الجديد في مدينة أريكيا Aricia اللاَّتينية، في خطوة صريحة منهم مفادها الانفصال عن معبد جوبتير الذي صار تحت نفوذ الجمهوريين[١]. وتقدَّم بورسنا صوب روما سنة ٥٠٧ ق.م وتمكن من الاستيلاء على بعض ممتلكاتها على الضفة اليمنى لنهر التيبر، وأجبرها على قبول شروطه وأذلَّها، حيث أُرغم الرومان على تقديم ما لديهم من حديد باستثناء ما يستخدمونه في الآلات الزراعة، مع تسليم رهائن من رجالهم ضماناً للمستقبل، وكان هذا أول موقف صعب تعرَضت له الجمهوريَّة الرومانيَّة الوليدة. وتذكر الرواية أنَّ بورسينا تراجع عن موقفه نتيجة بعض البطولات الفرديَّة التي شاهدها عن جنود الرومان[٢]. ولا شكَّ في أنَّ تلك البطولات هي من وحي خيال الشعب الرومانيِّ، ولا أساس لها في الحقيقة. أمَّا الأسباب التي دفعت الإتروسكيين إلى عدم متابعة تقدُّمهم فهو حجم الدَّعم الذي حصل عليه الرومان من اللاَّتين والإغريق.

لقد تلقَّى الرومان دعماً عسكريَّاً من الإغريق (إغريق مدينة كوماي Cumae قرب مدينة روما) في سبيل مواجهة الإتروسكيين في شبه الجزيرة الإيطاليَّة، وبنتيجة التحالف الإغريقيِّ-اللاَّتينيِّ تمكَّن اللاَّتين من هزيمتهم في معركة حربيَّة جرت سنة ٥٠٤ ق.م في أريكيا Aricia، أجبرت الأخيرين على التراجع عن اللاَّتيوم[٣]. لقد كانت كوماي القوَّة الإغريقيَّة الرئيسيَّة التي وقفت في وجه التوسُّع الإتروسكيِّ، وقامت تدافع عن مصالحها الحيويَّة والتجاريَّة في المنطقة، وقد أدرك الإتروسكيون خطر هذا المنافس العنيد الذي لا يقلُّ عنهم قوَّة ونفوذ، فحاولوا طرده أمامهم واحتلال مدنه، والانتقام منه، لذلك شنُّوا عليها حرباً ضروس، فما كان من بعض المدن اللاَّتينيَّة إلاَّ أن انحازت إلى جانب الإغريق في مدينة كوماي، بحكم مواثيق

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٨٠

[٢]- رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني بين الدفاع والهجوم والتوسُّع والاستعمار حتى نهاية العصر الجمهوريِّ، مطبعة دار الروضة، القاهرة ٢٠١٠م، ص٣٠.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٤

التحالف في ما بينهم، وتمكَّنوا معاً من هزيمة جيش إتروسكي، وعندما كرَّر الإتروسكيون الهجوم على هذه المدينة من البحر، حتى يتجنَّبوا الصدام مع حلفائها اللاَّتين[١]. هنا شعر الإغريق بالخطر فما كان منهم إلاَّ أن استنجدوا بحاكم سيراكوزة الملك هيرون Hieron، الذي لبَّى نداء أخوته بالدم، وأنجد المحاصرين في مدينة كوماي، فاضطرَّ الإتروسكيون لفكِّ الحصار عن المدينة بعد معركة قاسية جرت في سنة ٤٧٤ ق.م، حيث باءت محاولتهم في احتلال مدينة كوماي الإغريقيَّة بالفشل. كما ألحق أسطول الإغريق هزيمة قاسية بالإتروسكيين في موقعة بحريَّة[٢]، كثيراً ما غنَّاها الشاعر الإغريقي بندار، بينما خلَّدها طاغية سيراكوزة هيرون بأن كرَّس خوذةً للعدو وقعت في أيديهم للإله أولمبيا[٣].

لا بدَّ من القول أنَّ الإتروسكيين لم يخلوا جميع مناطق كامبانيا بعد هزيمتهم في معركة كوماي سنة ٤٧٤ ق.م، ولكن ممَّا لا جدل فيه الآن أنَّ مواصلاتهم البريَّة بين أتروريا وممتلكاتهم في إيطاليا الجنوبيَّة. قد اضطربت منذ النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، بحكم أنَّ روما كانت تسيطر على معظم الطرق البريَّة، فحاولوا الاستعاضة عن الطريق البريِّ بتأمين الاتصال بواسطة الأسطول البحريِّ، لكن الأسطول الأغريقيَّ لسيراكوزة كان لهم بالمرصاد، حيث راح يسدِّد لهم ضربات متتالية ما تسبَّب بضياع سيادتهم البحريَّة وزوال أسطولهم بشكل نهائيٍّ، ما ساعد الإغريق على احتلال جزيرة ألبا وإنشاء موطئ قدم لهم في جزيرة كورسيكا، وشجع سيراكوزة بقيادة ديونسيوس الأول على الإغارة على شاطئ أتروريا نفسها، والسيطرة على موانئها المطلَّة على البحر الأدرياتيكيِّ الشمالي مثل ميناء أدريا وأنكونا[٤]. وبعدما سدَّت روما طرق كامبانيا البريَّة بوجه الإتروسكيين، وسدَّت سيراكوزة طرقها البحريَّة: سقطت تلك المقاطعة الغنيَّة، غنيمة سهلة في أيدي السمنيين الذي هبطوا إليها من جبال الأبينين متَّجهين نحو السهل الساحليِّ، واستولوا على مدينة كابو حوالي سنة ٤٤٠ ق.م، مسدِّدين ضربة قويَّة إلى الحكم الإتروسكي الذي لم تلبث أن أصبحت سيطرته على هذه المقاطعة أثراً بعد عين[٥].

---

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٥، ٥٦.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٤

[٣]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٧.

[٤]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٥.

[٥]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٧.

أمَّا الضربة الموجعة التي تلقَّاها الإتروسكيون فقد سدَّدتها لهم غزوة القبائل الكلتيَّة القادمة من أوساط أوروبا في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، والتي استولت على سهل البو وعلى مدينة فلنسيا، واستبدلت اسمها باسم جديد هو بولونيا، والذي لا تزال تعرف به حتى اليوم. وقد عاثت تلك القبائل فساداً في أوساط إيطاليا إلى أن تمكَّن الرومان من إيقافها. ومن المرجَّح أنَّ الإتروسكيين قد هزموا مرَّة أخرى في مدينة تلو على يد القوة الرومانيَّة الناشئة[١]، ولم يبق لهم سوى مقاطعة أتروريا، فما إنَّ حلَّ منتصف القرن الرابع قبل الميلاد حتى كانوا قد أخلوا جميع ممتلكاتهم خارجها. وفي المقابل لم تتوقَّف روما عن التوسُّع بعدما أخرجت الإتروسكيين من اللاَّتيوم، بل إنَّ المبادرة ستنتقل إليها[٢].

من المفيد الإشارة إلى أنَّ مهمَّة المواجهة والذود عن الإتروسكيين وقعت على عاتق مدينة فييى Veii، الواقعة جنوب أتروريا على مسافة ٢٠ كم شمال مدينة روما، فنتج من ذلك حروب طويلة استمرَّت منذ سنة ٤٠٦ حتى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد[٣]. وقد كانت هذه المدينة تقع قرب نهر التيبر، وعلى الطريق الواصل بين أتروريا في الشمال وكامبانيا في الجنوب. وكانت تسيطر على إقليم أكثر غنى واتساعاً من إقليم روما، كما كانت تحتكر كثيراً من تجارة أتروريا الخارجيَّة، وراحت تحاول التحكم بمعابر النهر. والأسوأ من كلِّ هذا أنَّها كانت تضع لنفسها حامية في مدينة فيدناي Fidenae شرق النهر، وهي آخر معاقل الإتروسكيين في سهل اللاَّتيوم، وهذا ما كان يثير غضب روما، التي اصطدمت بهم بحرب استمرَّت الجولة الأولى منها نحو عشر سنوات (٤٨٣- ٤٧٤ ق.م) حقَّق الرومان خلاله نصراً في سنة ٤٨٠ ق.م كان انتقاماً لهزيمة سابقت حلَّت بهم، بمعنى أنَّ الحرب كانت سجالاً بين الطرفين، واستمرَّت هكذا حتى سنة ٤٧٤ ق.م حيث تمَّ توقيع معاهدة السلام بقيت بموجبها مدينة فيدناي تحت سيطرة فييى. ثمَّ تجدَّد القتال مرَّة أخرى واستمرَّت الجولة الثانية بين سنوات ٤٣٥ - ٤٢٥ ق.م حيث استطاع الرومان احتلال مدينة فيدناي نهائيَّاً. وبعد نحو ٢٠ سنة نقلت روما الحرب إلى عقر دار خصمها، حيث استشعرت في سنة ٤٠٥ ق.م

[١]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٦.

[٢]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٢٥.

[٣]- أندرية إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٦.

شيئاً من الثقة بالنفس والقدرة على مواجهة الإتروسكيين ممثلين بمدينة فييى، وكان الصراع مريراً حيث استمرَّت الجولة الثالثة ما يقارب العشر سنوات (حتى سنة ٣٩٦ ق.م)، وكانت فييى تتلقَّى المساعدات الرمزيَّة من الإتروسكيين في حصارها، وكان لها موارد وفيرة وقوَّات كبيرة، بالإضافة إلى موقعها الجبليِّ الحصين. وقد أصرَّ الرومان على احتلال هذه المدينة الإتروسكية، فأسندوا المهمَّة إلى كاميللوس F. Camillus، الذي شرع في حفر خندق تحت أسوارها، وهكذا فوجئ جنود فييى الذين كانوا يحرسون الأسوار بأنهم تعرَّضوا للهجوم من الخلف، ودار القتال داخل شوارع المدينة، واشتعلت النار في بيوتها، وسرعان ما تمكَّن الجنود الرومان من فتح أبوابها لقائدهم كاميللوس الذي أعطى الأمان على الفور لكلِّ من يلقي سلاحه، وانتهت المعركة بانتصار الرومان وسقوط فييى التي دمروها عن بكرة أبيها، وباعوا أهلها للرقِّ، وضمُّوا أرضها إلى أراضي الدولة الرومانيَّة[١].

في الواقع، إنَّ الهجوم العنيف الذي أبدته روما والانتصارات التي حقَّقتها تباعاً في حروبها ضدَّ مدينة فيي لا يُفهمان إلاَّ من خلال الموقف الحياديِّ الذي وقفته منها المدن الإتروسكيَّة الأخرى، فاضطرَّت هي أن تخوض الحرب وتدخل المعركة وحدها، ناهيك بالهجمات التي تعرَّضت لها مستعمراتها في الخارج[٢]. ومهما يكن من أمر، فلم يدركنا من آثار تلك المدينة إلاَّ بعض البيوت وبقايا الأسوار والجسر، وكذلك معبد على الأكروبوليس، وبعض تماثيل الآلهة[٣].

وبعد سقوط مدينة فيي بقرن ونصف قرن، تمكَّنت روما من السيطرة على مقاطعة أتروريا كاملة، حيث اشتدَّ منها العضد وازدادت قوة وبطشاً إثر توسُّعات أخرى حقَّقتها، ورغم تقطيع أوصال الإتروسكيين إلاَّ أنَّهم صمدوا حضاريَّاً، حيث لم تسقط مدينتهم بسقوطهم السياسيِّ، فبعد الركود الذي اعترى هذه الحضارة في القرن الخامس قبل الميلاد، عادت إليها حيويَّتها ونشاطها في القرن الرابع قبل الميلاد عقب زوال سيطرة سيراكوزة التي أقام دعائمها الطاغية دنيسيوس، والذي عُرِف بقوَّة شكيمته وسعيه الدؤوب لتوسيع آفاقها. وراح الإتروسكيون

[١]- عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١٧٢، ١٧٣.

[٢]- أندرية إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٦.

[٣]- محمد محفل، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص١١٧

يعيدون صلاتهم بالحضارة الهلينيَّة، غير أنَّ الأزمات والحروب التي خاضوها ضدَّ جيرانهم أثقلتهم بثقالها، وفتَّتت عضدهم، فسيطر على نفوسهم التشاؤم، واستسلموا لقضاء القدر الغاشم. وكلما كانت سيادة روما تترسَّخ وتعرق جذورها في الأرض، كانت حضارتهم تأخذ بالأفول بصورة تدريجيَّة[١].

واعتباراً من القرن الثالث قبل الميلاد كفَّ الإتروسكيون عن ممارسة أيِّ دور فعَّال في التاريخ الإيطاليِّ، رغم أنَّ سادتهم من الطبقة الأرستقراطيَّة استمرُّوا في التمتُّع بالعيش الرغيد والمترف بفضل ما قدَّمته لهم أملاكهم ومناجمهم من ثروات، وينتهي الكلام عنهم كشعب مستقل عندما يتمُّ تمثُّلهم وامتصاصهم في المجتمع الرومانيِّ الجديد[٢].

[١]- أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٣٧.

[٢]- هشام الصفدي، تاريخ الرومان، مصدر سابق، ص٥٦.

نتائج ومناقشة

بعد استعراض مجمل التاريخ الإتروسكيِّ بعين فاحصة، نخلص إلى جملة من النتائج:

أوَّلاً: كان للإتروسكيين الفضل في نقل الحضارة إلى شعوب إيطاليا البدائيَّة، وانتشالها من عصورها المظلمة، حيث كانوا القناة التي انتقلت عبرها حضارات الشرق القديم من علوم وآداب ومعتقدات وفنون، لا بل حتَّى المعارف الإغريقيَّة انتقلت إلى الإيطاليين بفضل تجَّارهم. وستتكرَّر هذه التجربة مرة ثانية في إيطاليا وإسبانيا على يد العرب المسلمين الذين سيقع على عاتقهم انتشال أوروبا العصور الوسطى من غياهب الجهل.

ثانياً: إنَّ معظم الدلائل تشير إلى أصل الإتروسكيين الشرقيِّ، وأنَّهم مثلهم مثل الفينيقيين، رحل جزء منهم إلى الحوض الغربيِّ للبحر المتوسِّط بحثاً عن سبل معيشيَّة أفضل.

ثالثاً: يلمس الباحث حجم التعتيم الإعلاميِّ الكبير على دور الحضارة الإتروسكيَّة الشرقيَّة في إيطاليا لصالح الحضارتين الإغريقيَّة والرومانيَّة، لا بل إنَّ حجم المؤامرة لا يقف عند التعتيم بل يتعدَّاه إلى التشويه والدسِّ على أخلاق وعادات الإتروسكيين.

رابعاً: بما أنَّ البحث دراسة نقديَّة يمكننا توجيه اللَّوم وبصورة صريحة لبنية النظام السياسيِّ عند الإتروسكيين، والقول أنَّ من أعظم الأخطاء التي ارتكبوها في تنظيمهم السياسيِّ هو اتِّباعهم نظام دولة المدينة في بلادهم ما حرمهم من اتِّباع سياسة مركزيَّة شاملة في كلِّ المناطق التابعة لهم، وبالتالي أسهم في سقوطهم. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هؤلاء المحاربين التجَّار توصَّلوا إلى مستوى عال من الغنى والترف، لكن النقد الذي يوجَّه إليهم على الصعيد الاجتماعيِّ يتجلَّى في معاملتهم للشعوب الإيطاليَّة المغلوب على أمرها، حيث لم يرفعهم الإتروسكيون إلى مرتبة تعادل وضعهم الاجتماعيَّ، كما رفضوا أن ينصهروا معهم اجتماعيَّاً، بل تركوهم في وضعيَّة التبعيَّة، واستغلُّوا قواهم البشريَّة وجهودهم لتدعيم قوَّتهم العسكريَّة، محتفظين لأنفسهم بالامتيازات الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة في البلاد، حيث كانوا بالنسبة إلى الشعوب الإيطاليَّة المعاصرة لهم أقليَّة أرستقراطيَّة تمتَّعت بتفوُّق حضاريٍّ كبير وتنظيم عسكريٍّ قويٍّ مكَّنهم من فرض حكمهم وعاداتهم وتقاليدهم على الشعوب التي أصبحت تابعة لهم، ما أسهم في نفور هذه الشعوب منهم في وقت اشتدَّت

فيه الأخطار الخارجيَّة المحدقة بمدنهم. فما إن حلَّ القرن الخامس قبل الميلاد حتى كانوا قد بدأوا عدَّهم التنازليّ.

أخيراً، تجدر الإشارة إلى أنَّ الحضارة الإتروسكيَّة هي نتاج لعناصر أصليَّة امتزجت مع نتاج مجموعة من الحضارات المختلفة (فينيقيَّة، وقرطاجيَّة، وإغريقيَّة) في بوتقة الإتروسكيين، خلال اقامتهم الطويلة في إيطاليا، وكانوا قد تلقُّوها عن طريق التجار المهاجرين، ما تمخَّض عن تلك الحضارة التي أبدع أبناؤها في مختلف المجالات الزراعيَّة، الصناعيَّة، التجاريَّة، النقديَّة، العلميَّة، الطبيَّة، الفنيَّة، والترفيهيَّة، وسيقتبس الرومان كثيراً من ألوانها الزاهية من دون الإشارة إلى مبدعيها.

لائحة المصادر والمراجع

١. أندريه إيمار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، ج٢، روما وأمبراطوريَّتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، ط٢، منشورات عويدات، باريس-بيروت ١٩٨٦م.

٢. بلوتارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، ج١، ترجمة جرجس فتح الله، الدار العربيَّة للموسوعات، بيروت ٢٠١٠م.

٣. جفري بارندر، المعتقدات الدينيَّة لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، مجلَّة «عالم المعرفة»، العدد ١٧٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٣م.

٤. رجب سلامة عمران، الفكر العسكري الروماني بين الدفاع والهجوم والتوسع والاستعمار حتى نهاية العصر الجمهوري، مطبعة دار الروضة، القاهرة ٢٠١٠م.

٥. سترابون، الجغرافيا، ترجمة حسان إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠١٧م.

٦. شيماء نصيرة، أسماء تلحيق، القرطاجيون في صقلية (٥٥٠ - ٢٤١ ق.م)، رسالة مُعدَّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحضارات القديمة، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي - الجزائر ٢٠١٩م.

٧. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري والديني والسياسي والعسكري، ط١، دار النهضة العربيَّة، بيروت ٢٠١١م.

٨. عبد الله السليمان، حروب الجمهوريَّة القرطاجيَّة من التأسيس حتى السقوط سنة ١٤٦ ق.م، الهيئة العامَّة السوريَّة للكتاب، دمشق ٢٠١٥م.

٩. عبد الله السليمان، تاريخ الرومان، دار مرايا للطباعة والنشر والتوزيع، دبي ٢٠٢٠م.

١٠. محمد كامل عيَّاد، تاريخ اليونان، ج١، ط٣، دار الفكر، دمشق ١٩٨٠م.

١١. محمد محفل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان، مطبعة غندور، بيروت ١٩٧٤م.

١٢. محمد السيد عبد الغني، التاريخ السياسي للجمهوريَّة الرومانيَّة، ج١، جامعة الإسكندريَّة ٢٠٠٦م.

١٣. مفتاح البركي، الصراع القرطاجي الإغريقي، من القرن السادس حتى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، مجلس الثقافة العام، طرابلس ٢٠٠٨م.

١٤. هشام الصفدي، تاريخ الرومان، ج١، في العصور الملَكيَّة، الجمهوريَّة، الأمبراطوريَّة، حتى عهد الأمبراطور قسطنطين، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٧م.

١٥. ناير مختار، التجارة البحريَّة في الحوض الغربي للبحر المتوسِّط في العصور القديمة من الفينيقيين إلى عهد الاحتلال الرومانيِّ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة أحمد بن بلَّة، وهران- الجزائر ٢٠١٨م.

١٦. نعيم فرح، تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ، سياسيَّاً اقتصاديَّاً اجتماعيَّاً ثقافيَّاً، دمشق ١٩٧٥م.

١٧. ول ديورانت، قصَّة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانيَّة، ج١، مج٣، ترجمة محمد بدران، تونس- بيروت ١٩٨٨م.

القبائل الجرمانيّة وهجرة الأمم

ناديا محمد زهير الغزولي[١]

مقدّمة

ليس التاريخ إلاَّ موكب الدول والحضارات التي تنشأ ثمَّ تزهر ثمَّ تنهار، لكنَّها تخلِّف وراءها إرثاً من العادات والأخلاق والعلوم والفنون تتلقَّاها عنها الحضارات الأخرى، فالحضارة نتاج الجهود البشريَّة جمعاء.

ولكي نفهم كيف انتهت العصور التاريخيَّة القديمة وبدأت العصور الوسطى في أوروبا، من الضروريِّ أن نلقي نظرة على المرحلة التاريخيَّة السابقة، وعلى علاقات التأثُّر والتأثير في نهايتها، لتكوين صورة واضحة عن تاريخ أوروبا القديم.

ونحن نستهدف من هذا البحث فهم الأُسُس والعوامل التي مهَّدت لانتهاء العصور القديمة وبداية العصور الوسطى، لأنَّ حضارة أوروبا ليست في حقيقة أمرها إلاَّ مزيجاً من حضارة الرومان من جهة وحضارة العناصر الجرمانيَّة التي تمكَّنت في نهاية العصور القديمة من اجتياز حدود الأمبراطوريَّة الرومانيَّة والاستقرار داخلها.

لقدشهدت المرحلة التاريخيَّة الممتدَّة من (٧٥٠-١ق.م) تغييرات خطيرة شكَّلت لبَّ الحضارة نفسها، ومن أجل فهمها نسعى لإلقاء الضوء على موضوع مهمٍّ هو تحرُّكات الجرمان بنظرة موضوعيَّة شاملة، لأنَّ هذه التحرُّكات مازالت موضوعاً غير مقدَّر الأهميَّة، وترجع الصعوبة في فهم تلك الحقبة بالذات إلى اعتماد الهجرة في نشاطها، من دون ترك أدلَّة مكتوبة على أوضاعها الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والثقافيَّة، وبالتالي نقص المصادر التي يمكن اعتمادها وتحليلها لمعرفة نمط حياة هذه القبائل الجرمانيّة؟ متى وأين

---

[١]- دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام ـ سوريا.

عاشت؟ ضدَّ من قاتلت؟ بمن تأثَّرت وكيف؟ ما طرق احتكاكها مع الآخر؟ وكيف يمكن لهذا الاحتكاك أن يؤدِّي إلى حضارة جديدة؟

وإذا كانت الوحدة الأوروبيّة قد قامت على ثلاث دعائم بنائيَّة: الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، والكنيسة الكاثوليكيَّة، والتراث الكلاسيكيِّ، فإنَّ الجرمان هم المادَّة البشريَّة التي تشكَّلت منها أوروبا، أي أنَّهم العشائر التي نبع منها العنصر القوميُّ في الحياة الأوروبيَّة في الوقت الحاضر.

أولاً: تركيبة سكانيَّة جديدة

١. من هم الجرمان؟

عندما نتحدَّث عن القبائل الجرمانيَّة اليوم نعني بهم القبائل التي عاشت في شمال ووسط وشرق أوروبا بين القرن الأوَّل قبل الميلاد والقرن الرابع الميلاديِّ، وقد فصل نهرا الراين والدانوب[١] بلاد الجرمان عن بلاد الغال، كما فصلتها الجبال الوعرة عن داشيا، وتميَّزت الرقعة الجغرافيَّة التي سكنتها تلك القبائل بمطرها الغزير، ورياحها الشديدة، وبأراضيها التي تكسوها الغابات وتغطيها المستنقعات بشكلٍ عام[٢].

مثَّلت القبائل الجرمانيَّة مجموعة عرق - لغويَّة من الشعوب الهندوروبيَّة، وقدَّم العديد من المؤرِّخين مجموعة من النظريَّات حول موطنها الأصليِّ، منها أنَّهم قدموا من سواحل بحر البلطيق[٣]نحو المنطقة المحصورة بين نهري الألب والراين جنوباً، فيما اتَّجه فريق آخر إلى اسكندنافيا والدنمارك. ويؤكِّد مؤرِّخون آخرون أنَّهم من الأصول الآريَّة القاطنين في القارة الآسيويَّة. وهناك احتمال آخر أن يكونوا من سكان سواحل بحر قزوين واتَّجهوا نحو حوضي نهري الأودر والألب[٤].

[١]- نهر الراين (Rhine): من أهم الأنهار الأوروبيّة، تتشاطؤه (سويسرا، فرنسا، ألمانيا، هولندا، بلجيكا)، طوله ١٣٢٠كم، منها ٨٥٥ كم في ألمانيا، ينبع من كتلة سان غوتار، يصب في بحر الشمال. أما نهر الدانوب (Danube): فهو النهر الأوروبيُّ الرئيس، يمتدُّ في أواسط القارة الأوروبيّة، ينبع من غرب ألمانيا، طوله ٢٨١٥كم، يصبُّ في البحر الأسود. الموسوعة العربيَّة، الراين (نهر)، الدانوب (نهر) المجلَّد التاسع، ص٧٦٢، ص١٧٥.

[٢]- تاكيتوس، تاكيتوس والشعوب الجرمانيَّة، ترجمة: إبراهيم علي طرخان، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٥٠.

[٣]- سكنت القبائل الجرمانيَّة على شواطئ بحر البلطيق نحو (١٠٠٠عام). إبراهيم علي طرخان، دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دولة القوط الغربيين، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٣.

[٤]- حسن أحمد إبراهيم المعموري، الممالك الجرمانيَّة، محاضرة في جامعة بابل، ٢٠١١م، ص١.

ويمثِّل الجرمان في العصر الحالي النرويجيون والسويديون والأيسلنديون والدنيز (سكان الدنمارك) والألمان والنمساويون، والدتش (سكان هولندا)، والفلمنك (سكان بلجيكا)، والإنكليز والأفريكان (سكان جنوب أفريقيا).

لم يتمّ العثور في منطقة جنوب الدول الإسكندنافيَّة[١]على طبقة أساسيَّة لغويَّة ما قبل الجرمانيَّة، فقد حدَّد المؤرِّخ موسيه عمراً لمنطقة (Urheimat أورهايمات) جنوب الدول الإسكندنافيَّة أواخر العصر البرونزيّ[٢]، ما يؤكِّد انتشار الجرمان من هذه المنطقة. ومع حلول عام ٨٠٠ ق.م وصلوا إلى ويستفاليا في الغرب وفيستولا في الشرق، وبعد ثلاثمائة عام تمَّ العثور على آثارهم في أسفل الراين فيتورينجيا وسيليزيا السفلى، ونحو عام ٤٠٠ق.م جرى التمييز بين الجرمان الشرقيين والغربيين، وهو التاريخ الذي اعتمد لوجودهم في شمال ألمانيا وشمال شرق هولندا وشمال وغربيولندا.

اتَّصل الجرمان مع الكلتيين نتيجة تقدُّمهم عبر نهر الراين، وكان أوَّل وصول إلى مناطق حضارة الرومان من قبل القبائل الجرمانيَّة الشرقيَّة (بستارني وسكيري)التي ظهرت آثارها على جدران أولبيا بحلول ٢٣٠ قبل الميلاد[٣]، ففي مرحلة القرن الثالث والثاني قبل الميلاد لم يكونوا قد استقرُّوا على الضفة اليسرى لنهر الراين باستثناء قبائل (السكرنانيين[٤]).

ومع حلول القرن الأوَّل قبل الميلاد كانت المنطقة بكاملها الواقعة بين نهري ألب والراين تحت تأثيرهم بالفعل، وأصبحت بعض القبائل متحالفة معهم، واضطرَّ البعض الآخر إلى دفع الجزية كدليل على تبعيَّته لهم[٥]، وفي نهاية عهد الجمهوريَّة الرومانيَّة (١٣٣-٤٤ق.م) بدأ الاحتكاك الجرمانيُّ بالرومان، فقد تحرَّكوا تحت ضغط قبيلتين كلتيَّتين هما (البويتيوسكوردسكيين)، وفي نحو عام ٦١ ق.م استقرت قبيلة (السواني) على الشاطئ

[١]- إسكندنافيا أو إسكنديناوة باللاَّتينيّة(Scandinavia) شبه جزيرة تقع في شمال قارة أوروبا، تتكوَّن من دول الدنمارك، والنرويج، والسويد، وأحياناً تشمل دولاً أخرى مثل فنلندا وأيسلندا وجزر فارو، وذلك للتقارب التاريخيِّ والحضاريِّ والعلاقات الثقافيَّة التي تربط هذه الدول مع الدول الإسكندنافيَّة الأساسيَّة الدنمارك، والنرويج، والسويد.

[٢]- ظهر إنتاج البرونز في قارة أوروبا نحو ٢٣٠٠ ق.م وأصبح شائعاً عام ١٢٠٠ ق.م. ويعتقد أنَّ ظهوره كان نتيجة للتحرُّكات البشريَّة.

[3]- Early Germanic Migrations, ch 7, p 2.

[٤]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص٢.

[5]- The World of the Germanic Tribes and the Migration of Nations, p 1.

الأيسر لنهر الراين، ولم تتراجع إلى الضفَّة اليمنى إلاَّ بعد انتصار قيصر على الجرمان عام ٥٨ ق.م، ليتوقَّف تدفُّق القبائل الجرمانيَّة بإقامة الحاميات الرومانيَّة على الضفَّة اليسرى لنهر الراين عام ٣٨ق.م[١].

وخلال السنوات الستِّ الأخيرة من القرن الأوّل قبل الميلاد، أضحت ألمانيا (بين الراين والألب) ولاية رومانيَّة، ليقرِّر أغسطس الانسحاب منها والاكتفاء بوضع حاميات فيها، وعدَّ نهر الراين الحدَّ الذي يفصل الإمبراطوريّة الرومانيَّة عن غيرها من الشعوب[٢].

٢. الأصول السبعة

معظم الشعوب القديمة تدَّعي النسب إلى جدٍّ إلهيٍّ، والقبائل الجرمانيَّة أسوة بهذه الشعوب تقول بنسبها إلى الإله مانوس ابن الإله توستو، انحدر من مانوس ثلاثة أبناء (انجو) وسلالته هم الأنجويون، (واستو) وإليه يُنسب الأستويون، (هرمينو) أبو الهرمينيين، ومن الكتاب من يضيف مجموعات أخرى مثل المارسين، والكمبريفيين، والسويفي، والوندال[٣].

قطنت هذه الفروع السبعة مواطن مختلفة بالبلاد الجرمانيَّة، ويرى علماء الألمان أن أصل التسميات الأصليَّة للمجموعات (الأنجويون المقيمون على شواطئ البحر)، و(الأستويون في الجهات الغربيّة)، و(الهرميفيون في الأجزاء الوسطى) تدلُّ على مواطن الاستقرار أكثر من دلالتها على أسماء القبائل، لأنَّ معنى كلمة الأنجويين بالألمانيَّة المقيم في الداخل تجاه البحر أي على الشواطئ، بينما تعني الأستويون سكان الجهات الغربيَّة، ويدلُّ مصطلح الهرمينيين على سكان الوسط، أمَّا السويف فتمتدُّ مساكنهم بين نهر الألب والفستولا وبحر البلطيق ونهر الدانوب، بينما أقام الوندال بعد تجوالهم في أعالي نهري الأودر والفستولا[٤].

وقد أطلق الرومان على القبائل جميعها التي كانت تعيش على حدود نهري الراين والدانوب اسم الجرمان(Germani)، وإنَّ كان هذا الاسم خاصاً بقبيلة واحدة منهم هي قبيلة التونجريين، يؤكِّد ذلك تاكيتوس في كتابه «جرمانيا» إذ يقول: «فهي تسمية جديدة

[١]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص٢٣-٢٤-٢٥.

[٢]- تاكيتوس، المرجع السابق، ص ٢٧.

[٣]- المصدر السابق، ص ٤٨. إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ٤.

[٤]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ٥.

عُرفت بها أولى القبائل التي عبرت نهر الراين، ورغم أنَّها كانت تسمية لقبيلة وليست لشعب فقد انتشرت حتى عمَّ استعمالها[١]»، بينما أطلقت هذه القبائل على نفسها كلمة (Theut) وتعني الشعب. في المقابل، يذكر الرأي الآخر أنَّ كلمة «جرمانيّ» مركبة من كلمتين في اللغة الغاليَّة هي «جر» ومعناها قريب، و«ماني» معناها رجال أي معنى كلمة جرمانيّ: «الرجال بالقرب من (الغال)»، لكن سترابون يذكر أنَّ الجرمان (Germani) ومفردها (Germanus) استعملت بمعنى الأخوة للتمييز بينهم وبين الشعوب القبليَّة الأخرى[٢].

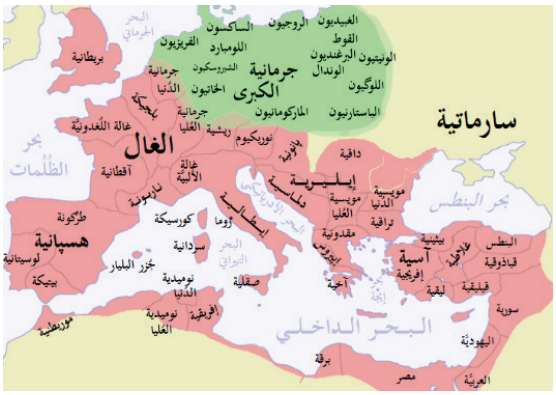

وقد أطلق الرومان على المنطقة الواقعة بين نهرَي الراين والدانوب والدول الإسكندنافيَّة والبحر الأسود تسمية(جرمانيا)، ليميِّزوها عن المناطق الواقعة داخل الأمبراطوريَّة الرومانيَّة كجرمانيا العليا وجرمانيا السفلى[٣].

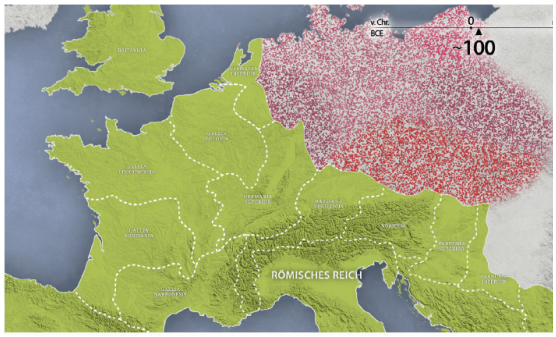

Image 1: Map of Germania around 100 CE.
Architectura Virtualis, 2020

ثانياً: البنية الاقتصاديَّة

١. الحياة الريفيَّة

يؤثِّر التكوين الثقافيُّ على المواقف والقرارات التي يتَّخذها المجتمع في مرحلة من مراحله التاريخيَّة، بينما تمُكِّن الأدوات الفكريَّة والماديَّة من تكيُّفِ بيئته بشكلٍ مناسبٍ ليعبر عن

[١]- - تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٤٩.

[٢]- - أنظر ملحق رقم (١) ص ، المصدر السابق، ص ٤٧-٤٨. أحمد غانم حافظ، الأمبراطوريَّة الرومانيَّة من النشأة إلى الانهيار، الإسكندريَّة، ٢٠٠٧م، ص ١٤٩-١٥٠.

[3]- Educational materials for schools GERMANIC TRIBES. ARCHAEOLOGICAL - PERSPECTIVE, GERMANIC TRIBES: WHO WERE THEY? HOW AND WHEN DID THEY LIVE?, Berlin, 2021, P 3.

تميُّزه الحضاريِّ، فبقاء الثقافة والتراث المحليِّ الذي كان سائداً في المنطقة الجرمانيَّة ساهم في استمرار تمايز هذه القبائل رغم احتكاكها المباشر مع الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، ما جعلها قادرة على القيام بدورها الحضاريِّ نهاية العصور التاريخيَّة القديمة.

أثبت علماء الآثار واللُّغات والبحوث أن أوَّل من سكن إسكندنيافيا (الدنمارك والنرويج والسويد) وشمال ألمانيا هي القبائل الجرمانيَّة، والسبب عدم وجود مفردات تعود إلى لغات أخرى أقدم، اشتركت تلك القبائل في العصر البرونزيِّ الأوروبيِّ المتأخِّر (١٠٠٠-٥٠٠ق.م) بعضها مع بعض بثقافة مشتركة، وشكَّلت تجمُّعات صغيرة سكنت في بيوت متباعدة مبنيَّة من جذوع الأشجار[١].

عاشت معظم الشعوب الجرمانيَّة في مستوطنات منها ما يصل إلى ٢٠ مزرعة، تتكوَّن من بيوت طويلة يعيش فيها الناس والحيوانات معاً، مع وجود مخازن للحبوب وورش للعمل، وذلك في موقع ((FeddersenWierde بولاية سكسونيا السفلى الحاليَّة، وهو عبارة عن مستوطنة عثر فيها علماء الآثار على البقايا الأكثر حفظاً والأفضل، حيث تمَّ بناء المنازل من الخشب والطين[٢]. وهذا لا يعني أنَّ المنازل كانت غير جيدة مقارنة بالبيوت الحجريَّة التي تمَّ بناؤها في الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، بل كانت تعبيراً عن تكيُّف القبائل الجرمانيَّة مع أسلوب الحياة والمناخ[٣].

ووفقاً لوصف قيصر وتاكيتوس، فإنَّ مجتمع القبائل الجرمانيَّة له تاريخ طويل في الزراعة الراسخة وتربية الماشية، وهنا يقول تاكيتوس: «ومواشيها الكثيرة دون المألوف .... إلاَّ أنَّ ميزتها الوحيدة هي وفرة أعدادها، وهذه في الواقع مصدر ثروتهم الوحيد[٤]».

وتجدر الإشارة إلى أنَّ مجتمع القبائل الجرمانيّة لم يكن عشائريّاً بدائيّاً غير متطوِّر، ولا شيوعيّاً بدويّاً، ونظراً للظروف الجغرافيَّة كانت تربية الماشية أكثر أهميَّة بين القبائل الشماليَّة

---

[١]- أحمد غانم حافظ، المرجع السابق، ص ١٥١.

[٢]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٦٢.

[3]Educational materials for schools GERMANIC TRIBES. ARCHAEOLOGICAL- PERSPECTIVE, P 4.

[4]- Julius Caesar, The Gellic Wars, Translated by W.A.McDevitte and -W.Bohn, 2012, h6, p3.
تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥١.

الشرقيَّة منها في الجزء الجنوبيِّ الغربيِّ الغنيِّ بالحياة الريفيَّة، فالحياة الاقتصاديَّة لعامَّة الناس كانت تعتمد على الزراعة وتربية الماشية.

والعلوم التكميليَّة في القرن العشرين من (الجيولوجيا وعلم الآثار) استطاعت أن تعطينا وصفاً للأراضي الزراعيَّة في العصر القديم، التي تميَّزت بوجود أراضٍ مشتركة بين مجموعة أُسر من (٤-١٠) مزروعة قمحاً، مع حديقة، أمَّا الغابات والأراضي الوعرة فهي مناطق مشتركة لتربية الماشية (الخيول والأغنام والماعز).

٢. لابدَّ من الهجرة

مع بداية القرن الثامن قبل الميلاد أصبحت القبائل الجرمانيَّة أكثر اتِّساقاً في ثقافتها، في الوقت الذي بدأت فيه مشكلات عدَّة بالظهور كتزايد السكان، وضغط الظروف المناخيَّة من البرد والصقيع الذي جعل حياتهم عسيرة، إضافة إلى مشكلة الحروب المتبادلة مع جيرانهم التي تقضي ضرورة طرد الخاسر، فكان لابدَّ من البحث عن حلول لهذه المشاكل تتناسب مع طبيعة تلك القبائل وثقافتها عن الحياة ومستواها الفكريِّ، بدءاً بالاستفادة من التربة الزراعيَّة في مستوطناتها الأصليَّة، وانتهاءً بالهجرة غرباً نحو السهول الفيضيَّة الساحليَّة، أو الاتجاه نحو وسط أوروبا حيث نهر الراين ثمَّ نهر الدانوب، إذ مثَّلت الرغبة في عبور النهر إلى الدولة الرومانيَّة هاجساً لا يمكن إلغاؤه أو التغاضي عنه لتوفُّر فرص العمل والأموال والحياة المترفة وما بلغته المدنيَّة الرومانيَّة من رقيٍّ[١].

ورغم أنَ الهجرة من الموطن الأصليِّ كانت بسبب الظروف المناخيَّة ونفاد الأراضي الزراعيَّة، إلاَّ أنَّه يمكن القول أنَّ القبائل الجرمانيَّة شعوب غير زراعيَّة لأنَّها اعتمدت في غذائها بشكل أساسيٍّ على اللُّحوم والألبان، لكنهم عملوا في الزراعة في الأراضي القليلة الصالحة لها، حيث يقوم رؤساؤهم بتوزيعها عليهم بعد تحديد مساحتها وموقعها لمدَّة عام كامل، على أن يتمَّ الانتقال منها إلى مكان جديد في العام التالي، وعلى أن يتمَّ التوزيع على القرى توزيعاً يتناسب مع عدد المزارعين[٢]، إذ كان من السهل لديهم الحصول على الأراضي

[١]- - حسن أحمد إبراهيم المعموري، المرجع السابق، ص١. إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص٢١.

[٢]- - تاكيتوس، المصدر السابق، ص٧٢.

بطريقة الاستيلاء لا بطريقة الإصلاح وقطع الغابات، من هنا جاء استعدادهم للتنقُّل، في سبيل وضع اليد على أراضٍ أكثر خصوبة[١]. ويمكن عدُّ هذا التنقُّل سبباً لعدم جعلهم شعوباً زراعيَّة، إذ إنَّ الزراعة تتطلَّب الاستقرار في الأرض المزروعة وعدم هجرها إلى أرض غيرها.

في السياق عينه، وصل الجرمان في عهد تاكيتوس إلى درجة متقدِّمة من المدنيَّة، فلم تعد القبيلة تغيِّر موطنها بالسرعة التي كانت عليها من قبل، فاستقرَّت كلُّ قبيلة أو كلُّ مجموعة من القبائل في قرى ذات منطقة زراعيَّة محدَّدة إلى حدٍّ ما، مع الاعتماد في الثروات الأساسيَّة على تربية الماشية، ولتصبح الزراعة بشكل عامٍّ في المرحلة التي تحدَّث فيها تاكيتوس عام ٩٨م أساس الاقتصاد لديهم[٢].

ويؤكِّد تاكيتوس أنَّ أراضي الجرمان صالحة لزراعة الحبوب خصوصاً القمح، ولا تصلح لزراعة أشجار الفاكهة، وتكثر فيها الماشية[٣]. ويشير علماء الآثار إلى القبائل الجرمانيَّة باسم مربيِّ الماشية، ممَّا يعني أنَّهم زرعوا الحبوب والخضروات، وربُّوا الحيوانات من أجل الاستفادة من لحومها وجلودها[٤]. أمَّا أدواتهم المنزليَّة فقد صُنعت بمعظمها من الفضَّة لوجود مناجم الفضَّة في الأراضي التي سيطروا عليها، وكانوا يقدِّمون هذه الأواني كهدايا لأنَّ قيمتها في نظرهم تعادل قيمة الأواني الفخاريَّة، أمَّا الأدوات والملابس والأوعية فقد كانت تُصنع في الموقع من قبل الحرفيين، حيث نمت المستوطنات الجرمانيَّة وأنتجت تقريباً كلَّ ما يحتاجه السكان في حياتهم اليوميّة.

من جانب آخر، تأثَّرت تجارة السلع وتوزيعها بالاقتصاد النقديِّ، حيث مارس الجرمان بعض الأعمال التجاريَّة من خلال استخدام النقود الرومانيَّة التي وصلت إليهم، وعبر

[١]- - إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ١٤.

[٢]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٣٧.

[٣]- المصدر السابق، ص ٥١.

[4]- Educational materials for schools GERMANIC TRIBES. ARCHAEOLOGICAL - PERSPECTIVE, P 4.

استخدام أسلوب المقايضة بالسلع المختلفة[١]، وهم لم يكونوا يعرفون مسألة اقتراض النقود مقابل الرهن أو من أجل الربا[٢]، بينما كانت معاملات السوق ثابتة. ولعلَّ الدليل على العلاقات التجاريَّة بين القبائل الجرمانيَّة والأمبراطوريَّة الرومانيَّة العثور على العديد من الموادِّ في المناطق الجرمانيَّة التي كانت تصنع في تلك الأمبراطوريَّة، حيث استوردوا الفخَّار والأواني الزجاجيَّة والخزفيَّة المزخرفة والمجوهرات[٣] والأواني المعدنيَّة والأسلحة المصنوعة في ساحل المتوسِّط، ونتيجة معرفتهم بالحديد أدخلوه في صناعة الأسلحة علماً أنَّه لم يكن متوفِّراً عندهم بكثرة[٤].

في المقابل، اشترى الرومان من القبائل الجرمانيَّة أدوات مصنوعة من الحديد والبرونز والرصاص على شكل طوب صغير، واشتروا أيضاً الجلود والعنبر[٥] والعسل وحتى العبيد[٦]، وقد سمح لقبيلة الهرمندوريين (Hermenduri) القاطنين على ضفاف نهر الدانوب بالمتاجرة داخل الأراضي الرومانيَّة، فقد كانوا مخلصين للرومان لكن ليس لمدَّة طويلة[٧].

ثالثاً:العلاقات الاجتماعيَّة

١. وحدة إنسانيَّة

لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ جميع المصادر المكتوبة عن القبائل الجرمانيَّة كانت من أصل رومانيٍّ، والذي عدَّها مجموعة متماسكة من الناس. وقد أطلق على جميع من عاش شرق نهر الراين وشمال نهر الدانوب اسم «الجرمان»، ما دعا إلى وجود افتراض يقول: إنَّ تلك

[١]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥١.

[٢]- المصدر السابق، ص ٧٢.

[3]-Educational materials for schools GERMANIC TRIBES. ARCHAEOLOGICAL- PERSPECTIVE, P7.

[٤]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥٢.

[٥]- المصدر السابق، ص ٩٧،

The World of the Germanic Tribes and the Migration of Nations, p 4.

[6]-Educational materials for schools GERMANIC TRIBES. ARCHAEOLOGICAL -PERSPECTIVE, p 7.

[٧]- -تاكيتوس، المصدر السابق، ص٩١. إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ١٤-١٥. أحمد غانم حافظ، المرجع السابق، ص١٤٨.

القبائل شكَّلت مجموعة كبيرة موحَّدة لا تختلف عن الشعب، إلاَّ أنَّ هذا الافتراض غير صحيح لأسباب عدَّة، أبرزها:

-**أوَّلاً:** أنَّه غير معروف ما إذا كانت القبائل الجرمانيَّة قد أطلقت على نفسها ذلك، فهم لم يتركوا لنا نصوصاً مكتوبة عن أنفسهم.

-**ثانياً:** جميع المصادر المكتوبة عن تلك القبائل من أصل رومانيٍّ.

-**ثالثاً:** فسَّر علماء الآثار ما تمَّ العثور عليه من تنقيبات في منطقة شرق نهر الراين وشمال نهر الدانوب بأنَّ مجموعات مختلفة عاشت في تلك المنطقة.

وحتى لو تحدَّثت القبائل الجرمانيَّة لغات متشابهة، لكن القبائل الفرديَّة شكلت ثقافات محليَّة مختلفة، والأهمُّ من ذلك أنَّها لم تشترك في النَّسب نفسه[١].

في الإطار عينه، يمكن أن نصف التنظيم الاجتماعيَّ للجرمان بأنَّه تنظيم قبليٌّ لأنَّه اعتمد على العشائر التي تربطها روابط القربى مثل البطون والأفخاذ[٢]، فشكَّلت الأرض مركز تماسك إقليميَّاً للقبائل لذلك كان هذا المجتمع يقوم على الملكيَّة الكبيرة للأراضي، ووفقاً لوصف قيصر وتاكيتوس فإنَّه كان مجتمعاً غنيَّاً بالحياة الريفيَّة، والممارسات القتاليَّة، واتِّباع القانون الخاصِّ بهم[٣].

ومن المهمِّ القول أنَّ هذه العناصر السكانيَّة التي هاجرت لتستقرَّ في مناطق زراعيَّة جديدة حافظت على جنسها، فلم تتصاهر مع القبائل الأخرى والسبب أنَّ على المهاجرين سلوك الطرق البحريَّة لا الطرق البريَّة، الأمر الذي ميَّز رجالها بصفات معيَّنة كالعيون الزرقاء والحادة، والشعر الأشقر، والجسم الرياضيِّ الذي يساعدهم على أداء الأعمال الشاقَّة[٤]. وهم عاشوا متفرِّقين بجوار المراعي لم يقوموا ببناء القرى على النمط الرومانيّ، بل لم يشيدوا منازل منفصلة بفناء واسع.

---

[1]- Educational materials for schools GERMANIC TRIBES. ARCHAEOLOGICAL - PERSPECTIVE, P3 .

[٢]- كرستوفردوسن، تكوين أوروبا، تر: سعيد عبد الفتاح عاشور، محمد مصطفى زيادة، الإسكندريَّة، عام ٢٠٠٣م، ص ٨٤.

[٣]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥٣-٥٨. Julius Caesar, Previous source, h١, pفوستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، ترجمة: عباس بيومي بيك، مراجعة: عبد الحميد الداواخلي، سلسلة ميراث الترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٧٨.

[٤]- المصدر السابق، ص ٤٨-٥٠.

٢. تماسُك أُسريٌّ

إن تتابع موجات الهجرة لا يعني تغييراً في السكان بل إنَّه لا يتعدَّى في كثير من الأحيان والحالات حلولاً أرستقراطيَّة محاربة محلَّ أخرى في السيطرة، لذلك لا يوجد في الأقاليم التي لم تتعرَّض للغزو متباينات واضحة بين مختلف عناصر المجتمع، حيث انتظم الجميع في طابع حضاريٍّ واحد تغلب عليه البساطة والبدائيَّة.

فلم تكن هذه القبائل الجرمانيَّة أمماً بل مجموعات قبليَّة مفكَّكة محتوية على بقايا شعوب وحضارات أقدم منها، فلم تكن مجموعة متجانسة بل متنوعة من ألوان محليَّة متَّصلة بعضها ببعض[١]، ورغم ذلك سيطرت بعد الهجرات المتتالية على القارة الأوروبيَّة في العصور الوسطى وأكسبتها مظهراً سطحيَّاً من الوحدة الحضاريَّة القوميَّة في العصور الحديثة.

يتألَّف مجتمع القبائل الجرمانيَّة من الطبقات الآتية:

أ- الطبقة الدنيا: وأعضاؤها من بعض السكان المغلوبين الذين يتولَّون الأعمال الزراعيَّة، ومن الأرقَّاء المرتبطين بالأرض.

ب- طبقة الأحرار: تمتلك الأراضي، وتشكِّل غالبية السكان، ويتمُّ اختيار المحاربين منها.

ج- الطبقة العليا: هي الطبقة النبيلة التي تمتلك اأراضي الواسعة، ومنها أُسَر الملوك والحكَّام والقادة، ومن أعرق الأسر فيها يتمُّ اختيار الملك، ويحق لكلِّ عضو من أعضائها أن يكون له أتباع خصوصيون من الأحرار[٢].

اتَّبعت القبائل الجرمانيَّة نظاماً عشائريَّاً مع تماسك أسريٍّ[٣]، لكن من الخطأ رؤيته كمجتمع يتساوى فيه الفلاحون الأحرار مع العبيد، فقد كانت معاملة السيد لعبده بطريقة جيِّدة «لدرجة لا يمكن التمييز بين أطفالهم: «لا نستخدم العبيد في جميع الأعمال المنزليَّة كما هو الحال في العادات الرومانيَّة، فلكلٍّ من هؤلاء مكان إقامة خاصٌّ به ويدير منزله الخاص».

---

[١]- كرستوفردوسن، المرجع السابق، ص ٨٥.

[٢]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ١٢-١٣.

[٣]- أحمد غانم حافظ، المرجع السابق، ص ١٥١.

ومن النادر أن يتمَّ جلد العبيد أو تقييدهم أو فرض عقوبة على العمال[١]، ومن الممكن أن يقوم بعض الأسياد بتحرير العبيد التابعين لهم ليصبحوا في شريحة اجتماعيَّة أعلى من باقي العبيد، غير أنَّ ذلك لم يكن ليمنحهم أيَّ نفوذ داخل القبيلة على الإطلاق. بمعنى آخر، كان مجتمع القبائل الجرمانيِّ بسيطاً متجانساً[٢].

وتحتوي القبيلة على العديد من الفضائل غير متوفِّرة في غيرها من التنظيمات الاجتماعيَّة الأخرى، فهي تتلاءم مع علوِّ مستوى الحريَّة الشخصيَّة والاحترام الذاتيِّ، وتخلق في كلِّ فرد روحاً قويَّة من الولاء والإخلاص نحو القبيلة، فنلاحظ تفوُّقاً في تطوُّرها الخلقيِّ والروحيِّ على حياتها الماديَّة[٣].

وبالحديث عن المرأة الجرمانيَّة، يمكن القول أنَّها تعايشت مع وضع مجتمعها المحارب على الدوام فتميَّزت بالشجاعة، وتولَّت أعمال المنزل والزراعة إلى حين عودة الرجال من ميادين القتال[٤]. وقد اهتم الجرمانيُّ بالنساء، فكان يتقيَّد بزوجة واحدة أدَّت دوراً كبيراً في رفضه للهزيمة في القتال. وهنا يقول تاكيتوس: «إنَّ الجيوش (الجرمانيَّة) تتنازل عن الأرض، بل وحتى على وشك الحدوث من الفرار، يتمُّ حشده من قبل نسائهن (النسويات)»، وقد أدرك الرومان نقطة الضعف هذه لديهم فحاولوا التحكُّم بهم عبر أَسْر سيدات جرمانيَّات ذوات أصل نبيل من أجل استخدامنَّ كورقة ضغط عليهم عند التفاوض[٥].

رابعاً: التنظيمات السياسيَّة

١. الأرستقراطيَّة الجرمانيَّة

الأصل النبيل هو الأساس في انتخاب ملوك القبائل الجرمانيَّة، وليس لهؤلاء الملوك سلطة مطلقة[٦]، حيث توجد جمعيَّة من المحاربين الأحرار تُعرف باسم (Thing) هي صاحبة

[١]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥٤.

[٢]- كرستوفردوسن، المرجع السابق، ص ٨٨.

[٣]- - المرجع السابق، ص ٨٤.

[٤]- - تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٧١.

[٥]- المصدر السابق، ص ٥٤.

[٦]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥٣.

الحق في انتخاب الحكَّام، وإعلان الحرب، وإبرام المعاهدات.

تراعي هذه الجمعيَّة في انتخاب الملك أرستقراطيَّة المولد والقدرة الحربيَّة والخطابيَّة[١]، إلى جانب التأثير وقوة الشخصيَّة، وقد وصف أحد ملوكهم مدى ما يتمتَّع به من سلطة ونفوذ بقوله إنَّه ليس له من السلطة على الرعايا أكثر ممَّا لهم عليه، وقد استدلَّ بعض الكتاب من هذا الموضوع على وجود بعض الميول إلى الديمقراطيَّة في الحكم لدى القبائل الجرمانيَّة[٢].

أما في ما يتعلَّق بالحاكم الأعلى فقد كان يقتصر على انتخاب قائد مؤقَّت لإدارة المعركة الحربيَّة، أو ليرأس اجتماع الجمعيَّة، وفي بعض القبائل كان الحكم لرجال الدين الذين تمتَّعوا بسلطة كبيرة. وللجمعيَّة جلسات خاصَّة يعقدها رؤساء الوحدات فقط للأمور البسيطة، أمَّا الأمور المهمَّة والمسائل الكبرى فيشترط حضور جميع الأعضاء واشتراك القبيلة في مناقشتها، وحتى لو كان القرار النهائيُّ من قبل الشعب فلا مشكلة في أن يتناوله الرؤساء[٣]، وإذا اقتنعت الجماهير بالاجتماع حضروا بكامل ملابسهم الحربيَّة، وعندها يفتتح الملك الجلسة فإذا عرض اقتراحاً ولم توافق عليه الجمعيَّة عبَّرت عن رفضها بالتذمُّر، وفي حالة الموافقة يرفع الأعضاء رماحهم ويضربونها بعضها ببعض لأنَّ قرقعة السلاح أشرف تعبير لديهم[٤].

ومن القبائل الجرمانيَّة التي أخذت بالنظام الملكيِّ الماركومان والكوادي والروجيون والليموفيون والقوط، ورغم توليِّ ملوك منهم إلاَّ أنَّهم يخضعون لسلطة الأجانب، فيعتمد ملوكهم على روما لمدِّهم بالسلاح والمال[٥]، وعندما تقدَّم النظام الملكيُّ بين القبائل الجرمانيَّة أصبح للدولة الجرمانيَّة: جمعيَّة عموميَّة تضمُّ المحاربين وتنعقد وقت الحرب أو الهجرة، ومجالس للمقاطعة تضمُّ النبلاء والأحرار وتجتمع وقت السلم لبحث المسائل المدنيَّة[٦].

---

[١]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥٨.

[٢]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ١٦. أحمد غانم حافظ، المرجع السابق، ص ١٥٤.

[٣]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥٨. إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص١٧.

[٤]- المرجع السابق، ص ١٦.

[٥]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٩٢- ٩٣.

[٦]- أحمد غانم حافظ، المرجع السابق، ص ١٥٣.

٢. مجتمع محارب

تتَّسم المثاليَّة القبليَّة بطابع البطولة لاسيَّما بين القبائل الرعويَّة المولعة بالحروب، فتقاليد البطولة التي استلهمتها الملاحم الشعريَّة والأساطير القوميَّة، سواء أكانت جرمانيَّة أم يونانيَّة أم عربيَّة، تدين بوجودها إلى الحضارة القبليَّة، التي تعدُّ الدعوة إلى الحرب أقدس نداء تتحتَّم الاستجابة له، ومن العار على القائد في المعركة أن يفوقه أحد في الشجاعة والإقدام[١].

لذلك، فإنَّ تسمية الجرمان أُطلقت على أوَّل قبيلة عبرت نهر الراين وداهمت الغاليين وهي قبيلة التونجريين المعروفة بمقدرتها الحربيَّة، ثمَّ صار هذا اللَّفظ (الجرمان) علماً لجميع القبائل الجرمانيّة، وقد أطلقه الرومان لإثارة الرعب والفزع، ولعلَّ هذه التسمية مشتقَّة أصلاً من كلمة رومانيَّة (Wehr –man) بمعنى رجل الحرب أو المحارب، وهي صفة حملتها قبائل الكسرنانيين (Cisrhenane) لما لهم من شهرة حربيَّة، ولمواصفاتهم العسكريَّة وشدَّتهم[٢].

وغنيٌّ عن القول أنَّ هذه التسمية لم تأتِ من عبث، فالأخطار التي تعرَّض لها الجرمانيُّ الناجمة عن الشعوب الرعويَّة المحيطة به أرغمته على أداء أعماله العاديَّة دائماً وهو يتمنطق سلاحه وعلى أهبة الاستعداد، فأصبحت الصفة الملازمة لمجتمع القبيلة أنَّه مجتمع محارب وعليه أن يختار أفضل المحاربين ليكون ملكاً أو قائداً للقبيلة، وكان الأساس في اختيار القادة هو الكفاءة والمقدرة، فتمتُّع القادة بطاعة جنودهم لا يتوقَّف على مناصبهم بقدر توقُّفه على ما يبديه القادة من شجاعة أو مغامرة في الصفوف الأماميَّة أثناء الحروب[٣].

وكان القائد الجرمانيُّ يؤلِّف فرقته العسكريَّة من الأهل والأقارب حتى يستطيع سماع صوت عويل نسائه وصراخ أطفاله من أجل استثارة حماسته في المعركة[٤]، فكان من سمات ومزايا القادة أن يُحاطوا بأكبر عدد من الأتباع الشجعان، إذا كان هذا من مظاهر الزينة والفِخار في حالة السلم، وعنصراً للأمان عند نشوب الحروب.

وإذا كان القادة يحاربون من أجل النصر في حالة الحرب، فإنَّ الأتباع كانوا يحاربون

---

[١]- كرستوفردوسن، المرجع السابق، ص ٨٤. إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص١٥.

[٢]- تاكيتوس،المصدر السابق، ص٤٩. Julius Caesar, Previous source, h23-24,p71

[٣]- - تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥٣. إبراهيم علي طرخان،المرجع السابق، ص ١٧.

[٤]- - المصدر السابق، ص ٥٤.

من أجل قائدهم ومن أجل الغنائم والأسلاب، ولأنَّ الجرمان عبارة عن مجموعات قبليَّة مفكَّكة فقد استطاعت أن تُخضِع لسلطانها مساحة واسعة من الأراضي، وأن تضفي عليها اسمها، لكنها لم تُقِم حضارة أو دولة موحَّدة، لذلك يمكن أن تطبَّق على مجتمع القبائل الجرمانيَّة قاعدة: «كلما كان المجتمع مبنيَّاً على الحرب كانت حضارته أكثر سطحيَّة وأكثر تفكُّكاً»، وتغلب عليه البساطة والبدائيّة[١]، مماَّ يسهم في أن تكون هذه الحضارة متأصِّلة في نفوس أهلها بحيث لا يسهل تغييرها، حتى فُسِّر توزيع الأراضي لعام واحد فقط على أن يتمَّ الانتقال إلى مكان جديد في العام التالي، برغبة القبائل بعدم الاعتياد على العيش في مكان واحد إلى الأبد، وخوفاً من فقدانهم حماستهم القتاليَّة، لذلك وجد علماء الآثار العديد من الأسلحة في الأراضي التي سكنها الجرمان، يبدو منها أنَّ المحاربين كانوا مجهَّزين تجهيزاً جيِّداً، فقد كان لديهم رماح وسيوف ودروع مستديرة[٢].

٣. مع من تقاتل الجرمان؟

تقاتلت القبائل الجرمانيَّة مع بعضها البعض، وتقاتلت مع القبائل الأخرى. فهزائمها الأولى كانت على أيدي القبائل الغاليَّة[٣]، وكما حدث عندما أدَّت الأعمال العدائيَّة الجرمانيَّة -السلتيَّة إلى إبطاء التقدم الجرمانيِّ بشكل كبير نحو الجنوب (يعتقد المؤرِّخ موسيه أنَّها توقَّفت في ٥٠٠-٢٠٠ قبل الميلاد[٤](، وربما تكون المقاومة السلتيَّة في الغرب مسؤولة عن أنَّ وصول أوّل جرمانيٍّ إلى مناطق الحضارة الرومانيّة كان بحلول عام ٢٣٠ قبل الميلاد، ومن المثير للاهتمام أنَّهم كانوا برفقة الكلتيين الذين كانوا على دراية بوادي نهر الدانوب في ذلك الوقت، ومن الممكن أن تكون كلتا القبيلتين عضوين في كونفدراليَّة سلتيك. لكنَّ الأعمال العدائيَّة في وسط أوروبا لم تمنع التعاون في أماكن أخرى، فكانوا في بعض الأحيان يتَّحدون لصدِّ هجمات الجيش الرومانيِّ، أو لمداهمة المراكز الدفاعيَّة للأمبراطوريَّة الرومانيَّة[٥].

---

[١]- - كرستوفردوسن، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٦.

[٢]- - تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥٢.

[٣]- المصدر السابق، ص ٢٩- ٥٢.

[4]- Early Germanic Migrations, ch 7, p 1.

[٥]- مضاف إليه توثيق الصورة.

Educational materials for schools GERMANIC TRIBES. ARCHAEOLOGICAL PERSPECTIVE, P5

Image 3: Drawing "Before the Battle"
Benoit Clarys, 2020

لا بدَّ من القول أنَّ الجرمان أوقعوا هزائم عدَّة بالرومان خلال أعوام(١٠٩ و ١٠٧ و ١٠٥ق.م)، وفي عام ١٠٦ق.م احتلُّوا غاليا وإيطاليا غير أنَّهم لم يستطيعوا البقاء في مناطق خرَّبوها ونهبوها فانتشروا متفرِّقين، ما سهَّل على القنصل الرومانيِّ ماريوس القضاء على تهديدهم في(إيكس) عام ١٠٢ قبل الميلاد[١].

وتعدُّ المواجهة الأولى للجرمان مع روما ذات أهميَّة كبيرة لأسباب عدَّة:. فقد أظهرت القبائل الجرمانيَّة أنها قبائل الغابات بامتياز، وامتدَّت على مسافات شاسعة في المرحلة الأولى من حركة الهجرة، واستمرَّت بتجوالها لسنوات، وبيَّنت إمكانيَة اتحادها مع غيرها، وأنَّه لا يمكن احتواؤها إلاَّ بصعوبة كبيرة وبتكلفة عالية[٢]. هذه الأسباب جعلت روما تتبع خطَّة محدَّدة تمكِّنها من إمكانيَّة التفرقة بين هذه القبائل عوضاً عن محاولة التغلب عليها بالسيف[٣].

وعندما استقرَّ العنصر السوابيُّ عام ٦١ق.م على الشاطئ الشماليِّ لنهر الراين شكَّل خطراً على بلاد الغال، ولم ينقذه من سطوة القبائل الجرمانيَّة سوى انتصار قيصر[٤] عام ٥٨ق.م

[١]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ٢٤.

[2]- Early Germanic Migrations, ch 7, p2.

[٣]- - تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٣٤-٤٢.

[٤]- قيصر: أقامه الشعب الرومانيُّ ديكتاتوراً لمدَّة عشر سنوات، من أشهر مقولاته: «إنيِّ أودُّ أن أكون الأول في قرية ولا الثاني في روميّة» قتل عام ٤٤ق.م. نجيب إبراهيم طراد، تاريخ الرومان، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٢٢٤.

على أريوفيستس[١]. وفي عام ٣٨ ق.م أقام القائد الرومانيُّ (أجريباAGRIPPA) الحاميات الرومانيَّة القويَّة على ضفة الراين اليسرى، بينما حصَّن (دروس DRUSSOS) المنطقة عام ٩ق.م ووصل إلى نهر الألب، وحمل لقب الجرمانيِّ أي قاهر الجرمان[٢].

هذا الضغط المستمرُّ الذي مارسته الدولة الرومانيَّة ضدَّ القبائل الجرمانيَّة مستخدمة فيه قوَّتها الحربيَّة ونفوذها الحضاريِّ لقرون عدَّة، أدَّى إلى تغيير في حضارة تلك الشعوب، وتبديل أحوال حياتهم، حيث اكتسبت أساليب حربيَّة جديدة، وكان عليها الاتِّحاد لمقاومة القوى الرومانيَّة، وربما اضطرَّت هذه القبائل المقيمة في الأطراف إلى الارتداد مرَّة أخرى نحو الأقاليم الداخليَّة في الشمال[٣].

خامساً: الحياة الثقافيَّة

من الطبيعيِّ وجود قيمة حقيقيَّة في عصر يختلف تمام الاختلاف عمَّا نعرفه، حيث نجد أنفسنا في عالم مختلف عن عالمنا لكنَّه لا يقلُّ بل يزيد عنه واقعيَّة، لكنَّ الرومان لم يكونوا يمتلكون هذه القاعدة في التفكير حيال القبائل الجرمانيَّة، فلم يهتموا جدِّيَّاً في التعمُّق بالنمط الاجتماعيِّ والسياسيِّ المتَّبع عند الجرمان ومحاولة فهمه، بل اتَّبع أكثرهم الأسلوب التقليديَّ في تصوير مدى تخلُّفهم عن الصورة النمطيَّة للحياة الرومانيَّة، وكان كلٌّ من القانون والتراث الكلاسيكيِّ من وجهة نظر الرومان هما ما يميِّزان الرجل الرومانيَّ عن الرجل البربريِّ.

لذلك أطلقوا كلمة البربريَّة (Barbarians) على الشعوب كافة التي أحاطت بهم من الجهات الأربع، وقصدوا بها الشعوب البدائيَّة المتخلِّفة عن ركب الحضارة اليونانيَّة أو الرومانيَّة، كما أُطلقت على كلِّ الشعوب التي كانت خارج نطاق الأمبراطوريَّة الرومانيَّة[٤]، والتي لم تكن تتحدَّث اللُّغة اللاَّتينيَّة أو الإغريقيَّة.

---

[١]- أريوفيستس: ملك جرمانيّ. نجيب إبراهيم طراد، المرجع السابق، ص ٢١٤.

[٢]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ٢٤-٢٥-٢٦.

[٣]- كرستوفردوسن، المرجع السابق، ص ٩١.

[٤]- - محمد جمال مبارك أحمد علي، دور الشعوب الجرمانيَّة في حضارة الغرب بعد سقوط الأمبراطوريَّة الرومانيَّة الغربيَّة، مجلَّة «كلِّيَّة الآداب» جامعة بور سعيد، العدد ١٧، ٢٠٢١م، ص ٣١٥-٣١٦.

ترادفت صفة البربريَّة مع لقب الجرمان وأصبحت مرتبطة بجميع القبائل التي هاجرت من الشمال إلى الجنوب الأوروبيِّ، فعرفت باسم القبائل الجرمانيَّة البربريَّة، وممَّا ساعد على سيادة هذه التسمية وإلصاقها بالقبائل الجرمانيَّة عدم تركهم لأدلَّة أوليَّة مكتوبة عنهم، وربما يكون السبب الآخر أنَّهم لم يتمكَّنوا من تطبيق القاعدة التي تقول: إنَّ الطبقة المسيطرة هي المسؤولة عن التمهيد لنشأة نوع جديد أرقى من الحضارة، وإذا لم تتمكَّن هذه الطبقة من ترك أثر ثابت في حياة السكان التي تسيطر عليهم فإنَّها تفقد صفة الاستمراريَّة[١].

وقد استطاعت القبائل الجرمانيَّة الشغوفة بالحرب أن تُخضِع لسلطانها مساحة شاسعة من الأراضي، وأن تضفي عليها اسمها، لكنها لم تتمكَّن من إقامة حضارة موحَّدة، ما دفع الشعوب الأخرى الخاضعة لسلطانهم إلى الاحتفاظ بتقاليدها الاجتماعيَّة والثقافيَّة الخاصَّة بها[٢]، ولم يظهر النوع الجديد من الحضارة إلاَّ بعد قرون عدَّة من الاحتكاك المباشر بين هذه القبائل والحضارة الرومانيَّة.

بشكل عام، من الصعب الحديث عن الحياة الثقافيَّة لدى الجرمان، فلا نملك إلاَّ القليل جداً عن تفاصيل حياتهم اليوميَّة، مع ذلك يمكن الحصول على بعض المعلومات من ثنايا المصادر الرومانيَّة التي كتبت عنهم، والدراسات التاريخيَّة التي بدت في العقود الأخيرة تهتمُّ اهتماماً جادَّاً بحياة تلك القبائل ونُظمها الثقافيَّة، وكيف أثَّرت وتأثَّرت بالحضارة الرومانيَّة. فقد كان لها أسلوب حياتها الخاصُّ بها[٣]، ولم تكن راكدة سالبة، بل كان لها تقاليدها الحضاريَّة، وتثبت ذلك البحوث المتعلِّقة بعصور ما قبل التاريخ[٤].

افتقرت القبائل الجرمانيَّة إلى أيِّ وحدة أو مركزيَّة، فلم ينظر إليها المؤرِّخون على أنها حضارة، ولم يتمكَّنوا من مقارنتها بالحضارة في روما التي سمح الجرمان لأنفسهم بالاختلاط معها، أو عادوا إلى أوطانهم بثرواتهم التي حصلوا عليها. لقد تعرَّف الجرمان الأحرار على طريقة الحياة الرومانيَّة، لكنهم ظلُّوا جرماناً في أنفسهم، وفي لغتهم، وفي ملابسهم، وظهرت

[١]- - كرستوفردوسن، المرجع السابق، ص ٨٦.

[٢]- - المرجع السابق، ص ٨٥.

[٣]- - محمد جمال مبارك أحمد علي، المرجع السابق، ص ٣١٦.

[٤]- - كرستوفردوسن، المرجع السابق، ص ٨٢.

الثقافة الجرمانيَّة المشتركة بعد القرن الرابع الميلاديِّ داخل الأمبراطوريَّة الرومانيَّة وخارجها بين نهري (السين والألب)، عن طريق تبنِّي الطرق والعادات الرومانيَّة، مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بالعادات والتقاليد الجرمانيَّة[١].

إلى ذلك، طبعت البساطة والتقشُّف حياة القبائل الجرمانيَّة، فلم يعرفوا المظاهر الحضاريَّة المعقَّدة بل إنَّ البدائيَّة كانت السمة السائدة في مجتمعاتهم، فعلى صعيد المظهر الشخصيِّ كانوا يطلقون لحاهم وشعورهم، ويلبسون جلود الحيوانات التي تقي أجسامهم من البرد، في حين أن طعامهم كان يقوم على صيد الحيوانات وبعض المحاصيل الزراعيَّة التي كان يتمُّ إنتاجها على نطاق محدود جدَاً[٢].

إلى ذلك، كان الجرمان يتمتَّعون بنسبة عالية من الذكاء[٣] بجانب رزانة وحكمة، وتعدُّ رياضة ركوب الخيل رياضة أطفالهم ومجال المنافسة بين شبَّانهم، وحتى الكهول لم يتخلَّوا عنها، لكن الأوضاع الاستثنائيَّة التي عاشوا في كنفها جعلتهم يقدِّسون حياة المغامرة وركوب المخاطرة، وقد احتلَّ المحارب المكانة الأولى داخل المجتمع، بينما كانت رابطة القرابة من أوثق الروابط وأقدمها[٤].

في هذا الإطار، لا يمكن عدُّ وصف تاكيتوس لحياة الأرستقراطيين اتِّجاهاً لإهمال الزراعة في القبائل الجرمانيَّة، بل يمكن عدُّه دليلاً على اهتمام تلك القبائل بتوفير وقت للراحة، حيث قال: «إذا لم يكن الجرمان منشغلين في الأعمال الحربيَّة، قضوا القليل من فراغهم في الصيد، والكثير في الراحة والدِّعة: بين النوم والمائدة[٥]».

وقد عدَّ الجرمان ظهور الهلال أو اكتماله بدراً من الأوقات السعيدة، يؤرِّخون الأوقات بالأيام على عكس الرومان الذين كانوا يؤرِّخونها بالليالي[٦].

---

[1]- The World of the Germanic Tribes and the Migration of Nations, p 4.

[٢]- - تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٦٣.

[٣]- - إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص ٣.

[٤]- - تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٦٧. حسن أحمد إبراهيم المعموري، المرجع السابق، ص٢.

[٥]- المصدر السابق، ص٦١.

[٦]- - تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٥٧.

خاتمة

من أعظم أعمال التاريخ أن يجعلنا نتجرَّد من أنفسنا ويأخذنا بعيداً عن الحقائق الواضحة، ويكشف عن حقيقة غير معروفة، ويستحيل على باحث في التاريخ أن يرسم خطّاً مستقيماً يفصل بين عصر وآخر من عصور التاريخ، فالأحداث التي سبقت نهاية العصور القديمة مهَّدت لبداية العصور الوسطى، والحضارة الأوروبيَّة ليست صورة عقليَّة محرَّرة، وإنَّما هي تنظيم اجتماعيٌّ محسوس لا يقلُّ عنه واقعيَّة ما قامت به القبائل القوميَّة الجرمانيَّة بل يفوقها أهميَّة، فكلُّ أمة ادَّعت لنفسها وحدة حضاريَّة من دون مراعاة للأساس المشترك الذي نبتت فيه جذور تراثها.

فالمرحلة التاريخيَّة الممتدَّة من (٧٥٠-١ق.م) شهدت تغييرات خطيرة، إذ كانت التربة ممهِّدة لنموِّ البذرة الجديدة للقبائل الجرمانيَّة، في مجتمع أصبحت الغلبة فيه للقويِّ، لكن ترجع صعوبة فهم تحرُّكات تلك القبائل بالذَّات إلى نواحي الابتكار في نشاطها، لأنَّه كان عمليَّة داخليَّة حيَّة، وهي لم تكشف عن نفسها وعن هذا النشاط بنتائج مباشرة وظاهرة خلاَّبة، لذا كان ينقصها البريق السطحيُّ الذي يغلب على عصور التطوُّر الحضاريِّ الأخرى.

لذلك حاول بعض المؤرِّخين إظهار التناقض الشديد بين فضائل الجرمان وما آلت إليه تلك الفضائل في الأمبراطوريَّة الرومانيَّة، كما فعل تاكيتوس في كتابه «جرمانيا»، فقد وضع هذا الكتاب لبيان المفارقات بين روما في مفاسدها وتدهورها، والجرمان في حيويَّتهم وقوَّتهم وسذاجتهم[١]، وإن كانت هناك بعض العلاقات السلميَّة بين روما وبعض القبائل الجرمانيَّة مثل قبيلة (الهرمندوريون) القاطنين على ضفة نهر الدانوب، حيث كانت تسمح لهم بالتجارة معها[٢]، إلاَّ أن الاحتكاك العسكريَّ كان أساس العلاقة بين الأمبراطوريَّة الرومانيَّة والقبائل الجرمانيَّة، فأصبحت هذه القبائل في القارة الأوروبيَّة مصدر التحدِّيات التي واجهتها الأمبراطوريَّة الرومانيَّة بداية العصور الوسطى، إذ تمكَّنوا من التغلغل الثقافيِّ والحضاريِّ، وفرضوا واقعاً على الأرض رسم خارطة أوروبا في ما بعد.

وتنبغي الإشارة إلى أنَّ القبائل الجرمانيَّة المهاجرة من أقصى الشمال الأوروبيّ البارد

[١]- تاكيتوس، ص٤١.

[٢]- المصدر السابق، ص٩٢.

إلى الوسط الدافئ، مثَّلت رافداً أعاد تشكيل التركيبة السكانيَّة الأوروبيَّة من جديد، فأوروبا خلال عصور ما قبل التاريخ لم تشكِّل وحدة بشريَّة لأنَها كانت ملتقى عدد من التيَّارات الحضاريَّة المختلفة، فالإنسان الأوروبيّ يمثل وحدة اجتماعيّة، حيث كان البحر المتوسط ونهر الدانوب والمحيط الأطلسيّ وبحر البلطيق طرقاً رئيسة لنشر الحضارة، وميداناً لتطوُّر حضاريٍّ مستقلٍّ أضحى بدوره نقطة بداية لعدد من الحضارات المحليَّة[١].

وقد تبيَّن من هذا البحث أنَّه لا علاقة بين صفة البربريَّة وصفة الجرمان التي أُطلقت على تلك القبائل المهاجرة من الشمال الأوروبيِّ إلى الجنوب، فليس ثمَّة ما يبرِّر وصف هذا النوع من الحضارات القديمة بأنَّها بربريَّة (وحشيَّة)، إلاَّ إذا كنا نستخدم هذا التعبير على مرحلة من مراحل التطوُّر الاجتماعيِّ الذي لم يبلغ مرحلة التنظيم الراقي المرتبط بالاستقرار المدنيِّ ونشوء الدولة، أي أنَّ حضارة القبيلة المرتكزة على قاعدة القربى وصلة الدم لا إلى قاعدة المواطَنة وسلطان الدولة تكون في مرحلة أدنى من مرحلة المدينة[٢]. وصحيح أنَّ تراث القبائل الجرمانيَّة لم يرقَ إلى حضارة الرومان، لكنَّ هذا التراث استطاع أن يتطوَّر ويمتزج بحضارة روما ليُنشئ حضارة جديدة هي حضارة أوروبا الغربيَّة اللاَّتينيَّة[٣].

في حقيقة الأمر، ليست حضارة أوروبا في العصور الوسطى سوى مزيج من حضارة الرومان من جهة، وحضارة الجرمان «البرابرة» التي اجتازت في ما بعد حدود الأمبراطوريَّة الرومانيَّة واستقرَّت داخل أراضيها، واختلطت بأهلها، من جهة ثانية[٤].

على أثر هذه الهجرات وهذا الاختلاط العرقيِّ يمكن أن نتبيَّن تمسُّك الجرمان بأهداب الثقافة الرومانيَّة وعشقهم لحضارتها، تمهيداً لتحوُّل جرمانيا ولاية رومانيَّة، بينما نظر الرومان إلى الحدود الرومانيَّة على أنها هي الحاجز الفاصل بين الحضارة والبربريَّة. ولكن بعد الهجرات الجرمانيَّة أصبحت تلك النظرة مجرَّد وهم، وصارت القبائل الجرمانيَّة هي أقرب الشعوب إلى الرومان، وعلى وشك استيطان أراضيهم، لكن معاملة الرومان للجرمان

[١]- ف.دياكوف/س، كوفاليف، الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم واكيم اليازجي، ج٢، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٢.

[٢]- - كرستوفردوسن، المرجع السابق، ص ٨٣.

[٣]- - محمد جمال مبارك أحمد علي، المرجع السابق، ص ٣١٦.

[٤]- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٢م، ص٧.

بوضعهم كمستوطنين خاضعين لأمبراطوريَّتهم كان مجرَّد موقف مؤقَّت لم يستسلم له الجرمان طويلاً، بل ساهم غياب السلطة الأمبراطوريَّة والعسكريَّة في إعطاء هذه القبائل الفرصة للتوسُّع وخلق واقع جديد على الأرض[١].

في هذا السياق، نشير إلى أنَّ الأمبراطوريَّة الرومانيَّة كانت بيروقراطيَّة الصبغة والطابع، مركزيَّة الحكم والإدارة، فزالت في ظلِّ الدولة الجرمانيَّة البيروقراطيَّة القديمة، وزالت معها مركزيَّة الحكم والطبقة الرومانيَّة القديمة صاحبة الأرض، وظهرت طبقة حاكمة جديدة قوامها الجرمان الذين استمدُّوا قوَّتهم من الأرض التي سيطروا عليها[٢]، فبدلاً من أن تذيب الأمبراطوريَّة الرومانيَّة القادمين الجدد من الجرمان داخلها ذابت هي في النهاية داخل مجتمعاتهم[٣].

بالمقابل، تأثَّرت القبائل الجرمانيَّة بروما، فاحتكاكها الدائب بها، وتوغُّلها التدريجيُّ البطيء والسلميُّ أحياناً أدَّى إلى تذوُّقها شيئاً من حضارة الرومان[٤]، مماَّ هذَّب الكثير من مظاهر العنف في حياة القبائل الجرمانيَّة، وتعلَّم قادتهم من روما أن يقبلوا الهدايا على شكل نقود[٥]، مع ذلك أصبحت القرية في حضارتها الريفيَّة الزراعيَّة هي العمود الفقريَّ للمجتمع، بعدما كانت المدينة بنشاطها التجاريِّ والصناعيِّ هي صلب المجتمع[٦].

لكن رغم الصلات بين القبائل الجرمانيَّة وروما إلاَّ أنها لم تصل أبداً إلى إيجاد قدر واضح من التقارب في النظم السياسيَّة والاجتماعيَّة، وإنما كانت لا تعدو تسرُّب بعض التفاصيل الحضاريَّة من جانب إلى الآخر من فنٍّ أو عقيدة أو بعض الصناعات وغير ذلك ممَّا كان يترك أثراً واضحاً، لكن لا يتحوَّل إلى تبنِّي طرف من الأطراف لنظم حياة الطرف الآخر، فحضارة القبائل الجرمانيَّة كانت لزعماء ومحاربين، لم تؤثِّر تأثير عميق في حياة الشعوب

[١]- - محمد جمال مبارك أحمد علي، المرجع السابق، ص ٣١٧.

[٢]- ف.دياكوف/س. المرجع السابق، ص١١.

[٣]- محمد جمال مبارك أحمد علي، المرجع السابق، ص٣١٨.

[٤]- إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص٢٢.

[٥]- تاكيتوس، المصدر السابق، ص٦١.

[٦]- ف.دياكوف/س، المرجع السابق، ص١٢-١٣-١٤.

الخاضعة لها ولم تحلّ محلَّ ما كان موجوداً من تقاليد حضاريَّة محليَّة لأقدم منها[١].

في القرن التاسع عشر الميلاديِّ أصبح هناك إدراك لأهميَّة العنصر القوميِّ في الحضارة الأوروبيَّة، حيث عُدَّ كلُّ شيء مستمدَّاً من القوَّة الحيويَّة النابعة من العبقريَّة القوميَّة[٢] والسبب في ذلك أنَّ القبائل الجرمانيَّة مثَّلت المادَّة البشريَّة التي تشكَّلت منها أوروبا، أي أنَّها العشائر التي نبع منها العنصر القوميُّ في الحياة الأوروبيَّة الحالية.

من هنا، فإنَّ أساس الحضارة الأوروبيَّة ليست الدول القوميَّة بل الوحدة الأوروبيَّة لأنَّها تمثِّل مجتمعاً حقيقيَّاً لا صورة فكريَّة فحسب، وبفضل المشاركة في هذا المجتمع من القبائل الجرمانيَّة بلغ كلَّ من الحضارات الأوروبيَّة القوميَّة المختلفة شكلها الفعليَّ في الوقت الحاضر.

لذلك، فإنَّ ألمانيا الحديثة اليوم تعتبر أنَّ منبع قوَّتها وحيويَّتها ومجدها يعود إلى تقاليدها البربريَّة القديمة، بينما تعتبر أوروبا أنَّ امتداد جذور حياتها الاجتماعيَّة في الوقت الحاضر يرجع إلى الماضي السحيق، وهي ليست نتيجة عوامل ماديَّة اقتصاديَّة عمياء، لكنها عمليَّة تطوُّريَّة حيَّة، فقد استطاعت القبائل الجرمانيَّة أن تحدث فرقاً في ما بعد في أوروبا رغم إقامة دولها على أساس اقتصاد طبيعيٍّ يرتبط بالأرض التي أوجدت مجتمعات محليَّة، ووحدات اقتصاديَّة مغلقة غير متطوِّرة تعتمد على سياسة الاكتفاء الذاتيِّ، ونظام سياسيٍّ خاصٍّ، وفكر ثقافيٍّ واقعيٌّ.

---

[١]- كرستوفردوسن، المرجع السابق، ص ٨٧.

[٢]- ف.دياكوف/س، المرجع السابق، ص ٨١-٨٢.

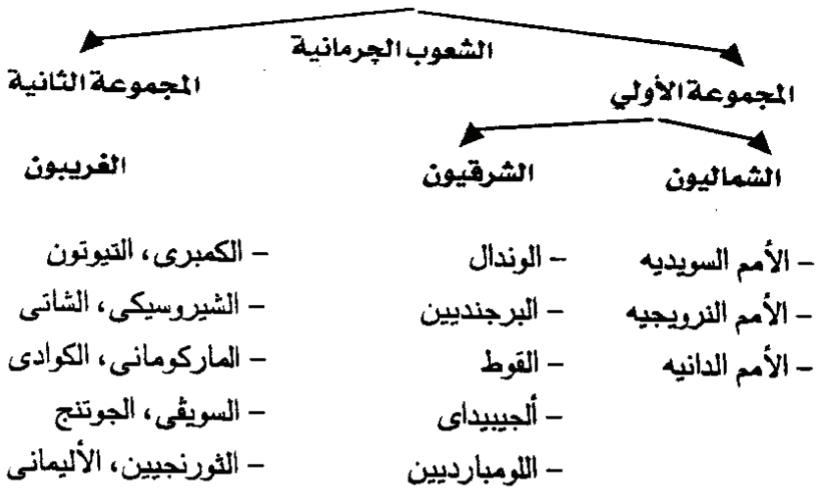

توثيق الملحق:

تاكيتوس، المصدر السابق، ص ٤٧. أحمد غانم حافظ، المرجع السابق، ص ١٤٩-١٥٠.

لائحة المصادر والمراجع

العربية

١- إبراهيم علي طرخان، دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دولة القوط الغربيين، القاهرة، ١٩٥٨م.

٢- أحمد غانم حافظ، الأمبراطوريَّة الرومانيَّة من النشأة إلى الانهيار، الإسكندريَّة، ٢٠٠٧م.

٣- تاكيتوس، تاكيتوس والشعوب الجرمانيّة، تر: إبراهيم علي طرخان، القاهرة، ١٩٥٩م.

٤- حسن أحمد إبراهيم المعموري، الممالك الجرمانيَّة، محاضرة في جامعة بابل، ٢٠١١م.

٥- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٢م.

٦- ف.دياكوف/س. كوفاليف، الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم واكيم اليازجي، ج٢، ط١، ٢٠٠٠م.

٧- فوستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، ترجمة: عباس بيومي بيك، مر: عبد الحميد الداواخلي، سلسلة ميراث الترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٨- كرستوفردوسن، تكوين أوروبا، ترجمة: سعيد عبد الفتاح عاشور، محمد مصطفى زيادة، الإسكندريَّة، عام ٢٠٠٣م.

٩-محمد جمال مبارك أحمد علي، دور الشعوب الجرمانيَّة في حضارة الغرب بعد سقوط الأمبراطوريَّة الرومانيَّة الغربيَّة، مجلَّة «كليَّة الآداب» جامعة بور سعيد، العدد ١٧، ٢٠٢١م.

١٠- الموسوعة العربيَّة، المجلد التاسع.

١١- نجيب إبراهيم طراد، تاريخ الرومان، القاهرة، ١٩٩٨م.

الأجنبية

1. Early Germanic Migrations, ch 7.
2. The World of the Germanic Tribes and the Migration of Nations.
3. Educational materials for schools GERMANIC TRIBES. ARCHAEOLOGIAL PERSPECTIVE, GERMANIC TRIBES: WHO WERE THEY? HOW AND WHEN DID THEY LIVE?, Berlin, 201.
4. Julius Caesar, The Gellic Wars, Translated by W.A.McDevitte and W.Bohn, 2012

دور شعب (الكلت) في تاريخ أوروبا حتى القرن الأول ق.م

الدكتور حسام غازي[١]

مقدّمة

الكلت (Celtes) شعب أوروبيٌّ قديم ينتمي إلى الفرع الغربيِّ من مجموعة الشعوب الهندو-أوروبيَّة، كان أفراده يطلقون على أنفسهم اسم الكلتيين، وكان الإغريق يطلقون عليهم اسم الغلاطيين (Galates)، بينما كان الرومان يطلقون عليهم اسم الغاليين (Galli)، ويرجَّح أن تكون التسميات الثلاث من أصل واحد.

لم يترك الكلت مصادر كتابيَّة تتحدَّث عن تاريخهم وحضارتهم، وبالتالي أتت المعلومات الأولى عنهم من المصادر الإغريقيَّة والرومانيَّة، التي وصفتهم بأنَّهم قبائل بربريَّة عدوانيَّة، وحاولت أن تظهرهم بأبشع صورة، إلاَّ أنَّ المكتشفات الأثريَّة التي خلَّفوها أظهرتهم كشعب حضاريٍّ عاش في المنطقة الواقعة بين الجزر البريطانيَّة غرباً، وآسيا الصغرى شرقاً[٢] **(الشكل: ١)** خلال الفترة من ١٢٠٠ إلى ٣٠ ق.م، واستطاع إنتاج حضارتين متعاقبتين الأولى عُرِفت حضارة هالشتات (Hallstatt)، والثانية عُرِفت بحضارة لاتين (La Tene).

انطلاقاً ممَّا سبق، يتَّضح الاندفاع الحضاريَّ للقارة الأوروبيَّة خلال الألف الأول ق.م لم يكن مقتصراً على الإغريق والرومان فحسب، بل كانت هناك أيضاً شعوب أخرى أبرزها الكلت، الذين شكلوا جزءاً مهمَّاً من تاريخها الحضاريِّ خلال الألف الأوَّل ق.م، وهذا ما تؤكِّده المكتشفات الأثريَّة العائدة لحضارتيَْ هالشتات ولاتين، التي سوف نعتمد عليها لإعادة بناء الصورة الصحيحة عن هذا الشعب، وعن دوره في تاريخ أوروبا حتى نهاية القرن الأول ق.م.

---

[١]- أستاذ علم الآثار في جامعة دمشق.

[2]- DUVAL PAUL MARIE 1989. Le monde celtique et l'Europe occidentale. In: Travaux sur la Gaule (19461986-) Rome: École Française de Rome, 116, PP. 5162-.

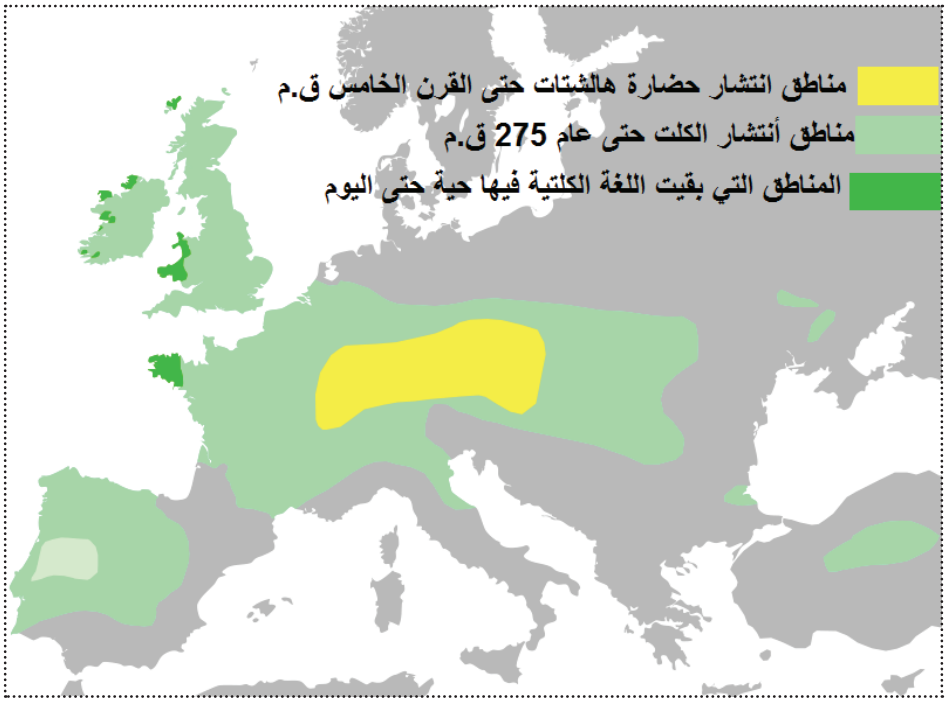

الشكل ١: مناطق انتشار الكلت.

أوّلاً: مصادر المعلومات

لم يترك الكلت مصادر كتابيَّة تتحدَّث عن تاريخهم وحضارتهم، ونتيجةً لذلك، فإنَّ معارفنا عنهم مُستقاة من الكتابات الإغريقيَّة والرومانيَّة، ومن المكتشفات الأثريَّة المتنوِّعة التي عُثِر عليها في الكثير من المواقع الأوروبيَّة. بالنسبة إلى الكتابات الإغريقيَّة والرومانيَّة، فقد كان من أبرزها ما ذكره هيرودوت في تاريخه عنهم[١]، وما أورده يوليوس قيصر في تاريخه المسمَّى الحروب الغاليَّة[٢]، وما أورده المؤرِّخ الرومانيُّ سترابون في مؤلَّفه الجغرافيا[٣]، وكذلك ما جاء في بعض الأساطير الإيرلنديَّة. وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ تلك المصادر ليس

[١]- أنظر: هيرودوت: التاريخ، ترجمة عبد الإله الملاح، إصدار دار الثقافة، أبو ظبي، ٢٠٠١م. أنظر أيضاً: هيرودوت: التاريخ في تسعة أجزاء، الترجمة الروسيَّة، ستراتوفسكي غ. أ. لينغراد، ١٩٧٢م.

[٢]- أنظر: Jules César: La Guerre des Gaules.

[٣]- أنظر: سترابون: الجغرافية في سبعة عشر كتاب، ترجمة حسان ميخائيل اسحق، دار علاء الدين، ٢٠١٧م.

ذات مصداقيَّة كبيرة، لأنَّها تصف الكلت كقبائل بربريَّة عدوانيَّة، وتظهرهم في أبشع صورة لأنَّهم خصوم للإغريق والرومان، ونستدلُّ على ذلك، على سبيل المثال، ممَّا أورده سترابون في الكتاب الرابع من مؤلَّفه «الجغرافيا»، واصفاً القرابين البشريَّة عند الكلت بالقول: «لقد وضع الرومان نهاية للطقوس الكلتيَّة المرعبة، فحاربوا تقديم الذبائح واستقراء الغيب، اللَّذين لا يشبهان طقسينا إلاَّ قليلاً، فالشخص المُعدُّ تقدمة للإله يتلقَّى طعنة خنجر في ظهره، ثمَّ يتنبَّأون له بالمستقبل الذي ينتظره، حسب طابع التشنُّجات التي تظهر عليه... ويجري هذا كلُّه دوماً بحضور درويديهم ومشاركتهم وموافقتهم». وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّه لا توجد حتى الآن أيُّ شواهد أثريَّة تؤكِّد ممارسة الكلت للقرابين البشريَّة.

أمَّا بالنسبة إلى المكتشفات الأثريَّة المتنوِّعة العائدة لحضارتيَ هالشتات ولاتين، فهي تقدِّم الصورة الصحيحة عن الكلت، وإذا تأمَّلنا تلك المكتشفات نلحظ أنَّهم كانوا خلال الألف الأول ق.م صُنَّاع حضارة، وليسوا قبائل بربريَّة همجيَّة، كما وصفتهم المصادر الإغريقيَّة والرومانية، وبالتالي من أجل بناء صورة صحيحة عنهم في أوروبا خلال الألف الأول ق.م، لا بدَّ من الاعتماد على تلك المكتشفات الأثريَّة كمصدر أساسيٍّ للمعلومات، مع الأخذ، بشيء من الحذر، بما ورد في المصادر الكتابيَّة الإغريقيَّة والرومانيَّة.

ثانياً: الإطار الكرونولوجيُّ والجغرافيُّ لحضارة الكلت

تشير نتائج الأبحاث والدراسات الأثريَّة إلى أنَّ التاريخ الحضاريَّ الموثَّق للكلت يمتدُّ من نحو عام ١٢٠٠ إلى ٣٠ ق.م، وتشير أيضاً إلى أنَّ تلك الفترة الطويلة تنقسم إلى مرحلتين متعاقبتين، الأولى تسمى حضارة هالشتات، التي غطَّت خلال الفترة الممتدَّة من نحو ١٢٠٠ إلى ٤٥٠ ق.م الكثير من مناطق وسط وغرب القارة الأوروبيَّة، والثانية تُسمَّى حضارة لاتين، التي بلغت بين عامي ٤٥٠ و ٣٠ ق.م ذروة انتشارها، لتشمل أجزاء واسعة من القارة الأوروبيَّة وآسيا الصغرى.

١. حضارة هالشتات

تؤرَّخ هذه الحضارة في الفترة ما بين ١٢٠٠ ق.م إلى ٤٥٠ ق.م، وقد أخذت اسمها من أشهر مواقعها (هالشتات) في غرب النمسا حاليَّاً، الذي تمَّ تنقيبه بدايةً بين عامي ١٨٤٦ و

١٨٦٣م من قبل الآثاريين جوان جورج رامسر (Johann Georg RAMSAUER) وإدوارد فون ساكين (Eduard Von SACKEN)، وأسفرت تلك التنقيبات عن كشف ٩٨٠ موضع دفن في الموقع، تؤرَّخ في الفترة ما بين القرنين السابع والسادس ق.م، إضافة إلى نحو ١٩٠٠٠ قطعة أثريَّة متنوِّعة[١]. وقد استؤنفت التنقيبات الأثريَّة في هذا الموقع خلال عامَيْ ١٨٧٦ و ١٨٧٧م، وذلك من قبل الآثاري فيردينارد فون هوشتيتر (Ferdinard Von Hochstetter)، وأسفرت بدورها عن كشف نحو ١١٠٠ موضع دفن[٢]، ثمَّ توقَّفت حتى عام ١٨٨٧م لتُستأنف مجدَّداً ولموسم واحد فقط من قِبل الآثاري جوزيف سزومباسي[٣] (Josef SZOMBATHY). وبالمحصلة، أسفرت تلك التنقيبات مجتمعة عن كشف مقبرة تؤرَّخ في نحو ١٠٠٠ إلى ٥٠٠ ق.م، وبناءً على ذلك، اقترح الآثاريُّ الألمانيُّ أوت تسشيلر (Otte TISCHLER) عام ١٩٨١م تقسيم حضارة هالشتات إلى مرحلتين هما: هالشتات القديمة، وهالشتات الحديثة[٤]، كما اقترح تصنيفها إلى مجموعتين: الأولى تُدعى هالشتات الغربيَّة، والثانية تُدعى هالشتات الشرقيَّة. وفي ما بعد تمَّ الكشف عن الكثير من المواقع الأثريَّة العائدة لهذه الحضارة، وتمت دراسة المكتشفات من قبل عدد من الباحثين، ولذلك اقترح بول رينيك (Paul REINECKE) في بداية القرن العشرين تصنيفاً آخر لحضارة هالشتات

---

[١]- أنظر التفاصيل في:

PETER BOGUCKI 2014. Ancient Europe: The Discovery of Antiquity, dans Paul Bahn (dir.), The History of Archaeology: An Introduction, Routledge, 10 janvier 2014.

[٢]- أنظر التفاصيل في:

BRIAN FAGAN 2012 (dir.), « Hallstatt », dans The Oxford companion to archaeology, vol. 1: Ache-Hoho, Oxford University Press.

[٣]- أنظر التفاصيل في:

ANTON KERN 2005. Hallstatt – eine Einleitung zu einem sehr bemerkenswerten Ort, dans Peter Bichler, Karina Grömer et Regina Hofmann-de Keijzer, „Hallstatt Textiles“ - Technical Analysis, Scientific Investigation and Experiment on Iron Age Textiles, Archaeopress Publishers of British Archaeological Reports.

[٤]- أنظر التفاصيل في:

MARGARETA SIEPEN 2005 (dir.), « Einleitung », dans Margareta Siepen, Der hallstattzeitliche Arm-und Beinschmuck in Österreich, Franz Steiner Verlag.

قام بتطبيقه على مناطق وسط أوروبا، حيث قسَّمها إلى أربع مراحل هي: هالشتات A و B و C و D [١]، وأصبح تأريخها يمتدُّ من ١٢٠٠ إلى ٤٧٥/٤٠٠ ق.م[٢]، ومازال هذا التصنيف معتمداً حتى الآن من قِبل معظم الباحثين.

هالشتات A: تؤرَّخ بنحو ١٢٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م[٣]، وهي تعود إلى عصر البرونز المتأخِّر، وتحمل سمات تلك الفترة.

هالشتات B: تؤرَّخ بنحو ١٠٠٠ إلى ٨٠٠ ق.م، وهي أيضاً تعود إلى عصر البرونز المتأخِّر، واقترح جون جاك هات (Jean-Jacques HATT) في عام ١٩٥٤م تسميتها بمرحلة هالشتات المبكرة، وفي ما بعد قام الباحثون بتقسيمها إلى مرحلتين، الأولى مرحلة هالشتات المبكرة ١ التي تؤرَّخ بنحو ١٠٠٠ إلى ٩٠٠ ق.م، والثانية مرحلة هالشتات المبكرة ٢ التي تؤرَّخ بنحو ٩٠٠ إلى ٧٥٠/٨٠٠ ق.م[٤]. وتتميَّز هذه المرحلة بالسيوف البرونزيَّة والسيوف الحديديَّة الكبيرة.

هالشتات C: تؤرَّخ بنحو ٨٠٠ إلى ٦٠٠ ق.م[٥]، وهي تمثِّل المرحلة الأولى من عصر الحديد، وتشير الآثار المادِّيَّة العائدة لها إلى أنَّ الكلت لم يكونوا متخلِّفين حضاريَّاً كما تُصوِّرهم المصادر الإغريقيَّة والرومانيَّة، بل كانت صناعاتهم الحرفيَّة مُتقَنة، حيث شهدت مناطق إقامتهم ثورة تقنيَّة كبيرة، تمثَّلت بشكل أساسيٍّ بصناعة الحديد، وهذا ما يبدو جليَّاً من خلال السيوف التي عُثِر عليها في مقابرهم، وخصوصاً مقبرة هالشتات، وكان لبعضها حلق مغطَّاة بورق الذهب، أو منحوتة من العاج، كما كانت مزخرفة بزخارف جميلة تعطيها

[1]- SARUNAS MILISAUSKAS 2011. European prehistory: a survey, New York, Springer, coll. «In terdisciplinary contributions to archaeology», 2e éd., P. 406.

[2]- THIERRY LEJARS 2015. La culture matérielle: Chronologie et typologogie (de 1850 à 1991), dans Olivier Buchsenschutz (dir.) et alii., L'Europe celtique à l'âge du Fer (viiie – ier siècles), Presses universitaires de France, coll. « Nouvelle Clio-L'histoire et ses problèmes », PP. 3140-.

[3]- JOHN HAYWOOD 2014. « The Hallstatt Celts », dans The Celts : Bronze Age to New Age, Routledge, P. 12.

[4]- JEAN-JACQUES HATT 1954. De l›Âge du Bronze à la fin du 1er Âge du Fer. Problèmes et perspectives de la protohistoire française, Bulletin de la Société préhistorique de France, t. 51, no 8, PP. 101110-.

[5]- JOHN HAYWOOD, Op. Cit., 2014, P. 12.

طابعاً مميزاً. وفضلاً عن ذلك صنعوا خناجر وفؤوساً جميلة (**الشكل: ٢**)، كما صنعوا الكثير من الأواني البرونزيَّة المتقَنة، وأواني فخاريَّة أنيقة مستخدمين عجلة الفخَّار في صناعتها، وكانت تلك الأواني مزخرفة بزخارف هندسيَّة، وأحياناً كانت منمَّقة للغاية ومتباينة الألوان، كذلك صنعوا أنواعاً جميلة من الحليِّ وأدوات الزينة... وقد أدَّت تلك التطوُّرات الحرفيَّة إلى زيادة الثروات، والدليل على ذلك غنى مدافن الطبقة الأرستقراطيَّة بالأسلحة والأدوات المختلفة (**الشكل: ٣**).

إلى ذلك، لم يعد أبناء الطبقة الأرستقراطيَّة، كما في السابق، يُحرَقون ويوضع رماد جثثهم في جرار فخاريَّة، بل صاروا يدفنون بأبَّهة فائقة، إذ كان الميت يوضع تحت رمز مكانته الاجتماعيَّة، وهو العربة ذات الدواليب الأربعة، وترافقها الأشياء التي كانت مفضَّلة لديه كالسيف والرمح والخوذة... كما كان يوضع إلى جانبه آنية مليئة بالطعام والشراب لتكون زاداً له في رحلته إلى العالم الآخر.

الشكل ٢: فأس جميل يعود إلى القرن الثامن ق.م عُثِر عليه في مقبرة هالشتات.

الشكل ٣: مجموعة من الأسلحة التي عُثِر عليها في مقبرة هالشتات.

هالشتات D: تؤرَّخ بنحو ٦٠٠ إلى ٤٥٠ ق.م [1]، وهي تتميَّز بتشييد قلاع في مناطق مرتفعة تشرف على مساحات واسعة، وكان بعضها يُستخدَم كمساكن للأمراء أو زعماء ميدانيين يتمتَّعون بنفوذ سياسيٍّ واقتصاديٍّ واسع في مناطقهم، وخصوصاً في جنوب ألمانيا، وسويسرا، وشرق فرنسا. كما تتميَّز هذه المرحلة بحركة استيراد قويَّة للمنتجات من حوض البحر المتوسِّط. إضافة إلى ذلك، نلحظ تقدُّماً تقنيَّاً كبيراً في مختلف أنواع الصناعات الحرفيَّة، مثل الأدوات المصنوعة من الحديد والبرونز والذهب، وكذلك الحليِّ وأدوات الزينة والأواني الفخاريَّة المصنَّعة والمزخرفة بإتقان، وهذا يدفعنا إلى القول بأنَّ الكلت كانوا خلال تلك المرحلة يعيشون في مستوى حضاريٍّ متطوِّر ومتناغم مع المستوى الحضاريِّ الذي عاشته الشعوب المجاورة لمناطق إقامتهم.

[1]- STEPHANE VERGER 2015. chap. II « L'âge du fer ancien: l'Europe moyenne avant les celtes historiques», dans Olivier Buchsenschultz (dir.), L'Europe celtique à l'âge du Fer (viiie – ier siècles), Presses universitaires de France, coll. « Nouvelle Clio - L'histoire et ses problèmes », PP. 75 – 176.

إذاً، تطوَّرت حضارة هالشتات على أربع مراحل، وشملت آثارها المادِّيَّة الكثير من مناطق أوروبا الوسطى والغربيَّة، وبالتحديد من الجزء الشرقيِّ من فرنسا في الغرب إلى غرب المجر في الشرق، ومن جنوب ألمانيا إلى سلوفينيا[١]. وقد أمكن من خلال التنقيبات الأثريَّة تمييز مجموعتين حضاريَّتين ضمن مناطق انتشار هذه الحضارة، الأولى تُدعى هالشتات الغربيَّة التي تغطِّي مناطق جبال الألب الشماليَّة، ويندرج ضمنها شرق فرنسا، وغرب سويسرا، وجنوب ألمانيا. أمَّا المجموعة الثانية فتُدعى هالشتات الشرقيَّة التي تغطِّي الجزء الشرقيَّ من جبال الألب، والأطراف الشماليَّة الغربيَّة من البلقان، وسلوفاكيا، وأجزاء من النمسا.

٢. حضارة لاتين

تؤرَّخ هذه الحضارة بنحو ٤٥٠ إلى ٣٠ ق.م، وهي تمثِّل الذروة الحضاريَّة للكلت، وأخذت اسمها في عام ١٨٧٢م من موقع لاتين الأثريِّ الذي تمَّ اكتشافه عام ١٨٥٧م في سويسرا. وفي ما بعد توالت الاكتشافات في الكثير من المواقع الأوروبيَّة ومواقع آسيا الصغرى[٢]، وهذا ما دفع الباحثين إلى وضع تصنيفات كرونولوجيَّة عدَّة لاستيعاب هذه الحضارة وفهم مراحل تطوُّرها، وكانت البداية مع الآثاري الألمانيِّ أوت تسشيلر في عام ١٩٨١م، الذي اقترح تقسيم حضارة لاتين إلى ثلاث مراحل تطوُّريَّة اعتماداً على أشكال السيوف والشظايا، وهذه المراحل هي:

المرحلة القديمة: تؤرَّخ بنحو ٤٠٠ إلى ٣٠٠ ق.م، وتتميَّز بشظايا لها قدم حرَّة، وبالسيوف المدبَّبة التي لها غمد بزرٍّ دائريٍّ.

المرحلة الوسطى: تؤرَّخ بنحو ٣٠٠ إلى ١٠٠ ق.م، وتتميَّز بشظايا لها قدم مرتبطة بقمَّة قوس، وبسيوف أكثر طولاً لها مقبض بزرٍّ نقطيٍّ أو مدوَّر بشكل خفيف.

---

[1]- RADOMIR PLEINER 1996. La civilisation de Hallstatt, les premiers Celtes et la Scandinavie. In: Albert Ollé-Martin, Caroline Aymé-Martin, Avec la collaboration de Khadija Touré. History of Humanity, Vol III: From the Seventh Century BC to the Seventh Century AD. l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris et Routledge, Londres, PP. 451- 455.

[٢]- أنظر التفاصيل في: LAURENT OLIVIER 2018. Le Pays des Celtes: Mémoires de la Gaule, Le Seuil.

المرحلة الحديثة: تؤرَّخ بنحو ١٠٠ إلى ٣٠ ق.م، وتتميَّز بشظايا لها إطار ملفوف كحامل الدبُّوس، وبالسيوف ذات الأطراف المستديرة.

وعلى أثر تزايد الاكتشافات الأثريَّة العائدة لحضارة لاتين، وخصوصاً في ألمانيا وفرنسا، اقترح بول رينيك في عام ١٩٠٢م كرونولوجيا جديدة لها في ألمانيا، كما قام جوزيف تيشلت (Joseph DECHELETTE) في عام ١٩١٤م بتصحيح الكرونولوجيا التي وضعها أوت تسشيلر للمواقع الفرنسيَّة، وبذلك أصبحت هذه الحضارة تقسم إلى أربع مراحل هي لاتين ١ إلى ٤ ، ولكن بقيت تلك التصحيحات موضعيَّة وتخصُّ مناطق جغرافيَّة معيَّنة من دون غيرها، وهذا ما دفع الباحثين في ما بعد إلى بناء كرونولوجيا عامَّة تستوعب النتاج الحضاريَّ والانتشار الجغرافيَّ الواسع للكلت خلال حضارة لاتين، وكانت النتيجة المقبولة لدى معظم الباحثين على النحو التالي:

-مرحلة لاتين A ، أو مرحلة لاتين ١ المبكرة: ٤٦٠ إلى ٤٠٠ ق.م.

-مرحلة لاتين ١ B ، أو مرحلة لاتين ١ الأوسط: ٤٠٠ إلى ٣٢٠ ق.م.

-مرحلة لاتين ٢ B ، أو مرحلة لاتين ١ المتأخِّر: ٣٢٠ إلى ٢٦٠ ق.م.

-مرحلة لاتين C ، أو مرحلة لاتين ٢: ٢٦٠ إلى ١٥٠ ق.م.

-مرحلة لاتين D ، أو مرحلة لاتين ٣ الأخير: تؤرَّخ بنحو ١٥٠ إلى ٣٠ ق.م، وتقسم بدورها إلى مرحلتين هما:

-مرحلة لاتين ١ D: تؤرَّخ على نحو ١٥٠ إلى ٧٠ ق.م، وتقسم أيضاً إلى مرحلتين هما: D١a التي تؤرَّخ بنحو ١٥٠ إلى ١٢٠ ق.م، و D١b التي تؤرَّخ بنحو ١٢٠ إلى ٧٠ ق.م.

-مرحلة لاتين ٢ D: تؤرَّخ بنحو ٧٠ إلى ٣٠ ق.م، وتقسم أيضاً إلى مرحلتين هما: D٢a التي تؤرَّخ بنحو ٧٠ إلى ٥٠ ق.م، و D٢b التي تؤرَّخ بنحو ٥٠ إلى ٣٠ ق.م.

إذاً، تغطِّي حضارة لاتين من الناحية الكرونولوجيَّة الفترة الممتدَّة من ٤٦٠ إلى ٣٠ ق.م، أي المرحلة الثانية من عصر الحديد في أوروبا، أمَّا من الناحية الجغرافيَّة فخلال هذه المرحلة بلغت حضارة الكلت ذروة انتشارها حيث غطَّت المنطقة الممتدَّة من الجزر البريطانيَّة غرباً إلى آسيا الصغرى شرقاً.

ثالثاً: تاريخ الكلت وهجراتهم

ظهر الكلت في نهاية عصر الحديد وبداية عصر البرونز في الأجزاء الجنوبيَّة الغربيَّة من ألمانيا، وتشير المعطيات العلميَّة الحاليَّة إلى أن تشكُّل الشعب الكلتي كان في القرن الثامن ق.م، أي مع حضارة هالشتات، وقد بدأت الموجة الأولى لهجراتهم منذ القرن الثامن ق.م، متَّجهة إلى جنوبيِّ فرنسا وشبه الجزيرة الإيبريَّة، وفي مطلع القرن الرابع ق.م بدأت موجة أخرى كبيرة باتِّجاه إسبانيا وبريطانيا وشماليِّ إيطاليا[١]. ولكن رغم تاريخهم الطويل وانتشارهم الواسع في القارة الأوروبيَّة[٢]، لم يشكِّل الكلتيون وحدة إثنيَّة حقيقيَّة، ولا دولة واحدة تجمعهم، ولم يعرفوا أيَّ شكل من أشكال الاتِّحاد في ما بينهم، وبالتالي فإن مظاهر وحدتهم لا تتجلَّى إلاَّ في الجانبين الحضاريِّ واللُّغويِّ.

إلى ذلك، تُعدُّ الهجرات من السِّمات المميِّزة للكلت، وكانت بلاد الغال الوجهة الأقدم لهجراتهم، ثمَّ أصبحت من أشهر مواطنهم، حيث استوطنوا بدايةً في شرقيِّها، ثمَّ في أقسامها الجنوبيَّة والغربيَّة، وما إن جاء القرن الثالث ق.م، حتى كان الغاليُّون قد انتشروا في بقيَّة أنحاء فرنسا[٣]. ولكن، بعدما سيطر الرومان على إسبانيا في الحرب البونيَّة الثانية، بدأوا يتطلَّعون إلى جنوبيِّ بلاد الغال التي تصلهم بها، وقد أتتهم الفرصة في عام ١٢٥ ق.م، عندما استنجد بهم حلفاؤهم إغريق ماسيليا (أي مرسيليا)، الذين كانت تهدِّدهم القبائل الغاليَّة، فلبَّى الرومان نداءهم، وجعلوا من جنوب فرنسا ولاية رومانيَّة. وفي عام ٥٩ ق.م أصبح يوليوس قيصر والياً عليها، واستمرَّت ولايته مدَّة ١٠ سنوات، وخلال تلك الفترة كانت بقيَّة بلاد الغال تعاني من التهديدات الجرمانيَّة، فاستغلَّ يوليوس قيصر (Caesar Julius) ذلك لإخضاع تلك المناطق للحكم الروماني، ولكن الغاليين ثاروا عام ٥٤ق.م بقيادة زعيمهم

[1]- JOACHIM HERRMANN 1996. Les Celtes, les tribus germaniques, les Slaves et les Sarmates. In: Albert Ollé-Martin, Caroline Aymé-Martin, Avec la collaboration de Khadija Touré. History of Humanity, Vol III: From the Seventh Century BC to the Seventh Century AD. l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris et Routledge, Londres, PP. 531 -539.

[2]- MAURICE MEULEAU 2011. Les Celtes en Europe, Rennes, éditions Ouest-France, février, 127p.

[3]- DOMINIQUE GARCIA 2004. La Celtique méditerranéenne. Habitats et sociétés en Languedoc et en Provence du VIIIe au IIe siècle av. J.-C., Paris, Errance, 208p.

فيركنغيتوريكس (Vercingetorix)، ودافعوا بشجاعة عن حصن أليزيا (Alesia)، ولكنَّه سقط عام ٥٢ ق.م في أيدي الرومان، واضطر زعيمهم إلى الاستسلام، فسِيق إلى روما، وأُعدم هناك انتقاماً من غزو الغاليين لروما، وبعد ذلك أصبحت بلاد الغال تنطبع بمظاهر الحضارة الرومانيَّة لتصبح في ما بعد من أهمِّ معاقلها.

وقد فرض الكلت سيادتهم على جنوب إنكلترا منذ القرن الخامس ق.م، وبعد ذلك خضعت الجزر البريطانيَّة كلُّها لتأثيراتهم لتصبح أحد معاقل الحضارة الكلتيَّة، واستمرَّ ذلك حتى تمكَّن الرومان من إخضاعها في عهد الإمبراطور الرومانيِّ كلاوديوس (٤١-٥٤ق.م).

وفي ما يتعلَّق بشبه الجزيرة الإيبريَّة، فقد وصل إليها الكلت منذ القرن الثامن ق.م إثر الموجة الأولى لهجراتهم، وأدَّى اختلاطهم بسكانها القدماء إلى نشأة ما عُرِف باسم الإيبريين الكلتيين، الذين اصطدم بهم القرطاجيون لدى سيطرتهم على المناطق الشرقيَّة من إسبانيا، ثمَّ عملوا مرتزقة في جيش هانيبال، وقاوم أولئك الكلت الإيبريون الاحتلال الرومانيَّ، وخاضوا حرباً بطوليَّة شهيرة دفاعاً عن عاصمتهم نومانتيا عام ١٣٣ق.م، ولم يتمكَّن الرومان من كسر شوكتهم حتى عام ٧٢ ق.م.

وبالنسبة إلى إيطاليا، فقد وصل إليها الكلت خلال الموجة الكبيرة لهجراتهم في مطلع القرن الرابع ق.م، حيث انطلق قسم منهم نحو شمالها، وفرضوا سيطرتهم على سهل البو، بعد طرد الإتروسكيين منها، واتَّخذوا مدينة ميلانو مركزاً لهم، وفي ما بعد اتَّجهوا إلى روما بقيادة زعيمهم برينوس (Brennus)، وتمكَّنوا من هزيمة الرومان في معركة (Allia) عام ٣٨٧ ق.م، وإثر ذلك دخلوا مدينة روما، ومكثوا فيها نحو سبعة أشهر، ثم غادروها مقابل فدية كبيرة، وبعد ذلك خاض الطرفان سلسلة من الصدامات، وتمكَّن الرومان حتى منتصف الألف الثاني ق.م من فرض سيادتهم على سهل البو، وجعلوا منه ولاية رومانيَّة عُرِفت باسم بلاد الغال القريبة.

أما بالنسبة إلى تحرُّك الكلت شرقاً، فقد هدَّدوا منطقة البلقان وهاجموا بلاد اليونان في مطلع القرن الثالث ق.م، وتمكَّنوا من احتلال مقدونية عام ٢٧٩ق.م، كما زحفوا باتِّجاه مدينة دلفي المقدَّسة، لكنَّهم لم يتمكَّنوا من دخولها نتيجة لمقاومتها العنيفة، فانطلقوا عبر

مضيق الدردنيل إلى آسيا الصغرى، وعاثوا فيها قتلاً وتدميراً، وبعد معارك عنيفة تمكَّن الملك السلوقي أنطيوخوس الأوَّل من هزيمتهم في معركة الفيلة عام ٢٧٥ق.م، وخلَّص المدن الإغريقيَّة من غزواتهم، فمُنِح لقب المنقذ (سوتير Soter)، وأجبرهم على الاستقرار في إقليم غلاطية (Galatia) أواسط الأناضول، ولكنَّهم عادوا مجدَّداً إلى الغزو والسلب حتى تمكَّن أمير برغامة من التغلُّب عليهم عام ١٨٤ق.م، وخلَّد انتصاراته على مذبح برغامة الشهير الذي صوَّر معاركه مع الغلاطيين.

رابعاً: اللُّغة الكلتيَّة

تنتمي اللُّغة الكلتيَّة إلى أسرة اللُّغات الهندو-أوروبيَّة، تكلَّم بها الكلت حتى نهاية الألف الأول ق.م[١]، ثمَّ بدأت بالتراجع مع تقدُّم الرومان في مناطقهم، ولم يبقَ منها إلاَّ المجموعة الخاصَّة بالجزر البريطانيَّة، وعلى رأسها اللُّغة الإيرلنديَّة التي بُعِثت من جديد في القرن التاسع عشر، وصارت لغة إيرلندا الوطنيَّة بعد الاستقلال. وتنقسم هذه اللُّغات إلى فروع ولهجات عدَّة أبرزها: الفرع الغاليُّ الذي يضمُّ اللُّغة الغاليَّة الإيرلنديَّة والغاليَّة الأسكتلنديَّة، والفرع البريطانيُّ الذي يضمُّ لغة مقاطعة ويلز التي تُعرف أيضاً بالكومريَّة، وكذلك البريتونة وهي لهجة مقاطعة بريتاني الفرنسيَّة.

خامساً: البنية الإجتماعيَّة

كان المجتمع الكلتيُّ محكوماً بالطبقات، ويمكننا تعريف تلك الطبقات على النحو التالي:

الطبقة المالكة: تتمثَّل بالملك أو زعيم القبيلة وأسرته، ويقع على عاتق الملك أو الزعيم إدارة شؤون رعيته وحمايتهم[٢].

طبقة النبلاء أو الطبقة الأرستقراطيَّة: تتألَّف من الزعماء الميدانيين والمحاربين الشجعان وأصحاب النفوذ[٣].

---

[1]- HERVE ABALAIN 1998. Histoire des langues celtiques, Jean-Paul Gisserot, 127p.

[2]- PHILIPPE JOUET 2007. L'Aurore celtique dans la mythologie, l'épopée et les traditions, Yoran embanner, Fouesnant, P. 42.

[3]- JOACHIM HERRMANN, op. cit. 1996, PP. 531 -539.

طبقة الدرويد: هي طبقة الكهنة التي كان لها سلطة كبيرة على جميع أفراد المجتمع الكلتيِّ[١]، وهؤلاء لم يكونوا كهنة عاديين يقومون على خدمة الدين، بل كانوا أطباء وقضاة ومنجِّمين... وبمعنى آخر نهض الدرويد بكلِّ الوظائف التي يعجز المجتمع عن العيش من دونها.

طبقة الأحرار: هم سكَّان القرى الذين يعملون بالزراعة وبتربية المواشي ويشاركون في الحروب.

طبقة العبيد: هم عادة من أسرى الحروب.

سادساً: السكن

كان الأمراء والزعماء الميدانيون يسكنون في قلاع مرتفعة تشرف على مساحات واسعة **(الشكل: ٤)**، أمَّا عامَّة الكلت فكانوا يسكنون في قرى بسيطة، تتألَّف من تجمُّع بيوت متفاوتة في مساحتها، بعضها مؤلَّف من غرفة واحدة مع ملحقاتها، وبعضها الآخر مؤلَّف من غرف عدَّة، وكانت بعض القرى محميَّة طبيعيَّاً أو بجدران وحواجز[٢]. واعتاد الكلت على بناء منازلهم من موادَّ سريعة التلف وخصوصاً الخشب والقش **(الشكل: ٥)**، ولذلك لم يُحفظ منها إلاَّ ما ندر، إذ كانوا يبنون السقف من قشِّ الحبوب أو من القصب المجفَّف الذي يتمُّ تحزيمه ووضعه بشكل مائل ليسمح لمياه الأمطار بالتدفُّق من الجوانب، وكانت تلك البيوت مدعَّمة بعوارض خشبيَّة، ويلحق بكلِّ منزل مخزن مخصَّص لحفظ الحبوب، أمَّا داخل المنزل فكان يحتوي على موقد، إضافة إلى بعض التجهيزات البسيطة مثل السرير والأدوات المنزليَّة المتنوِّعة المصنوعة من الفخَّار والبرونز والحديد...

[1]- ALEXANDER FOL 1996. Les Thraces, les Celtes, les Illyriens et les Daces. In: Albert Ollé-Martin, Caroline Aymé-Martin, Avec la collaboration de Khadija Touré. History of Humanity, Vol III: From the Seventh Century BC to the Seventh Century AD. l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris et Routledge, Londres, PP. 524 -526.

[2]- RADOMIR PLEINER, Op. Cit. 1996, PP. 451- 455.

الشكل ٤: تصوُّر لتحصينات هيونيبورغ العائدة إلى نحو ٦٠٠ ق.م.

الشكل ٥: تصوُّر لبيوت السكن العائدة لحضارة لاتين، تمَّ تشييدها في شمال سلوفاكيا.

سابعاً: الحياة الاقتصاديَّة

تشير المكتشفات الأثريَّة إلى أنَّ الكلت بلغوا مستوى متقدِّماً من الحضارة المادِّيَّة، واستطاعوا التكيُّف مع بيئتهم واستغلال مواردها بالشكل الأمثل، حيث تبنَّوا اقتصاداً متنوِّعاً يقوم على الزراعة وتربية المواشي والصناعة والتجارة[١].

بالنسبة إلى الزراعة وتربية المواشي، تشير المعطيات الأثريَّة إلى أنَّ الكلت قاموا بزراعة الحبوب مثل القمح والشعير والدخن، والبقوليَّات مثل البازيلاء والعدس، ونستدلُّ من بقايا الأطعمة التي عثر عليها في موقع هالشتات أنَّهم كانوا يأكلون الهندباء واللِّفت والفجل والكرفس والبصل والملفوف والفاصولياء. وفي ما يخصُّ تربية المواشي، فقد كان من أبرزها الأبقار التي كانت تمدُّهم باللُّحوم والحليب، والأغنام التي كانت تمدُّهم بالصوف واللُّحوم والحليب أيضاً، وكذلك الخنازير، وفضلاً عن ذلك كانوا يقومون بتربية الكلاب للحراسة، والخيول التي كانت تُستَخدم في الأعمال العسكريَّة والتنقُّل وغيرها.

وبالنسبة إلى الصناعة، تشير المكتشفات الأثريَّة التي عُثِر عليها في مواقع الكلت- وخصوصاً المقابر- أنَّهم كانوا على دراية بجميع الصناعات الحرفيَّة التي كان يمارسها جيرانهم الإغريق والأتروسكيين والرومان، إذ تدلُّ تلك المكتشفات على أنَّ مناطق إقامتهم شهدت ثورة تقنيَّة كبيرة، حيث امتهنوا التعدين بشكل متقَن، وبرعوا في تصنيع الأدوات والأسلحة البرونزيَّة والحديدة، وخصوصاً السيوف -التي تنوَّعت أشكالها ومقابضها من فترة إلى أخرى- والرماح والخناجر والفؤوس والشظايا والخوذ (**الشكل: ٦**) والدُّروع، والعربات التي كانوا يستخدمون في صناعتها الأخشاب والمعادن، كما أنَّهم برعوا في صناعة الحليِّ وأدوات الزينة البرونزيَّة والذهبيَّة (**الشكل: ٧**)، والأواني الفخاريَّة التي تنوَّعت أشكالها وزخارفها، وأيضاً الجلود التي كانوا يستخدمونها لصناعة ملابسهم وأحزمتهم وحقائبهم وأحذيتهم... وكذلك الصوف والكتَّان والمنسوجات.

---

[1]- BUCHSENSCHUTZ OLIVIER 1991. Recherches sur l'économie des Celtes au IIIe siècle avant J.-C. In: Etudes Celtiques, vol. 28. Actes du IXe Congrès international d'études celtiques Première partie. Les Celtes au IIIe siècle avant J.-C. PP. 6573-.

الشكل ٦: خوذة كلتيَّة تعود لحضارة لاتين.

الشكل ٧: طوق من البرونز يعود لحضارة هالشتات.

أمَّا بالنسبة إلى التجارة، فيمكننا تتبُّع النشاط التجاريِّ للكلت من خلال الآثار الماديَّة، وكذلك نوعيَّة السلع التي كانوا يصدرونها ويستوردونها، حيث تشير المكتشفات الأثريَّة إلى أنَّهم كانوا نشطين تجاريَّاً مع جميع الشعوب الأوروبيَّة القديمة المعاصرة لهم ولاسيَّما

الإغريق والرومان[١]، وشملت تجارتهم أيضاً مناطق البحر المتوسِّط والشرق الأوسط، وتتضمَّن لائحة الموادِّ التي كان يصدِّرها الكلت إلى تلك المناطق الحديد والقصدير والأخشاب والملح والأسلحة والمنسوجات والكتَّان والأحذية، بينما كانوا يستوردون الزجاج والنبيذ وبعض السلع الكماليَّة الأخرى.

وفي ما يخصُّ النظام النقديِّ، تبنَّى الكلت بدايةً النظام النقديَّ الإغريقيَّ والرومانيَّ، ومنذ نهاية القرن الثالث قاموا بسكِّ عملتهم النقديَّة الذهبيَّة الخاصَّة بهم، ويرجَّح أنَّ الكلت كانوا يستخدمون القطع النقديَّة الذهبيَّة الأولى كأشياء ثمينة، وفي ما بعد تبنَّى الكلت نظاماً نقديَّاً يقوم على ثلاثة معادن وهي الذهب والفضَّة، إضافة إلى سبيكة مصنوعة من النحاس والقصدير وأحياناً الرصاص كانت تُستَخدم بشكل أساسيٍّ في شمال بلاد الغال.

ثامناً: الفن

تُعدُّ الزخارف العنصر الجماليَّ الأكثر تميُّزاً في الفن الكلتي، حيث كان الكلت يفضِّلون تطبيقها على القطع النفعيَّة الصغيرة مثل الأسلحة والخوَذ والمجوهرات والأدوات المنزليَّة والأدوات ذات الوظيفة الدينيَّة. أمَّا بالنسبة إلى التماثيل فقد كانت نادرة في الفنِّ الكلتيِّ، وإن وُجِدت فهي تجسِّد بشكل أساسيٍّ محاربين بوضعيَّات مختلفة. ويتميَّز الفنُّ الكلتيُّ بتنوُّع زخارفه وتقنيَّاته[٢]، وهو يندرج بشكل عامٍّ ضمن الأنماط الرئيسيَّة التالية:

نمط هالشتات: يتوافق مع حضارة هالشتات، أي المرحلة الأولى من عصر الحديد.

النمط القديم: يستخدم أشكالاً زخرفيَّة هندسيَّة ورمزيَّة وتجريديَّة، وهو متأثِّر بالأتروسكيين واليونان، إذ كان يبتعد عن التصوير، ويستمدُّ إلهامه من الطبيعة، وخصوصاً من عالم النبات،

---

[1]- Roman Y. 1982. Chronologie du commerce italique et économie monétaire en Gaule du sud aux iie et ier siècles avant J.-C., Ktema: Civilisations de l'Orient, de la Grèce et de Rome antiques, 7, PP. 121- 128.

[٢]- أنظر التفاصيل في:

RUTH MEGAW et JOHN MEGAW 2005. Art de la Celtique: des origines au Livre de Kells, Paris, Errance, 276 p. REJANE ROURE et LIONEL PERNET 2011. Des rites et des hommes : les pratiques symboliques des Celtes, des Ibères et des Grecs en Provence, en Languedoc et en Catalogne, Paris, Errance, coll. « Archéologie de Montpellier agglomération » no 2, 287 p.

وهو بشكل عام يمثِّل نمطاً تزيينيَّاً أرستقراطيَّاً، مجسِّداً أشياء مرموقة مثل الكوب وغمد السيف والحليِّ وغيرها.

نمط فالدالجشم (Waldalgesheim): أو نمط النباتات المستمرَّة، المُستمدُّ من النمط الأول، ونلحظ فيه تراجع تأثيرات البحر المتوسِّط في القرن الرابع ق.م، واكتساب الفنِّ الكلتيِّ أصالته. ويتميَّز هذا النمط باستخدام الزخارف النباتيَّة المنفَّذة بشكل بارز، مع مظهر هندسيٍّ أقلَّ من السابق. وفي القرن الثالث ق.م انقسم النمط النباتيُّ إلى قسمين هما: نقوش محزَّزة مع جاذبيَّة هندسيَّة أقلَّ وضوحاً، وقولبة الشمع وهي عبارة عن تقنيَّة أدَّت إلى تنفيذ أشكال كرويَّة.

نمط البلاستيك: يتميَّز باستخدام أحجام هندسيَّة مرتفعة جدَّاً وغير متناظرة، تستحضر الطبيعة وتتَّحد مُكوِّنةً الأشكال.

نمط السيوف: وهو معاصر للنمط السابق، ويتميَّز بالأشكال النباتيَّة المحزَّزة القريبة جدَّاً من تلك التي كانت سائدة في نمط النباتات المستمرَّة، وهي تُستَخدم بشكل خاصٍّ لتزيين قطع الأسلحة، ويغطِّي نمط أزواج التنين المتقابلة في كثير من الأحيان غمد السيف.

تاسعاً: معتقدات الكلت

مازالت معتقدات الكلت حتى الآن موضع جدل بين الباحثين، وذلك نتيجةً لغياب النصوص الكتابيَّة الكلتيَّة، وبالتالي فإنَّ معارفنا عن هذه المعتقدات مُستقاة من الكتابات اليونانيَّة والرومانيَّة، التي تعمل على إظهار خصومهم في أبشع صورة.

يعتقد الكلت بالعديد من الآلهة، يوردها قيصر على النحو التالي: «يجلُّ الدرويديون أكثر ما يجلُّون من الآلهة، الإله مركوريوس، له من الصور أكثر ممَّا لأيِّ إله آخر، ويعدُّونه مبتكر الفنون كلِّها، ومرشد الدروب، ويعتقدون أيضاً أنَّه يحرِّض كثيراً على جَنْي المال، والدَّفع بالأعمال التجاريَّة. بعده مباشرةً يجلُّون الإله أبوللون، ثمَّ الإله مارس، فالإله جوبيتر، والإلهة مينيرفا. وعندهم عن هؤلاء الآلهة التصوُّرات عينها تقريباً التي عند الشعوب الأخرى، فأبوللون يطرد الأمراض، وتعلَّم منيرفا مبادئ المهن والفنون، ويملك جوبيتر السلطة العليا على سكان السماء، ويقود مارس الحرب».

والآن، إذا تأمَّلنا ما أورده قيصر، نلحظ أنَّه لم يورد إلاَّ الآلهة الرئيسيَّة، بينما تشير المصادر الأخرى إلى وجود عدد أكبر من الآلهة التي كان يعبدها الكلت، وفضلاً عن ذلك تبدو تلك الآلهة، آلهة رومانيَّة، وهذا يدفعنا إلى السؤال: لماذا عبد الكلت آلهة الرومان؟ والإجابة هي أنَّهم لم يعبدوا آلهة الرومان، بل عبدوا آلهتهم هم، وهذا ما نلحظه من خلال المطابقة بين صفات الآلهة التي أوردها قيصر وصفات آلهتهم التي وردت في مصادر أخرى. وفي ما يلي تعريف بأسماء آلهة الكلت وصفاتها وما يطابقها من آلهة الرمان:

الإله لوغ: إله كلتي يشبه الإله الروماني مركوريوس، بكونه يمتلك ناصية المهن كلِّها والفنون كلِّها، وهو نصير فن الحرب، وهذا ما نلحظه من أن اسمه يشكل جزءاً مكوِّناً لأسماء كثير من الحصون، كما أنَّ مدينة ليون المعاصرة كانت تسمَّى في ما مضى لوغدونوم أي حصن لوغ[١].

الإله تارانيس: اسمه مشتقٌّ من الكلمة اللاَّتينيَّة (Tarran) وتعني الرعد، وكان يجسِّد مع مطرقة وبيده عجلة، وهو يشابه في وظائفه الإله جوبيتر عند الرومان.

الإلهان تيفتاتيس وأغميوس: كان تيفتاتيس عند الكلت الإله المدافع عن القبيلة وحاميها من الأعداء، أمَّا أغميوس فكان إله الحرب ويتميَّز بالعلم والفصاحة، وبالمقارنة مع آلهة الرومان، فإنَّ هذين الإلهين يشبهان الإله مارس، أي إله الحرب عند الرومان.

الإله مابونوس: وهو مشابه من حيث وظائفه للإله أبوللون عند الرومان.

الإلهة بريتا: وهي مشابهة من حيث وظائفها للإلهة مينيرفا عند الرومان.

إضافة إلى ما سبق، ورد في مذكَّرات يوليوس قيصر ذِكرٌ لإله كلتيٍّ يُدعى دييه (ديت) باتر، بمعنى الأب، وأب الآلهة، وكتب عنه قيصر في مذكَّراته: «يؤكِّد الغاليون كلُّهم أنَّهم أحفاد الأب ديت، ويقولون، إنَّ هذه هي تعاليم الدرويديين، ولهذا السبب لا يحسبون الوقت ولا يحدِّدونه حسب النهارات، بل حسب الليالي: يحسبون يوم الميلاد، وبداية الشهر والسنة

[١]- ميغوليفسكي أ س: أسرار الآلهة والأديان، ترجمة حسان ميخائيل أسحق، دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٩م، ص ٦٧.

بطريقة يبدأ الحساب فيها من الليل ثمَّ يليه النهار»، وبما أنَّ الليل عند الكلت يُدغَم بالعالم الآخر، يمكننا القول بشيء من الحذر أنَّ هذا الإله هو إله العالم الآخر أي عالم الأموات، وبالتالي فهو مشابه في وظيفته للإله الرومانيِّ بلوتون.

تجدر الإشارة إلى أنَّ أعمال التنقيب الأثريِّ ساهمت في معرفة آلهة كلتيَّة أخرى نذكر منها الإله إيزوس، والإلهة إيبونا، والإله كيرنونوس، كما عُثِر على صور لآلهة لم يفلح الباحثون حتى الآن في معرفة أسمائهم، ومثال على ذلك صورة الإله الجالس في وضعيَّة البوذا، وهو الإله ذو الوجوه الثلاثة.

وفي ما يخصُّ اعتقاد الكلت بالخلود، أورد ديودوروس الصقليُّ نصَّاً يقول بأنَّهم أخذوا فكرة انتقال الروح عن فيثاغورس، وجاء في هذا النصِّ ما يلي: «لقد شاع عندهم رأي فيثاغورس القائل إنَّ روح الإنسان خالدة، وهي تعيش من جديد في خلال عدد معلوم من السنين متغلغلة في أجساد أخرى»، ولكن لا يوجد أي نصوص أخرى أو شواهد أثريَّة تمكِّننا من تأكيد ما قاله ديودوروس الصقلي.

خاتمة

لعب الكلت دوراً مهمّاً على مسرح الأحداث السياسيَّة الأوروبيَّة خلال القرن الأول ق.م، حيث كانوا يشكِّلون قوَّة عسكريَّة ضاربة، مكَّنتهم من فرض نفوذهم على أجزاء واسعة من القارَّة الأوروبيَّة، ومكَّنتهم من إيقاف التمدُّد الإغريقيِّ والرومانيِّ لمدَّة طويلة في أنحاء هذه القارَّة، لا بل كانوا يشكِّلون مصدر خطر حقيقيٍّ على الإغريق والرومان حتى في معاقلهم الرئيسيَّة، إذ تمكَّنوا في عام ٣٨٧ق.م من هزيمة الرومان في معركة (Allia) ودخول مدينة روما، ومكثوا فيها نحو سبعة أشهر، ثم غادروها مقابل فدية كبيرة، كما تمكَّنوا من احتلال مقدونية عام ٢٧٩ق.م، وزحفوا باتِّجاه مدينة دلفي المقدَّسة، لكنهم لم يستطيعوا دخولها نتيجة لمقاومتها العنيفة، ولذلك ليس من الغريب أن نرى المصادر الكتابيَّة الإغريقيَّة والرومانيَّة تصوِّرهم على أنَّهم قبائل بربريَّة عدوانيَّة غير متحضِّرة، وذلك خلافاً للصورة الصحيحة التي تقدِّمها الآثار المادِّيَّة عنهم، والتي تظهرهم كشعب حضاريٍّ عاش في المنطقة الواقعة بين الجزر البريطانيَّة غرباً وآسيا الصغرى شرقاً خلال الفترة الممتدَّة من ١٢٠٠ إلى ٣٠ ق.م، واستطاع إنتاج حضارتين متعاقبتين هما حضارة هالشتات وحضارة لاتين، واستطاع أيضاً التكيُّف مع بيئته واستغلال مواردها بالشكل الأمثل، وتبنَّى اقتصاداً متنوِّعاً يقوم على الزراعة وتربية المواشي والصناعة والتجارة، وأنتج أنماطاً فنيَّة عدَّة أقدمها نمط هالشتات، يليه النمط القديم، ثمَّ نمط فالدالجشم أو نمط النباتات المستمرَّة، الذي انقسم في القرن الثالث ق.م إلى قسمين هما: النقوش المحزَّزة مع جاذبيَّة هندسيَّة أقلَّ وضوحاً، وقولبة الشمع وهي عبارة عن تقنيَّة أدَّت إلى تنفيذ أشكال كرويَّة، ويلي ذلك نمط البلاستيك، وأخيراً نمط السيوف.

إذاً يمكننا القول من خلال ما تقدَّم، أنَّ الكلت لم يكونوا قبائل بربريَّة همجيَّة منعزلة بل كانوا جزءاً مهمّاً من التاريخ الحضاري للقارة الأوروبية خلال الألف الأول ق.م.

لائحة المصادر والمراجع

١-سترابون: الجغرافية في سبعة عشر كتاب، ترجمة حسان ميخائيل اسحق، دار علاء الدين، ٢٠١٧م.

٢- ميغوليفسكي أ س: أسرار الآلهة والأديان، ترجمة حسان ميخائيل أسحق، دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٩م.

٣-هيرودوت: التاريخ، ترجمة عبد الإله الملاح، إصدار دار الثقافة، أبو ظبي، ٢٠٠١م. هيرودوت: التاريخ في تسعة أجزاء، الترجمة الروسيَّة، ستراتوفسكي غ. أ. لينينغراد، ١٩٧٢م.

4-ALEXANDER FOL 1996. Les Thraces, les Celtes, les Illyriens et les Daces. In: Albert Ollé-Martin, Caroline Aymé-Martin, Avec la collaboration de Khadija Touré. History of Humanity, Vol III: From the Seventh Century BC to the Seventh Century AD. l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris et Routledge, Londres.

5-ANTON KERN 2005. Hallstatt – eine Einleitung zu einem sehr bemerkenswerten Ort, dans Peter Bichler, Karina Grömer et Regina Hofmann-de Keijzer, „Hallstatt Textiles" - Technical Analysis, Scientific Investigation and Experiment on Iron Age Textiles, Archaeopress Publishers of British Archaeological Reports.

6-BRIAN FAGAN 2012 (dir.), «Hallstatt», dans The Oxford companion to archaeology, vol. 1: Ache-Hoho, Oxford University Press.

7-BUCHSENSCHUTZ OLIVIER 1991. Recherches sur l'économie des Celtes au IIIe siècle avant J.-C.. In: Etudes Celtiques, vol. 28. Actes du IXe Congrès international d'études celtiques Première partie. Les Celtes au IIIe siècle avant J.-C.

8-DOMINIQUE GARCIA 2004. La Celtique méditerranéenne. Habitats et sociétés en Languedoc et en Provence du VIIIe au IIe siècle av. J.-C., Paris, Errance.

9-DUVAL PAUL MARIE 1989. Le monde celtique et l'Europe occidentale. In:

Travaux sur la Gaule (1946-1986) Rome: École Française de Rome, 116.

10-JEAN-JACQUES HATT 1954. De l›Âge du Bronze à la fin du 1er Âge du Fer. Problèmes et perspectives de la protohistoire française, Bulletin de la Société préhistorique de France, t. 51, n° 8.

11-JOACHIM HERRMANN 1996. Les Celtes, les tribus germaniques, les Slaves et les Sarmates. In: Albert Ollé-Martin, Caroline Aymé-Martin, Avec la collaboration de Khadija Touré. History of Humanity, Vol III: From the Seventh Century BC to the Seventh Century AD. l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris et Routledge, Londres.

12-JOHN HAYWOOD 2014. « The Hallstatt Celts », dans The Celts : Bronze Age to New Age, Routledge.

13-Jules César: La Guerre des Gaules.

14-HERVE ABALAIN 1998. Histoire des langues celtiques, Jean-Paul Gisserot.

15-LAURENT OLIVIER 2018. Le Pays des Celtes: Mémoires de la Gaule, Le Seuil.

16-MARGARETA SIEPEN 2005 (dir.), « Einleitung », dans Margareta Siepen, Der hallstattzeitliche Arm-und Beinschmuck in Österreich, Franz Steiner Verlag.

17-MAURICE MEULEAU 2011. Les Celtes en Europe, Rennes, éditions Ouest-France, février.

18-PETER BOGUCKI 2014. Ancient Europe: The Discovery of Antiquity, dans Paul Bahn (dir.), The History of Archaeology: An Introduction, Routledge, 10 janvier 2014.

19-PHILIPPE JOUET 2007. L'Aurore celtique dans la mythologie, l'épopée et les traditions, Yoran embanner, Fouesnant.

20-RADOMIR PLEINER 1996. La civilisation de Hallstatt, les premiers Celtes et la Scandinavie. In: Albert Ollé-Martin, Caroline Aymé-Martin, Avec la collaboration de Khadija Touré. History of Humanity, Vol III: From the Seventh Century BC to the Seventh Century AD. l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris et Routledge, Londres.

21-REJANE ROURE et LIONEL PERNET 2011. Des rites et des hommes : les pratiques symboliques des Celtes, des Ibères et des Grecs en Provence, en Languedoc et en Catalogne, Paris, Errance, coll. « Archéologie de Montpellier agglomération» nº 2.

22-Roman Y. 1982. Chronologie du commerce italique et économie monétaire en Gaule du sud aux IIe et Ier siècles avant J.-C., Ktema: Civilisations de l'Orient, de la Grèce et de Rome antiques, 7.

23-RUTH MEGAW et JOHN MEGAW 2005. Art de la Celtique: des origines au Livre de Kells, Paris, Errance.

24-SARUNAS MILISAUSKAS 2011. European prehistory: a survey, New York, Springer, coll. «Interdisciplinary contributions to archaeology», 2e éd.

25-STEPHANE VERGER 2015. chap. II « L'âge du fer ancien: l'Europe moyenne avant les celtes historiques», dans Olivier Buchsenschultz (dir.), L'Europe celtique à l'âge du Fer (VIIIe – Ier siècles), Presses universitaires de France, coll. «Nouvelle Clio - L'histoire et ses problèmes ».

26-THIERRY LEJARS 2015. La culture matérielle: Chronologie et typologogie (de 1850 à 1991), dans Olivier Buchsenschutz (dir.) et alii., L'Europe celtique à l'âge du Fer (VIIIe – Ier siècles), Presses universitaires de France, coll. «Nouvelle Clio-L'histoire et ses problèmes».

هذا الكتاب

يهدف هذا المشروع إلى إعادة قراءة التاريخ الحضاري للغرب برؤية موضوعيّة تعتمد على التحليل والنقد، وذلك من خلال الغوص في أعماق هذه الحضارة والبحث عن أصولها وجذورها الأولى وامتدادها وتجلّياتها عبر القرون والعصور المختلفة وتسجيل مالها وما عليها؛ للاستفادة من الإيجابيّات والابتعاد عن الهفوات والسلبيّات سيما ونحن نعيش على أبواب تغييرات حضارية عالميّة تغيّر الخارطة الثقافية.

إننا لا نهدف من خلال هذا المشروع إلى إعادة كتابة تاريخ الغرب من جديد، إذ هذا أمر تكفّله الغرب بجدارة، بل إنّ هدفنا هو إعادة قراءة هذا التاريخ لإعادة رسم حاضرنا بالاعتماد على ثقافتنا وهويتنا الإسلاميّة .

نتمنّى لكم رحلة معرفيّة ممتعة...

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
http://www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com